جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم التاريخ



العلاقات بين الجزائر والمغرب

٩٢٣ - ١٠٦٩هـ / ١٥١٧ - ١٦٥٩م

رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ

من إعداد
عمار بن خروف

بإشراف
الاستاذة الدكتورة ليلى الصباغ

دمشق ١٤٠٣ / ١٩٨٣م



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ان موضوع العلاقات أيا كان نوعها موضوع هام في التاريخ لأنه يمثل العنصر الأكثر حيوية فيه ، وبالتالي هو الذي يكون عنصر الربط بين أحداث التاريخ التي قد تبدو متناقضة . وقد كان بحث العلاقات في التاريخ يقتصر غالبا ، وحتى الفترة القريبة على دراسة العلاقات السياسية أو الدبلوماسية بين الدول ، وهذا ناتج عن الاهتمام بالتاريخ السياسي ، دون أنواع التاريخ الأخرى ، ولكن خروج الدراسة التاريخية الى حيز مجموع حياة المجتمعات ، دفع الدراسة الى أن تأخذ مجراها في ميدان الاقتصاد ، وجميع نواحي الحياة الاجتماعية ، وعلى هذا فدراسة العلاقات بين الجزائر والمغرب لن تقتصر على العلاقات السياسية ، وانما ستشمل أيضا العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ولكن لابد لي أن أقر بحقيقة بأن الذي وجهني الى اختيار هذا الموضوع كان في بادئه المنحى السياسي ، وبالذات التساؤل الشهير الذي كان وما يزال يطرحه كثير من القراء والمؤرخين والباحثين ، وهو : لماذا لم تسيطر الدولة العثمانية على المغرب ، بعد امتداد نفوذها الى الجزائر المجاورة له ، ولاسيما أن توقفها في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (1520 - 1566) ؟ فذلك التساؤل دفعني الى اعداد بحث حاولت فيه أن أجيب عليه ، ومن ثم زاد اهتمامي أكثر بالعلاقات بين المغرب والجزائر التي انضوت تلقائيا تحت لواء الدولة العثمانية ، وكان حكامها العثمانيون هم الذين ينفذون بل ويرسمون أيضا سياسة الدولة العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط وتجاه المغرب بالذات ، ويعملون على تحقيق مراميها فيه ، ولا سيما في المرحلة التي كانت فيها الجزائر وثيقة الارتباط بالدولة العثمانية أي في عهدي البايلربايات ، والباشاوات ، ويمتد العهدان من عام 925 - 1069 هـ/1519 - 1659 م . ولذلك فقد حرصت على أن يكون موضوع رسالتي ، في العلاقات بين الجزائر والمغرب وبالذات في الفترة التي كانت فيها الجزائر تحت حكم البايلربايات ، والباشاوات لأنّ هذين العهدين ويقابلهما في المغرب عهد السعديين مرحلة هامة فعلا في تاريخ القطرين كما يتبين ذلك من خلال الفصلين الأولين من هذه الرسالة ، ومرحلة هامة أيضا في تاريخ العلاقات بينهما . لأنّ العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة ، لم تكن ذات طابع محلي ، وانما اكتست طابعا دوليا ، اذ دخلت فيها قوى عديدة منها الدولة العثمانية ، ودول أوروبية كثيرة منها الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، واسبانيا ، والبرتغال ، وفرنسا ، وانكلترا ، وكان لهذه القوى تأثيرها الكبير في تلك العلاقات ، وهذا التعقيد في

المتوقعات كان أحد الدوافع لاختيار هذا الموضوع لكشف خفاياها . وما زادني رغبة في الخوض في العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة بوأنني وجدت أن العلاقات بصفة عامة والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بصفة خاصة غير مدروسة ، أو لم يتطرق الى بعض جوانبها ، ولم تدرس بصورة واحدة على امتدادها . فكانت الغاية من هذا البحث هو استكشاف خفايا مجموع العلاقات بين البلدين في فترة هامة من تاريخهما ، وتوضيح تعقيداتها وغموضها ، وتأثيرها وتأثرها في بعضها .

وقد روعي بحث العلاقات بين البلدين على امتداد زمني طويل نسبيا لاعتبارين أولهما أن الامتداد الزمني الطويل يتيح امكانية ملاحظة تطور العلاقات بين البلدين في مختلف أطوارها أي في حالات الضعف والقوة، وحالات الاضطراب والاستقرار، وحالات الوحدة والتجزؤ ، ولملاحظة تطور العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الذي يكون عادة تطورا بطيئا . وثانيهما دراسة تلك العلاقات في مرحلة كان فيها المغرب تحت حكم السعديين متشبثا بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، بينما كانت فيها الجزائر أكثر ارتباطا بهذه الدولة، وبخططاتها تجاه المغرب وغيره .

اما اختيار سنة 1517م/ 923هـ بداية للمرحلة المراد بحثها ، وليس سنة 925هـ/ 1519م التي أصبحت فيها الجزائر تابعة رسميا للدولة العثمانية ، فلأنّ سنة 923هـ/ 1517م كانت السنة التي ابتدأت فيها العلاقات بين حكام الجزائر العثمانيين-أي قبل الانضواء الرسمي للجزائر تحت لواء الدولة العثمانية -وحكام المغرب ، وذلك بالعلاقة التي انشأها عروج بربروس، الذي نعتقد انه لم يكن مجرد مغامر يعمل لصالحه ، وانما عثماني يعمل لمد النفوذ العثماني، بدعم من الدولة العثمانية نفسها، مع السلطان الوطاسي المدعو محمد البرتغالي، وذلك لمّا تمكن من مد النفوذ العثماني في سنة 923هـ/ 1517م حتى تلمسان بأقصى الغرب الجزائري، وهي السنة التي استطاع فيها السلطان سليم العثماني (1512 - 1520) من جهته ان يمدّ نفوذه الى مصر، كما ان سنة 923هـ/ 1517م كانت السنة التي آل فيها الحكم في الجنوب المغربي الى السلطان السعدي احمد الاعرج الذي فتح باب العلاقات مع الاتراك العثمانيين .

اما سنة 1069هـ/ 1659م فتتوافق تماما مع السنة التي انهار فيها حكم السعديين في المغرب ، وحكم الباشاوات في الجزائر فيدخل البلدان بذلك في مرحلة جديدة ، فرأى فيها سنة مناسبة للتوقف عندها على امل التطرق الى الفترة التي تليها في بحث آخر.

وقد رجعت في بحثي هذا الى مجموعة كبيرة من الوثائق المطبوعة وغير المطبوعة المغربية والعثمانية والاوربية ، كما رجعت الى مجموعة كبيرة من المصادر المطبوعة والمخطوطة المغربية والاوربية وبعض المصادر العثمانية، شملت كتب التواريخ العام والتراجم، والرحلات، ووجهت

الاسبان والبرتغاليين الباقيين على شواطئ الجزائر والمغرب على تلك العلاقات . وقد ثبت من الدراسة ان العلاقات بين القوى الاربع الاسلامية المذكورة لم ترق الى التعاون الحقيقي المفترض ان يحصل بينهما . وتطرقت الى النتائج التي نجمت عن ذلك واهمها :-

- استمرار الاسبان والبرتغاليين في احتلالهم لمواقع عديدة في البلدين .
- الانهيار التدريجي للوطاسيين في المغرب والزيانيين في الجزائر .
- وعدم توحد البلدين تحت سلطة واحدة .

وتناول الفصل الرابع بالبحث العلاقات بين البلدين في الفترة 956 - 982هـ/ 1549 - 1574 م اي في الفترة التي تلت انفراد السعديين بالحكم في المغرب وانفراد الاتراك العثمانيين بالحكم في الجزائر . تلك العلاقات التي تميزت بالحرب تارة والسلم الحذر اخرى . فبحثت في الاسباب التي جعلت العلاقات بين البلدين تتطور في اتجاه النزاع بدل التعاون . واتضح ان اهمها رفض السعديين الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية ، ورغبتهم في مد نفوذهم الى الجزائر والمشرق لتحقيق اهدافهم الاقتصادية ، والسياسية . تلك الرغبة التي اصطدمت برغبة حكام الجزائر في مد نفوذهم الى المغرب تحقيقا ايضا لاهدافهم السياسية والاقتصادية والاستراتيجية .

وتطرقت بالتفصيل الى التدخلات العسكرية السعدية في الجزائر ، والتدخلات العثمانية في المغرب وما نشأ عنها من اصطدامات عنيفة بين الطرفين الاسلاميين المتجاورتين ، وما تخللها من مفاوضات بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة ، وبين المغرب من جهة اخرى . ومفاوضات سرية بين السعديين والاسبان كانت تستهدف التعاون للقضاء على الوجود العثماني في الجزائر الذي كان خطرا مشتركا على الطرفين . وما تلا تلك التدخلات من قيام سلام قلق بين البلدين .

اما الفصل الخامس فتناول بالبحث العلاقات في الفترة 982- 995هـ/ 1574 - 1587 م وفيه تطرقت الى استئناف التدخل العثماني المباشر في المغرب او التهديد القوي له بعد ان حسم العثمانيون صراعهم مع الاسبان على تونس لصالحهم واصبح طريق الامدادات من عاصمة الدولة العثمانية الى الجزائر اكثر امنا . فعرضت الى الحملة الجزائرية على المغرب سنة 984 هـ/ 1576 م - هي الثالثة - تلك الحملة التي نصبت عبد الملك السعدي سلطانا في فاس معترفا بالسيادة العثمانية . واشرت الى المخاوف الكبيرة التي أثارها امتداد النفوذ العثماني الى المغرب لدى الاسبان والبرتغاليين ، وتقرب عبد الملك من الاسبان تمهيدا لطمس السيادة العثمانية ، كما اشرت الى الحملة البرتغالية التي استهدفت احتلال المغرب لدفع خطر امتداد النفوذ العثماني اليه على بلادهم وعلى مستعمراتهم عبر الاطلسي . ثم تطرقت الى الحديث عن مواقف احمد المنصور خليفة عبد الملك ، الرافضة للاعتراف بالتبعية

للسلطان العثماني مراد الثالث وللتحالف معه ومناصرته ، تلك المواقف التي جعلت هذا الاخير يجرد حملة ضخمة لغزو المغرب . والتمت باسباب تراجع السلطان العثماني عن غزوه بعد ان سرّك الحملة، وبعث مدده الى الجزائر . وما تلا ذلك التراجع من اعتراف الدولة العثمانية بالامر الواقع في المغرب ، اي بالمغرب، دولة ذات سيادة ، والمنصور سلطانا مستقلا فيه) ومن قيام سلام حذر بين الدولتين الى ان توفي العلج علي بايلربك الجزائر وقائد الاسطول العثماني الذي كان متحمسا لغزو المغرب وذلك في سنة 995هـ/ 1587م، واستبدل نظام البايلربايات في الجزائر بنظام الباشاوات.

وتناول الفصل السادس والاخير من باب العلاقات السياسية بالبحث العلاقات في الفترة 995-1069 هـ/ 1587-1659 م، اي في الفترة التي تتوافق مع عهد الباشاوات في الجزائر . وقد عرضت في هذا الفصل اولا العلاقات بين حكام الجزائر والمنصور ثم علاقاتهم مع ابناء هذا الاخير وحفدته ، وعلاقاتهم مع القوى السياسية المختلفة التي قامت في المغرب من غير السعديين كاندلسيي سلا ، والمجاهد العياشي ، وغيلان في تطوان ، ومرابطي الدلاء والاشراف العلويين . وقد بدا من دراسة تلك العلاقات ان حكام الجزائر الباشاوات الذين كان عهدهم عهد اضطراب شبه دائم في مدينة الجزائر وخارجها ايضا قد مالوا اكثر فاكثر الى اقامة علاقات سلام وحسن جوار مع المغرب خاصة في عهد المنصور . اما بعد المنصور فان حكام الجزائر الذين لم تساعدهم ظروفهم للتدخل القوي المباشر فيه ، قد مالوا الى تشجيع التجزؤ والانقسام فيه ، حتى لا تتجه انظار حكامه الى الجزائر الغارقة في اضطراب يكاد يكون مزمنا ، وذلك باقامتهم لعلاقات وطيدة مع المنشقين عن السعديين كالعياشي ، واندلسيي سلا والدلائيين ، وتعاونهم معهم . ولكن نوعا من السلام القلق ظل مرعيا حتى العقد الاخير من الفترة مدار البحث الذي شهد تجدد النزاع بين اتراك الجزائر والاشراف العلويين الطامحين الى الملك.

اما بالنسبة لباب العلاقات الاقتصادية فلم يجر فيه السير بنفس النهج التفصيلي الذي اتبع في باب العلاقات السياسية ، لان البنية الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية، كما اتضح من استكشافها بطيئة التحول ، وعلى هذا الاساس فقد قسم باب العلاقات الاقتصادية الى فصلين فقط ، تناول الفصل الاول منهما بالبحث البنية الاقتصادية في البلدين والعوامل المؤثرة فيها . وقد تبين من الفصل ان البنية الاقتصادية في البلدين متشابهة الى حد كبير خضوعها الى عوامل داخلية وخارجية ، قديمة وجديدة ، واحدة او متشابهة ثم تناولها التفصيل في هذا الفصل . ذلك التشابه الذي جعل التبادل الاقتصادي بين البلدين ضعيفا نسبيا .

اما الفصل الثاني من باب العلاقات الاقتصادية فتناول بالعرض مظاهر تلك العلاقات في الحقول الاقتصادية المتنوعة ، الزراعية والصناعية والتجارية . وقد تبين من

الفصل وجود صلات بين العاملين في تلك الحقول في البلدين،تلمسر أثرها في التطابق او التشابه الكبير في الطرق، والاساليب المتبعة في البلدين،في حقول الزراعة ، وتربية الماشية، والصنائع والحرف . اما العلاقات في المجال التجاري ، التي يبدو انها لم تاخذ صبغة سياسية ولم تخضع لاتفاقيات رسمية مثلما هو الشان في الحقول الاقتصادية الاخرى، فتم تناولها ضمن الفترات الطليعة: طرق المواصلات بين البلدين ، والقوافل التجارية المتبادلة ، والمواد التجارية المتبادلة ، ووسائل التبادل ، واخيرا مراكز التبادل التجاري.

واما الباب الثالث والاخير من الرسالة ، المخصص للعلاقات الاجتماعية والثقافية ، فقد اتبع فيه نفس المنهج الذي اتبع في الباب السابق له . فضم فصلين ، تناولت في اولهما العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافية ، القديمة والجديدة . فأشرت ضمن العوامل القديمة الى الروابط العديدة التي كانت تربط بين المجتمعين المغربي والجزائري ربطا قويا في المجالين الاجتماعي والثقافي ومنها الروابط الجغرافية (الجوار) ، والروابط التاريخية ، والروابط البشرية ، والدينية ، واللغوية ، والثقافية . وضمن العوامل القديمة الجديدة ، ذكرت حركة التنقل والهجرة من احد البلدين الى البلد الآخر للافراد والجماعات ، لمختلف الاغراض، تلك الحركة التي كانت قائمة قبل المرحلة مدار البحث ، والتي لم تعرف الهدوء في هذه الاخيرة . وذكرت ايضا استمرار تدفق المهاجرين الاندلسيين الى البلدين حتى مطلع القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي .

اما ضمن العوامل الجديدة ، فاشرت الى الغزو الاسباني للجزائر والغزو البرتغالي الاسباني للمغرب وما نجم عنه من آثار سلبية في مجموعها ، ثم الى قيام الحكم العثماني في الجزائر ، والحكم السعدي في المغرب ، واثرهما وتاثيرهما في العلاقات الاجتماعية والثقافية .

وتناولت في الفصل الثاني مظاهر العلاقات الاجتماعية والثقافية ، فاشرت بالخصوص الى حركة الهجرة والتنقل التي لم تكن فقط عاملا من العوامل الايجابية التاثير في العلاقات ، انما ايضا مظهر من مظاهر تلك العلاقات . والى ما نشا عن حركة الهجرة والتنقل بين البلدين من وجود جالية جزائرية في المغرب ، وجالية مغربية في الجزائر ، وتمسك بعض الجزائريين في المغرب وبعض المغاربة في الجزائر للاقطاعات . وقيام المصاهرات بين ...وء لاء رأيلست .

وتحدثت ايضا عما نشا عن هجرة المثقفين وتنقلهم بين البلدين للاخذ او العطاء او للغرضين معا ، اولغير ذلك من الاغراض من اعمار للمراكز الثقافية في البلدين بالعلماء ، والطلبة المغاربة والجزائريين ، ومناقشات فكرية ودينية بين علماء البلدين ، ومراسلات بين العلماء ، وبين العلماء والطلبة ، وبين المتصوفة ومريديهم .

وعرضت في الاخير الى المراكز التي كان يجرى فيها التبادل الثقافي ، وهي التي كانت ايضا مراكـز للتبـادل في الحقول الاخرى . فحددت اهمها ، وابـرز علمائها . فركزت في المغرب على المراكـز التي استقطبت الكثير من علماء الجزائـر ، واهمهـا : فاس ، ومراكش ، وتطوان ، وسجلماسة ، وتارودانت ، وفي الجزائر ركزت على المراكز الثقافية المقصودة اكثر من غيرها من قبل علماء المغرب وهي : تلمسان ، والجزائـر وقسنطينة ، وبجاية . واتبعت بتراجم مختصـرة لابرز العلماء / بعدما تم لذلك عامة الناس وخاصتهما في تلك المراكـز . ولم اغفل الاشارة الى مركز هام للمبادلات الثقافية بين البلدين الا وهو البقاع المقدسة حيث كان علمـاء البلديـن والمنتما يلتقون فيه للأخذ بعضهم عن بعـض ، وواضح ان هذا المركز يقع خارج البلدين .

اما الخـاتمـة فذكرت فيها أهم النتائج والاستنتاجات التي توصل اليها البحـث .

وبعـد ، ارجو ان يكون بحثـي المتواضـع قد اسهم في توضيح العلاقات المتنوعة بين البلدين في فترة هامة من تاريخ علاقاتهما .

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم ان اتقدم مخلصا بفائق تقديري وجزيل شكري للاستاذة الفاضلة الدكتورة ليلى الصباغ على الرعاية العلمية والتوجيه السديد طوال الفترة التي قضيتها تحت اشرافها . ذلك التوجيـه الذى كان له الفضل الكبير في اتمام هذا البحث واظهاره في الصورة التي هو عليها . والحق ان توجيهاتهـا وتجاوبها مع الباحث كان اكبر بكثير مما تم انجازه . ولذلك فان الباحث هو الذى يتحمل مسؤولية كـل النقائص والاخطـاء .

كما اتقدم بخالص شكري الى الاستاذ الفاضل الدكتور محمد خير فارس الذى فتح لي باب مكتبته ، وزودني منها بالمصادر والمراجع التي تتعلق بصميم الموضوع ، وكان دوما على استعداد لمساعدتي ، ولم يبخل عليّ ابدا بالتوجيـه والارشـاد .

وخالص شكري ايضا الى الاستاذ الفاضل الدكتور احمد طربين لتفضله بمناقشة الرسالة ، وقبل ذلك لما افدت من توجيهاته وأنا في مرحلة الدبلوم .

واود أن أشكر كذلك قسم التاريخ ، وكلية الآداب ، وجامعة دمشق ادارة واساتذة لما وجدته لدى الجميع من تعـاون وتجاوب . ولا انسى ان اشكر ايضا كل من تعاون معي وسهل مهمة بحثي وانجازه من موظفي المكتبات والوثائق في سوريا والجزائر . وشؤون الطلاب والخدمات الطلابية كان لخص بالشكر الاخ عبد الكريم مقراني الطالب الجزائـري في سورية لما ابداه من تعاون وما قدمه لي من مسـاعدة .

((وبالله التوفيـــق))

التعريف بأهم المصادر المعتمدة في البحث

اعتمد البحث نا سلف القول على وثائق ومصادر ومراجع ومقالات كثيرة عربية واوربية وعثمانيــة
نها يلي استعراض لأهمهــا :

ا ــ الوثائــــق :

آ ــ الوثائق العثمانيــة :

اعتمدت على الوثائق المتداولة والمصورة الموجودة في الجزائر ، وخاصة في مركز الدراسات التاريخيــة الذى قام بتصوير قسم هام من الوثائق العثمانية المتعلقة بتاريخ الجزائر [1] وهو الآن بصدد تعريبها تسهيلا لمهمة الباحثيــن الذيــن لا يحسنون اللغة العثمانية . وقد تم فعلا تعريب قسم هام منها يتعلــق بعهد البايلربايات وهو القسم الذى اخذت منه كثيرا . وسعيت ان تكون استفادتي من الوثائق الرسمية العثمانية المتداولة كبيرة فقمت لهذا الغرض بزيارة الى استانبول لكنني لم أوفق في الحصول على الرخصة التي تسمح للباحث بالاطلاع على الارشيف ، ولاحظت ان الحصول عليها ليس أمرا سهلا ، ولا تعطى لطالبها بكل تأكيــــد . فحرصت ان تكون استفادتي من المطبوع من الوثائق العثمانية كبيرة قدر الامكان ، ولهذا اطلعت على عديد من الوثائق المنشورة ضمن كتب ومجلات من اهمها : مجموعة منشآت السلاطين لفريدون بك في مجلدين مطبوعيــن تاريخ ١٢٦٤ ، يحتويان على اكثر من الف وثيقة بينها عدد من الوثائق باللغتين العربيــة والعثمانية تتعلق بالعلاقات بين الجزائر وتركيــا ، وبيــن المغرب والدولة العثمانيــة ، نصوص ووثائق كثيرة اوردها عزيز سامح في ثنايا كتابه «الاتراك العثمانيون في شمال افريقيــا» الذى عربه عبد السلام ادهــم . ونصوص الوثائق العثمانية التي نشرتها المجلة التاريخية المغربية التي تصدر في تونس وغيرها من المجــلات ..

ب ــ الوثائق المغربيــة :

وكانت استفادتي بصفة خاصة من المطبوع منها في الكتب والمجلات المتخصصة . اذ تعذر علي الذهاب الى المغرب للاطلاع على المخطوط منها . ومن اهم الكتب والمجلات التي رجعــت اليها واستفدت من الوثائق الكثيرة المنشورة فيها ، اذكر على سبيل المثال لا الحصــر :

ــ الرسائل السعدية التي نشرها عبد الله كنون في مجموع يتضمن نحو (٦٢) رســالة ، استفدت منها كثيــــرا .

ــ كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لمؤلفه عبد العزيز الفشتالي وزير السلطان السعدى احمد المنصور ، الذى يتضمن القسم المطبوع منه نحو خمس عشرة وثيقة ، أفدت منها منهــا كثيرا وخاصة في العلاقات الثقافية والسياسية .

[1] انظر حول الوثائق الجزائرية سعيدوني ، نظرة حول الوثائق العثمانية بالجزائر ومكانتهــا في تاريخ الجزائر الحديث (في) مجلة التاريخ / عدد ٤ ، الجزائر ١٩٧٧ .

- وكتاب نزهة الحادي لمحمد الصغير الوفراني ، وروضة الآس العاطرة الأنفاس لأحمد المقري ، والاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى لأبي العباس احمد بن خالد الناصري السلاوي ، وغيرها من الكتب .

وأذكر من المجلات التي رجعت اليها ، وافدت من الوثائق التي نشرتها :

- مجلة الوثائق التي تصدر عن مديرية الوثائق المغربية منذ سنة ١٩٧٦ .

- ومجلة تطوان ، ومجلة هسبريس ، وهسبريس تامودا . وأرشيف ماروكان (Archives Marocainnes).

ج- الوثائق الأوربية :

اما اهم الوثائق الأوربية التي رجعت اليها فهي المجموعة الضخمة القيمة التي جمعتها من مختلف الخزائن ودور المحفوظات الاوربية وحققها ونشرها الكونت هنرى دوكاستري في سلسلتين ، الاولى تتعلق بالدولة السعدية وتغطي الفترة (١٤٨٦-١٦٦٠) وهي التي افدت منها كثيرا ، والثانية تتعلق بالدولة الفيلالية (العلوية) وتغطي الفترة (١٦٦١-١٨٤٥) وكلتاهما تحت عنوان : المصادر المغفلة لتاريخ المغرب (Sources Inédites de l'Histoire du Maroc Premiere Serie , Dynastie Sa'dienne.)

وقد نشر دوكاستري المجلدات الاولى في سنة ١٩٠٥ وبلغ عدد المجلدات التي نشرها من الدولة السعدية حتى تاريخ وفاته سنة ١٩٢٧ ثلاثة عشر مجلدا من السلسلة الاولى . وتابع بعده بيير دوسونيفال ، وفيليب دوكوسي بريسان ، وشانتال دولافيرون نشر الوثائق المتعلقة بالدولتين السعدية والفيلالية فبلغ الآن مجموع المجلدات المتعلقة بتاريخ الدولة السعدية وحدها واحدا وعشرين مجلدا . الرجوع اليها والافادة منها كثيرا خاصة في العلاقات السياسية كما رجعت الى مجموعات اخرى من الوثائق المنشورة خاصة تلك التي نشرها ايلي دولا بريموداي بالجزائر سنة ١٨٧٥ في الكتاب المسمى : (Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique "1506 - 1574".)

ومجموعة الوثائق الدبلوماسية التي نشرها شاريير (Charriere : Négociations de la France dans le Levant, 4 Volumes .) بباريس سنة ١٨٥٠ وعديدا من الوثائق التي نشرتها المجلات الأوربية كمجلة الاندلس (Al- Andalus) ، ومجلة الدراسات العربية والعبرية (M.E.A.H.) ومجلة الغرب الاسلامي والمتوسط (R.O.M.M.) وغيرها .

٢- المصادر والمراجع :

آ- العربية :

اما المصادر العربية والمصرية التي رجعت اليها واستفدت منها كثيرا فأهمها في :

* تاريخ الدول والاسرات :

- كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي المتقدم ذكره • وهذا الكتاب يؤرخ الدولة السعدية حتى اواخر عهد المنصور • ويمكن ان يعتبر من كتب التاريخ الرسمي للدولة السعدية بحكم علاقة مؤلفه بتلك الدولة وخاصة بالسلطان احمد المنصور الذي اتخذه من كتابه المقربين •

- كتاب تاريخ الدولة السعدية التاكمدارتيه لمؤلف مجهول الذي سلك فيه صاحبه سلوكا مناقضا للفشتالي • حيث كان حريصا على عدم السكوت عن مساوئ السعديين ، بل وعلى ابرازها مما جعلني آخذ منه كما آخذ من كتاب الفشتالي بحذر •

- كتاب نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الوفراني المراكشي (المتوفى سنة ١١٤٠هـ/ ١٧٢٨م) الذي يعد اكمل كتاب عن الدولة السعدية وأوفاها وأكثرها اعتمادا في تناول تاريخ الدولة السعدية والامارات التي تأسست في المغرب في اواخر السعديين • ولذلك فقد اعتمدت عليه كثيرا •

- كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول • وهذا الكتاب الذي يؤرخ لبداية الحكم العثماني في الجزائر من الكتب التي تم تعريبها من اللغة العثمانية الى العربية • وقد اخذت منه بحذر ايضا لميل مؤلفه الواضح الى كيل المديح والثناء لخير الدين وعروج بدون اعتدال •

* التراجم : اما اهم المصادر التي اعتمدت عليها من صنف التراجم فأهمها :

- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لمحمد بن علي الشفشاوني المعروف بابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م وكانت استفادتي منه جمة ولا سيما في العلاقات الثقافية • اذ ترجم لمجموعة من علماء الجزائر الذين هاجروا الى المغرب وبعض الذين لم يهاجروا اليه •

- درة الحجال في اسماء الرجال • وجذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس • وكلاهما لأبي العباس احمد بن محمد المكناسي المعروف بابن القاضي (المتوفى ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م) وفي هذين الكتابين وجدت مادة هامة لبحث العلاقات الثقافية •

- البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان لمحمد بن محمد بن احمد المعروف بابن مريم التلمساني (كان حيا في سنة ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م) • وقد افادني كثيرا في بحث العلاقات الثقافية لغنى تراجمه •

- روضة الآس ونفح الطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني الذي تنقل بين الجزائر والمغرب والمشرق وافدت من هذين الكتابين خاصة في بحث العلاقات الثقافية •

- كتاب : منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية لعبد الكريم الفكون القسنطيني (المتوفى ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٣م) • وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا • ومنه اخذت مادة هامة خاصة بحضر تراجم علماء المغرب في قسنطينة ترجمة محمد بن مزيان التواتي •

ـ نيل الابتهاج لاحمد بابا التنبكتي، وهو نما تدل نسبته من علماء السودان الغربي • وقد اخذ عن التنبكتي المذكور الكثيرون من علماء المغرب والمهتة عندما جيء به اسيرا الى مراكش في مطلع القرن الحادي عشر الهجري /او السادس عشر الميلادي، الذى غزو السعديين للمغرب • وفي كتابه المذكور تراجم كثيرة هامة لعلماء جزائريين ومغاربة •

ـ خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر لابي عبد الله محمد المحبي المتوفى سنة ١١١١هـ / ١٦٩٩م الذى ذكر هو الاخر عدة تراجم لعلماء الجزائر والمغرب وهو في اربع مجلدات •

* الرحـــــلات :

ومن اهم كتب الرحلات التي رجعت اليها الذكـــر :

ـ النفحة المسكية في السفارة التركية لابي الحسن علي التمقروتي الذى زار مدينة الجزائر وغيرها من المدن الجزائرية في سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م وهو في طريقه الى استانبول • ودون مشاهداته وانطباعاته عنها في كتابه المذكور الذى اخذت منه كثيرا من المعلومات التي تتعلق ببعض العلاقات السياسية وكذلك ببعض العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

ـ ماء الموائد او الرحلة العياشية لصاحبها ابي سالم العياشي المتوفى سنة ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م وهي مطبوعة طبعة حجرية في جزئين بفاس سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م • وقد وجدت فيها مادة غزيرة فيما يخص مختلف جوانب العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

اما المراجع التي اعتمدت عليها كثيرا فاهمهـا :

ـ كتاب الاستقصا للسلاوى ، والترجمان المعرب لابي القاسم الزياني ، وكتاب "الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا" لعزيز سامح وتاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي ، وحرب الثلاثمئة سنة لاحمد توفيق المدني ، وتاريخ المغرب في عهد السعديين لعبد الكريم كريم وتعريف الخلف للحفناوى ، وتاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله •

ب ـ المصادر والمراجع الاوربيـة :

وقد اعتمدت ايضا على عدد من المصادر الاوربية واخص بالذكر منها :

١ ـ في صنف التاريخ •

ـ كتاب "البرتغاليون وافريقيا الشمالية" للويز دو سوزا البرتغالي

LUIZ DE SOUSA : Les Portugais et l'Afrique du Nord(trad,R,RICARD)

الذى قام روبير ريكارد بترجمته الى الفرنسية من البرتغالية ونشره في سنة ١٩٤٠ في لشبونة ، وقد اخذت منه مادة هامة في بحث العلاقات السياسية •

ـ وكتاب الطبوغرافية والتاريخ العام لمدينة الجزائر لمؤلفه فراى دييقو دهايدو الاسباني المترجم الى الفرنسية من قبل مونيرو وبيربروجير ، ذلك الكتاب الذى اخذت منه كثيرا في بحث العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

FRAY DIÈGO DE HAÊDO : TOPOGRAPHIE et Histoire Génrale d'ALGER, traduit de l'Espagnol par MM. le D^r MONNEREAU et A. BERBRUGGER, in Revue Africaine.

ـ وكتاب تاريخ ملوك الجزائر لنفس المؤلف السابق الذى قام بترجمته الى الفرنسية الموئف هنرى د وقرامون (HENRI de GRAMMONT) في جزء واحد . وهذا الكتاب تناول فيه والفه تاريخ الجزائر من خلال تراجم حكامه في القرن السادس عشر الميلادى وهو على غاية من الاهمية للباحث في تاريخ الجزائر في الفترة المذكورة وعلاقاتها مع الدول المجاورة لها ومنها المغرب لما يتضمنه من معلومات قيمة ولا سيما عن الفترة التي كان فيها اسيرا في الجزائر من ١٥٧٨ الى ١٥٨١ والفترة التي سبقتها . وقد اخذت كثيرا من هذا الكتاب في بحث العلاقات السياسية ولا سيما في الفصل الاول .

٢ـ وفي صنف الرحلات أشير الى التي استفدت منها كثيرا وهي :

ـ كتاب وصف افريقيا (Description de l'Afrique) الذى الفه بالايطالية الحسن الوزان الاندلسي الأصل المغربي الدار المعروف لدى الغربيين بليون الافريقي (LEON l'AFRICAIN) بعد ان امتحن بالاسر والتنصير ونقل الى عدة لغات ومنها اللغة العربية .

ومن الترجمة الفرنسية للكتاب المذكور اخذت مادة هامة تتعلق بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية في كل من الجزائر والمغرب .

ـ وكتاب افريقيا لمارمول كارفاخال الاسباني الذى الف كتابه بشمال افريقيا خلال الثلث الثاني من القرن السادس عشر الميلادى . وقد نقل مارمول الكثير من المعلومات الجغرافية حرفيا عن سلفه واضاف اليها ما استجد في عهده من الاحداث السياسية فجاء كتابه تكملة لكتاب الوزان السالف الذكر . وترجمه الى الفرنسية في ثلاثة مجلدات ضخمة (N. P. D'Ablancourt) وكانت استفادتي من تلك الاضافات غير قليلة .

٣ـ وفي صنف المذكرات : ترجمت الى كتاب تاريخ الاشراف (Hist. des Chérifs) لدييقو دو طوريس (DIEGO de TORRÈS) الذى كان مقيما في المغرب ويشتغل في افتداء الاسرى خلال الثلث الثاني من القرن ١٦ م / ١٠ هـ . وكتابه المذكور يتضمن معلومات في غاية الاهمية عن الحياة السياسية في المغرب والعلاقات بينه وبين الجزائر والدولة العثمانية . ومن ثم فقد كان لا غنى للباحث عن الرجوع اليه . وكانت افادتي منه كثيرة . ورجعت ايضا الى مذكرات الأب دان (Hist. de la Barbarie et ses Corsaires) المنشورة في باريس ١٦٣٧ . ومذكرات الفارس دارفيو (Mémoire D'Arvioux) الذى زار الجزائر في آخر الفترة مدار البحث ودون ملاحظاته عن الوضع الذى آلت اليه الجزائر في اواخر عهد الباشاوات وبداية عهد الاغوات .

اما المراجع الاوربية التي استفدت منها كثيرا فأهمها :

ـ كتاب تاريخ الجزائر تحت الحكم العثماني لهنري د وقرامون (HENRI DE GRAMMONT : Histoire d'Alger sous la Domination Turque.)

والجزء الثالث من كتاب تاريخ افريقيا الشمالية لارنست ميرسي (ERNEST MERCIER : Histoire de l'Afrique Septentrionale.)

وكتاب المتوسط وعالمه لبروديل :

F. BRAUDEL : La Méditerranée et le monde Méditerranéen à l'époque de Philippe 2, (2 volumes).

وكتاب ارغست كور المسمى :

A. COUR : Les Etablissements des Dynasties des Chérifs au Maroc et leurs Rivalitéos avec les Turcs de la Régence d'Alger, (1509 - 1830).

J. HAMMER : Histoire de l'Empire Ottoman. (trad. J.J. HELLERT).

وانتفعت كثيرا من مقالات ب. بواير . وشانتال دولا فيرون . وروبير ريكارد المنشورة في المجلات المبينة في الفهرس .

تنبيهات

للاحالة على الكتب الاجنبية كتبت مايتعلق بتعريف الكتاب بها باللغة الاجنبية فاذا ما اشير الى نفس الكتاب ذكر معربا واقتصر على اسم المؤلف واسم الكتاب باختصار او الاحالة اليه بالمرجع او المصدر السابق .

وكذلك جرى الامر بالنسبة للمجلات الاجنبية ، واختصرت مجموع الوثائق الاوربية المنشورة تحت عنوان :

SOURCES INÉDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC. (S.I.H.M.)

بالرموز الاولى م م ت م وتعني المصادر المخفية لتاريخ المغرب . ولتمييز اين يتعلق موضوع الوثائق بفرنسا او اسبانيا او انكلترا وهولندة او البرتغال الى جانب الرموز المذكورة من ذكر الجزء ايضا .

الباب الاول

العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب

من 923 هـ/ 1517م ـ الى 1069 هـ/ 1659م .

تمهيد : لمحة عن العلاقات بين القطرين قبل سنة 923 هـ/ 1517م .

الفصل الاول : الحياة السياسية في الجزائر .

الفصل الثاني : الحياة السياسية في المغرب .

الفصل الثالث : العلاقات بين القوى السياسية المتشعبة في القطرين

923 ـ 956 هـ/ 1517 ـ 1549م .

الفصل الرابع : صراع الاحداث السياسية بين الاستقلال والتوحيد في الفترة

956 ـ 982 هـ/ 1549 ـ 1574م .

الفصل الخامس : السلام بين تبعية المغرب للعثمانيين وترسيخ سيادته في الفترة

982 ـ 995 هـ/ 1574 ـ 1587م .

الفصل السادس : الصراع على السلطة في القطرين والسلام القلق بينهما

995 ـ 1069 هـ/ 1587 ـ 1659م .

لمحة عن العلاقات بين القطرين قبل سنة 923 هـ/ 1517 م

ان من يتأمل في تاريخ الجزائر والمغرب بين المرحلة موضوع البحث يجد انه كانت بينهما
عبر العصور صلات وعلاقات قوية في مختلف المجالات وجوانب الحياة ، ولا سيما في المجال السياسي
وهذا امر بديهي ، فالجزائر والمغرب قطران متجاوران لا حواجز طبيعية تفصل بينهما او تعيق
الاتصال ، ولا تباين في البنية البشرية والاجتماعية والفكرية ، يقف سدا في وجه التواصل والانسجام
والاندماج ، بل كثيرا ما خضع القطران لحكم دولة واحدة ، سواء في العهد الاسلامي او قبله ، وآخر
الدول التي حكمت القطرين فترة طويلة نسبيا بين بداية العصور الحديثة هي دولة الموحدين
(524-668هـ / 1130-1269م / المغربية الاصل .

ومن المعروف انه لما دب الضعف الى هذه الدولة في النصف الاول من القرن السابع الهجري
الثالث عشر الميلادي نشأت على انقاضها ثلاث دويلات هي :

1- الدولة الحفصية[1] (625 هـ / 1228م في تونس والشرق الجزائري ، ومركزها مدينة
تونس .

2- الدولة العبد الوادية او الزيانية[2] (633هـ / 1235م) في وسط الجزائر وغربها
ومركزها مدينة تلمسان .

3- الدولة المرينية[3] (646هـ / 1248م في المغرب الاقصى ومركزها مدينة فاس .

وكانت كل دولة من هذه الدويلات تحاول بسط نفوذها على كامل المغرب الكبير ، وبالتالي
وراثة الدولة الموحدية المنقرضة . وقد تمكنت الدولتان الحفصية والمرينية من توحيد المغرب وذلك
لبعض الوقت فقط ، اما الدولة الزيانية التي كانت تتوسطهما من حيث الموقع فقد بدت الدولة الاضعف
وحصارها بين فكي كماشة ، ومن ثم فموقفها كان دفاعيا اكثر منه هجوميا ، وكانت تحاول بصفة خاصة
الحفاظ على وجودها من الزوال ، اذ كان الحفصيون من الشرق ، والمرينيون من الغرب لا ينفكون عن
التدخل في شؤونها والتوسع على حسابها .

واذا كان الحفصيون لم يسعوا جاهدين في اثناء محاولاتهم فرض هيمنتهم على المغرب الكبير
الى القضاء على الاسرتين الزيانية والمرينية ، وانما اكتفوا بدخول سلاطينهما تحت سيادتهم والاعتراف
بالتبعية لهم ، فان المرينيين قد عملوا بالفعل ، ولا سيما حينما كانوا في اوج قوتهم ، في عهد
السلطانين ابي الحسن (731-752هـ / 1331-1351م) وابنه ابي عنان (749-760هـ
1348-1358م) على ضم المملكتين الزيانية والحفصية وعلى القضاء على حكم الاسرتين الحاكمتين
فيهما . بل ان تشبث المرينيين بضم مملكة تلمسان وازالة حكم الاسرة الزيانية فيها ، اشد من
تشبثهم بالقضاء على الاسرة الحفصية في تونس ، وذلك لعوامل ودوافع عديدة منها ...

---

1) نسبة الى ابي حفص عمر رئيس قبيلة هنتاته المصمودية ، كان احفاده ولاة على تونس من قبل
الموحدين ثم استقلوا بالحكم فيها في عهد ابي زكريا يحيى (625هـ-649هـ / 1228-1250م)
2) نسبة الى قبيلة بني عبد الوادي احدى بطون زناتة . اما تسميتها بالزيانية فنسبة الى زيان بن ثابت
ومؤسس الدولة الزيانية الحقيقي هو يغمراسن بن زيان (633-681هـ / 1235-1282م)
3) المرينيون فخذ من بطون القبيلة البربرية زناتة ومؤسس دولتهم الحقيقي هو ابو يوسف يعقوب
بن عبد الحق 656-685 هـ / 1258-1286م .
انظر عن قيام الدول الثلاث ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر ، الجزء السابع بيروت
1971 .

١ـ قرب تلمسان من فاس أو بمعنى آخر تواصل الحدود بين المغرب الاقصى والمغرب الاوسط .

٢ـ الخصومات والمنافسة القديمة التي كانت بين المرينيين وبين الزيانيين حول المراعي ، وحول زعامة زناتة . وهي القبيلة التي ينتمون اليها .

٣ـ الخصومات الجديدة بين الاسرتين ، الناتجة من تحالف بني زيان مع اواخر الموحدين ضد المرينيين الذين كانوا يعملون آنذاك للقضاء نهائيا على الدولة الموحدية ، ثم تحالفهم ايضا مع خصومهم الآخرين كأمراء غرناطة من بني الاحمر ، وتدخلهم في المغرب ، وايوائهم للثائرين على المرينيين سواء كانوا من الاسرة المرينية او غيرها ، وتآمرهم معهم ضدهم .

٤ـ ضعف الدولة الزيانية النسبي ، وتهديد الحفصيين الدائم لها من الشرق ، مما اطمعهم بها ودفعهما الى التسابق مع الحفصيين على التهامها .

٥ـ ان القضاء على سلطة الزيانيين ، وضم مملكتهم اليهم ، خطوة استراتيجية هامة ، واساسية في طريق تحقيق ما كانوا يطمحون اليه وهو اعادة توحيد المغرب الاسلامي الكبير تحت سلطتهم ، تامين مملكتهم من الاخطار السالفة الذكر ، التي كان يهددهم بها وجود الزيانيين الى جوارهم .

هذا بالاضافة الى انه سيضع تحت ايديهم المراكز التجارية الهامة في مملكة الزيانيين ويوسع حدودهم حتى تلامس الدولة الحفصية في اقصى الشرق ، فتخضع واقرب منالا منهم فلما يجب الا ننسى ان ضمهم لمملكة الزيانيين يدخل في قبضتهم مدينة تلمسان الهامة ، وضريح الولي الصالح ، القطب الصوفي الشهير سيدي بومدين[1] الذي كان مزارة كبرى ، وهو امر لا يمكن التغاضي عن اهميته ، في وقت اخذ فيه تيار التصوف ينتشر بقوة ليصبح في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ظاهرة العصر .

وفي الواقع لقد تمكن المرينيون بعد موت يغمراسن المؤسس الحقيقي للدولة العبد الوادية (الزيانية) من محاصرة ابنائه حصارا شديدا وطويلا في تلمسان دام ثمان سنوات ابتداء من (٦٩٨هـ / ١٢٩٩م) ، ومن التغلب على احفاده بعد ذلك ، واحتلال تلمسان مرارا خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، واخضاع مملكتهم لسلطتهم المباشرة في فترات عديدة متفاوتة في قصرها ، كما تمكنوا في عهد السلطانين ابي الحسن وابنه ابي عنان ، من اخضاع الشرق الجزائري ايضا ، ومن القضاء على الحكم الحفصي فيه ، وفي تونس ، وبالتالي من توحيد المغرب الكبير تحت سلطتهم . الا ان ذلك كان لفترة قصيرة ، لأن تذبذب القبائل في ولائها لهما ، وعدم صدقها في الخضوع اليهما ، سمح للحفصيين ان يستردوا بسرعة ملكهم في تونس والشرق الجزائري . كما كان التنافس القائم باستمرار على السلطة بين الأمراء المرينيين عقب وفاة السلطان الحاكم او مقتله او عزله او حتى انهزامه ، يتيح الفرصة لفلول الزيانيين كي يستجمعوا قواهم ويستعيدوا ملكهم او يبعثوا دولتهم من جديد ، بل لأن يتدخلوا بدورهم في المغرب الاقصى ، لتاييد هذا الثائر او ذاك ، او للغارة على اطرافه . كما حدث مثلا في عهد ابي حمو موسى الثاني (٧٦٠ـ٧٩١هـ / ١٣٥٩ ـ ١٣٨٩م) ، وابي مالك عبد الواحد (٨١٤ـ٨٢٤هـ / ١٤١٢ـ١٤٢١م) .

---

(١) هو ابو مدين شعيب بن الحسن الغوث ، ولد في اشبيلية حوالي ١١٢٦م وتوفي بقرية العباد قرب تلمسان سنة ١١٩٨م . درس في المغرب ثم حج ودرس على اجلاء العلماء في المشرق ، وتعرف في عرفه بالشيخ عبد القادر الجيلاني ، وقرأ عليه كثيرا والبسه خرقة الصوفية ، واودعه كثيرا من اسراره . استقر ببجاية بعد رحلته المذكورة وفيها ذاع صيته وكثر اتباعه . كان منهم يعقوب المنصور على دعوته فاستدعاه ، وما وصل الى قرية العباد المذكورة اتاه المرض وتوفي فيها . انظر : ابن مريم : البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان (تحقيق ابن شنب (محمد) الجزائر ١٩٠٨ صفحة ١٠٨ـ١١٤) .

وامام فشل المرينيين في القضاء بصفة نهائية على الدولة الزيانية ، واخفاقهم في الاحتفاظ
[..] دائمة بسيادتهم على تونس والشرق الجزائري لضعف اغلب سلاطينهم الذين تولوا بعد ابي عنان
[..]تبداد وزرائهم ، وتلاعبهم بهم ، فقد بدوا انهم صرفوا انظارهم نهائيا عن الشرق الجزائري
[..] منذ اواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وقنعوا في اواخر هذا القرن
[..] يكون على عرش تلمسان سلطان زياني ، شريطة ان يكون تابعا لهم . بل انه لما آل الامر الى
[..]الحق ، آخر المرينيين ثم الى الوطاسيين ، واصبح المغرب نفسه حينئذ فريسة لتدخل الحفصيين
و البرتغاليين والاسبان ، وعاجزا عن الدفاع عن نفسه ، توقف سلاطين فاس عن التدخل في
[تلم]سان ، ولم يعد لهم نفوذ او سلطة على سلاطينها وعلى مملكتها ، فساد نوع من حسن الجوار .
[..] ان الوطاسيين ورثاء المرينيين لم يتوقفوا عن ايواء اللاجئين اليهم من الامراء الزيانيين المناوئين
[..] سلطان الزياني ، ليكونوا ورقة رابحة بايديهم يضغطون بها على هذا الاخير ، كما حدث في
[..] الى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي في عهد محمد البرتغالي الوطاسي
[..] ٩١٠-٩٣٢هـ / ١٥٠٤-١٥٢٦م) الذي آوى الامير يحيى بن محمد الزياني ثم سرحه فاسس
[ام]ارة مستقلة عن تلمسان في تنس .

فمن العرض السريع الذي تقدم ، يمكن القول ، ان العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب
بعد انهيار دولة الموحدين ، وقيام الدويلات الثلاث : الحفصية والمرينية والزيانية وحتى سنة
٩٢٣هـ / ١٥١٧م قد شهدت تطورات مختلفة يمكن حصرها في اربع مراحل زمنية متميزة وهي :

١- المرحلة الاولى : من سنة ٦٥٦ الى سنة ٧٦٠هـ / ١٢٥٨-١٣٥٨م ، وفيها كانت
الدولة المرينية قوية ، وكان سلاطينها يسعون الى توحيد المغرب الكبير تحت سلطاتهم بالقضاء على
الدولتين : الحفصية والزيانية ، ولا سيما على هذه الاخيرة . وقد تمكن السلطانان المرينيان ابو
الحسن وابنه ابو عنان كما ذكرنا من تحقيق هدفهما في اواخر العقدين : الرابع والخامس من القرن
الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

٢- المرحلة الثانية : من سنة ٧٦٠ الى سنة ٧٧٦هـ / ١٣٥٨-١٣٨٤م ، وفيها اخذ
الضعف يدب في الدولة المرينية بعد موت ابي عنان ، حيث تزايد نفوذ الوزراء ، وكثر التمرد ون[..]
على السلطة المركزية ، فصرف السلاطين المرينيون انظارهم نهائيا عن الشرق الجزائري وتونس ،
وركزوا جهودهم على الاحتفاظ بمملكة تلمسان لسيادتهم ، والقضاء على السلطة الزيانية فيها ان
امكن . وقد تحقق ذلك لفترات قصيرة في عهود ابي سالم (٧٦١-٧٦٢هـ / ١٣٥٩-١٣٦١م)
وابي فارس (٧٦٨-٧٧٤هـ / ١٣٦٧-١٣٧٢م) وابي العباس ٧٧٦-٧٨٦هـ/١٣٧٤-١٣٨٤م)

٣- المرحلة الثالثة : من سنة ٧٨٦-٨٢٢هـ / ١٣٨٤-١٤٢٠م ، وفيها ازداد ضعف
الدولة المرينية ، فلم يعد سلاطينها يتطلعون الى تلمسان ومملكتها للقضاء على حكم الزيانيين فيها ،
وانما اكتفوا بتنصيب سلطان زياني موال لهم ، او مساعدته على انتزاع الملك من السلطان الحاكم ، ان مال
هذا الاخير الى الاستقلال عنهم ، كما حدث في عهد ابي سعيد على الخصوص (٨٠٠-٨٢٢هـ /
١٣٩٨-١٤٢٠م) .

٤- المرحلة الرابعة : من سنة ٨٢٢-٩٢٣هـ / ١٤٢٠-١٥١٧م ، وفيها بلغ الضعف
بالدولة المرينية والدولة الوطاسية التي خلفتها في ٨٧٦هـ / ١٤٧١م اشده لاستفحال الخطر

البرتغالي والاسباني ، وكثرة المنشقين من السلطة المركزية فكف المرينيون والوطاسيون عن التدخل في تلمسان وملتها ، واكتفوا بايواء المناوئين للسلطان الزياني الحاكم للتلويح به ، اذا ما دعتهم الضرورة الى ذلك . وفي هذه المرحلة استأنف السلاطين الحفصيون تدخلهم في تلمسان، واجبروا خلال الارباع الثلاثة الاولى من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي على الخضوع اليهم (1)

وهكذا يبدو ان العلاقات الجزائرية - المغربية خلال اكثر من قرنين من الزمن ، قد غلب عليها طابع الصراع والنزاع على السلطة والنفوذ ، ورغبة حكام كل من : فاس (المغرب) وتلمسان (الجزائر) في تحقيق وجودهم ومطامحهم ، ولو على حساب بعضهم ، دون اقتناع بامكانية التعايش السلمي ، او التعاون السياسي ، او ايمان بضرورة صرف تلك القوة الضائعة في الصراع نحو البناء الداخلي ، وازالة مظاهر الضعف فيه ، مما انهك قوى البلدين ، واطمع بهما القوى الاوربية الناشئة المجاورة ، كاسبانيا والبرتغال ، اللتين وجدتا امامهما فرصة سانحة ، تحقق لهما اذا ما التهمتاهما اهدافا كثيرة اقتصادية ودينية وقومية وثقافيـة .

وقد كان هذا الضعف ، وذلك التدخل البرتغالي والاسباني في البلدين عاملا في ظهور قوى سياسية جديدة على مسرح الاحداث في البلدين ، سعت للوقوف في وجه تلك التحديات ، ففي الجزائر ظهر العثمانيون ، وفي المغرب تغيرت الاسرة الحاكمة القابضة على السلطة فيه ، حيث آل الحكم الى الوطاسيين ثم الى السعديين ، وهذا بدوره ادى الى تداول العلاقات السياسية بين البلدين تداولا جديدا في الفترة الممتدة من (٩٢٣-١٠٦٩هـ / ١٥١٧-١٦٥٩م) ، في الاهداف والابعاد ، والقوى السياسية الداخليـة والخارجيـة .

وقبل استعراض هذا التطور يحسن التعرف على الحياة السياسية في البلدين لما لها من اثر كبير في ذلك التطور .

(1) انظر عن تدخلات المرينيين والحفصيين في الجزائر : ابن خلدون : المرجع السابق ، التنسي (محمد بن عبد الله بن عبد الجليل) : نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الاعيان مخطوط، المكتبة الوطنية بالجزائر) ، وترجمته الى الفرنسية من قبل بارجيس BARGES (l'A.) Histoire des Beni-Zeiyan. Paris 1952. ١٨٥٢ .
تاريخ ملوك بني زيان ، باريس ١٨٥٢ .
والزركشي (محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ١٢٨٦ ،
ابن ابي دينار : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق محمد الشمام ، تونس ١٩٦٧ .
الناصري السلاوي (ابو العباس احمد بن خالد) : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر ومحمد ولدي المؤلف ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٥٤ - ١٩٥٥ الجزآن الثالث والرابع
وغيرها من المصادر والمراجع المبينة في الفهرس .

((الفصـــل الاول))

(الحياة السياسية في الجزائـــــر)

١ ـ أوضاع الجزائر في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي :

ان من يتأمل في حياة الجزائر السياسية في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وحتى سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) ، يجد ان الجزائر كانت تعيش في ازمة كبيرة حيث ان الدولتين الحفصية والزيانية اللتين كانتا تتقاسمان النفوذ فيها ، الاولى في القسم الشرقي منها والثانية في القسم الغربي ، قد بلغتا درجة كبيرة من الضعف ، نتيجة عوامل عديدة بعضها قديم وبعضها حديث ، ومن العوامل القديمة نذكر :

١ ـ التنافس على السلطة بين امراء كل من الاسرتين الحاكمتين .

٢ ـ النزاع الذي كاد يكون مستمرا بينهما وبين الاسرة المرينية الحاكمة في المغرب منذ قيام تلك الاسر في اعقاب انهيار الدولة الموحدية ، وذلك من اجل وراثة ممتلكاتها .

٣ ـ استعانة المتنافسين والمتنازعين بالقبائل من امثال بني عامر[1] واولاد داود[2] واولاد سعيد[3] والشابيين[4] ، هذه القبائل التي استغلت حاجتهم اليها ، وضعفهم لتتمرد ، وتقلص نفوذهم الى حد كبير .

٤ ـ تدهور الوضع الاقتصادي للدولتين نتيجة لقصر مواردهما ، وخروج مناطق عديدة عن سلطاتيهما ، واضطرار الدولتين الى تقديم قسم كبير ، قد يبلغ نحو النصف من مدخولهما القليل الى القبائل حتى تأمنا شرها ، مما كان له انعكاسه على القدرات العسكرية للدولتين ، فلم يعد بامكانهما ان تقيما الجيوش النظامية الكبيرة العدد ، ذات التجهيز القادر على اخضاع تلك القبائل والمناطق المتمردة ، او الحيلولة دون استقلالها ، وعلى مواجهة اي خطر خارجي ، حتى ان مارمول قال بهذا الصدد : ((ان سلاطين تلمسان لا يجندون الجند الا لفترة الحرب .. وهم لا يملكون الحربات ولا الخيام .. وانهم فقراء جدا ...))[5].

٥ ـ النفوذ المتزايد للقوى الدينية من رجال الدين المرابطين والمتصوفة لدى عامة الناس وخاصتهم ، مع تزايد ضعف الدولتين ، وعجزهما عن المحافظة على الامن والاستقرار في البلاد من ناحية ومواجهة الخطر الخارجي من ناحية اخرى ، ومساهمة تلك القوى الدينية في اضعافهما عن طريق توجيه الانتقاد لهما ، بل ومحاولة بعض كبار المرابطين والمتصوفة تأليب الرأي العام عليهما[6].

---

(١) هم فرع من زغبة ، واشهر قبائلهم بنو يعقوب ، وبنو حميد وبنو شافع ، ومن ابرز زعمائهم في النصف الاول من القرن العاشر ابن رضوان الذي كان يرتبط بعلاقة النسب مع الزيانيين ، انظر عنهم :
Boyer(P.):Histoire des Beni ameur. in R.O.M.M. No24, Aix-enProvence 1977. P.40 et suiv.

(٢) كانوا يسيطرون على جنوب قسنطينة وغربها ، انظر عنهم :
Mercier(E.):Hist. de l'Afr. Sept. t.3 Paris 1891 P.206.

(٣) كانت منتشرة في جنوب تونس وشمالها وشرقها ، انظر عنهم : ابن ابي دينار : المرجع السابق .

(٤) فرع من بني المهلهل ، انشأوا امارة في الشابة قرب القيروان ، ثم مدوا نفوذهم حتى اطراف تونس وشرقي قسنطينة ، انظر :
Monchicourt:Etudes Kairaouanaises(1450-1592) Paris 1909.

(٥) Marmol(c.):L'Afrique. Trad.(N.P.)D'Ablancourt, t.2 Paris1667P.332

(٦) انظر محمد بوراس : من اثر الاستعمار في الحياة الثقافية ، مجلة الاصالة عدد ٤٠ الجزائر ١٩٨٠ ، ص ١٢٠-١٤٠ .

اسبانيا
البحر المتوسط
ايالة الجزائر
الجزائر
بجاية
عنابة
تونس
قسنطينة
سطيف
جيجل
القل
القالة
باي‍لك
بسكرة
اولاد جلال
الاغواط
عين ماضي
التيطري
الغرب
تلمسان
معسكر
وهران
المرسى الكبير
مستغانم
مليانة
المدية
تنس
ندرومة
وجدة
تازة
فاس
مكناس
تطوان
اصيلا
العرايش
سلا
رباط
آنفا (الدار البيضاء)
آزمور
آسفي
مراكش
تفنت
اغادير
تارودانت
تاماسنة
سجلماسة
دبدو
فقيق
ورجلة
توقرت
الواد
القليعة
بني بحري
بني قومي
الدرعة
آقا
تافاوستا
واحات توات وتيغورارين
مقياس الرسم

ومساهمة آخرين في قيام الحكم العثماني في الجزائر الذي قضى عليهما (1) .

وقد نجم عن ذلك الضعف الذي تردت فيه الدولتان الحفصية والزيانية ، اضطراب الجزائر وتجزؤها الى عدة وحدات سياسية صغيرة متنافرة ، لا يسود بينها الوئام فأغلب المدن الساحلية كوهران ، وتنس ، وشرشال ، والجزائر ، ودلس ، وبجاية ، وجيجل ، والقل ، وغيرها ، كانت في مطالع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، اما تحت حكم امير زياني منشق عن الدولة الزيانية كأبي يحيى بن محمد الزياني في تنس ، او عن الدولة الحفصية كعبد الرحمن الحفصي في بجاية ، او تحت حكم مجلس منتخب من سكان المدينة ، كوهران ، او شيخ قبيلة كسالم التومي ، شيخ قبيلة الثعالبة في مدينة الجزائر .

وكانت كل المناطق الجبلية في الفترة نفسها مستقلة ، وتأسست في بعضها امارات ذات اصل مرابطي ، او شريفي من اهمها : امارة بني عباس في جبال القبائل جنوب بجاية . وامارة كوكو الواقعة الى الغرب من الامارة الاولى في الجبال ذاتها .

واستقلت المدن الداخلية كذلك عندما تحت حكم بعض الاسر كأسرة بني جلاب في تقرت ، وعلاهم في ورقلة جنوبي الجزائر وغيرها .

وسادت القبائل على المناطق السهلية كبني عامر في القطاع الوهراني والذواودة في القطاع القسنطيني (2).

اما العوامل الجديدة في الجزائر : تدفق امواج من الاندلسيين الى الجزائر ، ولا سيما عقب سقوط غرناطة آخر امارة اسلامية في الاندلس بيد الاسبان ، سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م ، وما تلاها من اجبار المسلمين في الاندلس على التنصر ، ورفض الكثيرين منهم له ، وايثارهم الهجرة الى المغرب الاسلامي . وقد دعم المهاجرون الاندلسيون الى الجزائر سكان المدن ، وزادوا في ثقلهم وتأثيرهم فيها ، وكونوا في بعضها جاليات كبيرة ، ولا سيما في المدن الساحلية ، ونشطوا الغزو البحري ضد الشواطئ الاسبانية وسفنها انتقاما ممن اضطهدهم ، انطلاقا من تلك المدن ، ذلك الغزو الذي كان احد العوامل في غزو الاسبان للشواطئ الجزائرية ، واحتلالهم العديد من المدن الساحلية . مما كان له اسوأ الاثر على الدولتين الزيانية والحفصية .

2 ـ الغزو الاسباني : ان التجزؤ الذي آلت اليه الجزائر في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، قد شجع الاسبان الذين استكملوا وحدتهم السياسية ، وانتزعوا غرناطة من المسلمين كما ذكرنا على غزو الشواطئ الجزائرية لتحقيق اغراضهم المختلفة :

---

(1) انظر : دور احمد بن القاضي في ابن عسكر ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر . المغرب (١٣٠٩) ص ٩٢-٩٣ .

(2) انظر عن هذه الوحدات السياسية وغيرها : الحسن الوزان المسمى ليون الافريقي : Léon l'Africain: La Description de l'Afrique. Trad. (E) Epaulard Paris 1956. et Marmol (c.): OP. CIT. t.2 et 3.

١ـ الدينية : كنشر المسيحية في الجزائر وتعميرها بالمسيحيين الاسبان ، ومن يتنصر من المسلمين واليهود (١) ، وابعاد حدود الاسلام عن اسبانيا ، هذا الى ملاحقة المسلمين في عقر دارهم ، والقضاء عليهم او تشتيتهم ما امكن .

٢ـ الامنية والاستراتيجية : كاقامة قواعد عسكرية امامية في الجزائر تحول دون الاتصال بين الجزائريين وبين بقايا مسلمي الاندلس ، ودون حصول هؤلاء على اية مساعدة من اخوانهم مسلمي الجزائر ، وتجعل الغزو البحري انطلاقا من الشواطئ الجزائرية الى الشواطئ الاسبانية غير ممكن ، وبذلك يضعون حدا للاخطار التي كان يلحقها غزاة الجزائر بشواطئهم ، ويؤمنون خطوط مواصلاتهم الهامة بين اسبانيا وايطاليا ، ويتخذون من تلك القواعد الامامية منطلقا لغزو المناطق الداخلية واستغلال الاوضاع السيئة فيها .

٣ـ السياسية : كتحقيق سيادة الاسبان على الحوض الغربي المتوسط ، والتي لاتتم بدون احتلال الشواطئ الجزائرية ، وتزعم العالم المسيحي عن طريق زيادة شعبيتهم ، بغزوهم لبلد اسلامي (٢) .

٤ـ اقتصادية : كالسيطرة على المراكز التجارية ، والمناطق التي تتميز بغنى اقليمها بالثروات الحيوانية ، والمحاصيل الزراعية كعنابة ، ووهران . واحتكار التجارة الخارجية للجزائر ، وربما النفوذ منها نحو اعماق افريقيا الى بلاد السودان ، الغنية بالذهب .

وقد تمكن الاسبان خلال الفترة ٩١١-٩٤٢هـ / ١٥٠٥-١٥٣٥م من ان يحتلوا ويخضعوا مراكز ومدنا عديدة في الساحل الجزائري ، كانت المرسى الكبير اولها (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) (٣) ، ثم وهران ثانيها في ٩١٤هـ / ١٥٠٩م (٤) ، وبجاية ثالثها ٩١٥هـ / ١٥١٠م (٥) . وفي اعقاب احتلالهم لهذه الاخيرة ، سارعت المدن الصغيرة الواقعة بينها وبين وهران الى اعلان خضوعها ، والقبول بشروط الاسبان مهما كانت مذلة ، خشية ان يصيبها ما اصاب سكان وهران ، وبجاية ، من قتل واسر وتشريد ، ومن اهم هذه المدن : مستغانم (٦) ، والجزائر (٧) . وقد بنى الاسبان في مواجهة هذه الاخيرة في سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م حصنا منيعا على صخرة تبعد عن شاطئ المدينة بنحو مئة متر فقط ، وجعلوا فيه حامية قوية . وبذلك اصبحت مدينة الجزائر هي الاخرى شبه محتلة ، اذ غدت تحت المراقبة المباشرة للحامية الاسبانية ، وتحت رحمة مدافعها (٨) ، وكانت تلمسان قد خضعت للاسبان بعد احتلالهم للمرسى الكبير سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م (٩) ولم يلبث ابو عبد الله محمد الزياني ، ملك تلمسان ، ان بعث في سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م وفدا الى اسبانيا ، يعلن خضوعه وتبعيته

1) F.Elie de la Primaudaie: Documents Inédits Sur l'Hist. de l'Occupation Espagnole en Afrique 1506-1574. Alger 1875 P.14.

2) " " " : Le Commerce et la Navgation de l'Algérie avant la Conquête Francaise. Paris 1861.

(٣) بريموداي : نفسه ص ٢٤٦-٢٤٧ ومارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٣٦١

(٤) مارمول : نفس المرجع ، جزء ٢ ص ٣٦٤ ، والحسن الوزان : المرجع السابق جزء ٢ ص ٣٤٢ .

(٥) مارمول : نفس المرجع جزء ٢ ص ٤١٥-٤١٦ ، والوزان : نفس المرجع جزء ٢ ص ٣٦٠ ، وبريموداي : الوثائق ... ص ١٣-١٤

(٦) بريموداي : الوثائق ص ١٧-١٩ ، (٧) ـ الوزان : نفس المرجع جزء ٢ ص ٣٤٨

8) F.Diègo de Haëdo: Topographie et Hist. Générale d'Alger. Trad. Monnereau&Berbrugger. in, R.A. No.83 Alger 1870 P.415. (٨)

(٩) ميرسي : المرجع السابق جزء ٢ ص ٨ ، والمدني : (احمد توفيق) حرب الثلاثمائة سنة الجزائر ١٩٦٨ ص ١٠٦ .

للملك الاسباني . وفي سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م تمكن الاسبان من احتلال مدينة هنين الساحلية (١) المواجهة لمدينة تلمسان غربي وهران (٢). وبعد عشر سنوات تمكنوا ايضا من احتلال مدينة عنابة الساحلية (٣).

ويبدو ان السرعة التي تمكن بها الاسبان من فرض سيطرتهم على الشواطئ الجزائرية والسهولة التي احتلوا بها بعضها ، لاتعود فقط الى التفكك الذي كانت تعاني منه الجزائر خاصة في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ولكن ايضا الى تطور سلاح الاسبان بمقارنته مع سلاح الجزائريين ووسائل دفاعهم ؛ فبينما كان هؤلاء يحاربون كما يقول (بروديل) مزودين فقط بالسيف والرمح ، وما الى ذلك ، كان الاسبان يحاربون بالسلاح الناري والمدفعية (٤).

ومع ذلك فان الاسبان لم يحققوا كل ما كانوا يهدفون اليه ، فالغزو الاسباني للشواطئ الجزائرية لم يتوقف ، بل قوي وخاصة بعد ان استقر العثمانيون في الجزائر . ومن ثم فان الفصل الاسبانية لم يتوقف بين مسلمي الاندلس والجزائر لم يتحقق ، كما ان الجزائر التي ظلت مسلمة ولم تملك لهم اسبانيا ولم يستطيعوا التوغل الى اعماقها ، وظل احتلالهم مقتصرا على بعض المواقع والمدن الساحلية فقط ، يشكون فيها الخوف ، والجوع ، كما تؤكد ذلك وثائق اسبانية كثيرة (٥).

ويعزو بعضهم عدم احتلال الاسبان للمدن ، والمناطق الداخلية الى انهم لم يركزوا جهودهم على غزو الجزائر دون غيرها ، فقد كانوا في الوقت نفسه منشغلين بحروبهم في المناطق الاخرى ، في اوربا ، كايطاليا ، وبغزو العالم الجديد . ويضاف الى ذلك ان المقاومة الجزائرية ، ما لبثت ان انتظمت بزعامة بعض المرابطين العبادين ، كابن القاضي ، ثم بزعامة الاخوة بربروس ، ومن تلاهم ، واشعرت الاسبان بالخطر الكبير عليهم حتى في المدن الساحلية القريبة من اسبانيا ، والتي يمكن تموينها عن طريق البحر ، فكيف بهم لو توغلوا او اقدموا على احتلال المدن الداخلية التي لا يمكن تموينها عن طريق البحر (٦).

ولكن الغزو الاسباني وان اقتصر على الشواطئ الجزائرية لسبب او لآخر فانه قد الحق اضرارا جسيمة ليس فقط بالمدن المحتلة ولكن ايضا بالمناطق الداخلية المجاورة لها وغير المجاورة ، اذ ان احتلال الاسبان لكل من وهران ، وبجاية ، وعنابة ، التي كانت كلها من المراكز الهامة لمختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية ، كان له انعكاسه السيء على المناطق والمدن الداخلية ، التي كانت تعتمد عليها في تلك المجالات .

ولعل النتيجة الاهم التي نجمت عن الغزو الاسباني للشواطئ الجزائرية ، هي التدخل العثماني في الجزائر لانقاذها من خطره .

---

1)Bargès(A.):Complément de l'Hist. des Beni-Zeyan.Paris 1887 P.418- 420.

(٢) مارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص٣٦٦ ، وبريموداي : الوثائق ص٥٧ ـ ٦٠

(٣) بريموداي : نفس المرجع السابق ص ١٥٠ ـ ١٦٥ .

4)Braudel(F.):Les Espagnoles et l'Afrique du Nord, in R.A. Alger 1928. P.216. (٤)

(٥) انظر بريموداي : الوثائق ص٧١ ، وغيرها .

5)Ricard(R.):Les Etablissements Européens en Afrique du Nord, du 15 au 16e siècle, et la Politique Restreinte, in R.A. Alger 1936 P. 688

(٦) المهدي ابوعبدلي : اضواء على تاريخ الجزائر في الاصالة عدد ٨ الجزائر ١٩٧٢ ص٢٧٨ وميرسيي : المرجع السابق جزء ٣ ...

Cour (A.):L'Etablissement des Dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la Régence d'Alger 1509-1830.Paris 1904,P.238.

ا. التدخل العثماني في الجزائر وتأسيس ايالتها :

لما كان الاسبان يغزون الشواطئ الجزائرية في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، كانت طلائع غزاة البحر العثمانيين ممثلة في الاخوة بربروس : عروج وخيرالدين واسحاق[1] وآخرين ، قد وصلت الى الحوض الغربي المتوسط ، واتخذت تونس وجربة ونواحيها ، منطلقـــة للسفن والشواطئ المسيحية بخسائر كبيرة ، متخذة من الموانئ التونسية التي اذن لهم السلطان الحفصي ابوعبدالله محمد ، باستعمالها مقابل دفع الخمس من الغنائم وشروط اخرى[2]، منطلقا لها . فذاع صيتهم وانتشرت اخبار بطولاتهم في الغزو البحري ، فتوجهت اليهم انظار المجاهدين الجزائريين ، وفي مقدمتهم ابو العباس احمد بن القاضي الزواوي الذي ((لما رأى قوة شوكة النصارى الكفار ، وانتشارهم في المغرب ، ونهضة المسلمين من مقاومتهم ، كاتب الترك ، وعرفهم عزة هذه البلاد ، لما يسمع من شدة الاتراك في المحاربة ، ونجدتهم في الحروب والمضايقة ، وارهابهم الكفرة ، فقصد بحسن نيته ، ان يرفعوا عن عزة الاسلام ما انخفض ويتوبوا من امره ما ضعف وقال : ان بلادنا بقيت لك ولاشياء او للذئب ، فاقبل الترك نحوه مسرعين ، ونحن نحو بعض الناس على اتباعهم ، والانخراط في سلكهم ، والسمع والطاعة لاميرهم عروج الترجماني ، الذي هو الباعث فيهم قدوم الترك الجزائر وتلمسان)) .[3]

ومن هذا النص يستخلص ان تدخل اوائل العثمانيين في الجزائر ، كان استجابة لطلب الجزائريين ، ونجدة لهم ، والمشاركة في الدفاع عن بلادهم ، وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال الاسباني . ولكن عروج وجماعته الاتراك ، قبل ان يدخلوا الى الجزائر او الى تلمسان ، قاموا في سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م بمحاولة لتحرير بجاية ، لم تكلل بالنجاح ، وفيها فقد عروج ذراعه .[4] ولما شفي من اصابته وجدد بناء قوته ، حاول سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ، ثم في السنة التاليـــة (٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) بلدة جيجل ، التي استولى عليها الجنويون بقيادة اندري دوريا في سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م ، واقاموا فيها حصنا لهم ؛ وبالتعاون مع اهالي جيجل وسكان المناطق المجاورة ، وابن القاضي المذكور ، تمكن عروج من القضاء على الحصن ، وتحرير البلدة التي اصبحت منذئذ قاعدة له[5] ، ومنها وجه هديه ثمينة الى السلطان العثماني سليم الاول[6] وبذلك ابتدأت السلطة الرسمية من العثمانيين ، والنفوذ العثماني في الجزائر .

---

(١) كان ابوهما يعقوب جنديا عثمانيا من جنود حامية جزيرة ميدلي المتوسطية العثمانية . اشتغل عروج في البداية بالتجارة ، ثم تحول الى الغزو البحري . كما عمل مع اخيه خيرالدين في خدمة السلطان بايزيد ، قبل انتقالهما الى الحوض الغربي المتوسط ، حيث اشتهر امرهما اثر حسن اخيهما اسحاق . انظر : المجهول ، غزوات عروج وخيرالدين ، نشر نورالدين بن عبد القادر ، الجزائر ١٩٣٤ ص ٦-١٢ ، والجيلالي ، المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) المجهول : المرجع السابق ص ١٢

(٣) محمد الصغير الوفراني (او الافراني) : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي انجي ١٨٨٨ ص ١٧ .

(4) F. Diègo do Haëdo: Hist. des Rois d'Alger. Trad. et Annoté par H. Degrammont. Alger 1881 PP. 10-12.

(٥) المجهول : المرجع السابق ص ٢٥

Degrammont (H.): Hist. d'Alger sous la Domination Turque. Alger 1887.

(٦) المجهول : نفس المرجع السابق ص ٢٦

وفي سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م قام عروج بمحاولة ثانية لتحرير بجاية ، بمشاركة سكانهـــا المشردين في الجبال المجاورة ، واهالي المناطق القريبة منها ، الا انه لم يفلح .

ولم يلبث عروج في جيجل ، بعد فشله الثاني في تحرير بجاية ، غير وقت قصير حتى استدعي من قبل اهالي مدينة الجزائر ، واميرهم سالم التومي ، لتخليصهم من الحامية الاسبانية ، التي كانت تضايقهم ، وتشل حركتهم ، وتحول دون ممارستهم للغزو البحري ، فاستجاب لمطالبهم ، وهاجم الحصن الاسباني ، بعد ان استولى على بلدة شرشال المجاورة ، ولكن مدفعيته لم تستطع التأثير على الحصن القوي على الرغم من انه لم يكن يبعد عن المدينة بأكثر من مئة متر كما ذكرنا ، وانه ظل يدكه طوال ثلاثة اسابيع . ولم تلبث العلاقات بين سالم التومي وبين عروج ان ساءت بعد فشل هذا الاخير في القضاء على الحصن الاسباني . وتمكن عروج من قتله غيلة في الحمام ، بعد ان استقبال ... واعلن نفسه حاكما على الجزائر ، بينما تدفق اليه العديد من اعيان المدينة بالهدايا وغير ذلك . بينما فر ابن سالم التومي في الفرار الى الاسبان في وهران ، ومنها الى اسبانيا ، لطلب مساعدة الاسبان ، للانتقام من عروج قاتل والده واسترجاع الامارة منه .

واحتياطا لردود فعل الاسبان وغيرهم ، قام عروج باجراء التحصينات اللازمة لمدينة الجزائر ، وتوسيع نفوذه ليشمل المناطق المجاورة للمدينة . وسلك في هذه الاثناء سياسة ، جمع فيها بين الشدة واللين ، والترغيب والترهيب ، لتوطيد حكمه ، وجعله مقبولا من الاهالي . وتمكن من احباط مؤامرة حاكتها ضده بعض اهالي المدينة مع عرب المناطق المجاورة "عرب متيجة" ، الموالين لسالم التومي ، واتباعه سكانها (٢). ولكن الاسبان لم يرتاحوا الى الوضع الجديد في المدينة ، فجهزوا حملة ضخمة في نفس السنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م للقضاء على عروج قبل استفحاله ، واعادة الامارة الى ابن سالم التومي ، كانت تتألف من (٨٠٠٠) مقاتل نقلتهم (٨٠) سفينة ، بقيادة دييغو دوفيرا (DIÈGO DE VERRA) ولكن تلك الحملة باءت بالفشل امام تحصينات عروج الهجومية ، وتمكنه من القضاء على (٣٠٠٠) ممن نزلوا الى الارض واسر (٤٠٠) منهم . وتضافرت العاصفة معه ، فقضت على معظم قطع الاسطول بمن فيها غرقا في البحر (٣).

وساعد هذا الانتصار الباهر الذي حققه عروج وجماعته ، بالتعاون ايضا مع سكان المدينة وعرب المناطق المجاورة ، على استقرار الامر لحاكم الجزائر الجديد ، وعلى مد نفوذه الى مدن اخرى ساحلية وداخلية ، في مقاطعة الجزائر وخارجها ، كدلس والمدية ، ومليانة وغيرها .

ضم تنس وتلمسان :

وتوجهت انظار عروج ، قبل القيام بمحاولة اخرى لتحرير مدينة الجزائر من الحصن الاسباني المواجه لها ، الى القضاء على الحكام الموالين للاسبان ، ومنهم سلطان تنس ، وملك تلمسان .

وكان حميد العبد ، سلطان تنس ، قد لجأ الى ... عروج ، بالتنسيق مع عرب المناطق الغربية لمدينة الجزائر ، الذين لم يخضعوا للحكم الجديد ، الذي فرض سيطرته عليهم بالقوة ،

---

(١) انظر حول الاسباب ، الوزان ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٣٦ والمجهول ، المرجع السابق ، ص ٢٦ ، وعند ... سلطان تونس امتنع عن امدادهم بالذخيرة والآلات الحربية ... وان المدد قد وصل الى الاسبان ، كما ان فصل البذر قد حل ، الامر الذي جعل بعض الاهالي ينسحبون لفلاحة ارضهم .

(٢) انظر عن هذه الاحداث هايدو ، المرجع السابق ص ١٥-٢٢ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤-٢٥ ، والمجهول ، المرجع السابق ، ص ١٩-٢٠ .

والزمهم بدفع الضرائب ، للتخلص منه ، فاستخلف عروج على مدينة الجزائر اخاه خيرالدين ، وتحرك هو على رأس (١٠٠٠) من الاتراك و (٥٠٠) من الاندلسيين ، نحو تنس ، وتمكن من الانتصار على قوات سلطان تنس الكبيرة ، في المعركة ، التي دارت بين الطرفين على مقربة من تنس والخلف ، في صيف ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، وذلك بفضل السلاح الناري الذي كان بحوزة قواته ، والذي لا مثيل له لدى قوات سلطان تنس ، فاضطر هذا الاخير الى الفرار الى قاعدة ملكه . ولما وجد نفسه مطوقا ، فر منها الى اقصى الجنوب الجزائري فدخلها عروج(١) ثم تقدم الى تلمسان ، حيث كان السلطان ابو حمو الزياني الثالث الموالي للاسبان قد اغتصب الملك من ابن اخيه ابي زيان واودعه السجن ، وذلك بعد ان تلقى دعوة من بعض اعيان تلمسان يرجونه فيها المسير اليهم لينتشلهم لتخليصهم من ابي حمو المذكور ، واعادة ابي زيان الى الملك . وتمكن عروج من تحقيق النصر على ابي حمو في المعركة التي دارت بين الطرفين ، ففر هذا الاخير الى فاس ثم الى وهران ، ومن هذه الاخيرة توجه الى بلاط ملك اسبانيا شارل الاول(٢) لطلب مساعدته . ودخل عروج تلمسان في رمضان ٩٢٣هـ / سبتمبر ١٥١٧م ، واستحوذ على الملك فيها ، وقتل ابا زيان بعد ان اعاده الى الملك ببضعة ايام ، وكذلك كل افراد الاسرة الحاكمة الا من فر منهم ، والمتعاطفين معهم من التلمسانيين رغبة في توطيد سلطاته في المدينة ، وتحصينها . وكان قد اقام وهو في طريقه الى تلمسان حامية في قلعة بني راشد ، التي تتوسط الطريق بين تلمسان ومدينة الجزائر ، لتأمين خط الرجعة الى هذه الاخيرة ووصول الامدادات اليه منها او من الجزائر ، واسند قيادة تلك الحامية الى اخيه اسحاق . وسعى الى اقامة تحالف دفاعي وهجومي مع سلطان فاس (محمد البرتغالي الوطاسي) ضد النصارى ، العدو المشترك ، فرحب هذا الاخير بالعرض ووافق عليه .(٣)

وبهذه الخطوات اطمأن عروج ، وبقي في مدينة تلمسان الداخلية .

التدخل الاسباني في تلمسان والقضاء على عروج :

لم ينظر الاسبان بعين الارتياح الى النجاحات التي حققها الاخوة بربروس ، والخطوات الكبيرة التي خطوها في طريق توحيد اجزاء الجزائر تحت سلطاتهم ورأوا ان خطرهم المتزايد سوف لا يتوقف عند تهديد مراكزهم على ساحل المغرب الكبير ، بعد ان يتفرغوا لها . بل سيتجاوزها الى اسبانيا نفسها . ولذلك فقد كان رد فعلهم التدخل السريع الى جانب السلطان المخلوع ابي حمو الثالث ، فقطعوا اولا خط الرجعة على عروج الى الجزائر ، بقضائهم على حامية قلعة بني راشد بما في ذلك اسحاق ، شقيق عروج وخيرالدين ، ثم حاصروا عروج في تلمسان . وكان هذا الاخير يأمل في وصول المدد المعين له من السلطان الوطاسي ، ولما طال انتظاره حاول الفرار في اتجاه الغرب مع القليل من الاتراك الذين بقوا على قيد الحياة . ولكن الاسبان ادركوه وتمكنوا بعد معركة عنيفة من القضاء عليه ، وعلى رفاقه في مايو ١٥١٨ في بني يزناسن(٤). واعاد الاسبان الملك في تلمسان الى ابي حمو الثالث الذي قبل ان يدفع ضريبة سنوية لهم ، مقدارها (١٢٠٠٠) دوكات

(١) دايدو ، المرجع السابق ص ٢٥-٢٧ والمدني ، المرجع السابق ص ٢٠-٢٢ ومارمول ، المرجع السابق جزء ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) تولى شارل الاول ملك اسبانيا ، امبراطورا على المانيا في ٢٨/ ٦/ ١٥١٩ باسم شارل الخامس (شارلكان) .

(٣) انظر ص134 الاتية

(4)Graulle(A.): La Mort et le Tombeau de BABA AROUDJ, in R.H.M.(?) t.24, Paris 1913 P.246.

ذهبية و (١٢) من الخيل وستة من اناث الصقور مكسوة على التهيئة (١) .

وبمقتل عروج واخيه اسحاق والقوات التي كانت معهما ، تعرض الوجود العثماني في الجزائر الى هزة قوية كادت تقضي عليه ، وتقلصت من جديد ارجاء الدولة التي اخذ عروج في انشائها بعودة ابي حمو الى مملكة تلمسان ، وحميدة العبد الى تنس .

انضواء الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية :

بويع خيرالدين في مدينة الجزائر ، خلفا لأخيه عروج ، فشرع فورا في الاستعداد لمواجهة حملة اسبانية مترقبة ، قد يشترك فيها حليفهم ملك تلمسان . ولم تكن توقعاته وهمية ، اذ تعرضت في صيف سنة ١٥١٨ م / ٩٢٤ هـ ، اي بعد شهور قليلة من مقتل اخويه عروج واسحاق ، بقيادة نائب ملك صقلية ، هيجو دو منكاد (Hugo de Monoade) ، للقضاء على البقية الباقية من الاتراك في مدينة الجزائر ، واوعز قائد الحملة الى سلطان تلمسان للتحرك بقواته الى مدينة الجزائر ولكن الجزائريين بقيادة خيرالدين تمكنوا من القضاء على الحملة الاسبانية قبل ان يصل هذا الاخير ولم يسلم من القتل او الاسر او الغرق في البحر الا العدد القليل (٢) .

وفي اعقاب هذا النصر الباهر ، عزم خيرالدين على الرحيل الى اقليم الروم وترك مدينة الجزائر للجزائريين ومن ينتخبونه منهم . وجمع اهل الجزائر كلهم واعيانها من العلماء والصلحاء والمشايخ ليخبرهم بعزمه . ولكن هؤلاء اصروا على ان لا يتخلى عن الجزائر ، واتفقوا على اقتراحه بصرف الدعاية الى السلطان سليم العثماني ، وضرب السكة باسمه حتى يضمنون مساعدته ، وتزويده لهم بما يلزمهم من الرجال وآلات الجهاد لحماية مدينتهم . وكتبوا كما امرهم خيرالدين ((كتابا على لسانهم الى حضرة السلطان العثماني المذكور يخبرونه بصرف الدعاء اليه ، وانهم من جملة من تنفذ فيهم احكامه ويقع فيهم نقضه (٣))) . وكتب هو كتابا آخر الى السلطان سليم ، الذي رحب بطلب اهالي الجزائر وخيرالدين الانضمام تلقائيا تحت لوائه ، وسر به كثيرا (٤) لأنه كان متطلعا من زمان لتوسيع مجاله في مد نفوذه ليشمل كل العالم الاسلامي واخراجه من شرقه ومغربه ، حتى يكون اكثر قوة في صراعه مع اوربا المسيحية عسكريا واستراتيجيا واقتصاديا .

ويبدو ان السلطان سليما كان يخطط اصلا لبسط نفوذه على كامل شمال افريقيا والحوض الغربي المتوسط ، فقد نسب اليه قوله لأحد كتبة سره .. ((ان البحر الابيض المتوسط هو عبارة عن خليج واحد يمتد الى بوغاز سبته ، فكيف يليق ان تجتمع فيه مدن مختلفة ، ثم انهم لا يكونون تحت حكم الدولة العلية ، فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية المقصودة هو من قصور الهمة المزري بشأن الدولة ... اني آليت على نفسي وعاهدتها ان مد الله في عمري ، اني احرمها الراحة والسكون ، ما لم انشئ الاساطيل الكافية لنيل المرغوب واستولي على ثغور البحر الابيض المتوسط ...)) (٥) .

---

(١) انظر عن هذه الاحداث كلها : هايدو ، المرجع السابق ص ٢٧ – ٣١ ، مارمول ، المرجع السابق ج ٢ ص ٣٩٩ ، بارجس ، المرجع السابق ص ٣١٤ ، المجهول ، المرجع السابق ص ٢٢ – ٢٤ .

(٢) المجهول ، المرجع السابق ، ص ٢٩ – ٣٢ ، هايدو ، المرجع السابق ص ٣٥ – ٣٧ .

(٣) انظر رسالة اهالي مدينة الجزائر الى السلطان العثماني ، باللغة العثمانية في المجلة التاريخية المغربية عدد ٥/٦ ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٩٦ ، وانظر المجهول ، المرجع السابق ص ٤٢ .

(٤) هايدو ، المرجع السابق ص ٣٥ – ٣٦ ، وجوين ، تاريخ الانضمام قبل حملة (هيجو دو منكاد) .

(٥) احمد جودت : تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر افندي ، ج ١ ، بيروت ١٨٦٠ ، ص ١٤٦ .

(١)
للبحرية العثمانية ٠

وتذكر المراجع ، ان السلطان سليما بذل فعلا جهودا كبيرة لترقية البحرية العثمانية .(٢) الذين ... عين مرضه ذلك ، وتشير المراجع من جهة اخرى ، الى تقديمه العون للاخوة بربروسا (٢) الذين ... يحملون في الحوض الغربي المتوسط قبل انضمام الجزائر بشكل رسمي الى الدولة العثمانية ٠ ... اعتزامه المسير بنفسه الى المغرب (٣) ولكن الاجل لم يمهله ٠

وقد كان كتاب انضمام الجزائر تحت سيادة الدولة العثمانية بتاريخ اوائل ذي الحجة سنة ٩٢٥ هـ / الموافق اواخر اكتوبر او اوائل نوفمبر ١٥١٩ م (٤)

الجزائر في عهد البايلربايات 925 -- 995 هـ / 1519 -- 1587 م :

ارسل السلطان سليم صحبة مبعوثي الجزائر اليه منشورا ، وكتابا الى اهل الجزائر وخيرالدين ... ما كتبوه اليه ، وانهم ممن تشمله عنايته وترسم رعايته (٥) وبذلك غدت الجزائر تابعة الدولة ... العثمانية واصبح خيرالدين حاكما لها تابعا للسلطان العثماني ٠ وقد امد السلطان سليم خير ... الدين بالمساعدة العسكرية التي كان في حاجة ماسة اليها ، حيث ارسل اليه (٢٠٠٠) جندي ... وسمح بالذهاب الى الجزائر لكل من يريد ذلك من الاتراك ، ووافق ان يكون للانكشاريين في الجزائر ... نفس الامتيازات التي كان يتمتع بها الانكشاريون في عاصمة الدولة (٦) فقصدها عدد كبير مما سمع ... خيرالدين ان يقيم حاميات في عديد من المدن الجزائرية منها : مستغانم ، وتنس ، ومليانة ، وغيرها ٠ (٧)

وهكذا غدت مدينة الجزائر وتوابعها منذ اواخر سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م تابعة الدولة ... العثمانية دون ان تتجشم هذه الاخيرة عناء غزوها ، كما حدث بالنسبة لبلاد الشام ومصر ٠ وغدا ... خيرالدين حاكما تابعا للسلطان العثماني ، الا انه كان في واقع الامر يتمتع بسلطات واسعة في ... الجزائر لاتقل عن سلطات الملوك ، ولا سيما في الشؤون الداخلية ، وان لم يكن رسميا الا بايلرباي ... او امير الامراء ، وهو اللقب الذي حمله ، وحمله الحكام الاساسيون في الجزائر في الفترة الممتدة من ٩٢٥ -- ٩٩٥ هـ / ١٥١٩ -- ١٥٨٧ م ، والتي تعرف بعهد البايلربايات ، وقد كان هؤلاء يعينون ... الفترة غير محدودة بزمن ، وغالبا ماكانوا يستدعون لاستلام منصب اعلى ، هو منصب وزير البحرية العثمانية

ردود فعل سلاطين تونس وتلمسان ، وموقف خيرالدين منهم :

لم يرق السلطان الحفصي ابوعبدالله محمد ولا السلطان الزياني ابوحمو الثالث للتطور الجديد الذي شهدته مدينة الجزائر ، فيما يتعلق بارتباطها بالدولة العثمانية ، واستقرار الامر لخيرالدين ، وتوجسا خيفة على ملكهما من هذا الامير ٠ (٨)

(١) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جزء ١ القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٩١ ٠
(٢) المجهول : المرجع السابق ص ٢٦
(٣) احمد توفيق المدني : المرجع السابق جزء ١ ص ٤٥
(٤) انظر هامش رقم (٣) من الصفحة السابقة
(٥) المجهول : المرجع السابق ص ٢٠
(٦) (٧) هايدو : المرجع السابق ص ٣٦
(٨) المجهول : المرجع السابق ص ٤٤

... ادلا الرأى في امره ، واستقرا على ضرورة تأليب كل من : احمد بن القاضي الـزواوى ، ومحمد بن ... ى ، عليه [1] وكان خير الدين قد اسند الى الاول ضم القبائل الشرقية ، والى الثاني ضم القبائل الغربيـة . [2] وتقديم مساعدتهما له للقضاء عليه .

آ - موقف خير الدين من سلاطين تلمسان :

تمكن عبد الله الذى خلف ابا حمو على الملك في تلمسان من تأليب عرب الغرب الجزائرى على خير الدين ، وحرك حملة في اتجاه مدينة الجزائر ، الا انها انهزمت امام خير الدين الذى استطاع ايضا اخضاع المناطق الغربية التي تمردت عليه [3] ، ثم تدخل في شؤون تلمسان ، فاعان في بادئ الامر الامير الزياني المسعود على انتزاع الملك من اخيه عبد الله ، ولكنه لم يلبث ان تمرد عليه ، وحينئذ اعان عبد الله المخلوع على انتزاع الملك من اخيه المسعود ، بشرط ان تكون السكة والخطابـة للسلطان سليم الاول [4] وكان احمد الفتح هو الذى توسط بين الطرفين [5] الا ان عبد الله مالبث هو الآخر ان تمرد على خير الدين ومال الى الاسبان ، فحاربه بيلرباى الجزائر وانتصر عليه ولكنه عفا عنه وابقاه على كرسي الحكم في تلمسان ، وتعهد له عبد الله بمضاعفة ضريبة التبعية اسـم غير انه لم يلبث ان تقرب مرة اخرى من الاسبان وتحالف معهم [6] ، فحرضـه ســـــــولا ، على الثورة ضد خير الدين ، وامدوه بمال عظيم ووجهوا اليه (١٤) سفينة لمساعدته واتفقوا معـــه على ان يهاجم الجزائر من البر في حين تهاجمها السفن الاسبانية من البحر وذلك في سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٣م [7] .

وكان خير الدين قبل التاريخ المذكور قد وجه ضربات موجعة للاسبان في الجزائر وفـــي اسبانيا ، حيث تمكن كما ذكر ، من القضاء على حملة مونكادو ، وتمكن في سنة ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م من القضاء على الحصن الاسباني المقابل لمدينة الجزائر [8] . وزرعت غزواته البحرية للشواطئ والجزر الاسبانية والايطالية ، الرعب في قلوب رعايا شارلكان ، فاراد هذا الاخير ان يلهيه بحرب مع سلطان تلمسان . وقد تحرك عبد الله على رأس قوات كبيرة من تلمسان نحو الجزائر ، الا ان خير الدين الذى لم ينتظر وصوله الى مدينة الجزائر ليخرج اليه وتمكن من تحقيق الانتصار عليه بعد معركة عنيفة فاضطر الى طلب العفو منه ، فعفا عنه خير الدين ورجع الى الجزائر . ويبدو ان هذا الاخير الذى كان يعتزم الرحيل الى القسطنطينية في سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م ، لم يشأ ان يدخل تغييرا على الحكم في تلمسان ، قد لا يساعد على استقرار الامور في الغرب الجزائرى .

واذا كان موقف خير الدين من سلاطين تلمسان هو كما اتضح التدخل في شؤون تلمســان لتنصيب سلطان موال له ، مع ابداء بعض المرونة تجاه السلطان المولى ولو صدر منه ما يؤاخذ عليه ، فما كان موقفه من سلاطين تونس ومناوئيه الآخرين ؟

---

(١) نفسـه ص ٤٤
(٢) نفسه ، ص ٤١
(٣) نفسه ، ص ٤٦
(٤) نفسه ، ص ٤٦
(٥) نفسه ، ص ٤٧ .
Archive Générale de Simancas, Legajo(2), Folio 205, España.
(٦) الارشيف العام لسيمانكاس
(٧) المدني ، المرجع السابق ص ٧٩-٨٠
(٨) نفسه ، ص ٦٦-٦٨ ، هايدو ، المرجع السابق ص ٤١ وبريموداى ، المرجع السابق ص ٣٢

ب - موقف خيرالدين من سلطان تونس ومنافسيه الآخرين :

لقد نجح السلطان الحفصي ابوعبدالله محمد بعد محاولات عديدة في استمالة ابن القاضي الزواوي اليه [1] ، ثم ارسل قواته للهجوم على المناطق التابعة لخيرالدين في شرق الجزائر فوجه هذا الاخير قواته لصدها ، وتمكنت بالفعل من تحقيق النصر على الحملة الحفصية ، ومن مطاردة الهاربين من عسكر تونس في احد جبال القبائل المنيعة [2] وفي اثناء ذلك انقضت قوات ابن القاضي الذى انحاز الى جانب الحفصيين على الاتراك وابادت الكثير منهم . واستولى ابن القاضي المذكور على النواحي الشرقية للجزائر . ولكن قوات جديدة بقيادة حسن قارة تمكنت من ازاحته فيها ، وحينئذ عمل احمد بن القاضي على استمالته واغراءه باقتسام حكم تلك الجهات معه فوافقه ، وتمرد على خيرالدين . ثم ان احمد بن القاضي نجح ايضا في تحريض بعض مشايخ الجزائر واعيانها على الثورة ضد خيرالدين . الا ان هذا الاخير تمكن من احباط ثورتهم بشدة .

- خيرالدين يلتجئ الى جيجل :

امام تقلص نفوذ خيرالدين في الجهة الشرقية ، وتذبذب سلطان تلمسان في ولائه ، وعدم اطمئنانه على نفسه في الجزائر ، والقوات التركية القليلة التي بقيت معه فيها ، وانشغال السلطان العثماني سليمان القانوني الذى خلف والده سليم في سنة ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م . بحروبه البرية والبحرية في الحوض الشرقي للمتوسط ، وفي اوربا [3] . آثر الالتجاء الى مدينة جيجل والاقامة فيها على البقاء في مدينة الجزائر . وقد كانت مدينة جيجل كما رأينا اول مدينة استقر فيها الاخوة بربروس ، وكان اهلها اكثر اخلاصا لهم . ومكث فيها بضع سنوات [4] قام خلالها بربط علاقات وايدة مع امير بني عباس [5] المنافس لابن القاضي ، ومد نفوذه الى مدينة القل الساحلية الصغيرة ثم الى مدينة قسنطينة وعنابة في الفترة ٩٢٦-٩٢٨ هـ / ١٥٢٠-١٥٢٢ م [6] وبذلك قلص نفوذ السلطان الحفصي في الشرق الى حد كبير ولو الى حين لأن الامر لم يستتب له تماما فيها بعد عودته منها [7] . كما قام خلال اقامته بجيجل بتنشيط الغزو البحري انطلاقا من هذه الاخيرة ، ونقل عدد اخير قليل من مسلمي الاندلس [8] ، الى الشواطئ الجزائرية ، وظل على اتصال ببعض اعيان مدينة الجزائر التي خضعت بعد رحيله عنها لابن القاضي .

---

(١) (٢) المجهول : المرجع السابق ص ٥٠
(٣) بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الاسلامية . ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، بيروت ١٩٦٨ ص ٤٥٠-٤٥١ .
(٤) حسب المجهول : في المرجع السابق ص ٦١ يكون قد بقي ٣ سنوات فقط . وحسب غيره يكون قد بقي بين ٥-٦ سنوات ، انظر دوغرامون : المرجع السابق ص ٢٢ ، وميرسي : المرجع السابق جزء ٣ ص ١٧-٢٨ .
(٥) ميرسي : نفسه : المرجع السابق جزء ٣ ص ٢٨
(٦) هايدو : المرجع السابق ص ٣٢
(٧) داغرامون : المرجع السابق ص ٢٩ ، ميرسي : المرجع السابق جزء ٣ ص ٢٨-٢٩
(٨) المجهول : المرجع السابق ص ٦٠

- عودة خيرالدين الى مدينة الجزائــر :

ولما مات السلطان الحفصي ابو عبد الله الذى تلب لخير الدين ظهر المجن في ســـنة ٩٢٢هـ / ١٥٢٦م ، زحف هذا الاخير الى مدينة الجزائر ، ودخلها بعد ان خاض صراعا عنيفــا ضد ابن القاضي في احوازها قتل فيه هذا الاخير غدرا على يد بعض اتباعه ، وكان ذلك سـبب هزيمـة عسكره ايضا .(١) وهذا على الارجح في سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م . وقبل ان يستقر تمامـــا فيها ، تعرض الى شرشال ضد خصمه الآخر ، حسن قارة ، وتمكن من القبض عليه وقتله ، وقتل مجموعة من خلصائه (٢) ، ثم انبرى لمحاربة الحسين اخي احمد بن القاضي ، وبقي في طلبه نحو سنتين الى ان طلب الصلح ، وابدى استعداده لدفع ضريبة سنوية قدرها ثلاثون حملا من الفضه (٣) ، وذلك فـي ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م .

- تحرير الجزائر من الحصن الاسباني :

تفرغ خير الدين بعد القضاء على الناوئين له ، واخضاع المناطق المتمردة للقضاء على الحصن الاسباني ، الذى كان يخنق مدينة الجزائر ، ويراقب مدخلها الى الميناء ، مما جعل غزاة الجزائر لايدخلونه ولا يرسون فيه . وتمكن بعد خمسة عشر يوما من القصف المدفعي العنيـــف للحصن في ماى ١٥٢٩ من هدم اسواره ، وقتل او اسر جميع من بقي على قيد الحياة فيه . وبذلك حرر مدينة الجزائر من اخطار ذلك الحصن ، وحرر ميناءها فأصبح مستعملا من قبل غزاتهـــا (٤) .

وقد كان لتحرير الجزائر من الحصن المذكور او البنون ، دوى كبير لدى المسلمين والنصارى نفس خيرالدين هيبة كبيرة جعلت المترددين في ولائهم كعبد الله سلطان تلمسان انتر تبعيـــة وانعانا ، وعمق اقدامه رسوخا في الجزائــر .

وفي اعقاب القضاء على الحصن ((البنون)) صعد خيرالدين تهديده للوجود الاسباني في المراكز الاخرى ، حيث دعا سلاطين تلمسان وفاس وباديس ، وغزاة البحر التونسيين الى توحيـد جهودهم ، وشن هجوم مشترك بري وبحري على الاسبان في وهران (٥) الا ان هذا الهجوم لـــم ينفذ ، لعدم حصول تجاوب كاف من جميع الاطراف ، ولكن الحاميات الاسبانية اصبحت تعيـــش في خوف دائم ، ولا سيما بعد ان قطع عبدالله سلطان تلمسان التموين عنها ، فأصبحت تعيـــش في خوف وجوع معا ، لأن وصول التموين اليها من اسبانيا كان كثيرا مايتأخـــر (٦) .

وكان رد فعل الاسبان على سقوط (البنون) وتزايد هجمات غزاة الجزائر :

أ- تكليف شارلكان لأندري دوريا بالقيام بحملة ضد هؤلاء الغزاة ، فقام بهذا الصدد بهجــوم مفاجيء على مدينة شرشال الساحلية ٩٣٨هـ / ١٥٣١م ، الا ان اهل المدينة الذين تحصـــنوا

---

(١) نفســه : ص ٦١-٦٣ ، وميرسي : المرجع السابق جزء ٣ ، ص ١٢٠ .
(٢) المجهول : المرجع السابق ص ٦٢-٦٤ .
(٣) نفســه : ص ٦٦
(٤) نفســه : ص ٦٦-٦٨ وبريموداى : المرجع السابق ص ٣٢ وهاى دو : المرجع السابق ص ٤
(٥) بريموداى : نفس المرجع السابق ، ص ٣٥
(٦) نفســه : ص ٥٦

القصبة من الحامية ، انقضوا على المهاجمين وهم منشغلون بأعمال النهب في المدينة ، فقتلوا
سروا الكثيرين ، ثم ان دوريا اضطر للانسحاب على عجل من شرشال قبل ان يلحق به
يرالدين ، الذي تحرك اليه من مدينة الجزائر ، ولما لم يلحق به في شرشال اسرع في طلبه
الشواطئ الايطالية ، الا انه لم يظفر به ، فعاد الى الجزائر (١).

٢ـ قيام الفارو دو بازان (D. Alvaro de Bazan) بحملة في ١٠ محرم ٩٢٨هـ/ ٢٤ اوت
١٥٢ على مدينة هنين الساحلية ، التي كانت شبه خالية اذ لم يكن فيها الا حامية زيانية صغيرة
منن من احتلالها ، وكان القصد من ذلك ، حرمان تلمسان من منفذها البحري ، الذي كانت
صل من خلاله بالتجار الاوربيين والضغط على عبدالله سلطان تلمسان الموالي لخيرالدين
تراجع عن ولائه ، والاستفادة بمزايا هنين الاخرى (٢).

٣ـ التفكير في القيام بحملة كبرى ، يقودها شارلكان نفسه ضد مدينة الجزائر للقضاء
ى مصدر الخطر (٣) ولكن غزاة الجزائر لم يكفوا عن مهاجمة الشواطئ والسفن الاسبانية ،
الحاق خسائر كبيرة بها ، وتأييد الثورات التي كان يقوم بها الاندلسيون من حين لآخر ، وتقديم
لعون لهم ، ونقل الكثير منهم الى الشواطئ الجزائرية (٤) ، حتى بات نقل غزاة الجزائر للمهاجرين
الاندلسيين ، عقب كل عملية غزو للشواطئ الاسبانية من التقاليد المحترمة (٥).

ـ استدعاء خير الدين الى استانبول ، والولاية الاولى لحسن آغا :

وفي سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م ، استدعى السلطان العثماني سليمان القانوني خيرالدين
اليه ، واسند له قيادة البحرية العثمانية ، وفوض له الامر في دار الصناعة (٦) وقبل توجهه الى
ستانبول استخلف على الجزائر حسن آغا .

وقد كان هذا الاخير من كبار مساعدي خيرالدين ، والمقربين اليه ، نشأ وتربى في بيته ،
وعهد له قبل استخلافه بمهمات عديدة اظهر فيها ذكاء وشجاعة ، وهو اصلا من جزيرة سردينيا (٧).

وتميزت ولايته الاولى (٩٤٠ـ٩٤٢هـ/ ١٥٣٣ ـ ١٥٣٥م) بالتدخل في شؤون تلمسان
حيث قام باعانة الامير الزياني محمد بن عبدالله ، الذي كان يقيم في مدينة الجزائر ، بعد ان
فشل في الاطاحة بوالده ، وفي الحصول على عون سلطان فاس ، او اسبانيي وهران ، على انتزاع
الملك في تلمسان ، من اخيه عبدالله الذي تولى بعد وفاة والدهما في اواخر سنة ٩٤٠هـ/
١٥٣٣م ، ونجح فعلا بفضل تلك الاعانة من اخذ الملك منه في ٢٨ رجب سنة ٩٤٠هـ/ ١٢/ ٢/
١٥٣٤م . كما تميزت بمشاركته الى جانب خيرالدين في محاولة صد حملة شارلكان على تونس (٨).

(١) المجهول : المرجع السابق ص ٧١ـ٧٢ ، ومارمول : المرجع السابق ص ٢٩٤ ، وهايدو والمرجع
السابق ص ٤٤ـ٤٥ .
(٢) بريموداي : المرجع السابق : ص ٥٧ـ٦٠ .
(٣) نفسه : ص ٥١
(٤) المجهول : المرجع السابق ص ٨٠ـ٨٢
(٥) نفسه :
(٦) نفسه : ص ٨٨ـ٨٩ ، وبريموداي : المرجع السابق ص ٧٠ .
(٧) هايدو : المرجع السابق : ص ٦٢
(٨) بريموداي : المرجع السابق ص ٤٧ـ٥٠ ، و :
Ruff (P.): La Domination Espagnole A Oran. 1534-1558.
Paris 1900, P.36.

ـ استيلاء خيرالدين على تونس، عام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م :

كان لتونس اهمية كبيرة في تأمين المواصلات بين الحوضين الغربي والشرقي للمتوسط، وبين مقر الدولة العثمانية، وايالة الجزائر، اذ تتحكم في المضيق بينهما وبين صقلية . وكان لتونس اهمية اخرى في توطيد الحكم العثماني في الجزائر، بل وفي كل شمال افريقيا . وقد ادرك خيرالدين اهميتها لاسيما بعد ان عانى من مؤامرات سلطان تونس، منذ كان بايلرباياً في الجزائر . فلما استلم قيادة الاسطول العثماني في سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م كما ذكرنا، كانت اولى اعماله البارزة الاقدام على ضم تونس الى السيادة العثمانية في سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م، تمهيداً لبسط السيادة العثمانية على كل المغرب الكبير .(١)

وقد استغل خيرالدين في هجومه على تونس في صيف السنة المذكورة عدة عوامل منها : اضطراب البلاد التونسية وتمزقها، وكراهية السكان للسلطان الحسن بن محمد الحفصي الذى اساء السيرة فيهم، واغتصابه السلطة من اخيه الاكبر (الرشيد) الذى اضطر الى الالتجاء اليه لدعمه ضد اخيه لاسترجاع ملكه، ودعوة بعض اعيان تونس وعلمائه له، ووعدهم بأن يمكنوه من مدينة تونس والبلاد التونسية .(٢)

ولذلك فانه لم يجد اى صعوبة في الدخول الى تونس التي خرج منها السلطان الحسن فاراً الى عرب البادية، بل ان خيرالدين لقي الترحيب من قبل سكان مدينة تونس(٣) الا ان هؤلاء مالبثوا ان ثاروا عليه لما علموا انه لم يصطحب معه الامير الرشيد الحفصي لتنصيبه كما اشاع، وكما كان منتظراً ان يفعل، وانه اخذ تونس باسم السلطان العثماني سليمان القانوني . وقاد الحسن الحفصي الذى عاد الى تونس مستغلاً ثورة التونسيين ضد خيرالدين، الا ان هذا الاخير تمكن من القضاء على ثورتهم بعنف . وفر الحسن ثانية الى طوائف العرب في داخل تونس، بينما قبل سكان تونس العاصمة بالامر الواقع .(٤) وضاعف خير الدين من نشاطه لتوطيد سلطاته في المدينة، ثم في كل البلاد التونسية، مستعملاً اسلوب الترغيب والترهيب، والعفو تارة والبطش اخرى .(٥) وتمكن في فترة قصيرة من الامساك بزمام الامور فيها، ودانت له القبائل بالولاء، وخضعت له المدن المختلفة، وباءت محاولات الحسن في دفع التونسيين الى الثورة ضد خيرالدين بالفشل . وحينئذ توجهت ادارته الى طلب العون من الاسبان .

ـ حملة شارلكان على تونس، ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م :

ماكان استيلاء خيرالدين على مدينة تونس الهامة ليرضي الاسبان وسائر الايطاليين والبابا نفسه، ولذلك فقد صمم شارلكان على اقتلاعه منها، وزاد تصميمه لما اتصل به طلب السلطان

(١) غرول : المرجع السابق، ص ٢٤٦
(٢) ما يدو : المرجع السابق ص ٤٦، والمجهول : المرجع السابق، ص ٩٢، وابن ابي دينار المرجع السابق ص ١٦٢ـ١٦٤، وبريموداي : المرجع السابق، ص ٩٤ـ٩٥، ٦٨
(٤) بريموداي : المرجع السابق ص ٩٥ـ٩٦، والمجهول: المرجع السابق ص ٩٢ـ٩٣ .
(٥) المجهول : نفس المرجع السابق ص ٩٣ .

الحسن الحفصي المخلوع ، بطلب عونه ضد خيرالدين لاسترجاع ملكه ، فجهز حملة ضخمة في التاريخ المذكور ، تمكن بها من انتزاع تونس من خيرالدين ، بعد معارك عنيفة ، واعاد الحسن الحفصي الى عرشها بعد ان تحمله بعدة شروط اهمها : احتفاظ الاسبان بصفة دائمة بحلق الوادي ، واقامة حصن لهم فيه ، وضريبة سنوية له [1] ولكن الهدف الرئيسي للحملة الاسبانية الضخمة التي اشتركت فيها عدة امم مسيحية لم يتحقق . اذ لم تتمكن من القضاء على قوة خيرالدين الذي انسحب الى الجزائر ، ومنها الى جزيرة مايورقة الاسبانية ، وهاجم ماهون ، وغنمها ، واحرقها بعد نهبها . واسر اكثر من ستة آلاف اتى بهم الى الجزائر [2]. وبذلك ثأر خيرالدين من هزيمته في تونس قبل ان يعود الى استانبول ، وخفف من دوي انتصار شارلكان عليه ، ونغص على هذا الاخير وعلى رعاياه فرحتهم بالنصر .

وكان خيرالدين يعتزم تحرير وهران [3]، حين دعاه السلطان العثماني للعودة . فاستخلف حسن آغا للمرة الثانية على الجزائر التي غادرها هو واهله وحاشيته في اواخر سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م [4] ولم يعد بعدها اليها ، وتوفي عام ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م مكللا بانتصارات بحرية جديدة على الاسبان وحلفائهم .

ويعتبر خيرالدين المؤسس الحقيقي للنفوذ العثماني في الجزائر ، وواضع السياسة التي اتبعها من جاء بعده ورسم الاهداف التي تحقق بعضها في عهده ، وبعضها في عهود من تولوا بعده ، فتحرير الجزائر من القواعد الاسبانية ، وتوحيد البلاد الجزائرية ومد السيادة العثمانية على كامل المغرب الكبير ، ومساعدة مسلمي الاندلس . ولذلك كان لابد من تفصيل القول قليلا بالنسبة لعهده ، ويضاف الى ماتقدم من جهوده ان مدينة الجزائر اصبحت منذ عهده عاصمة للبلاد الجزائرية كلها تقريبا ، وهو الذي بنى لها ميناءها ، واوقف الاوقاف العديدة على بعض مساجدها . كما انه هو الذي نهض ببناء ميناء شرشال ، وانقذ الكثير من الاندلسيين المضطهدين في اسبانيا .

- الولاية الثانية لحسن آغا : (٩٤٢هـ - ٩٥٠هـ / ١٥٣٥ - ١٥٤٣م) :

كان على حسن آغا في بداية ولايته الثانية ان يستعد لمواجهة حملة اسبانية تسرد دت [5] الانباء ان شارلكان يعتزم القيام بها بعد نجاح حملته على تونس ، مما اثار مخاوف كبيرة في الجزائر . فاجتهد اولا في تحصين مدينة الجزائر ، واجراء الترميمات اللازمة على اسوارها واعادة الهدوء والاطمئنان الى سكانها ، فاهتم باحوال الرعية ، كما تزود بالاسلحة من فرنسا [6].

---

(١) بريمو داي : المرجع السابق ص ١٢٩ - ١٣٩ ، وابن ابي دينار المرجع السابق ص ١٦٤ ، احمد بن ابي الضياف : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان تونس 1963 ج2 ص 13
(٢) المجهول : المرجع السابق ص ٩٩ - ١٠٢ ، وهايدو : المرجع السابق ص ٥١
(٣) بريمو داي : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٢٩
(٤) نفسه : ص ٢٠٣ ، وهايدو : المرجع السابق ص ٥٦
(٥) نفسه : ص ٢١٤ - ٢١٥
(٦) نفسه : ص ٢١٤ - ٢٢٠ ، والمجهول : المرجع السابق ص ١١٥ .

ستكثير من بناء السفن ، وتوجيه الغزاة الى الشواطئ الاسبانية المعودة بغنائم وفيرة منها .

ولكن هزيمة خيرالدين في تونس واحتمال قيام الاسبان بحملة اخرى ضد الجزائر كان لهما أثيرها في انقلاب مواقف بعض مراكز القوى في الجزائر وهي :

١- سلطان تلمسان :

لما وصول الانباء بهزيمة خيرالدين امام شارلكان في تونس بادر السلطان الزياني محمد بن عبدالله ، الذي كان لحسن آغا الفضل في وصوله الى الملك كما تقدمت الاشارة ، الى التقرب من الاسبان ، فعرض في نهاية شهر صفر ٩٤٢ هـ / اوت ١٥٣٥ م ان يكون معهم وتابعا لشارلكان وان يدفع الضريبة التي كان يدفعها ابوه وجده ، وان يعيد الاسرى الاسبان الذين وقعوا في قبضته في ٢ محرم ٩٤٢هـ / ٤ /٧/ ١٥٣٥ م في المعركة التي خاضها جيشه مع القوات الاسبانية التي جاء بها اخوه عبدالله من وهران لانتزاع الملك منه[1] بل وابدى استعداده لان يقبض على خيرالدين بربروس ان التجأ اليه بعد هزيمته ، ويسلمه اليهم[2] وتوسل في رسالته المؤرخة في ٧ ربيع الاول ٩٤٢هـ / ٥/ ٩/ ١٥٣٥م لشارلكان ان يقبله تابعا ، وحليفا ، ويمنحه حمايته وكانت تلك الرسالة مرفوقة بمشروع معاهدة سلام لمدة عشر سنوات موقع من قبله ، جدد فيه عروضه السابقة الذكر ، وطلب ان يكف الاسبان عن ايواء اخيه عبدالله وتأييدهم له ، وان يعيدوا له المناطق الداخلية التي اقتطعها الاتراك من مملكة تلمسان اذا ما تمكن من احتلال المدن الساحلية الجزائر ، وشرشال ، وتنس[3]

وفي ٥ ربيع الثاني ٩٤٢هـ / ٣/ ١٠/ ١٥٣٥ م ، وقع على نص المعاهدة كما اقترحه عليه حاكم وهران وفيه تنازلات وامتيازات اضافية لتلمسان[4] الا ان الامبراطور شارلكان لم ير ضرورة لما يبدو لتوقيع معاهدة مع سلطان لاحول له ولا قوة ، متذبذب الولاء ، في الوقت الذي كان فيه اخوه عبدالله اللاجئ عنده ، مستعدا للتنازل عن كل شيء مقابل ان يجلسوه على كرسي الملك في تلمسان اسما بلا رسم[5].

ورغم انه لم يجد التجاوب لدى شارلكان ، فان السلطان محمدا لم يكف عن طرق باب الاسبان ، ويبدو انه لم يفتح له الا بعد سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١ م ، وهي السنة التي شهدت انكسار حملة شارلكان في الجزائر .

٢- سلطان تنس[6] :

اما سلطان تنس ، حميدة العبد الذي اعاده خيرالدين الى سلطنته بعد ان جرده اخوه عن منها ، كما رأينا في سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧ م ، فقد قام بدوره في اعقاب هزيمة خيرالدين

١) بريموداي : المرجع السابق ص٤٧ ، ١١٢ وروف : المرجع السابق ص ٣٥ وما يليها
٢) بريموداي : نفس المرجع السابق ص ١٤٦ـ١٤٨
٣) نفسه : ص ١٤٨ـ١٥٠
٤) نفسه : ص ١٨٠ـ١٨٢
٥) انظر التنازلات التي قبلها عبدالله لدى تنصيبه ملكا على تلمسان من قبل الاسبان في سنة ١٥٤٣ في بريموداي نفس المرجع الحالي ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
٦) يلقب في الوثائق الاسبانية بقائد تنس او الشيخ الرئيسي للشرق ، انظر بريموداي : نفس المرجع ص ٢١٧ .

في تونس ، وتردد انباء حملة اخرى على الجزائر بالتقرب من الاسبان[1] وابدى لهؤلاء استعداده للمساهمة في الحملة المنتظرة على الجزائر بثلاثة آلاف من حملة الرماح ، وبتوفير الاغذية للقوات الاسبانية بسعر مناسب[2] على امل ان يفوز بصداقة الاسبان ودعمهم له فيما يعرض له من قضايا[3].

۳- امير كوكو :

شرع احمد بن القاضي من جهته في التقرب من الاسبان في بجاية ، مدفوعا بدون شك بحقده على الاتراك العثمانيين ، ولما كان بين هؤلاء وبين اسرته من نزاع في عهد خيرالدين ، ونزعته الاستقلالية . ولما انهزم خيرالدين في تونس بلغ شارلكان حاكم بجاية باشعار ابن القاضي حتى يتمكن هذا الاخير من ان يتدخل عليه الطريق البري الى الجزائر[4]. ولكن خيرالدين عاد عن طريق البحر ، فلم يمكنه فعل اي شيء . وحين قام شارلكان بحملته على الجزائر في سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م ، سار ابن القاضي على رأس قواته للمشاركة فيها ، لكن الكارثة التي حلت بشارلكان قبل ان يصل هو بقواته الى مدينة الجزائر ، فعاد ادراجه الى جبله .

وحسب هايدو ، فان ابن القاضي قد زود شارلكان بالاغذية ، ولعل ذلك في بجاية عندما كان هذا الاخير في امس الحاجة اليها[5] وظل بعد فشل الحملة المذكورة على الجزائر على صلة بشارلكان واسباني بجاية ، يلح في رسائله ، على ضرورة رغبته على القيام بحملة اخرى ضد الاتراك في الجزائر ، ويعد بمشاركته الفعالة فيها[6] ولكنه لم يجد التجاوب المرغوب .

٤- سلطان تونس :

اما الحسن الحفصي سلطان تونس فقد حاول هو الآخر استغلال هزيمة خيرالدين ، فاعد في رمضان ٩٤٢هـ / مارس ١٥٣٦م حملة لاسترداد مدينة قسنطينة من الاتراك العثمانيين[7] علما ان سكانها قد طلبوا منه تعيين حاكم لهم[8].

- حملة شارلكان على الجزائر : (٩٤٨هـ / ١٥٤١م :

لم تسمح الظروف لشارلكان بالقيام بحملة على الجزائر قبل التاريخ المذكور ، وكان قد صمم على القيام بها مهما كانت الظروف ، بعد ان تزايدت شكاوى رعاياه من هجومات غزاة البحر الجزائريين[9].

---

(1) نفسه ، ص ٢٢٢
(2) نفسه ، ص ٢٢١
(3) نفسه ، ص ٢١٨
(4) نفسه ، ص ١٢٤
(5) هايدو ، المرجع السابق ص ٦٥
(6) انظر صورا عن رسالة من محمد بن القاضي الى شارلكان ، ورسالتين من حمرين احمد بن القاضي الى حاكم بجاية في ، المدني ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧
(7) بريموداي ، المرجع السابق ص ٢١٥
(8) نفسه ، ص ٢٠٢
(9) المجهول ، المرجع السابق ص ٨٠ ، ١٠٢ .

د ان كادت التجارة الاسبانية والايطالية في المتوسط تتوقف لانعدام الامن وتزايد اخطار
السفن التجارية في قبضة غزاة الجزائر ، ولكن انشغال شارلكان في السنوات الماضية التي
حملته على تونس بحروبه في الجبهة الاوروبية مع فرنسا وغيرها ، لم يجعله يهمل قضية الوجود
العثماني في مدينة الجزائر بالذات . فحوالما تذكر الوثائق والمصادر المعاصرة قد دخل في مفاوضات
مع خير الدين بربروسا[1] ودخل حاكم وهران الكونت دالكوديت في مفاوضات مماثلة مع حسن
آغا[2] بهدف الحصول على مدينة الجزائر دون حرب . ولما خاب سعيه وسعي حاكم وهران
شن حملة عليها . وقد كانت حملته فاشلة في ظروف غير مناسبة للابحار ، وللقيام بهجوم بحري
، اذ كانت في شهر اكتوبر ، وهو شهر تستقبل فيه الامطار بكثرة ، ويأخذ فيه البحر في
الهيجان . ولكن استهانة شارلكان بقوة الجزائريين بقيادة حسن آغا ، جعلته لا يستمع الى نصائح
المقربين له ، كاندري دوريا وغيره بتأجيل الحملة الى فصل الربيع المواتي للابحار[3] ولقد دفع هذا
الاصرار بعضهم الى الاعتقاد بأن حسن آغا قد قبل بتسليم الجزائر ، شرط قيام شارلكان بحملة
كبيرة تدفع عنه الشكوك ، وتظهره على انه كان مرغما على تسليمها[4] ولكن الواقع كذب هذا
الاعتقاد ، اذ كان دور حسن آغا في قيادة الجزائريين الى تحقيق اكبر انتصار على اضخم حملة صليبية
ضد اعظم امبراطور مسيحي في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، كبيرا[5]

وقد تضافرت مع ارادة الجزائريين بقيادة حسن آغا في المقاومة والهجوم ، قوى الطبيعة من
امطار ورياح ، في الحاق الكارثة بحملة شارلكان . وقد تناول تفاصيل هذه الكارثة مصادر
ومراجع عديدة مما يجعلنا في غنى عن الخوض فيها[6]

اما نتائج هذه الحملة فعديدة ، واهمها : اهمية الخسائر الكبيرة التي منيت بها الحملة في
العتاد والارواح ، او الغنائم الكثيرة التي حصل عليها الجزائريون ، والتي صار يضرب بها المثل
الاحزان التي تلقتها في اوروبا المسيحية ، او مانالها حسن آغا ، واعيان الجزائر ، واهلها
تقدير السلطان العثماني ، ولكن اهمها على الاطلاق ترسيخ دعائم الوجود العثماني في الجزائر
الحوض الغربي للمتوسط لاكثر من قرن ، اذ كان فشل حملة شارلكان امام الجزائر بداية مرحلة
جديدة هذا موقف الاسبان فيها موقف الدفاع بعد ان كانوا في موقف الهجوم ، اذ مالبثوا
ان فقدوا بجاية ، واصبحت وهران والمرسى الكبير كما مغزى موضع حملات عديدة ، وتفرغ فيها
حكام الجزائر العثمانيون لتوطيد نفوذهم في الجزائر ، وتوسيعه نحو الغرب والشرق ، الى المغرب
وتونس ، ونحو الجنوب ليشمل الصحراء الجزائرية ، بعد ان كان نفوذهم محصورا في شمال الجزائر
.....

(1)Watbled & Monnereau:Négociations de Charles-Quint avec Kheir-Edine. in R.A. Alger , t. 15, P.P. 138-141.
(2) Négociations Entre Hassan Agha et le Comte D'Alcaudète ; in R.A. Alger 1865 P.379.
(3) الجيلالي : المرجع السابق ص ٢٢٧
(4) انظر مفاوضات حسن آغا في المرجع السابق ص ٣٧٩ ، ود وغرامون : المرجع السابق ص ٥٨
(5) انظر عن دوره الكبير ، هايدو : المرجع السابق ص ٦٢ – ٦٤ ، والجيلالي : نفس المرجع ص
١١٥ – ١٢٢ .
(6) الجيلالي : المرجع السابق ص ١١٥ . وما يليها . مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٠٢
– ٤٠٨ ، هايدو : المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٥ ، المدني : المرجع السابق ص ٢٨٠ – ٢٩٧
ود وغرامون : المرجع السابق ص ٥٨ – ٦٢ ، ومقالة بلحميسي حول الحملة في مجلة تاريخ وحضارة
المغرب عدد ٦ – ٧ الجزائر ص ٢٤ – ٥٦ .

... موقف حسن آغا من المتذبذبين في ولائهم للحكم العثماني :

١ـ موقفه من امير كوكو :

لم يغفر حسن آغا لابن القاضي تحالفهم مع الاسبان بمناسبة حملة شارلكان ، فتحمس ... في ربيع ٩٤٨ هـ / ١٥٤٢م ، وحاربهم ، واضعف شوكتهم ، دون ان يصحب شارلكان ... تجم رغم الندااات المتكررة له ولا سبانيي بجاية.(١)

٢ـ موقفه من سلطان تلمسان :

ثم تحرك الى تلمسان لاخضاع محمد بن عبد الله المتذبذب في ولائه ، ولم يتردد هذا الاخير ... تراجع معه ، فقام باسترضائه ، وتعهد له بقطع كل صلة له مع الاسبان ، فقفل راجعا ... مدينة الجزائر دون ان يترك في تلمسان حامية ، كما كان يحتم ان يفعل(٢).

٣ـ موقفه من سلطان تنس :

اما حميدة العبد الذي اكتفى بالوعد فقط بالمشاركة في الحملة على الجزائر دون التنفيذ ، ... ابقاه حسن آغا في مركزه ايضا واظهر ولاءه بالمشاركة في صد حملة اسبانية على مستغانم كما ... سيأتي .

... رد فعل الاسـبان :

الحملة على تلمسان :(٩٤٩هـ / ١٥٤٢م)

كان الاسبان حريصين دوما على ان لا يمتد النفوذ العثماني الى الغرب الجزائري ما امكن ذلك . ... يستقر الامر للاتراك في تلمسان المجاورة لوهران ، ولذلك فانهم سرعان ما قاموا بحملة لاستبدال ... سلطان محمد الموالي لحسن آغا ، وتنصيب اخيه عبد الله الموالي لهم بدلا عنه ، وتمكنت الحامية ... قادها دالكوديت ، حاكم وهران بنفسه في مطلع ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م من احتلال مدينة ... تلمسان التي تخلى عنها السلطان محمد والكثير من سكانها ، ونهبها والبقاء فيها ثمانية ... ثم العودة بعد تنصيب عبد الله الذي كان تابعا للاسبان فيها . ولكن هذا الاخير كان ... مكروها من التلمسانيين لانه كان تابعا للاسبان من جهة ، ولأن الحملة ، التي جاء بها اوامر ... ارتكبت في تلمسان من الافعال الشنيعة ما جعلهم ينبذونه ، ويوصدون ابواب المدينة في ... عودته ، فعقب اول خروج له لمحاربة اخيه محمد ، وينقمون في وجه هذا الاخير . وانتهى ... عبد الله بأن التجأ الى عرب انكاد في صحراء تلمسان الذين قتلوه ، فضاعت بذلك جهود الاسبان ... تلمسان هباء .(٣) ولكن التدخلات الاسبانية في تلمسان لم تتوقف مما جعل المدينة تعيش في ... اضطراب دائم تقريبا ، الى ان حسم الامر فيها الاتراك العثمانيين وقضى على حكم السلاطين الزيانيين ... سيأتي .

١) انظر رسالة محمد بن القاضي الى شارلكان في المدني : المرجع السابق ص ٢٠٢ ، وفيها ان القتال استمر شهرين ونصف .
٢) مايدوه : المرجع السابق ص ١٦٦-١٦٧ .
٣) نفسه : ص ٦٨ ، وهاردول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٢٤٦-٢٤٨ ، وروف : المرجع السابق ص ٩٢ وما يتبعها .

الحملة على مستغانم :(٩٤٩هـ / ١٥٤٣م)

وفي اطار مقاومة امتداد النفوذ العثماني في المغرب الجزائري ، قام الكوديت في ١٤ ذي الحجة
هـ / ٢١ / ٣ / ١٥٤٣م ، بحملة على مستغانم بهدف انتزاعها من ايدي الاتراك العثمانيين ،
لما من اهميـة استراتيجية ، اذ هي قريبة من وهران ، وتشرف على الطريق بينها وبين مدينة
ئر ، الا انه فقل راجعا من مشارفها لوصول تعزيزات عثمانيـة كبيرة اليها . ووجد صعوبة
في التراجع الى وهران ، لتعرضه الى هجومات عرب المغرب الجزائري من جهة البر وقصف
ن الجـزائرية من جهة البحر ، بحيث تكبد خسائر كبيرة [1] وكان من بين من
لخ من مستغانم سلطان تنس [2].

الحملة على مستغانم :

رغبـة في اعادة هيبة الاسبان التي تعرضت لهزة كبيرة في مستغانم ، قام الكوديت بحسن
على حامية معسكر العثمانية ، واضطرت هذه الاخيرة الى الانسحاب من المدينة الى حسن
ـــه [3] والى هذه الحملة انضم المنصور بن ابي غانم قائد بني راشد . وكان المنصور شخصية .
ـة في بلاط محمد الزياني [4] ، سلطان تلمسان الموالي لاتراك الجزائر ، ومما يخفى انه تحول
عد ولهؤلاء ، وسنرى انه كان من اعداء الاتراك الالداء في المواقف التي سنذكرها .

ولم يتقد حسن آغا بتوطيد سلطاته في الشمال والغرب ، بعد ان تاثرت في اعقاب هزيمـة
الدين في تونس ، ولكنه سعى ايضا الى مد نفوذ الاتراك العثمانيين في الجزائر الى الجنوب ،
بهذا الصدد بحملة الى بسكرة [5] وما جاورها من بلاد الزيبان ، ولا يخفى مالبسكرة من
ـيـة اقتصادية فهي محطة لقوافل التجارة الذاهبة الى بلاد السودان والآتية منه ، كما انهـا
ـة هامة للحجاج الجزائريين والمغاربة [6].

وقد شهدت ولاية حسن آغا الثانية جلاء الاسبان عن عنابة في اواخر سنة ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م
ـد ان كانوا كثيرا من هجمات قبائل الشرق الجزائري ، واتراك قسنطينة . وكانت ولايته الاولى
شهدت جلاء الاسبان عن حنين في اواخر سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ، بعد تخريبهم لهما [7].

ولم يطل عمر حسن آغا كثيرا بعد سلسلة الانتصارات التي احرزها ، اذ توفي على الارجح في
ـر سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م [8].

(1) الكار من حملة مستغانم / د وزرامون ، المرجع السابق ص ١٧ ، روف ، المرجع السابق ص ١٠٢ – ١٠٨ .
(2) روف ، المرجع السابق ص ١٠٥
(3) مارمول ، المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٥٦ ، روف ، المرجع السابق ص ١١٢
(4) انكارجنه : م . ت . ، اسبانيا جـ ١ ص ٢٠٢ هامش ٦
(5) مارمول / المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٤
(6) بريموداي / المرجع السابق ص ٢٤٧ هامش ١
(7) روف / المرجع السابق ص ٣٥
(8) هايدو / المرجع السابق ص ٦٨ ، وانكار هامش ١

الولاية الاولى لحسن بن خيرالدين :
٩٥١هـ-٩٥٨هـ/١٥٤٤-١٥٥١م

حين حسن بن خيرالدين بيلربايا على رأس حكومة الجزائر في سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م خلفا
ن آغا ، تلبيــة لرغبة والده ، وتقديرا لجهود "آل بربروس" في مد النفوذ العثماني علــى
افريقيـــا .

ولما وصل الى الجزائر في ٢٩ ربيع الاول ٩٥١هـ/ ٢٠ جوان ١٥٤٤م ، كان حاجي باشا
تولى الامور في الجزائر مؤقتا بعد حسن آغا ، قد تمكن من القضاء على ثورة الشيخ بوطريق
بائل نواحي مليانه ، الذي ثار في اعقاب موت حسن آغا ، وزحف بقوات كبيرة من القبائل للقضاء
م الاتراك في الجزائر[1] ، فتفرغ البايلرباي الجديد لقضية تلمسان التي اشتد التنافســس
في عهده ، اولا بين الاسبان ، واتراك الجزائر العثمانيين ثم بين هؤلاء والاشراف السعديين .

صراع الاسباني العثماني على تلمسان :

كان الاسبان كما تقدم حريصين على عدم استقرار الامور في تلمسان للاتراك العثمانييـــن ،
راء الزيانيين الموالين لهم . ولذلك فان السلطان محمدا بن عبد الله الذي استرجع الملك
سان من اخيه عبد الله ، كما تقدم ، ما لبث ان اطاح به اخوه الاكبر احمد ، الذي كان يدعمه
المنصور بن ابي غانم . وكان هذا الاخير قد صار مواليا للاسبان ، وربما تم هذا بدعم من
، مما جعل ابن خيرالدين لا يتأخر كثيرا عن المسير الى تلمسان لازاحة احمد وخالعه الحكم .

وقد تمكن في ربيع الثاني من سنة ٩٥٢هـ/ جوان ١٥٤٥م من الدخول الى المدينة التــي
منها المنصور وابن اخته احمد واتباعهما متوجهين الى دبدو في شرق المغرب ، ومنها الــى
ان في وهــران ، بعد فترة من الاسر في المدينة المغربية من قبل اميرها مولاى عمار[2] ، مما
احسن الاثر على العلاقات بينه وبين اتراك الجزائر كما سنرى . ونصب حسن بن خيرالدين
تلمسان أغا احمد العلوج ، المدعو المنتصــر (MONTAREZ) وترك له عند عودته الى
رحامية تحميــه . ولكن الاسبان تدخلوا من جديد في سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م لتقديم
للسلطان احمد المخلوع وخاله منصور ، وتحركت حملتهم نحو تلمسان ، وسار حسن بدوره
سهما الحيلولة دون تحقيق غرضهم ، الا انه لم يلبث في هذه الاثناء ان وصله نبأ وفاة والده ،
الى الجزائر قبل ان يصطدم بالحملة الاسبانيــة التي تحركت في اتجاه تلمسان . وانحــاز
بد والى حامية تلمسان العثمانيــة لتنسحب منها الى مستغانم ، مما سمح لاحمد وخاله ان
ثانية الى تلمسان ، وان يستلما الملك فيها دون صعوبة[3] .

انظر عن ثورة بوطريق : هايدو ، المرجع السابق ص ٧٠-٧١
نفسه ، الصفحة ٧٤ ، والسلاوي ، الاستقصا جزء ٤ ص ١٦٢
رو ، المرجع السابق ، ص ١١٥ ، نقلا عن ب . موريليو ، حوار عن حروب وهران
نفسه ، ص ١١٦ ، ومارمول ، المرجع السابق جزء ٢ ص ٢٤٨-٢٥١ وهايدو ، المرجع
السابق ص ٧٤ . وتاريخ حملة حسن بن خيرالدين هذه ليس متفقا عليه ، فبعضهم
يجعل الحملة في سنة ١٥٤٦ وآخرون في سنة ١٥٤٧ وبعضهم في سنة ١٥٤٨ .

- حملة الاسبان الثانية على مستغانم :(٩٥٤هـ / ١٥٤٧م):

حاول الاسبان استغلال ظروف حسن ابن خيرالدين المذكورة للقيام بمحاولة ثانية لانتزاع مدينة مستغانم من ايدى الاتراك ، ولكن حامية مستغانم التي انضمت اليها حامية تلمسان ، وبلغتها إمدادات من الجزائر استطاعت الصمود ، ووجد الاسبان صعوبة كبيرة في الانسحاب الى وهـران كالمرة الاولى ، وتكبدوا خسائر كبيرة .

وكان من نتائج فشلهم الثاني امام مستغانم انحصارهم في وهران ، واكتفاؤهم بالدفاع عن انفسهم فقدك حوالي عقد من السنين تقريبا ، مما سمح لاتراك الجزائر ان ينهوا قضية تلمسان لصالحهم .

- نهاية حكم الزيانيين في تلمسان :

تقدم ان الزيانيين فقدوا استقلالهم في حكم مملكتهم التي ما انفكت تتقلص حتى باتت تكاد تكون مقصورة على مدينة تلمسان فقط ، وذلك منذ العقد الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادى ، واصبحوا اما تابعين للاسبان ، او لاتراك الجزائر العثمانيين ، واستمر وضعهم يتدهور باستمرار تمهيدا لزوالهم نهائيا من المسرح السياسي .

وفي اعقاب الفشل الاسباني الاخير امام مستغانم ، تدخل حسن بن خيرالدين في تلمسان مرة اخرى ، ونصب سلطانا مواليا له[1] وذهب احمد وخالد يطالبون عون الاسبان وحرب تلمسان لاستعادة الملك ، بدون جدوى[2].

- التدخل السعدى في تلمسان : (٩٥٧-٩٥٨هـ/ ١٥٥٠-١٥٥١م) :

وفي الوقت الذى بدا فيه وكأن امر تلمسان قد خلص لاتراك الجزائر العثمانيين ، واستتب لهم ، اذا بالاشراف السعديين الذين قضوا على الدولة الوطاسية ، واستكملوا توحيد المغرب ، يوجهون انظارهم لضم تلمسان الى مملكتهم . وتمكنوا من احتلالها فعلا في سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، ولكن ولد حسن بن خيرالدين تمكن من اجلائهم عنها في السنة التالية بعد صراع عنيف ، سنعود اليه بالتفصيل في الفصل الرابع ، وابعدوهم الى ماوراء نهر الملوية .

وازاء الاطماع السعدية من جهة ، والتدخلات الاسبانية من جهة اخرى ، قرر حسن بن خير الدين في سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م ان يكون حكم مدينة تلمسان بيد قائد تركي ، دون ان يكون الى جانبه سلطان زياني ، مهما كان ضعيفا ، وان يقيم فيها حامية تركية قوية ، فوضع بقراره ذلك نهاية لحكم الاسرة الزيانية التي غدت منذ عدة عقود بلا قوة ولا شعبية .[4]

---

1) دوفرامون : المرجع السابق ص ٧٥ وروف : المرجع السابق ص ١٢٠-١٢٤
2) تعرضت خلال سنة ١٥٤٨ السلطانين مجددا في افرين ثم الحسن في انتوبر ، وكلاهما حسن ابناء عبدالله ابنيـهما . انظر : م.ن.، اسبانيا ج ١ (المقدمة) ص ٢٠١ وما بعده
3) م.ن. : اسبانيا ج ١ ص ٢٦-٢٤٢ .
4) انظر عن نهايتها : المصدر السابق ص ٥٩٩-٦٠٢ .

- صالح رايس يخلف حسن بن خير الدين :
٩٦٠–٩٦٣هـ / ١٥٥٢–١٥٥٦م

وفي اعقاب الصدام بين اتراك الجزائر العثمانيين واشراف المغرب السعديين ، استدعي حسن بن خير الدين الى استانبول للأسباب الاتي ذكرها في الفصل الرابع . وفي انتظار وصول البايلرباي الجديد استخلف حسن على الجزائر القائد صفا ، الذي قاد جيش الجزائر الى النصر على السعديين (١) . وكان البايلرباي الجديد هو صالح رايس . وهو من اصل مرسي ، ولد في الاسكندرية (٢) ، وفور استلامه الحكم في الجزائر في ربيع الثاني سنة ٩٥٩هـ/ افريل ١٥٥٢م ، حصل على تحسين علاقاته مع السعديين ، وتوصل الى اتفاق سلام معهم لم يدم طويلا كما سنرى مفصلا في فصل العلاقات السياسية الرابع . وبعد الاطمئنان من جهة السعديين قام بحملة الى توقرت وورقلة في الجنوب الجزائري لاخضاع امرائها الذين تمردوا على دفع الضريبة المعتادة ، ورافقه في تلك الحملة عبد العزيز امير بني عباس .

وقد تمكن صالح رايس من تثبيت نفوذه على المنطقتين ، واخذ العهود من اعيانها ، وامرهما بأداء الضريبة المفروضة لحكومة الجزائر . وحسب ما يبدو ، فان امراء توقرت وورقلة ظلوا اوفياء للعهد ، خوفا من بطش الاتراك (٣)

ويضيف مارمول (٤) ، بأن صالح رايس عاد من توقرت وورقلة بخمسة عشر جملا محملا بالذهب ، ولا عجب فقد كانت المدينتان مركزين تجاريين هامين للتجارة بين الجزائر وتونس في الشمال وبلاد السودان في الجنوب . ويظهر ان تحرك صالح رايس الى الجنوب لم يكن فقط من اجل الضريبة التي امتنع من ادائها امراء المدينتين المذكورتين ، ولكن ايضا من اجل استعادة السيطرة على الطريق التجاري الذي تتحكم فيه ورقلة وتوجهه اما الى تونس وطرابلس او الى الجزائر الشمالية .

وفي اثر رجوع صالح رايس وعبد العزيز ، امير بني عباس ، دب النزاع بينهما . لأن صالح رايس كان يريد اخضاع الزعامات المحلية اليه ، وهو أمر لم يكن لينسجم مع طموح امير بني عباس على استقلاله ، فثار عليه . وحسب مارمول فان سبب النزاع هو الغنيمة التي عادا بها من الجنوب ، والتي شعر امير بني عباس انه لم يحصل على نصيبه المجزي منها ، بالاضافة الى دسائس حسن قورصو ضد الامير المذكور ، الذي ابدى بطولة كبيرة في صد السعديين عن تلمسان ، فاقت بطولة حسن المذكور (٥) .

وقد حصلت بين الطرفين عدة معارك قاد احداها صالح رايس بنفسه ، والاخرى ولده محمد والثالثة سنان رايس ، انتهت جميعها بانهزام الاتراك (٦) مما جعل خصمه يستفحل وشهرته تزداد ، واتباعه يكثرون . ومما زاد امره خطرا ، انه كان يقيم علاقات مع القوى المعادية للحكم التركي في الجزائر ، كالاسبان والسعديين ، تستهدف التعاون للقضاء على الحكم المذكور (٧) .

(١) هايدو : المرجع السابق ص ٨٢–٨٤ و م . ت . م : اسبانيا جزء ١ ص ٢٠٦ هامش ٥
(٢) هايدو : نفس المرجع ص ٨٥
(٣) نفسه : ص ٨٦–٨٨ و : Féraud: Les Beni-Djellab, in R.A., No. 136.
(٤) مارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٤٢٥–٤٢٦
(٥)(٦) نفسه : ٤٢٦–٤٢٧
(٧) م . ت . م : اسبانيا جزء ٢ ص ٢٧٦ .

كان يسعى الى التحالف معهما ولذلك فان صالح رايس توجه الى القضاء على القوى التي
سبان وسعديين ، كما توجه الى القضاء على امير زيري الحفاظ التقليدي لامير بني عباس ، فبعد
عقد الصلح معه في سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م اشركه في حملته على المغرب في السنة التاليـــة[1] •
الحملة التي مكنته من تنصيب ابي حسون الوطاسي سلطانا على فاس في صفر ٩٦١هـ/ يناير
١٥٥٤م ، ومن احتلال حجر بادس بشمال المغرب ، واعادة الامارة الى مولاى عمار في دبدو ،
تالي من مد النفوذ العثماني الى المغرب • وسنعود الى تفاصيل هذه الحملة في الفصـــــل
الـــــرابع •

تحرير بجايــة : (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م) :

بعد ان وجه صالح رايس ضربته الى السعديين في المغرب ، فانه انصرف الى تحرير الشواطئ
الجزائرية من بقية القواعد الاسبانية • وذلك ليس فقط بهدف دحر الاسبان ، واخراجهم مـــن
اراضي الاسلامية ، ولكن ايضا لدعم وحدة الجزائر ، وحرمان بعض الزعامات المحلية كبني عبد الواد
العون الذي كانوا يجدونه لدى اسبانيي بجاية ووهران ، او من المحتمل ان يجدوه عندهم ،
والذي كانوا يجدونه لدى اسبانيي بجاية ووهران • وقد اخذت هذه في التناقص بعد ان اخذهم
بدا للقضاء على ما بقي من الزعامات المحلية • وقد كان قضاء على الزيانيين في العقد السادس من القرن العاشر الهجري/
زيانيين في تلمسان وحوت عهده العهد سلطان تصرف العقد السادس من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، الذي خلفه القائد صفا التركي[2] ، فقام بهذا الصدد باعلان الجهاد
السادس عشر الميلادي ، الذي خلفه القائد صفا التركي ، فقام بهذا الصدد باعلان الجهاد ضد اسبان بجاية ، فتجمعت لديه قوات كثيرة من المجاهدين الجزائريين الى جانب القوات التركيـــة
تحرير بجايــة ، فتجمعت لديه قوات كثيرة من المجاهدين الجزائريين الى جانب القوات التركيـــة العثمانيـة ، وتمكن من تحريرها في ٢ ذى القعدة ٩٦٢هـ/ ٢٨/ ٩/ ١٥٥٥م ، بعــد ان
العثمانيـة ، وتمكن من تحريرها في ٢ ذى القعدة ٩٦٢هـ/ ٢٨/ ٩/ ١٥٥٥م ، بعــد ان
استسلمت حاميتها له •

ويظهر من خلال الوثائق الاسبانية انها كانت حامية صغيرة تتألف من (٥٠٠) جنــدى
وضباط موزعين على ثلاثة حصون[3] وقد كان تحرير بجاية بعد نحو (٤٦) سنة من الاحتــلال
الاسباني ، كانت كافية لتفقدها كل اهميتها السياسية والثقافية والاقتصادية لفترة طويلة •

الحملة على وهران : (٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م) :

اخذ صالح رايس فور رجوعه من بجاية في الاعداد لحملة كبيرة على وهران والمرسى الكبير
وارسل في طلب العون من الدولة العثمانية ، وجاءه المدد المطلوب[4] وكان على اهبة التحرك حين
وافاه اجله في شعبان سنة ٩٦٣هـ/ جوان ١٥٥٦م ، بعد اربع وعشرين ساعة فقط من اصابتـــه
بوباء الطاعون[5] ، فانتخب حسن قورصو الذي انتخبه الانكشاريون خليفة له ، تسيير الحملة •
شخصيا في الحملة وانما كانت

---

(١) ... المرجع السابق ص ٩٠ (لم يشترك امير بني القاضي شخصيا في الحملة وانما كانت قواته فقط ...) •
(٢) نفسه ص ٨٤ •
(٣) نفسه ، ص ٩٢-٩٥ ، ومارمول المرجع السابق جزء ٢ ص ٤١٨ ، بربروداى : المرجع السابق ص ٢٧٣ — ٢٧٤ •
(٤) حسب هايدو ، كان المدد يتألف من (٤٠) كاليرة (سفينة حربية كبيرة) و (٦٠٠٠) من الجند الترك ، انظر ملوك الجزائر ، ص ٩٦
(٥) نفسه ، ص ٩٦-٩٧ ، وهو الوباء الذى قضى على كثير من العلماء ايضا •

... ماكاد يحكم الحصار على وهران حتى جاءته الاوامر من السلطان العثماني بالانسحاب ، وعودة ... الاسطول العثماني ، وذلك فيما يبدو لعدم الاطمئنان الى قيادة حسن قورصو من جهة ، ولأن ... ربما كانت دوريا قد توجه الى الحوض الشرقي من جهة اخرى ، مما يتطلب وجود الاسطول العثماني ... لصد هجماته . وقد يكون السلطان العثماني قد خشي ايضا من اصابة جيشه بالوباء الذي ... منتشرا في الجزائر (١)

وهكذا انجت وهران ومرساها الكبير من خطر حقيقي ، وكانت هذه اهم محاولة لتحرير ... في القرنين : العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، ... وكانت المحاولات الاخرى الجديدة ، ومنها محاولة حسن بن خيرالدين في سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م ... عسكرى تفتقر الى دعم الاسطول العثماني من جهة البحر .

ومما تقدم يتضح ان جهود صالح رايس في المجال الداخلي كانت ترمي الى توطيد الحكم ... العثماني بالقضاء على الزعامات المحلية ، او اخضاعها الى سلطاته ، واستكمال تحرير الشواطيء ... الجزائرية ، ومن ثم تحقيق الوحدة السياسية للجزائر .

اما في المجال الخارجي فكانت جهوده موجهة الى مد النفوذ العثماني الى المغرب ، واستغلال ... الظروف المتاحة للتدخل في هذا الاخير .

... اضطراب الحكم في الجزائر بعد موت صالح رايس :

ماكاد حسن قورصو يعود من وهران الى الجزائر حتى وصل محمد تاكرلي البايلرباي الجديد ، ... الذي عين لخلافة صالح رايس ، فلم يشأ استقباله وتسليم السلطة له . ولكن محمدا تاكرلي الذي فكر ... الرجوع عدل عن ذلك ، ونجح في استمالة طائفة الرياس (رجال البحر) ، وكانت بين هذه ... الطائفة والجند الانكشاري الذي كان ينتمي اليه حسن قورصو خلافات جعلتها تتحمس لتأييد ... [illegible] الاخير . وعن طريق الطائفة دخل تاكرلي الى المدينة وتمكن من استلام السلطة والقبض على ... حسن قورصو وعلى كبار انصاره ، وقتلهم ، وذلك في اواخر ذي القعدة ٩٦٣هـ/ سبتمبر ١٥٥٦م ، ... بقية اتباعه يتحينون الفرصة للتخلص منه . وبعد بضعة اشهر فقط تمكن يوسف قائد تلمسان ... [illegible] وانتخبته الانكشارية حاكما . الا ان حكمه لم يستمر الا ستة ايام ، حيث مات بالطاعون ... الاختيار بعده على القائد يحيى الذي عمل على اعادة الهدوء الى المدينة (٢) .

وقد كان الاضطراب الذي شهدته مدينة الجزائر فرصة ذهبية للسعديين والاسبان للتدخل ... المغرب الجزائري ، وتحقيق اطماعهم ، فأقدم السعديون على احتلال تلمسان في شعبان ٩٦٤هـ/ ... [illegible] ١٥٥٧م ، ثم انسحبوا منها بعد حين للسبب الآتي ذكره ، في حين ذهب الكونت ... [illegible] وهران الى اسبانيا لاحضار القوات اللازمة لاحتلال مستغانم .

---

(١) انظر عن الاسباب : هايدو : نفس المرجع السابق ص ٩٩ ، ومارمول : المرجع السابق ص ٣٦٦
(٢) انظر عن هذه الاضطرابات : هايدو : نفس المرجع ص ٩٩-١١٢ ، وبريموداي : المرجع السابق ص ٧٥-٢٧٨ .

- الولاية الثانية لحسن بن خيرالدين :
(٤) ٩٦٤هـ - ٩٦٨هـ / ١٥٥٧ - ١٥٦١م)

قبل ان يعود د الكوديت من اسبانيا ويتمكن السعديون من اخضاع العاصمة الترنية قسمي لمسان ، وصل حسن بن خيرالدين الذي عين المرة الثانية على رأس حكومة الجزائر ، الى مدينة الجزائر ، واستلم الحكم فيها دون اى معارضة في شعبان سنة ٩٦٤هـ / يوان ١٥٥٧م . ثم سرع الى تلمسان لاسترجاعها ولفك الحصار عن حاميتها ، ولم ينتظر السعديون وصوله فانسحبوا من المدينة . ولكن حسن بن خيرالدين لم يكتف بذلك ، فأرسل من يغتال السلطان السعدى محمدا الشيخ ، وياتيه برأسه . فكان له ما اراد في شهر ذى الحجة ٩٦٤هـ / اكتوبر ١٥٥٧م . ثم اقدم على شن هجوم على المغرب لاحتلال فاس ، الا ان هجومه باء بالفشل ، وسنعود الى هذه الاحداث بالتفصيل في الفصل الرابع . وقد عاد من المغرب وهو لتعقبه منهزم من طريق البحر ، واستعد لحملة د الكوديت التي استهدفت مستغانم المرة الثالثة .

- حملة د الكوديت الثالثة على مستغانم :
ذو القعدة ٩٦٥هـ / اوت ١٥٥٨م

فاتت د الكوديت فرصة التدخل في مستغانم او في الجزائر ، حين كان الوضع في هذه الاخيرة مضطربا قبل عودة حسن بن خيرالدين الى الجزائر ، وذلك لتأخر حصوله على القوة الكافية . فأراد ان يغتنم هزيمة ابن خيرالدين في المغرب ، في ربيع ٩٦٥هـ / افريل ١٥٥٨م ، فشن حملة كبيرة على مستغانم (١) في محاولة ثالثة لاحتلال هذه المدينة الهامة التي كان يتخذها الاتراك العثمانيون قاعدة لعملياتهم في الغرب الجزائرى ، وضد وهران على الخصوص . الا ان المحاولة الثالثة لم تكن افضل من سابقتيها ، بل هي اسوأ بكثير ، ذلك انه لم يتمكن من اقتحام المدينة قبل وصول الامدادات الكبيرة اليها من الجزائر وتلمسان ، الامر الذى جعله يأمر بعد وصول تلك الامدادات بالانسحاب ، وكان ذلك في فوضى واضطراب . وما كاد يصل الى قرية مازغران المجاورة لمستغانم ، حتى وجد نفسه محاصرا من جميع الجهات ، ومضطرا الى القتال في فوضى واضطراب ، وفي اعياء وجوع وعطش ، فلقي مصرعه وقتل او اسر كل جيشه في ١٢ ذى القعدة سنة ٩٦٥هـ / ٢٦/ ٨/ ١٥٥٨م . ولم يبق احد ليوصل خبر الكارثة الى بقية الاسبان في وهران والمرسى الكبير (٢).

وكانت الفرصة مواتية لتحرير وهران والمرسى الكبير لو ان حسن بن خيرالدين اقدم على الهجوم مباشرة من مستغانم ، اذ لم يبق فيهما غير الحرس والنساء والاطفال والعجزة ، ولكنه لم يغتنمها ، وذلك فيما يبدو راجع لعدد الاسرى الكبير الذى قدر بنحو (١٢٠٠٠)، وربما لنقص المدفعية ايضا لاقتحام اسوار وهران الضخمة .

---

(١) كانت تتألف حسب هايدو من اكثر من (١٢٠٠٠) جندى ، انظر ملوك الجزائر ص ١١٧ - ١١٩ .

(٢) روفه ، المرجع السابق ص ١٦٢ .

- موقف حسن بن خيرالدين من امير بني عباس :

لم يهتم حسن بن خيرالدين بجيرانه السعديين ، وبالاعداء الاسبان فحسب ، بل سعى للقضاء على الزعامات المحلية المتمردة ، او استمالتها ، ومن هؤلاء : امير بني عباس ، وامير كوكـو

وقد اصبح عبد العزيز امير بني عباس يشكل خطرا كبيرا على العثمانيين ، اذ لم يكتف برفض الخضوع لهم ، وانما كان يقوم ايضا بمهاجمة المناطق الخاضعة لسيطرتهم ، ويهددهم في بجايـة ، كما ويهدد مواصلاتهم مع قسنطينة ، ويظهـر استعدادا للتعاون مع السعديين . ومما كان يزيـد من قلق حكام الجزائر ، ان قوته العسكرية كانت في تزايد مستمر ، بما كان يضمه الى صفوفه من الاسبان الهاربين من سجون اتراك الجزائر ، ومن مسلمة النصارى (1) ، الامر الذي جعل حسن يقرر محاربته ، فجهز لهذا الغرض حملتين (2) الاولى ، في سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م ، وفيها اهتم على الخصوص ببناء بعض الابراج في المناطق المجاورة لمقر عبد العزيـز كبرج مجانه وبرج زموره ، بغية حصره في قلعتـه ، وتوفير الامن لدروب سهول مجانـة وغيرها ، وتأمين طريق المواصلات بين الجزائر وقسنطينه . الا انـه ما كاد يعود الى مدينة الجزائر حتى هجم عبد العزيز على الابراج والحاميات التركية فيهمـا فأبادها واستأصل شـأفة من فيهمـا .

وقبل ان يقوم حسن بحملته الثانية حاول استمالة امير بني عباس عن طريق المصاهرة ، ولكن عبد العزيز رفض ان يزوجه من ابنتـه ، وحينئذ مال الى ابن القاضي امير كوكو ، وتزوج من ابنتـه واشركه صهره في الحملة على خصمهما المشترك . وبعد معارك عنيفة عديدة ، كان النصر يؤول فيها الى عبد العزيز ، تم قتلـه ، واستلم القيادة اخوه " امقـران " ، واستمر في المقاومة ، الامر الذي جعل ابن خيرالدين ينسحب بعد ثمانية ايام من القتال دون ان يحقق انتصارا حاسـما وكان ذلك اثر وصول انباء بتحرك السلطان السعدي الى تلمسان ، وتحرك حملة مسيحية ضخمـة مؤلفة من الاسبان وحلفائهم الى طرابلس الغرب تستهدف القضاء على الوجود العثماني في الحـوض الغربي المتوسط ، بعد قطع طريق الامدادات عن الاتراك العثمانيين فيه . وهي الحملة التي تحطمت في جربه سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م (3) امام الاسطول العثماني ، فنجت بذلك الجزائر من خطر جسيم ، كما انسحب السعديون في اعقاب ذلك من تلمسان دون قتال . ولكن امير بني عباس الجديد بقي محتفظا باستقلاله ، ونفوذه ، ليس فقط على منطقته ، ولكن ايضا على المناطق المجاورة لها مـن جهة الجنوب والشرق ، ومستعدا للاقتراب من خصومه الاتراك (4)

ويذهب هايدو الى ان حسن بن خيرالدين اعترف بامير بني عباس اميرا تابعا دون ان يكون مجبرا على دفع الضريبة له ، وان هذا الاخير اقام معه تحالفا دفاعيا وهجوميا (5)

---

(1) هايدو ، المرجع السابق ص ١١٩
(2) نفسه : وهو لا يتحدث الا عن حملة واحدة في سنة ١٥٥٩ في حين يتحدث مارمول عـن اثنتين ، انظر افريقيا جزء ٢ ص ٤٢٨
(3) مارمول : نفس المصدر ص ٥٥٢-٥٦٠
(4) نفسه : جزء ٢ ص ٤٢٧-٤٣٠
(5) هايدو ، المرجع السابق ص ١٢٠ .

وكان حسن بن خيرالدين قد اتخذ بعد حملة على السعديين في المغرب، حين القى قادة الجند الانكشارى عليه القبض، وارسلوه مقيدا الى استانبول في ذى القعدة ٩٦٨هـ/ جويلية ١٥٦١، بدعوى انه كان يتقرب كثيرا من القبائل، ويريد الاعتماد عليهم تمهيدا للاستقلال عن الدولـــة .(١)

وهذا الموقف من الجند الانكشارى، وقادته يدل على تزايد خطرهم على حكام الجزائـــر هذا الخطر الذى ما انفك يكبر كلما سعى ليبلغ الذروة في نهاية المرحلة موضوع الدرس .

- الولاية الثالثة لحسن بن خيرالدين حسن :
٩٦٩-٩٧٤هـ / ١٥٦٢-١٥٦٧م

تمكن حسن بن خيرالدين من تبرئة ذمته مما اتهمه به قادة الانكشارية . وبعد وفاة خليفـــه الباياربا احمد بعد بضعة اشهر، عهد اليه بحكومة الجزائر المرة الثالثة في شوال ٩٦٩هـ/ جوان ١٥٦٢م، اى بعد نحو سنه فقط من غيابه عن الجزائـــر(٢) .

وقد وجه حسن بن خيرالدين في ولايته الثالثة اهتمامه الى تحرير وهران، والمرسى الكبير من الاسبان لتأكده مرارا ان لا امتثال على مستغانم، وتلمسان، وكل الغرب الجزائرى، ومدينة الجزائر نفسها، طالما بقي الاسبان فيهما، وان الاقدام على اية حملة على المغرب السعدى، والاسبان في وهران ومرساها الكبير مغامرة كبيرة، لان خطر الزحف يكون مهددا بالقطع من قبلهم(٣) الا ان حملته عليهما في سنة ٩٧٠هـ/ ١٥٦٣م قد باءت بالاخفاق بعد حصار دام شهرين لاستبسال الاسبان في المقاومة حتى جاءهم مدد كبير من اسبانيا، الامر الذى جعلـه يأمر برفع الحصار عنهما على مضض(٤) على امل القيام بمحاولة اخرى .

وكان رد الاسبان على هذه الحملة القيام في ذى القعدة ٩٧٠هـ/ جويلية ١٥٦٣م . بحملة ضد حجر بادس الذى كان بيد الاتراك العثمانيين منذ ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م، فانتهت هـذه الاولى بالفشـل، لكنهم اعادوا الكرة في الحملة التالية وتمكنوا من احتلاله في ٢٨ محرم ٩٧٢هـ/ ٦ سبتمبر ١٥٦٤م .(٥)

وبينما كان يريد حسن بن خيرالدين التخلص نهائيا من الاسبان في وهران والمرسى الكبير وكان لهذا الغرض الاسطول العثماني، رأى السلطان سليمان البدء اولا باحتلال جزيرة مالطه التى كان فرسانها وقراصنتها يشكلون خطرا على المواصلات بين الجزائر والدولة العثمانيــــة،

---

(١) هايدو ، المرجع السابق ص ١٢٦ .
(٢) نفسه ، ص ١٢٥-١٢٦ .
(٣) كانت حملته على فاس في افريل ١٥٥٨ خشية ان يكون الاسبان قد قطعوا الطريق البحرى على حسن من طريق البحر .. دوغرامون ، المرجع السابق ص ٨٧
(٤) مارمول ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧١-٢٨٤ ، وهايدو ، المرجع السابق ص ١٢٨- ١٢٩ (دام الحصار من ٣/ ٤ الى ٧/ ٦/ ١٥٦٣ .
(٥) ب . ت . ، افريقيا ، ج ١ ، ص ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ويذكر صاحب تاريخ الدولة السعدية ان احتلال بادس من طرف الاسبان كان بتواطؤ من عبد الله الغالب بالله ، انظر: مجهول ، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ، الرباط 1934 ص37 .

لى الاسطول العثماني لتحتمها في المضيق الواقع بين الحوضين الشرقي والغربي • فدعما سن ابتداء من سبتمبر ١٥٦٤ لاستعداد الحملة عليها [1]. وكانت مشاركة الجزائر في الحملة ى مالطة في شوال ٩٧٢ - صفر ٩٧٣هـ / ماي وسبتمبر ١٥٦٥م مشاركة فعالة بقيادته [2] ، ولكن ى الفشل كان مصير هذه الحملـة •

وقد قام حسن بن خيرالدين قبيل ذهابه للاسهام في حصار مالطة • بتحصين مملكته مع د الله بن محمد الشيخ السعدي حتى يأمن هجومه على الغرب الجزائري في اثناء غيابه عن الجزائر ، حسن نبأ توحل الطرفين الى تحالف ضد الاسبان ، الامر الذى دفع الملك فيليب الى ارسال زن غزوات الى وهران [3]

وكافأة من السلطان سليم بن سليمان لخدمات حسن بن خيرالدين التي قدمها للدولة نفسه بعد موت بيالة باشا اميرالا للبحرية العثمانية في رجب ٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م فغادر الجزائر هائيا [4] بعد ان كان قد ثبّت الحكم العثماني فيه ، وخلف وراءه تنظيما اداريا لها ، ففي عهده تم تقسيم البلاد الجزائرية الى ثلاثة اقسام رئيسية ، كل قسم كان تحت اشراف باي ، ولذلك ان هذا القسم يدعى بايلك ، وهذه الاقسام او البيالك هي :

١ـ بايلك الغرب : وقد استحدثه اثر عودته من حصاره لوهران والمرسى الكبير ٩٧١هـ/١٥٦٣م ، بحل مقره في مدينة مازونة القديمة الداخلية الواقعة بين تنس ومستغانم • وبفضل موقعها هذا نت غير مهددة من قبل الاسبان ، كما ان هذا الموقع كان يسمح للباي ان يقدم مساعدته على تال السرعة لكل من حاميات تنس ومستغانم وقلعة بني راشد ، وحتى الى تلمسان •

٢ـ بايلك الجنوب : وهو اقدم من الاول ، اذ استحدث في سنة ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م ، نت قاعدته مدينة المدية الداخلية (٨٥ كلم جنوب مدينة الجزائر) ، وحدّه من الشمال سهل تيجة ، ومن الشرق وطان بني سليمان ، وسور الغزلان ، ويمتد جنوبا الى اعماق الصحراء •

٣ـ بايلك الشرق : وكانت قاعدته مدينة قسنطينة ، ولا يعرف بالضبط متى استحدث ، ذلك ن مدينة قسنطينة ظلت موضع تنافس بين الاتراك العثمانيين في الجزائر والحفصيين في تونس ، الى ن خضعت نهائيا لنفوذ الجزائر ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م • وحسب احمد الحراجي [5] كان اول باي قسنطينة هو رمضان الذى تولى في حدود سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣-١٥٤٤م) ، وعليه فيكون هذا بايلك اول البيالك المستحدثة •

٤ـ وهناك قسم صغير رابع كان يمتد بين دلس شرقا ، وتنس غربا ، وبين البحر شمالا والحدود لشمالية لبايلك الجنوب ، وكانت ادارته تحت الاشراف المباشر للبايلرباي ، وهو الذى كان يعرف بدار السلطان •

---

1) (٢) كايد و : المرجع السابق ص ١٢٠ •
٣) • • • : انكلترا ، ج١ ص٨٥
٤) كايدو : المرجع السابق : ص ١٢١ ، بيرسي : المرجع السابق ، ج٢ ص ١٠١
٥) انظر محمد المهدى : ام الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ قسنطينة) ، قسنطينة ١٩٨٠ ، ص ١٥٢ ، وهو ينقل عن الكبيرى : ملاح السفينة في بحر قسنطينة •

وقد كان كل بايلك يشتمل على عدد من الأوطان ، وكل وطن على عدة قرى وقبائل . وكان حكم الوطن يسند عادة الى تركي او كرغلي ، والحكم في القرى والقبائل لشيوخ من اهلها .

والقبائل حسب علاقتها بالسلطة ثلاثة انواع :

١- قبائل مخزنية متعاونة مع الدولة المركزية سلطاتها وحفظ الامن وجمع الضرائب .

٢- وقبائل الدايرة وكانت هذه تمد الدولة بعونها المادي والبشري عند الحاجة ، وتساند المخزن من كان معفيا من اداء الضرائب مقابل خدماته .

٣- قبائل الرعية ، وهي التي كانت تدفع الضرائب ، ولا تتمتع بأي اعفاء .

وهناك عدد من رؤساء القبائل والاسر الكبيرة ، كبني القاضي ، وبني عباس ، وبني جلاب وغيرهم ، ظلوا يحتفظون بنفوذهم مع التبعية للاتراك العثمانيين .(1)

وقد انشأ حسن بن خيرالدين كذلك ، مجموعة من الابراج والحصون في مدينة الجزائر والمقاطعات ، اهمها : البرج الذي يحمل اسمه في مدينة الجزائر والذي بناه في سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م في الموقع الذي خيم فيه الامبراطور شارلكان لدى حملته على الجزائر ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م ، ولهذا كان يحمل ايضا اسم برج الامبراطور ، وقد كان هذا البرج صغيرا ثم وسعه حسن فنزيانو سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م وهو لا يبعد عن مدينة الجزائر الا بنحو ١٧٠٠ خطوة نحو الجنوب(2) ومن مبانيه برج زمورة وغيرهما .(3)

ومدينة للاندلسيين في القليعة (٣٠ كلم غرب الجزائر) سنة ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م كان يسكنها اكثر من (٣٠٠) عائلة من مختلف نواحي الاندلس .(4)

وبنى مستشفى في مدينة الجزائر .(5) وحماما كبيرا فيها ايضا .(6) وساهم في بناء مسجد مدينة الجزائر .(7) ، وغيرها كثير .(8)

محمد بن صالح رايس وكيلا لحسن بن خيرالدين :
٩٧٥-٩٧٦هـ / ١٥٦٧-١٥٦٨م

استلم محمد بن صالح رايس الحكم في الجزائر خلفا لحسن بن خيرالدين في رجب ٩٧٤هـ/ جانفي ١٥٦٧م . ولم يكن غريبا عن الجزائر ، فقد كان فيها في عهد والده ، وساهم في الحملات العربية في عهده ككاتب وقائد ، اذ كرمها قيادته حملة لاخضاع امير بني عباس في ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م ، ولكن حملته تلك باءت بالفشل .(9)

(1) انظر عن التنظيم الاداري عموما في عهد البايلربايات ، الفصل الثامن من كتاب تاريخ افريقية الشمالية لميرسيي، جزء ٣ ص ١٢٨ وما يليها .
(2) هايدو ، الطوبوغرافيا في المرجع السابق ، عدد ٨٢ ص ٤٢٨-٤٣٠ .
(3) مارمول : افريقيا جزء ٢ ص ٤٢١-٤٢٢ ، بناهما لدى حملته ضد امير بني عباس سنة ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م
(4) نفسه : ص ٣٦٩ .
(5) كان يتكون من ابنيتين ارضي وعلوي فيه ستة غرف فقط ، انظر هايدو ، الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٨ ص ٣١٠
(6) انظر وصفا شاملا في هايدو ، نفس المصدر السابق ، عدد ٨٩ ص ٣٨٤-٣٨٥
(7) ميرسيي : المرجع السابق ، جزء ٣ ص ١٤٥
(8) بناه لشقيق امير بني عباس الذي وافاه الاجل في الجزائر ، انظر هايدو والطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٦١
(9) مارمول : المرجع السابق جزء ٢ ص ٤٢٧ .

... أما اهم انجازاته على الصعيد الداخلي في ولايته فهي :

١ـ حل الخلاف المزمن الذي كان بين رياس البحر او طائفة الرياس والانكشاريين ، بتوصله الى التوفيق بينهم ، بحيث جعل رياس البحر يسمحون للانكشاريين بالمساهمة معهم في عمليات الغزو البحري ، حتى يحصلوا على نصيب من الغنائم ، وقد كانوا يرفضون ان يشركوهم معهم . وفي مقابل ذلك فتح ابواب الدخول الى صفوف الانكشارية (او الجيش البري) لكل من يرغب في ذلك من رياس البحر الاتراك ، ومسلمة النصارى[1] الا ان الخلاف لم يزل تماما لأن رياس البحر ظلوا يحرصون على ألا يشاركهم الانكشارية في عمليات الغزو البحري بل سيشتد اثره في الفترة مابعد ولاية محمد بن صالح رايس .

٢ـ تعزيزه للقدرة الدفاعية لمدينة الجزائر ، بانشاء برجين آخرين اتم انجاز احدهما في عهده واكمل الآخر خلفه العلج علي[2] .

٣ـ قمعه لثورة قام بها اهالي مدينة قسنطينه بشدة في سنة ٩٧٦هـ/ مارس ١٥٦٨م مما[3] جعل السلطان العثماني الذي تلقى شكاوى منه من اهالي المدينة يعزله ويعين بدله العلج عليا .

٤ـ انشاؤه لحمام آخر في مدينة الجزائر على غرار حمام حسن بن خير الدين[4]

واما اهم حدث وقع في عهده على صعيد العلاقات الخارجية ، فمحاولة خوان غاسكون (Juan Gascon) الاسباني الفاشلة لاحراق السفن الجزائرية واطلاق سراح الاسرى المسيحيين في اواسط عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م احراقا مة المدينة واحتلالها بمساعدتهم . ويبدو انه كان على صلة بالأسرى النصارى ، وكان عددهم كبيرا في الجزائر .

وقد حاول الفرار ببعض الاسرى بعد فشل محاولته ، ولكن بحارة الجزائر القوا عليه القبض في عرض البحر ، وقضي عليه تحت التعذيب[5] .

العلج علي[6] (٩٧٥ـ٩٩٥هـ/ ١٥٦٨ـ١٥٨٧م) :

هو واحد من العلوج الذين استطاعوا بعد اسلامهم ان يرتقوا الى اعلى المراتب في الدولة العثمانية بفضل نشاطهم وهمتهم . عين بايلربايا على الجزائر في رمضان ٩٧٥هـ/ مارس ١٥٦٨م خلفا لمحمد بن صالح رايس في اعقاب اخماد هذا الاخير لثورة قسنطينه . ونظرا للخلاف الذي كان قائما بين الانكشارية والبحرية كما مر ، ولذلك فان العلج عليا صرف اكثر اهتمامه الى توسيع النفوذ العثماني في الحوض الغربي للمتوسط ، فسعى الى ضم تونس ، ومساعدة ثورة الاندلسيين

---

(١) هايدو : ملوك الجزائر ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .
(٢) انظر عنهما : هايدو : الطوبوغرافيا ، في المجلة الافريقية عدد ٨٣ ص ٤٢٥ـ ٤٢٨ .
(٣) هايدو : ملوك الجزائر ، ص ١٢٤ـ ١٢٥
(٤) هايدو : الطوبوغرافيا : عدد ٨٦ ص ٢٨٦ وما يليها
(٥) بحار فلنسي : انظر عن مغامرته : دوغرامون ، المرجع السابق ص ١٠١ ـ ١٠٢
(٦) هايدو : ملوك الجزائر ، ص ١٢٦ وما يليها .

وقد اعد العلج علي حملة كبيرة ، كان ينوي توجيهها في الواقع لتحرير وهران ، في الوقت الذي كانت ستندلع فيه ثورة عارمة في الاندلس ، اعد لها بالتنسيق مع الجزائر ، فينشغل الاسبان عن تقديم العون لوهران ، ويحقق الاندلسيون بعون الجزائر ما يبغونه من حرية واستقلال . الا ان الاسبان اكتشفوا امر الثورة قبل قيامها ، وتنبهوا الى ما عزم عليه العلج علي ، فاتخذوا احتياطاتهم . ومن ثم تأخر اندلاع الثورة قليلا ، وحول العلج علي اتجاه حملته من وهران في الغرب الى تونس في الشرق .

ـ ضم تونس : ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م

كانت تونس كما اوضحنا ذات اهمية حيوية بالنسبة لتأمين الوجود العثماني في الحوض الغربي للمتوسط ، ولذلك كان احتلالها دوما نصب اعين حكام الجزائر منذ عهد خيرالدين ، وكلما اقتنع هذا الاخير اوضاعها السيئة لشن حملة عليها في سنة ١٥٣٤ ، اقتنع العلج علي الاوضاع المتردية فيها في عهد السلطان حميدة بن الحسن الحفصي والدعوة التي تلقاها من بعض الناقمين على الوضع من اعيان تونس ، ومن الاتجاه كأبي الطيب الخضار وغيره[1] وانشغال الاسبان بثورة الاندلسيين التي اندلعت في شعبان ٩٧٦هـ / جانفي ١٥٦٩م ، فشن حملة برية على تونس في جمادى الاولى ٩٧٧هـ / اكتوبر ١٥٦٩م وتمكن من احتلالها في رجب / ديسمبر من نفس العام ، بعد انتصاره على السلطان الحفصي المذكور في معركتي باجة وسيدي علي الحطاب ، وفرار هذا الاخير الى الاسبان ، طالبا عونهم لاسترجاع ملكه ، كما تمكن من اخضاع المدن الساحلية والمناطق الداخلية ،[2] وارسل في طلب الاسطول العثماني وقوات عثمانية كبيرة للقضاء على الحصن الاسباني القوي في حلق الوادي ، اذ بدون القضاء على هذا الحصن تظل تونس مهددة ويظل النفوذ العثماني فيها معرضا للمخاطر[3]

ولكن السلطان العثماني كان في حاجة الى الاسطول لفتح قبرص فلم يوجهه بالتالي الى البهدة وعاد العلج علي الى الجزائر ، وتأخر الهجوم على حلق الوادي الى سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م كما سنرى واستخلف على تونس القائد رمضان مع حامية من الاتراك والزواويين ...

ـ مساعدته لثورة الاندلسيين :

قدم العلج علي لثورة الاندلسيين التي اندلعت في الايام الاولى من سنة ١٥٦٩م عون الجزائر المادي والبشري غير المحدود[4][5] . فارسل الاسطول الجزائري محملا بالمتطوعين والاسلحة والذخيرة ، رغم ان الفصل الذي اندلعت فيه الثورة كان غير مناسب للابحار ، وقد شتتت العاصفة اثنتين وثلاثين سفينة منه ، ولم تتمكن سوى ست سفن من تفريغ حمولتها ، مما حرم الثورة من مدد كبير .

(١)(٢) انظر عن اوضاع السلاطين ، ابن ابي دينار ، المؤنس ، ص ١٦٩ وما يليها ، وما يدوه العلوي ، ص ١٤١ .

(٣) عزيز سامح ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ وما بعدها .

(٤) انظر عن هذه الثورة ، رسالة فوركوفو السفير الفرنسي في اسبانيا الى كاترين الميديتشية بتاريخ ٦ / ١ / ١٥٦٩ في مجلة تاريخ عدد ٢ ص ٩٠ ، وانظر محمد عبد الله عنان / نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٣٦٦ ومقالة د . ايان الصباغ : ثورة مسلمي الاندلس في مجلة الاصالة عدد ٢٧ الجزائر ١٩٧٥ .

( ) عن العون الذي قدمته الجزائر للثورة ، رسائل فوركوفو الى كاترين بتاريخ ٦ / ١ / و١٢ / ١ / ١٥٦٩ / ١٢ / ١ في مجلة تاريخ عدد ٢ / ٧ . وما يدوه ملوك الجزائر ص ١٢٩ ـ ١٤٠ ، امون ، المرجع السابق ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

والا ان المدد الجزائري لم ينقطع بعد ذلك عن الثوار رغم انشغال العلج علي في تونس ، وتشديد الاسبان الحراسة على شواطئهم للحيلولة دون وصول اية امدادات للثوار .

— ففي جمادى الاولى ٩٧٧هـ / اكتوبر ١٥٦٩ م ، ارسلت الجزائر نجدة اخرى للثائرين كانت تتألف من (٤٠٠٠) مقاتل ونحو (٥٠٠) من قدامى الانكشاريين قادة لهم .

— وفي ديسمبر من نفس العام تمكنت سفينتان جزائريتان من انزال الذخيرة والاسلحة للثـــوار .

الا ان انشغال العلج علي في تونس ، والسلطان العثماني في قبرص ، ثم انشغالهما معا بالاستعداد لصد حملة صليبية كبيرة اعدها الاسبان والبنادقة وحلفاؤهما قد حرم الاندلسيين من دعم حقيقي ، وان لم يفقد هـــؤلاء الامل في هذا الدعم[1] ، الا بعد ان تحطم الاسطول العثماني في ليبانتـي في جمادى الاولى ٩٧٩هـ / اكتوبر ١٥٧١ امام الحملة الصليبية المذكـــورة .

— مشاركة الجزائر في معركة ليبانتـي :
١٧ جمادى الاولى ٩٧٩هـ / ٧/ ١٠/ ١٥٧١م

وقد كانت مشاركة الجزائر في معركة ليبانتي مشاركة ملحوظة ، وفيها برز بحارتها بقيادة العلج علي كاحسن ربان البحر ، وكانت السفن الحربية الجزائرية هي الوحيدة تقريبا التي نجت من الكارثـة التي لحقت الاسطول العثماني في هذه المعركة البحرية الهامة .[2]

وتقديرا من السلطان العثماني (سليم الثاني) الدور العلج علي في هذه المعركة ، وفضله في انقاذ ماتبقى من الاسطول العثماني ، اسند له مقاليد هذا الاسطول مع الاحتفاظ بمنصب بايلرباي الجزائـر ، وذلك في ٧ ذي القعدة ٩٧٩هـ/ ٢٢/ ٣/ ١٥٧٢م[3]

وقد نجح العلج علي في اعادة بناء الاسطول العثماني في ظرف قصير ، مما فوت على المنتصرين الاستفادة من انتصارهم[4] . وقدم للدولة العثمانية خدمات جليلة من موقع منصبه الجديد ، الا انه لا يهمنا منها الا ماتعلق بالجزائر او ما جاورها ومنها :

اـ تحريضه للسلطان العثماني (سليم الثاني) على استرجاع تونس ، والقضاء على الحصن الاسباني في حلق الـــوادي .

وكان دون خوان قائد الحملة الصليبية التي انتصرت في ليبانتي ، قد احتل تونس في ٩٨١هـ/ ١٥٧٢م ، وانتزعها من ايدي العثمانيين ، وتقاسم الحكم فيها مع السلطان محمد بن الحسن الحفصي[5]

---

(١) انظر جواب السلطان العثماني سليم الثاني الى اعيان (مندجل) بالاندلس الذين طلبوا ارسال الاسطول العثماني ، وهو بتاريخ ١ صفر ٩٧٩هـ / ٢٥/ ٦/ ١٥٧١م في مهمة دفتري رقم ١٤/ ص ٤٠-٤١ .

(٢) انظر عن الدور البارز للعلج علي في المعركة : عابدو : المرجع السابق ص ١٤٧ .

(٣) مهمة دفتري رقم ١٦ ص ٥٧٦ ، وعابدو : نفس المرجع ص ١٤٧-١٤٨ .

(4) Braudel(F.):La Méditerranée et le Monde Méditerranéen. Paris 1936 t.2, P.P.395-396.

(٥) ابن ابي دينار / المؤنس ص ١٧٤-١٧٥ .

فوافق السلطان العثماني على تجهيز حملة ضخمة لتحرير تونس وحلق الوادي في سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م . وكان العلج علي هو قائد الاسطول ، وسنان باشا قائد الحملة . وقد نجحت هذه الحملة في تحقيق اهدافها ، حيث تمكنت من القضاء على الوجود الاسباني في جميع البلاد التونسية ، كما تمكنت من القضاء نهائيا على الدولة الحفصية . وبذلك خلص امر تونس للعثمانيين [1] وازداد اطمئنان الجزائر على اتصال مواصلاتها مع عاصمة الدولة العثمانية .

٢- تحريضه للسلطان العثماني (مراد الثالث) على ضم المغرب في ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م وقبل ذلك على التدخل فيه لصالح الامير السعدي عبد الملك ، الذي كان لاجئا عند الاتراك . وسنعود للحديث بالتفصيل عما تم عمله بهذا الصدد في الفصل الخامس .

وخلاصة القول ، فان العلج عليا كان احد اشهر البايلربايات ، وآخرهم ايضا ، اذ انه لما توفي في ٢٨ رجب ٩٩٥هـ / ٢٧/ ٦/ ١٥٨٧م ، انهى السلطان مراد الثالث العمل بنظام البايلرباي في الجزائر . واصبحت الجزائر مجرد باشاوية مثلها مثل تونس وطرابلس وغيرها من الباشاويات في الدولة العثمانية ، يحكمها باشا لمدة ثلاث سنوات او اقل ، كما سنرى عند الحديث عن سمات عهد الباشاوات .

وقد كان العلج علي ايضا احد ابرز القادة العثمانيين البحريين ، واكثرهم ذكاء ونبوغا . ومما يشهد على نبوغه انه فكر في فتح قناة بين البحر المتوسط والبحر الاحمر (قناة السويس) . وباشر في العمل في عهد السلطان العثماني سليم الثاني ، ولكن هذا الاخير كان شحيحا فيما يبدو في الانفاق عليها ، فتأخر فتحها ثلاثة قرون [2].

وقد تداول على خلافة العلج علي في الجزائر بعد استلامه مقاليد البحرية العثمانية خلال الفترة (٩٨٠-٩٩٥ هـ / ١٥٧٢-١٥٨٧م) عدة باشاوات ، كان لكل واحد منهم جهوده ونشاطاته المتميز .

ولذلك يمكن ان يعتبر عهد الباشاوات الفعلي قد بدأ من عام ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م بدل ٩٩٥هـ / ١٥٨٧م ، وهؤلاء الباشاوات هم :

أ- احمد باشا العربي [3] : (١٥٧٢-١٥٧٤م) :

عربي الاصل من اسكندرية مصر ، تولى على الجزائر [4] ، بعد الضربة القاضية التي تلقاها الاسطول العثماني في ليبانتو ، وما تلاها من تهديد دون خوان بحملة على شمال افريقيا فاهتم طوال عهده .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة ونجاحها في بريمودا : المرجع السابق ص ٢٨٥-٢٩٨ وابن ابي دينار : المؤنس . ص ١٨٦ وما يليها .

(٢) دوغرامون : المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٣) انظر عنه هايدو : ملوك الجزائر ص ١٥٤-١٥٧ .

(٤) وصل الى الجزائر في ٦/ ٥/ ١٥٧٢ وصحبته عبد الملك السعدي : انظر : [illegible] اسبانيا جزء ٣ ص ١٨٤-١٨٥ .

اولا : باجراء المزيد من التحصينات في مدينة الجزائر تحسبا لهجومه ، فبنى لهذا الغرض عددا من الحصون والقلاع والأسوار ، ووسع الخندق المحيط بالمدينة ، ودعم الأبواب وجددها وازال من حول القصبة المباني التي كانت ملتصقة بسورها ، والبساتين القريبة منها حتى لا يتخذها العدو متاريس له .(1)

وثانيا : باخماد او اخضاع الثورات التي قامت هنا وهناك اغتناما منها للظروف الصعبة ،(2) وربما بتحريض من الاسبان تمهيدا لحملتهم التي وجهت اخيرا الى تونس في جمادى الثانية 988هـ/ اكتوبر 1573م ، كثورة الفريق الموالي للحفصيين ، والمناوئ للحكم العثماني في قسنطينة بزعامة عبد المومن شيخ الاسلام ، واولاد ساولم ، وذلك في سنة 980هـ/ 1572م ، وقد تمكن من القضاء عليها بقتل عبد المومن ، وتقوية الفريق الموالي للحكم العثماني فيها بزعامة عبد الكريم بن الفكون ،(3) وثورة امير بني عباس في السنة التالية 981هـ/ 1573م التي لم يتمكن من القضاء عليها قضاء مبرما بالرغم من الحاق الهزيمة بزعيمها في معركتين .(4)

وثالثا : بالاحتياط لهجوم محتمل من قبل عبد الله بن محمد الشيخ السعدي على تلمسان ،(5) بعد ان تمكن من اغتيال اخيه عبد المومن فيها .(6)

ورابعا : بالاستعداد للمشاركة في الحملات العثمانية لتحرير تونس وحلق الوادي سنة 982هـ/ 1574م .
وقد كانت علاقته مع الانكشاريين حسنة ، على العكس من علاقة [illegible] علي بهم ،(7) الا انه مات مقتولا في سنة 986هـ/ 1578م على يد زملائه الانكشاريين بجزيرة قبرص حتى اصبح واليا عليها في سنة 985هـ/ 1577م بعد استدعائه من الجزائر ،(8) في سنة 982هـ/ 1574م .(9)

(1) انظر عن هذه المنشآت : هايدو : الطوبوغرافيا في المرجع السابق ، عدد 83 ص 419 .
(2) حاول ايضا ملك فرنسا اغتنام الظروف ما بعد ليبانتي ليطلب من السلطان العثماني اسناد حكومة الجزائر لاخيه انجو ، انظر ميرسيي : المرجع السابق ج 3 ص 113 .
(3) اسندت المناصب الدينية التي كان يتولاها عبد المومن كامارة ركب الحج ، منذ العهد الحفصي ، ومشيخة الاسلام له . انظر عن عبد الكريم هذا : منشور الهداية لحفيده عبد الكريم (مخطوط) .
(4) مهمة دفتري رقم 22 ص 317 ، حكم رقم 418 بتاريخ 13/ 4/ 981هـ
(5) كانت الجزائر قد حاولت عقب معركة ليبانتي عقد حلف مع عبد الله السعدي في سنة 1572م ، لكن سفيرها حاجي مراد لم يستقبل ، انظر الفصل الرابع .
(6) كان عبد المومن واخوته قد التجأوا الى الجزائر خوفا من بطش اخيهم عبد الله بهم منذ سنة 1559م ، اما اغتيال عبد المومن فكان قبيل فيفري 1572 . انظر اعلام عبد الملك للسلطان بوفاته في : مهمة دفتري رقم 18 ص 150 بتاريخ 27/ 9/ 979هـ .
(7) حسب هايدو : يكون الانكشاريون قد هددوا العلج علي بالقتل ، وانه ذهب من الجزائر كالهارب ، لما دعي للمشاركة في معركة ليبانتي ، انظر طوب الجزائر ص 145 .
(8) حسب هايدو ايضا : فان الاهالي في الجزائر هم الذين طلبوا تبديله برمضان باشا . انظر طوب الجزائر ص 159 ، وهامش 2
(9) هايدو : نفس المصدر السابق ص 157

ب ـ الولاية الأولى لرمضان باشا : (٩٨٢-٩٨٥هـ/ ١٥٧٤-١٥٧٧م)

تركي الأصل ، وقيل من جزيرة سردينيا (١) تولى الحكم في الجزائر بعد الباشا احمد السابق الذكر ، باعتباره خليفة لعلج علي الذي احتفظ بمنصب البايلرباي ، كما تقدمت الاشارة ، وقد سبق لرمضان باشا ان كلفه العلج علي عليا على تونس بعد ان ضمها هذا الاخير الى الدولة العثمانية في ٩٧٦هـ / ١٥٦٩م ، وساهم في استعادة تونس في سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م (٢) وهو الذي قاد حملة في ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م على المغرب لتنصيب عبد الملك السعدي في فاس ، وكانت حملة ناجحة كما سنرى في الفصل الخامس . وفي سنة ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م نقل الى باشوية تونس . ثم كلف بمهمة خاصة تتعلق بشؤون المغرب في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م ، ويرد الحديث عنها الى الفصل الخامس .

ويبدو انه عين للمرة الثانية على رأس حكومة الجزائر في سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م بعد جعفر باشا الآتي ذكره ، ولكن الامر لم يستقر له فيها فنقل الى ولاية طرابلس (٣) سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م .

ج ـ حسن فينزيانو (الولاية الاولى) (٤) : ٩٨٥-٩٨٨هـ / ١٥٧٧-١٥٨٠م

خلف رمضان باشا على رأس حكومة الجزائر . وكان من المقربين للعلج علي ، وعلى يده اسلم ، ورقاه بسرعة الى خلافته في الجزائر .

كان في سياسته الداخلية حازما صارما تجاه الانكشارية ، ورجال البحر وعامة الناس فخافوه وأحنوا له رؤوسهم ، ثم انه اتخذ سلسلة من الاجراءات الاقتصادية في وقت كان يسود فيه كثرة الجفاف والمجاعة والطاعون ، كالزيادة في الضرائب ، وفرض رسوم جديدة ، والتدخل في مختلف العمليات التجارية ، واحتكار التجارة في كثير من المواد ، فلم تزد هذه الاجراءات الا ان اسوءا ضيق الجميع منه وشكوه الى السلطان العثماني (مراد الثالث) الذي استبدل جعفر باشا به في سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م (٥).

اما في علاقاته الخارجية ، فكان كسيده العلج علي يحبذ التدخل في المغرب واراد استغلال الخلاف بين عبد الملك وابن اخيه المتوكل لصالحه ، ولكنه لم يحصل على موافقة السلطان العثماني .

في حين استطاع الفرنسيون ان يقيموا في عهده اول قنصلية لهم في الجزائر ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م وهو ما كان مرفوضا من قبل من سبقوه ، وسمح للفرنسيين ايضا بصيد المرجان في الساحل الشرقي في السنة التالية ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م امتثالا لأوامر السلطان العثماني (٦) .

(١) انظر عنه : هايدو / المرجع السابق ، ص ٨٥ وما بعدها .
(٢) بربروداي : المرجع السابق ، ص ٢٩١ .
(٣) دوزرامون : المرجع السابق ، ص ١٢٠-١٢١ .
(٤) (٥) انظر عنه : هايدو ، المرجع السابق ، ص ١٦٨-١٨١ .
(٦) صورة دفتري رقم / ٣٥/ ص ٢٢ بتاريخ ٢/ ٦/ ٩٨٦هـ وميرسيي / المرجع السابق ، جزء ٢ ص ١٥٠ .

واما استعدادات فيليب الثاني الضخمة لغزو جارته البرتغال في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م اجبرت حسن فينزيانو مزيدا من التحصينات في المدينة(١) خشية ان تكون تلك الحملة موجهة ضد الجزائر. اذ كان لايعلم وجهتها . وكان قد قام هو على رأس غزاة الجزائر بحملة بحرية على مايورقة والبليار وغيرها والشواطئ الاسبانية في صيف سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م ، وشجع غزاة الجزائر على الغزو البحري(٢)

وقد غادر الجزائر في شعبان ٩٨٨هـ/ سبتمبر ١٥٨٠م بعد وصول جعفر باشا ، في اثر الشكوى التي تقدم بها اهالي الجزائر ، وعندها الانكشارية ضده ، كما اسلفنا - الى السلطان العثماني .

د - جعفر باشا (٩٨٨-٩٩٠هـ/ ١٥٨٠-١٥٨٢م) :

اصله من المجر ، تقلب في مناصب عديدة قبل ان يعينه السلطان العثماني على رأس حكومة الجزائر التي اضطربت الاوضاع فيها . ولم يكن من المقربين من العلج علي ، كان حاكما عادلا يهتم بادارة ماهو والذي كان في الجزائر حينئذ ، وكنيا ، ولاينا(٣) . وقد تمكن جعفر باشا من اعادة الامور الداخلية الى مجاريها ، وقضى على مؤامرة حاكها ضده قادة الجند الانكشارية .

اما سياسته الخارجية ، فتميزت بتشجيعه للتجارة في الجزائر مع الدول الاوربية عن طريق دعوة التجار الاوربيين ، والمسلمين كان عندهم في الجزائر ان يتجهوا الى آخرين في اسبانيا ، وفي تحسين البلاد المسيحية للمغرب بكل حرية ، ووعد بان تكون معاملته حسنة(٤).

كما اتسمت سياسته بميله الى اقامة علاقات حسن جوار مع حكام المغرب ، ولذلك لم يتحمس لحملة العلج علي ضد مولاي . وكان هذا الاخير قد جاء الى الجزائر في ربيع الثاني ٩٨٩هـ/ مايو ١٥٨١م على رأس الاسطول العثماني بغية غزو المغرب ، وسنرى ذلك في الفصل الخامس ، ولذلك ما كاد العلج علي يعود من الجزائر الى استانبول حتى استدعي جعفر باشا ، واعيد حسن فينزيانو الى الجزائر .

- الولاية الثانية لحسن فينزيانو :
(٩٩١-٩٩٥هـ/ ١٥٨٢-١٥٨٧م)

اهتم في ولايته الثانية بتنشيط الغزو البحري على اوسع نطاق ، وبمشاركته الشخصية فيه(٥) ، وباستمرار تدفق بقايا مسلمي الاندلس وبروز عدد من غزاة الجزائر ، ابتت شهرتهم الآفاق كمامي ارناؤوط ، ومراد رايس على سبيل المثال(٦) وقد وسع هذا الاخير من نشاطه ليشمل ابعد المحيط الاطلسي ، وبحار غربي اوربا .

ولما توفي العلج علي في ٢١ رجب ٩٩٥هـ/ ٢٧/ ٦/ ١٥٨٧م دعي حسن لخلافته ، وقد اظهر في هذا المنصب مقدرة لاتقل عن مقدرة سلفه ، واحتفظ بالمنصب الجديد الى ان توفي في ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م .

(١) انظر عن هذه التحصينات : هايدو ، الحزين الحالي ص ١٧٧ والطوبوغرافيا ، عدد ٨٢ ، ٤٢٠-٤٢١
(٢) هايدو ، ملوك الجزائر ص ١٧٦ .
(٣) (٤) نفسه : ص ١٨٢-١٨٦ .
(٥) نفسه : ص ١٩١ .
(٦) انظر عنهما وعن نشاطهما : هايدو / نفس الحزين ص ١٩٦ وما يليها .

ـ الجزائر في عهد الباشاوات
٩٩٥ـ١٠٦٩هـ/ ١٥٨٧ـ١٦٥٩م

X=X=X=X=X=X=X=X=X=X=X

ان المؤرخون الذين تناولوا العهد العثماني في الجزائر بالكتابة على تسمية الفترة الممتدة من سنة ١٥٨٧الى ١٦٥٩ بعهد الباشاوات ، واعتبارها مرحلة متميزة عن الفترة السابقة المسماة بعهد البايلربايات ، فما هو مبرر هذه التسمية ، وما هي مميزات هذه المرحلة ؟ .

ادخلت الدولة العثمانية في اعقاب موت العلج علي في رجب ٩٩٥هـ / جوان ١٥٨٧م تعديلا على ادارة البلاد التابعة لها في غربي شمال افريقية ، فالغيت بيلربكية الجزائر التي ظل العلج علي يحتفظ بلقبها حتى وفاته ، وجعلت هذه الاخيرة مجرد باشوية مثلها مثل تونس وطرابلس وغيرها من الباشاويات التابعة للدولة العثمانية ، يديرها موظف برتبة باشا يعينه السلطان العثماني لمدة ثلاث سنوات ، وقد يعزله قبل انقضائها ، ولا اشراف لهذا الباشا على الباشويتين المجاورتين للجزائر كما كان الامر في عهد العلج علي .

وكان الهدف فيما يبدو من وراء هذا التعديل ، هو زيادة نفوذ السلطان العثماني في بلاد شمال افريقيا ، وتقوية ارتباط هذه الاخيرة به عن طريق تجزئتها الى ثلاث باشاويات مستقلة ، وتعيين حكام مؤقتين لها ، لاتسمح لهم فترة حكمهم القصيرة بالتفكير في الاستقلال عن الدولة كما كان الامر في عهد البايلربايات الاقوياء .

الا ان هذا التعديل لم يحل دون انحطاط نفوذ السلاطين العثمانيين في شمال افريقيا ، وظهور ميول استقلالية فيها ، وذلك راجع الى ان الباشاوات الذين كانوا يرسلونهم لادارتها لم يستطيعوا المسك بزمام الامور فيها مسكا محكما ، وبالتالي فانهم لم يستطيعوا الحفاظ على نفوذ الباب العالي قويا . ويعود عجز الباشا واعتمن التحكم في زمام الامور في باشوية الجزائر الى ان الباشاوات الذين كانوا يعينون لادارتها ، لم يعرفوا بكفاءاتهم العسكرية او الادارية ، كما كانوا بدون سند محلي فيها يعتمدون عليه ، اذ كانوا غرباء عنها ، لم يولدوا ولم ينشأوا فيها ، ولم يلقوا معارضة او نا من قبل الجند الانكشاري ، ورجال البحر الذين كانوا يرون فيهم مجرد موظفين مؤقتين لا اساس لهم في البلاد ، ولا تأثير لهم فيها . (1) في حين تمكن الانكشارية على الارض الجزائرية بتزاوجهم مع السكان ، وانخراطهم في مختلف اعمالهم .

لقد كانت الدولة العثمانية في حين كان الصراع بينها وبين الدول الاوربية في البحر المتوسط قويا خلال الاربعين الثلاثة الاولى من القرن السادس عشر ، تعتبر حكام الجزائر بمثابة من بين الشخصيات القوية التي اظهرت كفاءتها في الحروب البرية والبحرية على الخصوص ، المعروفة لدى جند الجزائر وبحارتها ذلك ان البايلربايات كانوا مدعوين لمساعدة الدولة في رسم سياستها في الحوض الغربي للمتوسط والاسهام في تنفيذ مخططاتها فيه ، اما بعد ان خفت حدة الصراع في الربع الاخير من القرن المذكور ، ولاسيما بعد معركة ليبانتي سنة ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م وضم العثمانيين لتونس سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م ، ومالت الدولة الى التهدئة ، ومسالمة اعدائها التقليديين ، فلم يعد اختيارهما

---

(1) محمد خير فارس/ تاريخ الجزائر الحديث، دمشق / 1969 ص59 ـ60

لحكام الجزائر ((الباشاوات)) دخيلا ومؤقتا دائما ، حيث يحصل على الباشوية من كان غير معروف فيها ولا مشهود له بالكفاية عن طريق بذل المال[1] ، واسداء الهدايا للمقربين من السلطان على امل الحصول على اضعاف ما بذلوا من باشوية الجزائر ، ولذلك كان الاهتمام بجمع المال احد الاهتمامات الرئيسية للباشاوات وربما صرف بعضهم كل اهتمامهم الى اشباع رغبتهم واهملوا الشؤون الاخرى ، الامر الذى اسقط هيبتهم واحترامهم ، لاسيما في نظر جند الجزائر وبحارتها •

ولما كان هؤلاء وأولئك متعودين على عدم الامتثال والخضوع الا لحكام الولاء يفرضون عليهم طاعتهم فرضا ، ويفتقدون عنهم احترامهم اعتزازا ، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية في منحدر قوتها ، يفتقدها التدخل لردعهم ، فانهم ما لبثوا ان اظهروا روحا تمردية تجاه الباشاوات الذين لا يحبون الباطربايات ، واستقلالية تجاه السلاطين العثمانيين ، في وقت مالت فيه الدولة العثمانية نحو الضعف ، فقد حدثت مرات عديدة في عهد الباشاوات ان رفض او اعترض الجند الانكشارى حينا ، والبحارة الغزاة حينا آخر ، او هما معا على اوامر السلطان العثماني ، او توجيهات الباشا ، وان اتخذ ديوان الجند او طائفة الرياس موقفا لا يتماشى مع رغبة هذا الاخير او مشيئة الباب العالي • وهذه المواقف الرافضة او المعترضة كثيرة نذكر على سبيل المثال منها :

— رفض رجال الطائفة الامتثال لتوجيهات الباشا حسن بوريشة (١٠٠٧–١٠٠٩هـ / ١٥٩٨–١٦٠٠م) بعدم التعرض للسفن الفرنسية او السفن الرافعة للراية الفرنسية بسوء •

— رفض رجال الطائفة وديوان الجند معا التقيد بالاتفاقية التي ابرمتها الدولة العثمانية مع فرنسا في ١٠١٢هـ / ١٦٠٤م رغم ان هذه الاخيرة على ان توقع معهم اتفاقية حسب شروطهم هم في سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م •

— عدم الاستجابة لمساعي الدولة العثمانية السلمية والتوفيقية بين الجزائر وفرنسا •

— الرفض المتكرر لرجال الطائفة الاسهام في الحملات والحملات التي كانت الدولة العثمانية تحددها طالما لم يستجب الباب العالي لشرط التعويض عن الخسائر التي تلحقهم نتيجة لمشاركتهم في حملاتها وانشغالهم عن الغزو البحرى الاعتيادى الذى تشكل مغانمهم فيه موردهم الرئيسي[2] •

ولما لم يجد الباب العالي التهديد ، فانه رضخ لشرط غزاة الجزائر ابتداء من سنة ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م ، حيث بعث في هذه السنة (١٦٠٠٠) سلطاني الى علي بتشنين رئيس الطائفة في مقابل اسهامه بست عشرة سفينة ، وبعث في سنة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م الى رياس الجزائر بمئتين الف سلطاني[3] ، وفي سنة ١٠٦٢هـ / ١٦٥٢م بخمسين الف سلطاني ، وهكذا كان الباب العالي يبعث بالتعويضات سلفا ليضمن اسهام غزاة الجزائر في الاسطول العثماني •

كما حدث مرات عديدة ان اقدم ديوان الجند الانكشارى في الجزائر على تهديد مبعوث السلطان العثماني ومعاشرة باشا الجزائر في قصره او وضعه في السجن ان هو لم يسايرهم او يبدا

(1) انظر [illegible] عابد وغيره ظاهرة شراء الباشاوات لمناصبهم • وما بعدها ، انظر تاريخ ملوك الجزائر ص ٢٠٢ ، ٢٢١ •

(2) انظر عن المواقف الرافضة او المعترضة المذكورة : د. وزامون / المرجع السابق ص ١٤٩ ، ١٤٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٠١ •

(3) نفسه ، ص ١٩٤ ، ٢٠٢ •

هم منه تذمر ، او ما يشابه ذلك من جهتهم . ومن هذه الحوادث نذكر :

ـ تهديد الديوان لمصطفى آغا قابجي مبعوث السلطان العثماني الى الجزائر في سنة ١٠١٢هـ/ ١٦٠٤م وحصارهم لمحمد كوسه باشا الجزائر آنئذ في قصره لانه أصر مع المبعوث المذكور على تنفيذ الاتفاقية التي ابرمتها الدولة العثمانية مع فرنسا في السنة المذكورة . وقد مات الباشا تحت تأثير انفعاله من الحصار .

ـ ثورة الانكشارية على الباشا يونس سنة ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م لميله الى مسالمة فرنسا ومنعهم قبل ذلك الباشا سليمان قطانيا سنة ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م من الدخول الى ديوانهم لميله ايضا الى مسالمة فرنسا .

ـ ثورة الانكشارية على الباشا حسين في سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٣م لخلاف نشأ بين الطرفين حول دفع رواتب الجند من مال الباشا الذي كان يحصل عليه عن طريق الامتيازات التي كان يتمتع بها ، وزجهم به في السجن .

ـ ثورة الانكشارية على الباشا يوسف ابو الجمال في سنة ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م وابعادهم اياه السجن في اعقاب فشله في اخماد ثورة بلاد القبائل .

ـ ثورة طائفة الرياس على الباشا محمد بورصالي في سنة ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م لاتهامها اياه بالتآمر على رئيس الطائفة علي بتشنين وغيره من زعمائهم واضطرار الباشا الى الاحتماء بحرمة احدى الزوايا مع مبعوثي السلطان العثماني اللذين جاءا للتخلص من رئيس الطائفة لرفضه الاسهام في الحملة العثمانية على [illegible] .

وان دلت كل المواقف المذكورة (1) على شيء فانما تدل على ان نفوذ السلاطين العثمانيين وممثليهم الباشاوات في الجزائر قد غدا ضعيفا الى حد كبير امام ديوان الانكشارية وطائفة الرياس . وان الانكشارية والرياس غدوا يشعرون انهم في منأى من ان ينالهم عقاب الدولة لبعد الجزائر عن مركز الدولة ، ولكن ايضا لضعف هذه الدولة .

وقد نجم عن ضعف الباشاوات ، وعجزهم عن السيطرة على ديوان الجند الانكشاري ، وطائفة الرياس أو رجال البحر ، وتزايد نفوذ هاتين القوتين في الجزائر ، حصول فتن ، واضطرابات وثورات كثيرة في داخل مدينة الجزائر وخارجها نذكر منها :

١ ـ ثورة بني عباس جنوبي بجاية في عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠ ـ ١٥٩١م في عهد خضر باشا ، وسيطرتهم على الطريق الرابط بين مدينتي الجزائر وقسنطينة [illegible] . الا ان الباشا المذكور نجح بعد شهرين من المناوشات مع الثائرين في اخماد ثورتهم ، واجبارهم

---

(1) انظر عنها : دوغرامون ، المرجع السابق ص ١٤٦ ـ ١٩٢ ، ومرسيي / المرجع السابق ج ٣ ص ١٨١ وما بعدها .

...س بالسبب المسلم[1]

٢ـ ثورتي الكراغلة في سنة ١٠٠٤هـ / ١٥٩٦م و ١٠٤٢هـ / ١٦٣٣م : كان الكراغلة[2]
...يشعرون بالظلم ويحسون بالحيف لأن الاتراك الذين كانوا يخشون من تزايد عددهم ، ومن
...احتمال اقدامهم على انتزاع السلطة منهم بالتعاون مع اخوالهم الجزائريين ، كانوا يحولون بينهم
...وبين المناصب العليا في الادارة والجيش[3] ولذلك كانوا يتحينون الفرصة للثورة على الاتراك
...لانتزاع حقوقهم في المساواة بآبائهم . وقاموا في سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م بأول ثورة لهم ، مستغلين
...النزاع الذي كان قائما بين الجند الانكشارية ، وخضر باشا ، واسفرت هذه الثورة التي سالت
...فيها دماء كثيرة في مدينة الجزائر عن تخفيف الانكشاريين لغلوائهم . ولكن هؤلاء ما لبثوا ان انتقموا
...منهم ، وطاردوهم من المدينة . وفي سنة ١٠٤٢هـ / ١٦٣٣م قدر الكراغلة ان الظروف مناسب
...للعودة اليها ، واشعال نار الثورة فيها بالتعاون مع سكانها من الاهالي ، لأن الاوضاع فيها
...كانت مضطربة ، نتيجة طغيان الجند الانكشارية ، وتمرده على الباشا حسين (١٠٤٠ ـ ١٠٤٤هـ/
١٦٣١ـ١٦٣٤م) ، وعادوا الى مدينة الجزائر متنكرين في زي فلاحين . وفاجأوا الاتراك بثورتهم
...في شهر ربيع ... ١٦٣٣م ، وحققوا في بادئ الامر بعض النجاح ، ولكن الاتراك فيها سرعان
...ما استعادوا زمام المبادرة وتمكنوا من القضاء على الثائرين بعنف شديد ، ولم يبق منهم الا من
...فر الى بلاد القبايل[4] .

٣ـ ثورة بلاد القبايل التي استمرت تقريبا طوال عهد الباشاوات بصفة متفاوتة
وقد هددت هذه الثورة التي اندلعت في مطلع القرن الحادي عشر الهجري / اواخر القرن السادس
عشر الميلادي ، بزعامة بني القاضي ، الحكم العثماني في الجزائر ، تهديدا قويا ، وخطيرا ، لأن
حملات هؤلاء ، وصلت مرات عديدة الى متيجة ، والى اسوار مدينة الجزائر نفسها . ولأن
الثائرين كانوا على صلة بالقوى الخارجية من اسبان وسعديين ، بهدف التعاون معهم ضد
اتراك الجزائر العثمانيين . ونظرا لأن استمرار ثورة بلاد القبايل فترة طويلة ، واخفاق
حكام الجزائر العثمانيين في القضاء عليها بصفة نهائية قد شجع جهات اخرى في الشرق

---

(١) انظر عن ثورة بني عباس : هايدو : المرجع السابق ص ٢٠٧ـ٢٠٨ ، ودوغرامون : المرجع السابق ص ١٢٩

- Féraud: Notice sur les MOKRANI, in Recueil de la société Archéologique de Constantine. 1871-1872 P.232 et suiv.

- Berbrugger: Epoques militaires de la Grande Kabylie. Alger 1847, P.101 et suiv.

(٢) الكراغلة هم ابناء الاتراك من الامهات الجزائريات .

(٣) يعتبر حسن بن خير الدين ، الذي تولى رئاسة حكومة الجزائر ثلاث مرات كما ذكرنا ، مع انه من ام جزائرية استثناء لا يقاس عليه ، ومن المناصب العليا التي كان الكراغلة لا يرتقون اليها : منصب الآغا او رئيس الجيش البري ، ومنصب الخزناجي او امين المال وبيت المال ، وخوجة الخيل ..

(٤) انظر عن ثورتي الكراغلة : دوغرامون : المرجع السابق ص ١٤٠ ، ١٥٢ ، ميرسي / المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٤ـ٢٢٥ . وانظر بحث :

Boyer(P.): Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger. 2e Congrès International et Nord Africain 1970, P.P. 79 - 94.

والحرب الجزائريين على الثورة ايضا على الاتراك العثمانيين (١).

٤- ثورة تلمسان : (في الفترة ١٠٣٥-١٠٣٧هـ/ ١٦٢٦-١٦٢٨م) :

وقد كانت نتيجة تعسف الاتراك العثمانيين في المدينة ، وطغيان قائدهم محمد بن سوري فيها وربما كانت ايضا نتيجة تحريض من بعض القوى المغربية المجاورة لتلمسان ، وهو ما يوحي به اسم قائد الثورة المدعو السوسي المغربي ، ولم يتأخر الاتراك بجهد القمع هذه الثورة بشدة (٢).

٥- ثورة الشرق الجزائري : وقد اندلعت في سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م في اعقاب قتل مراد باي حاكم قسنطينة محمد بن الصخري شيخ عرب الذواودة والحنانشة غدرا في سنة ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م ، متهما اياه بالخروج عن الطاعة ، وقد تزعم الثورة احمد بن الصخري ، وكان هدفه الانتقام من قتلة اخيه . وتضافرت ثورته مع ثورة قبائل شمالي قسنطينة وشرقيها التي تضررت تجارتها من جراء تخريب الاتراك العثمانيين في سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م للمراكز التجارية الفرنسية التي كانت تتعامل معها ، وتعاون الناقمون على الاتراك في الشرق الجزائري ، فالحقوا هزيمة كبيرة بهم في واقعة قجال ، وذلك في ٢٠/ ٩/ ١٦٣٨ ، تدهور في اثرها نفوذ العثمانيين في الشرق الجزائري تدهورا كبيرا ، اذ باءت المحاولات العديدة التي قام بها حكام الجزائر باستعادة نفوذهم وسيطرتهم عليه خلال عقد من الزمن بالفشل . واخيرا استطاع حاكم الجزائر يوسف باشا بنفوذ المرابطين والعلماء مثل محمد ساسي البوني . وابن مهدي عيسى الثعالبي لتهدئة الثورة في الشرق الجزائري ، وجعل الثائرين يقبلون بالعودة الى طاعة الحكم التركي العثماني . وتضافرت جهود هؤلاء مع تعب الثائرين ومع الخسائر والاضرار الكبيرة التي خلفها وباء الطاعون الذي استفحل في العقد السادس من القرن الحادي عشر الهجري / الخامس من القرن السابع عشر الميلادي على اعادة الهدوء الى القطاع الشرقي من الجزائر (٣).

٦- اضطرابات في مدينة الجزائر في سنة ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م ، وسببها ان غزاة الجزائر رفضوا الاسهام في حملة جديدة اعدها السلطان العثماني لانهم لم يحصلوا منه على تعويضات عن الخسائر التي لحقتهم في معركة فيلونه (VELONE) فأرسل مبعوثين للقضاء على زعمائهم ، وفي مقدمتهم

(١) انظر عن ثورة بني القاضي واتصالاتهم الخارجية : د وفراهون : المرجع السابق ص ١٤٠ وما يليها ، وميرسيي : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٧٠ وما يليها و :-
Boyor (P.): Espagne ot Kouko, los négociations (do 1598 a 1610) in R.O.M.M., No. 8, 1970 P.P. 25 - 40.

(٢) انظر عن ثورة تلمسان : ابن المفتي : تاريخ باشاوات الجزائر في / المجلة الآسيوية عام ١٩٢٢ ص ٢٠٢ ، ومحمد بن سليمان / كعبة الطائفين في ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث لسعد الله . الجزائر ١٩٧٨ ، و د وفراهون : المرجع السابق ص ١٥٩ ، وميرسيي المرجع السابق ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٣) انظر عن هذه الثورة : Vayssettes: Rocueil. Constantino 1867, P.P. 333 ot suiv.

ود وفراهون : المرجع السابق ص ١٨٤ ، ١٨٦ - ١٨٧ . ومقالة :
Boyor (P.): La politique roligiouse dos Turcs, in R.O.M.M., No. 1, 1966 P. 34.

ومجلة الثقافة الجزائرية عدد ٥١ الجزائر ١٩٧٩ .

علي بتشنين ، رئيس طائفة الرياس ، فثار هؤلاء ، واستولوا على السلطة في مدينة الجزائر، وحل رئيس الطائفة المذكور محل الباشا . ولكن الانكشارية مالبثوا ان ثاروا وطالبوه بدفع رواتبهم وأمهلوه فترة قصيرة لتدبير المال . ولما لم يكن لديه المال الكافي ، ولا القوة الكافية لاخضاعهم ، فقد آثر الفرار الى اصهاره بني القاضي في بلاد القبائل . فاضطربت الامور في المدينة . وكانت ستضطرب اكثر لولم يسرع السلطان العثماني الى تعيين باشا جديد ، وارسال التعويضات لغزاة الجزائر ، ويبدو ايضا انه كلف الباشا الجديد بالقضاء على رئيس الطائفة اذ مات هذا الاخير بعد فترة وجيزة من عودته الى الجزائر .

وهكذا كان عهد الباشاوات تميز بالاضطراب الشديد في مدينة الجزائر وخارجها ، على ان اهم ماتميز به عهد الباشا وات ايضا هو تجدد الاطماع والتدخلات الخارجية في الجزائر ، حيث تعرضت مدنها الساحلية وفي مقدمتها مدينة الجزائر العاصمة الى حملات اوربية عديدة : اسبانية وتوسكانية ، وفرنسية ، وانكليزية ، وهولندية اهمها الحملات التي وقعت في السنوات الاتية :(١)

- ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م حملة اسبانية على الجزائر انتهت بالفشل .
- ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م حملة اسبانية لاحتلال ((تامنفوت)) قرب آزفون بين الجزائر وبجاية .
- ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م هجوم التوسكانيين على ميناء الجزائر .
- ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م حملة توسكانية على عنابة . انتهت بتخريب المدينة .
- ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م حملة توسكانية على برشك وبجل ، انتهت بتخريب مدينة برشك .
- ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م حملة اسبانية على جيجل ، انتهت بالفشل .
- ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م ، ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م محاولتان فرنسيتان لاحتلال بعض المواقع على الشواطئ الشرقية للجزائر .
- ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م حملة انكليزية على الجزائر ، انتهت بالفشل .
- ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م حملة هولندية على مدينة الجزائر، انتهت بحصول الهولنديين على اسراهم .
- ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م حملة فرنسية على مدينة الجزائر انتهت بالفشل .
- ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م حملة هولندية على الجزائر انتهت بتوقيع معاهدة سلام .
- ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٥م حملة انكليزية على الجزائر، انتهت بتوقيع معاهدة سلام .

كما تعرضت حدودها الشرقية والغربية الى تحرشات وهجومات من حكام تونس والمغرب(٢) في اعوام ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م ، ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م(٣) ، ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م ـ ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م وقام الاسبان في وهران والمرسى الكبير بتوسيع نطاق نفوذهم في الغرب الجزائري لمساعدة بعض قبائل بني عامر ، وتمكنوا من احباط عدد من الهجومات والمحاولات التي قام بها ضدهم اتراك الجزائر وقبائل الغرب الجزائري الموالية لهم ، خاصة في اعوام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م ، ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م ، ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م ، ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م(٤) .

---

(١) انظر عن هذه الحملات : دوغرامون : المرجع السابق
(٢) انظر عن النزاع بين الجزائر وتونس : ابن ابي دينار : المؤنس ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
(٣) السلاوي : الاستقصا ، ج ٧ ص ٢٠ ـ ٢٧ .
(٤) انظر عن الحملات التركية العثمانية : دوغرامون : المرجع السابق ص ١٤٧ ، وابن مريم البستان ص ١٢٢ ، بالنسبة لحملة ١٥٩٩م .

وقد كانت بعض الحملات الاوربية المشار اليها ردا على الغزوات التي كان غزاة البحر الجزائريين يشنونها على السفن والشواطئ الاوربية ، تلك الغزوات التي توسع نطاقها فغدت لا تقتصر فقط على الحوض الغربي للمتوسط ، ولكنها تشمل ايضا المحيط الاطلسي من جزيرة ماديرا جنوبا الى جزيرة ايسلندة شمالا مرورا بالسواحل البرتغالية والانكليزية والايرلندية .

وقد اصبحت هجومات الغزاة الجزائريين كثيفة ايضا ، اذ غدا الغزو البحري بالنسبة لسكان الجزائر على العموم عملا يمارسه او يساهم فيه الجميع بشكل او آخر لما يدره عليهم من مغانم وارباح . ومنيت الدول الاوربية من جراء النشاطات الكثيفة والواسعة النطاق ، للغزاة الجزائريين بخسائر كبيرة ، وتذكر احدى الاحصائيات ، ان الغزاة الجزائريين تمكنوا خلال الفترة ١٠٢٢ - ١٠٣٠ هـ / ١٦١٣ - ١٦٢١ م من اسر ٩٣٦ سفينة بمن وما فيها . وتكبدت فرنسا وحدها خلال الفترة ١٠٣٧ - ١٠٤٤ هـ / ١٦٢٨ - ١٦٣٤ م خسارة ثمانين سفينة ، علما انها اقل الدول الاوربية خسارة ، وبلغ عدد الاسرى في الجزائر احيانا نحو ثلاثين الف اسير من مختلف الدول الاوربية ، كانوا يستعملون في التجذيف في السفن ، وفي اعمال وخدمات اخرى لاصحابهم [1].

ومن ابرز غزاة البحر الجزائريين في عهد الباشاوات : مراد رايس ، ومامي ارناؤوط ، وسليمان رايس ، ودرباي ، وعلي بتشنين [2]. وهم في معظمهم من مسلمة النصارى ، او من البلاد الاوربية التابعة للدولة العثمانية .

وقد انعكس النشاط الكبير لهؤلاء الغزاة وغيرهم على العلاقات الجزائرية مع الدول الاوربية ، فتميزت بالعداء والتوتر مع معظم الدول الاوربية كاسبانيا والجمهوريات الايطالية وهولندة قبل ان تمضي اتفاقية السلام مع الجزائر في سنة ١٠٦٢ هـ / ١٦٥٢ م ، وانكلترا قبل ان تمضي هي الاخرى اتفاقية سلام مع الجزائر في سنة ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٥ م .

اما مع فرنسا فتميزت بالتذبذب بين السلم والحرب ، شأن العلاقات بين الجزائر وتونس ، وبين الجزائر والمغرب ، الا ان السبب في تذبذب العلاقات الجزائرية مع البلدين الاخيرين ، لا يعود الى الغزو البحري ، ولكن الى تدخل البلدين في حدود الجزائر ومحاولة استغلال ظروف الحكام الاتراك الصعبة في الجزائر .

واخيرا فان عهد الباشاوات قد تميز ايضا بكثرة الاوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية التي اصابت الجزائر ، والحقت بها اضرارا فادحة ، ومن اهم المجاعات والاوبئة نذكر على سبيل المثال :

— وباء الطاعون الذي اجتاح الجزائر في عهد شعبان باشا (١٠٠٠ - ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٢ - ١٥٩٥ م) ، وهو الوباء المعروف بالطاعون التونسي [3] لانتقاله من هذه الاخيرة الى الجزائر ، والطاعون الذي اجتاح الجزائر في الاعوام الاولى من القرن السابع عشر .

— والمجاعة الرهيبة التي عرفتها الجزائر عقب جفاف شديد في سنتي ١٠٢٠ - ١٠٢١ هـ / ١٦١١ - ١٦١٢ م .

---

(١) اعطى هذه الاحصائيات : د وغرامون : في المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

(٢) انظر عن مراد رايس ومامي ارناؤوط : هايدو : المرجع السابق ص ١٥٩ ، ١٩٦ ، وعن الآخرين د وغرامون : المرجع السابق ص ١٢٧ وغيرها .

(٣) ميرسيي : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٠ .

- والوباء الكبير الذي تعرضت له الجزائر من خمسين الفا فرسنة ١٠٣٠هـ / ١٦٢١م والذي تجدد في سنة ١٠٣٥ــ ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦ــ١٦٢٧م .

- والطاعون الذي استمر بضع سنوات ١٠٤٩ــ١٠٥٢هـ / ١٦٣٩ــ١٦٤٢م وتجدد في سنة ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م واستمر حتى سنة ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م ، ثم تجدد في سنة ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م

وهكذا يمكن القول ان الجزائر في عهد الباشاوات يكاد الوباء فيها يكون مزمنا . وذلك لضعف دور الدولة في التخفيف منها ، وجهل الناس بطرق الوقاية والعلاج . مما جعله يتجدد باستمراره وفي ازمنة متقاربة جدا .(١)

تلك كانت ابرز مميزات عهد الباشاوات . وتجدر الملاحظة الى ان عدد الباشاوات الذين تداولوا على كرسي باشوية الجزائر في الفترة : ٩٩٥ــ ١٠٦٩هـ / ١٥٨٧ــ١٦٥٩م ليس معروفا على وجه الدقة . اذ ان هنالك اختلافات في عددهم وفي اسماء بعضهم ، وفترات حكمهم وفي تعاقبهم لدى من أرخوا او كتبوا حول هذه الفترة(٢) على انه يمكن القول : بأن عددهم على وجه التقريب كان حوالي اربعين باشا ، منهم من اتم فترة ثلاث سنوات في الحكم ، ومنهم من مات ، او عزل ، او قتل ، قبل ان يتمها ، وقليلون فقط هم الذين تولوا الباشوية فيها مرتين او ثلاثا .

* * *

- مما تقدم يمكن القول :

- ان مجيء العثمانيين الى الجزائر في مطلع القرن العاشر الميلادي (١٠هـ) كان بداية لعهد جديد ، ذلك ان جهودهم قد تضافرت منذ عهد عروج وخير الدين على اقامة وارساء دعائم دولة جزائرية حديثة ، هي ايالة او نيابة او مملكة الجزائر ، قاعدتها مدينة الجزائر ، التي اعطت الجزائر كلها اسمها الحديث ، بعد ان كان مقصورا على المدينة فقط . ووضع لهذه الايالة تنظيم اداري جديد ، وغدت لها حدود سياسية بيّنة ، اخذت تتشكل وتتوضح منذ عهد البايلرباي لتأخذ شكلها النهائي فيما بعد وذلك على انقاض او حساب الوحدات السياسية المحدودة التي كانت قائمة فيها ، والتي عجزت عن المقاومة او الاستمرار ، فقضوا على بعضها قضاء نهائيا كالدولتين الحرمتين الزيانية والحفصية في غرب الجزائر وشرقها ، وابقوا على بعضها الآخر ، تابعا لهم كامارات بني جلاب في توقرت ، وعلاهم في ورقله ، بجنوب الجزائر ، وبني عباس ، وبني القاضي في شمالها ، وعلى حساب المواقع والمراكز التي احتلها او اخضعها الاسبان كمدينة الجزائر وبجاية وعنابة ، وغيرها .. فكان مجيء العثمانيين الى الجزائر عامل توحيد للأجزاء المفتتة والسلالة المبعثرة في ارجائها ، وعامل استقرار للاوضاع التي كانت مضطربة فيها ، وعامل انقاذ وتحرير لها ،

---

(١) انظر عن الاوبئة والمجاعات والكوارث الاخرى ، د ڤرامون : المرجع السابق ص ص ١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٨٩ــ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ .

(٢) انظر ابن المفتي : تاريخ باشاوات الجزائر في المرجع السابق ، وابن حمدوش : عبد السلام الاسفار في المرجع السابق

ن الاستغلال والخضوع الى الاسبان •

— وان ارتباط الجزائر القوي بالدولة العثمانية في عهد البايلربايات ، جعل منها القاعدة الامامية للدولة العثمانية في شمال افريقيا وفي الحوض الغربي للمتوسط في صراعها مع الاسبان الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، والقاعدة التي امتد منها النفوذ العثماني الى باقي شمال افريقيا ، لكن ارتباطها القوي هذا لم يمنعها من ان تتمتع بحرية واستقلال كبيرين ضمن الدولة العثمانية •

— وان يكون لها شخصيتها المتميزة ، وسيادتها المعتبرة ، وان يكون حكامها البايلربايات شبه بالملوك المتعالفين معهم منهم بالملوك التابعين او الخاضعين ، لما كان لهم من سلطات مطلقة غير محددة بزمن ، وكلمة نافذة ، ومكانة سامية لدى الدولة العثمانية بالرغم من ان السلطان العثماني هو الذي كان يعينهم •

— وان استقلال الجزائر وحريتها ضمن الدولة العثمانية قد اعطى لها قوة مضاعفة ، قوة اتية عن حرية حكامها في اتخاذ القرار والمبادرة ، وقوة اخرى مستمدة من قوة الدولة العثمانية التي كانت تمد حكامها بالسلاح والرجال عند الضرورة • بحيث لم تعد فقط كما كانت مراكز جالا للتوسع من القادمين من الشرق او من الغرب ، بل انها اصبحت ايضا ولا سيما فى اواخر عهد البايلربايات في موقف الهجوم على جارتيها تونس وفاس كما رأينا ، وسنرى ، وبذلك اسهمت في المد للنفوذ العثماني اليهما •

— وان سياسة البايلربايات الهادفة الى توحيد البلاد وتحرير المواقع المحتلة من الاسبان كانت تمثل رغبة السكان مما دفع هؤلاء الى التجاوب والتعاون معهم ، الامر الذي ساعد على استقرارهم في الجزائر ، وخضوعهم لها ، الا ان احتكارهم المطلق للسلطة وعدم القبول بمشاركة الاهالي لهم فيها ، ومعاملتهم لهم كمعاملة التابع للمتبوع قد ادى الى قيام ثورات ضدهم في مختلف الفترات وكلما سنحت الفرصة ، كانوا يبادرون الى قمعها بشدة ، الامر الذي ما انفك يباعد بينهم وبين الاهالي ويتسبب في ثورات جديدة ضدهم ، لا سيما في العهود التالية التي اصبحت الشقة فيها بين الحاكم والمحكوم واسعة جدا •

وقد صحب قيام الحكم العثماني في الجزائر امتداد نشاط الغزو البحري ضد الشواطئ والسفن الاوربية الاسبانية منها على الخصوص نتيجة الغزو الاسباني من جهة لشواطئ المغرب الكبير ، وهجرة المسلمين من الاندلس ، واضطهاد الباقين منهم فيه ، وكان دافع الجهاد لهذا الغزو اوضح في عهد البايلربايات منه في العهود التالية ، والتي اختلط فيها بدافع الكسب المادي ، وربما غلب عليه هذا الاخير • وقد كانت غنائم الغزو البحري تشكل احد الموارد الرئيسية لخزينة الدولة ، مما جعل بعض البايلربايات يولونه اهتماما خاصا ، تنظيما وتشجيعا •

وان انتهاء الصراع الكبير او توقفه على الاقل بين الدولة العثمانية وأوربا المسيحية الذي تميز به عهد البايلربايات في الحوضين الغربي والشرقي للمتوسط على السواء ، وميل الدولة العثمانية واسبانيا الى السلم بعد معركة ليبانتي وضم تونس في السبعينات قد جعل السلطان يميل ابتداء الى التخفيف من اهمية قاعدته الامامية في شمال افريقيا ، والى التقليل من السلطات التي كان يتمتع بها حاكمها البايلرباي خاصة بعد موت العلج علي في سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م الذي كان يجمع بين منصبي

البايلربای ، وقبودان باشا ان يجعل الجزائر مجرد باشوية شأنها شأن تونس وطرابلس . الا ان هذا التغيير الذى احدثه السلطان العثماني لم يمثل تغييرا ذا معنى ايجابي للأهالي في الجزائر ، اذ ظلوا مبعدين عن السلطة الفعلية طوال هذا العهد وفي الوقت نفسه عاشوا الصراعات الداخلية بين هؤلاء الباشاوات والانكشارية ، وبين الانكشارية والرياس تلك الصراعات التي جعلت البلاد تعيش في اضطراب ، أعاق تطورها في مختلف المجالات نحو الافضل .

وكان حكم الباشاوات كما بينا العهد الذى خرجت فيه الجزائر وهي اكثر استقلالا عن الحكم العثماني ، الا انها بالمقابل اضعف قوة ، للصراع الداخلي على السلطة بين اطراف القوى المذكورة ، ذلك الصراع الذى انتهى باستلام الآغاوات للحكم في الجزائر في سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م .



الفصـــــل الثانـــــــي

الحيـاة السياسيـة فـي المغـــرب

أوضـاع المغـرب في مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى :

قد لا يختلف مجموع الوضع في المغرب ، في هذه المرحلة عن نظيـره في الجزائر ، وان من ينظـر فيه يرى انه كان هو الآخر في محنـة ، فالوطاسيون (1) الذين آل اليهم الحكـم فـي فـاس بالمغرب في الربع الاخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادى ، قد عجزوا عن توحيد المغـرب كله تحت سلطتهم ، وعن توفيـر الامن والاستقرار له . كما عجزوا عن حماية شواطئه من الغـزو الاسباني والبرتغالي ، فغدا المغرب في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميـلادى

1 – مجزأ الى وحدات سياسية صغيرة كثيرة ، تحت زعامات قبلية ، او دينية ، او مجالـس محلية ، متنافسة ، متناحرة ، مستقلة تماما عن فاس ، او لا تتبعها الا اسميا . ومـن هذه الوحـدات السياسية الكبيـرة نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

آ – في الشمال والشرق المغربيين : امارات شفشاون ، وآصيلا ، ودبدو .

ب – في وسط المغرب وغربـــه : امارات ابن حدو واخيه ابي فارس في الجبل الاخضر وامارة ابن عامر في تنسمـتة ، وامارة آل فرحون في آسفي ، وجمهوريات مدن تافزه ، والجمعـة وآزمور ، ونفوذ رؤساء القبائل في سهول دكالة وتادلا .

جـ – وفي جنوب المغرب وغربه : نذكر امارة آل شنتوف في مراكش ، وامارة مولاى ادريس الهنتاتي في جبل هنتاتة بالاطلس الكبير ، وجمهوريات مدن تارودانت ، وتدسي ، وتفتنت ، ونفوذ الشيـخ يحيى في شوط ، ونفوذ المرابط ابن المبارك في آقـة .

---

(1) الوطاسيون فرع صغير من بني مرين الذين ينتمون الى قبيلـة زناته البربرية . غير انهـم ليسوا من ابناء عبد الحق ، جد سلاطين بني مرين ، كانوا يرتبطون مع هـؤلاء بالاضافة الـى النسب والمصاهرة ، بالمصلحة ، والخدمـة ، حيث شغل الوطاسيون قبل عهـد سلطتهـم ١٤٧١ – ١٥٥٤ مناصب سامية ، في الجيش والدولة ، كالوزارة في عهد عبد الحق آخـر سلاطين المرينيين . وقد نكب هذا الاخير قبل مقتله ، الاسرة الوطاسية التي زاد نفوذهـا حتى طغى على نفوذه ، ولم ينج من الاسرة المنكوبة غير محمد الشيخ واخيه محمد لحلـو . وقد نجح محمد الشيخ في تأسيس الدولة الوطاسية في سنة ١٤٧١ ، انظر السلاوى / الاستقصا ج ٤ ص ٩٦–٩٧ ، ١١٨–١١٠

ونفوذ شيخ عرب اولاد زرقان في تافيلالت ، وغيرهم .

وقد كان امير جبل هنتاته في صراع مع امير مراكش ، كما كان امير الجبل الاخضر في صراع مع هذا الاخير ، وكان عرب دكالة وتادلا في صراع مع بربر الجبال ، وسكان المدن وكذلك كان النزاع قائما بين وحدات سياسية اخرى ، بل وبين احياء المدينة الواحدة كما هو الشأن في تطاوست ، وبين " قصور " سجلماسة ، وغيرها.(1)

٢- هدفا للغزو الخارجي : ان التجزؤ والانقسام والاضطراب الذي كان يعاني منه المغرب في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي قد شجع الاسبان والبرتغاليين على المضي قدما فيما شرعوا فيه منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من غزو للشواطئ المغربية واحتلال لمدنه ، والهجوم على ما جاورها من المناطق تحقيقا لاهدافهم الرامية الى : القضاء على قواعد غزاة البحر المغاربة الذين كانوا يهددون شواطئهم وسفنهم ، واتخاذ قواعد لهم على الشواطئ المغربية المشرفة على الطريق الى غرب افريقيا والهند ، والعالم الجديد ، وعلى الطريق البحري للمتوسط والى استغلال موارد المغرب وخيراته من قمح واصواف وخيول وعبيد وغير ذلك ، والى نشر المسيحية وشن حرب على المسلمين الكفار وغير ذلك من الاهداف .

وقد تمكن الاسبان في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي من احتلال بلدة غساسة في سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م(2) وحجر بادس على المتوسط في سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م(3). وكانوا قد خربوا في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي مدينة تطوان المتوسطية في سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م واحتلوا الموقع المسمى (S^ta^ Cruz de Mar Pequena) على الاطلسي المواجه لجزر كناريا في سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٦م(4) ، ومدينة مليلة في ١٤٩٧(5) على المتوسط .

اما البرتغاليون فقد تمكنوا في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي من احتلال موقع مازاكان في سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م(6) وآغادير في سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م(7) . (S^ta^ Cruz de Cap d'Aguer).

---

1) انظر عن هذه الامارات والوحدات السياسية المختلفة : الوزان - المرجع السابق ج ١ ومارمول : المرجع السابق ج ٢

2) الوزان المرجع السابق ج ١ ومارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٧

3) الوزان نفس المصدر ج ١ ص ٢٨٤ ، ومارمول نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥٢

4) م.م.ت.م. البرتغال ، ج ١ (التنافس البرتغالي الإسباني في جنوب المغرب)

5) م.م.ت.م. : اسبانيا جزء ١ ص ٣-٤ و الوزان المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٠

6) الناصري : الاستقصا ج ٤ ص ١٣٦

7) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٤

وآسفي في سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م [١] ، وآزمور في سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م [٢] ، وكل هذه المدن والمواقع تقع على المحيط الاطلسي ، وتطلعوا في سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م الى احتلال مدينتي مراكش، وفاس [٣] الداخليتين ، وكانوا قد تمكنوا في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من احتلال مدن سبته [٤] في سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، والقصر الصغير في سنة ٨٦٣ هـ / ١٤٥٨ م [٥] ، وطنجة في سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م [٦] ، وآصلا في سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م [٧] ، وهذه المدن تقع على المضيق او تشرف عليه ، كما تمكنوا من تخريب مدينة آنفى في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م [٨] ، ومن شن الهجوم على مدن العرائش والقصر الكبير وغيرها .

ويلاحظ ان الاحتلال الاسباني قد تركز على ساحل المتوسط فقط ، بينما تركز الاحتلال البرتغالي على الساحل الاطلسي ، ولم يكن ذلك صدفة ، وانما نتيجة الاتفاقيات التي توصل اليها الاسبان والبرتغاليون ، والتي حددت مجال استعمار كل منهم دفعا للنزاع والاصطدام فيما بينهم . واهم هذه الاتفاقيات ، اتفاقية تورد يسيلاس في سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ، واتفاقية سينترا في سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م . وبمقتضى هاتين الاتفاقيتين ، كان مجال نفوذ الاسبان من حجر بادس ، وما يليه ، نحو الشرق ، وكان مجال نفوذ البرتغاليين ونشاطهم يمتد من غرب بادس وحتى رأس بوجادور ، ونام بأقصى الساحل الاطلسي للمغرب ، باستثناء موقع سانتاكروز دومار بيكينا ، الذي اعطاه الاسبان قبل التوصل الى هاتين الاتفاقيتين في سنة ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م [٩]

جـ - مسرحا لنشاط القوى الدينية :

وازاء تزايد الخطر الخارجي على المغرب، وعجز الوطاسيين عن الدفاع على كل الشواطىء المغربية ، وعن فرض سلطتهم على كل اجزاء المغرب ، تحركت القوى الدينية المؤلفة من رجال

---

١) الوزان : المرجع السابق جـ ١ ص ١١٧ — ١٢١
٢) نفسه ص ١٢٦
٣) في هذه السنة ١٥١٥ م غزوا مدينة مراكش في افريل ، ثم شنوا حملة على المعمورة ، انظر مارمول : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٣ — ٦٥ ، ١٤٩—١٥٣
٤) و٥) نفسه : جـ ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٦ ، والوزان : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٦٥
٦) الوزان : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٦٤ ومارمول : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٠٣
٧) الوزان : نفس المرجع ص ٢٦٠ ومارمول : نفس المرجع ص ٢٢١—٢٢٢
٨) الوزان : نفس المرجع ص ١٦٠—١٦١ ومارمول : نفس المرجع ص ١٤٨
٩) انظر عن هاتين الاتفاقيتين : التسابق البرتغالي — الاسباني في م.م.ت.م : البرتغال جـ ١

الدين المرابطين والاشراف ، الذين كانوا ينتمون غالبا الى الطرق الصوفية المحلية منهـــا كالطريقة الشاذلية[1] ، والطريقة الجازولية[2] ، المتفرعة عنها او التي انتقلت اليه من المشرق كالطريقة القادرية[3] ، وانتشرت تلك القوى الدينية في المغرب بعد ان كانت محصورة في المدن ، ووسعت نطاق نشاطها ، ليشمل مختلف جوانب الحياة الدينية والتعليمية والسياسية وغيرها في مناطـــق وجودها . فقامت بالدعوة الى الجهاد ، وتعبئة الناس لهذا الغرض وقيادتهم ، وجمع المـــال لافتداء الاسرى ، وانشأت الزوايا لتعليم الدين وغيره ، وتدخلت لحل الخلافات بين المتنازعين ، ولفرض الامن في مناطق فعاليتها ، وهذه كلها ادوار ايجابية ، ولكنها لم توظف نفوذها المتزايد في مناطق نشاطها لدعم السلطة المركزية في فاس . بل اخذت تنشئ امارات مستقلة هنا وهنـــاك في مختلف انحاء المغرب ، كإمارة شفشاون[4] ، في الشمال على سبيل المثال . بل يمكن اعتبـــار كل زاوية امارة مستقلة ، اذ كانت تتمتع بنفوذ كبير في منطقتها[5] . ولما كانت حريصة على توسيـــع نطاق نفوذها والمحافظة على استقلالها ، فقد ساهمت بذلك في زيادة تفتيت السلطة في المغرب وتجزوءه ، وهذا دور من ادوارها السلبيـــة .

ومما تقدم يمكن القول ان المغرب كان يعيش في ازمة شديدة في مطلع القرن العاشر الهجـري / السادس عشر الميلادي ، حيث الغزو الخارجي مستفحل ، والتجزوء الداخلي شديد ، الامر الـذي جعل المغاربة يتطلعون الى سلطة حاكمة قادرة على توحيد شتات المغرب واجزائه وعلى توحيـد صفوف المغاربة في وجه الخطر الخارجي ، وعلى تحسين اوضاعهم ، وكانت تلك السلطة هـــي سلطة السعديين ، فمن هم هؤلاء السعديون ؟

---

1) نسبة الى ابي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي تلميذ عبد السلام بن مشيش . ولد بقبيلـة غماره في شمال المغرب سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٧ م ، وتفقه وتصوف في تونس وسكن شاذلـة فنسب اليها وتوفي بصعيد مصر في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، انظر عنه الزركلي : الاعلام ج 5 ط 3 بيروت ص 120

٢) نسبة الى محمد بن عبد الرحمن بن ابي بكر بن سليمان صاحب دلائل الخيرات ، توفي في المغرب سنة ٨٧٠ هـ / انظر عنه ممتع الاسماع في ذكر الجازولي والتباع لمحمد المهـدي الفاسي ف...... ابس 1313 هـ والمصـــدر المصادر التي تتحدث عنه والتي ذكرها الزركلي في الاعلام ج ٧ ص ٢١

٣) نسبة الى عبد القادر الجيلاني احد اقطاب الصوفية في المشرق ، توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ ، انظر حوله الزركلي : الاعلام ج ٤ ص ١٧١-١٧٢ والمصادر التي ذكرها

٤ و ٥) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٢١-٢٢ ، ص ٨٣-٨٤

- قيام دولة السعديين والسقوط التدريجي لدولة الوطاسيين :
(916 - 956 هـ / 1510 - 1549 م)

السعديون اسرة عربية الاصل كما هو موكد لدى كل من ارخ لهم ، انتقل اوائلهم من ينبع بالحجاز الى درعة بجنوب المغرب ، واستوطنوا قرية تاغمادارت وذلك في المئة السادسة الهجرية على ما هو عند الزياني (1) ، وكان الاعتقاد السائد لدى المغاربة انهم من الاشراف وذكر ابن القاضي عمود نسبهم الشريف ، الا ان المنافسين ، وخاصة في ايام ضعفهم كأشراف سجلماسة الحسنيين وخصومهم السعديين من بقايا الوطاسيين والمرينيين وانصارهم ، كانوا يطعنون في صحة نسبهم الشريف ، معتمدين في ذلك على البتر الذي لوحظ في عمود نسبهم كما ذكره ابن القاضي (2) ، وعلى ما نقل عن المقري من ان نسب السعديين يعود الى بني سعد بن بكر بن هوازن قوم حليمة السعدية مرضعة النبي (ص) اي من غير قريش وهو قول تراجع عنه المقري نفسه ، وصرح بشرفهم في كتابه " نفح الطيب " ، واكد السلطان العلوي محمد بن عبد الله للزياني ان نسب السعديين الشريف لاغبار عليه، واعترف انهم ينحدرون من جد واحد (4) ويسمى السعديون ايضا بالزيدانيين نسبة الى جدهم زيدان بن احمد ، الا ان اسم السعديين هو الذي شاع استعماله ، وخاصة في المصادر الغربية والمراجع العربية التي الفت بعد زوال دولتهم .

وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي يعيشون في المغرب حياة بسيطة دينية وعلمية ، ولم يبرزوا على المسرح السياسي الا حين اشتدت وطأة البرتغاليين على سكان الجنوب المغربي ، والحقوا بهم اضرارا في انفسهم ومصالحهم الاقتصادية دون ان يتدخل الوطاسيون لحمايتهم ، او ان يكون هنالك امل في تدخلهم ، حيث كانوا منشغلين بالدفاع عن الشمال ، فالتفتت انظار اهل الجنوب الى هؤلاء السعديين لقيادة صفوفهم ضد البرتغاليين ، بعد ان رفض ابن المبارك (5) مرابط آقة الكبير ، ان يتولى هذه المهمة ووجههم الى ابي عبد الله محمد عميد الاسرة السعدية الذي قبل ان يتولاها بعد اتصالات ومشاورات بينه وبين المرابط الآنف الذكر ، وبينه وبين بني قومه ، وفقهاء السوس واعيانه في سنة 915 هـ / 1509 م وتمت المبايعة له في مدينة تدسي بالسوس في سنة 916 هـ / 1510 م (6)

---

1) ابو القاسم الزياني : الترجمان المعرب في مجلة الغرب الاسلامي والمتوسط عدد 23 . اكس ان بروفانس 1977 ص 342
(R.O.M.M., AIX-EN-PROVENCE.)

2) درة الحجال في اسماء الرجال تحقيق محمد الاحمدي ابو النور القاهرة وتونس 1971 ص 1066

3) الافراني المرجع السابق

4) الزياني : المرجع السابق ص 342

5) انظر عنه ، ابن عسكر المرجع السابق ص 83-84

6) الافراني : النزهة ص 16

وتلقب ابو عبد الله بالقائم بأمر الله . وقدمت له كل قبيلة بايعته عشرة من رجالاتها المقاتلين فبلغ المجموع /٥٠٠/ رجل مما يعني ان عدد القبائل التي بايعته كان خمسين قبيلة . وكانت هذه القوة هي نواة الجيش السعدي النظامي. وقد اسند قيادتها لابنه الاكبر احمد الاعرج (١).

ومما تقدم نستخلص ان ابا عبد الله القائم بامر الله السعدي " لم يعرض نفسه على اهل السوس بجنوب المغرب فرضا ، وانما اختاره هو لا " اختيارا " واسندوا اليه مقاليد امورهم بمحض اراداتهم . ولم يكن هذا الاختيار على اساس العصبية القبلية حيث ان القبائل الاولى التي بايعت ابا عبد الله هي قبائل بربرية من مصمودة ، وانما وقع الاختيار عليه لشرف نسبه ، وسمعة اسرته العلمية والدينية ، وتزكية المرابط الشهير ابن المبارك وغيره من المرابطين كأبي البركات التدسي (٢) وابن عمر المنظري (٣) .

ومما تقدم ايضا يمكن ان نستنتج ان المبرر الاساسي لمبايعتهم له هو الجهاد ضد البرتغاليين واعوانهم ، وقيادة صفوف المجاهدين ضدهم ، وحماية اهل الجنوب ومصالحهم من اخطار اعدائهم . ويمكن تقسيم حياة الدولة السعدية الى اربع مراحل بحسب اوضاعها و فعالياتها.

المرحلة الاولى من قيام الدولة السعدية : 916 ــ 932 هـ/ 1510 ــ 1525 م :

صراع السعديين ضد البرتغاليين واعوانهم :

تميزت هذه المرحلة بالصراع السعدي ــ البرتغالي ، وبعد السعديين لسلطتهم على الجنوب المغربي . فبعد مبايعة اهل السوس لابي عبد الله دعاهم الى القيام بحملة على البرتغاليين في مرسى تفتنت ، وتمكن من احراز انتصار اولي عليهم ، ومن اجبارهم على الجلاء عن المرسى المذكور في سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م (٤). ولكن الخلاف الذي حصل بين بعض القادة في تدسي ، وبين القائم بأمر الله جعل هذا الاخير يعود الى بلدته في درعة وظل بها نحو السنتين ، توقف خلالهما عن قيادة اعمال الجهاد ولما زال ما اغضبه ، عاد الى تدسي في سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م، وطلب من اهلها ان يبايعوا ابنه الاكبر احمد الاعرج بالامارة فاستجاب الناس لطلبه. ثم ان محمدا القائم بامر الله انتقل مع ولده المذكور الى تدنست بمقاطعة حاحة (٥)

---

١) الزياني : المرجع السابق ص ٣٤٤
٢) الافراني : النزهة ص ١١
٣) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٦٥-٦٦
٤) الافراني : النزهة ص ١١
٥) نفسه

بطلب من اهلها الذين اضجر بهم البرتغاليون واعوانهم من المغاربة كيحي بن تافوفت (1) والشيخ بوجمعة (2) والشيخ مومن (3) وغيرهم ، بينما بقي ابنه محمد الشيخ بالسوس ينظم هذه المقاطعة ويوسقون السعديين فيها ، واتخذ من مدينة تارودانت التي دخلت في طاعته سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م قاعدة له .

وفي مقاطعة حاحة خاض المغاربة بقيادة احمد الاعرج ضد البرتغاليين واعوانهم معارك عديدة ، لم يكن النصر فيها دائما حليف السعديين ، ومن اهم المعارك التي خاضوها معركة قرب تدنيست في سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٤م (4) انهزم فيها السعديون واحرق البرتغاليون تدنيست ودمروا المدن والقرى الموالية للسعديين ، وفي سنة ١٥١٥ هاجم البرتغاليون مدينة مراكش ، لكن محاولتهم لاحتلالها باءت بالفشل امام وصول امدادات الى المدينة من السعديين والوطاسيين. (5)

وفي سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م توفي القائم بامر الله واستمر ولده احمد الاعرج في محاربة البرتغاليين بنجاحات مختلفة ، ثم ركز جهوده وجهود اخيه محمد الشيخ في التخلص من اعوان البرتغاليين اذ بفضلهم كان البرتغاليون يتوغلون الى المناطق الداخلية ، ويلحقون اكبر الاضرار بها .

ونجح السعديون عن طريق الموالين لهم في القضاء عليهم واحدا بعد الآخر . وبمقتل يحي بن تافوفت في سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩م تخلص السعديون من عقبة كبيرة ، وفقد البرتغاليون في يحي حليفا مخلصا ، قدم لهم خدمات جليلة (6) . ولم يجدوا من يعوضه فبدأ نفوذهم في التقهقر عن المناطق الداخلية واستمر في التقلص والاندحار حتى باتوا مهددين في آسفي وآزمور واكادير وغيرها . . بينما اخذ نفوذ السعديين في التزايد والتوسع في الجنوب المغربي ، حيث توالى خضوع المدن والقرى في المقاطعات الجنوبية تماسة ، وتيوط ، وتفاوست ، بالاضافة الى تدسي وتارودانت ، وكل هذه المدن من المراكز التجارية الهامة ، ولكن اهم مدينة خضعت لهم مما التي ذكرناها ، كانت مدينة مراكش في سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤م (7) ، وسواء أكان خضوع مراكش سلما ام عنوة (8) ، فان خضوعها في النهاية لهم ، بعد موت اميرها الناصر بوشنتوف يعد انجازا كبيرا

---

(1) قائد عرب عبده وكالة رحامنة ، والقائم العام للقبائل الموالية للبرتغاليين ابتداء من عام ١٥١٦م
Torrès(Diogo de):Relation de l'origine et succès des Chérifs.Paris 1[illegible]
الوزان : المرجع السابق ص ١٠ ، ومارمول المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٣ ، ٩٢
(2) انظر مارمول المرجع ٢ ص ١١
(3) قائد عرب عبدة الغار عنه ، مارمول نفس المرجع جـ٢ ص ٦٥
(4) انظر مارمول : المرجع السابق جـ٢ ص ٨-٦
(5) مارمول : نفس المرجع ص ٦٥
(6) طوريس / المرجع السابق ص ٧٣-٧٤ (قتله عرب اولاد عمران
(7) الافراني : النزهة ص ١٦ . وعند الزياني كان الدخول ٩٢٧ هـ/١٥٢١م . الترجمان ص ٣٤٥
(8) حسب طوريس ان الاخوين احمد الاعرج ومحمد الشيخ دخلا مراكش للتشاور وجرى سيرها في حملة على آسفي ولما اختفيا به قتلاه واعلن الاعرج سلطانا انظر المرجع السابق ص ٧٥-٧٩
اما الافراني فيذكر ان ملوك مراكش كاتبوا الاعرج ودخلوا تحت طاعته انظر النزهة ص ١٩ بينما يذكر الزياني ان الدخول كان عنوة المرجع السابق ص ٣٤٥

في طريق توحيد كل الجنوب المغربي تحت سلطتهم وبداية لمرحلة جديدة في طريق توحيد المغرب كله

المرحلة الثانية من قيام الدولة السعدية : 932 - 956 هـ/ 1525 - 1549 م

صراع السعديين مع الوطاسيين ومع البرتغاليين

وهذه المرحلة تميزت باستمرار الصراع بين البرتغاليين ، والسعديين ، وبين هؤلاء الاخيرين والوطاسيين ، واستكمال السعديين لتوحيد اجزاء المغرب تحت سلطتهم .

وقد ... تلال السعديين لمراكش التي كان امرها من اتباع الوطاسيين استياء السلطان محمد ال... الوطاسي ، اذ بدا لهذا الاخير ان هدف السعديين ليس فقط الجهاد بل تأسيس د... . ولكن احمد الاعرج سارع الى التخفيف من استياءه خشية ان يهاجمه قبل ان ... ستعداداته و يتخذ احتياطاته ، بأن عرض عليه ان يكون عاملا له على مراكش ، وابدى ا... ... لان يدفع له ضعف ما كان يدفعه له سلفه [1] ، ولما كان محمد البرتغالي منشغلا ... الشمال بأصيلا التي هاجمها في ٩٣١ هـ/ ١٥٢٤ م وحدها ما لا يقل عن اربع مرات [2] ... قبل العرض وتمهل في اتخاذ موقف حازم تجاه احمد الاعرج .

ولكن هذا الاخير بعد ان وطد نفسه في مراكش ، لم يف بالتزاماته رغم التحذير والتهديد من السلطان الوطاسي [3] ، فقرر محمد البرتغالي حينئذ ان يهاجمه ، وقبل ان ينجز خطته توفي في جمادى الآخرة ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٦ م واعقب وفاته نزاع بين اخيه ابي حسون وبين ولده احمد ، ولما خلصت الملك لهذا الاخير في ذي الحجة ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٦ م [4] ، طالب احمد الاعرج بما استحق عليه من ضريبة التبعية ، فلم يستجب له ، بل وتحالف مع الامراء المستقلين عن فاس كابن حدو وادريس ... الهنتاتي المتقدم ذكرهما ، وحصن مدينة مراكش ، فلم يبق امام السلطان الوطاسي الا الحرب [5] .

١ - حصار الوطاسيين لمراكش: ١٥٢٧ م هادن الوطاسيون والسعديون في اواخر الاشهر الاولى من سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦ م البرتغاليين ليتفرغا للصراع ضد بعضهم بعض . وتحرك السلطان الوطاسي الى مراكش في جموع كبيرة ، وفرض الحصار عليها اياما ، وامام وصول مدد كبير من تارودانت بقيادة محمد الشيخ ، ووصول انباء من فاس عن تمرد ابناء عم السلطان الوطاسي ، رفع هذا الاخير الحصار وعاد على عجل الى قاعدة ملكه ، متكبدا في اثناء الانسحاب خسائر كبيرة [5] .

---

١) طوريس / المرجع السابق ص ٦٠ السلاوي / الاستقصا ص ١١

Luiz de Sousa :Les Portugais et l'afrique du nord de 1521 a 1557. trad. R. Ricard, Portugal 1940, ch. 16.

٢) طوريس / المرجع السابق ص ١

٣) لويس دو سوزا / المرجع السابق ص ٧٠ والسلاوي / الاستقصا ج ١ ص ١٤٩

٤) طوريس / المرجع السابق ص ٩٢

٥) انظر عن حصار مراكش طوريس : المرجع السابق ص ١٦ . الافراني : النزهة ص ١٦ السلاوي : الاستقصا ج ٤ ص ١٤٧ - ١٤٨ وعنده ان الذي حاصر مراكش هو محمد البرتغالي .

٢- معركة آنماي : تمكن احمد الوطاسي من اخماد التمرد ، ومن تجهيز حملة اخرى ضد السعديين ، وكان اللقاء هذه المرة بآنماي خارج مراكش ، ولم ينته فيها بهدو بنصر حاسم لاحد الطرفين ، فافترقا على صلح ، وذلك في سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٨م (١) .

٣- معركة بوعقبة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م : ظل السلطان الوطاسي ينظر الى الاشراف السعديين على انهم مغتصبون للسلطة في مراكش ، بينما كان هؤلاء يرون انهم احق بالملك منه (٢) ولذلك فانهم ما فتئوا يوسعون سلطتهم ، الامر الذي جعل النزاع يتجدد بين الطرفين وفي سنة ٩٤٣/٣/٩ هـ /١٥٣٦/٨/٢٦م حملا على بعضهم بقوات كبيرة والتقيا على نهر العبيد ، وانتهى الصراع العنيف الذي دار بينهما بهزيمة كاملة لجيش السلطان الوطاسي ، على الرغم من تفوقه العددي (٢٠,٠٠٠ مقابل ١٢٠٠٠) ونجا السلطان الوطاسي بنفسه بصعوبة (٣) .

تقسيم المغرب بين الوطاسيين والسعديين : ٩٤٣هـ/١٥٣٦م وفي اعقاب هذه الحرب التي مات فيها خلق كثير تدخل كبار علماء فاس واعيانها لعقد الصلح بين الوطاسي والاخوين الاعرج ومحمد الشيخ ، ولم تكن مهمتهم سهلة ، اذ امتنع الشريفان عن تقديم التسهيلات لابرامه ، ونص الاتفاق الذي توصلوا اليه على ان يكون للسعديين ما يلي تادلا جنوبا حتى اطراف السوس ، وللوطاسيين ما يلي تادلا شمالا الى رباط تازه ، وان تكون درعة للسعديين وسجلماسة للوطاسيين (٤) دون اي اشارة الى تبعية او خضوع الشريفين الى السلطان الوطاسي مما يعني ان المغرب غدا يتألف من مملكتين رئيسيتين لا تبعية لاحدهما للاخرى ، فتهدئت الاوطان على الرعية (٥) ، ولكن الى حين فقط ، اذ ما لبث الطرفان الوطاسي والسعدي ان اصطدما كما سنرى بعد حين ، وقبل ذلك نشير الى ان السلطان الوطاسي الذي انهزم هزيمة كاملة ، عقد هدنة جديدة مع البرتغاليين في ٢٧ صفر ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨/٧/٢٤م لمدة (١١) عاما (٦) ليأمن جانبهم ، ويستعد من جهة اخرى للجولة القادمة مع خصومه السعديين (٧) .

---

١) النزهة للافراني ص ٢٠ - الاستقصاء للسلاوي ص ١٥
٢) المجهول : المرجع السابق ص 6 .
٣) طوريس / المرجع السابق ص ١٠٣-١٠٤ و م.م.ت.م : البرتغال ج١ ص ٤
الافراني : المرجع السابق ص ٢٠ - السلاوي / الاستقصاء ج٤ ص ١٥٣-١٥٤
٤) الافراني - نفس المرجع ص ٢١ المجهول : المرجع السابق ص ٧
٥) المجهول : نفس المرجع ص ٧
٦) م.م.ت.م : البرتغال ج٣ ص ٤٤ و م.م.ت.م : اسبانيا ج١ ص ٩
٧) السلاوي : الاستقصاء ج٤ ص ١٥٤ ، وعنده ان الهدنة كانت لمدة ثلاث سنوات

ولكن هذه الهدنة سببت له متاعب داخلية كثيرة مع الامارات الشمالية التي كانت تقوم باعمال الجهاد ضد المراكز البرتغالية ، ومع امارة دبدو في شرق المغرب التي استاءت من سياسته ، الامر الذي اضطره الى استعمال القوة لاخضاع امارة بني راشد في شفشاون في محرم ٩٤٨ هـ / ماي ١٥٤١ ،[1] والى اتباع سياسة المصاهرة مع امير دبدو ومع السيدة حاكمة تطوان ، حيث اصهر الى الاول في ابنته ، وتزوج بالثانية[2] ، كما كانت هدنته مع البرتغاليين سببا في فقد شعبيته لدى عموم المجاهدين وانصار الجهاد[3] .

اما احمد الاعرج ومحمد الشيخ فقد استغلا الهدنة مع الوطاسيين ، وهدنة اخرى عقداها مع البرتغاليين في ١٥ ذي القعدة ٩٤٣ هـ / ٢٥/٤/١٥٣٧ م لمدة ثلاث سنوات[4] في بسط نفوذهم على المناطق التي لم تخضع لهم بعد في الجنوب المغربي ، كأعالي درعة التي كانت تحت حكم مزوار (مقدم) موال للبرتغاليين وعلى المناطق الاخرى التي كانت تحت نفوذ القبائل الموالية للبرتغاليين[5] بحيث امتد نفوذهما على كل المناطق في الجنوب المغربي ، ومقاطعات وسط المغرب فيما عدا الاطراف المجاورة للمراكز البرتغالية ، كما استغلاها في تنظيم مملكتهما التي غدت تشمل مناطق واسعة ذات اهمية اقتصادية كبيرة كدرعة ، والسوس ، ومراكش .

الا ان مملكتهما كانت لاتزال تفتقر الى ميناء كبير صالح يتناسب مع الاهمية التي اصبحت لهذه المملكة ، يمكن ان يقصده التجار الاوربيون بكل حرية لشراء السكر المغربي الذي اخذ محمد الشيخ بصفته نائبا لاخيه في السوس يستكثر من زراعته هناك[6] ، فصمم على تحرير ميناء آغادير الهام الواسع من البرتغاليين مهما كلفه من ثمن ، فتجدد الصراع بين السعديين والبرتغاليين بعد انقضاء اجل الهدنة بهجوم كبير قام به محمد الشيخ ضد المركز البرتغالي وبعد حصار دام سبعة اشهر تمكن الامير السعدي من اقتحام المركز وقتل أو اسر كل من كان به متكبدا من اجل تحريره خسائر كبيرة[7] . فكانت آغادير اول مركز هام يحرره السعديون وذلك في ذي القعدة ٩٤٧ هـ / ١٥٤١ م الامر الذي زاد هم شعبية وشهرة لدى المغاربة ، وافزع كل اعوان البرتغاليين ، واخضبلهم فتسارعوا الى اعلان خضوعهم للسعديين[8] .

---

١) لويز دوسوزا المرجع السابق ص ١٤٨ ،
٢) محمد داود تاريخ تطوان المجزء الثامن تطوان ١٩٥٩ ص ٨٦
٣) ابن عسكر الدوحة ص ٤ (ترجمة محمد بن يحيى البهلولي)
٤) م.م.ت.م : البرتغال ج ٣ ص ٤٤٤
٥) مارمول المرجع السابق ج ٣ ص ٣ ، وتوريس : المرجع السابق ص ١٠٥-١٠٧
٦) طوريس : نفس المرجع السابق ص ١٠٨
٧) مارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦
8) BOULET(l'Abbé): Histoire de l'empire des chérifs en afrique. Paris 1733, P. 128.

وغنم محمد الشيخ غنائم كبيرة من هذا المركز واخذ فورا في استغلال ميناء آغادير في التجارة مع الاوربيين، ولا سيما مهربي السلاح منهم [1].

وكان التجار الاوربيون يقبلون على ميناء آغادير لشراء السكر والجلود والشمع وغيرها من السلع.

وكان رد فعل البرتغاليين على سقوط آغادير بيد السعديين، وتعرض آسفي ايضا للحصار، قيام الحاكم البرتغالي لهذه الاخيرة بهجوم مفاجئ على عرب الشاطئ المجاورة [2]، وتفكير الحكومة البرتغالية في القيام بحملة ضخمة ضد مدينة مراكش، بمشاركة السلطان احمد الوطاسي ولكن تراجع هذا الاخير بعد ان ابدى استعداده للمشاركة في الحملة [3] جعل البرتغاليين لا يعدلون فقط عن تنفيذ مشروع الحملة بل ويقررون ايضا الجلاء عن آسفي وآزمور في شعبان ٩٤٨ / دجنبر ١٥٤١م [4] والاحتفاظ فقط بمازاكان على ساحل دكالة، مع زيادة تحصين هذه الاخيرة.

وفور جلاء البرتغاليين عن المدينتين المذكورتين قام احمد الاعرج بالاستيلاء عليهما واعاد تعمير آسفي [5]. اما آزمور فقد استمرت خربة خالية لقربها من مازاكان وقيام البرتغاليين بشن غارات عليها من حين لآخر انطلاقا من هذا المركز [6].

وقد برر البرتغاليون انسحابهم من آسفي وآزمور برغبتهم في التخفيف عن خزينة الدولة لان الاحتفاظ بهما قد غدا عبءا كبيرا عليها، اذ لم يعد للمركزين جدوى كما كانت سابقا قبل اشتداد قوة السعديين، وتقلص نفوذهم على ما جاورهما من المناطق الداخلية حتى بات لا يتجاوز اسوار المدينتين، هذا بالاضافة الى ان آسفي ليس لها مرفأ صالح، وتموينهما وامدادهما عن طريق البحر ليس سهلا، وان آزمور لا يمكن ان تستقبل السفن الكبرى بسبب ضحب نهر ام الربيع الخطير.

وقد كان التفكير في الجلاء عنهما منذ سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م واردا. الا ان ملك البرتغال لم يجرؤ حينئذ على الامر بذلك خشية ردود الفعل المضادة واتهامه بالتخلي عما حققه اسلافه بثمن غال [7].

وبتحرير السعديين لآغادير، وجلاء البرتغاليين تلقائيا عن آسفي وآزمور اخذ وجود هؤلاء على الشواطئ المغربية في الانحسار، ولا سيما عن الشواطئ الجنوبية والوسطى للمغرب، بحيث لم يبق لهم غير مازاكان.

1) مارمول: المرجع السابق جـ٢ ص ٣
٢) لويز د وسوزا ـ المرجع السابق ص ٥٠ (-١٥٤)
٣) نفسـه، ص ٤٨ (-١٤٠)
٤) نفسه ص ١٤٠ و م.م.ت.م: فرانسا جـ ١ هامش ٣ ص ١٤١
٥) مارمول / المرجع السابق جـ٢ ص ٨٥
٦) نفسه جـ٢ ـ ص ١٠
٧) نفسه جـ٢ ـ ص ٨٥، ١٠ لويزد وسوزا / المرجع السابق ص ١٥٦، ١٦٠

النزاع بين الاخوين احمد الاعرج ومحمد الشيخ :

في الوقت الذي كان من المنتظر ان يوجه السعديون جهودهم لتحرير ما زاكان التي بقيت بيد البرتغاليين ، اذا بنزاع ينشب بين الاخوين استمر بضع سنوات ، واسباب هذا النزاع كما ذكرها طوريس[1] ، اقتناع الاعرج بكلام الوشاة بأن اخاه محمدا الشيخ لم يعدل معه في القسمة للغنائم التي ظفر بها في آغادير وان هذا الاخير تصرف في اقتسامها لا كولي عهد وانما كسلطان ، الامر الذي جعله يكتب لاخيه ويأمره بالحضور اليه ، ولكن محمدا الشيخ رفض الحضور ، وحاول استبعاد ظنونه بدون جدوى ويبدو ان الشخصية الكبيرة التي حصل عليها محمد الشيخ في حملته على آغادير ، والشهرة التي نالها بعد انتصاره قد جعلت احمد الاعرج يغار من اخيه ويحسده .

وتعقد الخلاف اذ رفض محمد الشيخ الحضور الى مراكش كما امره اخوه الاعرج ، وازاء الحاح هذا الاخير في اعادة قسمة الغنائم والحضور ، طلب محمد الشيخ بدوره ان يعهد اليه فقط اقتسام الغنائم ، ولكن ايضا اقتسام المملكة ، وان يعلن ابنه محمد الحران وليا للعهد بعدهما على كل المملكة باعتباره اكبر ابنائهما ، وان وصية والدهما تقضي بأن يلي الملك من بعده الاكبر فالاكبر في الاسرة من بنيه[2] ، وطالب ايضا بأمور اخرى فاستشاط احمد الاعرج غضبا ، وتطورت الامور بينهما الى نزاع مسلح . وباءت جميع محاولات التوفيق بينهما بالفشل[3] .

وقد تمكن محمد الشيخ من الانتصار على اخيه واسره في احدى المعارك ثم اطلق سراحه بعد قبوله بتقسيم المملكة بينهما ، وبأن يكون محمد الحران ولي عهد لهما ، وبنود اخرى تضمنتها المعاهدة التي عقداها بينهما[4] ، ولكن احمد الاعرج نقض هذه المعاهدة بعد ان اصبح طليقا بلغرانه وقمعهما وهو اسير . فتجدد النزاع بينهما وانهزم الاعرج مرة اخرى في معركة لكا هرا الهامة سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م ، التي دخل في اثرها محمد الشيخ الى مراكش قاعدة ملك اخيه واستقر بها ، وعرض على هذا الاخير الذي لجأ الى احدى الزوايا ، ان يستقر هو وعائلته ، ومن شاء في تافيلالت ، فتوجه اليها وأقام بها الى حين[5] .

---

١) طوريس / المرجع السابق ص ١١٤-١١٦ وانظر ايضا الافراني : النزهة ص ٢٢

٢) الافراني : النزهة ص ٦٧

٣) انظر تفاصيل النزاع في طوريس / المرجع السابق ص ١١٦-١٤٤

٤) طوريس : نفس المرجع ص ١٤٧

٥) نفســـــه ، وانظر الزياني : المرجع السابق ص ٣٤٥

لم يكن نزاع الاخوين ليمضي دون ان يؤثر على سمعة السعديين ونظرة الناس اليهم ، فالقبائل السوسية التي عرفت السعديين قادة للجهاد ، قد اخذت بعد نشوب النزاع بين الاخوين من اجل السلطة والنفوذ ، واقتسام الغنائم وغير ذلك من الامور ، تغيرت نظرتها اليهم . فبدأت بالتمرد على الاخوين والثورة عليهما ، واول هذه الثورات كانت ٩٥٠هـ/١٥٤٣م بقيادة المرابط سيدي عبد الله في الاطلس الكبير(١) ثم تتالت الثورات وسنرى ان محمدا الشيخ قتل وهو يقود حملة لاخماد احدى الثورات في جبال الاطلس الكبير .

اما البرتغاليون فأرادوا انتهاز فرصة الصراع بين الاخوين لتوجيه ضربة قاضية لهما بالتعاون مع السلطان احمد الوطاسي(٢) ، الا ان هذا كان منشغلا في الشمال بتمردات الامارات الشمالية والشرقية(٣) ، فلم يتجاوب معهم ، ولعل ذلك حرصا منه ايضا على الا يفقد ما بقي له من شعبية ، بعد ما فقد الكثير منها من جراء عدنته معهم ، وخشيته من ان يؤدي تدخلهم ضد السعديين الى ترك الاخوين لخلافاتهما وتوجيه قواتهما ضدنا .

ولكن انفراد محمد الشيخ الطموح بالحكم في مراكش ، وتفوقه على اخيه الاعرج ، اشعر السلطان الوطاسي بالخطر ، ولذلك فقد رحب بطلب هذا الاخير مساعدته على استرجاع مملكته من اخيه ، وتجاوب معه(٤) .

معركة درنه في رجب ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م

لم يغفر محمد الشيخ لاحمد الوطاسي استعداده لمساعدة اخيه ضده ، فطمع لضم مملكة فاس ، ونقض الصلح الذي ابرم منذ عدة سنوات في اعقاب معركة بوعقبة ، وطالب احمد الوطاسي بأن يتخلى له عن مقاطعة تادلا ، وقبل ان يحصل على الجواب ، اخذ في جباية الضرائب منها ، وهب الوطاسي لابعاده عنها ، وزحف محمد الشيخ الى لقائه فاصطدما على نهر دربن ، احد فروع نهر ام الربيع في رجب ٩٥٢هـ/ سبتمبر ١٥٤٥م وكان الصدام عنيفا لاشتراك قوات كبيرة فيه ، من المشاة والفرسان وحملة السلاح الناري ، من كلا الجانبين ، وكان النصر في النهاية حليف محمد الشيخ الذي تمكن من اسر السلطان الوطاسي وابنه ابي بكر(٥) ، وسقطت مقاطعة تادلا في قبضته ، وغدا الطريق الى فاس مفتوحا امامه ، فتقدم اليها ، وقصد الدخول اليها ، فامتنع اهل فاس(٦) بقيادة ابي حسون الوطاسي ومحمد القصري

(١) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٣أ-١٢٤
(٢) لويز وسوزا المرجع السابق ص١٤٧-٥٠ (سفارة ملك البرتغال الى السلطان احمد الوطاسي)
(٣) في سنة ١٥٤٢ ، انفرد بحكم زوجته في تطوان ، وحكم صهره في دبدو ، وكان ولاء امير شفشاون ، غير ثابت

(٤) توريس / المرجع السابق ص١٢٨
(٥) نفسه ص١٥٢-١٥٧ : الافراني ص٢٧-٢٨ - السلاوي : الاستقصاء ج٤ ص١٥٦
(٦) توريس / نفس المرجع ص١٦٤

ابن السلطان الوطاسي الاسير ، الذي بويع سلطانا موقتا ، خلفا لوالده واستعدوا لمقاومته .
وكاتب محمد الشيخ اعضاء الاسرة الوطاسية ، واعيان فاس يطلب منه تسليمه مدينة مكناسة في مقابل
اطلاق سراح السلطان الاسير ، وهدد باستعمال القوة لتحقيق طلبه (1) .

الا ان خوفه من ان يغتنم اخوه فرصة غيابه عن مراكش بمعظم قواته فيقدم على استعادتها
جعله يعود الى مراكش ، ومعه السلطان الوطاسي الاسير دون ان ينفذ تهديده . وقد كان
الفاسيون من جهة اخرى قد استعدوا لمقاومته ، ثم ان الاسرة الوطاسية قامت بتوجيه نداء الى
السلطان العثماني سليمان القانوني يطلبون منه التدخل لدى محمد الشيخ لاطلاق سراح
السلطان الاسير (2) .

وكان رد فعل السلطان السعدي الاسراع الى القضاء على الدولة الوطاسية قبل ان يستفحل
التدخل العثماني في المغرب ، دون اغفال توجيه بعض الحملات ضد الحامية البرتغالية في
مازاكان لزيادة شعبيته ، والظهور بمظهر المجاهد الساعي الى توحيد اجزاء المغرب . ومن
اهم هذه الحملات حملة محرم ٩٥٤هـ/١٥٤٧م تمكنت من الانتصار على (لويس دو لوريرو)
حاكم مازاكان بعد استدراجه الى خارج اسوار المدينة المنيعة وكان سيقبض عليه بعد اصابته
بجراح (3) . فهذه الانتصارات المتوالية لمحمد الشيخ على الوطاسيين والبرتغاليين جعلت هؤلاء
واولئك يسعون كل من جهته الى التقارب والتعاون ضد السعديين العدو المشترك ، ولكن
الثقة بين الطرفين والاخلاص في نواياهما كانت منعدمة فيما يبدو ، ولذلك لم تتبلور مساعيهما
الى حركة او فعل حقيقي .

ضم محمد الشيخ لفاس والقضاء على الدولة الوطاسية ٩٥٦هـ/١٥٤٩ لم تنجح الوساطة
العثمانية ، وكل المساعي والجهود الاخرى في اطلاق سراح السلطان الوطاسي الاسير ،
لان محمدا الشيخ اصر على ان تكون مدينة مكناسة القريبة من فاس ، ليتخذها بدون شك ركابا
لاحتلال هذه الاخيرة ، فرضخ الوطاسيون لشرطه (4) وعاد احمد الوطاسي الى ملكه في
جمادى الثانية ٩٥٤هـ / اوت ١٥٤٧م بعد نحو سنتين من الاسر في مراكش ، واخذ يعمل على تعزيز
قوته للثأر من خصمه وطلب مساعدة برتغالية ، مماثلة للمساعدة التي قدمها شارلكان

(1) طوريس : المرجع السابق : ص١٦٤ وابن القاضي ، الدرة ج٢ ص٩٦

(2) طوريس : نفس المرجع السابق ص٢٠٧

(3) نفسه ص١٧١-١٧٦

(4) م.م.ب.ش.م فرانسا ج١ ص١٤٩

(5) طوريس : المرجع السابق ص٢١٥

سلطاني تونس وتلمسان (1) ووصل يده بيد احمد الاعرج (2) ، فاتخذ محمد الشيخ ذلك ذريعة
قضاء على الدولة الوطاسية التي تقلص نفوذها كثيرا بعد تسليم مكناسة ، اذ ان مناطق عديدة
بت قد خرجت قبلها عن طاعة سلطان فاس قبل معركة وادي درنه في سنة ١٥٤٥م وبعدها
منها تطوان التي تمكن فيها محمد الحسن المنظري من الاطاحة بحكم السيدة الحرة ، زوجة
سلطان الوطاسي ، في اواخر سنة ٩٤٦هـ/١٥٤٢م ، وفي نفس الفترة نجح مولاي عمار في الاطاحة بحكم
خيه في دبدو واستقل بالامارة .

ومهد محمد الشيخ لحملته على فاس بأنه بعث يطلبها من السلطان الوطاسي ، ولما كان جواب
هذا الاخير هو الرفض كما كان منتظرا ، سير السلطان السعدي حملة الى فاس في ٩٥٥هـ/١٥٤٨م .
عد الوطاسي قوات كبيرة لمواجهتها ، وبناء عدد من حلفائه احمد الاعرج بقيادة ابنه زيدان ،
كان النصر هذه المرة في المعركة التي دارت رحاها قرب فاس في ٢٣ ربيع الاول ٩٥٥هـ / في
/ ٥ / ١٥٤٨ حليف الوطاسيين (3) ، فأعد محمد الشيخ حملة اخرى ضخمة قوامها ثلاثون الفا
من مشاة وفرسان قادها بنفسه (4) في رمضان ٩٥٥هـ/اكتوبر ١٥٤٨ وحاصر بها مدينة فاس (5) .

وقد تخلل الحصار مناوشات واشتباكات عديدة ، خارج اسوار المدينة ثم في داخلها ، تكبد فيها
طرفان خسائر كبيرة كما تخللته مفاوضات بين السلطان الوطاسي ، ومحمد الشيخ ، لم يقبل
هذا الاخير فيها بغير تسليم فاس اليه . وتحمل السلطان الوطاسي ومعه اهل فاس الحصار
تسعة اشهر ، معتقدين ان فصل الشتاء كفيل باجبار السلطان السعدي على الانسحاب
لا ان هذا الاخير لم يفعل ، بل وشدد الخناق على المدينة حتى اضطر السلطان الوطاسي
الى الاستسلام له ، بعد ان اخذ منه تعهدا بعدم الحاق الاذى بأهل فاس وذلك في شهر
جانفي ١٥٤٩م (6) .

ودخل السلطان السعدي فاس منتصرا ، وعفا عن اهلها ، وحصل على بيعتهم ، وسارعت المناطق
القبائل الى اعلان خضوعها له ، ومن لم يفعل كمولاي عمار امير دبدو وابي حسون امير بادس ، وبعض
المدن في شرق المغرب كغرسيف وغيرها ، ارسل جيشه لاحتلالها أو اخضاعها ، وتحقق ذلك
بسهولة ، اذ آثر امير دبدو الفرار (7) الى الاسبان في مليلة على المقاومة ، وفر ابو حسون من بادس
الى مليلة ايضا ، وخضعت غرسيف وكل مدن شرق المغرب بما في ذلك وجده التي كانت تحت (8)

---

(1) م.م.ت.م : اسبانيا ج ١ ، ص ٢١٤ ، رسالة بتاريخ ٤/١١/١٥٤٧
(2) القشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء تحقيق عبد الكريم . الرباط 1972 ص 74 .
(3) م.م.ت.م : البرتغال ج ٤ ص ٢٦٨
(4) طوريس : المرجع السابق ص ٢٤٣
(5) انظر عن حصار فاس وما تخلله نفس المرجع ص ٢٢٤-٢٣٢ الجمهون : المرجع السابق ص ١٥
(6) م.م.ت.م : اسبانيا : ج ١ ص ١٤٩
(7) نفسه : ص ٤٢١ — ٤٢٣
(8) نفسه : ص ٢٣٣ و طوريس : المرجع السابق ص ٢٤٦ — ٢٤٨

(1)
ن الاتراك ودفعت المخاوف البرتغاليين الى الرحيل عن آصيلا ، والقصر الصغير في مانه ١٥٠.
ذلك دان له كل المغرب ، وتوحد تحت سلطة في دولة واحدة. فيما عدا الارسبتة وطنجة ومازاكان.

المغرب في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (عهد محمد الشيخ وابنائه)

مرحلة الثالثة من حياة الدولة السعدية (٩٥٦ — ١٠١٢ هـ / ١٥٤٩ — ١٦٠٣ م):
خلت الدولة

سعدية في مرحلة جديدة بعد ان انضوت كل اجزاء المغرب تحت لوائها، وهذه المرحلة تتميز
ى الصعيد الداخلي بسعي محمد الشيخ وابنائه من بعده الى توطيد الوحدة المغربية، وترسيخ
عائم حكم الاسرة السعدية.

وتميزت على الصعيد الخارجي بسعي محمد الشيخ وابنائه الى التوسع نحو الشرق ولا سيما
و الجنوب على حساب البلاد المجاورة لهم في الجهتين المذكورتين، مما جعل علاقاتهم
جيرانهم يغلب عليها العداء والتوتر، الامر الذي دفع السعديين نحو التقرب من القوى الخارجية
وربية، كما سنرى ذلك مفصلا في الفصل الرابع، وفي بعض فقرات هذا الفصل.

— جهود محمد الشيخ وسياسته على الصعيد الداخلي:

عمل محمد الشيخ بعد تقويضه لدولة الوطاسيين في فاس، واخضاعه لكل شمال المغرب
شرقه على اقامة حكم مركزي قوي تكون سلطته فيه مطلقة، لا ينافسه ولا يناوئه احد، سواء من
اخل اسرته او من فلول الاسرة الوطاسية، او من القوى الدينية او القبلية التي كانت
شة فيه:

تحقيقا لهذا الغرض، ارسل كاتبه كرنا منذ قليل حملة الى شرق المغرب لاخضاع من لم يبادر
ى اعلان خضوعه وولائه، وبعد اربعة نشاطاته ارسل ايضا حملة الى تافيلات اجبرت اخاه احمد الاعرج
بناءه الذين تحالفوا ضده مع السلطان الوطاسي، على الجلاء عنها [2]، وقمع الثورات
عديدة التي قامت في اعقاب انكسار حملة ابنائه في تلمسان امام اتراك الجزائر العثمانيين،
ي مطلع ٩٥٨هـ/١٥٥١م، واتهم بهذه المناسبة السلطان الوطاسي المخلوع بالتحريض على
ثورة التي قامت ضده في الاطلس فأمر بقتله وقتل ابنائه واقاربه [3]، الذين كانوا موزعين على مدن
نوب المغرب في جويليه ١٥٥١ خشية على ملكه من بقائهم على قيد الحياة. ولكن تسرعه
لهجوم على تلمسان، جعل الاتراك العثمانيين يؤيدون ابا حسون بحملة زعزعت ملكه اذ استرجع
سلطها هذا الاخير مدينة فاس منه في مطلع صفر ٩٦١ هـ (١٥٥٤ م) (يناير) وبعث الدولة الوطاسية

( ) سوزا: المرجع السابق ص ١٩٤ — ١٩٥
( ) الفشتالي: مناهل الصفا ص ٧
( ) م. م. ت. م: اسبانيا ج ١، ص ٦٠٥ — ٦٠٧

فيها ،كما استرجع مولاي عمار بهذه المناسبة امارته في دبدو ،وعاد بنفس المناسبة احمد الاعرج وابنه زيدان الى تافيلالت[1] مما تطلب منه بذل جهد كبير خلال بقية سنة (٩٦١هـ/١٥٥٤م) لاسترجاع فاس من ابي حسون،الذي اخذ فور عودة الاتراك منها الى الجزائر في اعداد الجيوش، تمهيدا للجولة القادمة معه،والذي جدد الاتصالات مع البرتغاليين[2] ، وعقد حلفا دفاعيا وهجوميا ضد احمد الاعرج[3] ،ولاسترجاع تافيلالت من اخيه وفاس من ابي حسون ،جهز جيشين لضرب كل من الطرفين المتحالفين في نفس الوقت وكل واحد على انفراد ،احدهما بقيادة ابنه عبد الله وهذا وجهه الى فاس ضد ابي حسون(رجب ٩٦١هـ/جوان ١٥٥٤) ،والاخر تولى قيادته هو،وسار به ضد اخيه وابنائه وحاصرهم في تافيلالت . وبينما انكسر الجيش الاول وانهزم شر هزيمة[4] ، تمكن الجيش الثاني بفضل مكر محمد الشيخ وخداعه،من الدخول الى تافيلالت والقبض على اخيه وابنائه فيها . وبذلك تفرغ لابي حسون بكل قواته ،وعلى مقربة من فاس ،جرت معركة بين الطرفين السعدي والوطاسي في شوال ٩٦١هـ/ سبتمبر ١٥٥٤م استبسل فيها ابو حسون قبل ان يغتاله غدرا احد اعوان محمد الشيخ الذين اندسوا في صفوفه ،فاضطرب جيشه وانهزم ،ولاذ اثنان من ابناء ابي حسون الى الفرار ، واستقر احدهما عند الاسبان والآخر عند الاتراك في الجزائر . ودخل محمد الشيخ ظافرا الى فاس للمرة الثانية في ٢٤ شوال ٩٦١هـ ٢٢/٩/١٥٥٤[5] .

ولم يغفر هذه المرة للفاسيين تأييدهم لابي حسون وترحيبهم بعودته الى فاس فـ " تحكم في اهل فاس بالاذلال " والاهانة واذن مساكنه فيهم، وقهر اهلها بانواع الامتحان ،ونفى اكثرهم للمشرق ،واجلاهم للجبال والبوادي وفصل بهم السبائب من الامتحان ذوات المصائب[6] وطالبهم بتعويض ما اخذه الاتراك العثمانيون من امواله غداة دخولهم الى فاس،وكان يقتل كل من حاول اخفاء امواله هروبا من التعويض وبلغ عدد الذين قتلهم من اثرياء فاس الستين[7] لمحاولتهم اخفاء اموالهم .

لقد قضى محمد الشيخ بقتله ابا حسون،الذي كان اخطر مناوئيه ـ على الدولة الوطاسية بصفة نهائية ، اذا لم يستطع احد من الامراء الوطاسيين الذين استقروا عند اتراك الجزائر العثمانيين ان يهدده،او يحيي الدولة الوطاسية من جديد .

---

1) سيأتي الحديث عن هذه الحملة في فصل العلاقات السياسية الرابع.
2) م.م.ت.م : اسبانيا جـ ٢ ص ١٦٥
3) طوريس / المرجع السابق ص ٢٧٤-٢٧٦
4) طوريس نفس المرجع ص ٢٧٨ و : م.م.ت.م : اسبانيا جـ ٢ ص ١٧١ - ١٧٤
5) طوريس : المصدر السابق ص ٣٨٦ - ٣٩٠ و م.م.ت.م : اسبانيا جـ ٢ ص ٢٠٨ ، ٢٤٩
الافراني : المرجع السابق ص ٣١ ،المجهول : المرجع السابق ص ٢١
6) المجهول : المرجع السابق ص ٢٢
7) طوريس : المصدر السابق ص ٣٩١-٣٩٢

ى بأسره أخاه احمد الاعرج وابناءه على المناوئين له ، من داخل اسرته ، ولكن محمدا
يخ لم يطمئن على ملكه ، الا بعد ان قتل ايضا كبار انصار الوطاسيين في فاس من العلماء
لفقهاء امثال القاضي عبد الوهاب الزقاق في فاس(1) وخطيب مكناسة ابي علي حرزوز(2) والمفتي
الواحد الونشريسي(3) وغيرهم الذين كانوا يطلبون النصر عليه في خطبهم واحاديثهم
هم ويرفضون الولاء لـه .

فه من القوى الدينية : وفي سبيل ارساء دعائم الملك وتوطيدها لم يتردد محمد الشيخ
ى كان يتخوف على ملكه من المرابطين والمتصوفة ايضا ، لدخول السعديين الملك من بابهم ،
امتحان ارباب الزوايا المتصدرين للمشيخة ، الذين كان يشك في حقيقة نواياهم ، وولائهم
فضع زواياهم للمراقبة والتفتيش(4) فأخلى بعضها ونفى اصحابها الى اماكن معينة كسيدي عبد الله
وني الذي اغلق زاويته في مراكش ، وامر برحيله الى فاس(5) وابي علي الحسن المصباحي وغيرهما(6) ،
م يتردد ايضا في قتل المعارضين لسياسته التعسفية كأرباب زوايا الاطلس الكبير(7)
يرهم .

وكان محمد الشيخ قد الغى جميع الامتيازات التي كان ارباب الزوايا يتمتعون بها كالاعفاء
ن اداء الضريبة .

ولكن هذه المواقف الصارمة التي وقفها او اتخذها محمد الشيخ تجاه القوى الدينية لم
حقق الغرض المتوخى ، اذ ان هذه القوى التي قضى على امتيازاتها ، لم تخضع ولم تستكن له
لا رهبة من بطشه ، وظلت تتحين الفرص للثورة عليه ، بل وللقضاء على حكم اسرته . واولى
ذه الفرص السانحة للثورة كانت في اعقاب انهزام (محمد الشيخ) امام حملة صالح رايس
ابي حسون على فاس في سنة (961هـ/ 1554 م) حيث اشتعل لهيب الثورة في مختلف جهات
لمغرب بدعم وتحريض من تلك القوى التي فقدت امتيازاتها السابقة. وهذا ما جعل
محمدا الشيخ ينفق تشدده في السنوات الاخيرة من حكمه في التحرك لقمعها .

---

1) انظر عنه ابن عسكر ص 43-44
2) نفس المرجع ص 62-63
3) نفس المرجع ص 40-43
4) الافراني : النزهة ص 41
5) نفسه ص 41 ، ابن عسكر : دوحة الناشر ص 81-82
6) ابن عسكر : المصدر السابق ص 64 - 65
7) طوريس المرجع السابق ص 114

ولا يعني هذا ان محمدا الشيخ لم يكن يحاول ابدا كسب القوى الدينية الى جانبه عن طريق اللين، ومجاملة بعض كبار المرابطين الذين لا يتوجس خيفة منهم او من اتباعهم كسيدي حمزة المراكشي [1]، وغيره، فأمثال سيدي حمزة كانوا موضع التقدير لديه.

موقفه من القوى القبلية : وكما اتسم موقف محمد الشيخ بالشدة والحزم تجاه القوى الدينية كان موقفه كذلك تجاه القوى القبلية، ولا سيما المتذبذبة في ولائها كقبائل الغرب (غرب مملكة فاس) وغيرها التي تخلت عنه في معركة كدية المخالي قرب فاس، التي خاضها ضد حملة عالي رايس، وابي حسون، ومالت الى صفوف هذا الاخير فجرت عليه الهزيمة، والتي قامت بعد ذلك بنصرة ابي حسون ضد جيشه بقيادة ولده عبد الله، فلما تمكن من القضاء على الدولة الوطاسية للمرة الثانية ((. . انتزع خيلهم وارجلهم كافة، وضرب عليهم الخراج، ونظمهم في سلك الرعايا الغارمة . . وغرب اعيانهم ورؤساءهم كافة بأولادهم الى مراكش والقادم بنسبة شها فلم يجر لهم رزقا، ولا اقطعهم وطنا، ولا ضرب لهم بسهم واغرب بهم صروف الدهر وجوب الفقر [2])).

وكان محمد الشيخ من جهة اخرى يقوم بنقل القبائل من جهة الى اخرى سواء لتحقيق الامن، او لاضعاف شوكة تلك القبائل او للاستفادة من خدماتها في الموقع الجديد. وهكذا نقل على سبيل المثال عرب الرحامنة من تفاوست بأقصى جنوب المغرب، الى تامسنا بغربي مملكة فاس [3]، وهذه السياسة التي اتبعها محمد الشيخ تجاه القبائل الموالية والمعادية اتبعها ايضا خلفاؤه كما سنرى.

اهتمام محمد الشيخ بالجيش :

حتى يفرض سلطته على كامل اجزاء المغرب، ويقيم حكما مركزيا قويا في مغرب غدا متعودا على تجزؤ السلطة وتفتتها وحتى يدافع عن هذا الاخير ضد التدخلات الخارجية، ويحقق طموحاته في التوسع شرقا وشمالا وجنوبا، اولى محمد الشيخ اهتماما كبيرا بتكوين جيش نظامي قوي كبير فعمل على الاستكثار من الجيش، وعلى تسليحه تسليحا جيدا، وهذا الامر جعله دوما في حاجة كبيرة الى المال وبشكل منتظم. ولتوفير هذا المال :

---

1) قال ابن عسكر في ترجمته : كان . . قائما على العبادة في مقام الزهد والورع والتعفف عن الدنيا حتى خرج منها، ولم يلتصق به منها شيء . . جاء الخبر الى السلطان ابي عبد الله محمد الشيخ بأن الشيخ حمزة في النزاع فقال السلطان لاولاده اذهبوا لحضور وفاة هذا الولي . . انظر الدوحة ص 99

2) القشتالي : مناهل الصفاء ص ١٠٩

3) الزياني : المرجع السابق ص ٣٤٧

ـ اهتم بالتجارة الخارجية فنشطها ، وعمل منذ كان ولي عهد لاخيه على استعادة الحيوية والنشاط الاقتصادي للجنوب المغربي ، الذي كان قد تأثر كثيرا بالغزو البرتغالي ، وبتحول محاور التجارة بعد اضطراب الامور فيه نحو الشرق ، وذلك بأن قام بعدة خطوات ، اوضعناها في باب العلاقات الاقتصادية بحيث اوجد مدخولا هاما من التجارة في السكر وغيره من المواد مع الدول الاوربية . كان يمكنه من الانفاق على جيشه وتسليحه . وقد كان يتبادل السكر بالاسلحة الاوربية الحديثة والعتاد الحربي وغير ذلك مما يحتاجه .

ولكن موارده من التجارة في السكر والثروات الباطنية ومن الرسوم الجمركية لم تكن منتظمة ولا كافية لتغطية احتياجاته المتزايدة الى المال ، ولذلك فقد :

ـ اهتم ايضا بالضرائب وجمعها وتنظيمها فالغى الاعفاءات الكثيرة التي كانت تتمتع بها بعض الفئات الاجتماعية كالمرابطين والاشراف ، وبعض المناطق المنيعة المستعصية . وفرض ضريبة الخراج على الارض المنتجة في السهل والجبل . واستصدر بشأنها فتوى من اهل العلم والدين (١).
وكان عبد المؤمن الموحدي ، قد سبقه الى فرض الخراج على الارض المغربية واستحدث ضريبة سماها النائبة اوضريبة الرأس ، وفيها يقول الافراني : (وكانت هذه النائبة في زمن السلطان ابي عبد الله محمد تفرض على حساب السكان ، ويفرض الشيء الخفيف في ذلك (٢)) اما طوريس المعاصر لمحمد الشيخ ، فيحدد مقدارها بأربعة اخماس الدوكات عن كل رجل وامرأة ابتداء من سن ١٢ سنة (٣) .

وكان محمد الشيخ لاينزه عنها احدا (٤) ، وعنده " المسلمون كلهم سواء في هذا الامر (٥) " .
ولكن سياسته الضريبية لم تكن دون معارضة شديدة من قبل السكان ، فالضريبة التي استحدثها ظل المغاربة ينظرون اليها على انها ضريبة غير شرعية ، كما كان ينظر اصحاب الاراضي الجبلية على الخصوص الى ضريبة الخراج على انها ايضا غير شرعية باعتبار ان الجبال في المغرب لم تفتح عنوة من قبل الفاتحين المسلمين حتى يلزمها الخراج ، بدل الزكاة فقط .

---

١) الافراني : النزهة ص ٣٦
٢) نفسه ص ٣٦
٣) طوريس : المرجع السابق ص ٤٠
٤) الافراني : النزهة ص ٤
٥) ابن عسكر : الدوحة ص ٨٥

وكان اصرار محمد الشيخ على تطبيق سياسته الضريبية سببا في قيام ثورات عديدة منها ثورة سكان جبل الاطلس الكبير في ٩٥٤هـ/١٥٤٧م وقد حمّل السلطان مسؤولية هذه الثورة لشيوخ الزوايا في المنطقة الثائرة ، فقتل احد عشر منهم (١) ، ولكن قتلهم لم يزد سكان المناطق الجبلية الا نقمة على سياسته ، فعانى كثيرا في سبيل اخضاعهم .

وبفضل الموارد الكثيرة (٢) التي حصل عليها محمد الشيخ من التجارة والرسوم الجمركية والضرائب المختلفة ، استطاع ان يكون جيشا نظاميا كبيرا قدر بنحو عشرة آلاف ، غير ما ينضاف اليه في حالة الحرب من قبائل الجيش (٣) المخزنية ". كما استطاع ان يوجد بعض المنشآت الهامة كبنائه لميناء آغادير (٤) ، وجسر ام الربيع ، ومعاصر السكر في السوس وغير ذلك .

التنظيم الاداري : اما ما يتعلق بتنظيم شؤون دولته الداخلية التي اختار لها مدينة مراكش عاصمة بدلا من مدينة فاس ، هذه المدينة التي لم يشعر فيها بالاطمئنان ليس فقط خوفا من اهلها الذين ظلت قلوبهم مع الوطاسيين ، ولكن ايضا من جيرانه الاتراك العثمانيين ، فقد استعان بخبرة الوزير الوطاسي الاسبق قاسم الزرهوني " الذي علّم السعديين " كيف يباشرون الامور مع اعيان القبائل وأكابر القوم ، وكيف ينعقد الديوان ، ومن يختص به من العلماء والادباء والكتاب والعقلاء والقواد ، وكيف يكون قعودهم ومنازلهم في المجالس الى غير ذلك من الامور ... وضبط لهم ملكهم ، وزينه ، وشرّف امرهم وحسنه واعلى منازلهم واتقنه (٥) .. "

ذلك ان السعديين كانوا حتى دخولهم الى فاس لا يزالون بدوا في هيئتهم وطريقة حياتهم ، وادارتهم للامور فتغيرت حياتهم على يد الوزير المذكور الذي علّمهم ايضا " كيف يلبسون الثياب ، وكيف يشدون الشدود والعمائم وكيف يركبون المراكب بزي عجيب ، وكيف يشهرون السلاح (٦) .. "

الا ان جهاز محمد الشيخ الحكومي كان معظمه من اهل الجنوب حيث جعل قضاته من اهل السوس وحكامه منهم ، والولاة في كل خطة منهم (انهم كانوا انصاره واعوانه (٧)) وقد قسم محمد الشيخ المقاطعات المغربية ومدنه الرئيسية على أولاده . فكانت مدينة فاس تحت ادارة ولي العهد ، ومدن تارودانت ، وسجلماسة ، ومكناسة تحت حكم اولاده الآخرين .

وكان جهازه الحكومي المركزي يتألف من الوزير الكاتب الرئيس (كاتم السر) وحاجب القصر وامين المال ، وعديد من القادة لمختلف المهمات والقضاة ، وجباة الضرائب وحرس السلطان ، واصحاب المشورة واقارب السلطان (٨) .

١) طوريس : المرجع السابق ، ص ١٩٤

٢) نفسه : ص ١٠٤

٣) نفسه : ص ٣١٦

٤) مرسي : المرجع السابق ج ٣ ص ٨٧

٥و٦و٧) المجهول : المرجع السابق ص ٢٤

٨) طوريس : المرجع السابق ص ٣١٥-٣١٩

ب ـ العلاقات الخارجية لمحمد الشيخ :

١ ـ مع بلاد السودان :

توجهت انظار السعديين منذ قيامهم في جنوب المغرب نحو بلاد السودان بحكم العلاقات التجارية التي كانت بين هذه المنطقة من المغرب ، وبلاد السودان . وسعوا الى بسط نفوذهم على معادن الملح في تغازة شمالي بلاد السودان وكاتبوا بشأنها السلطان السوداني لاسكيا اسحاق الاول وطلبوا منه التنازل عنها لهم ، وهذا في عهد أحمد الاعرج ، فلم يجبهم الى طلبهم [1].

ولما آل الحكم الى أخيه محمد الشيخ في سنة ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م كاتبه مرة أخرى في نفس الموضوع وكان رده ليس فقط الرفض وانما ارسال حملة الى درعة بجنوب المغرب ... في احدى اسواقها ثم رجعت ، فجهز حملة استولت على المعادن المذكورة وعلى ودان . وكان رد فعل السلطان السوداني ... طلح تغازة . ثم تطور الامر بعد ذلك الى التفاهم على اساس ان يتنازل السلطان ... عن معادن الملح لأسكيا مقابل نصيب معلوم من المال [2].

وهكذا بدأت العلاقات ... ـ السودانية بداية صعبة تميزت بالتهديد واستخدام القوة .

٢ ـ مع البلاد الاوربية :

كانت العلاقات مع أوربا ... بية باستثناء اسبانيا والبرتغال علاقات سلمية وتجارية ... الخصوص . وشجع محمد الـ ... التجار الأوربيين على المجيء الى المغرب للتجارة بمعاملة حسنة لهم وضمان أمنهم في بلاده فأقبلوا اليه وحقق الجانبان المغربي والأوربي أرباحا كبيرة .

أما العلاقات مع اسبانيا والبرتغال فكانت سياسية وذات طابع عنيف في البداية ، وسلمي في نهاية عهده حين وجد نفسه مهددا من أتراك الجزائر . وتذهب الوثائق كما سنرى في فصل الـ ... الى أنه سعى الى عقد تحالف مع الاسبان ضد هؤلاء في أعوامه الأخيرة ، كما أنه عقد هدنة مع البرتغاليين في سنة ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م لمدة ستة أشهر ثم طالت [3].

---

(1) عبد الرحمن السعدي تاريخ السودان تحقيق هوداس باريس ١٩٦٤ ص ٩٦

(2) نفسه ص ... والفشتالي المرجع السابق ص ١٢٠ ، ومارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٤

(3) ... اسبانيا ... البرتغال ... ج ٣ ص ٧

٣ـ أما علاقاته مع جيرانه الاتراك العثمانيين فكانت كما ورد عرضنا تتميز بالعداء والعنف ، وسنرى في فصل العلاقات السياسية أسباب ذلك بالتفصيل الممكن . ونكتفي الآن بالاضافة الى ما تقدم أن محمد الشيخ قد مات مقتولا في ذي الحجة ٩٦٤ هـ/ اكتوبر ١٥٥٧م على يد أتراك بعثهم حاكم الجزائر خصيصا لاغتياله . (١)

ويلاحظ انني اطلت الوقوف قليلا عند عهد محمد الشيخ ، وعذري انه كان الموحــــد للمغرب ، فهو الذي ((أقعد قواعد الملك وأسس مبانيه واحيا مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة . . .)) (٢) ورسم سياستها الداخلية والخارجية ، ومنها علاقاته مع جارته الجزائر التـــي ظلت تسير طبقها في عهده وعهد خلفائه .

عبد الله يخلف والده ويسير على نهجه :
=========================

1 ـ سياسة الخليـة :

آل الحكم في المغرب بعد مقتل محمد الشيخ عل ... تراء كما ذكرنا ، الى ولده عبدالله الملقب بالغالب بالله ، الذي كان يقيم في فاس وكان ... قام بعهد أن بايعه أهل فاس ثـــم أهل مراكش ، دون أي معارضة ، هو الانتقام من ... ده الذين التجأوا الى قصبة مدينـة تارودانت . وما كان يحقق غرضه الى حتى قاد حم... ير الدين حاكم الجزائر حملة في ربيـــع سنة ٩٦٥هـ الموافق ١٥٥٨م ضد فاس ، ونجح عبد ال... صدها ، بل والانتصار عليها . وسنعود للحديث عن هذه الحملة بمزيد من التفصيل في الفصـ... ـــسر ايــــع . ولكن الوئام الذي كان بين عبد الله واخوته سرعان ما حل بدله الشك والظن ، مما جعل السلطان السعدي الجديد يقضـي على اخيه عثمان الذي قام بدور كبيــر في صد الحملة الجزائرية . (٢) فخافه اخوته الآخرون وهم عبد الملك ، وعبد المومن ، وأحمد ، وفروا الى الجزائر عند اتراكها العثمانيين . (٣) فضلا عن تعيينه له الجوفضين ولده محمدا وليا للعهد ، ونائبا له على فاس ، وهذا مخالف للقاعدة التي وضعها القائم بأمر الله ، والتي تقضي بأن يلي الحكم الاكبر فالاكبر من الابناء في الاسرة .

وقد كان وجود اخوته عند الاتراك في الجزائر يثير لدى عبد الله مخاوف كبيرة (٤) . اذ كـــان يخشى أن يأتوه بحملة منها كما أتى أبو حسون من قبلهم . ولذلك كان عبد الله اهتم كثيرا بــــ ((تربية الجيوش وترتيبها ، وادخار الذخائر ، واستعدادها ، وتكثير العدة وآلات الحــرب ، وتعمير خزائن البارود واهرية الزرع ، وغيرذلك مما يحتاج اليه ، ويتحصن به من الوقائــــع ،

١ـ الافراني : المرجع السابق ص ٤٤

٢ ـ نفســـه ص ٥٧

٣ـ المجهول المرجع السابق ص٣٦

٤ ـ نفســـه

ويحصل به المدافع ...)) [1] ، وأبقى على النظام الضريبي الذي وضعه والده ، من أجل توفير المال اللازم لترضية هذه الجيوش واستكثارها . وأولى عناية كبيرة أيضا لزراعة قصب السكر والتجارة فيه ، فكان يحصل على مورد هام من التجارة فيه .

موقفه من القوى الدينية :

وأمام شعوره بالخطر الخارجي ، ولا سيما من جهة الشرق ، وبالخطر الداخلي على ملكه بسبب الثورات التي قامت نتيجة سياسة والده الضريبية وغيرها ، تقرب عبد الله من بعض كبار المرابطين مثل أحمد بن موسى الجزولي [2] ، وغيره . واستعان بما كان لهم من تأثير في توطيد ملكه ، وتهدئة الجنوب المغربي الذي كان ثائرا منذ عهد والده .

الا أن عبد الله كان من جهة اخرى متشددا ، حازما ، تجاه كل من يعارض سياسته أو يتشكك في ولائه له ، كموقفه على سبيل المثال من أتباع أبي العباس أحمد بن يوسف الذين كان يعتقد أنهم من الموالين للأتراك كشيخهم المذكور ، [3] فقد قتل بعضهم ، وسجن آخرين بدعوى الزندقة والضلال .

موقفه من القوى القبلية :

وفي أجواء الخطر الخارجي مال عبد الله أيضا الى تحسين علاقاته مع القبائل العربية ، بما في ذلك القبائل التي نكبها والده . فالتفت الى اعيانها الذين كان والده قد غربهم الى مراكش وأعطيهم فيها . ((وأجرى لهم رزقا ، وألحق لهم فرسانا ، فأقاموا يرتضعون أخلاف تلك الجراية الثقيلة ...)) [4] .

موقفه من القوى الاقطاعية :

هذا في حين كان موقفه في غاية الصرامة تجاه المعارضين لسياسته المهادنة والمسالمة للاسبان ، مثل امراء شفشاون ، ومقدمي تطوان ، الذين كانوا يقومون بالجهاد ضد المراكز الاسبانية والبرتغالية في شمال المغرب ، ويعارضون دوما مهادنة النصارى المحتلين ، ومسالمتهم ، وهذا منذ عهد الوطاسيين . فوجه حملة في الثاني من صفر سنة ٩٦٩هـ ((١٢/١٠/١٥٦١)) بقيادة ولد أخيه محمد بن عبد القادر ، قضت على امارة بني راشد في شفشاون ، التي تأسست قبل نحو قرن من الزمان . [5] ثم أخرج بعد ذلك في ٩٧٥هـ / ١٥٦٧ م القائد الحسن عن

١ـ نفسه ص ٤١٣

٢ـ الافراني : المرجع السابق ص ٤٨

٣ـ آ. كور : المرجع السابق ص ١٣٩ ـ ابن عسكر المرجع السابق ص ٩١ ـ ٩٢ .

٤ـ الفشتالي : المرجع السابق ص ١٠٠ ـ ١١٠ .

٥ـ ابن عسكر المرجع السابق ص ٢٢ مارمول المرجع السابق ج٢ ص ٢٧٣ السلاوي : المرجع السابق ج ٥ ص ٤١ .

تطوان بعد عزله [1]. وانتهز فرصة موت امير دبدو مولاى عمار في سنة ٩٧٠ هـ/١٥٦٣م ليقضي على امارة دبدو التي مضى على تأسيسها هي الاخرى نحو قرن من الزمان [2]، وليقيم فيها حاكما مع حامية قوية لحمايتها من الاتراك العثمانيين والمتعاونين معهم من قبائل شرق المغرب.

2 - علاقاته الخارجيــــــة : اما علاقاته الخارجية فتميزت بسعيه الى توطيد العلاقات مع الدول الاوروبية الغربية كفرنسا وانكلترا وباستمراره في التقرب من الاسبان، ومهادنة ملوك بلاد السودان. في حين تميزت علاقاته مع جيرانه أتراك الجزائر العثمانيين بالتذبذب كما سنرى ذلك مفصلا في فصل العلاقات السياسية. أما الآن فنلقي مزيدا من التوضيح على علاقاته مع الدول الاوروبية المختلفة، لما كان لبعضها من أثر في علاقاته مع الجزائر.

أ - علاقاته مع فرنسا ومملكة نافار :

حصل بين عبد الله وبين فرنسا تقارب عن طريق الامير انطوان دو بوربون، أمير نافار في سنة ٩٦٧هـ / ١٥٥٩م. وقبل عبد الله ان يسلم للامير المذكور مدينة القصر الصغير الواقعة على المضيق بين سبتة وطنجة المحتلتين من قبل البرتغاليين. وقد جلا عنها مولاى في سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م. كما وافق على تقديم التسهيلات التجارية والامنية الممكنة للفرنسيين، على أن يمده مولاى في مقابل ذلك بمساعدات عسكرية [3]. ولكن فيليب الثاني استاء من هذا التقارب الذى ينطوى على تهديد لاسبانيا في حال تجدد النزاع بينه وبين فرنسا لقرب موقع القصر الصغير من اسبانيا وانتهى الامر بتراجع عبد الله عن عرضه السابق الذكر وبذلك فشل التقارب بينه وبين انطوان دو بوربون (٤).

ب - علاقاته مع انكلترا :

سعى عبد الله الى التقرب أيضا من انكلترا التي لم تكن لها اطماع اقليمية واضحة في المغرب، في هذه الفترة. فبعث رسالة الى اليزابيث ملكة انكلترا بتاريخ ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م يبدى لها فيها رغبته في صداقتها، واستعداده لتلبية طلباتها. (٥)

وقد كان التجار الانكليز يترددون على الشواطئ المغربية بقصد التجارة مع المغاربة حيث كانوا يحققون أرباحا كبيرة، وذلك على الرغم من حظر البرتغاليين التجارة مع المغرب

١- الزياني : المرجع السابق ص ٣٥

٢- مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٢٦٩

٣- م.م.م.ن. فرنسا ج ١ ص ١٧٨ - ١٨١

(4) Pierrot Desellimgny (I): Traité d'Antoine de Bourbon avec le Chérif de Fez et tentative d'expédition au Maroc. Macon 1891.

٥- م.م.م.ن. انكلترا ج ١ ص ١٨

على الاوربيين كي لا ينافسوهم على التجارة فيه .

ب - علاقاته مع البرتغاليين :

كان السلم يغلب على علاقاته مع البرتغاليين ، اذا استثنينا حملته على مازاكان ((البريجة)) ، وحصاره لها بواسطة ابنه محمد وقائده على بن وده ، وعدد ضخم من المسلمين في ربيع سنة ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م، ثم فكه الحصار قبل تحقيق النصر الكامل (١) . ويذهب صاحب تاريخ الدولة السعدية الى القول بأن رفع الحصار عن مازاكان والتخلي عن تحريرها ، كان لقاء تعويض مالي هام، تلقاه عبد الله من البرتغاليين . بينما تعزو الوثائق سبب انسحاب المغاربة عن مازاكان الى صمود القوات البرتغالية، ووصول الامدادات الى القلعة المحاصرة (٢) . ولكن استلام دون سيباستيان ، الملك في البرتغال، وطموحه الى استرجاع كل المواقع التي جلا عنها البرتغاليون ، جعل عبد الله يسارع الى تحصين آغادير وغيرها، خوفا من الهجوم عليها (٣) .

ت - علاقاته مع الاسبان :

ان عدم اطمئنان عبد الله على ملكه من جيرانه اتراك الجزائر، قد جعله يمضي في التقارب الذي بدأه والده مع الاسبان، واشترك فيه هو بصفته ولي عهد . وظهر اثر هذا التقارب في مواقف عديدة منها : تدخله في تلمسان في سنة ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م في الوقت نفسه الذي تحرك فيه الاسبان وحلفاؤهم الاوربيون في حملة ضخمة لطرد الاتراك من كل شمال إفريقيا .(٤) وكذلك في موقفه السلبي من احتلال الاسبان لحجر بادس الذي كان بيد العثمانيين في سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٤ م (٥) . وفي موقفه المتخاذل من ثورة مسلمي الاندلس التي اندلعت في مطلع ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٩ م . فقد تقاعس عن مد المسلمين الثائرين في الاندلس بالمساعدة التي كان قد وعدهم بها قبل قيام الثورة، ((فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة ، وكذب عليهم، غشا منه لهم ولدين الله عز وجل . . .)) (٦) وكشف المؤلف المجهول ان موقفه

---

(١) المجهول : المرجع السابق ص ٣٧ .
(2) Henri Terrasse: Histoire du Maroc. Casablanca 1950, t.2, P.181
(٣) مرسي : المرجع السابق جـ ٣ ص ١١٩
(٤) ...
(٥) المجهول : المرجع السابق ص ٣٦ .
(٦) نفسه : ص ٣٨

مذاكان يريد في تحقيق ((مصلحة لملكه الزائل ، وانه كانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات ، وانه استشار معهم واشار عليهم ان يخرجوا اهل الاندلس الى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ، ويكون له منهم بمدينة فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في مصالح ملكه [1]))
أما المؤرخ مصطفى الجنابي [2] ، فيعزو سبب عدم تقديم عبد الله المساعدة لثورة مسلمي الاندلس الى افتقار عبد الله للسفن الناقلة حينئذ ، الامر الذي جعله يباشر في صناعتها [3]
والواقع ان الاسبان كانوا قد فرضوا رقابة مشددة على شواطئهم لئلا تأتي للثوار المساعدة ، سواء من المغرب او من الجزائر او من غيرها . وقد استغل عبد الله بالفعل المهاجرين الاندلسيين الى المغرب في اعقاب فشل ثورتهم ، فشكل منهم جيشه الاندلسي المؤلف من نحو ١٤٠٠٠ جندي سماه جيش النار وأقطعهم بمراكش اراض اغترسوها وجعلوا منها بساتين وجنات [4] . ولكن الاندلسيين لم يغفروا له تقاعسه ، وان هم لم يتمكنوا من خذلانه فقد خذلوا فيما بعد ابنه محمد لدى حملة اتراك الجزائر العثمانيين مع عبد الملك السعدي الى المغرب كما سنرى .

د - علاقاته مع بلاد السودان :

كان اهتمام عبد الله منصرفا كليا الى الشمال ، ولا يبدو انه كانت لديه سياسة معينة بخصوص بلاد السودان ، كما كان لوالده وعمه احمد الاعرج ، فلم تذكر المصادر انه خطط او قام بحملة على بلاد السودان أو اطرافها ، او حاول ادخال تغيير عما آلت اليه الامور في عهد والده .

ومما تقدم نخلص الى القول ان عبد الله كان حريصا على مسالمة الاسبان ، وكسب ودهم وعلى اقامة علاقات حسنة مع الدول الاوروبية ، المعادية منها لجيرانه الاتراك العثمانيين ، وغير المعادية ، سعيا للحصول بذلك على الاطمئنان في مملكته . كما عمل على تحسين علاقاته مع القوى الداخلية . وبفضل ذلك تميز عهده بنوع من الهدوء والاستقرار ، قلما عرفه المغرب في عهود من سبقه ((فكانت ايامه ايام رفاهية وعافية))[5] مما سمح له بتشييد منشآت عديدة مدنية وعسكرية ودينية ، وان يستمر في الحكم فترة طويلة من ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م الى ٢٨ رمضان سنة ٩٨١هـ / ٢١ يناير ١٥٧٤م [6].

التنافس على الملك بين محمد المتوكل على الله وعمه عبد الملك وعلاقاتهما الخارجية :

ان ايام الرفاهية والعافية التي تحدث عنها المؤلف المجهول في عهد عبد الله لم تدم طويلا بعده ، اذ ما لبث اخوه عبد الملك الذي كان لاجئا عند اتراك الجزائر العثمانيين ، ان ناوأ

١- نفسه ص [illegible]
٢- هو مصطفى ابن حسن الهاشمي المتوفى سنة [illegible] / [illegible]١٥م مؤرخ اصله من جنابة بفارس عين قاضيا في حلب سنة ٩٤٠هـ / ١٥٨٥م انظر عنه الزركلي الاعلام ج ٨ ص ١٣١ .
٣- مصطفى الجنابي البحر الزخار والعلم التيار/في/ . مقتطفات منقولة عن المغرب لفانيان الجزائر ١٩٢٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .
٤- الفشتالي المرجع السابق ص ٦٢ مارمول : المرجع السابق ص ١١٦ م٠م٠ت٠م فرنسا ج١ ص ٣١٨ .
٥- المجهول : المرجع السابق ص ٣٠ .
٦- نفسه ص ٤٠ ، دوريس المرجع السابق ص ٢٣ ، الافراني المرجع السابق ص ٦٥

ولده محمدا المتوكل على الله ، الذى خلفه في الملك سنة ٩٨٢ الى ٩٨٤ هـ / ١٥٧٤ الى ١٥٧٦م ، بدعوى انه الاحق به بمقتضى وصية محمد القائم بامر الله، مؤسس الدولة السعدية، التي تجعل الملك ينتقل كما ذكرنا من الاكبر الى الاكبر في الاسرة من الأبناء ، باعتبار انه بات الأكبر في الاسرة بعد وفاة أخيه المذكور . وقد جرى بين الطرفين صراع عنيف ، استمر أكثر من سنتين ((نفقت فيها أسواق الفتن وأظلم الجو بالهرج في سائر اقطار المغرب . . .)) (1).

بدأ الصراع بهجوم عبد الملك تصحبه حملة جزائرية عثمانية في ذى الحجة سنة ٩٨٣ هـ / . مارس / ١٥٧٦ م على فاس ، وتتابع بهجوم محمد المتوكل على الله تؤازره حملة برتغالية ضخمة بقيادة ملك البرتغال دون سيباستيان في جمادى الاولى سنة ٩٨٦ هـ/أوت ١٥٧٨م ، تلك الحملة التي انهزمت شر هزيمة في الشمال المغربي ، في المعركة التي دارت بوادي المخازن في ٣٠ جمادى الاولى/الرابع من شهر أوت من السنة المذكورة، وأسفرت عن مقتل وموت الملوك الثلاثة عبد الملك ، ومحمد بن عبد الله ، ودون سيباستيان واعتلاء احمد بن محمد الشيخ الملقب بالمنصور ، كرسي الملك .

وقبل التطرق الى عهد هذا الأخير ، نشير الى أن محمدا المتوكل على الله كان يتوقع من اعمامه الذين لجأوا الى الجزائر ان يناوئوه فأراد التخلص منهم وهو لا يزال ولي عهد لوالده في فاس . وتجلى في اغتيال عمه عبد المؤمن الذى كان مستقرا في تلمسان (2) ولما آل اليه الملك بعد وفاة والده أودع أخاه الناصر في السجن (3) خشية مناوأته له وقتل أخاه الأصغر أبا النصر (4) وجند الاجناد ، احتياطا لمنازعة عميه عبد الملك وأحمد له . واحتياطا أيضا وتطويقا لمساعيهما حاول التقرب من الدولة العثمانية ، وتحسين العلاقات بينه وبين السلطان العثماني كما سنرى مفصلا في فصل العلاقات السياسية (؟) كما تقرب من اليزابيت ملكة انكلترا، وعقد معها اتفاقا أمن السفن الانكلزية من الغزاة المغاربة ، والتجار الانكليز الموجودين على الارض المغربية ، ونص على امكانية تبادل السفراء (5) . وكان يود ان يتحالف مع فيليب الثاني ملك اسبانيا ، (6) وان تكون علاقاته مع دون سيباستيان ودية . الا أن هذا الأخير كان جادا في غزو المغرب ، والعمل على استرجاع جميع القواعد التي اكره البرتغاليون على تركها ، أو التي انتزعها منهم المغاربة انتزاعا ، الأمر الذى جعله يخوض ضده عدة معارك في سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م ، حالت

١ـ الفشتالي المرجع السابق ص ٣٩
٢ـ ميرسيي: المرجع السابق ج ٣ ص ١٠٠.
٣ـ المجهول: المرجع السابق ص ٤١ .
٤ـ ابن القاضي: المرجع السابق ج ٣ ص ٥٧ .
٥ـ انظر نص الاتفاقية في مجلة تطوان عدد ٣ - ٤ ص ٥١ - ٥٢ .
٦ـ م . م . م اسبانيا ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .

دون تحقيق الملك البرتغالي لوطره . ولكن فشله المتكرر لم يثنه عن الاستمرار في غزو المغرب .
واليه التجأ المتوكل بعد فشله أمام عمه عبد الملك وأحمد ليساعده على استرجاع ملكه ، وكانت النتيجة ليس فشلهما فقط ولكن ايضا مقتلهما في وادى المخازن كما ذكرنا .

ونشير الآن الى أن عبد الملك (٩٨٣ - ٩٨٦ هـ/١٥٧٦ - ١٥٧٨م) ، الذى نجح في العودة الى المغرب بعد اقامة طويلة في الجزائر عند اتراكها العثمانيين ، بفضل دعم هؤلاء له ، أخذ فور دخوله الى فاس في مارس ١٥٧٦ ذى الحجة ٩٨٣ هـ [1] ، وعودة الحملة الجزائرية ، في تجنيد الاجناد من مختلف القبائل بما في ذلك التي كان والده قد اقصاها من الخدمة كعرب الخلط [2] . ومن الاندلسيين الذين جنحوا اليه من صفوف المتوكل على الله ، ومن الزواوين والاتراك الذين تخلفوا من الحملة الجزائرية ، وغيرهم . وبفضل العدد الكبير الذى جنده استطاع ان يخوض نحو ٢٤ معركة ضد خصمه، وينتصر فيها، وان ينتزع مراكش من المتوكل ، مما جعل هذا الاخير يلتجئ الى البرتغاليين لطلب عونهم . كما شرع عبد الملك في بناء السفن في العرائش وسلا ، لتنشيط الغزو البحرى ، اذ كان له منه مورد يغطي به نفقاته ، ((وصار اهل الاندلس يسافرون في البحر مع اهل المغرب، وضيقوا بالنصارى اشد تضييق ، وكثرت الغنائم ، وكان اكثر ما يستفيده مولاى عبد الملك ، ويدخل بعده من المال انما هو من غنائم النصارى، وخمس الغنائم الجهادية ...)) [3] .

أما الخراج فقد تعطل في عهده، مما جعله لا يصطدم بشأنه مع المعارضين والرافضين له من القوى الدينية والقبلية ، بالاضافة الى انه سلك سيرة حسنة مع الناس جعلته في نظر حتى المتشددين في احكامهم تجاه السعديين كالمجهول، أفضل ملوك السعديين ، حيث ((كان بالامان، والعفو عن الجناة، والصفح عن العصاة)) [4] .

هذا فيما يتعلق بسياسة عبد الملك الداخلية ، وقد حرص كمن سبقه على ان تكون له علاقات طيبة مع الدول الاوربية التي لم تكن لها اطماع واضحة كفرنسا وانكلترا ، ومع اسبانيا لمواجهة اى تهديد من جهة الشرق .

١- ابن القاضي، المرجع السابق جـ ٣ - المجهول: المرجع السابق ص٤٨ - ٤٩ وعند هذا الاخير ان من اسباب الهزيمة نزوع الاندلسيين الى عبد الملك وتخليهم عن محمد بن عبد الله .
٢- الفشتالي، المرجع السابق ص ١١ - الزياني: المرجع السابق ص٣٥٢ - ٣٥٤
٣- المجهول: المرجع السابق ص٥٢ - ٥٣ .
٤- نفسه .

آ_ علاقاته مع فرنسا :

عرف عبد الملك صداقته على هنري الثالث حتى قبل ان يستقر له الامر في مراكش ، وحمل هذا الامر اليه صديقه الفرنسي الثابت كابريت (1) ، في ربيع الاول ٩٨٤ هـ / جوان ١٥٧٦م وفي السنة التالية ارفد طبيبه الفرنسي غيوم بيرار سفيرا اليه لابرام حلف بينهما ، مما يدل على تطور العلاقات بسرعة بين الطرفين ، ووافق عبد الملك على ان يكون لفرنسا قنصل في المغرب ، وكان القنصل الاول هو بيرار نفسه . (٢)

ب _ علاقاته مع انكلترا :

ارسل عبد الملك ايضا بعد دخوله الى مراكش بقليل رسالة الى اليزابيت ملكة انكلترا ، يخبرها بجلوسه على كرسي الملك في المغرب، ويعرض صداقته عليها . وجاء في رسالته المؤرخة برجب سنة ٩٨٤ هـ / سبتمبر _ اكتوبر سنة ١٥٧٦ : ((وكل ما يعرض لك في بلادنا من الاغراض فانه مقرون على ما يوافق غرضكم ومرادكم ، الا ما منعتنا شريعتنا منه فاننا نقف فيه على مقتضى نهيها ، ومع ذلك فمن نايبكم ملحوظ بواجبه من المنية فلاتقطعوا عنا أخباركم واغراضكم ...)) (٣) . وردت عليه اليزابيت برسالة مؤرخة في ١٩ محرم ٩٨٥ هـ / ٨ ابريل ١٥٧٧م ، وبتوجيه ايدمون هوكان (Edmon Hogan) سفيرا عنها اليه . وقد وصل الى مراكش في ١٣ ربيع الاول ٩٨٥ هـ / ١/٦/١٥٧٧ . ورحب بصداقته ، وابدت استعدادها لعقد تحالف معه ، ومعاهدة سلام ، (٤) كما طلبت منه ازالة الصعوبات التي كانت تواجه التجار الانكليز في المغرب ، فقرر عبد الملك منح تسهيلات لهؤلاء ، كضمان الامن والسلامة لهم في المغرب ، وحرية البيع والدخول والخروج ، وحرية المرور للسفن الانكليزية عبر شواطئ المغرب نحو الشرق ... الخ . (٥)

وقرر ان يرسل سفيرا الى اليزابيت لعقد معاهدة صلح و سلام بصفة نهائية . (٦) ورحبت ملكة انكلترا بما عزم عليه ، ولكنها اشترطت ان تكون وفادته سرية حتى لا يثير امر وجود السفير المغربي في بلادها متاعب لها مع جيرانها الملوك المسيحيين . كما شكرته على القرارات التي اتخذها في صالح التجار الانكليز . ووعدت من جهة اخرى بتلبية رغباته من العتاد الحربي على ان يلتزم الاحتياط والكتمان للغرض نفسه . (٧)

١_ تعرف عليه حين كان في الجزائر في سنة ١٥٧٣م ، وهو صاحب سفينة انظر عنه م.م. تدم فرنسا ج ١ ص ٣٥١ هامش ٢

٢_ جاك كايي : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا ، في ، مجلة تطوان عدد ٦ ص ١٥٧ - ١٥٨ .

٣_ ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي في / مجلة تطوان عدد ٩ ص ٣٢ - ٣٣

٤_ نفسه عدد ٨ ص ٦٢ - ٦٣

٥_ نفسه عدد ٦ ص ١٥٢

٦_ نفسه عدد ٨ ص ٦٣

٧_ نفسه عدد ٦ ص ٥٤

وبعث هوكان في تقريره الذى كتبه عن سفارته في المغرب بتاريخ جمادى الاولى سنة ٩٨٥ هـ / جويلية ١٥٧٧م ، على الاستجابة لمطالب عبد الملك من الاسلحة من أجل كسب المغرب كسوق لـ لانجلترا ، واتخاذ هذا الاخير ممرا الى التجارة مع الدولة العثمانية بدلا من المرور من اوربا (١) .

جـ - علاقاته مع اسبانيا والبرتغال :

سعى عبد الملك الى التقرب من الاسبان منذ كان لاجئا في الجزائر ، ولما انتزع الملك في المغرب من ابن اخيه مضى في سعيه ، دفعا للمخاوف والشكوك التي اثارتها لديهم الحملة الجزائرية العثمانية التي جاء بها الى المغرب ، وعلاقاته مع الاتراك العثمانيين ، وسياسته التي مالت الى تشجيع الغزو البحرى ، وبناء السفن وتقوية الجيش ، واقامة علاقات قوية مع انكلترا للتزود منها بالاسلحة .

ورغم السفارات والرسائل العديدة التي تبادلها مع فيليب الثاني التي سنفصل الحديث حولها في الفصل الخامس لعلاقة تلك الرسائل والسفارات بالجزائر والوجود العثماني فيها ، وبعلاقات عبد الملك مع الجزائر والدولة العثمانية ، فانه لم ينجح في التوصل الى التحالف مع الملك الاسباني ضد اتراك الجزائر العثمانيين او في ازالة مخاوفه منه ، او طمأنة الملك سيباستيان البرتغالي الذى تحمس اكثر من ذى قبل لغزو المغرب واحتلال شواطئه ، خشية القوة البحرية السعدية المتنامية ، وخشية ان تقع هذه الشواطئ القريبة من البرتغال والمشرفة على الطريق الى الهند ، في قبضة الاتراك العثمانيين ، ورحب بمحمد المتوكل على الله الذى جاءه في شوال ٩٨٥ هـ / ديسمبر ١٥٧٧ ، يطلب مساعدته على استرجاع ملكه من عمه عبد الملك ، والذى قبل أن يتخلى له عن كل الشواطئ المغربية ، وان يكون ملكا تابعا له في المناطق الداخليـة (٢) .

وقد اعد سيباستيان حملة ضخمة تتألف حسب المصادر العربية من ثمانين ألف الى مئة وعشرين ألف مقاتل من امم مختلفة ومن ٢٤٠٠٠ ألف الى ٤٠٠٠٠ ألف مقاتل حسب الوثائق والمصادر الغربية (٣) . وهي الحملة التي حطمها المغاربة في معركة وادى المخازن في ٣٠ جمادى الاولى سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨/٨/٤ م وفقد فيها الملوك الثلاثة سيباستيان ومحمد المتوكل وعبد الملك حياته كما ذكرنا ، فاستحقت بذلك اسمها بمعركة الملوك الثلاثة . وتفاصيل هذه المعركة معروضة في كثير من الكتب نكتفي بالاحالة اليها (٤) ، ونذكر انه كان لهذه المعركة نتائج هامة بالنسبة للمغرب والبرتغال . فبالنسبة للمغرب :

١ـ نفسه : ص ٤ وما يليها
٢ـ الافراني : المرجع السابق ص٧٤ وتيراس المرجع السابق ج٢ ص١٨٧
(٣) (٤)ـ ابن القاضي : المرجع السابق ج ٢ ص٢٢٣ ، الافراني : المرجع السابق ص٧٢ ، المجهول المرجع السابق ص٥٥ وما بعدها ... اسبانيا ج٢ ص ٤٠

- زوال التهديد البرتغالي الذي استمر بضعة سنوات يقلق بال المغاربة، ويهدد أمنهم .
- بروز المغرب بمظهر الدولة القوية ، واكتسابه هيبة كبيرة لدى القوى الخارجية، المجاورة له وغير المجاورة ، وتقرب هذه الدول منه ، وتوددها اليه بما في ذلك البرتغال .
- الحصول على غنائم كثيرة متنوعة (1) واسرى ، كثيرين حصل المغاربة على أموال كثيرة من فدية قسم منهم .
- وأخيرا مبايعة المغاربة لاحمد بن محمد الشيخ الملقب بالمنصور سلطانا ، خلفا لاخيه عبد الملك الذي وافاه اجله في ميدان المعركة .

أما البرتغاليون الذين فقدوا ملكهم وزهرة شبابهم، قتلى وأسرى، فانهم لم يلبثوا ان فقدوا أيضا استقلالهم ، اذ استولى فيليب الثاني على مملكة البرتغال في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠ م في أعقاب موت الكاردينال هنري خليفة سيباستيان ، وألحقها مع مستعمراتها بمملكته (٢).

عهد المنصور : 986 - 1012 هـ/ 1578 - 1603م

1- سياسته الداخلية :

كانت جهود احمد المنصور الاولى بعد مبايعته موجهة الى :

١- تنظيم الجيش . ٢- توفير الامن . ٣- اخضاع المناطق المتمردة . ٤- اقامة حكم مركزي قوي .

أ- الجيش : نجح احمد المنصور في استرضاء الجند الذين ثاروا ضده غداة دخوله الى فاس قادما اليها من وادي المخازن ، وطالبوه بالعطاء والزيادة فيه ، جريا على العادة التي كانت متبعة في عهد اخيه عبد الملك . وهي عادة المقشيش ، التي اخذوها عن الاتراك العثمانيين . وكان استرضاؤه لهم أولا بالكلام ، ثم بالعطاء ، بعد ان تفاقم امر ثورتهم فعاد الهدوء والاستقرار الى مدينة فاس (٣) . وحسب الفشتالي فان الذي حرض الجند على الثورة ، هو القائد الاندلسي محمد زرقون (٤) . وكان غرضه فيما يبدو الاطاحة بالمنصور لتنصيب اسماعيل ابن عبد الملك ، ولي نعمته ، وربما كان ذلك بايعاز او تنسيق مع اتراك الجزائر العثمانيين (٥).

١- من هذه الغنائم : ٢٠٢ قطعة مدفعية ، وسبعمائة مركبة ببغالها وثيرانها واشياء اخرى ذات قيمة معتبرة ؛ انظر مجلة تطوان عدد ٩ ص ٥٢ .
٢- الفشتالي : المرجع السابق ص ١٠١
٣- انظر عن هذه الثورة الفشتالي : المرجع السابق ص ٤١ - ٥٢
٤- نفسه : ٤٤ - ٤٦ للفشتالي
٥- كريم : مناهل الصفا ، هامش ١ ص ٤٦

ولذلك فان المنصور لم يغفر له ، ولقادة الاندلسيين الآخرين كأبي الفضل الغرى الذى كان مثل محمد زرقون في خدمة اتراك الجزائر العثمانيين قبل انتقالهما من عهد الملك الى المغرب ، وسعيد بن فرج الدغالي ، قائد الجيش الاندلسي في عهد عبد الله، وعهد ابنه محمد المتوكل على الله، تآمرهم عليه فنكل بهم جميعا في يوم ١ رجب سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨/٩/٣ م [1] .

وبقتل هؤلاء الثلاثة ((استقامت احوال الجند من يومئذ رهبة ، ورغبة ، واستوت قدم امير المؤمنين في ملكه . . .)) [2] .

وبعد نجاحه في القضاء على تمرد الجند وفي التخلص من القادة الاندلسيين المتآمرين عليه ، ((أخذ في ترتيب الجيوش وترتيبها، وضبطها، الى ان تمكن امره وقوى سلطانه)) [3] . بحيث جعله اداة طيعة في يده ، ووسيلة فعالة لتحقيق اهدافه وطموحاته .

وكان المنصور في تنظيمه لجيشه متأثرا الى حد بعيد بنموذج الجيش العثماني الانكشارى في الجزائر ، الذى ظهرت له فعاليته في حملاته على المغرب فاتخذ له مدربين من الاتراك . وقد مكنته موارده المالية الكثيرة ، وغنائمه الكبيرة من الاسلحة النارية والمدفعية في وادى المخازن ، من الاستكثار من الجيش النظامي ، وتسليحه تسليحا جيدا . وكان الجيش النظامي للمنصور ، المشاة منه والفرسان يتألف من اندلسيين ، واتراك ، واعلاج ، وهؤلاء جميعا يشكلون قوته الضاربة ، وجزائريين (زواويين) وسودانيين (بعد غزو السودان على المنصور سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١م) ، بالاضافة الى المغاربة . وكان عدده حوالي ١٥٠٠٠ جندى نظامي ، ولكنه عند الحاجة تدعمه القبائل المخزنية، التي كانت تتمتع مقابل ذلك بالاعفاء من الضرائب وبالاقطاع ، بحيث يبلغ عدد جيشه نحو ٤٠ ألفا بين المشاة والفرسان .

وقد ظهرت فعالية هذا الجيش في القضاء على جميع التمردات والثورات القليلة التي قامت في المغرب بعد استلام المنصور للسلطة فيه، بسهولة وسرعة ، وفي غزو بلاد السودان والاستيلاء عليه . ولم يقتصر اهتمام المنصور على الجيش البرى بل تجاوزه الى الاهتمام بالجيش والاسطول البحريين ، وخاصة في اواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، حيث كان يستكثر من قطع الاسطول في موانئ سلا والرباط والعرائش ، ومن الجيش العامل عليها . واستغل وفرة المستعبدين من السودانيين ، فضم قسما منهم للعمل في البحرية كجنود فيها وجنود [4] . كما استغل علاقاته الحسنة مع الانكليز لطلب مساعدتهم في هذا المجال ، كتزويده [5]

---

(١) (٢) الفشتالي : المرجع السابق ص ٤٧

(٣) المجهول : المرجع السابق ص ٦٦ وانظر عن الجيش في عهد المنصور مجلة تطوان عدد ٦ ص ٦٦ و:

Andrzej Dziubinski: L'armée et la flotte Marocaine de guerre, in Hesp. Tamuda, Rabat 1972, vol. 13 P.P. 61 - 94.

(٤) الزياني : المرجع السابق ص ٣٦

(٥) ابن تاويت : من زوايا التاريخ في مجلة تطوان عدد ٨ ص ٢٠ - ٣١

بالمعدات اللازمة لبناء السفن والنباريين وغير ذلك .

ب - توفير الامن : فان المنصور انتهز فرصة حضور أعيان القبائل من كل جهات المغرب الى فاس لمبايعته البيعة العامة ، ((وأخذ معه في الاتفاق على تأمين الطرق ، وكل شيخ ضمن مايضيع في ترابه ، وأخذ العهود على رؤساء القبائل بذلك ، وأصلح احوال المغرب في ايام قليلة ... فانتشرت العافية ، وظهرت الهدنة من باب تازه الى اقصى السوس ...)) (1) .

وكان حرص المنصور على توفير الامن كبيرا ، ولم يكن يتردد في تسليط اقصى العقاب على من يحاول الاخلال به . وقد لاحظ عبد الواحد الحميدي قاضي فاس قسوة اعوان المنصور ، وأبدى ملاحظته لهذا الامير فكان جوابه له ((لولا مارأيت ماامكنك ان تجيء من اصحابك عشرة أيام في أمن ودعة ، فان اهل المغرب مجانين مارستانهم هي المحن والسلاسل والاغلال ...)) (2) .

ومن حرصه على الامن في الداخل ، امره بتعمير الاماكن المخوفة التي لا توجد فيها العاميات ، بالسكان الرحل ، والزامهم بسكناها ، واقطاعهم الاراضي التي تكفيهم ، على أن يكونوا مسؤولين عما يضيع للمسافرين في منطقتهم . (3) وفي اطار حرص المنصور على توفير الامن الداخلي للمغرب وحمايته من تهديد القوى الخارجية العدوة له شيد حصونا عديدة في المواقع الاكثر احتمالا بأن تتعرض الى اعتداء او غزو خارجي، كشمال المغرب وشرقه . فبنى بهذا الصدد حصنين كبيرين ، وعدة ابراج في مدينة فاس ، وزاد في حصن الفتح بالعرائش من جهة البحر ثم عززه بحصن ثان ، ليقطع امل الطامعين في ميناء العرائش الممتاز . وبنى حصنا كبيرا في تازه بشرق المغرب ، وحصّن المدن الساحلية كآسفي ، وآزمور ، وآصيلا وغيرها . (4)

ج - واما مايتعلق باخضاع المناطق التي خرجت عن سلطة الدولة ، او مالت الى الخروج عنها ، نتيجة للحرب الاهلية التي شهدها المغرب قبل ولاية المنصور ، فان هذا الاخير ما ان حصل على البيعة ، وانهى تمرد الجند في فاس ، حتى وجه الحملات الى تلك المناطق في الشمال ، انطلاقا من فاس ، وفي الجنوب انطلاقا من مراكش ، ((لاستئصال شأفة الخوارج عليها ، وتدويخ النازعين الى الخلاف من رعاياها ، وتمهيد القاصية والدانية من اعمالها ...)) (5) وما توقف عن ارسال الحملات اليها الا بعد ان خضعت كل المناطق مهما كانت بعيدة اومنيعة الى سلطة الدولة .

(1) المجهول : المرجع السابق ص ٦٦
(2) الافراني : المرجع السابق ص ١٥٨
(3) أحمد بن القاضي : المنتقى المقصور ص ٩٥ نقلا عن كريم المغرب في عهد الدولة السعدية ص ٢٦٦ - ٢٦٧
(4) انظر عن هذه المنشآت العسكرية الفشتالي : مناهل الصفا ص ٢١٤ - ٢٦٥
(5) نفسه ص ٥١

ــ اقامة حكم مركزي :

وقد اجتهد المنصور في جعل الدولة السعدية دولة قوية محكمة التنظيم ، وفي ... الدول المتقدمة في عهده ، واستفاد مما وصلت اليه على الخصوص الدولة العثمانية ، ... تطور في مجال التنظيم الاداري ، ولكن دون ان يبتغي تأثيره عهد الطغاة الذي ((جنح بالدولة ... السيرة العجمية ، وحمل الناس عليها حملا عنيفا ، فشق عليهم ذلك لتنافر الطباع ، واضطربت ... وال لتغير العادة ، وايناس الامور غير المعتادة . . .)) (١) ، وانما الف بين السيرتين ... بية والعجمية . (٢)

فمما استحدثه المنصور نذكر ، الديوان)((وقد اتخذ يوم الاربعاء للمشاورة ، وسماه يوم ... وان ، تجتمع فيه وجوه الدولة واعيانها ، ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الامور ، ... ئم النوازل . . .)) (٣) ونذكر ايضا الامور المتعلقة بالمراسيم التشريفية وتنظيم الاستقبالات ... ية والاستعراضية . واختراعه لا شكال من الخط ((الشفرة)) ، على عدد حروف المعجم ... بها ما لا يريد ان يطلع عليه احد . (٤) وكان يستعمل الشفرة في مراسلاته المهمة بينه وبين ... وقادة عمالاته وابنائه . ونذكر بالاضافة الى ما تقدم اقامته لجهاز مخابرات وتجسس ، ليس ... لى مستوى المغرب اذ كانت عناصر مخابراته منتشرة ايضا في البلاد المجاورة للمغرب ، وحتى ... يدة عنه ، مبالغة في الحرص على امنه وامن المغرب في الداخل واحتياطا للاخطار الخارجية. (٥)

وكان المنصور حريصا على المحافظة على اوقات العمل الاداري ، لا يقبل التهاون فيه ... تابه ، كما كان لا يتراخى في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب عليهم . (٦)

وقد كانت المناصب العليا المدنية بيد المغاربة ، ولا سيما من اهل الجنوب ، اما المناصب ... كرية فقد تقاسمها مع المغاربة الاعلاج والاندلسيون والاتراك ، وبفضل ادارته المحكمة ... ه المنظم ، الجيد التسليح ، وجهاز مخابراته ، وشخصيته القوية ، كان المنصور يتغلب ... لصعوبات التي واجهته ، واستطاع ان يحكم المغرب حكما مطلقا مدة ربع قرن ، وان يوسع ... الى بلاد السودان كما سيأتي .

المنصور من القوى القبلية :

كان النظار ايضا في شأن القبائل وتنظيمها مما استأثر باهتمام المنصور بعد ان آل اليه ... ، لما للقبائل من تأثير في الامن والاستقرار اللذين كان المنصور حريصا على توفيرهما ... لمغرب باعتبارهما اساسيين لتحسين جميع الاوضاع التي تأثرت بالحرب الاهلية التي شهدها

... فشتالي : المرجع السابق ص ٢٠١
... عارض تنظيم الدولة السعدية في عهد المنصور : B.Harakat: Le makhzen Saâdien in R.O.M.M., No. 15 & 16, Aix-en-Provence 1973, P. 149
... فراني : المرجع السابق ص ٥٧ (- ٥٨)
... سه : ص ١١ (، والفشتالي : المرجع السابق ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وانظر نموذجا عنها في ... جلة ... سنة ١٩٢٧ (ص ٢٢١ .
... فشتالي : نفس المرجع السابق ص ٢٠٧

المغرب طوال عهد عبد الملك . فقام بنقل بعض القبائل من جهة الى اخرى كنقله لعرب الجنوب : عرب مراكش وبلاد السوس ، كأولاد مطاع وغيرهم الى الشمال وانزالهم بين قبائل عرب الخلط ، واولاد حسين ، المتذبذبي الولاء ، ضغطا لهم وحذارا منهم ، واستخدم بعضها في الجيش ، كما فصل من عدد من قبائل الخلط ، وابقى بعضا منها في عداد قبائل الرعية كبقية قبائل الخلط.(1) وبنى في الجنوب عديدا من القلاع في المواقع الرئيسة التي تتحكم في الطرق ، وتسمح له بالسيطرة على القبائل المجاورة . (٢)

الا ان حرصه على توفير الامن والاستقرار ، وتنظيم القبائل وضبطها جعله يصطدم مرارا بالقبائل التي تعودت على اثارة الاضطرابات والفتن ، والميل الى التمرد والعصيان ، والتذبذب في ولائها ، كعرب أولاد حسين المعقليين ، وعرب الخلط وسفيان ، ومختار ، وكلهم من جشم بالرغم من محاولة المنصور استمالة هؤلاء بالخدمة والاقطاع ، واضرابهم من عداد الرعايا الغارمة فقبائل الخلط واضرابها ، وعرب اولاد حسين لم يكفوا عن تهديد الامن في الاسواق والطرق ، واثارة الفتن والاضطرابات مع عرب الجنوب الذين انزلهم المنصور بينهم، و ميلهم الى التمرد والعصيان لاوامر الدولة ، الامر الذى دفع المنصور الى ان ينتقم منهم من حين الى آخر .(٣)

موقفه من القوى الدينية :

ان أسلوب الشدة والصرامة الذى اتبعه المنصور تجاه القوى القبلية ، طبقه ايضا تجاه بعض زعماء القوى الدينية كابن قرقوش الآتي ذكره وابن احمد بن موسى الجزولي .(٤) ، مما جعل القوى الدينية ترهب جانبه ، وتستكين له ، ريثما تحين الفرصة المناسبة للثورة كما في عهد ابنائه . غير انه في الوقت نفسه الذى كان المنصور يتبع فيه اسلوب الشدة تجاه بعض المرابطين كان يتقرب من آخرين ، ويحرص على ارضائهم وكسبهم الى جانبه ، للدور الذى يمكنهم ان يساهموا به في توطيد دعائم حكمه واستقراره ، وان كان اعتماده الاساسي في هذا الامر على الجيش الذى اولاه كما اسلفنا عنايته واهتمامه ، فكان خير معين له . فالشيخ ابو عبد الله المصرى المكناسي على سبيل المثال ، الذى كان من اولياء الله الصادقين علما ، كان ممن يرغب المنصور في لقائهم رغم انه كان يطرح معه الادب المستعمل مع الملوك في القول والفعل، ولا يبالي بما قال اوفعل

(١) انظر الفشتالي : المرجع السابق ص ١١

(٢) مونتانى : المرجع السابق ص٩٢

(٣) انظر عن الحملات الانتقامية ضد القبائل العربية في اعوام ١٥٨٢- ١٥٨٨ ، ١٥٨٩ ، ١٥٩٦) : الفشتالي : المرجع السابق ص٦٥ ، ٩٨ ، ١١١ - ١١٢ ، ١٩١ ، ١٩٣

(٤) مات وهو في سجن تارودانت : انظر:-
Justinard: Carnet d'El-Mansour, in Archives Marocaines, vol. 29. Paris 1933 P.191.

((وكان (المنصور) . . . يخفض له جناح الذل من الرحمة ، ويلين له في القول حتى ينصرف راضيا ، ويمضي شاكرا داعيا . . .)) [1] . كما كان يزور قبور كبار الاولياء ، ولا يخفى ماتتركه زيارته لها من أثر طيب لدى اتباع اولئك الاولياء . وكان المنصور من جهة اخرى يقرب العلماء والادباء ، ويغدق عليهم بالمئات بل بالالوف من الدنانير ، حتى ينصرفوا ايضا مادحين شاكرين ، محسنين لذكره بين الناس ، مؤيدين له غاضين الطرف عن شدة وطأته على الرعية في الضرائب واعتسافه وجوره . [2]

ولكن قوة جيشه ، وكثرة مادحيه لم تحل دون قيام ثورات كبيرة وخطيرة ضده ، وان كان اكثرها بزعامة افراد من الاسرة المالكة . واهم هذه الثورات :

١- ثورة داود بن عبد المؤمن واهل السوس ٩٨٧ - ٩٨٨ هـ / ١٥٧٩ - ١٥٨٠ :

ثار داود عند عمه المنصور في السوس بجنوب المغرب ، في اعقاب تعيين هذا الاخير لولده محمد الشيخ ، وليا للعهد ، واخذه البيعة له من الناس في ٢ شعبان ٩٨٧ هـ / ١٩٧٥/٩/٢٤ ، مما يعني انه كان يمني نفسه بولاية العهد فخابت امنيته . وكان المنصور يتوقع تمرده عليه ، ولذلك اتى به معه الى مراكش ، ولم يتركه في مكناســه التي عقد له على ولايتها ، واتخذ احتياطاته تجاهه .

وقد وجد داود في اهل السوس انصارا لثورته فاسرع المنصور الى توجيه الجيوش للقضاء عليه قبل استفحال خطره ، واتصاله بالقوى الخارجية ولاسيما بأتراك الجزائر العثمانيين [3].

وتمكنت قوات المنصور في ربيع سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م من محاصرة ابن عبد المؤمن في وادي هرغه ولم ينج بنفسه الا بصعوبة ، وفر الى عرب الوداية في الصحراء حيث مات هناك مقتولا [4] .

ونجحت قوات المنصور في القضاء على جميع المتمردين في السوس ، وأذعن اهله ((وحسنت طاعتهم وخلصت انابتهم)) [5] .

---

(١) الفشتالي : المرجع السابق ص٤٤
(٢) المجهول : المرجع السابق ص٥٦ ، الافراني : المرجع السابق ص١٠١ ، ١٥٨ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٥ ص١٨
(٣) كان الاتراك قد حاولوا الاتصال به لمساعدته انظر فصل العلاقات السياسية
(٤) انظر عن هذه الثورة الفشتالي : المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٨
(٥) نفسه : ص٥٨

٢- ثـورة الحاج قـــــرقوش :

كانت ثـورة المرابط الحاج قرقوش في شمال المغرب ، بمقاطعة الهبط ، حيـث دعـــا لنفسه ((ولبس شارة الملك واتخذ الآلة ، وتسمى في كتابه بأمير المؤمنين) (١). وادعى انه من الاشـــراف . وســـرى خبره في المقاطعة ، فانثالت عليه جموعها ، واشتعل لهيب ثورته، وذلك في ١٥ صـــفر سنة ٩٩٦ هـ / ١٥ جانفـــي ١٥٨٨ م ويدل العدد الكبيـــر من القوات السعدية من حملة سلاح النـــار ، التي حركها المنصـــور وولي عهـده مـن فـاس وعددها ٦٠٠٠ مقـــاتل على حرص المنصـــور على القضـــاء على الثورة بسـرعة ، قبل استفحالها ، كما يدل على انه لم يستهن بخصمه ، ذلك ان الثورة قامت في المنطقة القريبة من المراكـز الاسبانية ، مما قد يدفع الاسبان الى مســـاعدته ، ولا سيما إن علاقات المنصـــور بهؤلاء في هذه السنة كما سنرى بعد قليل لم تكن على ما يـــرام .

ولكن الحاج قرقوش لم يطق في نهاية الامر فيما يبـــدو اي مساعدة من الاسبان أو غيرهم ، ورأى انه لن يكون له اي حظ في النصر ان واجه بامكاناته الخاصة المحدودة القـوات الســـعدية الكثيرة المسلحة تسليحا جيدا ، فآثر ان يتوارى عن الانظار ، واختفى في أحد الملاجئ الى ان قبض عليه في ٢٨ رجب ٩٩٧ هـ / في ١٢/٦/١٥٨٨ م واخذ الى فـــاس حيث اعدم (٢) . وسلط المنصور على انصاره من أهل تمسرزان الذين آووه وآزروه عقابا فـــي منتهى القســــوة اذ ((استباحتهم السيوف بالقتـــل رجالا ، ونساء ، وولـــدانا ... واجتمعت العساكر على عمرانهم ، فخربوا الديار . واقتلعوا الاشجار ، وعفوا الآثار ..)) (٣). ولعله قصـــد بهذا العقاب ان يكون عبرة لمن تسول له نفسه ان يثور او يؤيد الثائرين .

٣- ثـورة الـــنـاصر بن عبد اللـــه
1003 – 1004هـ / 1595 – 1596

نعم المنصور بالامن والاستقرار الداخلي بضع سنوات بعد القضاء على ثورة الحاج قرقـــوش استغلهـا في التوســـع الى بلاد السودان الذي سيأتي الحديث عنه . ولكن ثورة ابن اخيه الناصـــر ابن عبد الله الغالب في ربيع 1003هـ/ 1595م في الشـمـال ايضـا قد نغصت عليه هدوءه .

---

(١) نفســه : ص ٩٣ – ٩٤

(٢) نفســه : ص ٩٥

(٣) نفســه : ص ٩٦

واستقراره، وأثارت لديه مخاوف كبيرة؛ لان الذى اثاره ضده هو فيليب الثاني ملك اسبانيا (1) . ولان ثورة الناصر لقيت تجاوبا كبيرا لدى بربر جبال الريف ، وعرب شرق المغرب وغربه ، ((واهتز المغرب لقيامه وتشوفت له العيون لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية (2))) . وأخيرا لانه كان يخشى ان يجد الناصر لدى الاتراك العون والمساعدة . ولذلك فقد استنفر كل قواته واتخذ ماأمكنه من الاحتياطات لتطويق الثورة قبل القضاء عليها . اما الناصر الذى تعززت صفوفه بالقوات العديدة التي انحازت اليه ، فقد تمكن من احتلال تازه في شرق المغرب ، ثـــم تقدم نحو فاس، فخرج اليه محمد الشيخ بن المنصور ، وتمكن هذا الاخير من الانتصار عليــه في المعركة التي دارت بين الطرفين في سفح جبل مدغره ، وفيها اصيب الناصر برصاصه فـــي ركبته الا انه استطاع ان ينسحب الى جبل بني يزناسن ، المطلة على إيالة الجزائر ، واقام هناك في دار بن مشعل يعالج اصابته (3) .

وبعد ان استأذن المنصور اتراك الجزائر في ملاحقة الناصر الى مكمنه المذكور ، شن ابنه محمد الشيخ حملة اخرى ضده ، ولكن انحياز فريق من قواته الى الناصر جعلته يتراجع لتنظيم حملة جديدة ، في حين تقدم الناصر بمن انضم اليه ، وزحف الى فاس ، وعلى مقربة من هذه الاخيرة جرت معركة عنيفه بينه وبين محمد الشيخ انتهت بانتصار هذا الاخير في رمضان 1004 هـ / ماى 1596 م . وحاول الناصر الفرار لكن احد قواد محمد الشيخ تمكن من اللحاق به وقتله (4) .

وبمقتل الناصر انتهت الثورة التي أثارت الرعب في قلب المنصور ، فأمر باقامة الافراح ، وارسل البشائر بالنصر الى مختلف جهات المغرب ، والى الملوك والامراء والشخصيات البارزة التي كان على اتصال بها في الخارج ، كباشا الجزائر ، والسلطان العثماني ، وقاضي القضـــاة المالكية في مصر ، وسلطان مكة وغيرهم (5) . وجاءت الوفود لتهنئته بالنصر ، ونظم له الشعراء بهذه المناسبة القصائد العديدة (6) .

---

(1) كان الناصر لاجئا لدى البرتغاليين منذ عشية معركة وادي المخازن ثم لدى الاسبان بعد احتلالهم للبرتغال في سنة 1580 م . وقد تم نقل الناصر من اسبانيا الى مليلا في 7 ماى 1595 م ومنها انتقل الى الجبال المجاورة . انظر عن اقامة الناصر في البرتغال ثم في اسبانيا :
CH. de la Veronne: Le séjour en Andalousie des deux princes Saâdiens (1580-1595), in R.O.M.M., No. 7, Paris 1970, P. 187 et s.

(2) اليفرني : المرجع السابق ص 101

(3) الفشتالي : المرجع السابق ص 171 – 174 ؛ [illegible] ص 222 – 226

(4) الفشتالي : نفس المرجع ص 174 – 176 ؛ الافراني المرجع السابق ص 101 – 102

(5) الفشتالي : نفس المرجع ص 187 وما بعدها

(6) الفشتالي : نفس المرجع ص 174 – 183

...محمد الشيخ ، وموت المنصور :

...كم المنصور بعد أن قضى على الناصر وثورته سبع سنوات أخرى ، الا انها لم تكن أفضل
...نوات حكمه ، ذلك أن وباء الطاعون قد تلا ثورة الناصر ، واجتاح المغرب كله ، واستمر سائدا
...ه بضع سنوات ، لا يكاد يخف حتى يشتد من جديد (١) . وكان يقضي باستمرار على خلق كثير ،
...ا نغص على المنصور راحته وأمنه أيضا ، اذ اضطر ان يقضي فترة تحت الخيام خارج عاصمته (٢) ،
...قطع الصلات ، ولا سيما عن العالم الخارجي خائفا ان ينتهز اعداؤه الاسبان او الاتراك الفرصة
...يهاجموه . (٣)

ولكن ما نغص عليه اكثر راحته ، هو سوء سيرة ولده محمد الشيخ في فاس ، حيث صار
((يأكل اموال الرعية ولا يحكم بالسوية)) (٤) . والادهى من ذلك هو تقريبه من كان هو قد
...بعد هم من العرب كعرب اولاد حسين ، ومن كان معروفا بولائه للاتراك العثمانيين كعرب أولاد
طلحة (٥) . و رفضه الحط بتوجيهاته ، والحضور اليه ، واخيرا تهديده باللجوء الى الاتراك ان
هو هاجمه (٦) . الامر الذي جعله يرجىء تحركه اليه بل ويكتب اليه لتهدئته وحثه على التراجع
عما هو عازم عليه (٧) ، في انتظار ان يتخذ الاحتياطات اللازمة لتطويق حركته كالتقرب من الاسبان
رغم ما بينه وبينهم من توقف منذ بضع سنوات . وفي اكتوبر ١٦٠٢ تحرك بسرعة وسرية على رأس
... ٨٠٠٠ فارس (٨) . ووصل الى مشارف فاس دون ان يعلم به ولي عهده فلم يكن امام هذا الاخير
الا الفرار في آخر لحظة ، الى احدى الزوايا في وسط المغرب وهناك القي عليه القبض بعد معركة
عنيفة مع بطانته .

وقد وجد المنصور فاس في حالة سيئة فتأسف (٩) . وأمر بالصدقات ، ورد المظالم ،
وسجن ولده في مكناسة (١٠) ، واستدعى ولده زيدان من تادلا لاستخلافه ، واستعد للعودة
الى مراكش ، ولكن الوباء الذي كان سائدا كما ذكرنا في المغرب لم يستثنه فمات بعد ايام قليلة
من اصابته به في ١٥ ربيع الاول سنة ١٠١٢ هـ / ٢٣ أوت ١٦٠٣ م (١١) ، قبل ان يفصل في امر
ولاية العهد مما كان له نتائج وخيمة كما سنرى . ولا بد من التأكيد في نهاية المطاف في سياسة
المنصور الداخلية ان اهتمامه لم يقتصر على توفير الامن والاستقرار واخماد الثورات فقط بل كانت
له جهود في المجالات الاقتصادية والثقافية سنشير اليها في الفصول المخصصة لتلك المجالات .

(١) استمر الوباء من ١٥٩٧ - ١٦٠٨ انظر روزنبرغ : المرجع السابق ص١٤١
(٢)(٣) انظر العدد السادس من مجلة تطوان ص٦٢-٦٣
(٤) المجهول : المرجع السابق ص٧١
(٥) انظر رسالة المنصور الى ولي عهده في النزهة / الافراني ص١٧٤-١٧٦
(٦) المجهول : المرجع السابق ص٧٣
(٧) انظر العدد السادس من مجلة تطوان ص٧٦
(٨) المجهول : المرجع السابق ص٧٤
(٩)(١٠)(١١) الافراني : المرجع السابق ص١٨١ ، ١٨٨

علاقات المنصور الخارجية :

جاءت اثر الانتصار الكبير الذى حقق المغاربة في معركة وادى المخازن ، واعتلائه
كرسي الملك ، وفود دول عديدة من الجزائر والقسطنطينية ، واسبانيا ، والبرتغال ، وفرنسا ،
وانكلترا وغيرها ، للتهنئة بالنصر والملك ، وكان مجيء هذه الوفود مناسبة للمنصور للنظر
في العلاقات بينه وبين الدول التي أوفدت رسلها اليه ، ومنذ ئذ استحكمت العلاقات بينه
وبين الدول المذكورة على نحو أو آخر ، والمتأمل في علاقاته معها يجد انها لم تكن دوما على
نمط مستقيم ، فالتذبذب هو الصفة الغالبة عليها ؛ فتارة كان يطور علاقاته مع هذه الدولة
نحو الصداقة والتحالف ، وتارة يطورها مع نفس الدولة نحو الفتور او العداء والتوتر ، حسب
الظروف والمواقف ، وفي كل الاحوال كان يستغل الخلافات التي كانت قائمة بين الدول التي
كان يتقرب منها أو يبتعد عنها ولما كنا سنعود الى الحديث عن علاقاته الخارجية مع الدول
الاوربية في الفصلين الخامس والسادس لارتباط تلك العلاقات الوطيد
مع علاقات المنصور بالاتراك الجزائر والدولة العثمانية ، فاننا نكتفي هنا بتقديم
مختصر شديد يوضح معالم سياسته المذكورة :

اتجهت علاقاته مع الجزائر والدولة العثمانية في بداية عهده نحو العداء ، وفي مقابل
ذلك طور المنصور علاقاته مع فيليب الثاني عدو الاتراك العثمانيين نحو الصداقة والتحالف ضد
هؤلاء الاخيرين . ولكن تحسن علاقاته معهم ابتداء من ٩٩٠هـ/١٥٨٢م ، جعله يطور
علاقاته مع الزابيث ملكة انكلترا عدوة فيليب الثاني من علاقات تجارية بحتة نحو تحالف عسكرى ضد
حليفه السابق الذى توسع نفوذه في المغرب بضمه للمراكز البرتغالية ، وبلاد البرتغال نفسها في
٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ، والذى كانت له أطماع كبيرة في ضم المراكز المغربية أيضا . وتبنى
مع انكلترا أيضا قضية دون أنطونيو المطالب بعرش البرتغال التي انتزعه منه فيليب الثاني في
التاريخ المذكور ١٥٨٠م ، فتوترت العلاقات بينه وبين هذا الاخير ، ولجأ فيليب الثاني الى
اغرائه بأصيلا ان ابتعد عن القضية البرتغالية ، وشارع الزابيث العدوانية ضده ، فتقاعس
المنصور من المساهمة في الهجوم الانكليزى على لشبونة البرتغالية في شعبان ٩٩٨هـ / في
جوان ١٥٨٩م وتراجع عن تقديم المساعدة لانطونيو ، وحصل مقابل ذلك على آصيلا في
١٣ ذى القعدة ٩٩٨هـ/١٣/٩/١٥٨٩م دون قتال ومن ثم فترت علاقاته مع الزابيث .

واستغل سلامه مع الاتراك العثمانيين ومع فيليب الثاني في غزو بلاد السودان ، والاغتناء
بخيراته وزيادة قوته . واضعافا له ، وانتقاما لميوله السابقة الى اعدائه سرح الملك الاسباني
الناصر بن عبد الله ضده ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م ، كما رأينا وحينئذ صح عزم المنصور على الحاق
الاذى بالاسبان في أى مكان في المغرب او في اسبانيا ، أو في مستعمراتهم الاخرى . ولهذا

الفرس تقرب ثانية من البرابعة ، وسعى للتعاون معها ضد عدوهما المشترك . لكن هذه الاخيرة ، لم تتمن تراجعه ، وتقاعسه السابقين ، فلم تكن جادة معه ، ولم يجرؤ على الهجوم وحده على الاسبان . فعادت العلاقات بين المغرب وانكلترا تجارية فقط كما بدأت . ومال المنصور ، الى مهادنة الاسبان ، بل والتحالف معهم في (١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م ، أمام تهديد ولي عهده له بالتعاون مع أتراك الجزائر ضده .

ومن هذا العرض السريع لعلاقات المنصور الخارجية يمكن القول : أنه كان عارفا بدقائق العلاقات الدولية في عصره ، وكان واعيا تماما لمصلحته ، ومصلحة المغرب في الوحدة والاستقلال ، وعدم الانحراف نحو أية تبعية وحرصه ما أمكنه ذلك على علاقات سلام مع مختلف الدول ، ومن ثم كان متزنا ، ونابها في تحركه في خضم العلاقات الدولية المضطربة .

<u>علاقات المنصور ببلاد السودان الغربي :</u>

منذ قيام السعديين في جنوب المغرب وهم يوجهون انظارهم الى بلاد السودان الغربي ويحاولون ان يكون لهم نصيب من خيراتها ، ويسعون بجد الى تحقيق ذلك ، الا اذا شغلهم عن ذلك شاغل أهم .

وقد كان محمد الشيخ يفكر كما ذكرنا في غزو بلاد السودان للاستفادة من ذهبه وعبيده وخيراته الاخرى . ولما استقر الملك لولده أحمد المنصور ، وزالت الاخطار التي هددته من الداخل والخارج في بداية عهده ، استكثر من الجيوش المسلحة تسليحا جيدا ، وحديثا ، دون أن ينسى مشروع والده ، ((.. فامتدت عينه لذلك الى فتح الاقطار وتجهيز البعوث تحت راياته المنصورة الى الآفاق الشاسعة لانتظامها في ملكه [1])) ، وقد علق الفشتالي على ذلك بقوله :

((وهذه الاقطار والافاق الشاسعة لا تقع في الاندلس الذى انسدت أبوابه باحتلال الاسبان ، أو في المغربين الاوسط والادنى اللذين انسدت ابوابهما باستيلاء الاتراك عليهما ، حيث الحرب مع هؤلاء واولئك تعب كثير في نفع قليل ، ولكنها في ممالك السودان [2] . فهي أحق وأولى بالتقاء العزائم .. فانها اغزر نفعا ، وابدى منفعة وارحب مجالا ، واوسع عمرانا . وأوفر نشبا ، واقوى معادنها وكثرة المشتاق من رقيقها ، يد على الاستكثار من الاسطول لغزو <u>عدو الدين والاجلاب عليه ..))</u> [3]

(١) الفشتالي : المرجع السابق ص٥٧
(٢) من أهم هذه الممالك : مملكة سنغـاي وقاعدتها غاو أو كاغو التي كانت في عهد المنصور تحت حكم اسرة صنهاجية مسلمة سنية منذ اواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى انظر عنها السعدي : تاريخ السودان ، وزبادية : سنغاى في عهد الاسقيين الجزائر ١٩٧١ والافراني المرجع السابق ص ٨٩ - ٩٠ .
ومملكة برنو التي كانت تقع الى الشرق من مملكة سنغاي ، وكان بين هاتين المملكتين تنافس على الامارات الواقعة بينهما . وممالك الفولن والجلفو على الساحل الاطلسي وغيرها .
(٣) الفشتالي : المرجع السابق ص١٢٨

وهذا النص يلخص اغراض المنصور من وراء تفكيره في غزو بلاد السودان وتنفيذ فكرته ،
رغبة في الاستيلاء على خيرات بلاد السودان من ذهب وغيره هي الدافع الرئيسي .

وقد مهد المنصور لغزو بلاد السودان اولا بجمع المعلومات الكافية عنها، من خلال
واسيسه الذين ارسلهم لهذا الغرض ومن خلال المعلومات التي استقاها من رسول ادريس
ثالث ملك برنو الذي تردد مرارا على المغرب من أجل الحصول على المساعدة العسكرية
ن المنصور خلال العقد العاشر من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى بدون
دوى . على الرغم من قبوله ان يبايعه ويدخل في دعوته [2]. ومن علي بن داود الامير
اسيكي الذى لجأ اليه في ٩٩٧ هـ / ١٥٨٦ م [3]. وثانيا بالاستيلاء على اقليمي توات وتيكورارين
يبين نسبيا من بلاد السودان في ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ - ١٥٨٤ م [4].

وبعد ذلك وجه حملة لغزو ممالك ملوك فولن وبلغو، اذ كان هؤلاء الملوك أضعف من
اسكيه ، واقرب اليه نسبيا ، وكان ذلك في ٩٩٢ هـ / ١٥٨٤ م وقد تمكنت هذه الحملة
ن اخضاع امراء تلك الممالك ، ورؤسائها دون صعوبة . وعادت بأعداد كبيرة من الابل فوق
كان ينتظره المنصور ، وشرع منذ ئذ في الاستعداد للحملة على مملكة سنغاى [5] .

وقام بشن هجوم في ٩٩٤ هـ / ١٥٨٦ م احتل به تيغازه وسيطر على معدن الملح
يها [6] . بعد ان رفض الاسكيون ان يدفعوا له عن كل حمل ملح مثقالا كما طلب ،
عوى الاستعانة بهذا المال في أعمال الجهاد .

وكان رد فعل الاسكيين مقاطعة ملح تيغازه، وفي سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٨٦ م لجأ اليه
ي بن داود، اخو السلطان الاسكي روطنيعون، فبعث المنصور الى السلطان
سوداني سفارة تحمل رسالة . وفتوى من علماء فاس بحق الامام في التصرف في المعادن ورسالة من
خيه الى المنصور يطلب فيها عونه ضد اخيه [7] . ولكن هذا الاخير مضى في اصراره
ى رفض جميع مطالب السلطان السعدي . ، واحتج ((بانه امير ناحيته وانه لا تجب عليه طاعته)) [8]
، وحينئذ عقد المنصور مجلسا للشورى فيما عزم عليه من غزو للسلطان الاسكي في عقر داره ،
جح في اقناع الحاضرين بامكانية توجيه حملة عسكرية الى هذا الملك البعيد وتحقيق غرضه
ه [9] . وتحركت الحملة في ١٦/١٢/٩٩٨ هـ / ١٦ اكتوبر ١٥٩٠ م، بقيادة جودر باشا ،

(1) نفسه ص ١٢ - ١٢١
(2) نفسه ص ١٦ - ٧٢
(3) نفسه ص ١٢
(4) (5) نفسه ص ٧٥ - ٧٨ ، ٧٦ - ٨١
(6) (7) نفسه ص ١٢ ، ١٢١ - ١٢٥
(8) اليفرني النزهة ص ٩
(9) انظر عن هذا المجلس والمشاورات فيه الفشتالي : المصدر السابق ص ١٢٦ - ١٢٨

وهي تتألف من ٤٠٠٠ من خيرة جنود المنصور الاندلسيين والاعلاج والاتراك حملة السلاح الناري. وتمكنت الحملة من تحقيق انتصار كبير في المعركة الاولى على قوات سودانية تفوقها بكثير . ولكنها لا تملك السلاح الناري او المدافع . وذلك في ٦ جمادى الاولى سنة ٩٩٩ هـ / ١٢ مارس ١٥٩١ على مشارف كاغـــو ، وانسحب السلطان اسحاق الثاني الاسكي الى عاصمته ، رحل منها ما تيسر قبل ان يدخلها المغاربة (١) . وأمر المنصور باقامة الافراح بهذا النصر(٢) . أمـــــا اسحاق الثاني فلم يلبث بعد هزيمته الاولى ان تقدم الى قائد الحملة السعدية بعرض قبل فيه التبعية للمنصور ، ودفع خراج كبير له مقابل البقاء في ملكه وقدم هدية كبيرة ، مؤلفة من ١٠٠٠٠ مثقال ذهب . الا ان المنصور رفض العرض وعزل قائد حملته لانه لم يقض على خصمه ، واصدر امره للقائد الجديد محمود باشا بعدم الكف من قتالـــه حتى يستأصل شأفته (٣) . وتمكن هذا الاخير من القضاء على اسحاق الثاني بعد سلسلة من المعارك كان النصر فيها حليفه ، ولكن المقاومة السودانية لم تتوقف بمقتله .

أما النتائج التي اسفر عنها غزو المنصور لبلاد السودان فلعل من أهمها :

(١)- امتداد نفوذه على مساحة واسعة من بلاد السودان . وحسب الفشتالي فان جميع الممالك السودانية الواقعة مابين المحيط غربا وبلاد الهوسة شرقا ، قد انضمت تحت لواء احمد المنصور . وبهذا الامتداد الكبير يكون هذا الاخير قد حقق لنفسه ماكان يطمح اليه من تكوين امبراطورية .

(٢)- سيطرة المغاربة على محاور التجارة المتجهة الى الشمال على الخصوص وتوجيهها نحو المغرب ، وما في ذلك من تخريب للنظام التجاري الذي كان قائما بين بلاد السودان وبلدان شمال افريقيا (٤) . ويمكن النظر لحملته على السودان وتحويله لمحاور التجارة بانها نوع من الحرب الاقتصادية ضد الجزائر التي تحولت عنها محاور التجارة السودانية الى المغرب .

(٣)- اساءة كبيرة لمسلمي السودان ، ذلك ان حملات المنصور قد تسببت في سفك دماء اعداد كبيرة من مسلمي السودان باسلحتها النارية الفتاكة ((مثلوا على الارض هضابا .. كاثروا الحصى واربوا على العدد والاحصى))(٥) . ((وهم يقولون نحن اخوانكم في الدين ، والطمع ذلك الحال يقتلونهم)) (٦) . وفي استعباد اعداد غير قليلة منهم ، وأخذ اموالهم وتطليق عيالهم واولادهم (٧) . ومن الشخصيات الاسلامية السودانية البارزة التي لم تسلم من اذى المنصور وقائد حملته محمود باشا ،

(١) نفسه : ١٢٧ - ١٣٠
(٢) نفسه : ١٤٣
(٣) نفسه : ١٤٨ - ١٤٩
(٤) Groupe de Chorcheurs(Martinat& autres):Hist. du Maroc, Casablanca 1967, P.212.
(٥) الفشتالي : المرجع السابق ص١٢٢
(٦) المجهول : المرجع السابق ص٦
(٧) نفسه : ص٧

الامام العلامة احمد بابا التنبكتي ، فقد القى القبض عليه في محرم ١٠٠٢ / اكتوبر ١٥٩٣ ، وعلى اهل
، وارسلوا مصفدين الى مراكش، حيث اودعوا السجن ، ونهبت اموالهم وذخائرهم وكتبهم ، وحـــاول
سور اصلاح الامر بأن افرج عليه بعد فترة بشرط الاقامة في مراكش ، ولم يعد الى بلاده الا بعد (1)
المنصور ، وقيام ابنه زيدان الذي اذن له بالعودة ، فرجع غير آسف على مغادرة مراكش وبلاد المغرب
تدهور الحياة الثقافية في بلاد السودان ، لما لحق الهيئة والاسر العلمية من اذى ، وما تعرضت
خزائن كتبها من نهب وسلب على نحو ما وقع لاسرة احمد بابا ، فقد قيل عن ابي العباس احمـــد
انه قال : ((انا اقل عشيرتي كتبا ، وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد)) (2) . وربما كانت
تيجة الاهم بالنسبة للمنصور هي : تدفق خيرات بلاد السودان اليه ، من ذهب وعاج وابنوس
موة، وغير ذلك بالاضافة الى العبيد ، مما اغنى المنصور وسمح له بانجاز مشاريعه العمرانيـــة ،
لاستكثار من الجيوش باستعمال العبيـــــد السودانيين في جيوشه البرية والبحرية، والعيش في
هة وفخفخة ، واذا كانت الاحصائيات الاجمالية لما تحصل عليه المنصور من خيرات بلاد الســـودان
لبهيمية والبشرية غير متوفرة، فان ما وصله في بعض الدفعات التي اشير اليها يعطي فكرة عمـــا
ون قد دخل الى خزائنه ودوره ، علما ان جباية السودان كانت تأتيه كل سنة (3) .

ففي سنة [illegible]هـ/ [illegible]م بعث جودر باشا بأول دفعة ، وكانت تتألف من عشرة آلاف مثقال
ئتين من العبيد (4) . وبعث محمود باشا الذي خلفه في القيادة بعد ذلك ١٢٠٠ من العبيـد
اربعين حملا من التبر ، واحمالا كثيرة من العاج ، واربعة سروج من الذهب الخالص ، وكرر مـــن
غالية ... وغير ذلك من ذخائر السودان (5) .

واحضر جودر عند عودته ١٠ آلاف عبد و ١٠ آلاف جارية، كلهن في سن البلوغ ، واربعة افيـال
حمل منها واحد (6) . وحسب الوثائق المعاصرة فان ما كان يدخل الى دار السلطان كل سنة مـن
التبر يقدر بنحو ستين قنطارا (7) . وهذه الكمية الكبيرة تدفع الى التساؤل عما اذا لم يكن جودر
باشا قد استولى فعلا على معادن الذهب ، وهو ما ينفيه بعضهم (8) . علمـــا ان المنصور قد اصدر
وامره الى جودر ((بملاك امر معادن الذهب الثلاثة التي اكتنفتها هذه الممالك ، وامره بالبنـــاء
عليها ، واختطاط الحصون الباثة عليها ، وترتيب الجيوش فيها لحياطتها)) (9) . ومهما يكن الامر فـإن
المنصور قد حصل ونال من تبر السودان ((ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي
في الرواتب الا النظار الصافي ، والدينار الوافي . وكان ببابه كل يوم اربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدنانير
دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلي وشبه ذلك ، ولاجل ذلك لقب بالذهبي ، لفيضان
الذهب في زمانه)) (10) . وقد كان الاقبال شديدا على العملة المغربية من قبل التجار الاوربيين الذين
كانوا يهربونها على الرغم من المراقبة الشديدة التي فرضها المنصور .

---

(1) الافراني : المرجع السابق ص ٩٧–٩٨ ، السلاوي : المرجع السابق ج ٥ ص ١٢٦–١٣١
(2) الافراني : نفس المرجع ص ٩٧ ، السعدي : المرجع السابق ص ١٧٠
(3) المجهول : المرجع السابق ص ٧٠
(4) الفشتالي : المرجع السابق ص ١٤٧ ، المقري احمد : روض الآس العاطرة الانفاس المغرب ١٩٦٤
(5) المجهول : المرجع السابق ص ٧٠ ، الافراني: المرجع السابق ص ٩٧
(6) السعدي : المرجع السابق ص ١٧٨ والزياني : المرجع السابق ص ٣٦٤
(7) انكلترا ج ٢ ص ٨٦
(8) مارتيني وغيره : المرجع السابق ص ٢٢١
(9) الفشتالي : المرجع السابق ص ١٦٥
(10) الافراني : المرجع السابق ص ٩٥

السقوط التدريجي لدولة السعديين
(المرحلة الرابعة من حياة الدولة السعدية: 1012 – 1069 هـ / 1603 – 1659 م)

دخل المغرب بعد موت المنصور في مرحلة جديدة تتميز بـ :

١ – الصراع على السلطة بين ابناء المنصور وأحفاده طوال ستة سنوات بلا هوادة .

٢ – تجدد اطماع القوى الخارجية فيه وتدخلاتها .

٣ – النشاط الحثيث للقوى الدينية الذي نجم عنه :

آ – قيام وحدات سياسية عديدة بزعامة المرابطين والمجاهدين والأشراف .

ب – القضاء التدريجي على الدولة السعدية .

١ – الصراع على السلطة :

ان موت المنصور فجأة بالطاعون كما ذكرنا في أوت ١٦٠٣ قبل ان يبت في امر ولاية العهد ، بعد ان جرد ولي عهده السابق ، واودعه السجن ، كان سببا في انقسام اهل المغرب واختلافهم فيمن هو احق بالخلافة بعده ، فبايع اهل فاس ابنه زيدان باعتبار ان والده استخلفه على فاس التي هي مقر ولي العهد ، وانه من امرأة حرة[1] ، وخالفهم اهل مراكش حيث بايعوا ابنه الآخر أبا فارس عبد الله شقيق محمد الشيخ ، الذي استخلفه والده على مراكش اذ كان تولية الى فاس . ((فكان ذلك سبب افتراق الكلمة والجماعة ، وابتداء المخالفة ، وعدم الطاعة ، وفتح ابواب الفتنة والشرور ، وغلق ابواب الهدنة ، وذهاب السرور ..))[2] ، اذ أن كلا الأخوين تشبث بالملك ، وأبى ان يبايع أخاه ، فانقسم المغرب الى مملكتين : مملكة فاس تحت حكم زيدان ومملكة مراكش تحت حكم ابي فارس . واما رفض هذا الاخير المبايعة لأخيه زيدان ، ورفضه ايضا اقتسام الاموال الكثيرة التي كانت في خزائن مراكش معه ، تحرك زيدان في الايام الاخيرة من عام ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م على رأس جيش فاس نحو مراكش ، وحرك ابو فارس لمواجهته جيش مراكش بقيادة ولده عبد الملك ، ومساعدة جودر باشا ، واخيه محمد الشيخ الذي اطلق سراحه بهذه المناسبة من السجن ، بعد ان اخذ العهود عليه بالاخلاص له ، ووعده بولاية فاس ، واستبقى ولده عبد الله رهينة لديه[3] . واشتعلت نار الحرب الاهلية التي استمرت ستة سنوات تقريبا بلا هوادة ، بمعركة جرت بين المتنافسين على ضفة وادي ام الربيع في ٢٨ رجب ١٠١٢ هـ / فاتح جانفي ١٦٠٤ ، انهزم فيها زيدان ، لصالح جيش ابي محمد الشيخ[4] ، ولاحقه هذا الاخير الى فاس ، فتمكن منها زيدان والتحق بتلمسان لطلب عون الاتراك ،[5] بينما بايع اهل فاس محمدا الشيخ سلطانا[6] . وتمكن ابنه عبد الله في الفرار من معسكر عمه حيث كان رهينة ، فولاه ابوه قيادة حملاته ضد اخويه ابي فارس وزيدان ، واولاها حملة في شعبان ١٠١٥ هـ / ديسمبر ١٦٠٦ م . وفيها نجح في تحقيق النصر على عمه ابي فارس في ٢٠ شعبان ١٠١٥ / ٢١ / ١٢ / ١٦٠٦ ، ودخل على اثر هذا النصر الى مراكش مباحا لجيشه ، واساء السيرة فيها ، وارتكب مجزرة في قادة ابي فارس الذي فر الى جبل مسفيوة ،[7] مما جعل اهل مراكش يبحثون في طلب زيدان لتخليصهم من طغيانه – وكان زيدان

١) الافراني : النزهة ، ص ١٩٢ – ١٩٣ (اسمها عائشة من عرب الشبانات ، اما ام ابي فارس ومحمد الشيخ فهي أمة واسمها الخيزران) .
٢) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ٨٠
٣) انظر تقرير (.O .Ro) الى روبرت كوتينجتون Ro.Cottington ومؤرخ ١٦٠٩ ، في مجلة تطوان عدد ٩ ص ٨٦ ، وحسبه ان ابا فارس امر قائده سرا بالقبض على محمد الشيخ بعد تحقيق النصر
٤) نفسـه : ص ٨٧ . الافراني : النزهة ، ص ١٩٢ المجهول المرجع السابق ص ٨٨
٥) (٦) المجهول نفس المرجع ص ٨٢ ، ٨٤
٧) راجع المرجع السابق ص ٩٩ – ١٠١ والافراني : النزهة ص ١٩٣

د عاد من تلمسان بعد بضعة اشهر من الاقامة فيها ، على رأس فرقة من الفرسان انتزع بها
سجلماسة من حكم اخيه ابي فارس ، ودخل الى السوس واستقر في تارودانت بعد ان توسط في
الصلح بينه وبين اخيه المذكور المرابط ابو محمد عبد الله بن المبارك[1] ، ومنها زحف الى مراكش
تلبية لنداء اهلها وتمكن في ٢٧ ذي القعدة ١٠١٥هـ / ٢٥/ ٤/ ١٦٠٧م من الانتصار على
عبد الله ، الذي فر الى فاس بعدد قليل ، وأمر بقتل من بقي من الفاسيين في مراكش وعددهم
(٣٠٠٠)[2] ، ثم وجه حملة الى فاس بقيادة مصطفى باشا ، ولكن حملة محمد الشيخ المضادة —
بقيادة ولده عبد الله تمكنت من تحقيق نصر كبير على جيش مراكش ، ومن قتل (٩٠٠٠) منه في معركة
ميقلفلت قرب مكناسة في جمادى الثانية ١٠١٦هـ / ١٦٠٧م[3] ، وتقدم عبد الله الى مراكش واحرز نصرا
آخر على زيدان في شعبان ١٠١٦هـ / ٢٦/ ١١/ ١٦٠٧ ودخل الى المدينة ، وعاث فيها اكثر
من المرة الاولى[4] ، الا ان المراكشيين الذين فروا الى جبل كليز المطل على مراكش مولاي احمد
المسعدي[5] ، وزحفوا معه الى هذه الاخيرة ، وفشل عبد الله في صد حملتهم عليها ، ٥ شوال ١٠١٦هـ
/ ٢٣/ ١/ ١٦٠٨ ففر الى فاس[6] ، ولكن حكم احمد ومن بقي من الفاسيين في مراكش اغضب اهل
مراكش ، وبعثوا ثانية في طلب زيدان ، الذي تمكن من الانتصار على احمد المذكور في اوائل شوال
١٠١٦هـ / ابريل ١٦٠٨ ودخل الى مراكش[7] ، وانه حملة تحرك على رأسها الى فاس وتمكن
في تحقيق النصر على الحملة المضادة بقيادة عبد الله في معركة بوقراق ٢٧ شوال ١٠١٧هـ/ ٣/ ٢/
١٦٠٩م ، ودخل على اثرها الى فاس التي فر منها محمد الشيخ الى بلدة القصر الكبير ، ومنها الى
العرائش حين لاحقه جيش زيدان ، وابحر من هذه الاخيرة في ٢٧ ذي القعدة ١٠١٧هـ/ ٤/ ٣/
١٦٠٩م الى البرتغال فاسبانيا لطلب العون من فيليب الثالث ، بينما فر ابنه عبد الله وعمه ابو فارس[8]
الى دار ابن مشعل في جبل بني يزناسن في الحدود الغربية للجزائر[9] .

ولكن وحدة المغرب تحت سلطة زيدان لم تستمر طويلا اذ ما كاد يعود الى مراكش حتى هاجم
عبد الله وعمه ، على رأس قبائل شرق المغرب ، مصطفى باشا خليفته في فاس في ٧ ربيع الثاني ١٠١٨هـ
/ ١٠/ ٧/ ١٦٠٩م ، وتمكنا من هزمه وقتله ، والدخول الى فاس[10] ، ثم ما لبث عبد الله ان قضى على
عمه ليخلو له المجال في جمادى الاولى ١٠١٨هـ / اوت ١٦٠٩م ، ويدعو لنفسه . وتحرك زيدان
مرة اخرى لاسترداد فاس وتمكن بمشقة كبيرة من استعادة نفوذه عليها لفترة قصيرة (جمادى
الاولى الى رجب ١٠١٩هـ/ اوت — سبتمبر ١٦١٠م) اذ استطاع عبد الله ان يستردها منه بعد
ان هزمه هزيمة ساحقة في ١١ رجب ١٠١٩هـ / ٢٩/ ٩/ ١٦١٠م ، وعاد زيدان الى مراكش ، وقرر عدم
التدخل مرة اخرى في فاس[11] ، فظل امرها لعبد الله ، كما خلص امر مراكش له ، فبدأت الحرب

ابو زيد عبد الرحمن التامنارتي / الفوائد الجمة ، ترجمة : وستيهار ، فرنسا ١٩٥٣ ص ٧٩ ، وعبد الرحمن
الاحداث ، ص و ... المؤرخ السابق ص ١١٢ ، والافراني ، النزهة ص ٢٢٢
( ) و ... المؤرخ السابق ص ١٠٢ — ١٠٥ ، الافراني ، النزهة ص ١٩٣ ، المجهول المؤرخ السابق
ص ٨٦ — ٨٨
( ) و ... نفس المصدر ص ١٠٥ ، الافراني ، نفس ص ١٩٤
( ) و ... نفسه ص ١٠٦ — ١١٠ ، الافراني نفسه ص ١٩٤
( ) و ... المصدر السابق ص ١١١ ، وعنده هو ابن عم لزيدان وحسب الافراني ، النزهة ص ١٩٥ اسمه
محمد بن عبد المومن ، وذكره زيدان في رسالته الى ... احمد الشريف ، انظر النزهة ص ٢٢٢
نفس المصدر السابق ص ١١١ — ١١٢ ، الافراني ، النزهة ص ١٩٥ .
( ) و ... ص ١١٤ ، الافراني نفسه ص ١٩٥ .
( ) ... انضم الى اخيه محمد الشيخ بعد ان اشتد زيدان في البحث في السوس حيث كان ملتجئا بعد الاطاحة به
في ديسمبر ١٦٠٦ . (٩) — انظر عن فراره محمد الشيخ وابنه وابي فارس النزهة ، الافراني ص ١٩٦
( ) الافراني نفس المصدر ص ١٩٦ — ١٩٧ ، والمجهول المؤرخ السابق ص ٩٢ .
( ) المجهول ، المؤرخ السابق ، ص ٩٢

المنصور الكبير ، ومات زيدان وعبدالله بدون قوة
... لعنت ارحامها خلقا كثيرا ، وافنت جيش المنصور الكبير ، ومات زيدان وعبدالله بدون قوة
... ون شعبية ايضا ، بعد سلسلة المعارك التي اشرنا اليها واصبحا عاجزين عن اخضاع الثائرين
متمردين عليهما ، وعن الوقوف في وجه الاطماع الخارجيـــة •

٢ـ تجدد اطماع القوى الخارجية في المغرب :

اتاح تنافس ابناء المنصور ، وصراعهم على السلطة سنين عديدة ، فرصة ثمينة للقوى الخارجية
... مجاورة للمغرب وغيرالمجاورة لكي تتدخل ، او تستعد للتدخل ، لتحقيق اطماعها القديمة فيه •
... اذا كان الاتراك لم يغتنموا هذه الفرصة للتدخل المباشر في المغرب لضمه ، لظروفهم الخاصة
... مترديه في الجزائر وانتهاء الامبراطورية فيما يبدو ، فان الاسبان تدخلوا في شهر جمادى الاولى
... ١٠١٧هـ / اوت ١٦٠٨م وحاولوا احتلال العرائش التي كانت دوما نصب اعينهم كما كانت من قبل
... نصب اعين البرتغاليين ، ولكن حملتهم باءت بالفشل[1] ، غير ان فيليب الثالث لم يتخل عن اطماعه
... في العرائش ذات الميناء الممتاز • فلما التجأ اليه محمد الشيخ ، وطلب مساعدته لاسترجاع الملك
... من فاس من اخيه زيدان اشترط عليه مقابل مساعدته ان يسلمه العرائش[2] ، فوافق وقدم الرهائن
... من اولاده واولاد قادته ، فاعيد الى بادس في ٦ ذي القعدة ١٠١٨هـ / ٢٠/ ٢/ ١٦١٠م • ورغم
... ان ابنه عبدالله قد تمكن في هذه الاثناء من استرداد فاس في / ٧ ربيع الثاني ١٠١٨هـ / ١٠/ ٧/
... ١٦٠٩م كما ذكرنا ، فان محمدا الشيخ وفى بالتزامه ، واستصدر فتوى من بعض علماء فاس الخائفين
... من بطشه بجواز تسليم ارض اسلامية في مقابل افتداء الخليفة لابنائه الرهائن[3] ، وسلم العرائش
للاسبان في / ٤ رمضان ١٠١٩هـ/ ٢٠/ ١١/ ١٦١٠م بعد ان اخلاها من سكانها بواسطة قائده
النبرنسي ، وقتل من رفض الجلاء منهم[4] •

وفي جمادى الثانية ١٠٢٢هـ / ٦/ ٨/ ١٦١٤م اقدم الاسبان على احتلال موقع آخر على
المحيط عند مصب نهر سبو كان قد اهمله ابناء المنصور في غمرة حروبهم ، فاتخذه القراصنة
الأوروبيون من انكلترا وغيرها ، وكرا لهم يسمى بالمعمورة (المهدية حاليا) •

ولم يتحرك عبدالله من فاس ، او زيدان من مراكش للدفاع عنه او لاسترداده من الاسبان[5].

وقد كان للهولنديين اطماعهم في المعمورة ، ورغم اسطولهم في ١٠٢٣هـ / ١٦١٤م بغرض
احتلاله بموافقة زيدان فيما يبدو ، ولكن الاسبان سبقوهم بقليل الى ذلك[6]. وكان الانكليز يرسمون
امكانية احتلال بعض المواقع الهامة على المحيط والمضيق ، كالمعمورة وسلا ، وانتزاع سبتة من
الاسبان • وقد رفعت في هذا الشأن عدة تقارير تشجع على احتلال المواقع المذكورة[7]
ولكن السلطات العليا الانكليزية لم تقدم على ذلك في الفترة موضوع البحث •

---

(١) ... المرجع السابق ص ١١٥ ; Gozalbes (G. M.) : La remise de l'Arache aux Espagnoles en 1610, t.7, P.72.

(٢) ... النزهة ، ص١٩٧ ، اما المساعدة فكانت تتمثل في مئتي الف دوكات وستة آلاف بندقية • واما المساعدة البشرية فتتمثل في الاندلسيين الذين شرق في نفيهم ، انظر ايضا : ابن تاويت من زوايا التاريخ المغربي ، في مجلة تطوان عدد ٩ ص١١٨ ، وامينة اللوه ، قضية العرائش في البحث العلمي عدد ٢٧ الرباط ١٩٧٧ •

(٣) الافراني ، النزهة ص١٩٨ ـ ١٩٩ ، والسلاوي ، الاستقصاء ج٦ ص٢٠ ـ ٢٢ ، وامينة اللوه المرجع السابق ص ٩٢ ـ ٩٣ ، العرجع المرجع السابق

(٤) الافراني ، نفس المرجع ص١٩٧ ـ ١٩٨ ، امينة اللوه المرجع السابق ١١٧ ـ ١١٨ المسابق ص ٧٩ ـ ٨٦ •

(٥) (٦) ابن تاويت المرجع السابق ١٢٢ • امينة اللوه المرجع السابق

(٧) تقرير هاريسون لعام ١٦٢٥ في مجلة تطوان عدد ١٠ المغرب ١٩٦٥ •

٣ ـ تجدد نشاط القوى الدينيـــة وتأسيسها للامارات المستقلة :

ان القوى الدينية ممثلة في المرابطين والاشراف والقائمين على الجهاد ، الذيــن أرغم المنصور قبضته عليهم عن طريق استمالة بعضهم بالمال والاحسان ، والبطش بآخريـــن ، قد نشطوا بعد وفاته نشاطا كبيرا ، واتخذوا من تمزق ابنائه ، واحقاده على السلطة ، ولا سيما بعد تسليم العرائش للاسبان الذى أثار استياء واستنكارا شديدين لدى عامة المغاربة ، ومـن تقاعسهم واهمالهم الدفاع عن المعمورة بعد العرائش ، ومن سوء سلوك معظمهم ، الاخلاقـي والادارى ، ذريعة للعمل على الاطاحة بحكم الاسرة السعدية في مراكش وفاس ، وتأسيس نفوذ اقليمي لهم في مختلف جهات المغرب . وقد تمكن بعضهم فعلا من تأسيس امارات كان عمر بعضها اطول من عمر بعضها الآخر . ومن ابرز هؤلاء المرابطين والمجاهدين والاشراف المؤسسين للامارات نذكر :

في الجنوب المغربي : امارات ابي محلي ، وأبي زكريا يحيى الحاحي ، وابي حسون السملالي ، واشراف تافيلالت ((العلويين)) .

وفي وسط المغرب وشماله : امارات المجاهد العياشي وجمهورية الاندلسيين في الرباط وسـلا ، وآل النقسيس في تطوان والدلائيين . ولما كان للامارات المشار اليها اهميتها فـي العلاقات بين المغرب والجزائر فلامناص من التعريف بها ولو بشكل موجـز :

أ ـ امارة ابي محلي (١٦١٠ ـ ١٦١٣) :

انتهز المرابط ابو العباس احمد بن عبد الله المعروف بابي محلي [1] موجة السخط والاستياء التي أثارها تسليم العرائش للاسبان من قبل محمد الشيخ السعدى ، فقام في اقصى الجنـوب الشرقي للمغرب [2] ودعا الى الجهاد ضد الاسبان ، والى الاطاحة بحكم ابناء المنصور الذيـن تخاذلوا في الجهاد حتى فتن الناس بهم ، وباعوا العرائش للاسبان ، وادعى انه المهدى المنتظر الذى سيخلص البلاد من جور ابناء المنصور وفسادهم [3] وتحرك على رأس اتباعه مستجيبين لدعوته ، وقصده التوجه الى العرائش [4] لطرد الاسبان منها ، ومن مراكزهم الاخرى على شواطئ المغرب ، وفتح الاندلس للمسلمين من جديـد [5].

وقبل كل ذلك ، آثر ان يبدأ بالقضاء على حكم السعديين في الجنوب ليتقوى بملكهم علـى الجهاد ، فزحف اولا الى سجلماسة ، فملكها بعد ان هزم عامل زيدان فيها ، واجبره على الفرار واظهر العدل فيها ، وغير المناكر ، وجاءته الوفود المهنئة من كل الجهات بما في ذلك الجزائـر .

الافراني : النزهة : ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ، والحسن الحوسي : كتاب المحاضرات فاس ١٣١٧ / ص ٩٠ ان من قالته من احدى قرى بني عباس في وادى الساورة في الجنوب الغربي الجزائرى . انظـر العياشي : ماء الموائد ، جزء اول ص ٢٩ .

الافراني : النزهة : ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

المجهول : المرجع السابق ص ١٠١ .

انظر رسالة (R.S.) المؤرخة بـ ٩ / ٩ / ١٦١٢ في مجلة تطوان عدد ٩ ص ١٣١ .

مما يدل على ان حركته كانت تلقى تأييدا في داخل المغرب وخارجه . ثم ملك درعه في اعقاب انتصاره على حملة كبيرة وجهها ضده زيدان (1). وتقدم بعد ذلك الى مراكش وهو في اثارانهما زيدان في ٩ ربيع الاول ١٠٢١ هـ / ١٠/ ٥/ ١٦١٢ م ، واحتلها ، ودخل قصر البديع ، وافسر بذخائر الملك . ودعا لنفسه ، وقام بالامر ، وسكن البلاد . ثم ما لبث ان تعقب زيدان الى آسفي ففر هذا الاخير منها الى اكادير ، ومنها الى تارودانت .

وفي آسفي ابدى ابو محلي لبعض التجار الانكليز رغبته في اقامة علاقات ودية وتجارية مع انكلترا ومع هولندة (المعسكر البروتستانتي) وتحسين وضعيتهم في المغرب ، ولا شك ان ذلك كان ابعد منه على السلاح الذي يحتاج اليه في تحقيق طموحاته في القضاء على الاسرة السعدية ثم تحرير المراكز المحتلة ، واسترجاع الاندلس ، وغزو فرنسا وايطاليا (المعسكر الكاثوليكي) .

الا ان ابا محلي لم ينعم طويلا بالملك والاستقرار حتى يتمكن من تحقيق رغباته . ذلك ان الصراع مع زيدان لم يتوقف ، ونجح هذا الاخير في اثارة المرابط الشهير ابي زكريا (الاتي ذكره) ضده ، فتقدم ابو زكريا على رأس جموع كثيرة للقضاء على ابي محلي الذي بات نفوذه المتزايد في المغرب يشكل تهديدا خطيرا لنفوذه . وتمكن من القضاء عليه في اول صدام معه في ظاهر قرب مراكش في رمضان ١٠٢٢ هـ / اكتوبر ١٦١٣ م ، ودخل بعد الى مراكش ، وبذلك قضى على إمارة ابي محلي التي لم تعمر طويلا . وعاد زيدان الى قاعدة ملكه بعد انسحاب ابي زكريا منها .

ب ـ امارة ابي زكريا يحيى (2)

كان ابو زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الداودي الحاحي فقيها مشاركا في الفنون المختلفة ، من بيت علم ودين ذا شهرة عظيمة بالصلاح في بلاد السوس ، واتباع كثيرين تأتيه الوفود من مختلف انحاء المغرب كوالده مؤسس الزاوية (3) لم يلبث بعد عودته من مراكش ان دعا الى الملك ومع الكلمة بعد ان لاحظ افتراقها في حواضر المغرب وبواديه ، بل انه تردد في الانسحاب من مراكش وهم ان يحتفظ بها لنفسه ويتخذها دار قرار لملكه ، ولا سيما ان اهل مراكش عرضوا عليه ان يبايعوه (4) ، مما جعل زيدان يكتب قائلا : ((ان كنت انما جئت لنصرتي وتأييد ذلك الثائر علي فقد ابلغت المراد وشفيت الفؤاد ، وان كنت رمت ان تجر النار لقرصتك ، وتجعل الملك من قنصك فأمر الله عينك به ..)) (5) فاظهر حينئذ التعفف ، ولعله كان يريد ذلك لما رأى ان جموعه قد رجعت الى بلادها ولم يبق معه من قومه الا شرذمة قليلة فرحلوا فبقيا نهما كريمة ، ورجع هو الاخر الى بلاده ، فدخلها حينئذ زيدان ، واشترط على هذا الاخير ان يلتزم الاستقامة في ملكه (6) ، تاركا المجال مفتوحا امامه للتدخل في شؤونه . الا انه لم يلبث بعد عودته الى السوس ان تعرض لاحتلال تارودانت ، وكانت بيد ابي حسون الاتي ذكره ، وتمكن من احتلالها بعد حروب كثيرة ، واتخذها قاعدة لامارته بعد ان فشل في غزو مراكش ، بدعوى ان زيدان لم يحسن

(1) انظر عن صراع ابي محلي مع زيدان ، وعن كتاباته : رسالة : رءوس المنشورة في المرجع السابق ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، ١٣٣ ، الافراني : النزهة ص ٢٠٠ ـ ٢٠٦ ، المنبهوني المرجع السابق ص ١٠٩ ـ ٢١٢ .

(2) انظر عنه : التامنارتي المرجع السابق ص ٦٦ ـ ٦٧ ، الافراني : الفوائد ص ٢٠٩ ـ ٢١٢ .

(3) زاوية تانيالت بزداغة (شمال تارودانت . انظر عن عبد الله ابن سعيد : دوحة الناشر ص ٧٦ والتامنارتي المرجع السابق ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(4) الافراني : النزهة ص ٢٠٣

(5) نفسه ص ٢٠٩

(6) نفسه ص ٢١٤ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٥

(7) نفسه ص ٢١٢

له بما اشتراه عليه [1] كما اتخذها منطلقا لتوسيع امارته في السوس ، فكان في صراع مع زيدان من جهة وبين ابي حسون من جهة اخرى ، مما انقذ الطرفين من خطر حقيقي •

وقد تمكن ابو زكريا من ازعاج زيدان في مراكش مرارا [2] ، ولكن محاربته على جبهتين كان يسمح لزيدان باسترجاع حاضرته ، وان لم يستقر له امرها الا بعد وفاة ابي زكريا في ١٠٣٥ هـ ١٦٢٦ م [3] ، اذ لم يكن ابناء هذا الاخير في مستواه مما مكن ابا حسون من القضاء على امارتهم •

جـ - امارة ابي حسون السملالي :

انتهز حفدة المرابط الشهير احمد بن موسى الجزولي [4] ، واشهرهم على الاطلاق ابو الحسن علي بن محمد بن موسى المعروف بأبي حسون ، او بودميعة [5] ، فرصة تنافس ابناء المنصور على السلطة ، والسند الذي اكتسبته سليم محمد الشيخ المرابطي للاسبان ، فقاموا في السوس الاقصى واسسوا امارة مستقلة في تازروالت [6] ، مقر زاوية جدهم • وذلك في حدود سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م كان اول امرائها ابراهيم بن محمد بن احمد بن موسى (١٠٢٠ - ١٠٢٢ هـ / ١٦١١ - ١٦١٣ م [7] ، وتلاه ابو الحسن علي (١٠٢٢ - ١٠٧٠ هـ / ١٦١٣ - ١٦٥٩ م) وقد جد في توسيع امارتهم في السوس الاقصى والادنى ، وجنوب المغرب عموما ، فاصبحت تمتد الى وادي نون جنوبا ، والى تارودانت واعمالها في الشمال • ولكنهم مالبثوا ان اصطدموا بالمرابط ابي زكريا الآنف الذكر ، الذي كان يسعى هو الآخر الى بسط نفوذه على السوس والجنوب المغربي ، ووقعت بين الطرفين وقائع كثيرة ، قتل في احداها ابراهيم المذكور [8] ، ولم يخلص امر السوس لأبي حسون الذي خلفه الا بعد موت هذا الاخير في التاريخ المذكور (١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦ م) •

ولما توفي زيدان في حوالي ١٠٣٧ هـ / سبتمبر ١٦٢٧ م مد ابو حسون نفوذه الى درعة وسجلماسة [9] ، فسيطر بذلك على كل الجنوب المغربي ، وكل المراكز التجارية فيه ، باستثناء مراكش واعمالها ، كما سيطر على الدائرة التجارية بين المغرب وبلاد السودان ، وغدت امارته اهم امارات المغرب •

وقد اتخذ ابو حسون من بلدة ايلغ التي اختطها في اقصى السوس قاعدة له ، ونجح في توفير الامن والاستقرار في امارته ، فازدهرت التجارة الداخلية والخارجية فيها ، في الوقت الذي تدهورت في الجهات الاخرى ، وقصده التجار الاوروبيون ، وتسابقت دولهم تنشد صداقته وربط العلاقات ، وعقد الاتفاقيات التجارية معه ، ومنها : هولندة ، وانكلترا [10] ، مما زاد في تدعيم مركزه • الا ان نفوذ ابي حسون اخذ في التقلص ابتداء من ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م وهي السنة التي انتزع منها الشريف محمد بن الشريف الآتي ذكره سجلماسة ثم درعة بعد محاربة عنيفة (١١) فانحسر نفوذه ، ولم يعد يتجاوز عند وفاته في سنة ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م بلاد السوس • ولم يلبث ان غزا الرشيد

(1) ما اشتراه عليه اضافة الى الاستقامة في العلاقة ، ابعاد المورسكيين وادائه ، وآخرين ، وولد انطالذ يحسن كان يحاربهم بحجة اللواط • انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٦٧ ، مذكرة هريسون : لعام ١٦٣١ في المرجع السابق ص ١٠٧ •
(2) نفسه : ص ١٠٧ ، والافراني : النزهة ص ٢١٢
(3) انظر عنه ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٢ (5) الافراني : النزهة ص ٢٨٦
(6) انظر عن هذه الامارة : Justinard: Un petit royaume Berbère, le TAZEROUALT. Paris 1954.
(8) نفسه ص ٤٤ - ٤٦ (9) الافراني : النزهة ص ٢٨٦
(10) شوقي عطا الله : العلاقات الانكليزية المغربية في النصف الثاني من القرن / ١٦ / والنصف الاول من القرن / ١٧ / في المناهل عدد ٤ الرباط ١٩٧٥ ص ١٢٢ (11) الافراني : النزهة ص ٢٨٦ .

...محمد بن الشريف ، ايلي وضربها في ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م ، وقضى على الامارة فيها .[1]

د ـ المجاهد العياشي :

كانت الجهود الاولى للفقيه المجاهد ابي عبدالله محمد بن احمد المالكي الزياني المعروف ...ياشي[2] ، موجهة لمحاربة الوجود البرتغالي في ساحل دكالا ، وليس للاطاحة بحكم السعديين . ...ك فان زيدان اسند اليه منذ ان ظهرت بطولاته قيادة آزمور وعمالتها[3]. ولكن العلاقة ... الطرفين مالبثت ان تدهورت للشكوك التي ساورت زيدان في امره ، ولاسيما بعد ان تزايدت ...بيته كثيرا . وقد غذى البرتغاليون هذه الشكوك لديه حتى يتخلصوا منه[4]. فبعث زيدان ...ة للقضاء عليه ، ولكن قائدها محمدا السنوسي اشعر العياشي بمهمته ، ففر هذا الاخير الى ...سلا (١٠٢٣ / ١٦١٤م) . وهناك التف حوله الاندلسيون ، ولم يتمكن الزعروري قائدها ...تمكن زيدان ، من القضاء عليه ، كما امره وصاه الاخير . وما لبث المغاربة والاندلسيون ...ا ان بايعوه ، كما بايعه ايضا سكان المدن من تامسنا غربا الى تازه شرقا[5] وخضعت له ...وان[6] واقاليم شمال المغرب .

وقد تمكن العياشي من احراز انتصارات عديدة على الاسبان في مراكزهم المحتلة ، وزرع ...عب في قلوبهم ، بحيث لم يعودوا يجرؤون على الخروج من حصونهم ، كما تعودوا من قبل[7].

...جهت العياشي صعوبات متعددة منها :

...ضب القبائل العربية في مجال نفوذه ، مما كان يضطره الى الاشتغال بقمعها .

...حركة السعديين لجهوده باثارة بعض الفقهاء ضده ، اشتطاطوا ان الجهاد لا يجوز الا مع الامام ...او باذنه ، ولكن علماء بارزين كسيدي العربي الفاسي ، وعبد الواحد بن عاشر وغيرهما ، نددوا ...عمهم فجاءت محاولة زيدان ومن تاله بالفشل[8]

...ميل الاندلسيين في سلا والرباط عنه ، وتعاملهم مع الاسبان مما جعله يحكم السيف فيهم ...ايام بعد ان استصدر فتوى تجيز له قتلهم ، لتعاملهم وتعاونهم مع العدو ، وامدادهم له ...بالطعام والسلاح ، وتحكمهم في البيع والشراء على الناس ، واحتكارهم ذلك لانفسهم[9].

...تنكر الدلائيين الاتي ذكرهم له في اعقاب تدهور علاقاته مع الاندلسيين ، حيث تبنوا قضية ...ين التجأوا اليهم ، واستنجدوا بهم ، وتعاونوا مع خصومه من زعماء القبائل العربية ، مما جعله ...ن على مضض في حرب معهم . وفي اعقاب انهزامه في المعركة الثالثة لجأ الى عرب الخلط ، ...ربه غيلة وقتلوه في ١٠ محرم ١٠٥١هـ/ ٢١/٤/١٦٤١م[10] وبذلك حققوا ماعجز الاسبان ...برتغاليون عن تحقيقه طوال اكثر من ثلث قرن ، قضاها في الجهاد ضدهم .

ولما كان العياشي صاحب النفوذ في الشواطيء الشمالية والغربية للمغرب فقد سعى الانجليز ...الارتباط معه بمعاهدة صداقة وتعاون ، وتجارة تضمن لرعاياهم الامان ، والتجارة في الموانيء

---

(1) ...فراني : المرجع السابق ص ٣٠٢
(2) ...نفسه : ص ٢٦٠ (٣) (٤) (٥) نفسه ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥
(6) ...محمد داود : تاريخ تطوان ج ١ ص ٢٢٢ .
(7) ...انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٥٤ والافراني : النزهة ص ٢٦٦ ـ ٢٦٩
(8) (9) (10) الافراني : نفس المرجع ص ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ـ ٢٧١

...غربية ، الخاضعة لنفوذه ، ورحب هو بهذا المسعى ، فعقد معهم اتفاقية اولى في ٢٤ (١)
...عبان ١٠٣٦ هـ / ١٠/ ٥/ ١٦٢٧ م ، واخرى في ١٠ ذي الحجة ١٠٤٦ هـ / ٥/ ٥/ ١٦٣٧ م
...ل المعاهدة الثانية ، كان يحصل على ما يحتاج اليه من بارود ومعدات حربية اخرى (٢).
...رى علاقاته مع اتراك الجزائر في بحث العلاقات السياسية .

<u>هـ - اندلسيو سلا والرباط :</u>

كانت سلا والرباط ، من المدن المغربية الساحلية التي استوطنها المهاجرون الاندلسيون
...رة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، وبعد فشل ثورة ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م ،
...ستقبلتا افواجا جديدة ، كما استقبلتا افواجا اخرى في اوائل القرن الحادي عشر الهجري السابع
...عشر الميلادي .

وقد كان اندلسيو سلا والرباط موالين في بادىء الامر لزيدان ، حيث كانوا يعدونه يجندون
...م عند الحاجة ، ثم راموا خلع طاعته ، والاستقلال عنه ، فبدأوا بالامتناع عن مطاردة قائده
...زروري في القبض على العياشي او اغتياله ، كما كان يريد زيدان ، ثم رفضوا ارسال مزيد من
...مجندين منهم له (٣) فتدهورت العلاقات بين الطرفين ثم آلت الى القطيعة ، حين عقدوا
...فاقية مع الانكليز عن طريق سفيرهم هاريسون ، اطلقوا بموجبها سراح الاسرى الانكليز ، بما في
...لك بعض الاطفال كانوا بين ايديهم ، في مقابل المدافع التي زودهم بها هاريسون (٥) في اوائل سنة
١٦٢٧ م (٤) وحين اقدموا كذلك على طرد قائد زيدان الزروري من الرباط ، وتشكيل حكومة
...اندلسية مستقلة فيهـ (٦) متعاونة مع العياشي .

وكان رد فعل زيدان العمل على اثارة المغاربة عليهم فأشاع انهم يتآمرون مع الانكليز بنية
...سليم الرباط لهؤلاء ، والارتداد الى المسيحية ، وانهم يريدون لهذا الغرض وذلك ان يتزعم
...الاندلسيين في سلا (٧) . بحيث اخذ المغاربة ينظرون اليهم على انهم في داخليتهم هم
...مسيحيون وليسوا مسلمين (٨) . وقام بالقاء القبض على رؤساء الاندلسيين في مراكش وتفريق شمل
...رين (٩) ، وكلف قائده المدعو ((حويهب)) بتدبير امر مداهمة الاندلسيين في قصبة
...سلا من المغاربة هناك . ولكن الاندلسيين ثاروا على هذا القائد وقتلوه (١٠) وتوفي زيدان
...في سبتمبر ١٦٢٧ م دون ان يتمكن من استرداد نفوذه على سلا ورباطها . ولكن الاندلسيين
...بهما ، لم ينعموا بالهدوء والاستقرار والاستقلال . فالعلاقة الطيبة التي كانت تربطهم بالمجاهد
...العياشي ما لبثت ان تدهورت كما سلف القول ، للاسباب التي تقدم ذكرها ، وتعرضوا الى امتحان
...عسير . وانتهز محمد الحاج الدلائي الآتي ذكره ، الذي تبنى قضيتهم وحمى بعضهم ، فرصة رفض
...العياشي لشفاعته فيهم ، ليدخل في نزاع معه ، انتهى بمقتل العياشي ، وسيطرة محمد الحاج على
...سلا ، واخضاع الاندلسيين لنفوذه . وهكذا استبدل هؤلاء سيدا بسيد ، وظل الامر كذلك الى ان
...قاموا بثورة على السيد الجديد في ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م انتهت باسقاط نفوذه عليهم . (١١) .

(١) شوقي عطا الله الجمل ، المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٧٦ .
...افراني ، النزهة ص ٢٦٤ . (٤) (٥) انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٤٩ - ٦٠ ، ٤٤
...ر تقرير هاريسون لعام ١٦٣١ في المرجع السابق ص ١١٠
...(٨) (٩) انظر تقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٥٠ - ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢
...نفسه ص ٤٨ وفيه ان الذين قتلوه هم الاعراب ، وانظر النزهة للافراني ص ٢٦٥
...محمد حجي ، الزاوية الدلائية الرباط ١٩٦٤ ص ٢٢٤ .

و - امارة مرابطي الدلاء :

كان الدلائيون[1] لا يتدخلون في السياسة ، ولا يهتمون الا بالناحيتين الدينية والعلمية في عهد ابي بكر[2] ، مؤسس زاويتهم في مقاطعة تادلا . بوسط المغرب في النصف الثاني من القرن ١٠هـ / ١٦م وكذلك في عهد ولده محمد[3] ١٠٢١-١٠٤٦هـ / ١٦١٢-١٦٣٦م ولما آل امر الزاوية الى حفيده محمد الحاج بن محمد بن ابي بكر ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٦م ، اتجه الى تأسيس نفوذ اقليمي ، وخلع طاعة محمد الشيخ بن زيدان[4] ، واسس جيشا من بربر الاطلس المتوسط تمكن بفضله من الحاق الهزيمة بالسلطان السعدي المذكور في بوعقبة على ضفاف وادي العبيد ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م[5] ، ثم تبنى قضية الاندلسيين كما تقدمت الاشارة ، ودخل في النزاع مع المجاهد العياشي الذي انتهى بمقتله في ٢١/ ٤/ ١٦٤١ ، وخضع كل شمال المغرب وغربه للدلائيين بما في ذلك مدن فاس ، ومكناسة ، وسلا ، وتطوان ، وتازه ، وقتل عبد الله بن محمد العياشي في الثار لأبيه ١٠٥٢هـ / ١٦٤٢م[6] ، وتطلع محمد الحاج بعد ان امتد نفوذه شمالا وشرقا وغربا ، الى مد نفوذه الى سجلماسة ونواحيها فاصطدم بالشريف العلوي محمد بن الشريف الاتي ذكره في واقعة القاعة في ١٠٥٦هـ / ١٦٤٦م ودخل سجلماسة . وكان بامكانه ان يقضي على اشراف سجلماسة العلويين ، كما كان من قبل بامكانه ان يقضي على الاشراف السعديين بعد انهزامهم امامه ، ولكنه لم يفعل ، حبا في آل البيت فيما يبدو ، واكتفى بتحديد مناطق النفوذ بينه وبين الاشراف العلويين[7] .

وامام سيادة محمد الحاج على موانئ شمال المغرب وغربه ، سعت الدول الاوربية الغربية وفي مقدمتها هولندة وفرنسا الى عقد معاهدات صداقة وسلم ، واتفاقيات تجارية معه ، وارسلت قناصلها الى سلا وتطاون ، ورحب الدلائيون بمبعوثيهم ، وابرموا مع الدول المذكورة معاهدات ، واتفاقيات نذكر منها : اتفاقية مع فرنسا ابرمها معهم القنصل أ . برات والاتفاقية التي ابرمها معهم ناتانيال لوك .Nathaniel L القنصل انكلترا في تطاون ١٦٥٧ والمعاهدة الاولى التي عقدت بينهم وبين هولندة في ١٠٦١هـ / ١٦٥١م ، والثانية في ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٨م ، ولكن استفحال الغزو والقرصنة في هذه الفترة كان كثيرا ما يتسبب في تدهور العلاقات وتوترها بين الدلائيين والدول الاوربية[8] .

وقبل ان يدب الضعف الى الدلائيين في العقد السادس من القرن ١١هـ / ١٧م ، قاموا بمحاولة لتحرير المعمورة في ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م لكنها فشلت[9] ، ونجحوا في استرداد فاس من محمد بن الشريف الذي احتلها بالتواطؤ مع اهلها في ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م[10] ولكن فشلهم

---

1) انظر ، حجي ، الحركة الفكرية ... المرجع السابق ص ٢٦-٢٩ ، ينتسب الدلائيون الى قبيلة مجاط البربرية الصنهاجية/ كانت مواطنهم في الدلاء بالجنوب الغربي للاطلس المتوسط.
2) انظر عنه الافراني ، النزهة ص ٢٧٦ ، حجي ، نفسه ص ٤٢
3) الافراني ، نفس المرجع ص ٢٧٦-٢٧٩ ، حجي ، نفسه ، ص ٧٦
4) انظر رسالة محمد الشيخ الى الدلائيين وجوابهم عنها في النزهة ص ٢٤٦-٢٥٤ والسلاوي الاستقصا ج ٦ ص ٩٩-١٠٢
5) الافراني ، النزهة ، ص ٢٥٤ ، حجي نفس المرجع السابق ص ١٥٤ .
6) السلاوي / الاستقصا ج ٦ ص ٩٤-٩٥
7) نفسه ج ٧ ص ١٦-١٧ ، الافراني ، النزهة ص ٢٨١
8) انظر العلاقات الدلائية مع اوربا ، حجي ، المرجع السابق ص ١٧٩ - وما يليها ، وشوقي عطاالله الجمل ، المرجع السابق ص ١٨٦
9) حجي ، نفس المرجع ص ١٥٩-١٦٢
10) الافراني ، النزهة ص ٢٨٢-٢٨٤ ، السلاوي الاستقصا ج ٧ ص ١٩

ي وقف توسع الخضر غيلان ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م في شمال المغرب ، وهو واحد من اتباع المجاهد العياشي البارزين ، ثم فشلهم امامه في ١٦٦٠م في معركة وادى بوجريره كان بداية النهاية هم، إذ انحسر نفوذهم في اعقابها من فاس، وتطوان ، وسلا ، والرباط . ولم يلبث الرشيد ان حاصرهم في زاويتهم وقضى عليها ، وشردهم الى تلمسان في الجزائر ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م (١) .

ز - امارة آل النقسيس في تطوان :
١٥٩٧ - ١٦٧٢

انتقلت السلطة المحلية في تطوان بشمال المغرب في مطلع القرن ١٠هـ/ ١٦م / ١٧م الى آل النقسيس من بربر نواحي تطوان . واولهم احمد بن عيسى النقسيس (٢) بعد ان كانت بيد اسرة آل المنظرى الاندلسيه منذ ان جدد ابو الحسن المنظرى تعمير تطوان في اواخر القرن ٩هـ / ١٥م (٣) .

مالت تطوان بعد موت المنصور الى الاستقلال تحت حكم آل النقسيس ، وقد رفض احمد النقسيس ان ينزل محمد الشيخ العائد من اسبانيا في مدينته في ذى القعدة ١٠١٨هـ/ فبراير ١٦١٠م وكان موقفه هذا سببا في اقدام محمد الشيخ على احتلالها ، وتشريد النقسيس منها بعد ان نزل في بادس (٤) ولم يعد احمد النقسيس الى مدينته الا بعد ان تخلص بالتعاون مع محمد الصغير بن ابي الليف منه ومن عامله على تطوان سعو بوديبره سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م عن طريق القتل (٥) .

وامام ضعف عبد الله بن محمد الشيخ في فاس ، وزيدان في مراكش استبد احمد النقسيس بالحكم في تطوان ، وخلفه ابناؤه الاربعة بعد موته سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م . وقد عين هؤلاء المبعوث الانكليزى هاريسون في ١٦٢٥ انهم لا يعترفون بأى ملك من الملوك السعديين ، وان ليس لزيدان عليهم اى نفوذ ماعدا الاسم (٦) .

وكان ابناء النقسيس يتعاونون بالانكليز ، ويتفاوضون معهم في شأن الاسرى والتجارة والتعاون ضد الاسبان ، على اساس انهم احرار من اية تبعية (٧) .

ولكن حرص ابناء النقسيس على استقلالهم ، وعدم الخضوع لأى احد دفع المجاهد العياشي المتقدم ذكره الى تجهيز حملة كبيرة ضدهم تمخضت عن احتلال المدينة ، واقصاء عهد النقسيس عنها . وظلت تطوان تحت نفوذ العياشي الى ان اغتيل في ١٦٤١م / ١٠٥١هـ ثم تشكلت فيها لفترة قصيرة جمهورية مستقلة ، قبل ان يعود اولاد النقسيس اليها حكاما تابعين للدلائيين (٨) .

وكان امرهم كذلك الى ان ضعف هؤلاء وبان عجزهم امام الخضر غيلان فانضموا الى هذا الاخير واتفقوا معه في سنة ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م على اساس ان يبقى النقسيس حاكما لتطوان في مقابل مساعدة عسكرية معينة يقدمونها له . (٩) .

(١) انظر عن نهاية الدلائيين محمد حجي المرجع السابق ص ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٢) هو الذى ذكر سبتة ايام احمد المنصور ، انظر عنه الفشتالي : المناهل ص ٩٦ .
(٣) هاريسون تقريره لعام ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٦٦
(٤) الجيرنوى : المرجع السابق ص ٩٢ - ٩٣
(٥) نفسه ، ص ٩٧
(٦) تقرير هاريسون بتاريخ ٢٠/ ٧/ ١٦٢٥ في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٢٨
(٧) محمد داود : المرجع السابق ج ١ ص ١٧٤ وما يليها .
(٨) محمد حجي : المرجع السابق ص ١٧٠ .

ج - اشراف سجلماسة العلويون :

في الوقت الذي كان فيه نجم الاشراف السعديين الى الافول في مراكش وفاس ، اخذ نجم اسرة شريفية اخرى في الصعود والبروز في سماء سجلماسة بالجنوب الشرقي المغربي ، وهذه الاسرة هي اسرة الاشراف العلويين . واصل هؤلاء من ينبوع النخيل بالحجاز كالسعديين ، وكان من دخل منهم المغرب هو الحسن ابن قاسم بن محمد المدعو بالنفس الزكية ، وذلك في النصف الثاني من القرن ٧ هـ / ١٣ م [1]

وكان ابرز افراد اسرته في النصف الاول من القرن ١١ هـ / ١٧ م هو الشريف (امحمد) بن علي ومن ابرز اولاده محمد ، والرشيد ، واسماعيل وغيرهم . وكان الشريف صديقا لابي حسون السملالي المتقدم ذكره ، واستصرخه على جيرانه الزبيريين أصحاب قصر (تابوعصامت) [2] الذين هم من اعدائه اللدودين ، واستعان هؤلاء بدورهم اهل الدلاء وذلك في سنة ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٣ م فذهب ابو حسون كما ذهب الدلائيون كل لاغاثة من استصرخ به ، ولكن الجميع افترق دون قتال حقنا لدماء المسلمين ونزولا عند رغبة المرابط محمد بن ابي بكر الدلائي . [3] الا ان محمد بن الشريف تمكن فيما بعد من مباغتة اصحاب القصر (الحصن) وحكم فيهم السيف ، مما اغضب اباحسون لان اهل تابوعصامت كانوا قد مالوا اليه . فأمر بالقبض على الشريف بن علي ، وبقي في الاسر الى ان افتداه ابنه محمد بمال جسيم في سنة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م [4] . وفي سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م ثار محمد بن الشريف في سجلماسة والتفت حوله اهله ، وتمكن من طرد عمال ابي حسون الذين كانوا يرهقون الناس بالضرائب . ثم اقدم على هدم درعه واعمالها فتمكن من ذلك بعد معارك شديدة مع ابي حسون انتهت بانهزام هذا الاخير [5] ، فتوسعت بذلك امارته ، وقبل ان يستفحل خطره هاجمه محمد الحاج الدلائي وتمكن من الانتصار على ابن الشريف في واقعة القاعة ١٠٥٦ هـ / ١٦٤٦ م ودخل سجلماسة ، وعاث جيشه فيها . ثم انسحب بعد ان فرض اتفاقية على المنهزمين حددت كما ذكرنا مجال نفوذ الطرفين . ولكن هؤلاء سرعان ما خرقوها باحتلالهم لناس ثم خروجهم منها منهزمين امام الدلائيين (١٠ شعبان ١٠٥٩ هـ / ٢٠ / ٨ / ١٦٤٩ م . وقد توجهت انظار محمد بن الشريف بعد الهزيمة الجديدة الى التوسع في شرق المغرب والغرب الجزائري ، وسنرى في فصل المقبل غاراته المتلاحقة ، وانعكاساتها ، وردود فعل حكام الجزائر ضدها .. وحدث في ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م ان فر الرشيد من سجلماسة خوفا من اخيه محمد بعد ان توفي والدهما في ... وتمكن من قتل دار ابن مشعل ، وقتله بها وجده فيها من اموال صاحبها اليهودي ... واستدارادا لما حدث بعد سنة ١٦٥٩ نقول : ان الرشيد تمكن من القضاء على اخيه محمد في بداية معركة وقعت بينهما في سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤ م ، وضم جيشه [7] الى قواته ، وتمكن الرشيد من الدخول الى فاس عنوة في ١ / ١٢ / ١٠٧٦ هـ / ٤ / ٦ / ١٦٦٦ م ، وبين القضاء على كل الامارات التي كانت في المغرب خلال السنوات القليلة التالية .

(١) الافراني : النزهة ص ٢٨٨ ، الناصري : الاستقصا ، ج ٧ ، ص ٤ ، ٥
(٢) احد قصور سجلماسة ويقع الى الجنوب منها ، والقصر هنا يعني قرية مسورة محصنة .
(٣) محمد حجي : المرجع السابق ص ١٣٩
(٤) الافراني : النزهة ص ٣٠٠
(٥) الافراني : نفسه ص ٣٠١ ، الناصري / الاستقصا ج ٧ ص ١٦
(٦) (٧) الناصري : نفسه ج ٧ ... ٢٤

Cenival (P.de):La légende du juif Ibn-Machâl.
in Hesp., Paris 1925.

القضاء التدريجي على حكم السعديين في فاس ومراكش :

لقد كان قيام تلك الامارات التي ذكرناها ، وامارات اخرى اصغر منها او اقل اهمية لم نذكرها سببا في الانهيار التدريجي لحكم السعديين في فاس واخيرا في مراكش .

١ - ففي فاس : التي لم يجرؤ محمد الشيخ على الدخول اليها بعد تسليمه العرائش للاسبان في ٢٠/١١/١٦١٠ ، لأن اهل فاس ، وكل المغاربة استاؤوا من فعلته اشد الاستياء لم يلبث الفاسيون ان ثاروا في ١٢ ربيع الاول ١٠٢٠هـ / ٢/٦/١٦١١م بقيادة سليمان بن محمد الشريف الزرهوني ، والفقيه محمد اللعداني المعروف بالمربوع ، ضد عرب الشراقة الذين كانوا سند محمد الشيخ ، وسند ولده عبد الله فيما كانوا يقومون به من اعمال مسيئة ، فقتلوا بعضهم وأجلوا آخرين من فاس ، كما ثاروا ضد عبد الله نفسه ، وألقوا عليه القبض ، وفرضوا عليه الاقامة والحراسة في فاس الجديد [1] ، بينما ظل محمد والده محمد الشيخ في شمال المغرب لا يبتعد كثيرا عن المراكز الاسبانية الى ان تمكن محمد الصغير ابو الليف احد مقدمي الجهاد في تلك المناطق من قتله وقتل بطانته في فج الفرس قرب طنجه في ٢٦ رجب ١٠٢٢هـ / ١١/٩/١٦١٣م ، وتمكن احمد المتسيس في الفترة نفسها من القضاء على عامله حمو بو دبيره في تداوان [2] .

ولم يبايع عبد الله في فاس بعد مقتل والده الا جماعته ، ورفض اهل فاس الثورة مطالبين من قتلة والده كما اراد ، وتداروا في تعيين قيادة جديدة خلفا للزرهوني والمربوع اللذين داروا على موقفهما تبدل كبير ، اذ مالا الى تأييد عبد الله في دعوته للثأر من قتلة والده ، فاضطرب الامر في فاس مدة خمس سنوات ١٠٢٢-١٠٢٧هـ كثرت فيها مجاعة كبيرة ، جعلت الفاسيين يميلون الى مبايعة عبد الله لوقف الفتن والفوضى . وتمكن هذا الامير حينئذ من توجيه حملتين الى تداوان وانتصر [3] . وردا فيما يبدو على هذا الموقف بايع اهل الهبط بشمال المغرب محمدا المعروف بزغودة ، وهو اخ لعبد الله ، وتمكن من احراز النصر على هذا الاخير في وادى الداين والدخول في اثرها الى فاس في شعبان ١٠٢٨هـ / جويليه ١٦١٩م ، الا ان عبد الله نجح بعد شهر فقط في تحقيق النصر على اخيه في مكناسة والعودة الى فاس ، لكنه كان عاجزا عن فرض سلطاته على فاس التي تجددت فيها الاضطرابات ، وكثر الثائرون والمتنازعون ، ((وخاف اكثرها واستولى عليها الخراب)) [4]

ومات عبد الله في ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م وسلطته لا تكاد تتجاوز فاس الجديد لتشمل فاس البالي . ولم يكن اخوه عبد الملك الذي خلفه ، وهو ((صغير السن ، ضعيف العقل ، مدمن الافيون ، مهمل الاحوال ، مغلوب على آرائه ، لا ينفذ له حكم في قضية ، ولا يمتثل له امر ، ولا نهي في حاضرة ولا بادية)) [5] بالرجل الذى يمكن ان يمسك بزمام الامور في فاس المضطربة . ومات في فاس سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م ، والاوضاع فيها تسير من سيء الى اسوأ ، وخلفه اخوه محمد زغودة ، وكان ضعيفا ايضا ((فلم يقدر على شيء ، ولم يقدر على نفع ، صار به الخلافة صورة بلا معنى ، واسما بلا مسمى)) [6] وبعد نحو عام فقط من الولاية قتله ابن عمه احمد بن زيدان في شوال ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م الا ان الامر لم يستتم له اذ القى القبض عليه الحمو سبون فقتل وسجن في فاس . [7] وبذلك انتهى حكم السعديين في فاس ، وخضعت المدينة للعياشي [8] ثم الدلائيين ، واخيرا للعلويين .

(١) (٢) الافراني : النزهة ص ٢٢٢-٢٢٤ ، ص ١٩٩ .
(٣) (٤) نفسه ص ٢٢٥-٢٢٦ ، ص ٢٢٦-٢٢٨ .
(٥) (٦) المجهول : المرجع السابق ص ١٠٤ هـ ص ١٠٥ .
(٧) الافراني : النزهة ص ٢٤٤ (٨) الناصري : الاستقصا ج ٦ ص ٨٥

٢ـ وفي مراكش :

لم ينعم زيدان بالهدوء والاستقرار ، ذلك ان مرابطين اقوياء في الجنوب ، وفي مقدمتهم ابو محلي وابو زكريا ، وابو حسون ، مالبثوا ان صاروا عليه، ونخروا ملكه بقوة ، وقلصوا نفوذه في الجنوب ، وكذلك فعل المجاهد العياشي ، والاندلسيون في سلا ورباطها ، فاستقلوا عنه بالامر في شمال المغرب وغربه ، بحيث لم يعد يسيطر الا على مراكش ، ومناطق محدودة . وقد امضى زيدان معظم جهده في محاربة الثائرين عليه ، بعد ان امضى القسم الاول في الصراع ضد اخوته ، حتى انه لاتكاد تخلو سنة من السنوات دون هزيمة له ، او وقيعة باصحابه وكان ذلك سبب خلاء المغرب وخصوصا مراكش[1]

ومع ذلك فان الدول الاوربية المغربية انكلترا ، وهولندة ، وفرنسا ، الحريصة على الحفاظ على مصالح رعاياها وسلامتهم في المغرب ، ظلت تسعى الى الاتصال به ، وبمن خلفه ، راغبة في عقد معاهدات سلام ، واتفاقيات تجارية .

فانكلترا بادرت بعد موت المنصور الى الاتصال بابنائه ، وفي مقدمتهم ابو فارس[2] ثم زيدان[3] بعد ان استقر له الامر في مراكش . وكان الانكليز في اتصالاتهم الاولى مع زيدان يستهدفون حل بعض مشاكل التجار الانكليز في المغرب والحصول على امتيازات لهم ، وعلى تحرير الاسرى الانكليز والتعاون ضد اسبانيا . اما زيدان فكان هدفه الحصول على الاسلحة والخبراء ضد خصومه في الداخل ، وحمل الحكومة الانكليزية على التدخل لمنع تجارها من تهريب الاسلحة الى المغرب ، وبيعها للمتمردين عليه ، وتبادل الطرفان الرسائل والسفارات في الفترة ١٠١٩ـ١٠٢٤هـ/ ١٦١٠/ ١٦١٥م ثم مالت العلاقات الى التدهور لأن الانكليز لم يستجيبوا فيما يبدو لطلبات زيدان ، اذ لم يكف التجار منهم عن التعامل مع الثائرين عليه في الجنوب والشمال ، وقبل هذا الاخير الاتصال بسفيرهم جون هاريسون ، الذي تعددت سفاراته الى المغرب ، وبلغ عددها في الفترة ١٠١٩ـ١٠٤١هـ / ١٦١٠ ـ ١٦٣١م ثمانية ، بل انه سعى الى التآمر عليه في سلا ، حيث كان يجري اتصالات مع اندلسييها ، ومع العياشي (١٠٣٦هـ١٦٢٦م) ، ويعقد واتفاقا زودهم بموجبه بالاسلحة وحصل على سراح الاسرى الانكليز .

اما العلاقات مع فرنسا فقد تدهورت بسبب هروب الفرنسي جان فليب دوكاستيلان بمكتبة زيدان وذخائره ، ووقوعه في قبضة القراصنة الاسبان ، ورفض الملك الفرنسي لويس الثالث عشر استقبال مبعوثي زيدان ، والتوسط لهذا الاخير لدى فيليب الثالث ، من اجل استرجاع مكتبته . وفي ١٠٣٥هـ / ١٦٢٦م جاء م . دورازيلي الى زيدان مبعوثا من قبل لويس الثالث عشر لحل المشاكل المختلفة معه فسجنه ، ولم يطلق سراحه الا بكفالة مالية ، مما يعني ان العلاقات بين زيدان وفرنسا ظلت متوترة[4]

وكانت هولندة (الولايات العامة) من الدول الاوربية التي تقربت من زيدان ، وعقدت معه في سنة ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م اتفاقية تجارية ، وفي السنة التالية وجه زيدان سفارة الى هولندة لالسبب

---

(١) الافراني : النزهة ص٢٢٩
(٢) انظر عن اتصالات ابي فارس والانكليز مجلة تطاوان عدد ٩ ص٧ـ٢١ و م . س . ت . انكلترا ج٢ ص٢٧٤
(٣) انظر عن علاقات زيدان مع انكلترا م . س . ت . انكلترا ج٢ ص١٤١ـ٤٤٨ وتقرير هاريسون لعام ١٦٢٧ ، ١٦٢٦ في المرجع السابق ، ومقال شوقي عطا الله الجمل العلاقات الانكليزية المغربية في مجلة المناهل ص١٦٥ـ١٧٠
(٤) انظر التازي : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا في تطاوان عدد ٦ ص١٥٨ ، ميرسيي : المرجع السابق ج٢ ص٢١٩

مساعدتها على تحصين "المعمورة" قبل احتلال الاسبان لها ، ولكن كون الهولنديين تأخروا حتى تمكن هؤلاء من احتلالها (1) واستغل زيدان صداقة الهولنديين ، وطلب منهم التوسط لدى لويس الثالث عشر ، ليتوسطا له بدوره لدى فيليب الثالث الاسباني بخصوص مكتبته ولكن مساعي الهولنديين لم تكلل بالنجاح . (2) واما تدهور وضعية زيدان في المغرب ، لم تتردد هولندة ((الولايات العامة)) في الاتصال بالزعامات المحلية المنفصلة عنه ، كأبي حسون وغيره مما لم يكن ليرضي السلطان السعدي .

وقد توفي زيدان في سبتمبر 1627 (محرم 1037هـ) . وبموته تضعضع وضع السعديين في مراكش ومال نجمهم الى الأفول ، فابنه عبد الملك الذي خلفه (1627—1630) م ، والذي لم يخلص له الملك في مراكش الا بعد صراع عنيف ضد اخويه احمد والوليد (كان فاسد السريرة ، مأمون البصيرة) (3) فاسقا ظالما مدمنا على شرب الخمر . وانتهى امره بأن قتله احد خدمه العلوج ، انتقاما لقتله زميله ، وذلك في 6 شعبان 1040هـ / 20/3/1630م ، وقد قتل وهو سكران (4) .

ولعل مايميز عهده على صعيد العلاقات الخارجية مع اوروبا ، تحسن العلاقات بينه وبين فرنسا ، وتوقيعه اتفاقية لصالح هذه الأخيرة (5) . واستمرار العلاقات متدهورة بين البلاد السعدي وانلترا .

اما ابنه الآخر الوليد الذي خلف اخاه عبد الملك فوجه كل اهتمامه الى التخلص من اقاربه حتى انه افنى اكثرهم ومن بينهم اخاه محمدا الشيخ . وفي عهده تقلص نفوذه وانحسر عن درعة وسجلماسة التي اخضعها ابو حسون السملالي لنفوذه ، فغدا سيد الجنوب كله باستثناء مراكش وما جاورها . وانتهى امره كأخيه ، حيث قتله العلوج لتأخره عن دفع رواتبهم ، وذلك في 14/9/1045هـ/ 21/2/1636م (6) .

وتميز عهده على الصعيد الخارجي بتحسن العلاقات مع انلترا حيث عقدت اتفاقية بينهما وبين هذه الأخيرة في 6 ربيع الثاني 1041هـ / 16/11/1631م نصت على منح الانلجليز بعض ما سبق أن منحه لهم زيدان كاعطاء تسهيلات تجارية للانجليز ، واطلاق سراح الاسرى منهم .. وغير ذلك (7) . بينما استمرت علاقاته مع فرنسا حسنة .

وكان محمد الشيخ الاصغر (1046هـ/1065هـ/ 1636—1654م) الابن الثالث لزيدان الذي خلف اخاه الوليد (منكوس الراية ، مهزوم الجيش) (8) فلم يبق له غير مراكش وعمالتها ، وذلك ان محمدا الحاج الدلائي الذي تولى كما رأينا في سنة 1046هـ/ 1636م زعامة الدلائيين ، رفض البيعة له ، واستقل بالامر في وسط المغرب ، ثم شماله وغربه ، وفشل في اخضاعه اليه بالقوة ، حيث انهزم امامه في بوعقبة سنة 1048هـ/ 1648م ، كما تقدمت الاشارة . وقاسى كثيرا في اخضاع الثائرين عليه في الجزء المتبقي له ، كثائر مشتوكة ، وقبيلة الشبانة (9) .

---

(1) (2) ابن تاويت ، من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تطوان عدد 9 ص 120—127
(3) الافراني ، النزهة ص 244
(4) العبودي ، المرجع السابق ص 105—106 .
(5) ميرسيي ، المرجع السابق ج 3 ص 219
(6) الافراني ، النزهة ، ص 245—246 ، العبودي المرجع السابق ص 106
(7) شوقي عطا الله ، المرجع السابق ص 178 .
(8) الافراني ، النزهة ص 246
(9) نفسه ، ص 246—257 ، العبودي المرجع السابق ص 107

وعلى الصعيد الخارجي ، عقد اتفاقية جديدة مع انكلترا نصت فيما نصت عليه ، على وجوب
عدم قيام اي علاقات بين انكلترا واعداء السلطان السعدي ، ووجوب اخبار ملك بريطانيا رعاياه
بعدم التعامل مع الخارجين عليه . وتبادل الطرفان الرسائل والسفارات .(1) ولكن مالبثت ان
تدهورت لاستمرار التجار الانكليز في تزويد الاسلحة للخارجين عن السعديين ، ولانه لم يحصل
من انكلترا فيما بعد على العون الذي طلبه .

كانت وفاة محمد الشيخ الاصغر في ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م . وخلفه ابنه احمد المدعو العباس ،
على كرسي المملكة الصغيرة ، ولم يحاول هذا الاخير الزيادة فيها . ومع ذلك فان اخواله عرب
الشبانات ، طمعوا الى انتزاع مملكة مراكش منه . وما لبثوا ان حاصروه بمدينة مراكش ، حتى اضطر
الى الاستسلام لهم ، فقتلوه وكان ذلك في ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م ، وبايعوا اميرهم عبد الكريم بن
ابي بكر الشباني (2) المعروف بكروم الحاج . وبمقتل السلطان احمد ، قضي على المملكة السعدية في
مراكش ، وكانت مملكة فاس قد انهارت منذ ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧م كما ذكرنا . وبذلك انقرض ملك
السعديين في المغرب بعد نحو قرن ، وما يقرب من نصف قرن .

وخلاصة القول ، فان السعديين الذين قاموا في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري /
السادس عشر الميلادي ، في وقت كان المغرب فيه يعاني من الغزو الخارجي ، والتجزؤ والاضطراب
الداخلي ، ومن التدهور الاقتصادي ، استطاعوا خلال بقية القرن العاشر الهجري / السادس عشر
الميلادي ان :

1- يوقفوا الغزو الخارجي البرتغالي والاسباني ، بل ويحرروا بعض المواقع المحتلة من قبل
البرتغاليين ، ويحافظوا على استقلال المغرب من النفوذ العثماني ، وان كان قد ظلت بعض المراكز
محتلة من قبل الاسبان والبرتغاليين .

2- يقضوا على التجزؤ والاضطراب الداخلي بتوحيد اجزائه ، وفرض الامن والاستقرار في
مدنه واريافه ، وطرقه ، واسواقه ، مما ساعد على تحسين الاوضاع الاقتصادية .

3- يبلغوا الذروة في عهد المنصور ، حيث امتد نفوذهم ليشمل في عهده اجزاء واسعة من بلاد
السودان ، فانمت مواردهم فملأت خزائنهم ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة الداخلية والخارجية
وكذلك جوانب الحياة الاخرى الاجتماعية والثقافية ، وعلت هيبة الدولة السعدية في الداخل
والخارج بفضل جيشها القوي الكبير ، وعلاقاتها السياسية الكثيرة مع القوى الاوربية والمشرق
الاسلامي .

اما السعديون بعد المنصور (١٦٠٣ـ١٦٥٩) فعجزوا عن الحفاظ على المكاسب التي
حققها اوائلهم ، وذلك لانهم :

1- افنوا قوتهم العسكرية في اقتتالهم على السلطة علما ان الجيش كان هو مصدر قوة
السعديين الاساسية ، بعد ان اصطدموا بمعارضة القوى المرابطية لسياستهم الضريبية ، وسياستهم

---

(1) انظر عن علاقاته مع انكلترا شوقي عطا الله ، المرجع السابق ، ١٧٨ـ١٨٤
(2) الافراني : النزهة ص ٢٥٧ـ٢٥٨ ، الحجوي المرجع السابق ص ١٠٧ـ١٠٨ .

الخارجية المسالمة للمحتلين الاسبان والبرتغاليين ، ولم يكن لهم سند قبلي يعتمدون عليه في
اخضاع الثائرين والمتمردين عليهم ، وما اكثرهم في هذه الفترة •
... اثاروا استياء الناس منهم ، لما اقدموا عليه من تصرفات اساءت الى السلطة الذى فيه خلق كثير ، ومسؤوليتهم
واثاروا ثائرتهم عليهم حين تجرؤوا على تسليم ارض مغربية بأيديهم الى العدو (العرائش) ، وفرطوا في الدفاع عن اخرى (المعمورة) ، وقتلوا المجاهدين واضطهدوهم
وحرموهم [1] ولم يكن بامكانهم ان يقضوا على الثورات والتمردات التي قامت في وجههم لأنهم فقدوا
القوة العسكرية كما اوضحنا ، ولأنهم افتقدوا ايضا المال الضروري لاعادة بناء قوتهم العسكرية [2] ،
وخسروا موارد هم المالية الهامة • اذ لم يعد ذهب السودان وذخائره تتدفق على المغرب كل سنة
مرة على الاقل ، كما كان الامر في عهد السلطان احمد المنصور [3] ، وذلك لاضطراب الامن في الطرق
من جهة ، ولأن قادة الجند المغربي في بلاد السودان ما لبثوا ان استقلوا بالأمر فيها بعد وفاة
المنصور [4] . ولم تعد الجباية وفيرة في المغرب ولا ... المناطق التي استقلت عنهم ، او تمردت عليهم • ولم ... اذ خربت المصانع في اثناء الصراع على السلطة ، ... سكر الجرازيل وسكر الانتيل كثيرا ما قد دخل ميدان المنا... التجارة الداخلية والخارجية مؤخرة بحيث تشكل الر... الكبرى باضطراب الامن في الطرق ، وتأثرت المدن و... وسجلماسة ، وتارودانت بالفتن والاضطرابات التي شه...

... ذلك لأن نفوذهم ما انفك ينكمش لكثرة ... السكر ، وزراعة قصبه موردا لخزينتهم ... قصب السكر اوكاد ، اضافة الى ان ... السكر المغربي منذ مدة ، ولم تستمر ... الجمركية موردا هاما اذ تأثرت ... التجارية الكبرى كمراكش ، وفاس ...

•

وهكذا فان اواخر الملوك من السعديين ، كانوا ... قوة عسكرية ، وبدون شعبية ، وبدون سند قبلي ، وبدون موارد مالية ، وبخاصة ... ما لكون مقومات الاستمرار على كرسي الحكم • واذا كانوا قد استمروا في فاس حتى ١٦٢٧ ... مراكش حتى ١٦٥٩ ، جالسين على كرسي ... من ذلك الا لأن الثائرين عليهم كانوا متنافسين ... بينهم ولم تكن جهودهم موجهة ... ضدهم بشكل رئيسي ، ولأن ايا من الثائرين لم يكن من ... الية كاملة لاخلافهم او لذلك كان ...
يشعر ، ومن ثم فلم يجرؤوا على القضاء عليهم نهائيا بعد ان قلصوا نفوذهم ، ولم يبقوا لهم الا
على مراكش وما جاورها ، رغم امكانية ذلك لهم ، فبقاء تهم الضربة القاضية من اقرب الناس اليهم ،
من اخوانهم عرب الشبانات الذين يئسوا من وضعهم الذى ما انفك يتردى •
ونتيجة عجز اواخر السعديين عن المحافظة على ما حققه اوائلهم فقد عاد المغرب من جديد
في عهدهم هدفا لغزو القوى الخارجية واطماعها • وعاد الى التجزؤ والاضطراب كما كان قبل قيام
اسرتهم ، وصعودها الى كرسي الحكم • وقد كان على دولة الاشراف العلويين التي خلفتهم ان تبدأ
من حيث بدأوا ، اى ان تعمل ثانية على توحيد المغرب ، والتصدى للقوى الخارجية المختلفة التي
ازدادت عددها وبخاصة الحصول على النفوذ في المغرب • ويمكن القول اخيرا ان تشتت القوة
السياسية في المغرب بعد المنصور تشبه تلك التشتت الذى كان قائما في المغرب قبل السعديين اواسط ...

(1) ممن قتلهم محمد الشيخ ارضاء للاسبان مارس البحر مراد برتقيش الذى ضايق بغزواته البحرية الاسبان وحاولوا قتل احمد النقسيس ، وان زيدان قد حاول قتل احمد العياشي ، انظر المرجع قبل المرجع السابق ص ٩٥ ، الافراني : النزهة ص ٢٦٢ – ٢٦٤ •
(2) كثيرا ما كان محمد الشيخ يلجأ الى استعارة المال من الفاسيين لاقامة حملاته ومصادرة اموال بعض القادة • واخيرا باع مراكش مقابل مبلغ من المال •
(3) كان المنصور يحصل سنويا على نحو (٦٠) قنطارا من التبر جباية من السودان ومنذ موته لم يكن يصل قافلة واحدة كل ثلاث سنوات تقريبا • انظر دارتيني : المرجع السابق ص ٢١٩
(4) ... د ولافوس : علاقات المغرب مع السودان عبر العصور ، هسبيريس ص ١٦٨ •

الفصـــل الثالـــث

العلاقات بين القـــوى السيـاســـية المتشعبة في القطرين

٩٢٣-٩٥٦هـ/١٥١٧-١٥٤٩م

تتميز العلاقات السياسية في هذه الفترة بالتشابك والتعقيد وذلك نتيجة العوامل التالية :

١- تعدد القوى السياسية التي كانت قائمة في البلدين ، وقد كان في المغرب في هذه الفتـرة اربع قوى رئيسية هي : الوطاسيون ، والسعديون ، والبرتغاليون ، والاسبان ، وعديـد من الوحدات السياسية التي لا يستهان بشأنها ، وتأثيرها في العلاقات كامارة دبدو وفـي شرق المغرب ، وامارات بادس ، وشفشاون ، وتطوان في شماله وغيرها .(١)وكان في الجزائر في الفترةنفسها عـــدد من القوى السياسية لا يقل عما كـــان في المغرب وأهمها :الزيانيون ، والاتراك العثمانيون والحفصيون ، والاسبان ، ومن أبرز الامارات الصغيرة امارةكوكو ، وامارة بني عباس ، وامارة تنس وكلها في الشمال الجزائرى ، وعدد آخر أقل اهمية وتأثيرا في العلاقات فـي هذه الفتره ، في الجنوب [٢] .

٢- اختلاف اهداف تلك القوى السياسية التي كانت قائمة في البلدين ، واختلاف مصالحها بحيث أن دراسة العلاقات السياسية في هذه الفترة بين البلدين هي دراسة للعلاقات بين القوى السياسية التي كان لها نفوذها فيهما لاسيما الكبرى منها ، ومن ثم كان لابد من دراســة العلاقات التي كانت قائمة بين :

آ- بين الزيانيين والوطاسيين . ب- وبين الزيانيين والسعديين . ج- وبين أتراك الجزائر والوطاسيين . د- وبين أتراك الجزائر والسعديين .

مع بيان مواقف الاسبان والبرتغاليين من العلاقات بين هذه الاطراف الاربعة ، والاشارة الى تأثرهم بها وتأثيرهم فيها وكذا الاشارة الى مواقف العثمانيين وزعماء الامارات الصغيرة في كلا البلدين كلما كان لهم موقف مؤثر في تلك العلاقات أو دور فيها .

آ- العلاقات بين الزيانيين والوطاسيين :

قد يكون الزيانيون طمحوا باعادة وحدة المغرب كله كما فعل بنو مرين قبلهم ، ولاسيما انهم منهم ،

(١) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب
(٢) انظر فصل الحياة السياسيةفي الجزائر .

ومن ثم قد يكون ضم تلمسان الى مملكتهم من اهتماتهم، ولكن اوضاع السلطان الوطاسي محمد البرتغالي الذى تولى الحكم منذ سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م، واوضاع ولده ابي العباس احمد سنة ٩٣٢ هـ - ٩٥٦ هـ / ١٥٢٤ - ١٥٤٩ م، كانت لا تسمح لهما بتوجيه انظارهما وجهودهما الى التدخل في مملكة تلمسان، لاستعادة ماكان للمغرب عليها من نفوذ، قبل قرن ونيف من الزمان. لقد غدا المغرب نفسه مجزأً، ومضطربا، وهدفا لغزو برتغالي واسباني مركز، ولاسيما في الربع الاخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، والربع الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. فكان عليهما بالتالي ان يوجها جهودهما واهتماماتهما الى مواجهة هذا الغزو ومحاولة تحرير ما احتله البرتغاليون والاسبان من المدن والمواقع على شواطئ المغرب، والى مواجهة التجزؤ والاضطراب الداخلي، كما كان عليهما، ولاسيما على السلطان احمد الوطاسي بالذات، ان يواجها السعديين المتصاعدة. ولذلك فقد صرفا انظارهما نهائيا عن التدخل في تلمسان ومملكتها، التي غدت هي الاخرى مجزأة ومضطربة وهدفا لغزو الاسبان، وتدخل الاتراك العثمانيين فيها، واكتفيا بايواء الامراء الزيانيين الفارين من تلمسان دون ان يقدما لهم العون، سواء ضد بعضهم، او ضد الاسبان، او ضد الاتراك العثمانيين. وما لا الى اقامة علاقات تتميز بحسن الجوار مع سلاطين تلمسان. وتبين الحوادث التالي ذكرها بوضوح هذه المواقف وطبيعة العلاقات بين الزيانيين والوطاسيين.

فغداة اطاحة عروج بابي حمو الثالث الزياني عن الملك في تلمسان سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م، ذهب هذا الاخير الى فاس كعادة اسلافه، مستجيرا بسلطانها الوطاسي محمد البرتغالي، ومستعينا به على استرداد ملكه المغتصب من قبل عروج. (١) الا ان السلطان المذكور الذى كان مشغولا بحروبه ضد البرتغاليين وعملائهم في المغرب، (٢) وبمحاولاته فرض سيادته على كامل التراب المغربي، واخضاع زعماء الوحدات السياسية الجديدة التي كانت قائمة فيه، وبالتالي فقد رفض التورط في رفض التدخل في تلمسان ومملكتها لصالح السلطان الزياني، ولاسيما ان هذا الاخير - اذا صدقنا هايدو - قد ارسل سرب خاص المغرب ضد عروج، ومساعدته له للقضاء اليهسفراء في اعقاب دخوله الى تلمسان، يعرض عليه التحالف معه، ومساعدته له للقضاء على المنازعين له في المغرب. (٣) فما كان من ابي حمو حينئذ الا ان توجه الى الاسبان الذين رحبوا به، واسدوه بالعون المطلوب. (٤) اذ كانوا بدورهم غير راضين عن وجود عروج في تلمسان الى جوارهم، وحريصين على الا يستقر له الامر فيها، لما في ذلك من خطر على

(١) المجهول : غزوات عروج وخير الدين ص٣٢
(٢) قام محمد البرتغالي في سنة ١٥١٧ م بحملة على البرتغاليين وعملائهم من عرب عبدة في اقليم دكالة انظر م.ت.م البرتغال جـ١ ص ٢٧١
(٣) هايدو طوبوغرافية الجزائر ص٣
(٤) المجهول : المرجع السابق ص٣٢ وهايدو : نفس المصدر ص ٢٣ - ٣٢ وحسب هايدو فان شارلكان قد قرر مساعدته بعشرة الاف مقاتل لمحاربة عروج واعادته الى ملكه.

نود هم في وهران والمرسى الكبير ، وغيرها ولا سيما ان حصل التعاون بينه وبين محمد البرتغالي
تمكن ابو حمو بفضل المساعدة الاسبانية من استرجاع ملكه من عروج . وتمكن الاسبان من
القضاء على هذا الاخير لما حاول الفرار من الحصار الذي ضربوه عليه في تلمسان . (1)
الا ان ابا حمو الثالث لم يطمئن ، اذ كان اثنان من اخوته وهما عبد الله ومسعود قد لجأ
الى السلطان الوطاسي بعد ان اطلق عروج سراحهما من السجن . (٢) فبعث في طلبهما
من السلطان محمد البرتغالي الوطاسي ليحول دون تآمرهما عليه ولينزع من السلطان الوطاسي
هذه الوسيلة من وسائل الضغط ، يمكن ان يستغلها ضده اذا اراد . ومرة اخرى لم يجد
ابو حمو الثالث التجاوب المرغوب لدى سلطان فاس ، اذ رفض ان يسلمهما اليه بدعوى الخوف
عليهما منه ، ((فبعث اليه ثانية يحلف بأيمان مؤكدة ، انه ما أراد بأخويه الا خيرا ، وانه
اشتاق الى لقائهما)).(٣) ولكن السلطان الوطاسي لم يجبر على ان ترك لهما حرية الاختيار بين
الذهاب اليه او البقاء عنده . فاختارا الذهاب ، لكن لا الى تلمسان كما كان يود ابو حمو وانما
الى وهران والجزائر ، فقد التجأ عبد الله الى الاسبان بينما التجأ المسعود الى الاتراك
العثمانيين في الجزائر ، ولم يلبث هذا الاخير الذي احتمى بخير الدين ان زحف بدعم منه
الى تلمسان ، وانتزع الملك من اخيه عبد الله الذي تولى بعد ابي حمو في حوالي ٩٢٥ هـ/
او ٩٢٦ هـ/١٥٢٠م . وكان مواليا مثله للاسبان (٤) .

وسلك ابو العباس احمد الوطاسي (الذي خلف اباه في سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م على نهج هذا
الاخير في استمالة الامراء الزيانيين وايوائهم دون التورط في اي حركة من الحركات ، او امدادهم
بالعون سواء أكان ذلك ضد خصومهم الاتراك العثمانيين او الاسبان او ضد بعضهم . ومن
هؤلاء الامراء الامير محمد بن عبد الله الذي قام بالثورة على والده في سنة ٩٣٧ هـ/ ١٥٣١م،
وفشل في انتزاع الملك منه فالتجأ اليه ، الا انه لم يقدم له اي عون مما جعله يتوجه الى اتراك
الجزائر العثمانيين الذين ساعدوه على اخذ الملك في تلمسان في فبراير ٩٤١هـ/١٥٣٤م (٥)
كما انه لم يتدخل في نزاعه مع اخويه عبد الله واحمد . ولما اطاح به هذا الأخير في حوالي
(٥) هـ / ١٥٤٤م او مطلع ٩٥٢ / ١٥٤٥م، لم يزد على ايوائه . إذ كان هو الآخر مهددا
في هذه الفترة من قبل محمد الشيخ السعدي ، وينفرد محمد الكراسي بالاشارة الى ان أحمد
الوطاسي ، استقبل الامير الزياني ابا زيان ، وامده بالرجال والاسلحة المتنوعة ، وقال له :
((داري دارك وانا لك بمنزلة الوالد وابني بمنزلة اخيك (٦))).

(١) هايدو : المرجع السابق ص٣٢ - ٣٣
(٢) نفسه : ص٣٣
(٣) نفسه ص٤٠
(٤) نفسه ص٤٠ ، وحسب كثير من المراجع ظل يحكم تلمسان تحت نفوذ الاسبان حتى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٨
(٥) بريموداي : الوثائق ص٧٣ / الفضائل الرباط ص٣٨ - ٣٩ نقلا عن
(٦) محمد الكراسي عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل / في / مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق 376 ص839
المنوني مقتطف من تاريخ المغرب الشرقي

ولكن يبدو أن الامر بقي بحيز الوعود اذ لا تثبت الوثائق اي دعم مادي قدمه أحمد الوطاسي .
ومع ذلك فقد ظل المغرب ملجأ لامراء الزيانيين ، يتوجهون اليه كلما اضطروا الى ذلك لحقن دمائهم ، اولئك الذين من عناية الى الاتراك في الجزائر او الاسبان في وهران لطلب مساعدة هؤلاء او أولئك لهم .

الا ان الاستقبال الذى كان يخصص للامراء الزيانيين واتباعهم في المغرب لم يكن دوما حسنا ، فالسلطان احمد بن عبد الله الذى اضطر الى الخروج من تلمسان ، والده مع وزيره المنصور بن أبي غانم وعديد من امراء المدينة وانصرافهما الى دبدو بشرق المغرب ، فرارا من وجه حسن بن خير الدين ، الذى كان قد استولى على تلمسان في سبتمبر ١٥٤٥م ، كما أتى مفصلا في فصل الحياة السياسية في الجزائر ، غدر به وبأصحابه عمار بن يحي الوطاسي صاحب دبدو وحيث اعتقلهم ، ونهب اموالهم[1] ، ولم يطلق سراحهم الا بعد بضعة اشهر . الامر الذى جعل السلطان أحمد ووزيره المنصور لا يتوجهان الى المغرب ثانية حين اطاح بهما حسن بن خير الدين للمرة الثانية في اكتوبر ١٥٤٨ (رمضان ٩٥٥هـ) ولا سيما ان الصراع في المغرب كان على اشده بين السعديين والوطاسيين ، فظلا يجوبان بادية تلمسان واطرافها الى ان بدأ محمد الشيخ في هذه الفترة حصاره لفاس ، فظلا يجوبان بادية تلمسان واطرافها ... (2) . الحصول على دعم من الاسبان ، او مصالحة بينهما وبين حسن بن خير الدين . على امل الحصول على دعم من الاسبان ، او مصالحة بينهما وبين حسن بن خير الدين ، الى ان مات احمد الزياني في نهاية ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ ، او مطلع ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م دون ان يستجيب الاسبان أو الاتراك له . فهؤلاء الاخيرون كانوا قد قرروا الاحتفاظ بتلمسان ، واقاموا فيها سلطانا تابعا لهم وحامية عثمانية ، كان لقائدها اليد الطولى على ذلك السلطان . وذلك تمهيدا لضمها النهائي الذي تم في سنة ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١م .

وهكذا يمكن القول : إن العلاقات بين الزيانيين والوطاسيين في هذه الفترة ٩١٨هـ ـ ٩٥٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٤٩م ، قد تميزت باستمرار الوطاسيين في سياسة عدم التدخل المباشر في مملكة تلمسان ، على الرغم من أن بلاطهم كان لا يكاد يخلو من المناوئين للسلطان الحاكم في تلمسان ، ومن الساعين في الحصول على الدعم الوطاسي ضد هذا الاخير ، أو ضد خصومهم الاسبان أو الاتراك . وان العلاقات بينهم كانت تتسم بحسن الجوار ، الا انها تتميز ايضا بعدم التعاون والتضامن ، على مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية ، التي كانت تهدد الطرفين ، الامر الذى كان له اسوأ العواقب على الاسرتين الحاكمتين : اذ اضطر الزيانيون أمام عدم تعاون الوطاسيين معهم الى موالاة الاسبان ، أو الاتراك العثمانيين على مضض ، والاستعانة بهؤلاء ضد أولئك أو العكس لاخذ الملك ، أو الحفاظ عليه ، ففقدوا كل شخصيتهم ، قبل أن ينهاروا أخيرا أمام الاتراك العثمانيين ، كما اضطر الوطاسيون أمام الخطر السعدى المتزايد عليهم ،

---

(1) السلاوي : المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٢
(2) م . م . ت . م اسبانيا ج ١ ص ٢٨٠ ـ ٣٠٢

وشعورهم بعدم جدوى التحالف مع جيرانهم الزيانيين لضعف هؤلاء الى التقرب من الاسبان والبرتغاليين حينا ، ومن الأتراك العثمانيين حينا آخر تفقدوا هم الآخرون ثقة الشعب بهم وانهاروا أمام خصومهم السعديين . وقد كان انهيارهم نحو سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩م في الوقت نفسه تقريبا الذي انهار فيه الزيانيون .

ب - العلاقات بين الزيانيين والسعديين :

لا يبدو أن العلاقات بين الزيانيين والسعديين كانت قوية ، ولا سيما قبل العقد الخامس من القرن السادس عشر الميلادي (السادس من القرن العاشر الهجري) ، وهو العقد الذي امتد فيه نفوذ السعديين نحو الشمال وشمل مملكة فاس ، واصبحوا فيه مجاورين لمملكة تلمسان . ويبدو ان الزيانيين الذين كان شأنهم في ادبار ، لم يسعوا الى التقرب من السعديين في أول نشأتهم ، حتى لا يغضبوا جيرانهم الوطاسيين الحكام الشرعيين في المغرب من جهة ، ولأن همّ السعديين من جهة اخرى كان في هذه الفترة اي ما قبل العقد الخامس ، منصبا على تحرير شواطئ المغرب من الاحتلال البرتغالي ، وعلى توحيد اجزاء المغرب تحت سلطتهم قبل التطلع نحو تلمسان . ولذلك فان الزيانيين الذين كانوا يبحثون عمن يساعدهم اما ضد الاتراك العثمانيين او ضد الاسبان ، وعمن يحميهم ضد هذه القوى أو تلك ، لم يجدوا في اوضاعهم ما يشجع على طلب العون منهم . ولا شك ان الزيانيين ادركوا ان قوة السعديين الفتية التي ان اتت الوطاسيين الامرين قد تهدد وجودهم كما كان عليه الامر ايام بني مرين . اذ ان السعديين كانوا يجمعون بين صفات عديدة تؤهلهم للملك ، وتجعلهم مقبولين في تلمسان اكثر من الاتراك والاسبان ! فهم اولا من الاشراف ، وثانيا من المجاهدين ، وفوق كل ذلك كانوا يحتمون بتأييد الطريقة الشاذلية التي لها اتباع كثيرون في تلمسان ، مما يستحيل على الزيانيين اخراجهم منها لو تمكنوا من السيادة فيها بينما كان الاسبان والاتراك فيها لا يتمتعون بمثل تلك الاهمية لدى التلمسانيين . ولكن على الرغم من تهيؤ الفرصة المناسبة لتدخل السعديين فان هؤلاء لم يفعلوا قبل أن يستطيعوا توحيد المغرب .

وقد شهد العقد الخامس وهو الذي اتموا في نهايته توحيد المغرب تحت سلطتهم ، انتقال بعض علماء تلمسان وفقهائها من بلاط الزيانيين الى بلاط السعديين حيث رحب بهم هؤلاء واسندوا اليهم مختلف الوظائف العلمية والدينية ، وفي طليعة هؤلاء ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني ، الشيخ المفتي الخطيب المدرس الذي قلده محمد الشيخ الفتوى بمدينة فاس والتدريس والخطابة بجامع الاندلس ثم القرويين (1) .

كما شهد اتصالات بين احمد الاعرج السعدي الذي خلعه اخوه محمد الشيخ في سنة ٩٥١هـ / ١٥٤٤م ، والسلطان احمد الزياني الذي خلعه حسن بن خير الدين ، وكان

(1) انظر عنه ابن عسكر دوحة الناشر ص ٤٠ - ٤١

كلاهما يسعى للحصول على دعم الاسبان له لاسترجاع ملكه مقابل تنازلات مهمة ، فحسب وثيقة اسبانية مؤرخة بتاريخ ١٥٤٠/٧/١٢ م فان احمد الاعرج قد بعث رسوله يسعى للتفاوض مع حاكم وهران [illegible] تلمسان احمد الزياني، ومزواره المنصور بن ابي غانم، في طلب الحصول عن طريقهما على المساعدة الاسبانية له ضد اخيه محمد الشيخ (١)، ومن نفس الوثيقة يبدو أن أحمد الاعرج كان على استعداد لان يحتفظ فقط بمملكة مراكش وتافيلالت، ويترك للامبراطور شارلكان بقية المقاطعات بما في ذلك فاس (٢).

ويبدو أن عروض أحمد الاعرج قد باءت بعد دخول محمد الشيخ الى فاس، وما أثاره من مخاوف لدى الاسبان والبرتغاليين. وقد فشل السلطان احمد الزياني، في الحصول على الدعم الاسباني له، ولا احمد الاعرج المستعين به. وبقي مشردا في بادية تلمسان الى أن مات كما ذكرنا في حوالي سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م. ويبدو أن إخفاقه في الحصول على الدعم الاسباني قد جعلــــــــــه في اواخر ايامه يميل الى التقرب من المغرب محمد الشيخ، فاخذ حينئذ حاكم وهران الكونت دالكوديت يسعى الى احباط هذا التقارب عن طريق اقتراحه تقديم مساعدة عاجلة للسلطان الزياني المخلوع، ولكن هذا الاخير مات ولما يحصل على تلك المساعدة لاسترجاع ملكه. (٣)

وقد كان محمد الشيخ السعدي من طرفه يرقب بعين القلق سيطرة الاتراك العثمانيين على تلمسان، وتنصيبهم الحسن بن عبد الله الثاني الزياني فيها سلطانا يأتمر بأمرهم، كما كان يرصد بعين يقظة تحركات اخيه احمد الاعرج، ومساعيه للحصول على الدعم الاسباني عن طريق الزيانيين المتقربين من الاسبان كأحمد الزياني، والمنصور بن ابي غانم. وقد رأى ان الموقف يستدعي ان يدخل هو الآخر في مفاوضات مع هذين الاخيرين لاستمالتهما، تقليما لدابر تآمرهما عليه مع اخيه والاسبان، واستغلالا لاتباعهما من القبائل، في حملته على تلمسان ووهران التي كان يعتزم القيام بها (٤). وقد اتضح فيما بعد انه نجح في استمالة المنصور بن ابي غانم، الذي اصبح من المقربين للسلاطين السعديين، وأدى لهم خدمات جليلة في حملاتهم على الغرب الجزائري (٥). وما كاد ينجح في استمالة هذا الاخير حتى اخذ في الاعداد لحملة وجهها الى تلمسان، قضت على سلطانها الحسن الزياني، وقضت على حكم الزيانيين فيها في ٢٣ جمادى الاولى سنة ٩٥٧هـ/ ٦/٦/١٥٥٠م (٦). اذ ارسل السلطان الحسن المخلوع الى فاس دون ان ينصب سلطانا زيانيا آخر، بل أسند الحكم فيها الى احمد ابنائه [illegible]

---

(١) (٢) م.م. مقتطفات اسبانيا ج٣ ص٣١٢

(٣) نفسه [illegible] ٣٠١

(٤) نفسه : [illegible] ٢٥٢ - ٢٥٣ (اشارة الى المفاوضات)

(٥) الافراني : المصدر السابق ص ١٧٦

(٦) نفسه : ص٢٩

ان انضاء اتراك الجزائر منها كما سنرى ذلك بالتفصيل بعد قليل .

ومما تقدم يمكن القول ان العلاقات السياسية بين المغرب والجزائر ، بين الزيانيين وأوائل السعديين ، لم تشهد في مجملها تطورا ملحوظا . اذ اتخذ المغرب في مرحلة نشوء الحكم السعدي فيه موقفا اكثر سلبية في صلاته مع الزيانيين ، مما كان عليه الامر ايام الوطاسيين ، إى ان العلاقات الزيانية ـ السعدية ، اتسمت في بدئها الامر بالفتور ، وافتقدت التعاون والتضامن في وجه الاخطار المحدقة بالطرفين ، ثم انها تحولت الى العنف عندما اكدت قسوة سياسة اسلامية غريبة عن المنطقة وجودها الى جوار المغرب ، وتهديدها له ، فاسرع السعديون للسيطرة العسكرية على تلمسان ، وسنرى بعد قليل تفاصيل الصراع السعدي العثماني على تلمسان الذي استمر في اثنائه الاسرة الزيانية .

جـ ـ العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين والوطاسيين :

لا ترجع بداية العلاقات بين المغرب والاتراك العثمانيين الى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فحسب بل ترتبط بداية هذه العلاقات بحادث اسلامي هام وقع في اواسط القرن التاسع الهجري على الخامس عشر الميلادي الا وهو فتح العثمانيين بقيادة محمد الثاني للقسطنطينية عام ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م . فبمناسبة هذه الحادثة ارسل السلطان عبد الحق المريني ، شأن غيره من ملوك البلاد الاسلامية الذين ابتهجوا بهذا النصر الكبير ، التهاني الى السلطان محمد الفاتح (١) . الا اننا لا نعلم معلومات عن تلك العلاقات بعد هذا التاريخ ، وان كان من المنتظر ان تكون هناك صلات ما بين الطرفين او على الاقل معرفة كل جانب باخبار الجانب الاخر ، ففتوحات محمد الثاني في شرقي اوربا ، وامتدادها حتى اترانتو في جنوبي ايطاليا ، وصراعاته في الشرق الاسلامي ، واصطدام بايزيد الثاني مع البندقية في شرقي البحر المتوسط ، ثم سيادة السلطان سليم على شرقي البحر المتوسط بضمه سوريا ، فمصر ، وانضواء الديار الحجازية تحت جناحه ، والتفاته نحو الشمال الافريقي ، لا يمكن ان تمر دون معرفة المغاربة بها ، وتكوين موقف معين منها ، وكذلك فان محاولات البرتغاليين والاسبان السيطرة على اجزاء من المغرب الاقصى والاوسط والادنى ، لم تكن خافية على الدولة العثمانية ، ولا سيما انها ارتبطت بسقوط غرناطة في ايدي الاسبان ، واستغاثات المسلمين فيها بالسلطان العثماني .

على ان العلاقات العثمانية المغربية لم تشهد تطورا ذا بال الا ابتداء من الربع الاول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، الذي شهد امتداد النفوذ العثماني الى شمال افريقيا وقيام حكومة في الجزائر تابعة للدولة العثمانية . وذلك امر طبيعي لانه لا يمكن

---

(١) محمد المنوني : علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني/في / دعوة الحق عدد ٦-٧ المغرب ١٩٦٥ ص ٩

اغفال عامل المنان في تلك العلاقات فالدولة العثمانية غدت على تخوم المغرب بعد ان كانت بعيدة عنها . ومن ثم فان العلاقات العثمانية المغربية تحولت في الجزء الاكبر منها الى علاقات مغربية - جزائرية . واذا مالوحظت خيوط هذه العلاقات فانه يلاحظ ان بداياتها تعود الى العقد الثاني من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، وهي الفترة التي استقر فيها اوائل الاتراك العثمانيين بقيادة الاخوة بربروس (عروج وخير الدين واسحق) اولا في جيجل ثم في مدينة الجزائر فتلمسان في سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م .

وغداة دخول عروج الى هذه المدينة الاخيرة ، واستقراره بها ، واقصائه السلطان أبا حمود الثالث الزياني منها ، ارسل على مايذكره هايدو رسله الى سلطان فاس محمد البرتغالي الوطاسي ، ليعرض عليه رغبته في التحالف معه ضد النصارى العدو المشترك بينهما ، وليبدي له استعداده لتقديم عونه له ، ضد سلطان مراكش ، وغيره من الزعماء الذين كان سلطان فاس آنذاك في صراع دائم معهم . (١) وهذه الخطوة التي خطاها عروج تجاه السلطان الوطاسي تبين رغبة عروج التركي في اقامة علاقات متينة معه ، يأمن بها جانبه ، ويؤمن حدوده ، ويدعم موقفه . ولا شك ان عروج اراد بها ايضا احباط مساعي السلطان الزياني الذي توجه الى فاس في اعقاب الاطاحة به على امل الحصول هناك على عون السلطان الوطاسي ، كما قصد عروج بهذه الخطوة الحصول على عون السلطان الوطاسي ، اذا ماتعرض لحملة اسبانية مضادة له . اذ كان يدرك ان وجوده في تلمسان لم يكن ليرضي الاسبان ، او ليجعلهم مكتوفي الايدي .

وقد كان السلطان الوطاسي المذكور يسعى بدوره الى الاتصال بالقوى المجاورة للمغرب والبعيدة عنه بهدف التعاون معها ضد الاسبان والبرتغاليين الذين استفحل خطرهم على المغرب وعلى الشمال افريقيا وغيرها . ولعل رحلات الحسن الوزان ، صاحب كتاب وصف افريقيا الذي كان يعمل في خدمته ، الى بلاد السودان والى تلمسان وتونس وبلدان اخرى في المشرق ، هذه الرحلات التي اتصل خلالها او التقى بملوك تلك البلدان او امرائها ، وبذوي الشأن فيها لم تكن مجردة من الاغراض السياسية ، وانما لتحقيق غرض السلطان الوطاسي . (٢) ومن بين من اتصل بهم الحسن الوزان وهو في البلاد الجزائرية بالاضافة الى سلطان تلمسان ، عروج بربروس كذلك حين كان هذا الاخير محاصرا لبجاية في غضون شهر سبتمبر ١٥١٥ م / (٩٢١ هـ) . وقد مكث معه الى ان رفع الحصار . (٣) وليس مستبعدا ان يكون الوزان قد ابلغ عروج بهذه المناسبة على الجهود التي كان يبذلها السلطان الوطاسي من جهته في المغرب سواء من اجل تحرير المراكز المحتلة من قبل البرتغاليين والاسبان او مواجهة حملاتهم

(١) هايدو : المرجع السابق ص ٣٠
(٢) انظر عنه مقدمة ٣ . ابيولار في وصف افريقيا لصاحبه الحسن الوزان (ليون الافريقي) ومقدمة الدكتور عبد الرحمن حميده لترجمة الكتاب المذكور . السعودية ١٣٩٩
(٣) الوزان : وصف افريقيا ص ٤١ من الترجمة العربية

الرامية الى احتلال مراقئ جديدة ، وبين لهم ضرورة التعاون من بعضهما ضد النصارى ، العدو المشترك ، وربما أبدى له ايضا استعداد محمد البرتغالي للتعاون معه ، مما قد يكون هو الذى دفع عروج وشجعه على الاتصال بالسلطان الوطاسي غداة دخوله الى تلمسان ، كما اشرنا سابقا ، وعلى عرض التحالف معه والتعاون ضد عدوهم المشترك ، وضد المناوئين لهما في الداخل .

وحسب هايدو الذي اشار الى هذا الاتصال وهذه العروض ، فان السلطان الوطاسي قد رحب ، ووافق بسرور على العروض التي تقدم بها عروج ، ومعطها اليه سفراؤه (١) . مما يعني قيام تحالف بينهما . فهل عمل التحالف فعلا ؟ واذا كان الجواب بنعم فهل ظهر له اثر في حيز التطبيق ؟

لا يؤكد صاحب غزوات عروج وخير الدين هذا التحالف الذى ذكره هايدو ، ولا يشير الى اى اتصال بهذا الخصوص بين عروج ومحمد البرتغالي ، الا انه يذكر ان هذا الاخير رفض ان يقدم للسلطان الزياني المخلوع ، ابي حمو الثالث الذى لجأ اليه اى عون (٢) . وهذا السكوت من صاحب الغزوات عن الاشارة الى التحالف ، يدفع الى الشك في قيامه . ومما يعزز هذا الشك ان السلطان الوطاسي لم يهب للتعاون مع حليفه على صد الحملة الاسبانية التي توجهت مع ابي حمو لاقتلاعه من تلمسان ، او القضاء عليه نهائيا ، كما انه لم يسرع الى فك الحصار الذى ضربه الاسبان وابو حمو عليه في تلمسان . علما ان الحصار دام مالا يقل عن ستة وعشرين يوما حسب صاحب الغزوات (٣) ، وستة اشهر حسب غيره (٤) ، وهي فترة كافية للوصول من فاس بالمدد ، لو صح عزمه على المجيء ، وعلى تقديم العون لحليفه . واذا كان هنالك تحالف كما يؤكد ذلك هايدو ويستشهد بمجيء السلطان الوطاسي على رأس جيش كبير من المشاة والفرسان الى شرق المغرب بعد اقل من خمسة عشر يوما من مقتل عروج ، وعودته بعد ان علم بمقتل هذا الاخير (٥) . فان التأخر الكبير عن التحرك ، لتقديم المدد الى حليفه حتى فوات الاوان يدعو استفهاما كبيرا ، حول مدى جدية السلطان الوطاسي في تحالفه مع عروج ، واستعداده لتطبيق مايستوجبه تحالف دفاعي وهجومي وافق عليه ، ولاسيما اذا علم ان عروج حسب هايدو قد أشعر حليفه باستعدادات الاسبان للهجوم عليه مع ابي حمو ، وان السلطان الوطاسي قد وعده بالمجيء اليه قريبا ، بالمدد المطلوب ، الامر الذى جعل عروج لا ينسحب من تلمسان على الرغم من انه كان يعلم ان قواته القليلة المنهكة له لا تمكنه من مواجهة الحملة ، او من الصمود طويلا ، في مدينة غدا لا يتمتع بشعبية كبيرة لدى سكانها ، نتيجة الشدة التي اتبعها في حكمه لهم (٦) .

(١) هايدو : المرجع السابق ص ٣
(٢) المصدر : [illegible]
(٣) نفسه : [illegible]
(٤) د يقرامون : المرجع السابق ص ٢٦
(٥) هايدو : المرجع السابق ص ٣٤
(٦) نفسه : ص ٣ - ٢٢ وابن عسكر : دوحة الناشر [illegible]

كان حريصا على الا يتورط في حرب خارج حدود مملكته ،
والذى يبدو ان السلطان الوطاسي كان حريصا على الا يتورط في حرب خارج حدود مملكته ، وعلى الا يتدخل في تلمسان ومملكتها ، يدل على ذلك امتناعه من مساعدة ابي حمو الثالث على استرجاع ملكه من عروج ، وامتناعه قبل ذلك من مساعدة يحيى بن محمد الزياني على انتزاع الملك من اخيه سلطان تلمسان . وربما كان غير مطمئن تماما الى نوايا عروج الذى لاحظ عليه انه لا يكاد يستتب له الامر في اقليم من الاقاليم حتى يوجه نظره وجهوده الى اخضاع الاقليم الذى يليه وهكذا ، حتى غدا نفوذه يمتد من جيجل شرقا الى تلمسان غربا دون ان يتورع عن الفتك بأمراء الاقاليم واصحاب النفوذ فيها . ولعله خشي ان يكون الهدف التالي لعروج بعد استتباب الامر له في تلمسان هو مملكة فاس ، التي تجاورها والتي اخذت شقته منذ ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م ، تجوب مياه شواطئها الشمالية (١). ولذلك لم يهتم كثيرا بامر حليفه المحاصر والمهدد (٢) ، وتأخر كثيرا حتى يئس عروج من مجيئه ، فقام بمحاولة يائسة للافلات من الحصار المفروض عليه فلحق به الاسبان وقتلوه ، وهو يتجه نحو المغرب على امل ان يلتحق بحليفه او يلتقي به .

اما التحرك المتأخر للسلطان الوطاسي بجيشه الى شرق المغرب فيمكن ان يحمل على انه موقف احتياطي ، لسد خطر عروج او الاستفادة من دوي انتصاره بانتزاع مليلة من الاسبان ؟ وقد مر الجيش الوطاسي على مشارفها في طريقه الى شرق المغرب .

ونتيجة لعدم التعاون المخلص بين الطرفين ، تمكن الاسبان اذًا من القضاء على عروج وبالقضاء عليه وعلى أخيه اسحاق قبله بقليل في قلعة بني راشد ، كادوا يقضون على الوجود العثماني الوليد في المغرب الاوسط ، اذ وجهوا في اعقاب مقتل عروج حملة ضخمة للقضاء ايضا على خير الدين آخر "البربروسيين" الذى بقي في قوة قليلة في مدينة الجزائر ، الا ان هذه الحملة انتهت بالفشل الذريع كما ذكرنا ، اذ تضافرت شجاعة خير الدين ورفاقه مع عوامل الطبيعة على الحاق النازلة بمن اعقاب سعي الاسبان . اما محمد البرتغالي فقد فشل في فرض سيطرة على كامل أجزاء المغرب ، وفي اخضاع القوى السياسية التي كان نفوذها وقوتها في نمو مستمر ولا سيما نفوذ الاشراف السعديين وقوتهم في الجنوب . كما فشل في تحرير الكثير من المدن والمراكز المحتلة من قبل البرتغاليين والاسبان ، فيما عدا حجر بادس الذى تم تحريره سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م عن طريق استغلال خيانة احد جنود حاميتها .

ولم تشر المصادر المتوافرة لدينا الى اتصالات بينه وبين خير الدين بربروس سواء لبحث التحالف الذى اشار اليه هايدو ، او لاقامة غيره . وسكوتها هذا يدفع الى القول بأن العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين ، وعلى رأسهم خير الدين ، وبين الوطاسيين وعلى رأسهم السلطان

(1) Ricard(R.):Le Commerce Genois au Maroc, 1415-1550.
in Annales de I.E.O., Paris 1937, t.3 , P.62. (١)

(٢) دوغراسون : يخلط بدوره في قيام تحالف بين عروج ومحمد البرتغالي انظر تاريخ الجزائر ص ٢٥

محمد البرتغالي ، قد شهد فتورا ان لم يكن انقطاعا بعد مقتل دروج لبضع سنين . ولا شك ان ذلك ناتج ايضا عن الصعوبات التي واجهها خير الدين بعد مقتل اخويه ، حيث تعرض الى حملة اسبانية كبيرة ، والى تآمر سلطاني تونس وتلمسان عليه ، وتمرد احمد بن القاضي الزواوي بتحريض من السلطان الحفصي ، ونجاحه في اقصائه من مدينة الجزائر لبضع سنين مكثها كما رأينا في جيجل . فتباعدت الشقة بين الطرفين . ولكن هذا الفتور او الانقطاع لم يستمر طويلا فيما يبدو ، اذ اخذت السفن الجزائرية العثمانية تتردد ابتداء من سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م على الاقل على ميناء العرائش في المغرب وتتخذه معقلها ، وتقضي فيه فصل الشتاء (1). مما يدل على ان العلاقات بين امراء الجزائر العثمانيين وحكام المغرب الوطاسيين قد تحسنت، ولكن التحسن الملحوظ كان بعد عودة خير الدين من جيجل الى مدينة الجزائر ، ولا سيما بعد قضائه على الحصن الاسباني "البنون" فيها في هجوم ٢٧ ماي ١٥٢٩ م الذي كان له صدى كبير لدى الاسبان والنصارى عامة ، ولدى المسلمين . وبعد استيلاء ابي العباس احمد بن محمد البرتغالي السلطة في المغرب . ففي اعقاب الانتصار الذي حققه خير الدين على الحصن الاسباني المذكور طمح الى تحرير وهران ، فارسل الى السلطان الوطاسي المذكور والى امير بادس (ابي حسون) يدعوهما كما دعا سلطان تلمسان وغزاة البحر في تونس الى المساهمة في الحملة على وهران بكل ما يملكون من سفن (2). ولكن ظروف الوطاسيين في هذه الفترة في المغرب ، لم تكن لتسمح لهم بتلبية ندائه اذ كانوا في نزاع عنيف مع السعديين الذين استولوا على مراكش ورفضوا الاعتراف للسلطان الوطاسي بالتبعية ، وتقديم فروض الولاء والطاعة . وفي سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م خاضوا معركة آنماي ضدهم ، ولم يتمكنوا من تحقيق النصر (3). ولذلك فان مشروع حملة خير الدين للهجوم على وهران لم ينفذ كما كان يريد ، ولكن احمد الوطاسي وابا حسون المذكور أبديا استعدادهما للتعاون وتطوير العلاقات نحو الاحسن .

وقد تجلى تحسن العلاقات بين الطرفين في : ١- قيام خير الدين في أفريل ١٥٣١ (شعبان ٩٣٧ هـ) على رأس مجموعة من السفن بالرسو في الموانئ الشمالية لمملكة فاس ، والتزود منها بما كان في حاجة اليه من حبوب ، وغيرها ، للتغلب على المجاعة التي كانت سائدة في الجزائر في هذه السنة (4) ٢- وفي ارسال خير الدين في السنة التالية (٩٣٨هـ/١٥٣٢م) سفيرا الى السلطان الوطاسي ليبدي لهذا الاخير استعداده الكامل لان يأتي بنفسه لمهاجمة

---

(1) أندريه : المرجع السابق ص ٦
(2) بريموداي : الوثائق المغفلة ص ٣٤ - ٣٥
(3) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب
(4) م.م.م.م اسبانيا جـ ١ ص ١

أو مركز بريد مهاجمته ، وليطلب منه تزويده بطلح البارود المتوفر لديه . وقد اسرع السلطان الوطاسي المذكور الى تلبية طلبه (١) . مما يدل على قيام تعاون فعلي بين خير الدين بربروس وأحمد الوطاسي ، الامر الذي اثار قلقا ومخاوف كبيرة لدى الاسبان والبرتغاليين ، فاسرعوا الى تعزيز قواعدهم الواقعة بشمال المغرب وتعزيز شواطئهم الجنوبية ، لاتقاء هجوم تركي - وطاسي محتمل (٢) . وحتى يشغل الامبراطور شارلكان خير الدين بربروس عما كان يعتزم القيام به من تعاون مع السلطان الوطاسي ، وعما كان يلحقه من ضربات بالسفن والشواطئ الاسبانية ، وعما كان يقدمه من عون لمسلمي الاندلس فانه اغرى عبد الله الثاني سلطان تلمسان على الثورة ضد خير الدين ، ووعده بمساعدته على انتزاع مدينة الجزائر من خير الدين باسطوله (٣) فاغتر السلطان الزياني بوعده ، وقام بحملة على الجزائر باءت بالفشل الذريع ولاحقه خير الدين حتى تلمسان ، دون ان يتقدم الاسبان لمساعدته ، فطلب العفو من خصمه فعفا عنه خير الدين كما رأينا (٤) . وتمكن الوطاسيون من جهتهم تحرير غساسه الواقعة الى الشرق من مليله في (٩٤١ هـ / ١٥٣٤م) (٥) ، فبدا للاسبان والبرتغاليين أن لا شيء يمنع قيام تعاون كبير بين الاتراك العثمانيين والوطاسيين ، مما اثار مزيدا من المخاوف لديهم ، ولا سيما بعد ان عاد خير الدين من القسطنطينية على رأس الاسطول العثماني ، واستولى بسهولة على تونس في صيف (٩٤١ هـ / ١٥٣٤م) (٦) ، لدرجة ان البرتغاليين اخذوا يفكرون في الجلاء عن بعض المراكز التي يحتلونها ، والتي من الصعب الدفاع عنها . وجرت بخصوص ذلك مشاورات بين الملك البرتغالي ، وكبار الشخصيات البرتغالية (٧) . اما شارلكان فقد أمر باخلاء هنين بعد تخريبها في (٩٤١ هـ / ١٥٣٤م) ، واعادة حاميتها الى وهران لتعزيزها (٨) . ثم استغل فرصة طلب السلطان الحسن الحفصي مساعدته على استرجاع ملكه المغتصب من قبل خير الدين ، فجهز حملة ضخمة للقضاء على خطر هذا الاخير . ونجح في اقصائه منها ، واعادة الحسن الحفصي الى ملكه تابعا له ، وابقى في حلق الوادي حامية اسبانية كبيرة (٩) . وقد كان احمد الوطاسي ينتظر ان يقدم له خير الدين مساعدته لاسترجاع طنجة وأصيلا من البرتغاليين بعد نجاحه في تحرير غساسه من الاسبان . الا أن خير الدين دعي للعودة الى

(١) م.م. تم اسبانيا جـ١ ص٤١ - ٤٣
(٢) م.م. تم نفسه ص١
(٣) حكم من ١٥٢٠ - ١٥٣٤ م وحسب آخرين يكون قد حكم في الفترة ١٥٢٨-١٥٣٢ انظر روف المرجع السابق ص١٩-٢١
(٤) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر وانظر المجهول : المرجع السابق ص٧-٨ وانظر ايضا رسالة عبد الله الى الامبراطورة بخصوص ترتيب الحملة المذكورة في عهد الرحمن الجيلالي تاريخ الجزائر العام جـ٢ ص٢٠٨ - ٢١٠
(٥) مارمول : أفريقيا جـ٢ ص٢٨٩
(٦) استولى خير الدين على تونس في ١٦/٨/١٥٣٤ انظر بريمودي المرجع السابق ص٩٤-٩٦
(٧) م.م. تم البرتغال جـ١ ص٦٤٥
(٨) روف المرجع السابق ص٣٥
(٩) حول حملة شارلكان على تونس انظر مارمول المرجع السابق جـ٢ ص٤٦٠ وما يليها .

القسطنطينية فوراً لعلها يحصل على العون المنتظر منه (١). ولما كان خليفته حسن آغا مهدداً بحملة اسبانية كبيرة على غرار حملة شارلكان على تونس ، ولم يكن بامكانه تقديم العون له ، فان السلطان الوطاسي الذي مني بدوره بهزيمة ساحقة امام خصومه الاشراف السعديين في معركة وادي العبيد سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦ م ، رأى ان يميل الى مسالمة الاسبان والبرتغاليين ومهادنتهم ، حتى لا يستغلوا ضعفه السيء . وتوصل الى اتفاق سلام مع البرتغاليين لمدة احد عشر عاما عقد في شهر مارس ١٥٣٨ ، على ان يدخل الاسبان ايضا (٢) . وكان هدف البرتغاليين فيما يبدو من وراء استجابتهم لرغبة السلطان الوطاسي في السلام معهم هو صرف هذا الاخير عن التحالف والتعاون مع الاتراك العثمانيين ضدهم ، والحيلولة دون تسرب النفوذ العثماني الى المغرب . ومما ورد في الاتفاق الذي عقد بين الطرفين شرط ينص على انه لا يحق لرعايا السلطان الوطاسي في مناطق آصيلا ، طنجة ، والقصر الصغير ، وسبتة ، وهي كلها مراكز ساحلية في حال مجيء السفن التركية العثمانية الى بلادهم ، ان يشتروا الاسرى المسيحيين ، وتصادر البضائع الاخرى ، وتعاد الى الطرف الذي اغتصبت منه ، الا اذا كانت قوة العدو لا تسمح بمهاجمته (٣) .

ولكن هذا الاتفاق سرعان ما خرق ، ولم يلتزم به . وسير الحوادث التالي ذكرها يثبت ذلك : فابو حسون الوطاسي امير بادس ، الذي كانت له علاقات طيبة مع اتراك الجزائر العثمانيين ، حيث كان يتعامل ويتعاون معهم ضد الاسبان والبرتغاليين قبل حصول الاتفاق المذكور (٤) ، لم يتوقف عن التعامل والتعاون معهم ، . ومما يؤكد ذلك مجموعة من الوثائق المعاصرة ، فاحداها تشير الى شراء عدد كبيرا من الاسرى النصارى من الغزاة الاتراك في سبتمبر ١٥٤٠ بمبلغ ٥٠٠٠ دوكات (٥) ، واخرى تشير الى طلبه ٤٠ سفينة من الجزائر لاجراء معركة مع اسطول دون برنارد ينو دومندوزا (Don Bernardino de Mandouza القائد العام للبحرية الاسبانية (٦) ، وثالثة تشير الى ان حسن آغا ، ارسل في اعقاب حملة شارلكان على الجزائر مبعوثا الى بادس في نهاية عام ١٥٤١ مكلفا بشراء سفن واشياء اخرى من هناك (٧) . كما ان السيدة الحرة حاكمة تطوان ، وزوجة السلطان أحمد الوطاسي نفسه ،

---

(١) م . م . ت . م اسبانيا ج ١ ص ٧
(٢)(٣) نفسه ص ٣٧ - ٤٨ وبريموداي الوثائق المغفلة ص ٣
(٤) نفسه ص ٨
(٥) م . م . ت . م اسبانيا ج ١ صفحة ٨٨ - ٩٠
(٦) نفسه ص ٩٠ - ٩١
(٧) بريموداي المرجع السابق ص ٢٥٣ و مفاوضات حسن آغا مع الكونت الكوديت في المرجع السابق ص ١٨٣ .

لم تلتزم بدورها بالاتفاق المذكور بين البرتغاليين والوطاسيين ، اذ كانت تسمح هي الاخرى للسفن الجزائرية العثمانية بالتردد على ميناء تطوان، والتزود منها بما يلزمها ، ولم تنف سفنها عن القيام بالغزو البحري (١). فهذه المواقف لا تدل فقط على خرق الاتفاق البرتغالي الوطاسي الذي الغي رسميا في سنة ١٥٤٣م ، ولكنها تدل على الخصوص على ان العلاقة التي كانت قائمة بين الوطاسيين، واتراك الجزائر العثمانيين في عهد خير الدين ، وخليفته حسن آغا ، كانت في مجملها حسنة تعتمد على بعض التعاون ضد القوتين الاسبانية والبرتغالية.

وقد استمر امرها كذلك في عهد الولاية الاولى لحسن بن خير الدين (٩٥١-٩٥٨هـ/١٥٤٤-١٥٥١م) • ومن الشواهد الدالة على ذلك بالاضافة الى الاستمرار في استقبال السفن الجزائرية العثمانية في موانئ شمال المغرب ، وتزودها منها بما تشاء ، تعاون غزاة البحر الجزائريين مع غزاة تلك الموانئ • وانتقال عدد كبير من الاتراك العثمانيين للعمل بصورة فردية في بلاط الوطاسيين ، ولاسيما في صفوف جيشهم • وقد بلغ عددهم حسب رواية طوريس أكثر من اربعمئة عشية معركة درن (٢). التي جرت بين الوطاسيين والسعديين في سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م•

ومن الادلة ايضا : عدم تعاون الوطاسيين مع الثائرين على الاتراك العثمانيين او المناوئين لهم ، فالثائر بوطريق الذي التجأ الى المغرب بعد فشل ثورته امام اتراك الجزائر في ربيع ١٥٤٤م (٣) . لم يجد لدى الوطاسيين اي عون (٤). والسلطان احمد الزياني الذي اطاح به حسن بن خير الدين عن ملك تلمسان في سبتمبر سنة ١٥٤٥م والذي التجأ الى دبدو وقبض على امير دبدو الوطاسي، وطلب من بعض من معه وسجن البعض، وسلب اموالهم (٥). كما اشرنا الى ذلك سابقا ومن جهته فان السلطان العثماني الذي كانت تجري بينه وبين الامبراطور شارلكان مفاوضات لعقد اتفاق سلام، رفض الموافقة على الاتفاق مالم يشمل سلطان فاس (٦). على أن اهم تطور شهدته العلاقات الجزائرية العثمانية - الوطاسية في عهد حسن بن خير الدين هو الذي اعقب الهزيمة الساحقة التي مني بها الوطاسيون امام السعديين في معركة درن سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م • ففي اعقاب هذه المعركة التي وقع فيها السلطان أحمد الوطاسي وابنه اسيرين في يد محمد الشيخ السعدي ، والتي اصبح الطريق بعدها الى فاس مفتوحا امام السعديين ، وبات ملك الوطاسيين مهددا بالزوال ، لم يتردد الوطاسيون في اعلان ولائهم للسلطان العثماني من أجل الحصول على دعمه ومساعدته لهم ضد خصومهم السعديين ، على غرار ما فعل خير

---

(١) م•م•م• شتى• اسبانيا جـ ١ ص١٠٧ ، هامش ٤

(٢) طوريس: تاريخ الاشراف • • • ص٥ ظل لاجئا في المغرب الى ان كانت حملة ابناء محمد الشيخ

(٣)(٤) دبايد وطرلك الـ زائر ص٧١

السعدي على تلمسان في سنة ١٥٥٠م

(٥) السلاوي ، المرجع السابق جـ٢ ص٦٣ ، (رسالة فوكان بتاريخ ١٧/٧/١٥٤٥)

(٦) م•م•م• شتى• انلتـــرا جـ١ ص٠١ هامش ٣

الذين قبل ... من السلطان سليم حين وجد نفسه في وضعية سيئة بعد مقتل اخويه
عروج واسحاق . وناشد الوطاسيون السلطان سليمان التدخل لاطلاق سراح السلطان الوطاسي
وابنه الاسيرين لدى محمد الشيخ (١) .

ولا شك ان اتراك الجزائر العثمانيين قد دعموا طلب الوطاسيين وايدوه ، لما كان
بينهم وبين الوطاسيين من علاقات حسنة في مجملها كما تبين من قبل من خلال مواقف عديدة
ولاسباب اخرى اهمها : ان الاشراف السعديين الذين ما انفكت قوتهم تتعاظم ، كانوا يمثلون
في نظر المرابطين وعامة ... المتدينين ، الحكام الشرعيين بفضل نسبهم الشريف ، مما يجعل
بروزهم وتفوقهم في المغرب عليهم في الجزائر ، حيث كان هناك جماعات تنظر الى الحكام
الاتراك على انهم غرباء عن ، ومغتصبون للسلطة ، ولذلك كان من مصلحة الاتراك
العثمانيين ، الا يستقطب الاشراف السعديين في المغرب ، حتى لا يوجهوا انظارهم
الى الجزائر ، او يكونوا منافسة قوى لهم فيها . اضف الى ذلك ان مراكز قاعدة السعديين
عدت مأوى المناوئين لهم ... ثائر بوطريق الذي انعسى به المطاف عند
السعديين الذين آووه ، واصطحبوه فيما بعد في حملتهم على الغرب الجزائري . واخيرا
ان محمدا الشيخ ابدى اهتماما واضحا بالغزو البحري مما يجعله منافسا قويا لهم في هذا
المجال (٢) .

وقد رغب السلطان العثماني بولاء الوطاسيين الذي من شأنه ان يوطد مركز العثمانيين
في شمال افريقيا ، ويجعل نفوذه يمتد الى المغرب الاقصى دون عناء . فتتم سيطرته على
الجزء الاكبر من الحوض الغربي للبحر المتوسط بعد ان ساد على شرقه ، ويصبح اكثر قربا
من المسلمين في اسبانيا الذين كانوا يوجهون له النداء تلو النداء لاغاثتهم ، ورفع الضيم
عنهم ، كما يغدو بذلك رأس العالم الاسلامي السني كله ، ويجمع في شخصه كل البقاع التي
كانت الدولة ... الاسلامية تضمها في عصور قوتها الاولى . فارسل سفارة الى مراكش حملت
اوامره الى محمد الشيخ باطلاق سراح السلطان الوطاسي فورا ، والتعويض له عن الاضرار
التي الحقها به تحت طائلة مهاجمته (٣) . وحسب بعض المراجع فان السلطان العثماني
يكون قد ... ايضا بهذه المناسبة اقامة خطبة الجمعة في اقاليم مملكته ، مما يعني بعبارة
أخرى طلب الاعتراف بسيادته عليه والدخول تحت لوائه (٤) .

(١) طوريس : المرجع السابق ص٢٠٧
(٢) أ . كور : المرجع السابق ص٩٦
(٣) طوريس : المرجع السابق ص٢٠٧ - ٢٠٩
(٤) تيراس : تاريخ المغرب ... ج٢ ص١٦٥

وكان رد فعل السلطان محمد الشيخ ، الغضب الشديد من محتوى الرسالة التي قدمها له المبعوث التركي ... ومن لهجتها ، حيث ان السلطان العثماني كان فيها طلب لا يربوه ولكن يأمره . ومااغضبه اكثر حتى كاد يخرج عن طوره ويهم بقتل المبعوث العثماني . وكان هذا المبعوث هو القائد صفا الذي شغل قبل بعثته وبعدها عدة مهمات في الجزائر (1) هو مخاطبة السلطان العثماني له بشيخ العرب ، لا امير المؤمنين او الخليفة كما كان يحلو له ان يلقب نفسه . وكانت النتيجة رفض تلك المطالب ، او ذلك الانذار الضمني ، والجد في العمل للقضاء على حكم الوطاسيين ، تمهيدا لمهاجمة العثمانيين في الجزائر قبل ان يهاجموه .

ولما رأى الوطاسيون ان التدخل العثماني توقف عند التهديد فقط ، وان هذا التهديد لم يجد نفعا ، اذ لم يؤثر على موقف محمد الشيخ المتصلب ، الذى مضى في اعتقال السلطان الوطاسي ، ورفض كل وساطة لافتدائه بالمال ، وعندما تضاءل املهم في الحصول على دعم من اتراك الجزائر العثمانيين بعد ان اكره هؤلاء على الانسحاب من تلمسان في سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م وعاد النفوذ الاسباني اليها من خلال سلطانها احمد الزياني الموالي للاسبان ، فانهم رضخوا لشروط محمد الشيخ وسلموا له مكناسة في سنة ٩٥٤ هـ / ١٥٤٧ م ، في مقابل اطلاق سراح السلطان الاسير . الا ان محمدا الشيخ رام بعد امتلاكه مكناسة ، مفتاح فاس ، اخذ مابقي بايدى الوطاسيين الامر الذى دفع هؤلاء الى السعي للحصول على دعم الاسبان والبرتغاليين لهم ، بعد ان فقدوا كل تحيز لهم على غرار الدعم الذى تلقاه السلطان الحسن الحفصي، او السلطان عبد الله الزياني من الامبراطور شارلكان في سنة ١٥٣٥ وفي سنة ١٥٤٣ (2) ، ولكن محمدا الشيخ الذى كان يرصد تحركاتهم لم يمهلهم ليتوصلوا الى مثل هذا الاتفاق اذ تمراه الى فاس بسرعة وحاصرها الى ان استسلم له الوطاسيون فيها كما رأينا (3) ، باستثناء قلة منهم تمكنوا من الافلات من الحصار في مطلع سنة ١٥٤٩ ، وقضى على حكم الوطاسيين فيها ، وفي شمال المغرب .

ولم يخب اتراك الجزائر الذين تمكنوا في سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م من استرجاع نفوذهم على تلمسان (4) . الى انقاذ الوطاسيين من السقوط ، وذلك فيما يبدو لميل هؤلاء الاخيرين عنهم ، والتجاءهم الى طلب المساعدة من الاسبان والبرتغاليين (5) . وربما لما بدا للاتراك من ضعف الوطاسيين امام السعديين ، وعدم رغبتهم في ايصال العلاقات بينهم وبين الاخيرين الى مستوى من التوتر أعلى مما كان عليه . وبذلك يفسحون المجال للتفاهم والتواصل ، وسدا على الارجح لباب التعاون بين اتراك الجزائر وفلول الوطاسيين الذين افلتوا من قبضة السعديين

---

(1) ... اسبانيا ج1 ص206 هامش 5 و ص248 هامش 1
(2) نفسه ص ... - 124 و 129 - 130
(3) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .
(4) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(5) يبدو ان الوطاسيين ، لم تكن لهم ثقة في مساعدة حسن بن خير الدين لهم ولاسيما على جناح السرعة ولذلك فانهم الحوا في الحصول عليها من الاسبان والبرتغاليين الاكثر قربا منهم

وفتحا لصفحة جديدة في العلاقات مع اتراك الجزائر قام محمد الشيخ بالخطوة الاولى الى التقرب من حسن بن خير الدين ، وعرض عليه التعاون لتحرير وهران من الاسبان، وشن هجوم على هؤلاء في عقر دارهم . وكخطوة اولى استبقى محمد الشيخ الاتراك العثمانيين الذين كانوا في خدمة الوطاسيين عنده (1) . وهذا التقارب هو الذي جعل بعض [illegible] الوطاسيين لا يتوجه الى اتراك الجزائر منذ البداية لطلب العون منهم لاسترداد ملك الوطاسيين ، مع ماكان يربطه بهم من علاقات حسنة منذ عهد خير الدين ، وانما يتوجه الى الاسبان والبرتغاليين (2) . مستغلا مخاوف هؤلاء وأولئك من التقارب العثماني-السعدي .

ومما تقدم يتضح ان العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين والوطاسيين ، على الرغم من انها كانت علاقات ودية في مجملها ، الا انها لم ترق الى مستوى التعاون الكبير الفعال بين الطرفين . بل يمكن القول ان الوطاسيين ذهبوا ضحية السياسة المترددة التي اتبعتها الدولة العثمانية تجاههم ، وتجاه المغرب عموما ، وهذه السياسة ان دلت على شيء فانما تدل على عدم رغبتها في التدخل في المغرب بكل ثقلها ، وان المغرب لم يكن المحور الاكثر اهمية ضمن اهتماماتها . وهو مالمسه اواخر الوطاسيين ، وجعلهم يميلون مجددا الى الاسبان والبرتغاليين ، ولكن تذبذبهم افقدهم ثقة هؤلاء واولئك ، كما افقدهم شخصيتهم ، ففشلوا وانهاروا امام خصومهم السعديين . وقد يكون وراء تردد العثمانيين في سياستهم تجاه مغرب الوطاسيين ، هو مشاغل الدولة العثمانية في شرقي اوربا ، وبروز السعديين قوة كبيرة تتمتع بثقة اهل المغرب بل والجزائر . ومن ثم كان من الصعب أخذها بالسياسة واللين ، لا بالقوة والعنف ولاسيما أنه بدا لها واضحا ان الحكام الوطاسيين الذين كانت ستعمل من أجل دعمهم ، محكوم عليهم بالزوال لعجزهم عن معالجة قضايا المغرب الكبرى واهمها الغزو الخارجي والانقسام الداخلي .

ب - العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين والاشراف السعديين :

لا نملك اي نص يشير الى صلات او علاقات مباشرة بين عروج، المؤسس الاول للنفوذ التركي العثماني في الجزائر ، وبين الشريف محمد القائم بأمر الله ، رأس الاسرة السعدية في المغرب ، وقد يستشف من ذلك ان العلاقات بينهما كانت معدومة ، او ان هذه العلاقات كانت في بداياتها ضعيفة ، فلم تحظ بالتسجيل . ولا يظن ان عرض عروج الذي تقدم به الى السلطان الوطاسي والذي ابدى فيه استعداده للتعاون ضد المتمردين عليه في الجنوب ، مقابل تحالف دفاعي وهجومي بين الطرفين كان نتيجة لسوء علاقات مع اولئك المناوئين ، ومنهم الاشراف السعديون .

---

(1) م . م . م . [illegible] م اسبانيا ج1 ص 246 - 248 و 298 - 302

(2) نفسه ص [illegible] وما يليها و هايدو المرجع السابق ص 8

ورغبته في الحصول على حليف
...در ما كان نتيجة شعوره بعدم الاطمئنان على وجوده في تلمسان ،
...عم ضد مناوئيه من الزيانيين وحلفائهم الاسبان . وتعود الاشارات الاولى للعلاقات بين
...تراك الجزائر والسعديين المتوافرة بين ايدينا الى العقد الرابع من القرن العاشر الهجري
/ العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي ، اي الى عهد خلفاء عروج ومحمد القائم
(بأمر الله) حيث تشير وثيقة برتغالية الى وجود اتراك عثمانيين في صفوف السعديين منذ سنة ٩٣٥هـ
/ ١٥٢٩م ، ومشاركتهم في حصار سانتاكروز في ٩٤٨هـ / ١٥٤١م (١). وتشير وثيقة اخرى
برتغالية الى ان الشريف احمد الاعرج بن محمد القائم بامر الله كانت له اتصالات مع الاتراك
العثمانيين، مما يجعل البرتغاليين يتخوفون من هذه الاتصالات ، ومن تزايد قوته، وتوسع
نفوذه (٢). ولا شك ان هذه الاتصالات كانت تستهدف التعاون، والتضامن بين القوتين
الاسلاميتين في المغرب والجزائر. وقد اخذ البرتغاليون يفقدون بعد منذ اواسط العقد الرابع
من القرن السادس عشر في الجلاء عن بعض المراكز التي يحتلونها ، ولا سيما الجنوبية والوسطى
منها ، التي كانت تتعرض باستمرار الى هجومات السعديين كاسفي ، وآزمور ، وغيرهما
لتعزيز دفاعهم عن المراكز الاخرى ولا سيما الشمالية منها ، ويعملون على احباط التقارب بين
الاتراك العثمانيين والسعديين عن طريق التقرب من هؤلاء ، والسعي الى عقد اتفاق سلام
معهم لاطول مدة ممكنة كاتفاق سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م الذي عقد لمدة ثلاث سنوات (٣) ،
املا منهم في ان يحولوا بذلك دون التسلل العثماني الى المغرب . ولما تجدد الصراع بين
الطرفين ، ونجح السعديون في تحرير آغادير سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م ، كما نجح اتراك
الجزائر في نفس السنة في الحاق الهزيمة بحملة شارلكان ، ازدادت مخاوف البرتغاليين من
قيام تعاون جزائري تركي ومغربي سعدي كبير ضدهم ، بعد ان لاحظوا تزايد قوات السعديين
بفضل المساعدات التركية العثمانية ، وبفضل وجود اتراك في صفوفهم كمدفعيين ومدربين ،
في حصار سانتاكروز (آغادير) سنة ١٥٤١ (٤). فجلوا تلقائيا عن بعض قواعدهم التي كان
الدفاع عنها يعد ولهم صعبا، ومكلفا، كاسفي وآزمور في نهاية سنة ١٥٤١ ، وعززوا مازاكان، وقواعدهم
في شمال المغرب .

والسؤال الهام المطروح : هل حصل فعلا تعاون بين اتراك الجزائر العثمانيين
والسعديين ؟ .

اذا استثنينا ما ذكر من وجود اتراك في صفوف السعديين كمدربين، ومعلمين في صنائع الاسلحة،

---

(١) م.م.م... البرتغال ج٣ ص٣٩١
(٢) نفسه ص... ١
(٣) نفسه ص...
(٤) نفسه ص٥٦ (انظر رسالة ملك البرتغال الى سفيره في مدريد بتاريخ ١٢/١٢/١٥٤١)

وإذا استثنينا ما تقدم انه قد بلغ عدد هؤلاء الاتراك
يعرف كيف تم انتقالهم الى السعديين ، كانوا يساهمون في الحركات (١)، نحو سبعمئة من حملة البنادق النارية
سنة ٩٥٠ هـ/١٥٤٣م (٢)، فانه ليس هناك وفي سياسة السلطان السعدي نفسه
العسكرية المخططة للسعديين ، واشراف المغرب في عهد احمد
يدل على قيام تحالف مكتوب او غير مكتوب بين اتراك الجزائر ، وينظمها على
الاعرج ١٥١٧ - ١٥٤٤م يدعم صلات الود ، وامنيات التعاون بين الطرفين
الرغم من الحزن التركي الملموس واذا كانت علاقات احمد الاعرج والاتراك العثمانيين على مايبدو
طيبة حيث كان نفوذ السعديين في عهده لا يزال منحصرا في جنوب المغرب ، فان تلك العلاقات
تلبدت بالغيوم في عهد محمد الشيخ ٩٥١هـ الى ٩٦٤ هـ/١٥٤٤ - ١٥٥٧م الذي امتد
نفوذه الى الشمال وشمال مملكة فاس المجاورة لمملكة تلمسان كما رأينا سابقا ، وذلك بعد ان
رفض الامتثال لاوامر السلطان العثماني باطلاق سراح السلطان احمد الوطاسي الذي وقع
اسيرا لديه في سنة ٩٥٢ هـ/١٥٤٥م ، وتوترت تلك العلاقات الى حد العنف كما سنرى مفصلا
بعد قليل حين اقدم السعديون على غزو تلمسان والغرب الجزائري في صيف ٩٥٧ هـ/١٥٥٠م
هذا مع العلم ان تلك العلاقات كانت قد لاحت فيها بوارق التقارب في اعقاب استيلاء محمد
الشيخ على فاس والقضاء على حكم الوطاسيين فيها كما المعنا الى ذلك سابقا ، لان حسن بن
خير الدين وقد طغى على السياد ، ولم يتدخل في الامر ، بل ان الوثائق الاسبانية تتحدث عن
اتصالات بين الطرفين وبوادر قيام تحالف بينهما ضد العدو المشترك لهما ، الاسبان
والبرتغاليين (٣) ، وعن انتقال عدد غير قليل من الاتراك العثمانيين الى السعديين بحيث
بلغ عددهم حسب وثيقتين اسبانيتين معاصرتين بتاريخ ١٤ و ١٩ /٤/ ١٥٤٦ نحو الف تركي
معظمهم من الرماة للعمل في صفوف جيش محمد الشيخ البري والبحري وفي مصانع اسلحته
وسفنه (٤) . كما تتحدث من كتابة محمد الشيخ الى الجزائر يطلب توظيف آخرين (٥) .
وفي مقدمة من طلب انتقاله اليه ، وابدى استعداده لتلبية جميع طلباته ، درغوث رايس
الذي كانت شهرته في الغزو البحري قد طبقت الآفاق ، لانه كان يود الاستعانة به في
شن حرب على الاسبان والبرتغاليين (٦) . مستغلا هدنة الاتراك العثمانيين مع الاسبان
وغيرهم ، تلك الهدنة التي جمدت تقريبا نشاطهم الحربي (٧) .

وانظر مارمول المرجع السابق ج ٢ ص ٦
(١) نفس المرجع السابق
(٢) الزياني : الترجمان المعرب ص ٦٩
(٣) م.م.م. اسبانيا ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٨ و ٢٦٨ - ٣٠٢
(٤) نفسه ص ٢٢٢ - ٢٣٢
(٥) نفسه ص ٣٣٧ - ٣٤٠
(٦) نفسه ص ٣١١ و ٣٢١
(٧) في ١٩ /٦/ ١٥٤٧ وقعت الدولة العثمانية اتفاقا من الهدنة لمدة خمس سنوات يشمل الامبراطور والبابا وملك فرنسا والبندقية انظر م.م.م. اسبانيا ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٣
هامش ٢

وقد اثارت في حينها انباء التقارب الجزائري المغربي (التركي العثماني - السعدي)، وانباء انتقال الاتراك العثمانيين الى المغرب قلقا كبيرا لدى الاسبان والبرتغاليين ،فبادروا الى ارسال تعزيزات الى مواقعهم على الشواطئ الجزائرية والمغربية،والشواطئ الجنوبية الاسبانية والبرتغالية . ولكن هذه المخاوف زالت بعد ان رأوا القوتين الاسلاميتين تصطدمان ضد بعضهما في خريف سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠ م بعنف ، وتتحول علاقاتهما من التحالف الى العداء الشديد .

وهكذا يمكن القول ان العلاقات بين السعديين واتراك الجزائر في هذه الفترة ٩٢٣ - ٩٥١ / ١٥١٧ - ١٥٤٩م كانت في مجملها سلمية ، وودية طوال عهد احمد الاعرج ، ثم مالت نحو العداء والعنف نتيجة رغبة الاتراك العثمانيين وفي مقدمتهم السلطان العثماني في فرض الهيمنة على المغرب ، والتبعية على محمد الشيخ السعدي ، وامتناع هذا الاخير عن الرضوخ ، ثم مبادرته الى مهاجمة الاتراك العثمانيين في الجزائر في عقر دارهم.

وخلاصة القول فان المتأمل في سيتميز العلاقات بين الجزائر والمغرب ، في الفترة المذكورة ١٥١٧ - ١٥٤٩ يجد ان حكام تلمسان كانوا يسعون كما في الفترة السابقة الى الحصول على الدعم من المغرب للحفاظ على وجودهم المهدد من قبل الاسبان ولا تراك العثمانيين ، بينما كان هؤلاء يسعون في اولويات علاقاتهم مع المغرب للتقارب منه ما أمكن ، دون مفاجأته بالعنف او الرغبة في السيطرة عليه ، وذلك بدعوى تحقيق التضامن الاسلامي .

وهكذا يثبتون وجودهم في الجزائر من جهة ويواجهون اخطار القوى المسيحية على البلدين، ويسعون لتحريرها من الاحتلال المسيحي ، ثم توحيد البلدين تحت لواء الدولة العثمانية ، مع المشاركة في تحقيق مخططات هذه الدولة . في حين مضى الوطاسيون في حرصهم السابق على عدم التورط في التدخل خارج حدود المغرب سواء لمساعدة الزيانيين أو الاتراك العثمانيين ، ولكنهم سعوا من جهة اخرى الى الاستفادة من تجربة الاتراك العثمانيين أو الدولة العثمانية ، في صراعهم مع القوى الخارجية من اسبان وبرتغاليين، ونزاعهم مع القوى الداخلية ، ولا سيما مع الاشراف السعديين من اجل الحفاظ على وجودهم ،لكنهم لم يجدوا التعاون الكافي، والتجاوب المرغوب ، فتذبذبوا بين التقرب من القوة الاسلامية العظمى ممثلة في الدولة العثمانية وممثليها أتراك الجزائر العثمانيين ، وبين القوى المسيحية العظمى ممثلة في الاسبان والبرتغاليين .

أما السعديون فكانوا وهم في بداياتهم - وقد حملوا لواء الجهاد كما حمله العثمانيون- يهدفون في علاقاتهم مع أتراك الجزائر على الخصوص الى التعاون على تحرير شواطئهم وشواطئ

الجزائر وربما نقل ميدان المعركة بعد ذلك الى أرض العدو ومساعدة مسلمي الاندلس ، ولكن مع العجز الشديد على استقلالهم عن الدولة العثمانية، والرفض البات للتبعية لها، مهما كانت اخطار ذلك .

ويجد المتأمل في الاسس العامة المحركة للعلاقات في هذه الفترة بين الجزائر والمغرب دورا قويا للقوى الخارجية ، أكانت عثمانية أم اسبانية ام برتغالية : فتدخل السلطان العثماني في النزاع الوطاسي السعدي للضغط على محمد الشيخ السعدي، وتهديده، قد وتر العلاقات بين الجزائر والمغرب ، ولو الى حين ، وجعل السلطان السعدي المذكور وأبناءه من بعده ، لا يطمئنون ابدا الى نوايا الاتراك العثمانيين في الجزائر وسلطانهم . كما أعطى إحجام السلطان العثماني عن تنفيذ تهديده حينذاك، انطباعا للوطاسيين بعدم جدية العثمانيين في مساعدتهم ضد خصومهم ، فمالوا الى الاسبان والبرتغاليين ، مما اضعف بالتالي الهيبة العثمانية لدى السعديين ، واشعرهم بقوتهم حيالهم ، وافسح المجال لتأثير اسباني برتغالي اقوى في العلاقات الجزائرية المغربية . ويظهر تأثير الاسبان والبرتغاليين ، الحريصين على عدم امتداد النفوذ العثماني الى المغرب ، في العلاقات بين حكام هذا الاخير وحكام الجزائر ولا سيما الاتراك العثمانيين منهم ، في : أولا - تغذية الشكوك والمخاوف لدى الحكام المغاربة من نوايا الاتراك العثمانيين في ضم المغرب تحت لوائهم ، وقد دعم تهديد السلطان العثماني لمحمد الشيخ مزاعمهم، رغم عدم تنفيذ السلطان العثماني لتهديده . وثانيا في مساعي التقرب من الوطاسيين والسعديين ، وتوقيع هدنات معهم، حتى يبعدوا العثمانيين في الجزائر ولا يتيحوا لهم فرص التدخل في المغرب، بل انهم ذهبوا حتى الى عدم استغلال فرص انهزام الوطاسيين مرارا امام السعديين للتدخل في المغرب ، وتحقيق اطماعهم فيه ، حتى لا يدفعوا هؤلاء الى طلب العون العثماني ، وبالتالي حتى لا يوجدوا للاتراك العثمانيين فرصة للتدخل في المغرب القريب جدا منهم . كما ذهبوا الى عدم التدخل في النزاع الوطاسي السعدي بشكل قوي ، والى جانب الوطاسيين ، حتى لا يجعلوا السعديين يندفعون الى التقرب من الاتراك العثمانيين . واوضح مثال على ذلك تقاعسهم عن مساعدة الوطاسيين قبيل حصار السعديين لهم واثناءه وبعده، رغم الحاح الوطاسيين عليهم في طلب المساعدة ، وقد رتبهم عليها .

ونتيجة لهذه السياسة البرتغالية والاسبانية ، بالاضافة الى تشبث المغرب السعدي باستقلاله ، وكشف الدولة العثمانية عن نواياها في احتوائه ، فان العلاقات بين حكام الجزائر

ممثلين في الاتراك العثمانيين ، والحكام المغاربة الوطاسيين والسعديين لم ترق الى مستوى التعاون والتضامن الفعالين بين الجزائر والمغرب مما كان له نتائج هامة منها :

- استمرار الاسبان والبرتغاليين في احتلال كثير من المواقع والمدن الساحلية .
- وتأخر توحيد اجزاء البلدين تحت حكم السعديين في المغرب والاتراك العثمانيين في الجزائر .
- وعدم تمكن الدولة العثمانية من تحقيق مبتغاها في استيعاب المغرب الاقصى ضمن امبراطوريتها ، وتكوين كتلة اسلامية ضخمة في الشمال الافريقي تقف في وجه المشروعات المسيحية الاوربية ، وبصفة خاصة البرتغال واسبانيا والامبراطورية الجرمانية المقدسة ، اكانت في حوض البحر المتوسط او في الغرب الافريقي .
- وعدم توحيد البلدين تحت سلطة واحدة ، بل وعدم تحالفهما . مما كان سينتج عنه لو تحقق اخطار فعلية على الاسبان والبرتغاليين في شمال افريقيا ، وشبه الجزيرة الايبيريه والعالم المسيحي كله ، بل وعلى طريق الهند عبر الاطلسي ، ذلك الطريق المكتشف حديثا الذي كان عاملا في الثورة الاقتصادية الاوربية في ذلك الوقت هذه الثورة التي قلبت موازين القوى بين العالم الاوربي المسيحي والعالم الاسلامي .

الفصـــــــل الرابـــع

صراع الاهداف السياســية : بين الاســتقلال والتوحيـــد

في الفترة ٩٥٦ - ٩٨٢ هـ / ١٥٤٩ - ١٥٧٤

1- ميل العلاقات نحو النزاع وأسباب ذلك :

تتوافق بداية هذه المرحلة مع انفراد السعديين بالحكم في المغرب ، وانفراد الاتراك العثمانيين في الجزائر . ونتيجة لزوال عديد من القوى السياسية في البلدين بصفة نهائيـــة في السنوات الاولى من هذه الفترة كالوطاسيين في المغرب والزيانيين والحفصيين في الجزائر ، فان العلاقات السياسية بين البلدين في هذه الفترة كانت اقل تشابكا من الفترة السابقة ، ويمكن دراستها من خلال العلاقات بين اتراك الجزائر العثمانيين ، ومن ورائهم الدولة العثمانية ، واشراف المغرب السعديين ، وموقف الاسبان والبرتغاليين من هذه العلاقات ، وتأثيرهم فيهما ، بحكم مطامعهم وترصدهم ، ووجودهم على شواطئ البلدين وتأثرهم بها . دون اغفال تأثيـــر التطورات الخارجية عليها . فكيف كان سير هذه العلاقات ؟ وكيف كانت تطوراتها ؟

كان من المنتظر ان تتطور العلاقات بين القوتين الاسلاميتين المتجاورتين السعدية في المغرب والعثمانية في الجزائر في هذه الفترة في اتجاه التعاون على الاقل لتحرير ما بقـــي بأيدي الاسبان والبرتغاليين من قواعد على شواطئ البلدين من جهة ، وتقديم العون للبقية الباقية من مسلمي الاندلس الذين كانوا لا ينفكون عن الاستغاثة بقادة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها من جحيم الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه ، ويتعرضون له من قبل الاسبان مـــن جهة أخرى ، ولا سيما ان مبرر قيام السعديين في المغرب ووجود الاتراك العثمانيين في الجزائر مبدئيا شئ واحد ، وهو الجهاد ضد الكفار الاسبان والبرتغاليين . ولكن العلاقات بينهما تطورت كما ألمحنا في نهاية الفترة السابقة في اتجاه النزاع والعداء . وبغض النظر عن السبب المباشر لهذا النزاع الذي كان بسبب تدخل السعديين في تلمسان ، فاننا نجد في الواقـــع اسبابا عديدة جعلت العلاقات تتطور في ذلك الاتجاه في معظم مراحل هذه الفترة . وأهم هـذه الاســـــباب :

أ- اختلاف الاهداف : فالاتراك العثمانيون في الجزائر كانوا يتطلعون الى توحيد المغرب الكبير تحت سيادة الدولة العثمانية ، وقد ألمحنا الى هذا الامر سابقا ، وشرعوا في تحقيـــق

على امل ضم المغرب ايضا بعد ذلك
ي منذ سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤ ، حين اقدموا على ضم تونس
ن يتعزز وجودهم في الجزائر ويتعزز معه وجود الدولة العثمانية في شمال افريقيا ، والحوض
غربي للمتوسط ، ونفوذها فيه . ولا يخفى ان السيادة العثمانية على الحوض الغربي للمتوسط ،
ى المغرب الكبير ، وكل البلاد العربية والاسلامية ، التي كان يطمح الى تحقيقها السلاطين
عثمانيون (١) ، بهدف تأليف تكتل اسلامي واسع يقوى في وجه التكتل المسيحي الاوربي ، (٢)
وتحقيق زعامتهم على العالم الاسلامي السني منه على الخصوص ، تظل ناقصة مالم ينضو كل
مغرب الكبير بما في ذلك المغرب الاقصى .

ولكن السعديين كانوا يطمحون بدورهم ، وخاصة في عهد محمد الشيخ المؤسس الحقيقي
لدولتهم في المغرب ، وراسم اهدافها وسياستها الخارجية ، الى توسيع نفوذهم نحو
المشرق حتى مصر على الاقل ، (٣) مقتدين فيما يبدو بالفاطميين الذين انطلقوا من المغرب
الكبير نحو المشرق ، واتخذوا مصر قاعدة لهم ، وفي ذلك مايدل على رغبتهم في منافسة السلاطين
العثمانيين على زعامة العالم الاسلامي ، معتمدين على نسبهم الشريف الذي يجعلهم في نظرهم
ونظر المتصوفين لذلك ، احق بالخلافة وزعامة المسلمين من السلاطين العثمانيين ، وتبدو
هذه الفكرة واضحة فيما ذكره التمجروتي ، في النفحة المسكية في السفارة التركية التي دونها
في ذلك العصر حيث قال : ((والعثمانيين . . . انما تطاولوا الامارة وتقلدوا الامر في الحقيقة
نيابة وامانة يؤدونها الى من هو أحق بها ، واهلها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد
المغرب . . .)) (٤) ، ومعتمدين ايضا على قوتهم العسكرية التي اولوها اهتماما كبيرا
وظهرت لهم فعاليتها ضد البرتغاليين ، وعلى ماكان للمغرب من نفوذ موروث في نفوس سكان
بقية المغرب الكبير منذ عهد المرابطين والموحدين والمرينيين ، حيث كان يمتد احيانا
ليحتوي كل ذلك المغرب . ومن ثم فقد قابل محمد الشيخ ، رغبة السلطان العثماني سليمان
القانوني في الاعتراف له بالتبعية ، بالرفض الشديد (٥) . بل انه اتخذ موقفا هجوميا متقدما
عندما تلقب بالامام ، وامير المؤمنين ، والمهدي (٦) . في الوقت نفسه الذي كان لا يسمي فيه
سلطان العثمانيين الا سلطان الحواته (٧) . وشرع في توسيع نفوذه نحو الشرق بغزو تلمسان

---

(١) احمد ... : المرجع السابق ص٤٤ وفيها ... يتحدث عن طموحات سليم الاول في مد نفوذه الى المغرب الكبير وكل الحوض الغربي للمتوسط .
(٢) نفسه ص٤٤
(٣) الافراني : المرجع السابق ص٤٢
(٤) ص٤٧ (... : المرجع السابق ص٢٠٧ وما يليها ، السلاوي الاستقصا ج ٥ ص٣١ – ٣٢
(٥) طويير : المرجع السابق ص٣٢ – ٤٠
(٦) الفشتالي : المرجع السابق ص١٠ ، الافراني :
(٧) الافراني : المرجع السابق ص٤٢

سنة ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م التي كانت تحت نفوذ العثمانيين ، كخطوة اولى في طريقه الى
بالامر الذي لم يكن ليجعل العلاقات بينه وبين اتراك الجزائر والدولة العثمانية الا عدائية
ترة . وثاني الاسباب الممهدة لتوتر العلاقات بين اتراك الجزائر والسعديين كان : تقرب
السعديين من اعداء الاتراك العثمانيين، فمع اختلاف الاتجاه الذي كان عاملا مهما في توجيه
العلاقات نحو العداء ، قابل السلطان السعدي محمد الشيخ ، ومن خلفه رغبة العثمانيين
في بسط نفوذهم على المغرب تحت نفوذهم بالتقرب من اعداء العثمانيين ، واعدائهم بالامس ، الا وهم
البرتغاليون والاسبان ، للتعاون معهم على صد الخطر العثماني الذي يهدد الطرفين ،
ان البرتغاليين والاسبان ما انفكوا يعيثون على الشواطئ المغربية ويحتلون مواقع عديدة
بها ، ولم يتخلوا عن اطماعهم في احتلال مواقع اخرى . ورغم ان هذا التقارب يتعارض مع
أ البيعة عند الثقار الذي قام على اساسه السعديون . فقد وصل التقارب كما سنرى بعد
بين السعديين والاسبان الى حد التحالف ، واقامة المشاريع لطرد الاتراك العثمانيين
من الجزائر ، الامر الذي لم يكن ليزيد العلاقات الجزائرية السعدية الا توترا . وثالث الاسباب :
سياسة الاستفزاز التي انتهجها كل من الاتراك العثمانيين في الجزائر ، والاشراف السعديين
في المغرب ، بعضهم نحو بعض ، والمتمثلة في ايواء كل طرف المناوئين للطرف الاخر ، ومعارضيه ،
وتقديم العون لهم . فقد كانت هذه السياسة عاملا من عوامل التوتر بين حكام الجزائر والمغرب ،
وانعدام الثقة بينهما ، فالسعديون آووا الثائر بوطريق بعد فشل ثورته في الاطاحة بحكم
العثمانيين في الجزائر واصطحبوه معهم كما ذكرنا لدى غزوهم لتلمسان ، كما آووا المنصور بن
ابي غانم قائد بني راشد الوزير الاسبق في عهد الزيانيين ، وكثيرا من الاسر والقبائل التلمسانية[1]
الرافضة او الممتنعة عن الدخول في طاعة الاتراك العثمانيين ، ومجموعة من علماء تلمسان وفقهائها[2]
المعارضين للحكم العثماني فيها .

واتراك الجزائر العثمانيون آووا من جهتهم عديدا من الامراء الوطاسيين ، واصهروا
الى بعضهم مثل ابي بكر بن السلطان احمد الوطاسي (٣) ، وامدوا ابا حسون منهم
بالعون لاسترجاع ملكه من السعديين كما سيأتي الحديث عن ذلك ، وآووا ايضا عديدا من الامراء
السعديين المناوئين للسلطان السعدي ، ومن هؤلاء ابناء محمد الشيخ نفسه (عبد المؤمن
وعبد الملك واحمد) ، واصهروا الى عبد الملك وأمدوه بعونهم لاخذ الملك في المغرب كما
سنرى ، واصهروا ايضا الى اخيه عبد المؤمن . ولم يكن من شأن هذه السياسة لتجعل

---

(١) الافراني : المرجع السابق ص ١٧٦
(٢) انظر تراجم بعضهم في ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٧ وغيرها .
(٣) م . م . م . ص ٢٤٥ — ٢٤٦

قات بين البلدين حسنة او ذات طابع ودي . وراء الاسباب : التنافس في مجالات عديدة

اقتصادية وثقافية :

حول مراكز التجارة وطرقها مع بلاد السودان :

أظهر السعديون منذ قيامهم في جنوب المغرب اهتماما كبيرا بالتجارة ، وسعوا
يا حثيثا الى التحكم في التجارة بين شمال افريقيا وبلاد السودان ، وبالتالي بين هذه
ميرة واوربا ، فعملوا على تحويل محاور التجارة مع بلاد السودان الى مراكزهم التجارية
المغرب ، وتأتى لهم ذلك بفضل بسطهم لنفوذهم في سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦م على توات،
كز التجاري الهام الذي كان يتحكم في الطرق المتجهة الى شمالي الصحراء والى بلاد السودان
عملوا على بسط سيطرتهم على بقية المراكز التجارية الهامة في شمال افريقيا بدءا بتلمسان
مر الذي لم يكن لحوضي الاتراك العثمانيين في الجزائر . فقام هؤلاء باحباط جميع محاولات
سعديين الرامية الى استغلال هذا المركز الهام (تلمسان) على الرغم مما اصابه من تدهور
قاموا بفرض نفوذهم على المراكز التجارية في الجنوب الجزائري كتوغرت ، وورجلة ، وتلمسان
كره (١) . ثم تدخلوا في المغرب نفسه ضد السعديين ، فأتاحوا بذلك الفرصة لتوات لكي
طرح نفوذ السعديين عليها ، فمالت من جديد محاور التجارة مع بلاد السودان نحو المراكز
تجارية التي كانت بيد الاتراك العثمانيين ، سواء في الجزائر أو في تونس أو طرابلس . وظل
لامر كذلك حتى اواخر الثمانينات ، حيث تمكن السعديون حينئذ من فرض سيطرتهم من جديد
ى توات (٢) . وتوافق ذلك مع أواخر عهد البايلربايات في الجزائر .

٢- التنافس في مجال البحرية والغزو البحري :

اولى السعديون منذ عهد محمد الشيخ اهتماما كبيرا ايضا لانشاء اسطول بحري حربي
كبير ، وتشغيل الغزو البحري . وتقدم ان محمدا الشيخ قد استقدم واستقبل عددا من
اتراك الجزائر واستعان بهم من مهارتها لهذا الغرض ، مستغلا الهدنة التي كانت بين الدولة
العثمانية وممالك الامبراطور شارلكان ، والتي كان الاتراك في الجزائر ملتزمين بها . وقدم العروض
المغرية للغازي الشهير درغوث من أجل الانتقال لخدمته ، فبدا لاتراك الجزائر انه منافس
خطير لهم في هذا المجال ، الامر الذي لم يكن ليجعل العلاقات بين الطرفين ودية .

٣- التنافس بين الطرق الصوفية :

كانت الطريقة الصوفية الاكثر انتشارا في المغرب وحتى في تلمسان هي الطريقة
الشاذلية . وعلى اكتاف اتباع هذه الطريقة ، والطريقة الجازولية المتفرعة عنها قام السعديون
في المغرب ، وتسلموا السلطة فيه . (٣) وقد كان بين اتباع هذه الطريقة المغربية الاصل ، واتباع

(١) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر المرجع السابق ص ١٩٦ - ٢٠٧
(٢) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٧٤ - ٧٥ وانظر ايضا مرتيني .
(٣) الافراني : المرجع السابق ص ١٢

الطريقة القادرية المشرقية الاصل التي تنتشر في الجزائر وفي بعض انحاء المغرب ومدنه كمدينة ... نوع من التنافس (١)، دفع هؤلاء الاخيرين الى منح تأييدهم الى الاتراك العثمانيين في الترحيب بقيام حكمهم في الجزائر، والمساهمة في ارساء دعائمه فيها وتوسيع نفوذه. وقابل ... اتراك العثمانيين في الجزائر هذا الموقف الودي بالاحسان اليهم وتكريمهم، وتعظيمهم (٢).

وقد انعكس هذا التنافس ايضا على مواقف السلاطين السعديين وحكام الجزائر العثمانيين، حيث كان كل فريق يستجيب لنداء مؤيديه في البلد الآخر، واستغل كل من السعديين والاتراك انصاره في تمهيد التدخل له في البلد الاخر، او في اثارة المتاعب لخصمه ... كان يتسبب في توتر العلاقات بين حكام البلدين، واصطدامهم ببعضهم :

فالسعديون تدخلوا في تلمسان، حيث يكثر اتباع الطريقة الشاذلية تلبية لدعوة ... قومنا من اهلها، ولم يجدوا اي صعوبة في دخولها مرارا (١٥٥٠، ١٥٥٧، ١٥٦٠).

... بفضل انصارهم من اهل تلمسان، اتباع هذه الطريقة الذين كانوا يمهدون لهم الطريق ... فيها ويفتحون لهم ابوابها (٣). وقد نجم عن التدخل المتكرر للسعديين في تلمسان توتر ... يد العلاقات بينهم وبين حكام الجزائر العثمانيين وكان هؤلاء يجدون في الدخول الى ... التي ينتشر فيها اتباع الطريقة القادرية بعض السهوله أيضا بفضل تأييد اتباع الطريقة القادرية ... لهم او لمن حظي بتأييد اتراك الجزائر كأبي حسون الوطاسي (٤). ولوجود انصار للاتراك العثمانيين في فاس وقربها من تلمسان، والسهوله التي كان يتمكن الاتراك العثمانيون من الوصول اليها، فان السعديين لم يتخذوها عاصمة لحكمهم، وآثروا عليها مدينة مراكش، ... لكثر اخلاصها في ولائها لهم، والأبعد نسبيا عن متناول العثمانيين.

اما خامس الاسباب فيتمثل في قوة الدولة العثمانية وضعفها : التي كانت عاملا هاما في توجيه العلاقات بين البلدين نحو العنف والعداء او السلم والهدنة، اذ يلاحظ ان ميل العلاقات بين البلدين نحو العنف والتوتر يتوافق مع الفترة التي كانت فيها الدولة العثمانية ... أوج قوتها، في عهد السلطان سليمان وابنه سليم الثاني، وشطر من عهد مراد الثالث، ... ان ميل العلاقات نحو السلم والهدنة يتوافق مع ميل الدولة العثمانية اكثرفاكثر نحو الضعف. ... العداء من اواخر عهد هذا الاخير، مما جعل اتراك الجزائر العثمانيين الذين كانوا يستمدون ... قوتهم وسلطتهم من قوة الدولة العثمانية وهيبتها، يميلون نحو العنف في عهد قوتها، ونحو السلم في عهد ضعفها.

---

(١) انظر عن هذا التنافس : ج. كور المرجع السابق ص ٨٧ وما يليها
(٢) يحيى : السياسة الدينية للاتراك في المرجع السابق ص ٢٤
(٣) كور المرجع السابق ص ٥٨
(٤) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ١٨

وقد نجم عن الاسباب المتقدم ذكرها ، متفرقة ومجتمعة عدة اصطدامات عنيفة بيـــن لد وبين الاسلاميتين المتجاورتين ، اتراك الجزائر العثمانيين واشراف المغرب السعديين ، سنأتي على ذكرها مفصلة بعد ان نذكر منذ الآن ان العلاقات السياسية بين البلدين في هـذه المرحلة الثانوية ١٥٤٠ - ١٥٧٤ ، لم تتخذ دوما شكل العنف والنزاع المسلح ، بل تخللتها سفارات عديدة بين الطرفين ومحاولات للتفاهم عن طريق المفاوضات ، سنأتي على ذكرها ايضا في الوقت المناسب لها ، جعلت العلاقات تتخذ في بعض الاحيان شكلا سلميا .

تدخلات السعديين في الجزائر والعثمانيين في المغرب :

2 - التدخل السعدي الاول في تلمسان والغرب الجزائري في ٩٥٧ هـ - ٩٥٨ هـ / ١٥٥٠ - ١٥٥١ م :

لعل ما جعل العلاقات بين الاتراك العثمانيين والاشراف السعديين في المغرب تتميز بالنزاع والعداء ، أو تتسم بالعنف والقوة هو ذلك الصراع الذي جرى بين الطرفين من اجـــل تلمسان، أواخر العقد السادس من القرن السادس عشر الميلادي .

لقد كانت تلمسان عدا عن كونها عاصمة الزيانيين سابقا، ومركزا حضريا هاما ، بوابة ساحة بين شرق المغرب والغرب الجزائري ، من يملكها يملك التدخل في عمق المغرب والجزائر ، كما كانت محطة تجارية هامة بين اوربا وبلاد السودان ، وبؤرة ثقافية ودينية مشعة في المغرب الكبير كله . ولهذه المزايا العديدة بتلمسان (١) . فقد كانت دوما مطمعا لحكام المغرب وهدفا لغزوهم واحتلالهم منذ عهد المرينيين والاسر التي حكمت المغرب قبلهم كالموحديـن والمرابطين والادارسة، بحيث يمكن القول انها من السياسة التقليدية لحكام المغرب الاقويا منهم على الخصوص، السعي الى فرض سيطرتهم على هذه المدينة الهامة وعلى توابعها كلما كانت الظروف سانحة لهم، بل وينظرون اليها على انها جزء من المغرب الاقصى . ولم يشذ السعديون عن سياسة من تقدمهم كما سيتضح حيث تعددت محاولاتهم لاحتلال هذه المدينة والاحتفاظ بها ، وضمها الى مملكتهم ، خلال العقد السادس من القرن الســادس عشر الميلادي (١٠ هـ) على ان تدخل السعديين في تلمسان ، لا يعود فقط الى الاطماع التاريخية لحكام المغرب في تلمسان ومزاياها الكثيرة (٢) ، والى مجرد طموح محمد الشيخ السعدي كما ذكر الافراني و طوريس (٣)

(1) Lawless (R.I.): Tlemcen Capitale du Maghreb Central, Analyse des fonctions d'une ville islamique médiéval in R.O.M.M., Aix-En-Provence, t.20, 1975.

(٢) نزهة الحادي ص ٢٨
(٣) تاريخ الاشراف ص ٢٨٥

الى توسيع ملكه او استكمال فتوحات المغربية/أو الى جعل احد ابنائه ملكا على تلمسان (١) ،
لكن ايضا الى بغضه للاتراك وحسده لهم وهو يراهم يستولون على المغرب الاوسط بمافي ذلك
تلمسان مع انهم أجانب (٢) ، كما يعود الى خوفه من ان يتخذوا من هذه الاخيرة ركابا
لغزوه في المغرب ، اذ لم ينس أبدا انه رفض الدخول تحت لواء السلطان العثماني ، وعصي
اوامره/مما لا بد انه سيجعل هذا الاخير يسعى للانتقام منه، على الرغم من بوادر التحسن الذى
شهدته العلاقات بينه وبين اتراك الجزائر في ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م، كما سلف القول . فتدخله
في تلمسان في الحقيقة كان لارساء دعائم حكمه في المغرب أولا، ثم اتخاذها قاعدة امامية
في وجه التدخل العثماني المحتمل ضده وركابا للتوسع فيما يليها، إذ كان طموحه كما ذكرنا يرمي الى
تأسيس مملكة تمتد حتى مصر . فقد كان يردد دائما ان (لا بد ان اذهب الى مصر واخرج منها
الاتراك) (٣) .

وقد مهد محمد الشيخ لتدخله في تلمسان بحملة وجهها في ربيع ٩٥٦ هـ /١٥٤٩ م
الى شرق المغرب الذى اخذ النفوذ العثماني يمتد اليه ، كما رأينا في فصل الحياة السياسية
فاستولى على غرسيف ثم على وجدة ، حيث اضطر الحاكم العثماني لهذه المدينة الاخيرة الى
الفرار منها . (٤) وكان من نتائج استمرار السعديين لتوتهم في شرق المغرب ، اولا ، مبادرة
العديد من القبائل في مملكة تلمسان كانت غير مخلصة في ولائها للاتراك العثمانيين فيها او غير
راضية عن حكم دولة ، وحكم السلطان الحسن بن عبد الله الزياني ، الخاضع لهم ، الى اعلان ولائها
وترحيبها بهم . ومن هذه القبائل، قبائل بني يزناسن ومديونة وندرومه ، وتراره وغيرها (٥) .
ثانيا ، دعوة بعض اعيان تلمسان لابناء السلطان السعدي الى مدينتهم (٦) . الامر الذى
لا شك انه قد شجع السلطان السعدي اكثر فاكثر على التدخل في تلمسان ، وعلى الاسراع بتوجيه
حملة لاحتلالها . وقد كتب محمد الشيخ بعد القبائل التي اتصلت به بالقدوم اليها قريبا (٧) .
كما كتب الى اعيان تلمسان يعدهم بانه سيعامل من يخضع اليه من اهل تلمسان معاملته لاهل
فاس، وانه سيعفيهم من الضرائب مدة سنتين بما في ذلك اليهود . (٨) ولعل ماشجعه ايضا
على المضي قدما الى احتلال تلمسان هو تأكيد موريسكيي بلنسية وآراغونه المقيمين في الجزائر
وفي تلمسان له بأنهم سوف يكونون الى جانبه ضد الاتراك . (٩) وذلك فيما يبدو لان

---

(١) م.م.ت.م اسبانيا ج ١ ص ٢٥٩
(٢) السلاوي : الاستقصاء ج ٥ ص ٢٥
(٣) الافراني : المرجع السابق ص ٣٦
(٤) م.م.ت.م [illegible] ص ٢٦٧ - ٢٧٠
(٥) نفسه ص ٢٦٠ - ٢٦٤ و ٢٦٨
(٦) [illegible] وكان التلمسانيين كاتبوا الشريف يطلبون منه ان يرسل اليهم اخا السلطان الحسن الزياني الذى كان في المغرب انظر ملوك الجزائر ص ٧٦ وانظر م.م.ت.م اسبانيا ج ١ ص ٥٣٥
(٧)(٨) م.م.ت.م ج ١ اسبانيا ص ٢٦٤
(٩) نفسه ص ٢٦٢

ا الشيخ كان يامل انه سيعمل على استرجاع الاندلس، وكذلك انضمام المنصور بن ابي غانم بني راشد اليه (١). وقد كان له انصار كثيرون في تلمسان ، مما يكون دعما كبيرا لمحمد ن ، ولكن هذا الاخير لم يقدم على احتلال تلمسان على مايفهم من الوثائق الاسبانيـــة اصرة الا بعد ان تقدم بعرض الى الاتراك العثمانيين في الجزائر ،اقترح فيه عليهم القيام ة مشتركة لتحرير وهران والمرسى الكبير ، ثم بعد ذلك مهاجمة الاسبان في عقر دارهم ، اساس ان يحتفظ الاتراك العثمانيون بوهران والمرسى الكبير بعد تحريرهما ، وان يحصـــل ي مقابل ذلك على تلمسان وبقية مملكتها . (٢) الا انه لا يعرف بشكل مؤكد ماذا كان هذا تراح قد حظي بالقبول لدى الاتراك في الجزائر أم لا .

ويبدو من المستبعد ان يقبل اتراك الجوائر العثمانيون هذا الاقتراح بحذافيـــره ، ان قبولهم به كما ورد يقتضي منهم : آ- التنازل عن مدينة تلمسان وبقية مملكتها وهذا يعني هم بتقليص نفوذهم وانحساره عن الغرب الجزائري في الوقت الذي كانوا يسعون فيه الـــى يمه ليشمل كل المغرب الكبير . ب - دخولهم في حرب ضد الاسبان ، وبالتالي خرقهم ن السلام الذي عقدته الدولة العثمانية مع الصبر لمدة خمس سنوات في ١٩ /٦/١٥٤٧ م ، ى كان يخطى كما ذكرنا مالك شارلكان ايضا وغيرها . والذى كان اتراك الجزائر ملتزميـــن لتزام الدولة العثمانية (٣).

ومما يستبعد قبول الاتراك العثمانيين في الجزائر بعرض محمد الشيخ السعدى الحوادث ي سبقت احتلال السعديين لتلمسان ، والتي واكبته ، والتي تلته : كاحتلال السعديين ينة وجدة في ابريل ١٥٤٩ ، وكانت هذه تابعة لاتراك الجزائر ، وفرار الحاكم التركي منها لاق الاتراك العثمانيين بعد ذلك سراح ابني ابي حسون المناوئ للسعديين في ماى ١٥٥٠ (٤) ا قد وقعا في اسر احد الغزاة الجزائريين وهو الهادى رايس في ٢/٦/١٥٤٩ ، حينما متوجهين من طليلة الاسبانية الى مالقا ، ولدى اسرهما ارسل محمد الشيخ في طلبهمـــا ، ن حاكمه لم يعبأ بالقبول (٥). واسر السعديين لافراد الحامية العثمانية في تلمسان ، سلطانها الزياني الحسن بن عبد الله التابع للاتراك (٦). وفرار القبائل الموالية للاتراك عثمانيين كقبائل بني عامر وغيرها من وجه السعديين (٧). واخيرا ماجاء في رسالة السلطان

(١) انظر مزيدا من التفاصيل عن القائد المنصور في هامش ١ ص ٢٠٢ من م.م.ت.م اسبانيا ج١
(٢) نفسه ص ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦
(٣) نفسه : ص ٢٥٧ هامش ٢
(٤) نفسه : ص ٣٤٨ - ٣٥٢ وهامش ١ ص ٤٢٩
(٥) نفسه :
(٦) نفسه : ص ٣٤٥
(٧) نفسه : ص ٣٥١ وما بعد والمرجع السابق ص ٧٧

سليمان القانوني الى محمد الشيخ بشأن عزل حسن ابن خير الدين من حكومة الجزائر ، (لم يحسن المجاورة مع جيرانه ، ومال الى جانب العنف والاعتساف ، ونبذ وراءه طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين .) (١) . وسواء وافق الاتراك العثمانيون في الجزائر على عرض محمد الشيخ ام لم يوافقوا ، فان اهمية تلمسان المشار اليها سابقا جعلت السلطان السعدى لا يتردد في الاقدام على احتلالها ، وانتهاز فرصة الاضطراب الذى كان قائما فيها ، وفي مملكتها ، والمشجعات المختلفة التي تلقاها . فتحركت اليها قوات سعدية كبيرة في ربيع سنة ٩٥٦ هـ ١٥٥٠م بقيادة محمد الحران كبير ابناء محمد الشيخ ، وساعدة اخويه عبد القادر وعبد الرحمن . وفي ٢٢ جمادى الاولى سنة ٩٥٦ هـ / ٦/٩/ ١٥٥٠م دخل السعديون تلمسان (٢) . دون ان يواجهوا ايه مقاومة من حاميتها العثمانية التي كانت تتألف من مئتي جندى فقط ، والتي استسلمت لهم ، فاقتادوا افرادها مع السلطان الحسن التابع للاتراك العثمانيين الى فاس (٣) . ووجدوا ترحيبا من اهل تلمسان (٤) .

وقد اثارت حملة السعديين الى تلمسان في بادىء الامر مخاوف كبيرة لدى اسبانيي وهران والمرسى الكبير ، لاعتقادهم فيما يبدو ان تدخل السعديين في تلمسان قد كان في اطار تنفيذ اتفاق توصل اليه حسن ابن خير الدين مع محمد الشيخ . ولكن عودة معظم القوات السعدية في يوليه (تموز) ١٥٥٠م مع الاخوين الحران ، وعبد الرحمن ، وبقاء عبد القادر فقط في تلمسان مع قوات قليلة بدد مخاوفهم ، فكفوا عن طلب الامدادات كما كانوا يفعلون عند بداية الحملة السعدية (٥) .

رد فعل اتراك الجزائر : لم يرض اتراك الجزائر العثمانيون احتلال السعديين لمدينة كانت تحت سيادتهم ، ولا سيما ان هذه المدينة هي مدينة تلمسان التي طالما عانوا في سبيل فرض سيادتهم عليها كما رأينا في فصل الحياة السياسية في الجزائر من تذبذب الامراء الزيانيين ، وتدخل الاسبان ، وتحملوا كل ذلك ادراكا منهم لمدى اهمية هذه المدينة في توطيد سلطتهم في الجزائر ، والغرب الجزائرى ، وفي توسيع نفوذهم الى المغرب . ولذلك فقد اعدوا حملة كبيرة لاسترجاعها ، واقصاء السعديين عنها ، اسندوا قيادتها للقائد حسن قورصو ، اخذت في التحرك اليها في شهر رجب ٩٥٧ هـ / أوت ١٥٥٠م (٦) . وفي ٢١ شعبان سنة ٩٥٧ هـ / ٤ سبتمبر ١٥٥٠م جرت معركة كبيرة بالقرب من تلمسان انهزم فيها عبد القادر السعدى واسرع

---

(١) الساحلي خاطر : تقليد صالح باشا ولاية الجزائر ... المجلة التاريخية المغربية عدد ٢، ص١٣١
(٢) الافراني : المرجع السابق ص٢٦
(٣) م.م.ت.م. اسبانيا ج ١ ص ٤٤١ و ٥٣٤
(٤) اوريس : المرجع السابق ص
(٥) م.م.ت.م. اسبانيا ج ١ ص٤٧١ - ٤٧٤
(٦) نفسه : ٤٥٤ - ٤٥٥

الى الاحتماء باسوار المدينة (١). الا ان المدد الكبير الذي ارسله اليه والده لدى بدء الحملة العثمانية بالتحرك قد وصل في المساء، مما اضطر حسن توروصو الى التقهقر عن تلمسان نحو الجزائر، وفرسان الجيش السعدي يناوشونه القتال ولم يتخلوا عن ملاحقته حتى الصباح (٢). ثم توقفت العمليات العسكرية مؤقتا لحلول شهر رمضان (٣). ولكن السعديين شرعوا قبل ان ينتهي الشهر في التوغل شرقا، ووصلوا في نهاية اكتوبر ومطلع شهر نوفمبر الى مشارف مستغانم (٤). في محاولة لاخضاع القبائل التي امتنعت عن الدخول في طاعتهم في الغرب الجزائري، والتي تحمست هناك. وبعد مناوشات عديدة مع تلك القبائل تكبد فيها السعديون بعض الخسائر اخذوا في الانسحاب الى تلمسان (٥)، لتركيز دفاعاتهم عنها، الا ان حسن بن خير الدين اعد حملة مضادة اخرى كبيرة واسند قيادتها للقائد صفا (٦). اخذت في التحرك نحو تلمسان. وقد انضمت الى هذه الحملة القبائل التي اضر بها الهجوم السعدي مثل قبائل بني عامر وغيرها. كان تحرك الحملة بطيئا مما سمح لمحمد الشيخ السعدي بان يرسل امدادات اخرى الى تلمسان (٧). ولم تجر المعركة الفاصلة بين الطرفين الا في اوائل شهر محرم سنة ٩٥٨ هـ فبراير ١٥٥١م، وذلك في بوعزون قرب تلمسان (٨). وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة كاملة، ساحقة للسعديين حيث قتل فيها ثلاثة ارباع الجيش المغربي (٩) الذي كان يقدر بنحو سبعة عشر ألفا (١٠). وكان من بين القتلى عبد القادر بن محمد الشيخ، ومن بين الجرحى اخوه عبد الرحمن الذي تمكن من العودة الى المغرب بمشقة كبيرة. ولاحق العثمانيون فلول السعديين حتى نهر ملويه ودبدو (١١)، ثم عادوا الى تلمسان ودخلوها بدون اية صعوبة، وانزلوا العقاب الشديد بانصار السعديين فيها حيث عذبوا عذابا شديدا وصودرت أموالهم وفرضت عليهم غرامات كبيرة وبهذه الطريقة جمعوا أموالا وأشياء كثيرة (١٢). ثم اقاموا بها حامية كبيرة بقيادة القائد صفا نفسه، ونصبوا مولاي عبد الله الزياني الذي كان قد لجأ الى الجزائر في اعقاب احتلال السعديين لتلمسان، سلطانا على هذه الاخيرة تحت نظرهم، خلفا لاخيه

---

(١) (٢) مصادر ... اسبانيا ج١ ص ٤٧١ - ٤٧٤

(٣) بدأ شهر رمضان في ١٣ سبتمبر

(٤) انظر لوريس ... ويروي سير الحملة السعدية على الغرب الجزائري على نحو مختلف من الوثائق الاسبانية ... يذكر على سبيل المثال ان السعديين احتلوا مستغانم واقاموا فيها حامية. تاريخ ... ص ٢٨

(٥) مصادر ... اسبانيا ج١ ص ٥٠٢ - ٥١٠

(٦) القائد صفا تركي الاصل من بلاد الاناضول كان يتمتع بثقة حسن بن خير الدين والسلطان العثماني ... كلف بالقيام بالسفارة الاولى الى محمد الشيخ في سنة ١٥٤٦ ، وكلفه حسن بقيادة هذه الحملة ثم خلافته في نهاية ١٥٥١ انظر عنه هايدو والمرجع السابق ص ٨٣ - ٨٤

(٧) مصادر ... اسبانيا ج١ ص ٥٣٠ - ٥٣١ وبارجيس: تكملة تاريخ بني زيان ص ٥٢٨ - ٥٢٩

(٨) نفسه: ص ٥٣٣ - ٥٣٤

(٩) نفسه: ص ٥٣٣

(١٠) نفسه: ص ٥٣٥

(١١) نفسه: ص ٥٣٥ و ٥٣٤

(١٢) لوريس: المرجع السابق، ص ٣٠

محسن الذى اسره السعديون كما تقدم (١). ثم خلعوه في يوليه ١٥٥١ (رجب ٩٥٨ هـ)، وارسلوه الى الجزائر مع وزيره الاكبر (مزواره) بدعوى ان هذا الوزير كان يقيم علاقات مع القائد منصور بن ابي غانم، واخيه الذى كان عند الشريف محمد الشيخ (٢). وبذلك وضع نهاية لحكم الزيانيين في تلمسان الذى استمر ثلاثة قرون ونيف (١٢٢١ - ١٥٥١ م) (٣).

وقد كان لانهزام السعديين في بوعزون امام الاتراك العثمانيين نتائج وخيمة بالنسبة لهم، ولعل ابرزها اضافة الى الخسائر الكبيرة التي تكبدوها في الارواح والعتاد :

١ـ عودة تلمسان الى نفوذ الاتراك العثمانيين ، وانحسار نفوذ السعديين الى ما وراء نهر ملوية ، وانفتاح باب التدخل المباشر في المغرب امام الاتراك العثمانيين، مما سنبحث فيما بعد بالتفصيل .

٢ـ اضطراب امر المغرب على السعديين حيث قامت مناطق عديدة ولا سيما في شمال المغرب وشرقه وفي الاطلس الكبير ، بالتمرد والثورة عليهم (٤). زعزعت سلطتهم . وتطلب اخضاع هذه المناطق من جديد جهودا كبيرة منهم ، اذ كشفت هزيمة السعديين امام الاتراك العثمانيين ان محمدا الشيخ السعدي، قد تسرع في اثارة خصم قوي عليه، قبل ان يستقر له الامر تماما في المغرب ، وقبل ان يقضي نهائيا على بعض مناوئيه فيه ، سواء من فلول الاسرة الوطاسية كأبي حسون امير بادس ، ومولاى عمار امير دبدو والاسفتين ، وغيرهما ، او من الاسرة السعدية نفسها، كاخيه احمد الاعرج وابنه زيدان ، او معارضي سياسته الضريبية، كشيوخ الاطلس الكبير ، وجبال الريف (٥) . ولم يتردد بعض هؤلاء المناوئين كمولاى عمار وابي حسون الوطاسي، من اجل استرداد ملكهما من السعديين ، في طلب المساعدة من القوى المجاورة للمغرب والمعادية للسعديين، كالاتراك العثمانيين في الجزائر الذين استجابوا لطلبهم وتدخلوا الى جانبهم في المغرب .

٣ـ التدخل العثماني في المغرب :

اشير سابقا الى ان التدخل السعدى في تلمسان والغرب الجزائرى قد فتح باب النزاع المسلح بين السعديين والاتراك العثمانيين في الجزائر على مصراعيه ، وكذلك باب التدخل المباشر كل في بلد الاخر . اذ فور استرجاع الاتراك العثمانيين في تلمسان من السعديين اخذوا يدورهم في التدخل السافر في المغرب . وقد بدأوا تدخلهم اولا بالاتصال بالمناوئين

(١) م.م. تشم اسبانيا ج ١ ص ٥٣٥
(٢) نفسه : [illegible] الى ٦٠٢
(٣) بارجيس والجنابي وغيرهما يجعلون نهاية الدولة الزيانية في سنة ١٥٥٤ م على يد صالح رايس. وليوريس المرجع السابق ص (١) ٢ ،
(٤) م.م. تشم اسبانيا ج ١ ص ٤٤٤، ٥٥٣، ٦٠١، ٦٠٢ من هذه الثورات : ثورة في درن بالاطلس الكبير ، ثورة القبائل العربية والبربر في امارة دبدو وثورة قبائل جبل تطوان ، ثورة قائد بادس ، ثورة في فاس البالي . الخ
(٥) انظر [illegible] الحياة السياسية في المغرب .

سعديين ، وفي مقدمة هؤلاء فلول الوطاسيين كمولاى عمار وابي حسون ، بقصد التعاون معهم
السعديين ، والاستفادة من التأييد والولاء الذي كانوا لا يزالون يحتفظون به لدى كثير من
بائل ، ولاسيما في شمال المغرب وشرقه . فمن تلمسان كتب القائد صفا رسالة الى مولاى
الذي كان لاجئا عند الاسبان في مليلة،منذ ان جرده السعديون من امارته في شهر جويلية
١٥٥٠ (١). في اعقاب احتلالهم لتلمسان ، وطلب منه ان يأتي اليه على جناح السرعة
يده الى امارته ، ولينصبه على فاس التي كان يعتزم المسير اليها لاقصاء محمد الشيخ منها .
ب رسالة اخرى الى السلطات الاسبانية في مليلة،يطلب منها ان ترسله اليه لنفس الغرض(٢) ،
ت القبائل العربية والبربرية لمملكة دبدو قد ثارت وطردت القائد المعين من قبل الشريف
سعدي ، وبعثت تطلب من مولاى عمار الدخول فورا الى دبدو (٣) .

وقد تمت عودة مولاى عمار بالفعل الى امارته في دبدو دون صعوبة في اوائل مارس
١٥٥٠م (٤) . الا انه كان كما تصوره الوثائق الاسبانية علينا غير مخلص للاتراك العثمانيين،
س صديقا موثوقا به لدى الاسبان ، على الرغم من مظاهر الود التي كان يتظاهر بها لهؤلاء
خيرين ، حيث كان يهاديهم (٥) ، ويراسلهم ، ويزودهم بالمعلومات عما يجرى في المنطقة
يعتزم الاتراك العثمانيون فعله (٦) . ويتجنب كل ما من شأنه ان يثير غضبهم او شكوكهم
اضطر الى ذلك سارع الى تبرير عمله ، وابداء حسن نيته واخلاصه لهم (٧) . بل انه آل على
كما جاء في احدى رسائله الى السلطات الاسبانية في مليلة-ان يؤخر الاتراك العثمانيين
المسير الى فاس،حتى يأتيه الجواب من الاسبان، بخصوص توجههم لحملة لاحتلال فاس قبل
يحتلها الاتراك (٨) . ويبدو ان هؤلاء ادركوا حقيقته فلم يخاطروا بحملة الى فاس لتنصيبه
ا، كما كانوا يعتزمون ان يفعلوا . ولم يهبوا حتى لانقاذه من حملة سعدية اطاحت به عن
رته للمرة الثانية في اكتوبر ١٥٥١م (٩) . الامر الذي جعله لا يتوجه اليهم ولا الى الاسبان
مليله كالمرة الاولى وانما الى الصحراء (١٠) . في انتظار تطور الاحداث في المنطقة ،
تهاز الفرصة الملائمة لاستعادة امارته . الا ان الاتصالات بينه وبين الاتراك لم تنقطع تماما (١١) .
دثت في هذه الفترة محاولة اخرى من قبل الدولة العثمانية لكسب الشريف محمد الشيخ عن
ق الود . فقام السلطان العثماني بعزل حسن بن خير الدين بدعوى انه ((لم يحسن

---

(١) م.م. [illegible] اسبانيا ص ٤٤٣
(٢) نفسه ص ٥٣[illegible]
(٣)(٤) نفسه : ص ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠
(٥) نفسه ص ٥[illegible]
(٦) نفسه ص ٥٤[illegible] ، ٥٥٧
(٧) نفسه ص ٥٩٩ — ٦٠٢
(٨) نفسه : ص ٥٥[illegible] — ٥٥٠
(٩) نفسه ص [illegible]
(١٠) نفسه ص ٦[illegible] — ٦١٤
(١١) نفسه ص ٦[illegible] — ٦٤٨

المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ، ونبذ وراءه طرق الوفاق والائتلاف ، وسد باب الاتحاد مع المجاهدين ، وحمادة الدين ...) (١) .

ولا يبدو في الواقع انه السبب الحقيقي والوحيد للعزل . ورغم صراحة الوثيقة فالمصادر المعاصرة تشير ايضا الى دسائس الصدر الاعظم رستم باشا ، والى دسائس السفير الفرنسي . وقد يكون تقاعس حسن بن خير الدين عن تقديم العون الى درغوث رايس لمواجهة الهجومات الاسبانية سببا قويا ايضا (٢) في عزله . واخيرا فان موقف خليفة حسن بن خير الدين من السلطان السعدي لم يكن اقل تشددا ـــــــــ يضعف من اهمية السبب الذي اوردته الوثيقة العثمانية لعزل حسن بن خير الدين . وقد كان الذي حل محله هو صالح رايس الذي أمره السلطان العثماني حسب الوثيقة السابقة الذكر (باقامة الدين الشريف واحياء تواتر سيد المرسلين وصون الرعايا ... وان يكون مع الاهالي على اكمل اتحاد واجمل اتفاق (٣) . وارسل السلطان العثماني الى الشريف السعدي ، العالم الصالح ابا عبد الله محمد الخروبي الطرابلسي ، نزيل الجزائر بقصد المهادنة وتحديد البلاد بينهما (٤) . وابدى له كما تبين ذلك من خلال رسالته اليه حرص الدولة العثمانية ، ورغبتها الاكيدة في توحيد كلمة المسلمين ضد الكفار قائلا : (على ان اقصى مراد حضرتنا العليه احياء مراسم الاسلام ، واطفاء نائرة الكفرة اللئام ، وذلك المراد يكون باتفاق امراء الاسلام واتحادهم احياء شرع سيد الانام) (٥) . مما يعني عرضا صريحا منه لاقامة تحالف مع الشريف السعدي . ولكن الامور كما سنرى فيما يلي اخذت تطورا معاكسا اذ قامت الجزائر بمهاجمة المغرب .

الحملة الجزائرية الاولى على المغرب ٩٦٠ هـ - ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ - ١٥٥٤ م

ان علاقة ابي حسون علي الوطاسي مع اتراك الجزائر العثمانيين قديمة ، تعود الى عهد خير الدين كما رأينا . وقد كان هو المحرض للوطاسيين على تقديم ولائهم للسلطان العثماني سليمان القانوني ، في اعقاب الكارثة التي لحقتهم على يد محمد الشيخ السعدي في معركة بوعقبة سنة ١٥٤٥ م كما رأينا . كما كان هو المحرض لهم على توجيه دعوتهم للسلطان العثماني

(٥)(انظر رسالة سليمان الى محمد الشيخ في المجلة التاريخية المغربية عدد ٢ تونس ١٩٧٤ ص ١٢٦)

(٢) انظر عن اسباب العزل هايدو ملوك الجزائر ص ٨١ ، دوغرامون تاريخ الجزائر ص ٧٧ - ٧٨ وعزيز سامح الترك العثمانيون ... ص ٤٥

(٤) الافـــراني : النزهة ... ص ٤١ - ٤٢ وانظر عن الخروبي ابن عسكر : دوحة الناشـــر ص ١٣

للتدخل لدى محمد الشيخ لاطلاق سراح السلطان الاسير ، ولكن عدم تحرك السلطان العثماني واتراك الجزائر بفعالية ، ضعضع ثقة الوطاسيين في العثمانيين، ولذلك فان ابا حسون الذى نجا من قبضة محمد الشيخ لدى حصاره لفاس ، لم يتوجه مرة اخرى وعلى الفور لطلب العون من الاتراك العثمانيين بل التجأ اولا الى الاسبان والبرتغاليين، وحاول استغلال مخاوفهم من تزايد خطر السعديين ، واحتمال تعاونهم مع اتراك الجزائر في خطة مشتركة ضد الاسبان في وهران والمرسى الكبير ، ثم المواقع الاخرى (١). وتشير الوثائق الى [illegible] ابا حسون قد دخل في اتصال مع المبعوث الملك البرتغالي اليه حين كان لا يزال في بادس [illegible] ٣/٤/١٥٤٩م ، وقد عرض المبعوث المذكور على ابي حسون استمداد البرتغال لمساعدة [illegible] ضد محمد الشيخ (٢). ولكن قيام ثورة ضده في بادس موالية لهذا الاخير اجبرته على الا[illegible] الى طليلة لاجئا عند الاسبان فيها (٣) وعرض على الاسبان ان يسلمهم بادس (٤). ان هم ساعد[illegible] استرجاع ملك الوطاسيين ، فلم يجد اذنا صاغية ، وقرر الانتقال (٥) الى مقابلة ماكسيميليا[illegible] كان يحكم اسبانيا بالنيابة عن شارلكان، الذى [illegible] في المانيا . وفي [illegible] طالقا توصل الى ا[illegible] مبعوث الملك البرتغالي في ٢٦/٩/ ١٥٤٩م يسلم هذا الاخير بموجبه قاعدة آصيلا التي [illegible] [illegible] التنازل عنها [illegible] له ، مع (٦) [illegible] مدفعية وخمسمئة مقاتل وستين فارسا ، شريطة ان [illegible] [illegible] حسون على ألف جندى اسباني . [illegible] ذهب لمقابلة ماكسيميليان في بلد الوليد باسبانيا في [illegible] [illegible] بالمدد المذكور [illegible] يونيو . فلم يجد عنده القبول (٧). واعتقد ان [illegible] [illegible] [illegible] افضل عند شارلكان فذهب لمقابلته في المانيا ولكنه اصيب بخيبة اكبر لان شارلكان [illegible] في حرب ضد اللوثريين ، رفض ايضا طلبه (٨) . وذلك فيما يبدو خشية من ان يؤدى عونه له الى حصول تقارب سعدى — عثماني كبير ضد المراكز الاسبانية والبرتغالية ، او رغبة منه في استمالة الشريف السعدى اليه — وقد حصل بالفعل بين الطرفين الاسباني والسعدى تقارب فيما بعد كما سنرى — او بكل بساطة لان الاسبان ، كانوا احوج مايكونون لجمع قواتهم في حروبهم القارية التي تكاد لا تنتهي ، او لانه نظر الى ان الف جندى لن تغني ابا حسون ، ولن تمكنه من استرجاع ملك الوطاسيين بل من المتوقع ان تفقد هذه المساعدة ابا حسون كل تأييد شعبي ، ((فتجتمع كلمة المسلمين عليك ويتفق رأيهم على قتالك ، فيقاتلوك ويباعدوا فيهن معك ، ويقاتلك الصديق قبل العدو))(٩) .

ومهما تكن الذريعة فان البرتغاليين لم يتنازلوا عن القاعدة عن آصيلا والقصر الصغير وموقع سينال ، في [illegible] سنة ١٥٥٠م (١٠) . وبعد شهور قليلة من رفض شارلكان مساعدة ابي

---

(١) انظر [illegible] المخاوف الاسبانية والبرتغالية [illegible] اسبانيا ج١ ص١٥١-١٥٣ ، ٢٤٧ — ٢٤٩ — [illegible] ولريز و سوزا المرجع السابق ص١٠١ — ١٠٢

(٢) [illegible] اسبانيا ج١ ص٢٣٢ و هامش ٢

(4)Abbé Boulet:Hist. de l'Empire des Chérifs en Afrique, P.P. 57-58

(٥) كان انتقاله في يوليه ١٥٤٩م انظر [illegible] اسبانيا ج١ ص٤١ هامش ١٠ نفسه

(٦) نفسه [illegible] و سوزا المرجع السابق ص٢ [illegible]

(٧) [illegible] اسبانيا ص٢٧٢ هامش ٢

(٨) نفسه [illegible] هامش ٢ سوزا المرجع السابق ص٤ [illegible] طوريس المرجع السابق ص١١

(٩) المجهول : المرجع السابق ص١٦-١٧ (١٠) سوزا المرجع السابق ص[illegible]

حسون بالرجال ، في حين كانت عودة هذا الاخير برفقـــة الامير فيليب في ١٢/٧/١٥٥١م وفي هذا التاريخ كان النزاع بين محمد الشيخ واتراك الجزائر قد نشب بسبب تلمسان، وقامت في اثر انهزام السعديين ثورات عديدة في جهات مختلفة وجاءته الى اسبانيا رسائل عديدة، تحثـــه على العودة الى بادس ، من قائدها ومن غيره لقيادة صفوف الثائرين على السعديين، فقرر الدخول الى المغرب ونقلته الى بادس خمس سفن برتغالية عليها ٣٠٠ من البرتغاليين (١) وبينما كانت هذه السفن تستعد للاقلاع ، اذا بصالح رايس الذي كان قد خرج للغزو البحري في طريقه نحو قادس (٢). يهاجمها وتمكن من الاستيلاء عليها وأسر من بقي على قيـــد الحياة من القمرا ، ويقتاد ... نحو الجزائر ، وفشل ابو حسون في الوصول الى التفاهم معه على اطلاق سراح البرتغاليين الذين رافقوه (٣).

وقبل عودة صالح رايس الى الجزائر ، دخل مدينة بادس ، وفتح له حاكمها القائد موسى التابع لمحمد الشيخ السعدي ابواب المدينة) اما خوفا من الدخول في حرب معه أوتحسبا للمستقبل . وعبر للقائد المذكور ، انه في سلام مع الشريف السعدي ، وانه لم يأت بنية الحرب او الفتح ، وقبل مغادرته لبادس ، ترك السفن البرتغالية التي استولى عليها فيها هدية لمحمد الشيخ بكل اسلحتها واجهزتها ، وابدى رغبته في استمرار المودة بينه وبيـــن السلطان السعدي ، ورجاه الا يجتاز ابدا جبال الملوية التي تفصل بين المملكتين ، وان يمنع العرب التابعين له من الحاق اضرار بمقاطعة تلمسان التابعة للاتراك العثمانيين (٤).

ويبدو ان صالح رايس قد لام ابا حسون على التجائه الى النصارى ، وعلى طلب العون منهم بدلا من طلبه من السلطان العثماني ، واتراك الجزائر العثمانيين . ولذلك فان الوطاسي المذكور لم يلبث ان التحق بصالح رايس في الجزائر) يرافقه اصغر ابنائه ، ليطلب منه مساعدتـه على استرداد ملك الوطاسيين (٥). وكان وصوله الى الجزائر في الاسبوع الاخير من شهر اكتوبر ١٥٥٢م ، في الوقت الذي كانت فيه سفارة عثمانية في المغرب برئاسة محمد بن علي الخروبي، تعقد سلاما بين محمد الشيخ السعدي والاتراك العثمانيين في الجزائر ، وتتفق معه علـــى الحدود ، وتحرض على التوصل الى التحالف بين القوتين الاسلاميتين المتجاورتين ضد الكفار.(٦) واذا صدقنا رواية المجهول، صاحب تاريخ الدولة السعدية فان سلطان النصارى هو الذي اقترح على ابي حسون ان يذهب الى الجزائر ، ويطلب المساعدة العسكرية من اتراكهـــا (٧).

---

(١) م.م. متم اسبانيا ج٢ ص٣٦ - ٣٧
(٢) نفسه : ... - ٤٠
(٣) أ. برادي : المرجع السابق ص١٠٣ - ١٠٤ و م.م. متم ... ص٣٦ - ٣٧ (معركة بادس)
(٤) عايد و : المرجع السابق ص٨ و
Berbrugger: Des frontières de l'Algérie, in R.A., No.24 Alger 1860, P.P. 401-417.
(٥) م.م. متم اسبانيا ج٢ ص٣٦ (معركة بادس)
(٦) نفسه : ... ٤٠ و ٤١ وحسب الوثيقة فان السلام قد عقد في ١/٢/١٥٥٢ وانظر عايد و المرجع السابق ص٨ ونفسه أن الحدود المتفق عليها هي جبال ملوية المواجهة لطملة
(٧) المجهول : المرجع السابق ص١٧

ي رواية لا تنسجم مع حرص الاسبان والبرتغاليين على عدم اتاحة الفرص للاتراك للتدخل في
مغرب القريب بدءا من بلادهم . وقد يكون غرضهم من هذه النصيحة اثارة نزاع جديد بين
سعديين والاتراك ، واحباط المساعي الرامية الى تحقيق سلام بين القوتين المتجاورتين ،
تي كانت على قدم وساق ، والهائهما عن توجيه انظارهما نحو اسبانيا)التي كان امبراطورها
رقا في الحروب الدينية . ويضيف المؤلف المذكور ان سلطان النصارى وعد ابا حسون بتقديم
مال اللازم لاغراء الاتراك على القيام معه بحملة ضد السعديين ، (والمال الذى تحتاجه اقسمه
على ثلاثة اقسام ، القسم الاول وهو الاكبر تدخل به الى الجزائر والقسم الثاني يلقاك ويخرج
يه من وهران ، والقسم الثالث يخرج لك من مليلة . . .) (١) . ونجد في الوثائق
ن الامير فيليب امر بأن يسلم سنويا الى ابي حسون مبلغ ثلاثة آلاف دوكات مقسمة على ثلاثة
قسام على ان يعطى اقساط عام ١٥٥٢ دفعة واحدة (٢) . مما يعزز رواية المؤلف المجهول .
كن كيف قوبل طلب ابي حسون مساعدة الاتراك العثمانيين له في الجزائر ؟

على العكس مما قد يتبادر الى الذهن فان صالح رايس لم يوافق فورا على طلب ابي
حسون ، بل لقد رفضه في بادئ الامر (٣) ، ولا سيما انه كان يستعد لحملة على الجنوب
الجزائرى، وانه بعد عودته اصطدم بأمير بني عباس الذى كان قد اشترك معه في الحملة على الجنوب.(٤)
لكن ابا حسون ، لم يفقد الامل ، ولجأ الى اسلوب دمج فيه بين الاغراء والاستعطاف،
(لم يزل عند ترك الجزائر يفتل لهم في الغارب والسنام ، ويحسن لهم بلاد المغرب ويعظمها
ي اعينهم ، ويقول لهم ، ان ملكها اليوم استلبني ملكي وملك آبائي ، وغطني تراث اجدادى ،
طلو ندبتم معي الى قتاله عسى الله ان يتيح بنا النصر عليه ، ويرزقنا الظفر به والغلبة عليه ،
ولا تعدمون انتم من ذلك منفعة من ملء ايديكم غنائم وذخائر ، وواعدهم بمال جزيل ، فاقبلوا
معه في جيش حفيل (٥) . وهذا في خريف ١٥٥٣ / ٩٦٠هـ . (٦)

الا انه لا يبدو ان الدافع الحقيقي لاستجابة اتراك الجزائر وعلى رأسهم صالح رايس
لطلب ابي حسون اخيرا هو مجرد الطمع في المال والغنائم التي وعدهم بها هذا الاخير ،
بل ان الدافع الحقيقي الذى كان يرمي اليه اتراك الجزائر العثمانيون من وراء تأييدهم لآخر
الوطاسيين ، وحمايتهم وتبني قضيتهم ضد السعديين ، هو اضعاف جيرانهم في المغرب

---

(١) نفسه : ص ١
(٢) م.ع.ت.م اسبانيا : ج ٢ ص ١١ - ١٢ هامش ٢
(٣) هايدو والمرجع السابق ص ٩٤
(٤) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٥) الافراني : المرجع السابق ص ٣
(٦) م.ع.ت.م اسبانيا ج٢ هامش ١

ليسهل عليهم بسط نفوذهم عليه (١). فالحملة الجزائرية العثمانية على المغرب كما اشار الى ذلك طوريس وهو من المعاصرين لها، لم تكن لدعم سلطان فاس الاسبق (ابي حسون) ولكن لاغتنام الفرصة لتخريب ملك الشريف محمد الشيخ ، الذى رفض في الماضي الامتثال لاوامر السلطان العثماني سليمان القانوني (٢). ثم ان ابا حسون لم يغر أتراك الجزائر بالمال والغنائم فقط، ولكن ايضا بالتبعية للدولة العثمانية (٣) ـ وهو ما كان يرفضه محمد الشيخ السعدى وما يقوة ـ وبالتنازل لهم كذلك عن المراسي والموانئ (٤). ولذلك فان اتراك الجزائر انتهزوا هذه الفرصة الشبهة التي تمكنهم من تحقيق بعض ما كانوا يهدفون اليه ، وساروا مع ابي حسون في حملة كبيرة • ولم تعوزهم المبررات لخرق اتفاق السلام الذى انعقد بينهم وبين السعديين المتوفي في نوفمبر ١٥٥٢ • فقد اتخذ صالح رايس من اجتياز عدد من المغاربة الحدود الغربية للجزائر ، واغاراتهم على مقاطعة تلمسان مبررا للقيام بحملة كبيرة على المغرب ، بغض النظر عما اذا كانت الاغارة المذكورة قد تمت بعلم الشريف محمد الشيخ السعدى وموافقته ، ام بغير ارادته ، ودون رضاه (٥). ومن المستبعد ان تكون الاغارة المذكورة ، ان حصلت فعلا قد تمت بموافقة الشريف او تحريض منه ، ذلك انه كان منشغلا حينئذ بمحاربة ابن اخيه زيدان ابن احمد الاعرج (٦) وبتهدئة بربر الاطلس الكبير (٧) ، ولم يكن في حاجة الى اثارة الاتراك ايضا عليه ، ولاسيما انه قد خبر قوتهم العسكرية منذ سنين •

وقبل القيام بالحملة على المغرب حرص صالح رايس على اتخاذ الاحتياطات الضرورية للاطمئنان على الجزائر خلال غيابه عنها من الثائرين والمتمردين ، وفي مقدمة هذه الاحتياطات استمالته لابن القاضي امير كوكو ، وعقده السلام معه (٨). بغية اتخاذه لجاما لامير بني عباس الذى استمر ثائرا على الاتراك منذ عودته من ورجلة ، وتوفرت في الجنوب الجزائرى اذ كان بين الاميرين تنافس وعداء تقليديين . كما حرص على توفير شروط النجاح لحملته على المغرب ، مما يدل على انه كان مصمما على مد نفوذه الى المغرب واستيعابه ، فاعد قوات برية كبيرة كانت تتألف من اربعة آلاف من حملة البنادق والف من الصبايحيين الفرسان ، واربعة آلاف من الفرسان العرب ، بعث امير كوكو بقسم كبير منهم وبعث غيره من رؤساء العرب القسم الآخر ، وثمانين من الجنود النصارى الاسرى لديه ، وعدهم بالحرية مقابل عنايتهم

---

(1) Colomb(M.):Le passé de l'Algérie.
in Initiation A l'Algérie,P.102.

(٢) طوريس : المرجع السابق ص ٣٣٤
(٣) المدني : حرب الثلاث مئة سنة ص ٣٤١
(٤) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٥١ – ١٥٣
(٥) هايدو : المرجع السابق ص٩٠

(٦) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص٤٤
(٧) طوريس المرجع السابق ص٣١ ١
(٨) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٣٤–٣٥

بعد تفتيشه ، واسطول مؤلف من ٢٢ سفينة محملة بالاثقال والرجال (١). وامعانا في الاحتياط استمر ايضا الاسبان بهدف حملته ، واتجاهها عن طريق حاكم تلمسان (٢). مؤملا بذلك الا يقدموا على عمل معاكس لها . واستمر ابن ابي حسون من جهته اسبانيين طيلة لذات الغرض وقام حاكم تلمسان ايضا باخذ الرهائن من القبائل غير الموثوق في اخلاصها ليضمن عونها ، لمهاجمة الجزائر (٣). ولما استكمل الاعداد لحملته اخذ في التحرك برا وبحرا في اتجاه المغرب في اواخر شهر سبتمبر من عام ١٥٥٣ (ذى القعدة) (٩٦١ هـ) يصحبه ابو حسون (٤).
وعلم خبر وصوله مع هذا الاخير الى تلمسان في فاس بالمغرب في نهاية اكتوبر ١٥٥٣ فاحدث ذلك اضطرابا في البلاد (٥)، ولاسيما في شمال المغرب ، وشرقه ، حيث كان لابي حسون فيها انصار كثيرون ، فعقد الشريف محمد الشيخ، الذى جاء الى فاس من جنوب المغرب في نهاية جويلية ١٥٥٣ فور سماعه باستعدادات الاتراك للتوجه في حملة مع ابي حسون الى المغرب ، ومعه خمسة وعشرون الفا من الفرسان وكثير من المدافع (٧) ، مجلسا للشورى في فاس للنظر في امر مواجهة الحملة الجزائرية . وفي هذا المجلس تغلب الرأى القائل بضرورة التصدى للاتراك قبل توغلهم في المغرب ، حتى لا تخدش سمعة السلطان السعدى ، على الرأي الذى يفضل ترك الاتراك يتوغلون في المغرب حتى يستبد بهم التعب ثم يتم الانقضاض عليهم (٨). وكما تقرر فقد سار الشريف السعدى على رأس قواته الى ان وصل الى تازه بشرق المغرب، قبل ان تصل اليها الحملة الجزائرية، التي توقفت طويلا في تلمسان، وانتظارها هنالك . وفي ٧ /١٢/١٥٥٣ حصل اول اصطدام بين القوتين ، وحققت القوات الجزائرية التي باغتت القوات السعدية بهجوم ليلي ، اول انتصار لها في (عيون سيدى ملوك) على ابواب تازه (٩). الا ان محمدا الشيخ تمكن من الانسحاب الى فاس قبل ان يمنى بهزيمة ساحقة ، واخذ يعد للجولة القادمة، وينظم دفاعه عن فاس (١٠). دون ان يهمل القيام بمحاولة للتفاهم مع صالح رايس ، حيث ارسل اليه اثنين من المرابطين لهذا الغرض (١١). ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل حيث ان صالح رايس لم يتوقف عن المسير الى فاس ، بعد

---

(١) هايدو : المرجع السابق ص٩٠
(٢)(٣) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١١١ - ١١٣
(٤) طوريس : المرجع السابق ص٣٢٥
(٥)(٦) نفسه : ص٣٢٨ - ٣٢٩
(٧) نفسه : ص٣٢٩
(٨) نفسه : ص٣٢٩ - ٣٣٠
(٩) نفسه : ص٣٣٠ و م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص١٢١ وحسب هذه الوثيقة فان المعركة قد جارت في الاسبوع الاول من نوفمبر ١٥٥٣
(١٠) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٢١
(١١) نفسه ص١٢٦ - ١٢٧

أن اتخذ الاحتياطات اللازمة للجولة القادمة فترك حامية في تازة (١). لتأمين خط الرجعة، واستقدم عشرة مدافع من رشقون (٢). كما استقدم القسم الاكبر من طاقم السفن الجزائرية (٣) التي كانت راسية في مارشيكا (٤)، وانتظر حتى جاء ابنا ابي حسون بالقوات التي وعد بها هذا الاخير لتعزيز صفوفه (٥)، وعاد جواسيسه الذين ارسلهم في اثر محمد الشيخ (٦)، وانضم اليه امير دبدو الاسبق مولاى عمار (٧). وفي ٣/١/١٥٥٤ وصلت الحملة الجزائرية الى مشارف فاس، واقامت معسكرها قرب نهر سبو (٨)، وفي الغد هاجمها محمد الشيخ في موقعها، الا انه انهزم بعد معركة عنيفة خسر فيها الطرفان كثيرا، واظهر فيها ابو حسون شجاعة كبيرة (٩). وتجدد القتال في اليوم التالي على مقربة من فاس البالي في المكان المسمى بكدية المحالي، وانهزم السعديون مرة اخرى بعد ان كادوا يحققون النصر (١٠)، وانسحب محمد الشيخ الى فاس الجديد. ويعزو الفشتالي سبب الهزيمة الى انفضاض كتائب عرب الخلط وسفيان ومختار من حول محمد الشيخ، والتحاقهم بأبي حسون في اثناء المعركة. "فكان خذلان العصابة المرينية سبب نكوصه ولحاقه بمراكش" (١١)، وفي الوثائق الاسبانية ما يؤيد ذلك، وفيها اشارة الى انتقال ٦٠٠ تركي من جيش الشريف محمد الشيخ الى جيش صالح رايس (١٢). ولما تأكد محمد الشيخ ان الفاسيين قد مالوا عنه الى ابي حسون وبعثوا في طلبه، وان هذا الاخير دخل الى فاس البالي مع صالح رايس وسط ترحيب كبير من اهله (١٣). انسحب ليلا من فاس الجديد حتى لا يحاصر فيه، وتوجه الى مراكش (١٤).

وقد دخل صالح رايس وابو حسون الى فاس في صباح اليوم التالي ١ صفر ٩٦١ هـ / ٦/١/١٥٥٤ (١٥). وجاءت وفود القبائل واهل فاس تتقدم القم شرفة بالاعلام والطبول والسلامة لهما ولمبايعة ابي حسون (١٦).

(١) نفسه ص ١٢٧
(٢) كانت السفن الجزائرية قد أترفت في هذا الميناء الجزائري مدة من الزمن انظر المصدر السابق ص ١١٤ – ١١٧ و ١٣١ – ١٣٦
(٣) نفسه ص ١١١ هامش ١
(٤) مارشيكا مرسى يقع الى الغرب من مليلية تعودت السفن الجزائرية الرسو فيه انظر عنه المصدر السابق ص ١٥٥ – ١٥٦
(٥) احضر ابنا ابي حسون قوة تتألف من ٦٠٠ مقاتل من حملة الرماح انظر طوريس ص ٣٣٦
(٦)(٧) نفسه
(٨) نفسه ص ٣٥٤
(٩) نفسه ص ٣٥٥ – ٣٥٦ و م.م.غ.م اسبانيا ج٢ ص ١٢٨ – ١٣٠
(١٠) طوريس: نفس المرجع ٣٥٧ – ٣٥٨ و م.م.غ.م اسبانيا ج٢ ص ١٢٨ – ١٣٠
(١١) الفشتالي: مناهل الصفا ص ١٠
(١٢) م.م.غ.م اسبانيا ج٢ ص ١٦٠ – ١٦١
(١٣) المجهول: المرجع السابق ص ١٨ – ١٩ وطوريس: المرجع السابق ص ٣٦١ – ٣٦٢
(١٤)(١٥) م.م.غ.م اسبانيا ج٢ ص ١٢٨ – ١٣٠ وطوريس نفس المرجع السابق ص ٣٦١ – ٣٦٢
(١٦) المجهول: المرجع السابق ص ١٩

استقر صالح رايس في قصر السلطان بفاس الجديد ، ووجد جنوده مايستولون عليه (١). واستولى هو على مايوجد في خزينة الشريف من مال وتحف قدرها طوريس بأكثر من ثلاثة ملايين دوكات (٢). وقدرها الجنابي بخمسة عشر قنطارا ذهبا (٣). كما استولى على النصارى المستعبدين فيه (٤). واعطاه اليهود ثلاثين ألف دوكات ، دفعا لاحتمال تعرضهم للنهب (٥). بينما كان محمد الشيخ يرقب من مراكش تطور الوضع في فاس في شمال المغرب ويعد العدة لمجابهة الموقف الجديد فقد بادر بهذا الصدد مباشرة بعد هزيمته امام صالح رايس وابي حسون وفراره من فاس، في اتصالات ومفاوضات مع البرتغاليين عن طريق حاكم مازاكان بهدف الحصول على ١٢٠٠٠ مقاتل برتغالي ، مقابل ضمانات ورهائن ولكن ملك البرتغال اشترط أن يتخلى له محمد الشيخ على جميع الموانئ . ولما تمكن هذا الاخير من استرداد فاس في سبتمبر ١٥٥٤ على نحو ماسنذكر رفض تسليم اي ميناء ، وافضت المفاوضات الى هدنة فقط في مطلع سنة ١٥٥٥ لمدة ستة اشهر، ثم طالت فامن البرتغاليون على مراكزهم في سبتة وطنجة ومازاكان (٦). هذا في حين ارسل صالح رايس بموافقة ابي حسون - ولعله تنفيذا لاتفاق مسبق بين الطرفين - قائدا احتل بادس وحجرها واقام في هذه الاخيرة حامية قوية مزودة بالاغذية والعتاد الكثير دون ان يجد اي صعوبة او مقاومة . (٧) . ذلك ان القائدين اللذين كانا يحكمان هاتين القاعدتين باسم الشريف السعدي، قد فرا منهما بعد سماعهما بدخول صالح رايس وابي حسون الى فاس ، وانهزام الشريف امامهما (٨). وحسب الوثائق الاسبانية فان ابا حسون لم يعط لصالح رايس بادس والبنيون (حجر بادس) فقط ولكن اعطاه ايضا المراسي الاخرى (٩). كغساسه (١٠) وغيرها . بحيث يمكن القول ان كل الموانئ والمراسي في مملكة فاس قد غدت بين ايدي الاتراك، خلال اقامة صالح رايس في المغرب على الاقل . الامر الذي اثار في عينها مخاوف الاسبان، وقلقهم ولا سيما مخاوف البرتغاليين، فكتب جان الثالث ملك البرتغال الى شارلكان من طريق سفير هذا الاخير في البرتغال يدعوه الى التدخل في المغرب، قبل ان يثبت الاتراك اقدامهم فيه،

---

(١) حسب وثيقة اسبانية معاصرة فان النهب كان فقط لمنازل الشريف السعدي انظر م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٥٠ - ١٥٢ وانظر طوريس الذي يتحدث عن النهب في فاس الجديد ص٣٦٨
(٢) طوريس : المرجع السابق ص٣٦٢
(٣) الجنابي الزهار في المرجع السابق ص٢٣
(٤) طوريس المرجع السابق ٣٦١ وحسب وثيقة اسبانية كان عددهم يبلغ ٧٠٠ مستعبد انظر م.م.ت.م المرجع السابق ص١٥١ - ١٥٢
(٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٣٥١ - ٣٥٢
(٦) نفسه ص٢٥٢ - ٢٥٩ وم.م.ت.م البرتغال ج٥ ص٢ وسوزا المرجع السابق ص١٩٨
(٧) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٤٦ - ١٤٨ و١٦٤ - ١٦٥ وطوريس المرجع السابق ص٣٦٦ - ٣٦٧ .
(٨) طوريس المرجع السابق ص٣٦٧ وم.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٣٢ - ١٤٨ م.م
(٩) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ١٥١ - ١٥٣
(١٠) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص١٥٧ - ١٥٩

ستقر صالح رايس في قصر السلطان بفاس الجديد ، ووجد جنوده ما يستولون عليه (١). واستولى
ـوعلى ما وجده في خزينة الشريف من مال وتحف قدرها طوريس بأكثر من ثلاثة ملايين دوكات (٢).
قدرها البناني بخمسة عشر قنطارا ذهبا (٣). كما استولى على النصارى المستعبد بـ ـن
يه (٤). واعطاه اليهود ثلاثين ألف دوكات ، دفعا لاحتمال تعرضهم للنهب (٥). بينمـا
ان محمد الشيخ يرتب من مراكش تطور الوضع في فاس في شمال المغرب، ويعد العدة لمجابهـة
لموقف الجديد فدخل بهذا الصدد مباشرة بعد هزيمته امام صالح رايس وابي حسون، وفراره من
اس، في اتصالات ومفاوضات مع البرتغاليين عن طريق حاكم مازاكان بهدف الحصول على ١٢٠٠٠
قاتل برتغالي ، مقابل ضمانات ورهائن ولكن ملك البرتغال اشترط أن يتخلى له محمد الشيخ
ى بعض الموانئ . ولما تمكن هذا الاخير من استرداد فاس في سبتمبر ١٥٥٤ على نحو ما سنذكر
فض تسليم اي ميناء ، وافضت المفاوضات الى هدنة فقط في مطلع سنة ١٥٥٥ لمدة ستة اشهر،
م طالت، فامن البرتغاليون على مراكزهم في سبتة وطنجة ومازاكان (٦). هذا في حين ارسـل
صالح رايس بحوانقة ابي حسون - ولعله تنفيذا لاتفاق مسـبق بين الطرفـيـن -
ائدا الحق بادس وحجرها واقام في هذه الاخيرة حامية قوية مزودة بالاغذية والعتاد الكثير دون
ن يجد اي صعوبة او مقاومة . (٧) . ذلك ان القائدين اللذين كانا يحكمان هاتين القاعدتين،
اسم الشريف السعدي، قد فرا منها بعد سماعهما بدخول صالح رايس وابي حسون الى فاس ،
انهزام الشريف امامهما (٨). وحسب الوثائق الاسبانية فان ابا حسون لم يعط لصالح رايس
ادس والحجر (حجر بادس) فقط ولكن اعطاه ايضا المراسي الاخرى (٩). كغساسه (١٠)،
غيرها . بحيث يمكن القول ان كل الموانئ والمراسي في مملكة فاس قد غدت بين ايدي الاتراك،
لال اقامة صالح رايس في المغرب على الاقل . الامر الذي اثار في حينها مخاوف الاسبان،
قلقهم، ولا سيما مخاوف البرتغاليين، فكتب جان الثالث ملك البرتغال الى شارلكان عن طريق سفير
ذا الاخير في البرتغال يدعوه الى التدخل في المغرب، قبل ان يثبت الاتراك اقدامهم فيـه،

---

(١) حسب وثيقة اسبانية معاصرة فان النهب كان فقط لمنازل الشريف السعدي انظر م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٥٦ وانظر طوريس الذي يتحدث عن النهب في فاس الجديد ص٣٦٦
(٢) طوريس : المرجع السابق ص٣٦٦
(٣) البشير الزنادي : المرجع السابق ص٣٣
(٤) طوريس المرجع السابق ٣٦١ وحسب وثيقة اسبانية كان عددهم يبلغ ٧٠٠ مستعبد انظر م.م.ت.م المرجع السابق ص١٥١ - ١٥٣
(٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٣٥١ - ٣٥٣
(٦) نفسه ص ٢٥٠ - ٢٥١ وم.م.ت.م البرتغال ج٥ ص٢ وسوزا المرجع السابق ص١٩٨
(٧) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٤٦ - ١٤٨ و١٦٤ - ١٦٥ وطوريس المرجع السابق ص٣٦٦ - ٣٦٧
(٨) طوريس المرجع السابق ص٣٦٧ وم.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص١٢٦ - ١٢٨ م.م
(٩) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ١٥١ - ١٥٣
(١٠) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص١٥٧ - ١٥٩

استقر صالح رايس في قصر السلطان بفاس الجديد ، ووجد جنوده ما يستولون عليه (١). واستولى هو على ما وجده في خزينة الشريف من مال وتحف قدرها طوريس بأكثر من ثلاثة ملايين دوكات (٢). وقدرها الجنابي بخمسة عشر قنطارا ذهبا (٣). كما استولى على النصارى المستعبدين فيه (٤). واعطاه اليهود ثلاثين ألف دوكات ، دفعا لاحتمال تعرضهم للنهب (٥). بينما كان محمد الشيخ يترقب من مراكش تطور الوضع في فاس في شمال المغرب وبعد العدة لمجابهة الموقف الجديد فقد قام بهذا الصدد مباشرة بعد هزيمته امام صالح رايس وابي حسون وفراره من فاس، في اتصالات ومفاوضات مع البرتغاليين، عن طريق حاكم مازاكان بهدف الحصول على ١٢٠٠٠ مقاتل برتغالي ، مقابل ضمانات ورهائن ولكن ملك البرتغال اشترط أن يتخلى له محمد الشيخ على بعض المراسي . ولما تمكن هذا الاخير من استرداد فاس في سبتمبر ١٥٥٤ على نحو ما سنذكر رفض تسليم اي مرسى ، وافضت المفاوضات الى هدنة فقط، في مطلع سنة ١٥٥٥ لمدة ستة اشهر، ثم طالت، تامن البرتغاليون على مراكزهم في سبتة وطنجة ومازاكان (٦). هذا في حين ارسل صالح رايس بموافقة ابي حسون - ولعله تنفيذا لاتفاق مسبق بين الطرفين - قائدا احتل بادس وحصنها واقام في هذه الاخيرة حامية قوية مزودة بالاغذية والعتاد الكثير دون ان يجد اي صعوبة او مقاومة . (٧) . ذلك ان القائدين اللذين كانا يحكمان هاتين القاعدتين، باسم الشريف السعدي، قد فرا منهما بعد سماعهما بدخول صالح رايس وابي حسون الى فاس ، وانهزام الشريف امامهما (٨). وحسب الوثائق الاسبانية فان ابا حسون لم يعط لصالح رايس بادس والمينون (حجر بادس) فقط ولكن اعطاه ايضا المراسي الاخرى (٩). كغساسه (١٠)، وغيرها . بحيث يمكن القول ان كل الموانئ والمراسي في مملكة فاس قد غدت بين ايدي الاتراك، خلال اقامة صالح رايس في المغرب على الاقل . الامر الذي اثار في معينها مخاوف الاسبان، وقلقهم، ولاسيما مخاوف البرتغاليين، فكتب جان الثالث ملك البرتغال الى شارلكان عن طريق سفير هذا الاخير في البرتغال يدعوه الى التدخل في المغرب، قبل ان يثبت الاتراك اقدامهم فيه،

---

(١) حسب وثيقة اسبانية معاصرة فان النهب كان فقط لمنازل الشريف السعدي انظر م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٥٣ - ١٥١ وانظر طوريس الذي يتحدث عن النهب في فاس الجديد ص ٣٦٨

(٢) طوريس : المرجع السابق ص ٣٦٧

(٣) الجنابي الزياني في المرجع السابق ص ٢٣

(٤) طوريس المرجع السابق ٣٦١ وحسب وثيقة اسبانية كان عددهم يبلغ ٧٠٠ مستعبد انظر م.م.ت.م المرجع السابق ص ١٥١ - ١٥٣

(٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ٣٥١ - ٣٥٣

(٦) نفسه ص ٢٥١ - ٢٥٢ وم.م.ت.م البرتغال ج٥ ص ٢ وسوزا المرجع السابق ص ١٩٨

(٧) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٤٦ - ١٤٨ و ١٦٤ - ١٦٥ وطوريس المرجع السابق ص ٣٦٦ - ٣٦٧

(٨) طوريس المرجع السابق ص ٣٦٧ وم.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص ١٤٦ - ١٤٨ م.م

(٩) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ١٥١ - ١٥٣

(١٠) م.م.ت.م ج٢ اسبانيا ص ١٥٧ - ١٥٩

أكبـــر (١) . كما كتب الى أبي حسون الذى كانت تربطه به صداقة منذ أن كان في البرتغال يوضح له خطورة الامر (٢) .

ولكن العلاقات بين اهل فاس والاتراك وبين ابـــي حسون وصالح رايس لم تلبث ان تدهورت واسباب ذلك :

ـ التصرفات السيئة للاتراك في مدينة فاس ، ومقابلة الفاسيين لها بالعنف ، فأهل فاس سرعان ما تذمروا من الاتراك ، وتضايقوا منهم لسوء فعلهم ، وقبح صنعهم (٣) . حيث كانوا ينهبون ما شاؤوا ، ويعتديـــــون على النسوان والصبيان ، وكثرت شكاياتهم منهم ، ولما كانت احكام ابي حسون مرفوعة عنهم ، فقد صار اهل فاس يقتلونهم ويخبؤونهم ، ويدخلون عليهم بـــلا فيقتلونهم في مواضعهم ، فمات منهم جماعة كثيرة (٤) . الامر الذى كاد يؤدى الى قيام حرب بين الطارفين لولا ان ابا حسون تدخل لدى صالح رايس ، واوضح له تذمر الفاسيين من تصرفات الاتراك (٥) . وفي اثر ذلك تجمع الاتراك كلهم في فاس الجديد بعد ان كانوا منتشرين في ديار المخزن ، وديار المساجد والفنادق في فاس البالي (٦) .

ولكن ما اثر على العلاقات بين ابي حسون وصالح رايس هو رغبة هذا الاخير في الاحتفاظ بالسلطة والبلاد ، ومحاولته استبعاد ابي حسون من السلطة ، وتقربه من محمد الشيخ السعدى نيابة الاتراك الذين شاهدوا وعلى رأسهم صالح رايس لما رأوا محاسن البلاد المغربية ومنعتها ، تحمسوا اكثر الى الاحتفاظ بها (٧) ، فارسل صالح رايس وهو في فاس سفينتين بقيادة العلج علـــي محملتين بالغنائم والهدايا الى السلطان العثماني ، والى الشخصيات الهامة في الدولة وطلب قوات كثيرة (٨) ، واسطول كبير للاستيلاء على كل المغرب ، وتحرير كل القواعد المحتلـــة من قبل الاسبان . وفي انتظار ذلك قبض على ابي حسون ، وعلى حاشيته وسد ابواب فـــاس الجديد واخرج سكانه منها (٩) ، ولكن اهل فاس البالي ثاروا وزحفوا في جموع كبيرة ، وبمختلف الاسلحة الى فاس الجديد ، وطالبوا الاتراك باطلاق سراح ابي حسون وهددوهم بمحاربتهم ، فاضطر صالح رايس الى الاستجابة لطلبهم (١٠) .

---

(١) (٢) م.م. شتوم اسبانيا ج٢ ص١٤٦ - ١٤٨
(٣) (٤) المجهول : المرجع السابق ص ١٩
(٥) طـــريس : المرجع السابق ص٣٧١
(٦)(٧) المجهول : المرجع السابق ص١٩
(٨) م.م. شتوم اسبانيا ج٢ ص١٥١ - ١٥٣ و ١٦٤ - ١٦٥
(٩) المجهـــول : المرجع السابق ص١٩ - ٢٠
(١٠) نفســـه :

وفي رواية اخرى للاحداث ان صالح رايس حاول ان ينصب على عرش فاس ابا بكر ابن السلطان احمد الوطاسي ، وقد كان موضع تقدير له به حتى انه اصهر اليه في ابنته . ولعله كان اقل دهاء من ابي حسون بحيث يمكن السيطرة عليه وتوجيهه . الا ان الفاسيين لم يرضوا بذلك فخلعه ونصب ابا حسون (١) . ولكن هذا الاخير لم يكن السيد الحقيقي طوال اقامة صالح رايس في فاس اذ كانت كل الامور تسير باسم السلطان العثماني ، وموافقة صالح رايس اكانت امورا ادارية وغير ذلك . اذ كان بمثابة الملك وابو حسون بمثابة الخليفة (٢). مما جعل هذا الاخير يبادر الى جمع المبلغ المالي الذي وعد به الاتراك وقدره أربعمئة الف مثقال ،ثمن تكاليف الحملة حتى يعودوا وينفرد هو بالسلطة (٣) .

وبينما كان ابو حسون يجمع المال المذكور كان صالح رايس يحاول تجديد الاتصال بالشريف محمد الشيخ ، وتحسين علاقاته به ، ولعل ذلك كان بهدف احباط المفاوضات التي كانت جارية بين هذا الاخير والبرتغاليين ، وغايتها تزويده بثروات كبيرة مقابل تنازلات مهمة كما تقدمت الاشارة اليها . ومن الخطوات التي سارها في هذا الاتجاه : ارساله ... محمد الشيخ ، واولاده الى مراكش معززين مكرمين ، واطلاقه سراح من كان منهم في الاسر (٤) . واطلاقه سراح المرابط آفوغول (Afogol) وهو من كبار مؤيدي الشريف ، بعد سجنهم (٥) بسبب الاتصالات التي كان يجريها مع هذا الاخير ، وتشجيعه لاثارة القبائل العربية على الاتراك . وتعهده لمحمد الشيخ بعدم التدخل او تقديم العون لخصمه ابي حسون اذا ما هاجمه بعد رحيله عن فاس (٦).

واذا كان من المستبعد ان يتوصل صالح رايس الى اتفاق سلام او تعاون مع محمد الشيخ بعد كل ماحدث من صراع دموي، ومن تشريده عن مملكة فاس مما رسخ كراهيته للاتراك ، فان الشائعات سرت على انهما على وفاق (٧). وانهما يخططان لعمل مشترك ضد البرتغاليين، الامر الذي لم يكن ليبعث الارتياح في نفس ابي حسون، او ليجعل العلاقات بينه وبين صالح رايس تتوثق وتتوطد . فاسرع الى اداء المال المتفق عليه ، اليه حتى يغادر فـــــــاس ، وينفرد بالسلطة فيها . ويبدو ان المدد الذي طلبه صالح رايس على جناح السرعة قد تأخر وصوله او تعذر ارساله ،بينما كان قد مضى على غيابه عن الجزائر قرابة نصف عام ، وكانت ثورة امير

(١) م.م.م. اسبانيا ج٢ ص ١٣٩ — ١٤٢
(٢) نفسه ص ١٥١ — ١٥٢
(٣) طوريس : المرجع السابق ص ٣٧١
(٤) نفسه : ص ... وهايدو المرجع السابق ص ٩٢
(٥) م.م.م. اسبانيا ج٢ ص ١٦٢ — ١٦٣
(٦) نفسه ص ١٦٢ و ١٦٣ و ؛
(٧) Chenier(M.de): Recherches Historiques sur Maures et Histoire de l'Empire du Maroc, t.3 Paris 1787 P.P.321-322.
م.م.م. اسبانيا ج٢ ص ١٦٤ و ١٦٥ — ١٦٦

ولعله تناهت اليه ايضا اعمالات الاسبان به ، اذ ان هولاء
بني عباس فيها لا تزال قائمة ، والى سفنه التي كانت تجوب شواطئ
لم يرتاحوا ابدا الى وجود صالح رايس في المغرب
المتوسطية والاطلسية . ولذلك فانه قرر العودة الى مدينة الجزائر بعد ان حصل على المال
المتفق عليه من ابي حسون ، والتزم له هذا الاخير بالولاء للسلطان العثماني . وغادر صالح
رايس مع قواته فاس في اوائل ربيع الثاني سنة ٩٦١ هـ / اوائل مارس ١٥٥٤م (١) . عائدا
الى الجزائر عن طريق البر دون ان يترك لابي حسون سوى اربعمئة من الاتراك (٢) . وكانت
عودته بخطوات بطيئة ، وفي طريق عودته اعاد مولاي عمار امور دبدو الاسبق الى امارته (٣) .
ولم يتحرك الى مليلة كما فكر ان يفعل حين كان في فاس (٤) . او الى غيرها من القواعد الاسبانية
الا انه اجرى الترميمات اللازمة لتحصينات المراكز الهامة في الغرب الجزائري كتلمسان ومستغانم
وتنس وغيرها (٥) . احتياطا لاي هجوم سعدي او اسباني عليها ، وتمهيدا لتحقيق مخططه
الكبير المتمثل في تحرير كل القواعد المحتلة من قبل الاسبان والاستيلاء على المغرب كله .
لقد كانت النتيجة التي حققتها الحملة الجزائرية الى المغرب سريعة الزوال ، حيث انه
ما ان غادرت الحملة فاس عائدة الى الجزائر حتى انقلب ابو حسون على الاتراك واخذ ... اول
استرداد بادس ... منهم (٦) ، كما اخذ يتقرب من البرتغاليين ، وينشد صداقاتهم (٧) ،
تمهيدا ... للوقوف في وجه القوى المجاورة له . ثم ان محمدا الشيخ ما لبث
ان هاجم ابا حسون (٨) ، وتمكن من القضاء عليه بسرعة في سبتمبر سنة ١٥٥٤ كما فصلنا ذلك
في فصل الحياة السياسية للمغرب (٩) . ومن استعادة سلطته ونفوذه على فاس وكل مملكتها
تقريبا ، فتقلص بذلك نفوذ الاتراك في المغرب وانحسر عنه كله تقريبا اذا استثنينا بنون بادس
الذي احتفظ به الاتراك عشر سنوات (١٠) . وعاد السعديون الذين لم يضعفهم الاقتتال مع
ابي حسون يشكلون خطرا كبيرا من جديد على الحدود الغربية للجزائر . اذ اخفق صالح رايس
في استمالة محمد الشيخ اليه على الرغم من المواقف الودية التي ابداها له بعد دخوله الى
فاس ، وآخرها عدم قيامه بنجدة ابي حسون كما وعده (١١) . وعدم الحيلولة دون استرجاع
السعديين نفوذهم على مملكة فاس . فظل محمد الشيخ ينظر الى الاتراك نظرة كراهية وحقد
وخوف الامر الذي جعله لا يرفض فقط اي تقارب معهم ولكن لا يتورع في الوقت نفسه عن التحالف
مع الاسبان ضدهم وهو الشريف الذي قام على اساس الجهاد ضد الكفار ، ومن وضع مشروع
للقضاء على الوجود العثماني في الجزائر وكل شمال افريقيا كما سنرى .

(١) م.م. ... اسبانيا ج٢ ص ١٥٤ - ١٥٦ وانظر طوريس المرجع السابق ص ٢٧٢
(٢) م.م. ... اسبانيا ٢ ١٥٤ - ١٥٦ والمجهول المرجع السابق ص ٢
(٣)(٤) م.م. ... نفس المصدر
(٥) هايدو : المرجع السابق ص ٢٩
(٦)(٧) م.م. ... اسبانيا ج٢ ص ١٦٤ - ١٦٥
(٨) نفسه ... ١٧٠ ... وطوريس المرجع السابق ص ٣٨ والافراني النزهة ص ٣١ ...
(٩) نفسه ... مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٢٥٢ - ٢٦٨ والافراني النزهة ص ٤
(١٠) ...
(١١) م.م. ... ج٢ ص ١٥٤ - ١٥٦

التقارب السعدي الاسباني في عهد محمد الشيخ يساعي العثمانيين لاحباطه :

استطاع محمد الشيخ السعدي ان يسترجع فاس ومملكتها من الوطاسيين ، وان يقضي على دولتهم للمرة الثانية بعد فترة قصيرة من عودة الحملة الجزائرية على المغرب الى الجزائر .

الا انه ظل خائفا من الاتراك العثمانيين ، غير مطمئن على ملكه منهم، ذلك لان الاتراك العثمانيين مازالوا يحتلون حجر بادس في شمال المغرب ، وعززوا وجودهم في تلمسان، بوابة شرق المغرب الامر الذي يجعل عملية تدخلهم في المغرب مرة اخرى ان شاؤوا ذلك امرا سهلا ، ولا سيما في فاس ومملكتها ، التي ظل حزب الوطاسيين الموالي للاتراك قويا ، على الرغم من سياسة العنف والتشريد التي اتبعها تجاهه ، حيث (... تحكم في أهل فاس بالاذلال والاهانة ، وادى مسائقه فيهم ، وقهر اهلها بأنواع الافعال ، ونفى اكثرهم للمشرق واجلاهم الى الجبال والبوادي ، وفعل بهم العجائب من الافعال ذوات المصائب ، وقتل الزقاق (١) . لما كان ينزع ويميل الى ابي حسون (٢) .)

ولان الاتراك العثمانيين آووا فلول الوطاسيين ، كاحمد ابن ابي حسون وابي بكر حسن السلطان الاسير احمد الوطاسي ، واحمد بن بو زكرى ابن اخت ابي حسون ، وابناء مولاي زيان ، وغيرهم . (٣) . وقربوا بعضهم اليهم، كأبي بكر الذي اصبح صهرا لبايلرباي الجزائر صالح رايس ، وصار هذا الاخير يلبي جميع رغباته ، ولا يرفض طلباته . (٤) . كما آووا شيوخ فاس ومكناسة ، وقادة الغرب المغربي الموالين للوطاسيين كالقائد عبد الحميد العروسي واحمد العطار ، وابراهيم الحسيني ، وعبد الله شقرون ، وغيرهم (٥) . ولم يكن مستبعدا ان يشجع هؤلاء في دفع الاتراك الى المسير مرة اخرى الى المغرب ضده لتنصيب احد الامراء الوطاسيين ، كما فعلوا مع ابي حسون (٦) ، او ان يستغل الاتراك وجود هؤلاء الامراء لديهم فيتدخلوا لاحتلال المغرب بدعوى تنصيب احدهم .

ولان سفارة عثمانية جاءت لتهنئته بالملك في المغرب مباشرة بعد استرجاعه مملكة فاس من ابي حسون ، ولتذكره بما كان عليه الوطاسيون من الولاء للسلطان العثماني ، وتدعوه لان

---

(١) هو ابو محمد عبد الوهاب قاضي الجماعة بفاس واحد خزائن العلم فيها انظر عنه الافراني : المرجع السابق ص ٣٢-٣٣
(٢) المجهول : المرجع السابق ص ٢٢
(٣) م.م.ستم أسبانيا ج٢ ص٢٤٥ - ٢٤٨
(٤) نفسه : ص٢٢٢ - ٢٢٣ و ٢٤٨
(٥) نفسه ص٢٤٦ - ٢٤٨
(٦) جاء في رسالة السفير شارلكان في البرتغال الى هذا الاخير ان : احد ابناء احمد الوطاسي (ابو بكر قد تزوج بنت باشا الجزائر املا في مساعدته على استرجاع مملكة فاس انظر م.م.ستم أسبانيا ج٢ ص٢٢٢-٢٢٣

يكون مثلهم في الميل الى هذا الاخير ، والرغبة فيه ، والود والهدايا والخدمة (١) فرفض مطالبهما ، بل انه لم يكتف بالرفض فقط ، وانما استنقص من قيمة السلطان العثماني نفسه ، وهدد بالهجوم عليه حيث قال لرسول السلطان العثماني بعد ان تركه ينتظر طويلا جوابه : " سلم على امير القوارب (كذا ") سلطانك ، وقل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازعك على محمل مصر ، ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك الى مصر . والسلام " (٢).

ولا ادل على تخوفه من الاتراك العثمانيين وعدم اطمئنانه الى القاسيين من نقله مقر عاصمته من فاس الى مراكش (٣). ولما كان الاصطدام مرة اخرى بينه وبين الاتراك العثمانيين امرا متوقعا لديه ، وهو يدرك تفوق الاتراك العسكري عليه ، وضعفه عن مقارعتهم بمفرده ، وامكاناته الخاصة ، ويريد ان يبدأهم قبل ان يبدأوه ، فقد مال الى التقرب من القوى المعادية مثله للاتراك العثمانيين ، للاستعانة بها في الهجوم على هؤلاء والقضاء على وجودهم في المغرب وفي كل شمال افريقيا ، وفي منازعة السلطان العثماني نفسه على محمل مصر كما ذكر او للحصول منها على الاقل على السلام والحياد اثناء مواجهته لعدوه الاخطر ، بغض النظر عن علاقاته السابقة مع تلك القوى ، وعما اذا كان ذلك يتنافى مع المبادئ التي قامت دولته على اساسها .

وقد تقرب محمد الشيخ اولا من البرتغاليين على الرغم من انهم كانوا لا يزالون يحتلون مواقع عديدة على الشواطئ المغربية ، ولكنهم بدوا له اقل خطورة على ملكه من الاتراك ، فعقد معهم اتفاق سلام لمدة ستة اشهر في مطلع سنة ١٥٥٥م كما ذكرنا (٤)، ثم طال مفعوله اكثر من ذلك . وطلب من الملك البرتغالي جان الثالث عونا عسكريا هاما ولكن هذا الاخير اشترط عليه في مقابل تلبية طلبه شروطا لم يقبلها وقد ألمحنا اليها فيما مضى . كما مال الى الاسبان على الرغم من انهم كانوا ايضا لا يزالون يحتلون مليلة في شمال المغرب وحاول الحصول منهم على مالم يحصل عليه من البرتغاليين . ولما كان الاسبان مهددين مثله من قبل الاتراك العثمانيين ، الذين انتزعوا بعد حملتهم على المغرب يعدون لانتزاع القواعد التي كانت بين ايديهم وهي بجاية ووهران والمرسى الكبير ، ويحرصون على الا يمتد النفوذ العثماني الى

---

(١) المشرفي : المرجع السابق ص٢٦ - ٢٩
(٢) نفسه : ص٢٧ ويبدو ان رسول السلطان العثماني في هذه السفارة هو ابو عبد الله الخروبي ايضا ، اذ ان هذا الاخير قد قام بسفارتين الاولى سنة ٩٥٩هـ/١٥٥٢م والثانية في سنة ٩٦١هـ/١٥٥٤ انظر السلاوي . الاستقصا ج٥ ص٢٧
(٣) م . ن . م ص٢٧ اسبانيا ص٢٢٢ - ٢٢٤
(٤) نفسه .

المغرب لقربه الشديد من اسبانيا ، ولما ينجم عن استقرار الاتراك العثمانيين فيه من اخطار جسيمة عليهم ، ويرغبون مثله في القضاء على الوجود العثماني في كل شمال افريقيا ، هذا الوجود الذي ضرب اقتصادهم البحري ، وعارض مشاريعهم التوسعية في شمال افريقيا وقلص نفوذهم الى حد كبير ، وهدد اوضاعهم الداخلية بما ولده الوجود العثماني في شمالي افريقيا من آمال في نفوس الموريسك . فقد رحبوا بطلبه ووعدوه بالمساعدة على اقامة الحرب على الاتراك العثمانيين (١) ، واخذ الطرفان في التقارب من بعضهم بعضا .

وقد كان الاسبان في الواقع يحاولون استمالة محمد الشيخ اليهم منذ ان تمكن هذا الاخير من القضاء على الدولة الوطاسية اول مرة في مطلع سنة ١٥٤٩ ، بل حتى قبل ان يتمكن من ذلك ، اذ بدا لهم انه الشخصية القوية التي يمكن ان تقف في وجه الاتراك العثمانيين ، اذ هو شريف ، ويتمتع بشعبية اكثر مما كان لغيره من حكام المغرب الوطاسيين ، فتحاشوا كل ما من شأنه ان يدخلهم في نزاع معه ، اويدفعه الى التحالف مع الاتراك ضدهم كالتدخل في صراعه مع الوطاسيين . فهم لم يساعدوا السلطان احمد الوطاسي كما طلب بالحاح قبل ان يفرض عليه محمد الشيخ الحصار في فاس ، ويقضي على دولته ، على الرغم من انه ابدى استعداده لان يكون تابعا لهم اذا ما امدوه بمساعدتهم ، كما كانوا قد امدوا السلطان الحسن الحفصي والسلطان عبد الله الزياني من قبل (٢) . ولم يساعدوا بعد ذلك ابا حسون الوطاسي الذي مكث عندهم اكثر من سنتين يناشدهم ان يقدموا له المساعدة لاسترجاع ملك الوطاسيين من محمد الشيخ ، ولم يساعدوا اخيرا الناصر ابن ابي حسون الذي التجأ اليهم بعد مقتل والده في صراعه مع محمد الشيخ (٣) .

ونتيجة لهذه المواقف الودية فان محمدا الشيخ لم يتعرض بسوء الى القواعد الاسبانية سواء في المغرب او في الغرب الجزائري حين قام ابناؤه بغزو هذا الاخير في اعقاب حملته على تلمسان في الفترة ١٥٥٠-١٥٥١ (٤) . ولعل هذه المواقف هي التي جعلت محمدا الشيخ ايضا لا يمضي في تقربه من الاتراك الذي بدأه في اعقاب دخوله الى فاس اول مرة والتجاء ابي حسون الى الاسبان ، والذي كان يستهدف ضرب الاسبان في قواعدهم الافريقية وفي قلب اسبانيا ، فاحتل تلمسان التي كانت تحت نفوذ الاتراك العثمانيين واحجم عن مهاجمة وهران التي كانت بيد الاسبان . (٥) .

---

(١) نفسه : ص ٢٧
(٢) نفسه ج١ ص١٢٣ - ١٢٤ و ص١٢٩ - ١٣٠
(٣) نفسه ج٢ ص٤٢ و امش ١
(٤) يقول طوريس ان الجيش المغربي قد تقدم من تلمسان الى مستغانم دون ان يلحق الخسائر في بلاد وهران الخاضعة للاسبان على الرغم من انه مر امامها ، وجرى الحديث على ان محمدا الشيخ قد امر بان لا تلحق اي خسارة باراضي الامبراطور شارلكان لانه يكن له احتراما كبيرا
انظر تاريخ الاشراف ص٢٨٨ .
(٥) انظر ماسبق

6- سير المفاوضات بين السعديين والاسبان : أن التقارب بين الطرفين ، السعدي والاسباني لم يتطور من حسن الجوار نحو التحالف والتعاون، الا بعد الحملة الجزائرية على المغرب ، هذه الحملة التي اشعرت الطرفين بضرورة التقارب من بعضهما اكثر من ذي قبل ، وبضرورة تعاونهما ضد عدوهما المشترك . فبادر دا لكوديت الحاكم الاسباني لوهران بتوجيه رسائل الى عبدالله بن محمد الشيخ والى المنصور بن ابي غانم المزوار الاسبق لتلمسان الذي اصبح منذ انضمامه في سنة ١٥٥٠ الى السلطان السعدي من المقربين اليه ، وذلك في نهاية ١٥٥٤ او مطلع سنة ١٥٥٥ ، فردا عليه بعد اطلاع محمد الشيخ عليهما برسالتين مؤرختين بنهاية جانفي ١٥٥٥ (١) . وقد بدا من جواب عبد الله ترحيبه بعقد اتفاق مع الاسبان ومن جواب المنصور رغبة الشريف في التفاوض مع الاسبان ، وترحيبه بمجيء غونزالو هيرنانديز (٢) (G.Hernandez) لهذا الغرض وارسل جواز مروره الى فاس (٣) . كانت رغبة محمد الشيخ في بداية اتصالاته بالاسبان كما تظهر من خلال رسالة بولو كريو (٤) (Pollo Grilla) ، وهي بتاريخ (١/٢/١٥٥٥) (٥) ، هي الحصول من الاسبان على دعم عسكري كبير بالرجال والسلاح، بتألف من عشرة آلاف جندي من حملة البنادق النارية ، يعزز بهم فرسانه الثلاثين الفا ، والمشاة بكبير من المشاة وقطع المدفعية التي لديه ، حتى يكون بامكانه الاستيلاء على الجزائر والثأر من الاتراك .

وفي مقابل ذلك كان على استعداد بأن يعقد سلاما دائما مع الامبراطور شارلكان ، وان يمنع الاتراك والقراصنة من التردد على جميع موانئه ، وان يتحمل نفقة القوات الاسبانية من يوم نزولها في وهران حيث كان متفقا ان تنزل تلك القوات الى يوم عودتها الى اسبانيا ، وان يترك مدينة الجزائر بعد اخذها من الاتراك للاسبان انما بعد تدميرها (٦) .

بل ان محمدا الشيخ الذي كانت تحدوه رغبة قوية في طرد الاتراك من تلمسان والجزائر لا سيما من حجر بادس عرض - اذا مالبى الاسبان طلبه وامدوه باثني عشر الف جندي من المشاة والفرسان - ان يدفع مصاريف نقلهم وان يدفع رواتبهم لمدة اربعة اشهر او يقوم بمعاشهم كل مايلزمهم لمدة ثمانية اشهر ، وان يدفع اخيرا ثمن الذخيرة المدفعية التي سيزوده الاسبان بها (٧) .

وقد رفع دا الكوديت عرض الشريف هذا الى السلطات العليا في اسبانيا في مارس ١٥٥٥ (٨)، بعد رغبته في التوصل الى اتفاق مع الشريف السعدي في اقرب وقت ممكن قبل ان يتمكن الاتراك الذين يحاولون بمساعدة المرابطين التفاهم معه لضمان وجودهم في حجر بادس من تحقيق

(١) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٢٠٦ - ٢٠٧ و ٢٠٨ - ٢١
(٢) أصله من الزيانيين ، تنصر واصبح من اقارب دا الكوديت ومترجميه انظر عنه الحاشية المخصصة له في م.م.ت.م ج٢ ص٣٦٤ - ٣٦٧
(٣) انظر الحروف في المرجع السابق ص٢١ - ٢٢
(٤) من اسرة تجارية جنوية كان يشتغل في فاس بافتداء الاسرى
(٥) م.م.ت.م اسبانيا ج٢ ص٢١٣ - ٢١٧
(٦) نفسه
(٧) (٨) نفسه ص٢٢٤ - ٢٣٤

هدفهم . (١).

كان عرض الشريف السعدي غير كاف ليوفر له الاسبان ما طلب ، اذ كان هؤلاء يريدونه ان لا يلتزم فقط بتحمل كل تكاليف الحملة ، ولكن ان يدفع المال سلفا . وبغية الاتفاق مع الشريف السعدي على ذلك ، والحصول على المال منه ، توجهت بعثة اسبانية الوفاس في ماي سنة ٥٥٥ ، كانت تتألف من الاسباني ميجيل دولا زكانو (Miguel de la Zcano) بصفته العنصر الرئيس في البعثة ، ومن المترجم اليهودي كانزينو (Cansino) ومن التاجر ولوكريو الذي انضم الى البعثة في فاس .

كان الشريف محمد الشيخ حريصا على ان تكون المفاوضات بينه وبين الاسبان في منتهى السرية ، خشية ثورة الرأي العام المغربي اذا علم بتفاوضه مع النصارى ، وخشية ان يعلم الاتراك بمشروع حملته فيحتاطوا لها ، ويؤلبوا عليه الرأي العام عن طريق المرابطين الموالين لهم في المغرب، و يهاجموه قبل ان يتوصل الى اتفاق مع الاسبان . ومن شدة حرصه فقد امر صاحب الفندق الذي نزلت فيه البعثة بأن لا يسمح لاحد بالاتصال بها ، ولاسيما بمترجمها اليهودي كانزينو (٢)، منعا لتسرب الاخبار ، كما امر البعثة نفسها بالتزام السرية التامة حول هدفها الحقيقي ، بحيث تظاهرت بأنها جاءت للتفاوض مع المنصور بن ابي غانم بشأن فدية ابنه الاسير لدى الاسبان في وهران (٣).

وقد مكثت البعثة الاسبانية في فاس اكثر من شهر (٤)، وخلال هذه الفترة تقابلت مع الشريف محمد الشيخ عدة مرات وتباحثت معه ، ومع مترجمه في امر المساعدة التي طلبها الشريف من الاسبان وتمويل القوات التي طلبها ، ولعل التعرض بشيء من التفصيل الى سير المفاوضات يعطي فكرة عن مواقف الطرفين ومن درجة الثقة التي كانت بينهما ، ومدى الصحة في اساس تعاونهما :

ففي بداية المفاوضات (٥) أوضح الشريف للبعثة انه لا يزال راغبا في ان يساعده الاسبان بعشرة آلاف جندي اسباني من حملة البنادق النارية ، على ان يتكفل فقط بالتمويل طوال فترة الحملة وان يتكفل الامبراطور بما عدا ذلك كالنقل ورواتب القوات ، باعتبار انه سيساهم في الحملة بثلاثين الف فارس مغربي ، وبأكثر من ذلك اذا دعا الامر ، اذ عرض عليه اعيان من الجزائر مساعدتهم. من هؤلاء امير بني عباس الذي كان ثائرا على الاتراك ، واوضح ان طرد الاتراك من الجزائر سيكون مفيدا للاسبان ولكل المسيحية . وردت البعثة بان غزو الجزائر يهم الشريف وابناءه اكثر

---

(١) لم يتحقق التفاهم مع الشريف في هذه الفترة مما جعل صالح رايس يفكر في غزو الشريف في جنوب المغرب ، وفي تنصيب احد ابناء احمد الوطاسي (ابو بكر على عرش فاس) انظر م.م.ت.م اسبانيا ج ٢ ص ٢٣٤ – ٢٣٦ وانظر ايضا نفس المصدر ص ٢٤٥ – ٢٤٨

(٢)(٣) بريمودا ، الوثائق المغفلة ... ص ٢٦١

(٤) نفسه : وصلت الى فاس في 12 ماي وغادرت المدينة في 18 جوان 1555 ص 260 – 268

(٥) نفسه : بدأت المفاوضات يوم 15 ماي انظر ص 262

واستعد لمقابلة الأخطار التي تعرضوا له منذ فترة قريبة على يد أتراك الجزائر ، وذكرت بأن دالكوديت كان د وما يوضح في مراسلاته مع عبد الله بن محمد الشيخ والمنصور بن ابي غانم بأن جميع تكاليف الحملة يجب ان يتكفل بها سلطان المغرب ، وان يوضع المال اللازم بين ايد امينة. وعليه ، فاذا اراد الشروع في اعداد القوات المطلوبة فان عليه ليس فقط ان يلتزم بجميع مصاريف الحملة ولكن ان يدفع المال سلفا . اما مايتعلق بمصير الجزائر وسكانها ، فان الشريف أصر على تدمير المدينة ومصادرة اموال سكانها وقتلهم ان هم حاولوا المقاومة ، ولكنه يرفض على اى حال ان يستعبدوا من قبل الاسبان حتى ولو كان الامر يتعلق بالاتراك لمخالفة ذلك للشريعة الاسلامية (١) . ويبدو ان قصده كان منع الاتراك فقط من العودة الى الجزائر وانه كان لا يريد ان يتهم بانه سلم مدينة اسلامية للكفار . وامام تشبث الاسبان بموقفهم ، قبل محمد الشيخ في لقاء آخر مع البعثة ان يدفع ثلاثة مثاقيل ذهبية لكل واحد من العشرة آلاف جندى ، عن كل شهر ابتداء من تاريخ نزولهم على الساحل الافريقي ، ولكنه رفض ان يقدم أى مبلغ سلفا .

وكانت البعثة قد طالبت بتقديم مئة الف مثقال سلفا حتى يمكن الشروع في اعداد القوات الاسبانية المطلوبة وذكرت ان دالكوديت لا يتحرك الا على رأس اثني عشر ألف جندى ، وانه يلزمه الفين من الخيل لالفين من فرسانه . وتمسك الطرفان كل بموقفه عند هذا الحد ، ورفض محمد الشيخ الاستمرار في المفاوضات مالم يستلم التفويض الممنوح من قبل شارلكان لدالكوديت الذى يخوله التفاوض وابرام الاتفاق معه . ولما لم يكن موجودا لدى البعثة ، ولم يكن دالكوديت اصلا قد استلمه ، فقد توقفت المفاوضات ، وحاولت البعثة ان تتصل بعبد الله بن محمد الشيخ (٢) الذى كان اكثر حماسة من والده الى الاتفاق مع الاسبان والتحالف معهم (٣) . لكن محمدا الشيخ حال بينها وبين ذلك خشية ان تؤثر عليه فيما بعد و فينعكس اثر ذلك عليه ، او حتى لاترى معسكره وامكاناته العسكرية . فلم يبق امامها غير الاستئذان في العودة . ولكن عبدالله الذى علم عن طريق المنصور بن ابي غانم بما آلت اليه المفاوضات سارع بكتابة رسالة الى والده يرجوه (٤) ان لا يذهب الاسبان بدون نتيجة . وقبل استنفاذ جميع الامكانات للتوصل الى اتفاق معهم يمنعهما من الثأر من اعدائهم واقترح على والده ان يدفع سلفا رواتب شهر او شهرين للقوات المطلوبة ، واذا قبل دالكوديت ان يبعث احد ابنائه الى فاس كرهينة على ان يدفع

(١) بريمودان : المرجع السابق ص٢٦٤
(٢) كان عبد الله [illegible] معسكر خارج مدينة فاس
(٣) [illegible] ج٢ ص٢٣٤ - ٢٣٩
(٤) انظر الرسالة في بريموداى المرجع السابق ص ٢٦٧

ب القوات بعد ذلك شهريا عند استحقاقها ، وان يذهب المنصور بن ابي قائم الى وهران لدراسة
ة مع دا الكوديت • وكانت آخر شروط محمد الشيخ لتقديم مئة الف مثقال ناسي هي :
ستتم التفويض المطلوح لدا الكوديت الذى يخوله ابرام الاتفاق معه •
الحصول على ضمان قوى للمال الذى قبل بتقديمه • واحسن ضمان هو ان يقدم دالكوديت احد
ه ليكون رهينة لديه •

ولما كانت البعثة لا تملك التفويض المطلوب ، ولا اتخاذ القرار في الشرط الثاني ، فقد اكتفت بالوعد
الشرطين الى دا الكوديت وتقديم تقرير له عن سير المفاوضات ، وعادت الى وهران دون ان تبرم اى اتفاق •
دا الكوديت اعتبر النتيجة التي توصلت اليها البعثة مرضية وتحمس لتلبية الشرطين • فكتب الى الاميرة
شارلكان وبابنه على اسبانيا في هذه الفترة رسالة مرفقة بتقرير عن المفاوضات في ١٥٥٥/٨/٩ (١) •
فيها اهمية ابرام الاتفاق مع الشريف ، ومساعدته على محاربة الاتراك • وابدى استعداده من اجل
صل الى الاتفاق معه ان يقدم احد ابنائه بكل سرور الى الشريف السعدى ليكون رهينة لديه •
طلب ، بل وان يقدم نفسه وابناءه الاخرين اذا لزم الامر • ورجاها ان تحصل له على التفويض من الامبراطور
ام الاتفاق معه • وان تأذن له بارسال فونزالو هيرنانديز الى فاس ليحمل الجواب الى السلطان
سرى ، والتفاوض معه ، اذ يبدو له ان تكليف فونزالو بذلك سيساهم في التوصل الى الاتفاق مع الشريف
سعدى ، ذلك ان هذا الاخير لا يريد التفاوض بواسطة مترجمين يهود من تلمسان او وهران ، اذ ان هؤلاء
وا على اتصال مع باشا الجزائر •

وبالفعل فقد تسرب خبر المفاوضات بين الشريف والاسبان الى صالح رايس من طريق اليهود (٢) فسارع الى
اذ التدابير اللازمة لمواجهة خطر الحلف الاسباني السعدى • فاقدم على تحرير بجاية من الاسبان ،
كن من ذلك في ١٥٥٥/٩/٢٨ (٣) قبل ان يحصل دا الكوديت على جواب رسالته (٤) • او يبرم الاتفاق
ه وبين الشريف •

وبتحريره لبجاية امن ظهره ، ووجه ضربة قوية ليس فقط للاسبان ، ولكن ايضا لحلفائهم وحلفاء الشريف
المنطقة كعبد العزيز امير بني عباس الذى غدا محروما من العون الاسباني ، فتمكن الاتراك من القضاء
ه (٥) وكسب انصار الجهاد ، واستمال اليه بذلك المرابطين ورجال الدين وعامة
باس في الجزائر وحتى في المغرب • في حين اثار تقرب السعديين من

) انظر نص الرسالة في م • ت • م اسبانيا ج ٢ ص ٢٨٧ـ٢٩٠ ابريموداى : المرجع السابق ص ٢٦٩ـ٢٧٠
) المدني : المرجع السابق ص ٣٥٨ـ٣٥٩ . وقد كان للاتراك شبكة تجسس على ما يجرى في وهران انظر هامش ٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ م • م • ت • م ج ٢ اسبانيا
) بريموداى المرجع السابق ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤ وهايدو ، ملوك الجزائر ص ٩٢ـ٩٥
) كان الجواب من رسالته في اواخر اكتوبر انظر م • م • ت • م اسبانيا ج ٢ ص ٣٠٣ـ٣٠٤
) هايدو المرجع السابق ص ١١٩

الاسبان وسما لحتهم للبرتغاليين ، معارضة رجال الدين وعامة الناس في المغرب . ولا يستبعد ان يكون ذلك بتحريض من الاتراك العثمانيين بواسطة المرابطين الموالين لهم ، في اطار عملهم لضرب مشروع التحالف الاسباني - السعدي ، وظهر اثر هذه المعارضة في الثورات الجديدة التي قامت ضد السعديين ، هنا وهناك، ولا سيما في جبال الاطلس الكبير (١).

وقد كان لتحرير بجاية واخبار استعدادات حكام الجزائر للتوجه في حملة اخرى نحو الغرب، اثرها في موقف الشريف السعدي من مفاوضاته مع الاسبان ، حيث قدم عروضا جديدة في اكتوبر ١٥٥٥ تفوق ما تقدم به فيما مضى سخاء فعرض ان يدفع شهريا ٣٦٠٠٠ دوكات (مثقال) وان يقدم سلفا ١٤٤٠٠٠ دوكات اخرى اذا حصل على ضمانات قوية بانها ستصرف من اجل الحملة (٢). ومن جهة اخرى عرض على حاكم مليلة بواسطة قائده علي اعراس ان يقوم الاسبان بغلق او تحصين مرسى مارشيكا المتوسطي القريب من مليلة الذي كانت سفن اتراك الجزائر تتردد اليه على ان يدفع هو تكاليف ذلك ، اذ كان يخشى ان يقوم اتراك الجزائر بتحصينه والاحتفاظ به ، وهذا يدل على انه كان يؤثر احتلال الاسبان له على ان يقع في قبضة اتراك الجزائر العثمانيين ، ولكن الاسبان لم يقوموا بما طلبه، وذلك لانه بدا لهم فيما يظهر بعد دراسة الموضوع ان غلق المرسى المذكور غير مجد، او غير ممكن، (٣) بينما كان انشغال شارلكان بحروبه الاوربية ، ثم تنازله لابنه فيليب الثاني في ١٦/١/١٥٥٦ عن مملكتي قشتالة واراغونة (اسبانيا) سببا في تأخير منح دالكوديت التفويض المطلوب لاستمرار المفاوضات بين هذا الاخير ومحمد الشيخ ، وابرام اتفاق معه حتى افريل ١٥٥٦ (٤).

ونتيجة لهذا التأخير ، وصدى الانتصار الذي حققه اتراك الجزائر على الاسبان في بجاية ، وانباء الاعداد لحملة اخرى ، فان محمدا الشيخ السعدي اخذ يفقد الثقة في التوصل الى اتفاق مع الاسبان يحصل بموجبه على المساعدة العسكرية التي طلبها . كما اخذت مخاوفه في الوقت نفسه على مملكته من هجوم آخر للاتراك العثمانيين عليها تتزايد ، فدخل في مفاوضات مع هؤلاء على كره منهم بواسطة المرابطين (٥) ، تستهدف الحفاظ على مملكته المهددة.

وقد اثارت هذه المفاوضات قلقا كبيرا لدى دالكوديت اذ خشي ان ينجح الاتراك العثمانيون في استمالته اليهم وتوجيه جهود الطرفين ضد القواعد الاسبانية مما يعني انهما

---

(١) انظر حول موقف رجال الدين : آ . كور : المرجع السابق ص ٢٤١ و ب . بوبي : السياسة الدينية للاتراك في المرجع السابق ص ١٦

(٢) م.م.ت.م. اسبانيا ج٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٦

(٣) نفسه : ص ٢٥٧ و ٢٦٠ - ٣٠٦

(٤) نفسه : ص ٣١٢ (نص التفويض)

(٥) نفسه : ص ٣٢١ - ٣٢٣ (تاريخ الوثيقة ١٥/٦/١٥٥٦)

(1)

ستصبح مهددة للغاية ، وعرضة للهجوم ، وان الحملة على الجزائر لن يكون بالامكان القيام بها .

وفي جويلية ١٥٥٦ وردت الى دالكوديت من اسبانيا التعليمات الاساسية التي يطلب تنفيذها لابرام اتفاق مع الشريف (٢). ومن هذه التعليمات :

- ابرام اتفاق سلام مع الشريف لمدة عشر سنوات على الاقل، يتمتع خلالها رعايا الملك الاسباني بحرية الاتجار في ولايات الشريف السعدي .
- القبول بتوفير ١٢٠٠٠ من المشاة مع بعض قطع المدفعية والذخيرة ، على ان يدفع الشريف رواتبهم ابتداء من تجنيدهم الى تاريخ تسريحهم ، وان يتحمل تكاليف النقل ، ويلتزم بتوفير التموين الغذائي ، ويدفع مصاريف المدفعية .
- تقديم الشريف رهائن ، ومال يكون ضمانا للمصاريف التي ستنفق .
- حصول الاسبان على القواعد التي يريدونها ، من القواعد التي ستفتح .
- امتناع الشريف عن استقبال السفن الاجنبية (المعادية للاسبان) ، وسفن القرصنة .

كما وردت اليه تعليمات اضافية تعين التنازلات التي يمكن لدالكوديت ان يقدمها في حال عدم موافقة الشريف السعدي على بعض البنود (٣)، كتأخير الدفع حتى نزول القوات على الشاطئ الجزائري والاكتفاء بأخذ قواعد : الجزائر وبجاية وحجر بادس .

ومرة اخرى — وقبل ان يتوصل الطرفان الى الاتفاق — وجه الاتراك العثمانيون في الجزائر ضربة اخرى الى مشروع التحالف . الا انها لم تكن في مثل ضربة بجاية ايلاما، حيث اضطر الاتراك العثمانيون ، ومعهم الجزائريون الى فك الحصار الذي ضربوه على وهران (٤)، في صيف ١٥٥٦ قبل ان تستسلم لهم ، لصدور اوامر السلطان العثماني الى الاسطول العثماني الذي كان يشارك في الحصار بالعودة فورا الى الشرق . مما جعل الاسبان ، بتحريض من دالكوديت حاكم وهران يتحمسون اكثر الى خوض صراع مصيري مع الاتراك العثمانيين في الجزائر، والسعي التوصل الى اتفاق مع الشريف محمد الشيخ السعدي . ويستخلص ذلك من رسالة فيليب الثاني الى دالكوديت بتاريخ ١٥٥٦/١٠/١٣ التي ابدى فيها الاستعداد لتقديم تسهيلات في الشروط المادية : كأن يدفع السلطان السعدي مرتبات ٤٠٠٠ جندي نظامي فقط لمدة شهرين ، والغذاء فقط لاربعة آلاف متطوع (٥). ومع ذلك فان عرضهم يحصل على موافقة الشريف السعدي ، فتوجه حينئذ غنزالو هيرنانديز ، الخبير في المفاوضات مع العرب للتفاوض

---

(١) نفسه : ص ٣٢١-٣٢٢

(٢)(٣) نفسه : ص ٣٤٥ — ٣٤٦

(٤) دام الحصار من ٥/٨/ الى ٢٥/٨/١٥٥٦ انظر عنه فصل الحياة السياسية في الجزائر وهايدو وطرمول، في المرجعين السابقين .

(٥) م.س. [illegible] ج٢ ص٣٧٧ الى ٣٨١

مع محمد الشيخ ، ومكث في فاس بضعة شهر قبل ان يعود بمقترحات سلام وتعاون جديدة من

عبد الله بن محمد الشيخ في اوائل مارس ١٥٥٧ وهي :

١- الموافقة على سلام بين المغاربة والاسبان لمدة معينة يتفق عليها .

٢- التزام عبد الله بالتموين الغذائي للقوات الاسبانية البالغة عشرة آلاف (٢) ، ودفع اجورها بدءا من تاريخ نزولها على الشاطئ الافريقي في ارزيو على اساس ثلاث دبلونات (مثاقيل او دنانير) زيانية عن كل شهر لكل جندي .

٣- الالتزام بتعويض ما يتلف او يضيع من المدفعية في الحملة ، وكذا ثمن الذخيرة والعتاد والنقل وان تبقى الموانئ التي ستفتح بيد السعديين .

٤- التعهد بمنع السفن المغربية من مهاجمة القوارب الاسبانية ، ومنع سفن الغزاة من التموين في المغرب .

٥- اطلاق سراح الاسرى المسيحيين على الا يؤخذ المسلمون اسرى

٦- امكانية تقديم راتب شهر مسبقا ، ولكن بشرط ان يكون ابن دالكوديت رهينة ، والمصادقة على ذلك كتابيا من قبل الملك الاسباني .

٧- القيادة العامة للحملة تسند لدالكوديت .

وفي الوقت الذي كان يتوجه فيه غونزالو هيرنانديز بالمقترحات السعدية الجديدة للسلام مع الاسبان والتحالف معهم ، استقبل الشريف السعدي في مراكش رسولا تركيا ، جاء ليقترح عليه تحالفا ضد الكفار . (٣) . وهذه محاولة من المحاولات العديدة التي كان يقوم بها الاتراك لجذب السلطان السعدي اليهم وفصله عن اعدائهم الاسبان والبرتغاليين المتنصرين ولكن هذه المحاولة لم تنجح كما اتضح بعد ذلك حيث اقدم الشريف السعدي بعد فترة قصيرة من وفادة هذا الرسول على غزو تلمسان في يونيو ١٥٥٧ (٤) . اما المجلس الحربي الاسباني فقد ناقش المقترحات السبعة التي تقدم بها السعديون في مارس ١٥٥٧ ، وبدا له ان نقل عشرة آلاف جندي يكلف مئة وعشرين الفا من الدوكات على الاقل . وتقديم مثل هذا العدد الكبير من الجنود ينبغي ان تقدم عنه رهائن وضمانات اخرى كما بدا له انه في حال نجاح الحملة فان الشريف السعدي محمدا الشيخ سيصبح قويا مما يشكل خطرا على الممتلكات

---

(١) نفسه ص ٣٤٤ و ٣٤٦ - ٣٤٧

(٢) لم يرد ذكرها كتابة وانما ذكره عبد الله بن محمد الشيخ شفويا للمفاوض الاسباني غونزالو هيرنانديز انظر المصدر السابق ص ٣٤٤ - ٣٤٧

(٣) نفسه ص ٣٨٨ هامش (و.م.م.ت.م البرتغال ج ٥ ص ٥٥ - ٥٧ وفي وثيقة اخرى ليقترح سلما باسم السلطان العثماني لمدة ثلاث سنوات وهي بتاريخ ٧/٢/١٥٥٧ انظر و.م.م.ت.م اسبانيا ج ٢ ص ٣٨٢

(٤) نفسه ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ودايد والمرجع السابق ص ١٠٠ - ١١٤

الاسبانية . ثم ان النقطة الاولى في حاجة الى توضيح لمدة السلام المرغوبة ، وان النقطة الثانية في حاجة الى تحديد لمكان الانزال وعدد القوات ، وان النقطة الثالثة في حاجة الى توضيح موضوع المدفعية وان النقطة الرابعة يجب ان يضاف اليها (التعهد بمنع استقبال اي اسطول) ، ويبدا للمجلس ان تقديم رهينة للمسلمين امر مرفوض مبدئيا ، وعليه فان الشرط الذى ورد في النقطة السادسة امر مرفوض للمبدأ المذكور . وظهر للمجلس الحربي ان الشريف السعدى بات لا يخشى الاتراك العثمانيين كثيراً مثل السابق . كما ظهر له ان الاتفاق مع الشريف السعدى لا يكون ذا اهمية مالم يوافق عليه البابا كحملة صليبية . ونظرا الى ان تمويل الحملة بدا المجلس صعبا فقد استحسن هذا الاخير ان يترك هذا الموضوع ولا سيما انه في حال انتصار الشريف السعدى سيصبح قويا ، وخطرا على اسبانيا نفسها (١) .

على ان المجلس ابقى الباب مفتوحا لمزيد من المفاوضات ان رغب السلطان السعدى في ذلك ، وارسل فونزالو هيرنانديز الى المغرب حاملا الجواب للسلطان السعدى محمد الشيخ الذى تقدم بهذه المناسبة باقتراحات وتوضيحات اخرى اهمها : استعداده لدفع ثلاثة ايكو (دنانير) عن كل ٢٩ يوما لاثني عشر الف جندى او اكثر ، والمساهمة بنصف مصاريف النقل مع ضمانات للمدفعية المقدمة ، وتقديم مبلغ من المال سلفا عن كل ذلك . على ان يدفع كل ماالتزم به عندما تنزل القوات في ارزيو شرق وهران . اما اذا اراد فيليب الثاني الحصول على المال مسبقا فلابد من ان يبقى دون مارتان ابن دالكوديت رهينة تحت سلطة الشريف الى اقلاع الاسطول نحو ارزيو . وعندئذ سيتوجه السلطان السعدى مع الرهينة لينضم الى الجيش الاسباني (٢) .

ولعل هذه العروض كانت آخر العروض التي تقدم بها محمد الشيخ السعدى في سبيل الحصول على المساعدة العسكرية الاسبانية ضد خصومه اتراك الجزائر العثمانيين لانتزاع مدينة الجزائر وغيرها من المدن منهم ، واقصائهم منها .

ولا نعلم الجواب عن المقترحات الاخيرة هذه ، ولا الجرأة للقطع فيما اذا تم التوقيع على اتفاق ما بين محمد الشيخ السعدى والاسبان ام لا . الا اننا نميل الى الاعتقاد بأن السلطان السعدى قتل ولما يتوصل الى اتفاق نهائي مع الاسبان . ومما يدفع الى هذا الاعتقاد ان السعديين الذين هاجموا تلمسان في جوان ١٥٥٧ ، اي قبل شهور قليلة من مقتله في اكتوبر ١٥٥٧ ، ارسلوا الى وهران في طلب بعض القطع المدفعية لاتمام استيلائهم عليها ، فلم يجبهم الاسبان الى طلبهم (٣) .

---

(١) نفسه: ص ٤٠٤ — ٤٠٥
(٢) نفسه: ٤٠٧
(٣) هايدو: المرجع السابق ص ١١٤ و روف: المرجع السابق ص ١٤٤ — ١٤٥

واذا تأملنا في العوائق والصعوبات التي واجهت المتفاوضين الاسباني والمغربي ، وحالت في آخر الامر طوال مايمتقد دون توقيع اتفاقية بينهما ، وبدا لنا ان في مقدمتها : افتقاد كل طرف الثقة التامة في الطرف الاخر ، وان مضي سنتين ونيف في المفاوضات لم تكف ايا من الطرفين لاكتساب ثقة الطرف الاخر اولتنمية الثقة بينهما ، اذ أن الشريف السعدي كان في هذه الاثناء كما الحظنا يفاوض مع اتراك الجزائر العثمانيين عن طريق المرابطين ، واستقبل خلالها سفارة عثمانية او اثنتين . والاسبان فيما عدا دالكوديت بدوا في الشطر الاول من المفاوضات التي جرت قبل هجوم اتراك الجزائر على بجاية ثم على وهران ، اقل حماسة للتوصل الى اتفاق مع محمد الشيخ . يشهد على ذلك تأخر السلطات العليا الاسبانية في ارسال التفويض لدالكوديت بالاستمرار في المفاوضات ، وامكانية ابرام الاتفاق مع الشريف السعدي . كما بدوا مشتطين في الشروط للتوصل الى الاتفاق ، ولاسيما فيما يتعلق بمصاريف الحملة . ثم ان فيليب الثاني اتصل من جهته في ابان المفاوضات ، باتراك الجزائر وعرض في خضم الفوضى التي عرفتها مدينة الجزائر بعد موت صالح رايس على قارة مصطفى احد زعماء الاتراك في الجزائر آنذاك ، استعداده للتعاون معه ان رغب في ذلك . (1) .

والى جانب انعدام الثقة بين الطرفين الاسباني والسعدي ، فقد وقفت القضية المادية المتعلقة بتمويل الحملة المشتركة على الجزائر عائقا ايضا في وجه التوصل الى الاتفاق حيث لم يستطع الطرفان في غياب الثقة ايضا ، التغلب عليها .

واخيرا فان الاتراك العثمانيين في الجزائر لم يدخروا من جهتهم جهدا ، ولا وسيلة ، في سبيل ابطال التقارب السعدي - الاسباني ، من استغلال نفوذ المرابطين واثرهم الى ضرب اقوى الحليفين في بجاية وهران ، وكانت آخر وسائلهم التخلص من محمد الشيخ نفسه في اكتوبر 1557 م ، ثم من دالكوديت في اوت 1558 على النحو الاتي ذكره ...

التدخل السعدي الثاني في تلمسان سنة 1557 ونهاية محمد الشيخ :

لم يتمكن حكام الجزائر من استمالة محمد الشيخ المهدي ، بعد حملة صالح رايس على المغرب التي دخل في اثرها كما ذكرنا في المفاوضات مع البرتغاليين ، وخاصة مع الاسبان بهدف التعاون مع هؤلاء ضدهم . وفشلت السفارة التي وجهت اليه في فبراير 1557 في التوصل الى اتفاق سلام بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة وبين محمد الشيخ من جهة اخرى لمدة ثلاث سنوات ، كما فشلت من قبل السفارة الموجهة اليه في سنة 1554 في الحصول على الاعتراف

(1) بروديل : المرجع السابق ص 278

منه بالتبعية للسلطان العثماني .

وفي أثناء آخر المناورات العثمانية الجزائرية الموجهة اليه ، قام محمد الشيخ بشن حملة على مدينة تلمسان، في جوان سنة ١٥٥٧ كما مرت الاشارة ، كانت هي الثانية من نوعها ، لاحتلال هذه المدينة الهامة ، منتهزا فرصة اضطراب امور الاتراك العثمانيين في مدينة الجزائر منذ عدة شهور (١). وتمكنت قواته من احتلال المدينة بسهولة ، اذ كانت حاميتها التركية العثمانية صغيرة تتألف من نحو ٥٠٠ عنصر فقط ، فآثرت الانسحاب الى المشور"الحصن" والاعتصام فيه، في انتظار وصول المدد اليها من الجزائر ، وعجزت القوات السعدية التي كانت تفتقر الى المدفعية عن اقتحام المشور ، وطلبت المدفعية من وهران كما ذكرنا ، ولكن الاسبان امتنعوا عن تزويدهم بها، فاستمرت تحاصر الحامية بدون جدوى . وحدث في هذه الاثناء ان عين حسن بن خير الدين على رأس حكومة الجزائر العثمانية للمرة الثانية، ووصل الى الجزائر في شهر جوان (٢). وكان من اولى اهتماماته : اخراج السعديين من تلمسان وفك الحصار عن حاميتها ، ثم التخلص من محمد الشيخ نفسه ، هذا الجار الخطير القوى المتعنف ، ومحاولة احتلال المغرب بعد ذلك ، وضمه الى الدولة العثمانية . فاعد حملة كبيرة من اتراك الجزائر واهلها كان خبرها كافيا لاثارة الرعب في قلوب السعديين في تلمسان ، جعلهم ينسحبون منها الى ماوراء الحدود قبل وصول حسن بن خير الدين اليها . وذلك في شهر اوت ١٥٥٧ (٣) وارسل فوجا من الاتراك العثمانيين، يتألف من اثني عشر رجلا، بقيادة صالح كاهية الى المغرب لاغتيال محمد الشيخ . وقد تظاهر هؤلاء الاتراك بالهروب الى السلطان السعدي، وبالرغبة في خدمته (٤).

ولما كان السلطان السعدي يستخدم الاتراك في جيشه ويرغب في الاستكثار منهم ، على الرغم من علاقاته السيئة مع حكام الجزائر الاتراك العثمانيين ، بل ويتخذ منهم حرسه الخاص ، فقد رحب بهم وادخلهم في خدمته . وفي احدى تحركات السلطان بجبل درن بالاطلس الكبير ، وجد الاتراك المرافقون له فرصة سانحة لقتله ، فقطعوا رأسه في يوم ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٦٤ هـ / ٢٣ /١٠/ ١٥٥٧ . وتمكن بعضهم من الوصول به الى تلمسان ، ومنها الى استانبول حيث ظل معلقا بها الى ان تلاشى (٥).

وهكذا كان مصير محمد الشيخ الذى رفض بقوة الدخول تحت السيادة العثمانية ، ورفض في آخر عهده حتى السلامة معهم ، ولو لفترة محدودة ، ومضى في التقرب من الاسبان ، ... ار

(١) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢) شايد والمرجع السابق ص٤ (١ - ١٦) و د وغرامون المرجع السابق ص ٨
(٣) ... تاريخ اسبانيا جـ٢ ص ٤٢ - ٢٢٢
(٤) الافراني : النزهة ص٤٢
(٥) المجهول : المرجع السابق ص٢٧ - ٢٨ و الافراني المرجع السابق ص٤٣ - ٤٤

وانتهاز الفرص للتدخل في الغرب الجزائري ، ولاسيما في تلمسان،مما جعل العلاقات بيـــن الجزائر والمغرب في عهده ، في منتهى التوتر ، يغلب عليها طابع العنف اكثر من طابـــع الدبلوماسية . فهل طرأ على العلاقات الجزائرية في عهد خلفائه تحسن ؟ .

العلاقات في عهد عبد الله بن محمد الشيخ : ٩٦٤-٩٨٢/١٥٥٧-١٥٧٤

من المنتظر الا تكون العلاقات بين عبد الله الذي خلف والده محمدا الشيخ ،وبين حكام الجزائر العثمانيين حسنة في بدايتها على الاقل بعد ان قتل الاتراك والده ، واقدم هـــو فور انتهاء حفله في فاس ومراكش على محاصرة بقية الاتراك ، قتلة والده الذين اعتصموا في قصبـــة تارودانت ، الى ان تمكن في آخر الامر من ابادتهم عند خروجهم منها (١) .

أ - الحملة الجزائرية الثانية على المغرب :

٩٦٥ هـ/ 1558م

بينما كان عبدالله في الجنوب يحاصر بقية الاتراك في تارودانت،كان الحسن بن خير الدين يعد على عجل حملة لاحتلال المغرب،قبل ان يستقر الامر تماما لعبد الله فيه . ولم يرغم في ذات الوقت هذا الاخير على فك الحصار عن الاتراك في تارودانت . ولكن عبد الله تمكن من القضاء على هؤلاء قبيل بدء الحملة الجزائرية على فاس . واسرع الى شمال المغرب لصدها ، وحشـــد لذلك قوات كبيرة،كانت تتألف من ثلاثين الف فارس،وعشرة آلاف من المشاة العرب واربعة آلاف من الاعلاج والاندلسيين حملة البنادق النارية (٢) ، وعدد كبير من المدافع (٣) ،بينما كانت قوات الحملة الجزائرية تتراوح حسب الوثائق بين اربعة آلاف وتسعة آلاف وخمسمئة من الاتراك والاعلاج بينهم قلة من الفرسان ، هذا عدا قوات الاهالي (٤) . وحسب هايدو كانت تتألف من تسعة آلاف من الاتراك والاعلاج،بينهم ثلاثة آلاف كانوا على متن اربعين سفينة ، وستة آلاف من العرب (٥) . وفي الطريق الى فاس انضم الى الحملة الجزائرية مولاي عمار امير دبدو بشرق المغرب مع قواته القليلة (٦) ، على امل ان ينصبه حسن بن خير الدين على عرش فاس ومراكش (٧)

---

(١) كانوا قد توجهوا قبل ذلك الى ميناء آغادير على اساس ان يعودوا بعض سفن الجزائر في انتظار ولكن هذه كانت فيما يبدو قد عادت بعد انتظارهم طويلا فاضطروا تارودانت وانتظروا تطور الاحداث انظر عن هذه الاحداث طوريس : المرجع السابق ص٢٦٧ وكور:المرجع السابق ص١٢

(٢) هايدو:المرجع السابق ص١١٥-١١٦

(٣) م . م . ت . م:اسبانيا جـ٢ ص٤٤٢ - ٤٤٤

(٤) نفسه ص٤٣٦ - ٤٣٨

(٥) هايدو:المرجع السابق ص١١٥-١١٦

(٦) م.م.ت.م:اسبانيا جـ٢ ص٤٥٤-٤٥٧

(٧) نفسه : ص٤٣٨

وفي اوائل مارس ١٥٥٨ بلغت الحملة نهر الطوية ، ووادي الزيتون بشرق المغرب (١) . وفي اوائل الشهر نفسه،وصلت القوات البرية الى تازه،بينما وصلت اربع عشرة سفينة من الاسطول الجزائري الى بادس (٢) . وفي يوم ٢/٤/١٥٥٨ جرى اول صدام بين القوات الجزائرية والقوات المغربية،على مقربة من وادي اللبن (٣) . باحواز فاس . وكان اصطداما عنيفا قويا، قتل فيه خلق كثير من الطرفين (٤) . وفي مساء هذا اليوم،رجحت كفة السعديين على الرغم من الاستبسال الذي اظهرته القوات الجزائرية (٥) ، واضطر حسن بن خير الدين الى التقهقر نحو الجبال المجاورة لبادس ( ) ، وعقد مجلسا مع مستشاريه ، فنصحوه بالانسحاب وعدم استئناف المعركة للخسائر الكبيرة التي تكبدها (٧) . فقرر الانسحاب الى بادس،التي كانت سيندا له بيد اتراك الجزائر ، وحيث كانت السفن الجزائرية التي حملت مدفعيته هناك ، قبل ان يمنى بهزيمة كاملة ولم يكن الانسحاب الى بادس سهلا ، اذ كان ملاحقا من القوات المغربية في ايام ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ابريل (٨) . وتكبد خلالها مزيدا من الخسائر في العتاد والارواح ولكن السعديين لم يجرؤوا على ملاحقته حتى بادس . وفاتهم في نهاية الامر تحقيق نصر حاسم على الحملة الجزائرية . وذلك لانهم ترددوا في رمي كل ثقلهم منذ اليوم الاول في المعركة ، وحتى بعد ان لاح لهم النصر . وحسب وثيقة معاصرة فان عبد الله لو رمى بكل فرسانه البالغ عددهم ستين الفا (كذا) لقضى على الاتراك (١٠) .

اما اسباب اخفاق الحملة الجزائرية،حسب مايستدل من المصادر والوثائق المعاصرة، فتعود الى ان القوات الجزائرية،التي كانت تتألف في معظمها من المشاة،لم تستطع الصمود طويلا امام فرسان المغرب الكثيرين (١١) . والى ان القوات الجزائرية دخلت المعركة بدون المدفعية ، مما يدل على ان السعديين باغتوها بهجومهم عليها(١٢) قبل ان تحصل على المدفعية التي نقلتها السفن الى بادس ، والى نقص الذخيرة بل ونفادها ، وكذلك نقص الاغذية ، واخيرا الى انسحاب مولاي عمار امير دبدو منذ اليوم الثاني الى امارته.ولا ننسى تفاوت القوى الكبير الذي كان له اثره في رجحان كفة السعديين .

---

(١) نفسه : ص٤٣٣-٤٣٤

(٢) نفسه : ٤٤٢ - ٤٤٤

(٣) نفسه : ٤٤٦-٤٤٨

(٤) هايدو : المرجع السابق ص١١٦

(٥) (٦) م.م.ت.م:اسبانيا ج٢ ص٤٥٨-٤٦٠

(٧) هايدو:المرجع السابق ص١١٦

(٨) (٩) م.م.ت.م:اسبانيا ج٢ ص٤٤٥-٤٤٨ و ٤٥٢ - ٤٥٤

(١٠) نفسه ص٤٥٦-٤٥٧

(١١) هايدو : المرجع السابق ص١١٦

(١٢) م.م.ت.م:اسبانيا ج٢ ص٤٥٤-٤٥٧

وهذا كله يدل ايضا على ان الحملة لم تكن مهيأة كما يجب ، وانها اعدت كما سبقت الاشارة على عجل بغية الاستفادة من اضطراب عبد الله بعد مقتل والده ، وانشغاله بحصار الاتراك في الجنوب . ومن بادس انتقل حسن بن خير الدين الى مارشيكا ، ومن انطلاقا منها هجوما علـى القبائل المعادية للاتراك العثمانيين في المناطق المجاورة والقبائل غلاية التي قتلت في وقت سابق نحو مئتين من الاتراك التابعين لقائد بادس ، الذين جاؤوا لاخضاعهم (١)، وتمكن في هذا الهجوم من قتل بضع عشرات منهم واسر بعضهم ، واخذ ما استطاع من ماشيتهم (٢) ثم صرف كل فرسانه ومجموع العرب وقسما من اتراكه عن طريق البر الى الجزائر بأمانهم وفقد عاد اليها مع القسم الباقي عن طريق البحر في اواخر ابريل ١٥٥٨ (٣) ، احتياطا فيما يبدو ان يكون الاسبان قد قطعوا خط الرجعة عليه عن طريق البر بعد اخفاق حملته في مهمتها .

وقد كان الاسبان يعدون في هذه الفترة حملة كبيرة اتضح فيما بعد انها كانت موجهة ضد مستغانم .

كان على حسن بن خير الدين بعد عودته ان يواجه هذه الحملة ، وان يخضع امير بني عباس الذي استمر ثائرا متمردا على الاتراك ، يهدد ظهورهم كلما حاولوا التوجه نحو المغرب ، قبل ان يفكر في حملة اخرى على عبد الله يمحو بها اثر اخفاق حملته .

وقد تمكن حسن من تحقيق انتصار كبير على حملة دالكوديت الثالثة على مستغانم ، في اوت ١٥٥٨ ، اي بعد شهور قليلة من فشل الحملة الجزائرية على المغرب ، مما يدل على ان الاسبان ارادوا استغلال الهزيمة التي مني بها الجيش الجزائري في وادي اللبن ، لتحقيق اطماعهم في احتلال مدينة مستغانم الهامة .

ويبدو ان الاسبان كانوا يعتقدون ان السعديين سينتهزون بدورهم فرصة انتصارهـم في وادي اللبن ، وفرصة هجوم دالكوديت على مستغانم ليهاجموا تلمسان والغرب الجزائري فيشتتوا جهد الاتراك وقوتهم فيسهل عليهم الانتصار . ولكن السعديين لم يجرؤوا على مهاجمة تلمسان في هذه السنة . وسنعرف بعد قليل اسباب ذلك . وواجه الاسبان قوة الاتـــراك والجزائريين وحدهم ، فانكسروا واصيبوا بكارثة حيث لم يسلم احد من افراد الحملة ، فاما قتيلا او اسيرا . (٤) وقبل توجه حسن الى قلعة بني عباس في اعقاب هذا الانتصار على امل استئصال شأفة المتمردين هناك بزعامة عبد العزيز امير بني عباس استقبل الامير السعدي ، عبد المؤمن

(١) نفسه ص ٤٤٢ - ٤٤٤
(٢)(٣) نفسه : ص ٤٥٥ - ٤٥٧
(٤) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر .

وقربه منه وزوجه من ابنته ، وكان قد استقبل
الذى فر من اخيه عبد الله خوفا منه على حياته ،
قبل ذلك اثنين من اخوته وهما عبد الملك واحمد . [1]
وفي بني عباس ببلاد القبائل جنوبي بجاية استطاع حسن بن خير الدين بعد معارك عنيفة
ان يقضي على عبد العزيز ، ولكنه لم يتمكن من اخضاع اخيهما مقران الذى خلفه ، اذ اضطر
للعودة الى الجزائر للظروف التالي ذكرها :

التدخل العسكري الثالث في تلمسان :
968 هـ/ 1560م

1 - تدبير اغتيال والده ، وانتهازه
لم يغفر عبد الله بن محمد الشيخ لحسن بن خير الدين
الفرصة لشن هجوم كبير على المغرب، ثم ترحيبه باخوته وايوائهم وتقريبه لهم (٢) . ولكنه لم
يحاول في البداية استغلال انتصاره غير الحاسم في وادي اللبن ليقوم بهجوم مضاد على تلمسان
او حتى على بادس لانتزاعهما من ايدي الاتراك العثمانيين وذلك لان المغرب كان يعاني في
سنة ١٥٥٨ من وباء عظيم (كسا سهل المغرب وجبله ، وافنى حماته وابطاله) (٣) ، مما لم
يكن ليسمح له باعداد هجوم مضاد . ولانه كان في حاجة حينئذ الى ان يوطد سلطته في المغرب،
ويثبت كرسي الحكم له ولابنائه . فقام بهذا الصدد بقتل اخيه عثمان الذى هزم في المعارك ضد
الحملة الجزائرية فزادت شعبيته ، مما اثار غيرته ومخاوفه منه (٤) . وقتل ايضا اثنين من ابناء
اخوته ، بدعوى انهما لم يقوما بما كلفهما به على الوجه المرضي وكان قد أسند اليهما ولا يتحرى
درعه ومنافسه . والراجح كما يذكر طوريس المعاصر لعبد الله، انه كان يريد تصفية الجو لابنائه (٥) .
وحاول استدراج اخيه عبد المؤمن اليه، ليتخلص منه ايضا بدعوى التشاور معه في شأن تحرير مازاكان
ولكن هذا الاخير تنبه لغرضه فالتحق بتلمسان (١٥٥٩) ومنها الى الجزائر حيث لقي كما ذكرنا
ترحيبا قويا لدى حسن بن خير الدين وحظوة كبيرة عنده ، فاق ما لقيه اخواه عبد الملك واحمد لديه
اذ لم يكتف باتخاذه صهرا له فقط بل اسند اليه ايضا حكم تلمسان ليكون شوكة في جنب عبد
الله ، يزعجه بها (وتم تنصيب عبد المؤمن على تلمسان، لان في ذلك مضرة لحاكم فاس ونفعا
للجزائر ...) (٦) . الامر الذى اثار مخاوف كبيرة لديه، اذ خشي ان يأتوه من الجزائر بحملة

(١) انظر عن دور حسن مع بني عباس فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢) طوريس: المرجع السابق ص٤١٦
(٣) الافراني: النزهة ص٥٠
(٤) طوريس المرجع السابق ص٤١٣ وابن القاضي درة الحجال ج٣ ص٢١١ . البناهي المرجع السابق ص٤١٦
(٥) طوريس: المرجع السابق ص٤١٣.
(٦) مهمة دفتري رقم ١٨ ص١٥

من الترك ، فاهتم (... في تربية الجيوش وترتيبها ، وادخار الذخائر ، واستعدادها ، وتكثير العدة وآلات الحرب وتعمير خزائن البارود ، وأهرية الزرع ، وغير ذلك مما يحتاج اليه ويتحصن به من الوقائع ، ويحصل به الدفاع ...) (١). وسعى للبحث عن حليف خارجي او اكثر ، فتقرب من انكلترا وملكتها اليزابيث ، ومن فرنسا عن طريق انطوان دوبوربون ملك النافار ، وتهيأ في بادئ الامر ان يسلم لهذا الاخير موقع القصر الصغير بين سبتة وطنجة ، مقابل مساعدات عسكرية واسلحة (٢) ، دون ان يقطع الصلة مع الاسبان ، وان مالت علاقاته معهم نحو الفتور بعض الوقت في اعقاب تقاعس الاسبان عن مد السعديين بما يلزمهم من مدفعية لاستقلال تلمسان في جوان ١٥٥٧ كما ذكرنا ، وعدم تحركهم ضد الاتراك ابان حملة هؤلاء على المغرب ، وتقاعسه هو عن المشاركة في الحملة الاسبانية على مستغانم في اوت ١٥٥٨ كما كان الاسبان يأملون ، لتتحسن بعد ذلك في السنوات الاولى من العقد السابع من القرن السادس عشر الميلادي .

ولما وطد عبد الله سلطته في المغرب ، ووطد علاقاته مع الاسبان لم يتردد حينئذ في استغلال الظروف الصعبة لخصمه حسن بن خير الدين ، الداخلية منها كانشغاله بقمع تمرد بني عباس ، والخارجية كالمخطط الذي اعده الاسبان وحلفاؤهم المسيحيون بتحريض من البابا بيو الرابع للقضاء على الوجود العثماني في الحوض الغربي للمتوسط والمتمثل في حملة ضخمة على القواعد العثمانية بدءا من طرابلس ، فالقواعد الواقعة الى الغرب منها . فحرك قواته نحو تلمسان في الوقت الذي كان فيه حسن بن خير الدين يباشر اخضاع خليفة عبد العزيز امير بني عباس ، وفي الوقت نفسه الذي تحركت فيه الحملة الاوربية المسيحية الضخمة نحو طرابلس وجربة (١٥٦٠) ولعل تحركه كان بالتنسيق مع الاسبان وهو ما يعتقده دوفرامون وعزيز سامح وآخرون (٣) . وكان انصار السعديين في تلمسان قد ثاروا وافتتنوا مع اتراكها في سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م (٤) . ويبدو ان ذلك كان بايعاز من السلطان عبدالله نفسه تمهيدا لتدخله في المدينة . اذ امر في اعقاب هذه الفتنة اجناده بالتدخل بدعوى انقاذ من استغاث به من اهلها . وقد قام اجناده فعلا بنقل بعض التلمسانيين الى فاس بينهم طائفة من علمائها وفقهائها في السنة المذكورة (٥) . ولكن السعديين لم يحتفظوا طويلا بالمدينة .

---

(١) المجهول : المرجع السابق ص٣٦
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب
(٣) تاريخ الجزائر ص٤١١ الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ص٥٦ - ٥٧
(٤) ابن عسكر دوحة الناشر ص٨٧
(٥) نفسه ص٨٦ - ٨٧ ، ٩١ وغيرها (تراجم بعض من نقلوا من تلمسان الى فاس)

ويبدو ان انسحابهم السريع كان نتيجة عودة حسن بن خير الدين بسرعة من بلاد القبائل الى مدينة الجزائر لمجابهة الموقف الجديد في الغرب الجزائري ، ونتيجة ايضا لاخفاق الحملة الاوربية المسيحية في جربة سنة ١٥٦٠ (١). وانكسارها امام الاسطول العثماني ، تلك الحملة التي كان من المتوقع ان تشغل حكام الجزائر عما يجري في الغرب الجزائري . او ان غرض عبد الله كان فقط تهديد تلمسان لجعل حسن بن خير الدين يفك الحصار عن بني عباس الذين كانوا حلفاء للسعديين ، ليس فقط بحكم العداء المشترك للاتراك العثمانيين ولكن ايضا بحكم انهم سبق وعرضوا على السعديين في عهد محمد الشيخ التعاون للقضاء على الحكم العثماني في الجزائر . وهذا الغرض قد تحقق حيث عاد حسن بن خير الدين على عجل الى مدينة الجزائر قبل ان يتم اخضاع بني عباس او القضاء على امارتهم كما كان مصمما ان يفعل

وقد قدر عبد الله في الواقع جيدا الخطر الكبير الذي كان سينجم عن القضاء على بني عباس من قبل الاتراك ، اذ سيتفرغ هؤلاء حينئذ له . ولن يكون في ظهرهم من يزعجهم ، او يلهيهم عنه خصوصا بعد ان اصبح بنو القاضي اصهارا لاتراك الجزائر (٢). الا ان التدخل السعدي الثالث في تلمسان لا يزال الغموض يكتنف تفاصيله .

١٥- تحسين العلاقات بين عبد الله وحكام الجزائر نحو السلام القلق :

واذا تساءلنا الان عما كان رد فعل حسن بن خير الدين على هذا التدخل السعدي الجديد ، وعن موقف السلطان العثماني من الصراع الدائر بين ايالة الجزائر والمغرب وجدنا ان حسن بن خير الدين قد شرع فور عودته الى الجزائر من بلاد القبائل في اعداد حملة مضادة على المغرب ، ولكن ميله الى الاستعانة بأهل القبائل اسماره الجدد بشكل مثير للانتباه ، جعل جند الجزائر الانكشارى يتشكك في حقيقة نواياه ، ولم يلبث ان القى القبض عليه (اكتوبر ١٥٦١) ، وارسله الى استانبول مقيدا بتهمة الميل الى الاستقلال عن الدولة فتأجل مشروع الحملة (٣) . اما السلطان العثماني الذي جاءه عبد الملك متوسطا لانتزاع الملك من اخيه عبد الله ، وطلب مساعدته بحملة لتحقيق هذا الغرض ، فقد آثر ان يجرب مع السلطان السعدي مرة اخرى الاسلوب الدبلوماسي الهادئ في وقف النزاع القائم بينه وبين ايالة الجزائر ، وبينه وبين اخوته الذين لجأوا الى اتراك الجزائر . فارسل اليه رسولا لهذا الغرض .

وفي مراكش لقي الرسول العثماني استقبالا حسنا ، واكراما جزيلا لدى السلطان عبد الله السعدي ، وتوصل معه الى اتفاق مبدئي التزم فيه عبد الله بارسال هدية سنوية لا ضريبة تسمية للسلطان العثماني ومنحة فصلية لاخوته في الجزائر . وعاد الرسول العثماني ، ومعه

---

(1) Monchicourt: l'Expédition Espagnole de 1560 contre l'Ile de Djerba, Paris 1913.

(٢) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر

(٣) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر ايضا

كاتب السلطان السعدي ابو محمد السرغيني لمناقشة شروط الاتفاق مع السلطان العثماني نفسه ، وحمله عبد الله بهذه المناسبة ، هدية ثمينة الى هذا الاخير (ودفع له مالا موفرا وذخائر من الذهب والياقوت ، ودفع له علامات وسيوفا مفضضة ومذهبة واعطاه ذخائر .... وجبر له مافي الهدية (١) .) كما ارسل من كاتبه المذكور خمسة الاف (مثقال ٢) وقال لهم (لكم علي ذلك في كل وقت وفصل من الفصول والمواسم ، يأتيكم الى تلمسان او الجزائر مع التجار ، ولا تلحقكم الفاقة ، وانا بالحياة ...) و(٢). وافتح هنا قوسين قبل متابعة الرحلة مع المبعوث المغربي لاشير منذ الآن بان عبد الله لم يف بالتزاماته لاخوته . اذ لم يلبث كما تؤكد ذلك الوثائق العثمانية ان نقض التزامه الذي قطعه على نفسه لاخوته ، فاضطر هؤلاء لشكايته الى السلطان العثماني، (٣) الذي امر لعبد الملك ، وعبد المؤمن بالمساعدة التي كانا يتلقيانها قبل ان ينعم عليهما اخوهما بالمنحة التي تقدمت الاشارة اليها ثم يقطعها .

وكانت المساعدة التي تقدمها الجزائر للاميرين السعديين ولمن رافقهما هي كما وردت في وثيقة عثمانية (... منذ البداية الف زياني ذهبي شهريا لعبد الملك ولاخيه عبد المؤمن ، وكان يعطى لهما ستة آلاف زياني ذهبي كمخصص عن ستة اشهر من ناتج قلعة وطن ، وما تبقى كان يعطى لهما نقدا من الحاصلات الاخرى للولاية ...) (٤) .

وفي استانبول اخذ المبعوث المغربي مع السلطان العثماني في الكلام والاتفاق ((وقبل الكاتب ما اشترطه السلطان مراد (٥) (كـذا) من دفع المال كل سنة . واخذ الكاتب[6] في الرجوع الى المغرب ولما رجع اعلم مولاي عبد الله بما ذكره من الشروط وقبولها فرضي بذلك كله)). واذا كان المؤلف المجهول الذي اشار الى هذه السفارة لم يفصح عن كل الشروط التي قبلها عبد الله ، فانه من المتوقع ان يكون من بين هذه الشروط الكف عن التدخل في تلمسان ، مقابل التزام السلطان العثماني بعدم التدخل ضده في المغرب او مساعدة اخوته على الهجوم ضده . اذ لوحظ توقف السلطان السعدي عن التدخل في تلمسان منذ سنة ١٥٦٠ ، وعدم قيام الاتراك العثمانيين بالتدخل في المغرب طوال عهد عبد الله وعدم مساعدتهم لاخوته على التدخل ضـده .

(١) المجهول : المرجع السابق ص٣٥
(٢) نفسه : ص٣٦
(٣) انظر شكوى عبد الملك في مهمة دفتري رقم ٤ (ص٦٧ ، ١٠٦) بتاريخ ٢٦/١/٩٧٩هـ
انظر ايضا مهمة دفتري رقم ٦ ص ٤٥١ بتاريخ ٧/٩/٩٧٢هـ (نقض الصلح)
(٤) انظر الامر في مهمة دفتري رقم ٧ ص ٨٩٦ حكم رقم (٢٤٤) بتاريخ ١٨/٥/٩٧٦هـ
(٥) مما لا شك ان عبد الله توفي في جانفي ١٥٧٤ قبل ان يتولى مراد الثالث والسلطان المعني كما يستخلص من سياق الوثائق العثمانية هو سليمان القانوني اذ ان نقض عبد الله صلحه مع اخوته كان في عهد سليمان انظر مهمة دفتري رقم ٦ ص٤٥١ والوثيقة بتاريخ ٧/٩/٩٧٢ (نقض الصلح)
(٦) المجهول : المرجع السابق ص٣٦

وهكذا نجحت الطرق الدبلوماسية في التوصل الى اتفاق مع السلطان السعدي، سمح لحسن
ن خير الدين الذي عين للمرة الثالثة على رأس حكومة الجزائر في سنة ١٥٦٢، بعد ان نجح في
مرئة ذمته من التهمة التي ألصقها به الجند الانكشاري في الجزائر، (١) بأن يوجه جهوده
يركزها في ضرب الاسبان في وهران والمرسى الكبير سنة ١٥٦٣. اما عبد الله فقد اعتبـــط
بهذا الاتفاق، صاعي اخيه عبد الملك لجر السلطان العثماني للتدخل ضده في المغـــرب،
بالتالي فقد جنب بلاده خطرا جسيما بفضل المرونة التي ابداها تجاه السلطان العثمانـــي
واغوته.

فهل اطمأن الجانبان الجزائري والمغربي الى بعضهما بعد هذا الاتفاق ؟
لا يبدو ذلك لمن يرصد حركات الطرفين، ولا سيما حركات السلطان السعدي الذي ظـــل
يتوجس خيفة من الحوته اللاجئين عند اتراك الجزائر، ومن تر[illegible] ارة هؤلاء على بادس وغيرها
من موانئ ومراسي شمال المغرب، (فاهتم مولاي عبد الله من ذلك وقنط منه، وخاف ان تخرج
عمارة الترك من تلك البلاد الى المغرب ...) (٢). وبهذه المخاوف جملته يكتب الى سلطان
النصارى (واتفق معه ان يخلي له الايالة من حجر بادس ويعين له البلاد، ويخليها من المسلمين
وتنقطع مادة الترك من تلك الناحية ...) (٣).

وقد قام الاسبان بشن هجوم على بادس في سنة ١٥٦٣، مباشرة بعد فشل حملة حسن بن
خير الدين في احتلال وهران والمرسى الكبير في تلك السنة. ولكن حملتهم اخفقت هي الاخرى
في احتلال حجر بادس وفشلت في الاحتفاظ ببلدة بادس، ولا يعود الفضل في احباط هذه
الحملة الاسبانية التي كانت بقيادة سانشو دو مارتيناز دوليفا (SANCHE DE LEYVE)
الى جهود عبد الله وجيشه وانما الى جهود اتراك الحامية، وجهود المجاهدين الاحرار في
بادس والمناطق المجاورة لها، الذين هبوا للدفاع عنها، وكبدوا الحملة خسائر كبيرة اضطرت
قائدها في نهاية الامر الى الامر بالانسحاب (٤) في الوقت الذي انتهز فيه عبد اللـــه
موت مولاي عمار امير دبدو في هذه السنة (١٥٦٣) المتقدم على ضم امارته في شرق المغرب الى
مملكته، وسلطته المباشرة. وقد كان اميرها كما رأينا يتقرب من أتراك الجزائر كلما رأى فـــي
ذلك مصلحة له، او بـــدت لـــه فائدة من وراء تقربه (٥).

---

(١) انظر حول ولايته الثالثة فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢)(٣) المجهول : المرجع السابق، ص ٣٦ ومارمول المرجع السابق ج٢ ص ٢٥١ - ٢٥٨
(٤) م.م. تيم : ج٢ (٢٤٥)
(٥) مارمول : نفس المرجع السابق ص ٢٦٩

وقد عاد الاسبان في السنة التالية (١٥٦٤) الى بادس وحجرها في حملة ضخمة بقيادة دون كارسيا الداليلي نائب الملك في قطلونيا تتألف من ١٤٠٠٠ جندي من قوميات مختلفة اسبانية وبرتغالية والمانية وايطالية وسبعين غاليره ، نجحت في احتلال بادس ثم حجرها في ١٥٦٤/٩/٦ (١). وعمت الافراح اسبانيا والبرتغال (٢) ، اذ كان الوجود العثماني في حجر بادس قد اضر بسفنهم وشواطئهم ايما ضرر ، وقد قدرت خسائرهم خلال فترة احتلال العثمانيين لحجر بادس (١٥٥٤ - ١٥٦٤ بنحو مليون دوكات ، واكثر من اربعة آلاف اسير في خلال خمس سنوات (٣). فقط واستراح عبد الله من جهته (وتهنى من الترك من تلك البلاد) (٤) . وكان اهل بادس قد استنجدوا به (لعدم علمهم بصنعه سرا اي بمواطئه) (٥) وخرج ابنه محمد على رأس جموع المسلمين ، ولكن خروجه كان متأخرا ، فبلغه خبر استيلاء النصارى على بادس وحجرها عند وادي اللبن باحواز فاس فقفل راجعا ، وعاد عبد الله الى فاس دون ان يقوم بأي محاولة لاسترداد حجر بادس الى المغرب ما ، وهذا ما ذهب اليه المؤلف المجهول .

وبعد ونجح عبد الله على كسب ود الاسبان وصداقتهم في وجه خطر الاتراك المحتمل ضده جليا في قتاله عام ٩٦٨ هـ / ١٥٦١ م على امارة بني راشد في شفشاون التي كانت تقوم بأعمال الجهاد ضد المراكز الاسبانية والبرتغالية في شمال المغرب . ثم في عزله لقائد تطوان في سنة ١٥٦٧ ، الذي كان يقلق الاسبان بأعمال الجهاد والغزو البحري .

وقد قام الاسبان من جهة اخرى في اعقاب نجاحهم في احتلال حجر بادس للمرة الثانية بمحاولة غلق مدخل تطوان في سنة ١٥٦٤ ، للحيلولة دون تردد السفن الجزائرية اليها ، ودون خروج غزاة تطوان أو دخولهم . الا ان محاولتهم ذهبت هباء ، اذ ان التيار مالبث ان جرف حطام السفن التي اغرقوها في المدخل ، وهي محملة بالصخور وفتح سبالا لمرور سفينة كبيرة بكل سهولة (٦).

ونتيجة لهذه النجاحات التي حققها الاسبان في بادس وحجرها وتطوان ، والتي حققها هو في شفشاون وابدو ، تقلص النفوذ العثماني في شمال المغرب وشرقه فشعر عبد الله باطمئنان اكبر على مملكته ، (وتهنى من الترك من تلك البلاد) . ثم اقدم على نقض

---

(١) نفسه ... وما يليها و م.م.ت.م فرنسا ج١ ص ٢٦
(٢) ... فرنسا ج١ ص٢٦٤
(٣) الناظر عن المصادر نفس المصدر ص٢٤٣
(٤) المجهول : المرجع السابق ص٣٧
(٥)(٦) مارمول : المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٤٤

الصلح الذي قام بعقده بعض العلماء بينه وبين اخوته في اعقاب قيام هؤلاء بحركة مناوئة ضده باءت بالفشل (١). فعاد هؤلاء للشكوى من اخيهم عبد الله (٢). وانتهز حسن بن خير الدين الفرصة ليطلب من السلطان العثماني بالحاح ارسال الاسطول العثماني الى الجزائر لضرب الاسبان في وهران والمرس الكبير، وحليفهم عبد الله الذي ظهر عداؤه للاتراك من خلال مواقف عديدة، كموقفه من احتلال بادس وحجيرها من قبل الاسبان على سبيل المثال.

ولكن السلطان العثماني آثر ضرب الاسبان وحلفائهم ابتداء من جزيرة مالطة، ثم التفرغ بعد ذلك لعبد الله. وجاء في جوابه لطلب حسن بن خير الدين بهذا الصدد مايلي:

(... وحتى واجبات هذه الغزوة الشريفة بمشيئة الله الاعز، فاذا اصر حاكم فاس المومى اليه (عبد الله) على العداء والخلاف، ولم يصل الى طريق الصلح والصلاح فان ردعه عن تصرفاته سيكون من واجبات السلطنة، ويجب الاعداد له بين اوان الوقت والفرصة المناسبة..) (٣)

ويبدو ان عبد الله شعر بالاستعدادات التي كان يجريها حسن بن خير الدين في الجزائر، تلك الاستعدادات التي كانت بقصد المشاركة في الحملة على مالطه، فخشي أن تكون موجهة ضده، لان حسن بن خير الدين تكتم عن وجهتها، فتقرب من هذا الاخير، وعقد معه تحالفا ضد الاسبان في النصف الاول من عام ١٥٦٥م. وبذلك بلغ ذروة التذبذب بين الاسبان والاتراك العثمانيين.

على ان هذا التقارب قد يكون تم بمبادرة من حسن بن خير الدين نفسه، حيث كان هذا الاخير في حاجة ماسة الى الاطمئنان على الجزائر قبل ان يغيب عنها مع معظم قواتها للمشاركة في الحملة على مالطه، مستغلا على الارجح مخاوف عبد الله.

وقد اشارت الى التحالف الجزائري المغربي المذكور وثيقة انقليزية بتاريخ ١٥٦٥/٦/٣٠ جاء فيها: ((قد أنهى الى سمع الملك "فيليب الثاني" ان ملك الجزائر "حسن بن خير الدين" والشريف "عبد الله بن محمد الشيخ" قد عقدا بينهما حلفا عظيما، وانهما بموجبه قد صمما العزم على محاصرة وهران. وبناء على هذا النبأ فان الملك فيليب الثاني قد عهد الى جوليان روميرو رئيس المعسكر بأن يضع في وهران ألف جندي زيادة على العدد المعتاد هناك من الجنود)) (٤)

---

(١) م.م.ت.م.اسبانيا ج٣ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(٢) مهمة دفتري رقم ٦ ص ٤٥١ بتاريخ ٩٧٢/٧/٢٩هـ وليس معروفا فيما لدي من الوثائق مضمون هذا الصلح الا ان يكون ماسبقت الاشارة اليه وهو تعهد عبد الله بتقديم العون المادي لاخوته في المهجر طالما هو على قيد الحياة

(٣) نفسه

(٤) م.م.ت.م.انكلترا ج١ ص٨٥ و محمد بن تاويت: من زوايا التاريخ المغربي في تطوان عدد ٧ المغرب ١٩٦٢ ص ١٠٠-١٠١

ولكن هذا التحالف لم يظهر له اثر ملموس في عمل مشترك ضد الاسبان غير ان نوعا من حسن الجوار بين البلدين قد ساد في هذه السنة ١٥٦٥ وفي السنوات القليلة التالية، على الرغم من أن الحملة على مالطة، قد اخفقت. وكان من الممكن ان يستغلها السلطان المغربي، وهذا سمح لعبد الله والمغرب ان يعيشا في هدوء واستقرار قلما عرفاه في الماضي (وكانت ايامه ايام رفاهية وعافية) (١). كما سمح لمحمد بن صالح رايس الذي خلف حسن بن خير الدين في صالح سنة ١٥٦٧ بأن يلتفت الى حل النزاع الذي كان قائما بين طائفة الرياس والجند الانكشاري والى مشكلة الامن الداخلي وغير ذلك من القضايا التي كانت ما انفكت تتفاقم (٢).

وسمح كذلك للعلج علي الذي خلف محمدا بن صالح رايس ان ينفذ حملته على تونس في سنة ١٥٦٩، بعد ان فشل مشروعه لتحرير وهران والمرسى الكبير، وأن يفكر في الانتقال بعد ذلك الى الاندلس لقيادة ثورتها، وفي مشاريع اخرى طموحة، اتضحت فيما بعد كرغبته في ضم المغرب الاقصى ايضا تحت لواء الدولة العثمانية تمهيدا فيما يبدو للاستقلال بكل شمال افريقيا عن الدولة العثمانية (٣).

وقد بدا عبد الله خلال السنوات الاخيرة من عهده كأنه يحرص على إبعاد انظار الاتراك العثمانيين عن المغرب ما أمكنه، اذ لم يحاول عرقلة مشاريعهم التوسعية نحو الشرق، ولم ينتهز فرصة انشغالهم بحملتهم على تونس ليقوم بعمل عدائي ضد الجزائر، مما كان قد يثير جيرانه عليه. وهذا الميل المتبادل الى السلام بين اتراك الجزائر العثمانيين والسلطان عبد الله السعدي في النصف الثاني من العقد السابع، من القرن السادس عشر لم يكن ليرضي اخوة عبد الله في الجزائر الذين كانوا يودون منازعته في الملك، ويرغبون في مساعدة الاتراك لهم. فقام عبد الملك الذي يئس من مساعدة الاتراك له بطرق باب الاسبان هو الآخر، وهو في الجزائر عله يحصل منهم على ما يحقق به طموحاته ولو على حساب الذين أكرموه وآووه.

وتذكر الوثائق الاسبانية انه اخذ منذ سنة ١٥٦٩ يجري اتصالات سرية مع الاسبان بواسطة أندريا غاسبارو كورسو (Andria Gasparo Corso)، واخوته الذين كانوا يترددون على الجزائر ويتظاهرون بالاشتغال بالتجارة، وافتداء الاسرى، وهم يشتغلون في نفس الوقت بالجوسسة والاستخبارات (٤).

---

(١) المجهول: المرجع السابق ص ٣٢
(٢) هايدو: المرجع السابق ص ١٣١ وانظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٣) المرجع السابق ص ١٣٦ - ١٤٣ والحياة السياسية في الجزائر
(٤) انظر عن الاخوة غاسبارو وهم اندريا، فرانسيسكو، فيليب، وماريانو وخامس غير معروف الاسم م. ت. م. اسبانيا ج٣ ص ١٥٧ - ١٥٩

ومنذ الاتصالات الاولى ابدى عبد الملك رغبته في التحالف مع فيليب الثاني ، واستعداده للتعاون معه على طرد الاتراك العثمانيين من كل بلاد البربر على ان يكون ملكا على كل (بلاد البربر الداخلية) ، وان يحصل فيليب الثاني على البلاد الساحلية وأوضح انه يكفيه اذا لم يرد فيليب الثاني القيام بحملة على بلاد البربر ، ان يوفر له المال والسلاح فقط لاخراج الاتراك من شمال افريقيا في غضون عام ، وذلك بمساعدة اميرى كوكو وبني عباس اللذين عرضا عليه مرارا ان يكون على رأس ثورة عامة ضد الاتراك ، وكان تحت امرة هذين الاميرين خمسة عشر الفا من حملة البنادق النارية وكثير من الفرسان . وعرض عبد الملك في مقابل المال والسلاح المطلوب من الاسبان ان يقدم اثنين من ابناء اخوته ليكونا رهينتين لديهم [1] .

ولكن الاسبان استفادوا في الحصول على المعلومات عن تحركات الاتراك ونواياهم [2] ، ولم يمدوه بالمال والسلاح كما كان يرغب ليحقق مآربه .

ويبدو ان عبد الله الغالب بالله السعدي قد شعر باتصالات اخيه عبد الملك مع الاسبان عبر الاخوة فاسبارو ، واتصالات اخيه عبد المؤمن بهم عبر حاكم وهران [3] ، واتصالاتهما ببعض المغاربة ، وتآمرهما عليه مع هؤلاء وأولئك ، فأوعز الى ابنه ، وولي عهده محمد نائبه على فاس بأن يبحث عن يغتال عبد المؤمن في تلمسان . فوجد محمد احد ثقاته لهذا الغرض وتظاهر المبعوث بأنه هارب ، من المغرب اليه ، ناقم على السلطان وابنه ، راغب في خدمته ؛ ولما فاز بثقته اغتاله في احد ايام الجمعة من سنة ١٥٧١ [4] . وهو يصلي . وتمكن من العودة ثانية الى المغرب . وعوض أن يحصل على مكافأة ، امر السلطان بقتله حتى يمحو نفسه ما فعله [5] .

وقد منح السلطان الثاني العثماني ولاية تلمسان بعد مقتل عبد المؤمن الى اخيه عبد الملك (على الوجه الذي اعطيت لاخيه المتوفى ، وامرنا بحرية تصرفه بها كما كان ذلك لاخيه من قبله ...) [6] . وحفظ لابناء عبد المؤمن ماكان لوالدهم من اقطاع ورواتب . [7]

---

(١) انظر عن هذه الاتصالات الاولى المصدر السابق ص١٦١ - ١٧٥

(٢) نفسه : ص١٨٠ - ١٨٥

(٣) نفسه ص١٧٦ - ١٧٩

(٤) لم يقتل كما يعتقد طوريس في سنة ١٥٦٧ وانما في سنة ١٥٧١ انظر مهمة دفترية رقم١٨ ص١٥ والمصدر السابق ص١٧٦ - ١٧٩

(٥) طوريس : المرجع السابق ص١٤٢

(٦)(٧) مهمة دفتري رقم ١٨ ص١٥

وطالمثت العلاقات بين عبد الله السعدي وحكام الجزائر الاتراك العثمانيين ان تدهورت في اعقاب مقتل عبد المؤمن،الذي كان يتمتع كما تبين بمكانة خاصة لدى اتراك الجزائر ولدى السلطان العثماني نفسه ، حتى ان هذا الاخير كان قد ارسل اليه في سنة ١٥٦٣ خلعة همايونية (سلطانية) لصداقته واخلاصه المعهودين للدولة (١).

وقد جاء مقتل عبد المؤمن لينضاف الى عامل آخر لا شك انه كان له اثره في تذمر الاتراك على عبد الله ، واعني به تضييقه وتشديده العقاب على المرابطين الموالين للاتراك العثمانيين في المغرب ، من اتباع الطائفة اليوسفية بدعوى غلوهم وبعدهم عن جادة الصواب ، فقتـل بعضهم وسجن آخرين .

ونتيجة لكل ذلك فان السلطان العثماني سليم الثاني،أوعز الى العلج علي باعداد حملة للهجوم على عبد الله مع عبد الملك ،متى سنحت الظروف له . وهذا الايعاز كان بتاريخ ٢٠/٦/١٥٧١ (٢).

ولم يكن بالامكان للعلج علي ان ينفذ فيما تبقى من السنة اي هجوم على المغرب ، ذلك انه مالبث ان دعي المشاركة في صد حملة صليبية ضخمة للدول الاوربية ضد الدولة العثمانية،وهي الحملة التي انهزم امامها الاسطول العثماني،شرمزيمتني لبانتي في ٧/١٠/١٥٧١ ، بحيث لم ينج منه غير السفن الجزائرية تقريبا بقيادة العلج علي،الذي اسند اليه السلطان العثماني سليم الثاني في اثرها مقاليد الاسطول العثماني ، ومنصب الاميراليا . فتأجل تنفيذ الحملة على المغرب .

ولم تكن ظروف احمد اعراب الذي خلف العلج عليا في الجزائر (٣)، وهي ظروف ملبـد الهزيمة في ليبانتي،وما تبعها من مخاوف في الجزائر ان تكون هدفا لحملة مسيحية ضدها لتسمح له بتنفيذ الحملة المزمعة سابقا على المغرب ،بل انه سعى للتقرب من عبد الله الغالب بالله ، فارسل اليه مبعوثا (مراد) في آخر سنة ١٥٧٢ لعقد تحالف بينهما . ولكن عبد الله رفض استقبال هذا المبعوث (٤) . وذلك فيما يبدو ،خشية أن يثير غضب فيليب الثاني والاسبان في هذه الظروف،التي انهار فيها الاسطول العثماني في ليبانتو ، والتي كان فيها الاسبان وحلفاؤهم يحاولون استثمار انتصارهم المـذكور . وربما ايضا لان شخصية المبعوث الجزائري لم تكن محل الرضا لدى السلطان المغربي فهو صهر لاخيه عبد الملك ،وبواسطته كان هذا الاخير يسعى للحصول على المساعدة التي تمكنه من انتزاع الملك منه .

(١) مهمة دفتري رقم ٧ ص ٩٠٦ بتاريخ ٢٢/٥/١٥٧١ م
(٢) مهمة دفتري رقم ١٤ ص ١٠٦٧ - ١٠٦٨ بتاريخ ٢٦/١/١٥٧٢ هـ
(٣) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٤) م.م.ت.م. اسبانيا ج٣ ص١٨٤ - ١٨٥ هامش ٣

وقد اثار رفض استقبال عبد الله للمبعوث الجزائري المذكور مخاوف كبيرة لدى احمد اعرب في الجزائر الذي توقع بهذه المناسبة ان يقدم السلطان المغربي على غزو تلمسان التي اسند حكمها لعبد الملك (١). بعد مقتل عبد المؤمن في الرئيس الذي كان فيه مهددا بحملة اسبانية، ومنشغلا باجراء التحصينات لمدينة الجزائر واخماد ثورة بني عباس التي اشتد لهيبها، وثورة اهل قسنطينة. ونتيجة لهذه المخاوف بعث يطلب المدد من السلطان العثماني، ويخبره بالوضع المتردي، كما اخبر ايضا العلج علي قائد الاسطول العثماني (٢). ولكن توقعات احمد اعراب لم تثبت كلها، فالحملة الاسبانية التي توقعها ضد الجزائر اتجهت الى تونس وانتزعت هذه الاخيرة من ايدي العثمانيين في اكتوبر ١٥٧٣، والسلطان السعدي لم يهاجم تلمسان، بل أرسل سفارة الى السلطان العثماني برئاسة ابي عبد الله محمد الدرعي التمجروتي في سنة ٩٨٠هـ / ٧٢ - ١٥٧٣، (قضى أربه ورجع الى المغرب) (٣). ولم يذكر ابن عسكر الذي اشار الى هذه السفارة ماكان هذا الأرب، ولعله كان توضيح موقفه من السفارة الجزائرية الآنفة الذكر، وابعاد الشكوك التي اثارها حوله احمد اعراب، وتجديد رغبته في السلام مع اتراك الجزائر العثمانيين، اذ كان في حاجة الى السلام معهم، للتفرغ لاطماع الملك البرتغالي دون سيباستيان الذي كان يهدد باسترجاع جميع المواقع التي حررها السعديون، أو تخلى عنها البرتغاليون نتيجة لظروفهم الصعبة، وفي طليعتها آغادير. مما جعل السلطان عبد الله يجري تحصينات لهذه الاخيرة على جناح السرعة (٤).

وفي السنة التي بعث فيها عبد الله السفارة، كان الملك البرتغالي قد أعد حملة بحرية ضخمة لمواجهة المسلمين في المغرب. الا ان عاصفة شديدة أغرقت السفن وكل من فيها، ورمت بجثثهما على ساحل آصيلا، حصل منها المغاربة على غنائم كبيرة (٥). مما يدفعنا الى احتمال ان يكون غرض السفارة ايضا طلب المساعدة العثمانية. ولم تمض فترة طويلة على توجيه السفارة المذكورة حتى مات عبد الله، متأثرا بمرض الربو الحاد في ٢٧ رمضان ٩٨١هـ / جانفي ١٥٧٤م.

(١) مهجة لتجسترى رقم ١٨ ص ٥، وانظر فصال الحياة السياسية في الجزائر.
(٢) نفسه رقم ٢٢ ص ٢١، المرجع السابق ص ٦.
(٣) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٦
(٤) ... : المرجع السابق جـ٣ ص ١١٩
(٥) الجنابي : المرجع السابق ص ٣٤٨

ولو شئنا تقييم العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهده لقلنا انها كانت متقلبة من العداء في السنوات الاولى (١٥٥٧ - ١٥٦١) الى السلم المشوب بالحذر خلال السنوات ١٥٦١ - ١٥٦٥، الى التحالف غير الفعال في السنوات ١٥٦٥ - ١٥٧٠، الى الفتور في السنوات الاخيرة (١٥٧١ - ١٥٧٤). ولقرنا بشيء من اليقين ان الثقة بينه وبين حكام الجزائر كانت دوما مفقودة لانه كان متأكدا من رغبتهم العميقة في السيطرة على المغرب في اية فرصة تسنح لهم، كما كانوا هم واثقين بالمقابل بأن عبد الله لن يقبل ابدا بتبعيته للدولة العثمانية، ولا بالامتداد الجزائري الى المغرب، بل سيغتنم اية مناسبة للهجوم على الجزائر لكسر طوق الحصار الذي احاطه به من الشرق الوجود العثماني فيها، واشعره بالعزلة في اقصى الزاوية الشمالية الغربية من افريقيا، ولو تحالف في سبيل ذلك مع الشيطان.

ولذا فان العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهده لم تأخذ صورتها التعاونية او التي كان يجب ان تكون، التصدي للاحتلال الاوربي لارض البلدين، والمطامع الاوربية المختلفة التي اخذت تتزايد.

وقد كانت وفاة عبد الله بداية لمرحلة جديدة في العلاقات بين البلدين مختلفة عن هذه المرحلة، كما سيتضح في الفصل التالي.

الفصـــــل الخامـــــس

السلام بين تبعية المغرب للعثمانيين وترسيخ سيادتـــــه

في الفترة ٩٨٢ هـ - ٩٩٥ هـ/١٥٧٤ - ١٥٨٧م

آ- العلاقات في عهد المتوكل وعبد الملك :

١- محاولة المتوكل التقرب من الاتراك :

لقد مال حكام الجزائر الى السلم مع عبد الله السعدي بعد ان اخفق حسن بن خير الدين في تدخله في المغرب في سنة ١٥٥٨ كما رأينا ووجهوا جهودهم على الخصوص لضرب القوى المتحالفة ، او المتضامنة معه ، جزائرية كانت ام اسبانية ، ولتوطيد سلطتهـــم في الداخل ، من المشاركة في مخططات الدولة العثمانية في مالطه ، ولبانتي ، وتونـــس .

ولما آل الحكم في المغرب الى محمد بن عبد الله المعروف بالمتوكل على اللـــه في رمضان ٩٨١ هـ / جانفي ١٥٧٤ ، كان الاتراك العثمانيون يخططون لاسترجاع تونس ، ودعا السلطان العثماني سليم الثاني عبد الملك للمشاركة في الحملة عليها (١) ، فتوجــه في صيف سنة ١٥٧٤ مع عمارة الجزائر بصحبة اخوه احمد على رأس فرقاطة ، يتألف طاقمها من نيف وثلاثين رجلا (٢) . وحظر تحريرها من الاسبان (٣) . بعد ان كان يتأهب للتوجه الى المغرب (٤) في هذه السنة لانتزاع الملك من ابن اخيه ، المتوكل على الله .

اما هذا الاخير الذي كان يدرك بدون شك نوايا عمه عبد الملك واطماعه في الملك ، فقد سارع الى ارسال سفارة تتألف من خمسة أعضاء ، ذكر الجنابي ان السفير المغربي عالم جليل اسمه ابن الشين ، تحمل هدية ثمينة الى السلطان العثماني ، ورسالة تؤكـــد ان هذه حرصوت مودته ورغبته في توطيد العهود والاتفاقيات السابقة وفوق ذلك انه يعترف

---

(١) م.م.ع.م اسبانيا ج٣ ص ١٨٩ (وثيقة بتاريخ ٣٠/٦/١٥٧٤
(٢) القرماني : المرجع السابق ص ٤٤
(٣) ابن ابي دينار : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ص ١٨٠ وما يليها
(٤) م.م.ع.م اسبانيا ج٣ ص ١٨٦ - ١٨٧

يادة السلطان العثماني عليه (١). وهو مالم يقبل به من سبقه من السلاطين السعديين :

((... et que le prince lui meme reconnaissait la suzerainete d
notre seigneur le sultan ...)).

ير غان ان هذه المحاولة تندرج في اطار محاولة تأويق جهود عمه عبد الملك ، الذى كان
سعى للحصول على المساعدة العسكرية من السلطان العثماني لانتزاع ملك المغرب منه ، كما
ن يسعى من قبل الى انتزاع الملك من والده عبد الله . وهكذا فإنه في سبيل البقاء على عرش
مغرب لم يتردد المتوكل في عرض الاعتراف بالتبعية ، وهو ما كان يأمل فيه السلاطيـــــن
عثمانيون ، ويسعون الى تحقيقه منذ عهد محمد الشيخ كما رأينا ، ولم ينجحوا فـــي
تحقيقه سواء بالترغيب او الترهيب ،فهل نجحت محاولة المتوكل هذه ؟

حسب الجنابي الذى اشار الى هذه السفارة،فان السفارة المغربية قد وصلت الــــى
ستانبول ،والسلطان العثماني سليم الثاني على فراش المرض الذى مات في اعقابه ، فاعلـــن
ن وصول السفير المغربي ، والغرض من سفارته الى مراد الثالث (٢). مما يعني ان السفارة
مغربية التي كانت في مارس على الاقل في الجزائر (٣) . تأخر وصولها الى اواخر عـــام
١٥٧٤) حيث كانت وفاة السلطان سليم في ١٢/١٢/١٥٧٤ . وقد يكون حاجي مراد
صهر عبد الملك قد عمل جهده لتأخيرها ، احتياطا لما فيها المضادة لصهره عبد الملك
تركها في الجزائر وذهب لاعلام السلطان سليم الثاني بمضمونها ، ولكن هذا الاخيـــر
صدر امره لرمضان باشا الجزائر بوجوب ارسال السفارة المغربية على جناح السرعة ، رفقـــة
حاجي مراد المذكور الذى كان يشغل حينئذ منصب امير لواء المدية (بايلك التيطرى) (٤).
على اثر استقبال السلطان مراد الثالث للسفارة المغربية ، بحسب رواية الجنابي جاء عبـــد
الملك عم المتوكل على الله، الذى مضى على لجوئه الى الجزائر نحو سبع عشرة سنة، يطلب عون
السلطان ضد ابن اخيه ، ومسوغا ذلك بانه احق منه في الملك (٥). باعتبار انه اكبر منـــه
سنا ، وان قاعدة انتقال الملك في المغرب كما وضعها جده محمد القائم بأمر الله السعدي،
تقضي بأن يلي الملك الاكبر في الاسرة من الابناء .

وبتحريض من العلج علي، قبطان البحرية العثمانية ، وصديق عبد الملك منذ كانا في الجزائر،
وافق السلطان العثماني على مساعدة عبد الملك ، ولكن لا تتساوى الحال في المغرب بينه وبيـــن
ابن اخيه (٦). وصدر الامر لرمضان باشا بالتحرك معه لتنفيذ هذا القرار (٧).

---

(١) الجنابي : المرجع السابق ٣٤
(٢) نفسه
(٣)(٤) مهمة دفترى : رقم ٤ ص ٢٠١ بتاريخ ٤ / ١٢ / ١٩٨١هـ
(٥)(٦)(٧) الجنابي : المرجع السابق ص ٣٤٩ وانظر حول مبدأ الخلافة السعدية الافراني :
النزهة : ص ٦٧

وهكذا يبدو حسب هذه الرواية ان محاولة المتوكل لم تنجح تماما في اثناء السلطان العثماني عن مساعدة عمه عبد الملك . الا انها جعلت السلطان العثماني يسعى للتوفيق بين الاثنين بتقسيم المغرب بينهما ، وبذلك يرضي بحسب ظنه الطرفين ، ويحقق في الوقت نفسه مد السيادة العثمانية على المغرب . وتذهب رواية اخرى الى ان عبد الملك الذى شارك في تحرير تونس وحلق الوادى في سنة ١٥٧٤ ، كما ذكر ، كان اول من بشر السلطان العثماني بالنصر عن طريق امه التي كانت تقيم بدار السلطان ، اذ نجح رسله في ايصال الخبر الهـــا قبل وصول البريد الرسمي المرسل من قبل قائد الحملة سنان باشا وعلج علي قائد الاسطول ، وانتهزت فرصة الخبر فطلبت منه ان يصدر امرا الى باشا الجزائر بالمسير في حملة مع ولـــدها لاخذ حقوقه في ملك المغرب من ابن اخيه محمد المتوكل على الله . فلم يتردد في الاستجابة لطلبها بعد ان تأكد من صدق النبأ من رسل قائد الحملة (١) . ولكن السلطان العثماني الذى كان مريضا مالبث ان توفي بعد ذلك بقليل قبل ان تنفذ الحملة على المغرب . وقد ذكر سابقا ان السلطان سليما الثاني كان قد اوعز للعلج علي بالتحرك الى المغرب في حملة مع عبد الملك في ٢٠ /١٥٧١/٦ ، اذا كانت الظروف مواتية ، ولكن الظروف لم تواته ولم تواته ايضا احمد اعراب الذى خلفه . واصدر بعد ذلك كما في ٢٥ / ١٠ / ٩٧٩ هـ على ١١ /١٥٧٢/٣) بوضع مقاطعات فاس ومراكش والسوس تحت تصرف عبد الملك اذا تيســر له اقتران تلك الولايات به كما كانت عليه ايام والده المتوفى (٢) . مما يعني الاعتراف من الدولة العثمانية بعدم تجزئة المغرب .

ولكن موت السلطان قبل تنفيذ الحملة على المغرب جعل عبد الملك مضطرا لتجديد طلب العون من السلطان العثماني الجديد ، وتجديد خضوعه وولائه وتبعيته له ، حتى يأمر رمضان باشا الجزائر بالتحرك معه في حملة على المغرب. ويلاحظ أن الرواية الثانية لا تشير الى ما ذكره الجنابي من تقسيم المغرب بين عبد الملك وابن اخيه محمد المتوكل على الله . ولكن مجريات الامور تدل كما سنرى على ان الاتراك العثمانيين لم يساعدوا عبد الملك الا على أخذ مملكة فاس ، مما يعزز رواية الجنابي .

---

(١) المجهول : المرجع السابق ص٤٦ - ٤٧ والافراني النزهة ص٦٢

(٢) مهمة دفتري رقم ١٢ ص٥٤٤

الحملة الجزائرية الثالثة على المغرب : ١٥٧٦ - ١٨٤ هـ

كان هدف هذه الحملة كما اسلفنا مساعدة عبد الملك على اخذ حقه في الملك، ولكن رمضان باشا الذي تلقى امرا بالتحرك في حملة مع عبد الملك الى المغرب، امتنع من تجريد الحملة، مالم يدفع عبد الملك تكاليفها، او يتعهد هو واخوه احمد خطيا بدفع تكاليفها بعد تنفيذ مهمتها، فما كان من عبد الملك واخيه الا ان وافقا على الحل الثاني، اذ لم يكن لديهما مال للدفع حينئذ وقدرت تكاليف تجهيز الحملة بخمسمئة الف مثقال، ورواتب الحملة ومؤونتها عن كل يوم عشرة آلاف مثقال الى يوم رجوعها، (واعطيا خط ايديهما) (١). على هذا الاساس، وتم تسجيل كل ذلك في دفتر بحضور القاضي والفقهاء.

وشرع الاخوان في اثر ذلك في التمهيد للعودة الى المغرب فوجها الرسل لشيعتهما فيه، ولرؤساء القبائل، يخبرانهم بامر الحملة ويدعوانهم لأن يكونوا على استعداد لمساندتها، ويهددان من رفض الدخول في طاعتهما (٢). وقد كان لعبد الملك انصار من بين قادة المتوكل، في فاس يرغبون في عودته الى المغرب، واخذ الملك من ابن اخيه (٣). ولا سيما من بين الاندلسيين، اذ كان هؤلاء يكرهون مولاي عبد الله ووالده محمدا لتخاذلهما عن مساعدة الاندلسيين في ثورتهم على الاسبان في الاندلس سنة ١٥٦٨، وكانوا على استعداد للانتقام من محمد المتوكل على الله (٤).

وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك يسعى جاهدا للحصول على مساعدة الاتراك العثمانيين له بحملة على المغرب ضد ابن اخيه محمد المتوكل على الله، كان هذا الاخير (٥) يعد بدوره الترتيبات، ويجند الاجناد اللازمة لمواجهة عمه حتى توفر لديه ستة وثلاثون الفا. كما كان يتقرب من اعداء الاتراك العثمانيين كالاسبان والبرتغاليين، ويوطد الصداقة مع الانكليز على امل ان يستفيد من كل ذلك في تعزيز سلطته في المغرب، وفي مواجهة الخطر الذي بات محققا ان يأتيه من جهة الشرق. فابدى رغبته للاسبان في التحالف معهم، ورغبة مماثلة للبرتغاليين (٦). بعد ان خاض ضد ملكهم الشاب الطموح سيباستيان عدة معارك حول طنجة في سنة ١٥٧٤ (٧)، وعقد مع اليزابيت ملكة انكلترا اتفاقية نصت

---

(١) الزياني : المرجع السابق ص٢٥٢ - ٣٥٣
(٢) نفسه : ص٣٥٢ و هايد و المرجع السابق ص١٦١ م.م.م.ت.م انكلترا ج١ ص١٥٣
(٣) م.م.م.ت.م اسبانيا ج٣ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ و م.م.م.ت.م
(٤) المجهول : المرجع السابق ص ٤٨
(٥) نفسه : ص٤٩
(٦) م.م.م.ت.م اسبانيا ج٣ ص٢٢٥ - ٢٢٨ . الاستقصاء ج٥ ص٥٨
(٧) م.م.م.ت.م فرنسا ج١ ص٣٣٩ والسلاوي :

على تأمين السفن الانكليزية من الغزاة المغاربة ، وعلى السماح للانكليز بالاتجار في المغرب ، بشرط دفع العشر مع المعاملة بالمثل للتجار المغاربة ، وعلى خضوع الانكليز لما يخضع له المغاربة من خراج وجباية ، وعلى ان يكون للانكليز سفير في المغرب وللمغاربة سفير في انكلترا (١) .

كانت الحملة الجزائرية الثالثة على المغرب تتألف من ستة آلاف من حملة البنادق الاتراك والف من اهل زواوة اتباع امير كوكو ، وثمانمئة من السباحيين ونحو ستة آلاف من الفرسان العرب الاخرين ، واثني عشر مدفعا وكميات كبيرة من القذائف والذخيرة (٢) ، وترأسها رمضان باشا نفسه ، ورافقه طبعا عبد الملك الذى اصطحب أخاه أحمد ، وداود وعمراني ابنيهما ـــــــ المؤمنين ، وغيرهم من اشياعه واتباعه (٣) .

وقد اخذت الحملة في التحرك نحو فاس على طريق البر ، تواكبها سبع عشرة سفينة[4] على طريق البحر ، وذلك في اواخر جانفي ١٥٧٦ م (شوال ٩٨٣ هـ) ، ووصلت دون اى مقاومة حتى مشارف فاس في اوائل مارس ١٥٧٦ ذى الحجة ٩٨٣ هـ وهناك وجدت في مواجهتها قوات المتوكل على الله المؤلفة من نحو ثلاثين الف فارس مغربي ، ومثلها من المشاة بينهم نحو ثلاثة آلاف من حملة البنادق النارية العلوج والاندلسيين (٥) ، وعدد كبير من الانفاض (المدافع) . و ((لما التقى الجمعان بالركن من احواز فاس " تهل الثامن من مارس ١٥٧٦ (٦) ، مال عسكر اهل الاندلس الى عبد الملك وجروا عليه الهزيمة على سلطانهم " محمد المتوكل على الله " حسبما وقع الاتفاق على ذلك (٧) . بالمراسلات على يد ابي القفل الغسرى[8] ، المتوسط في ذلك)) (٩) .

ومن مال ايضا عن محمد المتوكل الى عمه عبد الملك : اولاد عمران وغيرهم ، واشيع كذبا للمتوكل ان قائده وعمدته ابن شقراء قد مال ايضا الى عبد الملك . ودون ان يتحقق المتوكل من الامر فر ليلا الى فاس ومنها الى مراكش ظانا ان جنده كله سيفعلون مثل الاندلسيين واولاد عمران ، وترك محلته واثقاله (١٠) . وفي الغد استولى عليها جيش الجزائر وعبد الملـــــك

(١) ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي . في مجلة تطوان عدد ٣ - ٤ المغرب ١٩٥٨ ١٩٥٩ ص (٥ - ٥٣)

(٢) هايدو : المصدر السابق ص١٦ . وهناك اختلاف في الاحداث التي ذكرها هايدو والتي ذكرها غيره كالمجهول : المرجع السابق ص٤٨ وعنده ان المحلة كانت تتألف من اربعة آلاف من الترك وشرذمة قليلة من اولاد العرب وفي وثيقة مجهولة المؤلف ايضا عدد الاتراك عشرة الاف انظر ابن تاويت من زوايا التاريخ المغربي في تطوان عدد ٩ ص ٩٤

(٣) المجهول : المرجع السابق ص٤٨

(٤) م.م.ت.م : اسبانيا ج٣ ص٢٢٩ - ٢٣٢

(٥) هايدو : المرجع السابق ص١٦

(٦) انظر هامش (٤) م.م.ت.م اسبانيا ج٣ ص٢٣٢ - ٢٣٣ انظر تاريخ الدولة السعدية ص٤٨

(٧) عدد هم مصعب المجهول . ١٨ للفشتالي ص٤٦ - ٤٧ وهو اندلسي انتقل الى الجزائر ودخل في

(٨) انظر عنه مناهل الصفا خدمة عبد الملك الذى اتخذه سفيرا الى اشياعه في المغرب .

(٩) نفس المرجع ص٤٧

(١٠) المجهول : المرجع السابق ص٤٩ - ٥١ والافراني النزهة ص٦٢

ونادى هذا الاخير بالامان والعفو ، ورحب بمن اراد الانضمام اليه، والانضواء تحت لوائــه. فالتأمت عليه محلة ابن اخيه وجاءه اهل فاس واعيانها وهنأوه بالملازمة، وبايعوه بيعة عامة عــن رضا منهم ، ولم يتخلف عنها احد منهم (١) . وفي اليوم التالي دخل عبد الملك مــع رمضان باشا الى فاس (٢) ، بدون اي معارضة ، واستقبل فيها استقبالا حسنا (٣) . ومـا كاد عبد الملك يستقر في المدينة حتى بادر الى اقتراض المال من اهلها كل حسب استطاعتــه لتسديد تكاليف المحلة ومكافأة افرادها ، اذ أن ماوجده في خزينة ابن اخيه من مال وسلـع وغيرها كان غير كاف حيث ان هذا الاخير قد اخذ قبل مغادرته لفاس ما أمكنه منها وان اهل فاس قد نهبوا ، بعيد فرار المتوكل من المدينة الكثيرة من ذخائره (٤) . ولم تمض سوى ايام قليلة (٥) على دخول عبد الملك مع جيش الجزائر الى فاس حتى دفع هذا الاخير راتب جيـب عليه دفعه من المال لاتراك الجزائر ، وهو خمسمائة الف مثقال فضلا عن اقامة المحلة وأربعمائة وعشرين الف مثقال من عدد الايام التي استغرقتها المحلة، وهو اثنان واربعون يوما بمعدل عشرة آلاف مثقال من كل يوم (٦) ، واعطى لكل واحد من جيش الجزائر اربعين أوقيـــة (٧) ، وهدية لحكومة الجزائر تتألف من عشرين نفسا من الانفاض التي تركها محمد المتوكل في محلته، بينها مدفع ذو تسعة افواه ، وحوائج وتحف وخيول معتبرة ، وخمائل ، ودرق وسيوف ، وتلامن (٨) ، ومئة من المستعبدين المسيحيين، الذين كانوا عند ابن اخيه فـي فاس (٩) . فانصرفت المحلة الجزائرية عائدة الى الجزائر في اواسط شهر مارس ١٥٧٦ (/ دون ان تساعده على بسط نفوذه على بقية انحاء المغرب، ولا سيما جنوبه، مما يعني ان الامر بمساعدته كان لاخذ فاس كما اشار الى ذلك الجنابي . وسار عبد الملك في وداع المحلــة الجزائرية حتى اجتاز قنطرة نهر ســبو (١٠) . ووجه معها احد قدامه ليأتيه بخط يده وخط يد اخيه من الجزائر (١١) .

---

(١) هايدو والمصدر السابق ص١٦٢ والمجهول: نفس المرجع السابق ص٥٢
(٢) حسب النزهة ودرة الحجال فان الدخول الى فاس كان في اواخر ذي الحجة سنة ٩٨٣/ اواخر مارس) ١٥٧ ولكن حسب رسالته لعبد الملك فان الدخول يكون قد تم في ١٥٧٦/٣/٨ انظر الافراني: النزهة ص٦٣ وابن القاضي : الدرة ج٣ ص٥٧ وهامش ١ من م م ت ت م: اسبانيا ج٣ ص٢٢٢ - ٢٢٣
(٣) هايدو والمصدر السابق ص١٦٢ والمجهول نفس المرجع السابق ص٥٢
(٤) المجهول : المرجع السابق ص٥٢
(٥) ثلاثة ايام عند الزياني : المرجع السابق ص٢٥٢
(٦) نفسه : والمجهول المرجع السابق ص٥٢
(٧) نفسه : وعنده المثقال الواحد يساوي ٥ر٤ اواق ص٤٧ وفيه ان ٤٠ وقية تساوي نحـو تسـع مثاقيل ذهبيـــة .
(٨) نفسه : ص٥٢
(٩) هايدو : المرجع السابق ص١٦٢
(١٠) المجهول : المرجع السابق ص٥٢
(١١) الزياني : المرجع السابق ص٢٥٣

وتلبية لطلبه ترك له رمضان باشا الفرقة الزواوية المؤلفة من العنصر ونحو ثلاثمئة من الاتراك (١)، وزعهم على جميع انحاء المغرب ولم يحتفظ بأحد منهم لحراسته. (٢)

وهكذا كانت الحملة الجزائرية الثالثة على المغرب وهي الثانية التي نجحت في الوصول الى فاس، والدخول اليها، الا انها عادت ادراجها دون ان تحتفظ بها او بغيرها من الحواضر المغربية، مكتفية بمظاهر الولاء التي ابداها عبد الملك الذي نصب سلطانا في فاس، وبملامح التبعية التي تشهد بها من قبل مثل تقديم الهدايا للسلطان وقراءة الخطب على المنابر باسم السلطان العثماني (٣)، وهو ما تشهد به قبله ايضا ابو حسون الوطاسي.

ولا تشير الوثائق الى اية مضايقة من جنود الحملة الجزائرية الثالثة لسكان فاس ونواحيها كما حدث في ابان الحملة الاولى سنة ١٥٥٤ اذ اتخذت الحملة معسكرا لها على بعد ميل واحد من المدينة (٤). بل ان المغاربة في المدن الساحلية التي قصدتها السفن الجزائرية رحبوا بالاتراك العثمانيين للفوائد التي يمكنهم ان يحصلوا عليها من توسيع نشاطهم البحري ومن غنائم الغزو البحري ضد الاسبان والبرتغاليين من امتداد النفوذ العثماني الى المغرب؛

وقد اثارت الحملة الجزائرية على المغرب وبقاء قسم منها فيه، في خدمة عبد الملك، وتردد السفن الجزائرية على الموانئ المغربية الشمالية مخاوف كبيرة لدى الاسبان والبرتغاليين تردد صداها في وثائقهم، فقد كان يخشى ان يكون هدف الحملة الجزائرية ليس فقط الاستيلاء على مملكة فاس ولكن ايضا مهاجمة اسبانيا بعد ذلك. الامر الذي جعل بعضهم يحث فيليب الثاني على اتخاذ كامل الاحتياطات لصد اى هجوم محتمل على اسبانيا، وللتدخل في المغرب اذا دعا الامر لدعم المتوكل اذا ما انهزم، ولمهاجمة الجزائر إذا انتصرت الحملة الجزائرية على المغرب، او لتقديم العون الى عبد الملك ان احتاج اليه لطرد الاتراك من بلاده (٦).

وتهدد و مخاوف البرتغاليين من الاهداف الحقيقية للأتراك العثمانيين في المغرب في رسالة دون خوان د و سيلفا الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ١٥٧٦/٤/٢ وفيها ان البرتغاليين وفي مقدمتهم الملك سيباستيان يخشون ان يكون الاتراك العثمانيون قد جاؤا الى المغرب ليس فقط لمساعدة عبد الملك ولكن للاستيلاء على موانئ المغرب ولا سيما ميناء العرائش الذى يمكن ان

(١) حسب وثيقة معاصرة ترك له ١٥٠ انظر م.م.ت.م.اسبانيا ج٢ ص٢٥٠ - ٢٦١ وانظر هايدو: المصدر السابق ص١٦٢
(٢) نفس الوثيقة السابقة
(٣) المجهول: المرجع السابق ص٥٣
(٤) (٥) م.م.ت.م.اسبانيا ج٣ ص٢٢٩ - ٢٣٢
(٦) م.م.ت.م.انكلترا ج١ ص١٦ (وما يليها) (هذه الوثيقة بتاريخ ٢٤ مارس ١٥٧٦ وهي رسالة من بيرو وتاني باترستا الى فيليب الثاني).

الامر الذى يعرض للخطر امن اسبانيا والبرتغال على السواء
...ت وعب وحده اسطولا تركيا هاما ، الامر الذى يعرض للخطر امن اسبانيا والبرتغال على السواء (١)
...ذى يستوجب من الملكين البرتغالي والاسباني اتخاذ التدبير الوقائي المناسب لهذه المواقف
وكان من رأي الملك البرتغالي القيام بحملة مشتركة لاحتلال ميناء العرائش ، وتحصينه قبل
...يحتله الاتراك ، ويحولوا دون كل ملاحة في المحيط ، ويجلدوا سكان الشواطئ ويلحقوا
...د مآربهم (٢) ، ودعا دون سانشو وليفا فيليب الثاني في رسالته اليه المؤرخة بـ ٢٣/٤/
١٥٧... الى ضرورة تقوية القواعد الاسبانية - الافريقية كوهران والمرسى الكبير ومليله وبعض المدن
... سبانية الساحلية الجنوبية كقرطاجنه والمرية وجبل طارق ، وتهديم طنجة وتحصين سبته (٣)
ونتيجة للمخاوف الكبيرة التي اثارتها الحملة الجزائرية على المغرب لدى الاسبان ، اصدر
... فيليب الثاني اوامره بتقوية القواعد الاسبانية في المغرب والمدن الساحلية الاندلسية ، وارسال قطع
... ن الاسطول الاسباني الى مليله ، تحسبا لاى هجوم تركي عليها . واشير من جديد الى حديث
... ن غلق مدخل مرسى مارشيكا وبناء حصن كبير عليه (٤) .
اما سياستيان ملك البرتغال فقد فكر جديا في غزو المغرب واحتلال العرائش ولم يلبث
... ان شرع في اعداد حملة ضخمة لتحقيق طموحه وازالة مخاوفه . ولعل مبعث مخاوف الاسبان
... والبرتغاليين ماتردد لديهم قبل بدء الحملة الجزائرية من ان عبد الملك ينوى غزو وهران بطلب
... من الاندلسيين قبل غزو فاس (٥) . ثم شروعه في بناء السفن فور دخوله الى هذه الاخيرة .

علاقات عبد الملك مع اتراك الجزائر والدولة العثمانية بعد استيلائه على المغرب : ١٥٧٦-١٥٧٨

لقد بادر عبد الملك كما تقدم الى دفع تكاليف الحملة الجزائرية فانصرفت هذه عائدة الى
الجزائر ولا يبدو ان استعجال عبد الملك عودة الحملة الجزائرية كان فقط بدافع التملص من
التكاليف اذ كان ملزما بدفع عشرة آلاف عن كل يوم ، ولكن ايضا للتخلص منها حتى لا يثقل عليه
الاتراك بمطالب التهنئة لهم (٦) ، اذ كان يريد ان يسترجع استقلاله التام (٧) . ولكنه
في نهاية الامر لم يجرؤ حتى بعد عودتها على قطع الصلة باتراك الجزائر والسلطان العثماني

(١) م.م.ت.م. اسبانيا : جـ٣ ص ٢٢١ - ٢٢٤ رسالة الملك البرتغالي الى سفيره في اسبانيا وهي
(٢) م.م.ت.م. انكلترا : (ص ١٦٣ - ١٦٦)
بتاريخ ١/٤/١٥٧٦
(٣) م.م.ت.م. اسبانيا جـ٣ ص ٢٢٢ - هامش ١
(٤) نفسه : ٤ ... هامش ١
(٥) م.م.ت.م. انكلترا جـ١ ص ٣٥ ويبدو ان الاندلسيين طلبوا مثل هذا الطلب ليتأكدوا من عدائه للاسبان قبل ان يمنحوه تأييدهم في صراعه مع ابن اخيه .
(٦) صلاح العقاد المغرب العربي ص ٥٦
(٧) هنرى تيراس تاريخ المغرب جـ٢ ص ١٨٥

ذلك لان الاتراك العثمانيين ، رغم مساعي التقرب منهم ومن الاسبان ، مضوا في تهديدهم لغزو المغرب وان الدعم لحملة ضخمة لتحقيق هذا الغرض ، ولان محمدا المتوكل على الله المخلوع مازال يناوئه ولا ننسى ايضا ان زوجته وابنه اسماعيل بقيا في الجزائر ، مما يجعلهما عاملا ضاغطا عليه ان هو مال الى القطيعة مع الاتراك او معاداتهم . فلهذه الاسباب وغيرها فان عبد الملك ظل من صديق او رياء حريصا على ان يبدو بمظهر التابع الوفي المخلص للاتراك العثمانيين ولا سيما للسلطان العثماني (١). وذلك بدون شك حتى يأمن على نفسه ، وعلى مملكته ، من تجاوزات اتراك الجزائر واطماعهم ، وحتى يستمد من ولائه له الهيبة والقوة لمجابهة التهديدات البرتغالية .

فبعد انصراف الحملة الجزائرية ونجاحه في انتزاع مراكش ايضا من ابن اخيه في سبتمبر ١٥٧٦ ، اعد هدية ثمينة ، قدرت قيمتها بأكثر من خمسة ألف دوكات ، تردد انه سيبعثها الى السلطان العثماني، وانه سيطلب بهذه المناسبة منه ان يبعث اسطوله الى المغرب (٢) ، وذلك للرد نيابة عنه على التهديدات البرتغالية بغزو المغرب واستغلال ميناء العرائش الممتاز ولكن السفن الاربع التي جاءت من الجزائر الى تطوان لحمل الهدية الى استانبول انتظرت طويلا ثم عادت ادراجها ، لان عبد الملك لم يشأ فيما يبدو ان يحمل الهدية في سفن قبطان الجزائر لخلاف وقع بينهما من قبل (٣) . فتأخر ارسال الهدية الى ربيع سنة ١٥٧٧ كما سيأتي .

وقد شهدت الفترة التي تلت الحملة الجزائرية الى المغرب ، وحتى شهر ماي ١٥٧٧ ، تاريخ وصول سفارة عبد الملك المحملة بالهدية الى السلطان العثماني عدة اتصالات وحوادث بين حكومة الجزائر وعبد الملك ادت الى بعض توتر في العلاقات ; نذكر منها ما ذكرته احدى الوثائق بتاريخ ٢٥/١٠/١٥٧٦ من ان عبد الملك اشتكى الى علي رايس ، صهر قبطان البحرية الجزائرية الذي كان على رأس ثماني سفن جزائرية راسية بميناء العرائش ، تجاوزات الاتراك لحقوقهم ان احتلوا ادارا عديدة بجوانبه كما رفع شكوى بذلك الى السلطان العثماني . (٤)

اما رمضان باشا فقد بعث في اواخر سنة ١٥٧٦ او مطلع سنة ١٥٧٧ الوفاس ومراكش من يبحث له عددا من الاسرى الفرنسيين ، لاطلاق سراحهم ، تلبية لطلب الملك الفرنسي وسفيره (لابي دوليل L'Abbé de Lisle) لدى الدولة العثمانية ، وتمكن بفضل ماله من نفوذ

(1) Hammer (J.): Histoire de l'Empire Ottoman, trad. J.J. Hellert t.7, Paris 1837, P.251.

(٢) م.م.ت. انكلترا جـ١ ص٢٣٨ (؟)

(٣) م.م.ت. اسبانيا جـ٣ ص ٢٥٨ – ٢٦١ ، حسب هذه الوثيقة فان عبد الملك رفض ان يدفع الدوكات التي وعد بها قبطان الجزائر مقابل مساعدته له .

(٤) م.م.ت. اسبانيا جـ٣ ص ٢٥٨ – ٢٦١

(١)،
...دى عبد الملك من تحرير العديد منهم
(٢)، الا انه لا يعرف الغرض الذى
وفي مارس ١٥٧٧ كان في الجزائر مبعوث من عبد الملك
...باء من اجله . ولداه بخصوص افتداء الاسرى الفرنسيين اذ توجه هذا المبعوث مع سليمان شاوش
...رمضان باشا ، الى تطوان فاحضر هذا الاخير ، من كان هناك من الاسرى الفرنسيين وارسلهم
...مع سفير جزائري الى فرنسا ، وطلب الملك الفرنسي هنري الثالث الى اطلاق سراح هؤلاء الفرنسيين
(٣).
...على انه علامة على قوة نفوذ السلطان العثماني في المغرب
وقبل شهر مارس بعث رمضان باشا الى مدكت التابعة لمملكة فاس عساكره فاخذوا منها اربعة
...الاف فلوري (٤) . وقد اثارت جملة هذه التدخلات من باشا الجزائر وعساكره استياء عبد الملك
...ما جعله يتقدم في اثرها شكاواه الى السلطان العثماني . واخذت العلاقات بينه وبين الجزائر
في عهد رمضان باشا تنحو نحو التوتر .
ولعل بعض هذه الاستفزازات والتدخلات في المغرب كانت مقصودة من رمضان باشا الذى
لا ...ذلك تقرب عبد الملك من الاسبان ، والاتصالات الجارية بين الطرفين في هذه الفترة

5- تقرب عبد الملك من الاسبان :

... استأنف عبد الملك اتصالاته مع فيليب الثاني في مطلع سنة ١٥٧٧ برسالتين احداهما
بتاريخ ١٠ جانفي والاخرى بتاريخ ٥ فيفري عرض فيهما استعداده ورغبته في عقد اتفاق سلام معه
وحلف دفاعي وهجومي ضد الاتراك (٥).
وكان الاسبان وجيرانهم البرتغاليون متخوفين من علاقات عبد الملك مع الاتراك ومن ثم فانه
لم يحصل على جواب عن عروضه السابقة (٦) . فبعث الى فيليب الثاني رسالة اخرى بتاريخ
١٦/٤/١٥٧٧ حملها اليه سفيره الاب مارين يجدد فيها رغبته السابقة في ابرام تحالف معه ،
وحمل معه مقترحات جديدة اهمها :
- يتعهد بالا يكون له سفن حربية يمكن ان تلحق اضرارا بالشواطئ الاسبانية والبرتغالية ،
- ينتقم من القراصنة الذين يلحقون الاضرار بها اذا ما التجأوا الى موانئه بغنيمته ، واعادتها
بدون مقابل .

---

(١) (٢)(٣) م.م.ت.م. فرنسا ج١ ص٣٣
(٤) سهجة المغترب رقم ٣ ص ١٧٩ تاريخ ٢٥/٣/١٩٨٩
(٥) م.م.ت.م. اسبانيا ج٣ ص٣١٥
(٦) فهم فيليب الثاني على ميسوشد كابريت الفرنسي الذى حمل الرسالتين اليه لشكوكه حول حقيقة امر هذا السفير واعتقد البرتغاليون انه جاسوس فرنسي انظر م.م.ت.م. فرنسا ج٢ ص ٣٥١ هامش ٢

- لا يقدم لأي ملك الدعم ضد اسبانيا ولو كان بطلب من السلطات العثماني ، وفي مقابل ذلك يتعهد له الملك الاسباني بأن يقدم له عونه اذا ما احتاج اليه في اى وقت (١).

ولكن الاسبان كانوا يرغبون في ان يطرد عبد الملك مابقيه من الاتراك العثمانيين الذين استبقاهم من الحملة الجزائرية ، وأن يسلم لفيليب الثاني الموانئ المغربية حتى لا يتمكن الاتراك من احتلالها (٢).

وفي انتظار هذه السفارة والعروض الجديدة وجه فيليب الثاني الى المغرب فرانسيسكو زونيجا (Francisco Zuniga) الذى كان له اتصال سابق بعبد الملك (٣) ، ليوافيه بمزيد من المعلومات عن الوضع في المغرب وعن حقيقة امر عبد الملك فكتب اليه تقريرا مفصلا عن الوضع (٤). وعاد محملا برسالتين من عبد الملك بتاريخ ٢٨ /٤/ و ٢٩ /٤/ ، وكان محتواهما شبيها بمحتوى رسالته السابقة (٥). واخيرا حرر البلاط الاسباني في اوائل ماى ١٥٧٧ الشروط التي ينبغي قبولها من قبل عبد الملك لاقامة السلام بين الطرفين ومن هذه الشروط :

- ان يعلم عبد الملك ملك الاسبان عن الاعمال العدائية التي يعتزم السلطان العثماني القيام بها .
- الا يستند السلطان السعدى اى مسلطلاتراك العثمانيين ، والا يساعدهم ضد اسبانيا .
- الا يستقبل في موانئه القراصنة الاتراك ، واعداء الاسبان ، (الانكليز ؟) دون ان يكون فيليب الثاني ملزما بالمثل (مراعاة للبرتغاليين ؟) .
- ان تمنح سفن الاسبان وسفن حلفائهم الحرية في الدخول الى الموانئ المغربية .
- ان يتبادل الطرفان العون ضد السلطان العثماني .... (٦).

كان من المقرر ان يحمل هذه الشروط مع رسالة لفيليب الثاني الى عبد الملك ، السفير الاسبق لهذا الاخير القبطان نابريت لولم يعترض الملك البرتغالي على ذلك ، ويطالب بوقف هذه السفارة بدعوى ان كابريت ماهو الا جاسوس (٧). ولعله كان يخشى ان يقبل عبد الملك بالشروط المذكورة فلايكون هنالك مبرر لتنفيذ حملته التي كان يعتزم القيام بها على المغرب . والتي قطع شوطا بعيدا في اعدادها ، فتراجع فيليب الثاني عن ارسال السفارة المذكورة

(١) م.م. تشم انكلترا ج١ ص٢٠٧ - ٢١٠
(٢) م.م. تشم اسبانيا ج٣ ص٢٨٦
(٣) تعرف عليه حين كان في الجزائر
(٤) محمد العربي الخطابي : أمير سعدى في خدمة البلاط الاسباني ، في ، مجلة المناهل عدد ١٢ المغرب ١٩٧٨ ، ص ٨٧ - ٨٨
(٥) م.م. تشم اسبانيا ج٣ ص٥٣١
(٦) م.م. تشم انكلترا ج١ ص٤١٢ - ٢١٨
(٧) نفسه : اسبانيا ج٣ ص٣٠٦ و هامش ١

ولعل ذلك لا يعود فقط الى رغبته في ان لا يجد نفسه في حرج مع
شروع سلاحه من عبد الملك . ولكن ايضا الى عدم ثقته التامة في صدق نوايا عبد
ن البرتغال) الذي صمم على غزو المغرب ، ولكن ايضا الى تخوف السلطان العثماني نفسه غير خافية
لملك ، اذ كانت اتصالات هذا الاخير مع اتراك الجزائر والسلطان العثماني نفسه و مكتملة الذين كانوا يواكبونه
ليه ، بفضل جواسيسه في المغرب ، وفي قصر السلطان نفسه و
كل مارد ورد به من الاتراك العثمانيين وغيرهم .
وكان كاتب عبد الملك نفسه حجي المرين يبعث سرا الى اسبانيا بنسخ من الوثائق التي
كانت تصدر عن الديوان الملكي في المغرب (١). وبذلك يكون قد ثبت لفيليب الثاني دون شك
ان عبد الملك كان يتقرب من اعداء الاسبان كالانكليز والفرنسيين (٢)، ويحافظ على علاقات طيبة
مع السلطان العثماني ، في الوقت الذي كان يحاول التحالف معه ضدهم .
ـ تأرجح عبد الملك بين الولاء للاتراك والحذر منهم (٣). ففي ماي ١٥٧٧ بعث عبد الملك
موسى بن عبد النبي رسولا الى السلطان العثماني مراد الثالث وهدية ثمينة قدرها مئتا ألف
دوكات ورسالة تحمل تاريخ اواسط صفر سنة ٩٨٥هـ (حوالي ٤ ماي ١٥٧٧) جدد فيها
امتنانه وشكره للسلطان العثماني واعترافه بسيادته وطلب حمايته ومساعدته على جيرانه الكفار (٤)
جاء فيها : (مالنا عليه مدين به للسلطان ، فهو سيدي وسلطاني ... وبما ان الكفار يحتلون
عديدا من المراكز الحصينة على ارضنا فنحن نريد مهاجمتها والتخلص منها ، ونأمل من
السلطان ان تساعدنا في تحقيق هذا الغرض ، ونحن الآن نتوفر على اربعمئة سفينة ،
لانه من الآن فصاعدا لن نتوقف كأسلافنا بحول الله عن الجهاد برا وبحرا ، واذا كان سيدنا
السلطان سيمدنا بعونه فاننا نستطيع ان نهزم الكفار) (٥).
ويبدو من هذه الرسالة ان عبد الملك قد تحمس للتعاون مع الاتراك ضد الاسبان الذين
رفضوا التحالف معه وضد البرتغاليين الذين مضوا في استعداداتهم لغزو المغرب . وقد جاء في
شهر ماي ١٥٧٧ رسول من الجزائر لاخباره عن تحركات الاسطول العثماني (٦) . الا ان
حماسة عبد الملك للتعاون مع الاتراك ضد البرتغاليين ولاسيما ضد الاسبان لم يكن
صادقا ولا قويا . اذ ظل ينشد صداقة فيليب الثاني ملك اسبانيا ، ويأمل ان يثني هذا الاخير

(١) محمد العربي الخطابي : المرجع السابق ص ٨ ، وفصل السياسة السياسية في المغرب
(٢) انظر عن علاقاته مع انكلترا وفرنسا مجلة تطوان عدد ٦ و ٧
(٣) م . م . ت . م فرنسا ج١ ص ٣٥٧
(٤) الجنابي : المرجع السابق ص ٣٥٠
(٥) م . م . ت . م اسبانيا ج٣ ص ٣١٣
(٦) م . م

ابن اخته سيباستيان ملك البرتغال عن عزمه ، كما ظل يبدى رغبته في التحالف معه ، واستعداده بأن يتعهد بعدم دعم اى ملك ضد اسبانيا حتى ولو كان هذا الملك هو السلطان العثماني . وهو ما تؤكده وثيقة بتاريخ مابعد ٢٧/٥/٥٧٧ (١) ومن ثم نقض رفض لعمره حاجي مراد المتحمس للاتيان بالاسطول العثماني الى المغرب ان يأتي به (٢).

وفي اعقاب سفارة عبد الملك الى السلطان العثماني التي تكون قد حملت الى هذا الاخير شكاواه من تصرفات بحارة الجزائر في الموانئ المغربية ، ومن تدخلات رمضان باشا وعساكره في اطراف المغرب ، عزل السلطان رمضان باشا (٣). واصدر سلسلة من الاوامر الى حسن باشا البندقي (فينيزيانو) الذى خلفه منها : امر باستخلاص ما استولى عليه عساكر رمضان باشا من البلدة المغربية المذكورة (٤) . وامر آخر بعدم التعرض اطلاقا لمملكة عبد الملك ، ولرعاياه لما لهذا الاخير من قدر لدى السلطان ، جاء فيه : ((نحيطكم علما بأن جناب الامير عبد الملك حاكم فاس هو محط عواطفنا العالية الكسروانية من جميع الوجوه ، وذلك لما هو عليه من صداقة واخلاص ومودة واختصاص تجاه سماداتنا العليا ، وبناء على ذلك فاننا نأمر بعدم السماح لعساكر الجزائر ولغيرهم بالتعرض والتدخل في شؤون بلاد المشار اليه ورعاياه (٥))) .

وامر ثالث بتقديم العون اللازم لعبد الملك اذا ما طلبه ، واستدعاه بدون تراخ (وفيما اذا اعتدى أى باغ على بلاده والتمس المعونة منكم فلا تتوانوا عن ارسال القدر الكافي من العساكر لمعاونته ، ومظاهرته ودفع مخاطر الاعداء على دياره) (٦).

ولعل الاشارة هنا موجهة الى ملك البرتغال دون سيباستيان الذى ذكرنا انه كان يحلم لسلطة على المغرب منذ فترة ، وقد احدث هذا الاعداد مخاوف لدى عبد الملك جعلته يطلب الحماية من السلطان العثماني .

ويستدل من من الامر الاخير أن السلطان العثماني اعتبر من مسؤولياته حماية المغرب من الخطر الخارجي ، لان عبد الملك يعتبر أحد أتباعه . ولاشك ان المواقف التي اتخذها السلطان العثماني استجابة لطلب عبد الملك او نتيجة لشكواه قد اضرت الباشا حسن فينيزيانو بالمكانة التي يتمتع بها السلطان السعدى لدى السلطان العثماني ، واشعرت عبد الملك نفسه

---

(١) م.م.مستم اسبانيا : ج ٣ ص ٣١٥

(٢) نفسه : ٣٢٢

(٣) نفســـــه : ٣٢٠

(٤) مهمة دفترى رقم ٣٠ ص ١٧٩ بتاريخ ٥ /٣/ ٩٨٥هـ

(٥)(٦) نفســـــه : ص ١٨٠

بذلك . واعتمادا على ماله من قدر وجاه لدى السلطان العثماني ، ولدى باشا الجزائر لم يتردد
عبد الملك في ابداء استعداده لسفير اليزابيث ملكة انكلترا (ادمون هوجان) الذى وفد عليه
في جوان ١٥٧٧ ، لان يطلب من الاتراك ومن باشا الجزائر تقديم تسهيلات للسفن الانكليزية ،
ومعاملة حسنة للتجار الانكليز فجاء في تقرير السفير الى ملكته ((... فانه سيكتب الى الاتراك ،
والى ملك الجزائر " الباشا " ، ويبعث رسائله بان يعاملوا سفننا وتجارنا معاملة حسنة)) (١) .
وتنفيذا لاوامر السلطان العثماني المذكورة ، ولاسيما الامر الاخير منها ، جرت بين حكام
الجزائر وعبد الملك اتصالات ومشاورات مكثفة حول مايجب عمله ، امام مضي ملك البرتغال في
اعداده لغزو المغرب ، واقدام حاكمه في طنجة على احتلال آصيلا في جويليه ١٥٧٧ ، بتواطؤ
مع حاكمها عبد الكريم بن توده (٢) . صهر محمد المتوكل على الله المخلوع ، تمهيدا للتدخل
الاكبر . وفي هذا الاطار توجه الى المغرب عدة مبعوثين للتداول مع عبد الملك في المساعدة
التي يمكن ان يقدمها الاتراك العثمانيون له ، وفي الامور الاخرى التي تهم البلدين . ومن
بين المبعوثين الجزائريين الذين توجهوا الى المغرب خلال النصف الثاني من العام ١٥٧٧م
حاجي مراد ، صهر عبد الملك والمدعو سالم الجعفر (٣) وغيرهما .
وقد تردد في صيف هذا العام ان مجيء الاسطول العثماني الى الحوض الغربي مؤكد ،
مالم يحصل دون ذلك حائل . وجرت الشائعات في الجزائر ان الباشا يقوم باستعدادات ضخمة
بهدف ضرب وهران وقادس (٤) .
وكان حاجي مراد صهر عبد الملك ، وهو احد الشخصيات العثمانية النشيطة البارزة
في الجزائر ، يهدد الاسبان اذا ماأقدموا على مساعدة محمد المتوكل على الله المخلوع ليسترجع
مملكة فاس ، او ظلوا على سياسة مماثلة لسياسة ملك البرتغال المؤيد للسلطان المخلوع ،
بالذهاب الى القسطنطينية لاحضار الاسطول العثماني ، لضرب وهران والمرسى الكبير ، واسترجاع
مملكة فاس لصهره ، وعرقلة ملاحتهم مع الهند ، بدعوى ان موقفهم ذاك يشكل ايضا تهديدا
لولاية تلمسان والغرب الجزائري (٥) .
ولكن عبد الملك كان غير متحمس في واقع الأمر لاستقدام الاسطول العثماني الى
المغرب لانه يعلم ان دعم الاتراك لا يكون خاليا من الطمع في بلاده ، ولانه لم يفقد فيما يبدو

---

(١) ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي في تطوان عدد ٦ ص١٥٢
(٢) محمد العربي الزبادي : المرجع السابق ص١٨
(٣) ابن تاويت : المرجع السابق وعدد ٨ ص٦٦ و م.م.ت.م. انكلترا ج٢ ص٢٧ الى ٢٧٦
(٤)(٥) م.م.ت.م: اسبانيا : ج٣ ص٢٢٧ الى ٢٣١

الامل فيتراجع الاسبان والبرتغاليين عن تقديم العون الى ابن اخيه محمد المتوكل المخلوع وحسن التدخل في المغرب لاحتلال بعض اجزائه . عن طريق الاستمرار في محاولات التقرب منهم واستبعاد مخاوفهم منه ، بعرض التحالف معهم ضد الاتراك العثمانيين ، وابداء الاستعداد لاستبعاد ماليديه من الاتراك . ولم تكن هذه السياسة لتنال رضا صهره حاجي مراد ، وكيل اتراك الجزائر ، فقام المذكور بحملة دعائية لم تكن بدون اساس من الصحة حيث اشاع في المغرب والجزائر ان البرتغاليين تحالفوا مع محمد المتوكل على الله لغزو المغرب وطرد عبد الملك منه ، والقضاء على اي وجود عثماني في هذا البلد ، ودعا - للحيلولة دون ذلك - الى التدخل في المغرب ، واستيلاء الاتراك العثمانيين عليه (١) . مما يسمح بشن حرب على الاسبان والبرتغاليين في عقر دارهم ، ويسمح من ثم بعرقلة الملاحة الهندية ومراقبتها عن كثب (٢) . ولكن السلطان العثماني مال الى مسالمة الاسبان ، ثم بدا لعقد هدنة معهم ، كما مال الى عدم التدخل في المغرب بغرض احتلاله ، كما ورد في الامر السابق الذكر ، فاخفقت دعوته الى احتلال المغرب .

وبما ان السلام مع اسبانيا يعني تجميد نشاط غزاة الجزائر فان باشا الجزائر سعى إلى التأثير على موقف السلطان من خلال عبد الملك الذي بدا له انه يتمتع بحظوة كبيرة لدى السلطان العثماني ، وان كلمته نافذة لديه . هذا الاخير فوجه له حينئذا حمل اليه رسالة في ٢٥ نوفمبر ١٥٧٧ ، رجاه فيها ان يستعمل ماليديه من نفوذ وحظوة لدى السلطان العثماني لالغاء هذا الاخير عن توقيع الهدنة مع اسبانيا وبدفعه لارسال الحلق على من الاسطول لتحرير وهران ، وان يوضح له بان انشغال فيليب الثاني بحروبه في الفلاندر (٣) . سوف لا تجعله يهب لانقاذ هذه القاعدة ، وانه من الممكن انتهاز هذه الفرصة لاستخلاص شمال افريقيا من الاحتلال المسيحي . كما رجاه في حال توقيع السلطان العثماني للهدنة (٤) ، ان يهاجم القواعد البرتغالية في المغرب ، بحيث تجد اسبانيا نفسها مضطرة الى مساعدة البرتغال ، وبذلك تخرق اتفاق الهدنة (٥) . وقد كانت هذه الرسالة مكتوبة بالايطالية ، وحتى يفهمها عبد الملك

---

(١)(٢) م.م.ت.م.اسبانيا : جـ٣ ص٣٣٢

(٣) كانت الاراضي المنخفضة قد ثارت ضد الاسبان في سنة ١٥٦٧ ثم في سنة ١٥٧٢ . اخضعت الولايات الجنوبية للتاج الاسباني اما المقاطعات الشمالية فاستمرت ثائرة تحت وليم دورانج ، وفي سنة ١٥٧٩ كونت اتحاد اوترخت ثم جمهوريات للمقاطعات المتحدة انظر : ليلى الصباغ : معالم تاريخ اوربا الحديث . دمشق ١٩٨١ ص١٧٩

(٤) لم توقع الهدنة الا في ١٥٧٨/٢/٧ انظر ارشيف سيمانكاس ٤٨٦

(٥) م.م.ت.م.انكلترا : جـ١ ص٢٦٧ ومايليها

جيدا اعطاها الى اندريا غاسبارو كورسو ليقرأها له، وكان هذا الاخير جاسوسا لفليب الثاني، يتظاهر بالصداقة والمحبة لعبد الملك منذ كان في الجزائر. وقد حضر الى المغرب منـــــذ نهاية شهر اوت ١٥٧٧، واحتفى به عبد الملك ايما احتفاء (١).

وما يهمني ان يبادر الى اعلام فليب الثاني بما ورد في هذه الرسالة، وما ورد في الرسالة الثانية التي تلقاها عبد الملك من باشا الجزائر في اثر الرسالة الاولى، في شهر نوفمبر ايضا (٢).

وفي هذه الاخيرة طلب حسن فينزيانو من السلطان السعدي ان يستقبل كل غزاة الجزائر في مينائي العرائش وسلا اذا ما وقع السلطان العثماني الهدنة مع الاسبان. وابدى لـــــه مزايا استقبالهم فقال له بهذا الصدد: ان باشا هؤلاء ان يحرروا لك قاعدتي طنجة وسبتة من البرتغاليين وبوجودهم هناك ستستفيد من الغنائم التي يحصلون عليها من الاسبان، ثم ان هذا التحول سيبعد جدا الخلع عليك الذي يحب غزاته كاولاده، ولكنه بسبب السلام الذي يريد السلطان العثماني ان يلتزمه، لا يجد كيف يستخدمهم (٣).

وهذا العرض الذي تقدم به باشا الجزائر الى عبد الملك يدفع الى التساؤل عما اذا لـــم يكن قد قصد به ايضا التمهيد للاستقلال عن الدولة العثمانية، واقامة تحالف جزائري مغربـــي في مقابل التقارب العثماني الاسباني.

وقد نصح اندريا غاسبارو كورسو عبد الملك بعدم استخدام الاسطول العثماني، وكذا بعدم استقبال قراصنة الجزائر في مينائي العرائش وسلا، زاعما له ان مجيء هؤلاء الى المغرب لا يغني خزينته، وانما يفقرها اذ ان مجيئهم سيبعد التجار المسيحيين عن مملكته. امـــا الاستيلاء على القواعد البرتغالية بمساعدة الاتراك فسيكون شاهدا على عجزه، ونصحه ايضا بان يستبعد ما لديه من الاتراك، وكان عددهم نحو خمسمئة بدعوى ان رعاياه يشتكون من تصرفاتهم (٤).

وبحسب رسالة اندريا الى فاتكيث سكرتير فليب الثاني فان نصائحه قد جعلت عبد الملك يتريث في الجواب على رسالة الاتراك ويؤخر عودة السفير الجزائري (٥).

وتما ترتب عنه الملك دعوة السلطان العثماني الحاح مجرد واستعداده للذهاب الى استانبول لاحضاره، فقد تجنب ايضا ايواء كل غزاة الجزائر كما طلب حسن باشا، على الرغم من ان الدولة العثمانية قد وقعت الهدنة وذلك في (٦). وليس هناك ما يشير الى انه عمل على

---

(١) ابن عبد الوهاب: من زوايا التاريخ المغربي.. في مجلة تطوان عدد ٨ ص٦٣-٦٥

(٢)(٣)(٤)(٥) م.غ.م.ت: انكلترا، جـ١ ص٢٦٧ (رسالة اندريا الى فاتكيث في ٢٨/١/١٥٧٧)

(٦) ارشيف سيمنكاس رقم E ٤٨٩ احالة من كلمنس ا من مناهل الصفا للفشتالي تحقيق كريم ص٦٢

احتياطهما، وفق المخطط الذي ذكره باشا الجزائر في رسالته الاولى .

ويستخلص من كل ذلك ان عبد الملك لم يكن متحمسا للتعاون مع باشا الجزائر او حتى مع صهره ، ولاسيما اذا كان في هذا التعاون ما قد يثير غضب السلطان العثماني نفسه، الذي كان يتخذه درعا في وجه حكام الجزائر واطماعهم ، او يحد نهائيا من فيليب الثاني ، الذي كان يريد ان يتخذه لهاما لسيما ن .

ويتضح مما سبق ان لاندريا غسبارو كورسو تأثيرا قويا على موقف عبد الملك ، ويتجلى تأثيره اكثر فيما سيأتي .

لقد كان الدافع الحقيقي لذهاب اندريا الى المغرب ليس تهنئة عبد الملك بالملك فقط كما تظاهر ، ولكن ايضا لتحقيق ثلاثة اهداف رئيسة : (1) هي :

١- دفع عبد الملك الى استقدام زوجته وابنه اسماعيل من الجزائر حتى يتسنى للاسبان جره الى معاداة الاتراك ، وحتى لا يستغل الاتراك بقاء اسرته عندهم للضغط عليه ان هو أراد ان يبتعد عنهم او يميل الى محالفة اعدائهم .

٢- دفعه الى صرف الاتراك الذين كانوا في خدمته ، مما يثير العداوة بينه وبين الاتراك العثمانيين فيصبح بالتالي اكثر طواعية للاستجابة الى الشروط التي يريدها الاسبان من اجل التحالف بين الطرفين .

٣- دفع عبد الملك الى التحالف مع فيليب الثاني من اجل فتح ايالة الجزائر على اساس ان يكون لعبد الملك السيادة على المناطق الداخلية ، ولفيليب الثاني السيادة على المناطق والمدن الساحلية . على ان يدفع عبد الملك مصاريف هذا الاحتلال . (٢) والتحالف على هذا الاساس مشروع قديم يعود الى سنة ١٥٦٦ حين كان عبد الملك لاجئا في الجزائر. فهل حقق اندريا أغراضه ؟

اذا تتبعنا ما تحقق بصدد النقاط الثلاث وجدنا ان عبد الملك قد ارسل الى الجزائر في نوفمبر ١٥٧٧ سفينة لاستقدام زوجته وولده اسماعيل منها (٤) . هذا بالنسبة للنقطة الاولى ، اما بالنسبة للثانية ((فقد اعاد عبد الملك الاتراك الذين كانوا عنده في خدمته على امل الا يهاجمه البرتغاليون ...)) (٥) .

---

(١)(٢) م.م.م.ت.م. انكلترا جـ١ ص٢٥٧ (اغراض اندريا كما تحدد في رسالته الى اخيه فرانسيسكو الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ٢٢/١٠/١٥٧٧

(٣) نفسه ت.م. اسبانيا جـ٣ ص١٦٩ - ١٧٥

(٤) نفسـه ، انكلتـرا جـ١ ص٢٦٧ .

(٥) نفسـه : اسبانيا . جـ٣ ص٤٠٣ - ٤٠٦

واما بصدد النقطة الثالثة،فقد طلب عبد الملك من اندريا أن يتوجه الى البلاط الاسباني سفيرا منه . الا ان هذا الاخير اعتذر عن القيام بهذه المهمة ، ودافع بأنه لم يكن معتمدا في المغرب لامور سياسية ، علما أنه كان في الجزائر غير معتمد للامور السياسية ايضا ، ومع ذلك فانه كان يقوم بنقل رسائل عبد الملك ورغباته الى البلاط الاسباني . وقد اثار اعتذار اندريا رفاعه دهشة عبد الملك واستغرابه . ولكن جاسوس فيليب الثاني الذي لمس لدى عبد الملك ميلا قويا الى التحالف مع سيده، كتب في رسالته الى سكرتير فيليب الثاني يقول : (ان عبد الملك لا يرغب في شيء أكثر من رغبته في لقاء مع ملك اسبانيا . .) (1) .

ويبدو ان عبد الملك الذي لم يستجب لعروض باشا الجزائر كان يأمل ان يجد موقفه هذا ، الودي للغاية ، التقدير اللائق عند فيليب الثاني وسيباستيان فيمتنعان بدورهما عن مساعدة محمد المتوكل على الله الذي لجأ اليهما ، طالبا دونهما لاسترجاع ملكه في المغرب منه ، ولا يقدمان على غزو المغرب . فهل تحقق أملـــــه ؟

اذا كان فيليب لم يقدم المساعدة لمحمد المتوكل على الله،الذي لجأ اليه اول مرة فــي (نوفمبـــــر١٥٧٧) لأنه كان منشغلا في تلك الفترة بحروبه في الاراضي المنخفضة ، وغير متحمس اصلا فيما يبدو لغزو المغرب،الامر الذي جعل الملك المخلوع ينصرف عنه الى البرتغاليين في سبتة وطنجة . فان سيباستيان الذي قطع شوطا بعيدا في الاعداد لحملته على المغرب لــم يعبأ بموقف عبد الملك الودي تجاه الاسبان والبرتغاليين ، فرحب بمحمد المتوكل واتفق معه على غزو المغرب وتقسيمه (٢) . ومضى كل منهما في الاعداد جديا للحملة المشتركة .

اما موقف الدولة العثمانية من عبد الملك،فلا يبدو انه تأثر من تقرب هذا الاخير من الاسبان ، ومن تنبيه احد ممثلي فنزيانو للسلطات العليا في الدولة العثمانية بمساعيه في ذلك الاتجاه (٣) . ومما يؤكد عدم تأثر العلاقات بين عبد الملك والدولة العثمانية في هذه الفترة التي سبقت واكبت التدخل البرتغالي في المغرب في ١٥٧٨ أنـــــــــه :

- حين تأكد عزم البرتغاليين على غزو المغرب ارسل العلج علي رسولا الى عبد الملك يبدي له استعداده للمجيء لمساعدته على رأس ١٥٠ غاليره (٢) . وطلب منه اعداد المؤن اللازمة لقوات الاسطول (٤) .
- وصدر الامر الى باشا الجزائر بمساعدة عبد الملك بأربعة آلاف او خمسة آلاف من الاتراك . وقد غادروا الجزائر في ماي ١٥٧٨ متظاهرين انهم في حملة لجمع الضرائب . (٥)

---

(١) م.م.م.ت.م انكلترا ج١ ص٢٦٧
(٢) انظر تفصيله في النزهة للافراني في ص٧٤ وفي فصل الحياة السياسية في المغرب
(٣) دوغرامون المرجع السابق ص ١١٩
(٤)(٥) م.م.م.ت.م.اسبانيا ج٣ ص٤٠٣ — ٤٠٦

وكان عبد الملك قبل معركة وادي المخازن في ٤/٨/١٥٧٨ على اتصال مع باشا الجزائر، ومع السلطان العثماني، يستوضحا من تطور الاوضاع في المنطقة. (١). وفي عشية معركة وادي المخازن، لفت عبد الملك نظر الملك البرتغالي الى انه صديق السلطان العثماني(٢) اي أنه يمكن ان يستند على عونه اذا احتاج اليه، وهو حليف لا يستهان به في المواقف الصعبة. ويعرض الصلح على السابق الذكر يؤكد انه كان بامكان عبد الملك ان يحصل على دعم كبير من الدولة العثمانية لو شاء ذلك، ولكنه لم يطلبه.

ومرة اخرى اظهر السلطان السعدي حرصه الشديد على حقه في المفاوضات الدبلوماسية، على ألا يستقدم الاسطول العثماني الى المغرب. ولا يبدو ما يبرر تمسكه بهذا الموقف غير مخاوفه من اطماع الاتراك العثمانيين في المغرب، ولا سيما بعد ان عرفهم، وعايشهم مدة نحو ١٨ سنة لمس خلالها بدون شك نواياهم وطموحاتهم الى ضم المغرب تحت نفوذهم. ومع ان عبد الملك ربما لم يطلب مساعدة الاسطول الجزائري، الذي يقل بكثير عن اسطول الدولة العثمانية، والذي لم يشأ كما اتضح استخدامه، فان حسن فينزيانو، باشا الجزائر، استنفر عشية الصدام بين المغاربة من جهة، والبرتغاليين وحلفائهم من جهة اخرى، القوات البحرية الجزائرية وخرج في ٣٠ جويليه ١٥٧٨ (قبل اربعة ايام فقط من تاريخ معركة وادي المخازن الفاصلة بين الطرفين المذكورين) على رأس اكبر عدد ممكن من السفن الحربية الكبيرة والصغيرة (٢٦ سفينة)، وتوجه نحو الشواطئ الاسبانية الجنوبية، وشواطئ المغرب الشمالية (٣). ومن هناك كان يرقب ما يجري في المغرب، وعلى استعداد تام لتلبية النداء تنفيذا لاوامر السلطان ((وفيما اذا اعتدى اي باغ على بلاده وطلب المعونة منكم فلا تتوانوا عن ارسال القدر الكافي لمعاونته ومظاهرته ودفع مضار الاعداء على دياره)). ولم يعد الى الجزائر الا بعد انقشاع سحب معركة وادي المخازن بنصر باهر للمغاربة.

واذا كانت حملة حسن باشا لم تشارك مباشرة في المعركة فان ١٤ سفينة جزائرية بقيادة سنان رايس قد كانت بالمرصاد للسفن البرتغالية التي حاولت النجاة والافلات من الكارثة التي حلت بحملة سيباستيان، وتمكنت من إلحاق مزيد من الخسائر بالبرتغاليين. (٤).

لقد كانت معركة وادي المخازن من المعارك التاريخية الكبيرة في المغرب، بين المغاربة والبرتغاليين وحلفائهم بزعامة المتوكل على الله، وفيها مني البرتغاليون بهزيمة ساحقة. وفي هذه المعركة مات ثلاثة ملوك هم: الملك سيباستيان البرتغالي، وحليفه محمد المتوكل على الله، والسلطان عبد الملك السعدي، فاستحقت بذلك هذه المعركة اسم معركة الملوك الثلاثة.

---

(١) نفسه : اسبانيا ج٣ ص ٤٠٣ – ٤٠٦
(٢) نفسه : فرنسا ج١ ص ٣٨٦ – ٣٩٠
(٣) انظر من حملة حسن فينزيانو : هايدو : المرجع السابق ص١٧٦
(٤) الجنابي : المرجع السابق ص٣٥٢

وقد مات الملك المرتغالي متأثرا بجراحه، ومات المتوكل غرقا في النهر بعد محاولة فراره، اما عبد الملك فقد فارق الحياة في اثناء المعركة، متأثرا بمرضه الذى اعتراه وهو في الطريق قبل المعركة بعدة ايام، واشتد عليه نتيجة الاجهاد والحركة (1)، وبينما لا تعطي الوثائق المعاصرة اى دور للاتراك، أو للموالين لهم في موته، يعزو ابن القاضي سبب وفاة عبد الملك الى تناوله سما، ويعطي لقائد الاتراك دورا في ذلك فيقول: (كان سبب وفاة عبد الملك انه سقي سما، وذلك ان قائد الاتراك الذى كان معه واسمه رضوان العلج، بعث لبعض قواده ان يطعموا بكعك مسموم هدية لعبد الملك وقت جوازهم عليه، قصد بذلك قتله بعد اخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك فيها ...) (2).

ونجد في الوثائق ان عبد الملك مرض مرضا شديدا في اواخر سنة ١٥٧٧ ومطلع سنة ١٥٧٨ حتى اشيع انه مات. (3) ثم مرض وهو في الطريق الى مواجهة سيباستيان، كما اشرنا، بعد ان تناول شيئا من السمك، وشرب كثيرا من الماء، واكل قليلا من المحامض فاتخمه ذلك وصار يتقيأ بسبب ذلك شيء من الدم والوجع في المعدة. وكان هذا الوجع يعاوده بين حين وآخر (4).

ويلاحظ من استعراض ما أكله حين بدأه المرض كما ذكر ذلك طبيب عبد الملك الذى رافقه في حركته من مراكش الى وادى المخازن (5)، ان ليس هناك ذكر للكعك كما ذكر ابن القاضي، لكن ما تناوله في فطور صباح يوم ١٥٧٨/٨/٤ وهو يوم المعركة كان يتألف من مرق فيه لب الخبز، وثلاثة فصوص من البيض الطرى، وعند الساعة العاشرة امر الطبيب اليهودى له بدجاجة مطبوخة واخرى مطبوخة، وطعام وخبز أبيض (فهل هو الكعك الذى اشار اليه ابن القاضي ؟) فأكل قليلا من كل ذلك وشرب شيئا من ماء القرفة قبل الشروع في الأكل (6)، ثم ارتدى لباسه وامتطى فرسه على الرغم من اعتراض الطبيب فتوجه الى ميدان المعركة لاستعراض قواته، ولما بدأت المعركة كان على متن فرسه وقام بحركة غير منتظمة، ومال، وكاد يسقط واخذ الى محفته حيث مات فورا (7)، وقيل انه مات من الفرح (8).

---

(1) انظر رسالة طبيب عبد الملك المرافق له في /تطوان / عدد ٩ / للمغرب ١٩٦٤ ص ٤٠
(2) ابن القاضي : الدره جـ٢ ص٢٢٤، الافراني : النزهة ص٧٧
(3) انظر رسالة DON DUARTE / في / ٥٠٢/٣٠٥٠ : اسبانيا جـ٣ ص٣٧٢
(4) انظر رسالة الطبيب فهي المرجع السابق ص٤١
(5) نفسه : ص٤٣
(6) نفسه :
(7) نفسه : ص٤٤
(8) الجنابي : المرجع السابق ص٣٥٢

لاقات العثمانية ـــ السعدية في عهد المنصور :

ن العلاقات نحو التوتر (1578 - 1581)

بايع الحاضرون في وادي المخازن عقب انتهاء المعركة التي دارت هناك بين
ة والبرتغاليين وحلفائهم أحمد بن محمد الشيخ سلطانا خلفا لاخيه عبد الملك الذي وافاه
ي اثناء المعركة . واكد له البيعة سكان فاس ومراكش وسائر المناطق المغربية . وبهذا
معرفة مجريات العلاقات بينه وبين ايالة الجزائر والدولة العثمانية .
ن البداية بالضبط انه لم يكن لاتراك الجزائر للسلطان العثماني اي فضل في وصول احمد
ور الى الملك في المغرب ، كما كان الامر بالنسبة لاخيه عبد الملك ، بل انهم حاولوا كما يبدو
داية الامر الحيلولة دون اعتلائه العرش المغربي ، وحين تمكن من اعتلائه ارادوا الاطاحة به ،
الذي كان له تأثيره على العلاقات بين الطرفين ، ولا سيما في السنوات الاولى من ولاية احمد
ور كما سيتبين من خلال هذا العرض . فبين الاعلان عن وفاة عبد الملك ، بعد انتهاء
كة وادي المخازن ، سعى الموالون للاتراك العثمانيين من القادة الاندلسيين كمحمد
ن وغيره بتحريض فيما يبدو من الاتراك لتولية اسماعيل بن عبد الملك ذي الام التركية ، بدلا من
المنصور ، واخذوا ينادون بأحقية الامير الصغير الموجود في الجزائر في الخلافة (1) ، ولكن
المغاربة الحاضرين لم يرضوا ، وجاؤوا بمولاي احمد ، وكان قد هرب واختفى خوفا من ان يقتلوه (2) ،
يحموه وجردوا سيوفهم ، ونادوا في المحلة بأعلى اصواتهم " الله ينصر مولاي احمد " ، فهدأ
ناس وسكنوا (3) . وحتى بعد ان تمت البيعة لاحمد المنصور في وادي المخازن ، حاول الموالون
لاتراك من القادة الاندلسيين الاطاحة به عن طريق اثارة الجند ، وتأليبهم عليه (4) . وبعث قائد
طائفة الاتراك في بعث احمد المنصور (ولعله محمد زرقون) الكاتبية سفينتين تركيتين كانتا
بوادي مارتيل بتطوان لاخبار باشا الجزائر بالوضع في المغرب ، وليقول له ان الوقت قد حان ليستحوذ
على المغرب ، كما يريد ذلك السلطان العثماني ، لان السلطان المغربي الجديد ليس قادرا على
الحفاظ على السلطة ، وليس هناك غيره لتعويضه ، وان الجيش التركي يمكن ان يأتي الى المغرب
بدون سلاح ، اذ السلاح متوافر بشكل كاف في عين المكان (5) .

وقد كان جيش من الاتراك يتألف من / ١٨٠٠ / تركي بقيادة حاجي مراد ، جدّ اسماعيل بن عبد
الملك ينتظر في تلمسان منذ مطلع سنة ١٥٧٨ م ، الفرصة المناسبة للتدخل في المغرب لاحتلاله (6)
ولكن المنصور تمكن من القضاء على القادة المتآمرين عليه ، ومنهم محمد زرقون ، وابو الفضل
الشريف ، وسعيد بن فرج الدغالي ، وذلك في رجب سنة ٩٨٦ هـ / سبتمبر ١٥٧٨ م (7) . واستصلح
احوال الاجناد ، واسترضاهم بالقول اولا ، وبالعطاء ثانيا . ((واستقامت احوال الجند من بوشذ
رهبة ورغبة واستوت قدم أمير المؤمنين في ملكه (8))) .

وعلى الرغم من مناوأة الاتراك والموالين لهم للمنصور ، في بداية ولايته كما تبين ، فان هذا الاخير

(1) كريم : مناهل الصفا للفشتالي هامش 1 ص 4
(2و3) المجهول : المرجع السابق ص 46 وعبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان ص 187
(4) الفشتالي : مناهل الصفا ص 45-46
(5) انظر رسالة له . صدرها الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٥٧٨ في م.م.ت.م : اسبانيا ج ٣ ص ٤٥٢ ؛ نفسه ج ٣ ص ٣٨
(6) انظر عن نكبة القادة الاندلسيين : الفشتالي : مناهل الصفا ص ٤١-٤٧
(7) نفس المصدر : ص ٤٧
(8)

اقامة علاقات ودية مع جميع الدول المجاورة للمغرب ، وغير المجاورة له . وفي طليعتها الدولة العثمانية وايالة الجزائر ، ومن ثم فانه لم يتردد في ارسال سفارة الى الجزائر واخرى الى القسطنطينية في صحبة له ، لاعلام السلطان العثماني مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٤هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م) ، ووالي الجزائر حسن فنزيانو بالانتصار على الحملة البرتغالية ، وبجلوسه على عرش المغرب (١) وقد جاءت الى المغرب وفود عديدة من مختلف الدول الاوربية والاسلامية لتهنئة المنصور بالنصر والملك ، وكان اول من ورد اليه رسول حسن فنزيانو باشا الجزائر ، فبلغ الرسالة ، وادى الهدية من فيها من فساطيط الهند الغريبة الشكل والصنعة ، وزرابي مشوثة ، وطرف نفيسة ، ما يستحسن (٢) ، ثم تلته رسل القس هنري خليفة سباستيان البرتغالي ، ورسل فيليب الثاني ، ثم رسل السلطان العثماني مراد الثالث ، وذلك في جمادى الاولى سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م ، فارسال هنري الثالث ملك فرنسا (٣) ، كما جاءته وفود من تونس وطرابلس ومصر (٤).

وحسب الفشتالي ، فان ارسال السلطان العثماني ، كان يتألف من عدة شخصيات يتقدمها ابو الطيب البسكري ، مفتي الجزائر وخطيبها ، وقد اختاره السلطان العثماني ((لشهرته ومكانته في العلم والرياسة ، ليحسن اداء الرسالة ، والاعراب عما في الضمائر ، وليدل بارساله على علو محله ، وشرف مقدار المرسل اليه)) (٥).

وكان استقبال المنصور لرسل السلطان العثماني استقبالا حسنا ، قال عنه الفشتالي : ((ولقاهم مبرة التكريم ، واختار النزل والارغاد في القرى ، واقامة رسم الضيافة ، وتوسيع الجراية حتى انقلبوا الى مرسلهم محبورين)) (٦) ، واذا صدقنا ما قاله الفشتالي بهذا الصدد ، فأين يكون اهمال المنصور للسفارة العثمانية ، الذي تحدث عنه الافراني بقوله : " وتشاغل المنصور وتركهم بحضرته مهملين " (٧) الذي كان بحسبه احد اسباب غضب السلطان العثماني على المنصور (٨) .

وقد قدم رسل السلطان العثماني هديته الى المنصور ((وكان قد انتخب فيها خاقان ما انتقاه من الملابس الفاخرة ، ويصحبها سيف محلى ، بديع الصنعة فاخر الحلي والزينة)) (٩) وعند الجنابي كانت تتضمن ايضا كمية من السلاح المرصع بالذهب وأحد اختامه (١٠) .

اما رسالته فقد تولى ابو الطيب البسكري الاعراب عن مقاصدها . ويفهم من قول الفشتالي : ((فاهتز لذلك امير المؤمنين سرورا من اعواده)) (١١) ، ان المنصور انشرح لمحتوى الرسالة . ولكن الفشتالي للاسف لم يفصح عن مضمونها ، وعند غيره ان مضمونها لا يقتصر على التهنئة بالملك والنصر ولكن تتضمن عدة مطالب للسلطان العثماني ، لم تكن لتجعل المنصور يهتز سرورا من اعواده اللهم الا اذا كان ذلك على سبيل المداراة ، فقد نقلت اليه السفارة طلب السلطان العثماني فنجمه

(١) نفسه : ص ٤٨
(٢) نفسه : ص ٤٩
(٣) نفسه : ص ٤٩-٥١
(٤) الزياني : الترجمان المعرب ص ٣٥٦
(٥و٦) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٥٠، ٥١
(٧) الافراني : النزهة ص ٨٥
(٨) من اسباب غضب مراد الثالث على المنصور حسب الافراني ، الاستقبال السيء للسفارة والتأخير عن اجابته انظر النزهة : ص ٨٥-٨٦
(٩) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٥٠
(١٠) الجنابي : المصدر السابق ص ٣٥٣
(١١) الفشتالي : المصدر السابق ص ٥٠-٥١

ـــــــال المغرب لاسماعيل ، وطلب مساعدته في تحرير وهران من الاسبان ، ودعوته الـــى
الاقرار بالسيادة العثمانية ، كما كان الامر سابقا (1) في عهدى المتوكل على الله وعبد الملك . وواضـــح
ان القصد من الطلب الاول هو تقسيم المغرب الى مملكتين ، الامر الذى يساعد الدولة العثمانيـــة
على التدخل فيـــه وبســط نفوذها عليه ، وعزل المنصور عن البحر المتوسط ، وبالتالـــي
عن الاسبان . ودفعا لأي تقارب او تحالف او تعاون بين الطرفين عند الاتراك العثمانييـــن .
وان القصد من الطلب الثاني هو اختبار مدى استعداد المنصور للامتثال لطلب السلطـــان
العثماني ، ومدى استعداده لمعاداة الاسبان ، الذين اخذ منذ الشهور الاولى لولايته يطـــور
علاقاته معهم سيرا على نهج اخيه عبد الملك وسياسة والده ، واما القصد من الطلب الثالـــث
فاشعاره بأنه ليس ندا للسلطان العثماني . وحسب ما اورده الجنابي على لسان المنصـــور ،
فان هذا الاخير قد اقر بتقدم السلطان العثماني عليه حيث قال معقبا على قول السفير العثماني
في الطبيب الخضر الجزائرى ان السلطان العثماني لا يخشى احدا ، بل الجميع هم الذين يخشونه
((لا شك ان السلطان العثماني هو رئيسنا الكبير والمتميز بيننا ، ومجده يرفعه فـــوق
جميع الملوك الاخرين (2))) .

ولكن هذا الامر لا يتجاوز في الحقيقة حد القول ، ان صح ما ذكره الجنابي على لسان المنصور ،
اذ ان هذا الاخير كان يتلقب بالامام ، وبأمير المؤمنين ، وبالخليفة (3) ، ويسك النقود باسمـــه (4) ،
وتقرأ الخطب باسمه ايضا ، وهي امور لا تدل على اعترافه بسيادة السلطان العثماني عليـــه ،
أو تبعيته له . وتعني ان ما قاله لسفير السلطان العثماني ، لم يكن الا على سبيل المجاملـــة .

وقد كان المنصور حريصا على استقلاله واستقلال بلاده (المغرب) وعدم تجزئته ، ولذلك نقـــد
رفض التنازل عن شمال المغرب لابن اخيه مولاى اسماعيل ، ولم يقم بأي تحرك معاد للاسبـــان ،
او للبرتغاليين ، بعد مجيء السفارة العثمانية ، يوحي او يدل على استعداده لتلبية طلب السلطان
العثماني . بل ان المنصور اخذ بعد هذه السفارة العثمانية يتقرب اكثر فأكثر من الاسبـــان
بغية التعاون معهم ضد الاتراك العثمانيين الذين ازدادت مخاوفه منهم .

فقد رحب المنصور بطلب فيليب الثاني منه تسليم جثة سيباستيان للوفد الاسباني البرتغالـــي
المشترك ، الذى وجهه الى المغرب في اعقاب معركة وادى المخازن ، ولباه بكل سرور ، واسلـــم

---

(1) Véronne (CH. de la): Relations entre le Maroc et la Turquie. in R.O.M.M., No. 1, 1973, P.395.

(2) الجنابي : المصدر السابق ص ٣٥٣

(3) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٢٥ وغيرها ، الافراني : النزهة ص ١٤٨

(4) الجنابي : المصدر السابق ص ٣٥٤

...شة المطلوبة [1] بدون مقابل ، على الرغم من استعداد الوفد المذكور دفع فدية كبيرة فيه [2].
...لن كذلك سراح السفير الاسباني خوان دي سيلفا الذي وقع اسيرا في معركة وادي المخازن [3]،
...سهد ايضا الا يتعرض ضد القواعد البرتغالية، وأبدى في رسالته الموجهة اليه في نوفمبر
...ة ١٥٧٨ استعداده للاستجابة لكل اغراضه [4] [5].

وبعد كل ذلك انتهز المنصور فرصة مجيء رسل الملك الاسباني في جويلية ١٥٧٩ لتقديم
...دية ملكهم ، وتهنئته له بالملك [6] ، ليقترح عليهم التعاون على ضرب الاتراك العثمانيين مصدر
...خطر على الطرفين [7] . وكان رسل فيليب الثاني قد تقدموا اليه بطلب التنازل لملكهم عن ميناء
...عرائش [8] الممتاز ، خشية ان يقع في قبضة الاتراك الامر الذي ستنتج عنه اضرار كبيرة سواء
...تجارتهم مع الهند او مواصلاتهم مع العالم الجديد ، او بأمن شواطئهم ، فدخل المنصور
...ذئذ في مفاوضات مع الاسبان ، دامت اكثر من خمس سنوات ١٥٧٩ - ١٥٨٢ كانت تقترب
...ن النجاح حينا ، وتبتعد حينا آخر ، حسب الظروف والضغوط الخارجية العثمانية والانجليزية
...لتي كان يتعرض لها المنصور ، ويبدو ان المفاوضات الاولى بين هذا الاخير والاسبان حول التعاون
...ضد الاتراك ، وحول العرائش ، قد تناهت الى السفارة العثمانية التي كانت حينئذ في المغرب
...نقلت اخبارها الى السلطان العثماني لدى عودتها [9].

لم يكن الاتراك العثمانيون - وفي مقدمتهم السلطان العثماني - ليرضوا عن التقارب بين فيليب الثاني
المنصور الذي بدا لهم سلطانا قويا وفعالا ، وغير مستعد البتة للاعتراف ولو بتبعية اسمية
للدولة العثمانية كما كان اخوه عبد الملك قبله ، هذا التقارب الذي كان يستهدف
القضاء على الوجود العثماني في الجزائر . وتطويقا لهذا الخطر قبل استفحاله امر السلطان
العثماني مراد الثالث حكما في اوت ١٥٧٩ م بتعيين رمضان باشا ، والي الجزائر الاسبق [10]
والذي كان يشغل حينئذ منصب امير امراء تونس بعد تنحيته عن الجزائر ، واليا على تلمسان
التي رفعت بشكل استثنائي الى لواء مستقل عن الجزائر ، واعطاه الامر بأن يعمل على احباط
اغراض المنصور ، وشن الحرب عليه وطرده من مملكته ، ان كانت المعلومات التي تلقاها تؤكد
شكوكه من ان المنصور يعتزم غزو الجزائر مع الاسبان [11] ، واصدر امره الى باشاوات الجزائر ، وتونس [12]

---

(1) انظر رسالة المنصور الى فيليب الثاني وهي بتاريخ ١٥٧٨/١١/٢ في مجلة : الاندلس المجلد ٢٣ السفر الاول ، مدريد ١٩٥٨ ص ٢٩-٣١

(2) الفشتالي : المناهل ص ٤٩

(3) رسالة المنصور : الى فيليب الثاني في مجلة الاندلس ص ٣١

(4) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ٦٧

(5) رسالة المنصور السابقة ص ٣١ وفيها يقول له : " فاذا تمكنت المحبة تيسرت الاغراض كل حجة فلا يمنعكم مانع من اغراضكم في هذا المقام المولوى ، فنور الاعتناء بها في افق التكرمة ساطع "

(6) الفشتالي : المرجع السابق ص ٤٩

(7 و8) امينة اللوة : قضية العرائش من خلال كتاب (العرائش) في البحث العلمي عدد ٢٧ الرباط ص ١٩٠

(9) ساي دو : ملوك الجزائر ص ١٦٤ (10) مهمة دفتري رقم ٤٠ ص ٦٢

(11) جاء في الامر الصادر الى امير امراء الجزائر ان رمضان باشا قد منح لواء تلمسان ، واوكلت اليه بعض الامور الخاصة بولاية الغرب فليباشر العمل الذي صدر له الامر بشأنه وقدم له المساعدة

(12) التي يطلبها منك : مهمة دفتري رقم ٤٠ ص ٦٣ بتاريخ ٨ رمضان ٩٨٧هـ

طرابلس بأن يقدموا لرمضان باشا كل القوات والمدفعية والذخيرة التي يحتاجها ، وان يقوم كل واحد من جهته بما يطلبه منه رمضان باشا (1).

ولا شك ان اختيار السلطان العثماني لرمضان باشا للقيام بمهمة مراقبة تحركات المنصور ، ينبنى على ما لرمضان باشا من خبرة في التدخل في المغرب اذ سبق له ان تدخل في هذا البلد سنة ٥٧٦ لتمكين عبد الملك من اخذ الملك فيه، وكلل تدخله فيه بالنجاح. وقد خرج رمضان باشا من تونس في نهاية نوفمبر ١٥٧٩ قاصدا الجزائر ، فحل بها في ٤/٤/١٥٨٠ وبقي فيها حتى ٢٠/ اوت ١٥٨٠ ، ولم يلتحق بعد ذلك بتلمسان بل ذهب منها الى القسطنطينية (2). الا انه كان وهو في الجزائر يراقب ما يجري في المغرب، وقد بعث في ربيع سنة ١٥٨٠م / برسالة الى داود بن عبد المؤمن الذي ثار ضد عمه احمد المنصور في اكتوبر ١٥٧٩ في السوس بجنوب المغرب (3) ، يبدي له استعداده لمساعدته ، ويسأله عن احتياجاته ، ومما جاء فيها : " ولما عزمنا الآن قدومنا الى مدينة تلمسان ، فأول ما سألنا عن احوالكم ، واين استقر مقامكم لكي ننشئ معكم عهدا تتأدون لنا مع أسلافكم، فبعثنا لكم هذا المكتوب لعلكم تعلموننا في جوابكم لنا ، بما عندكم من مأمول ، ومرغوب فلا تضيعوا عنا شيئا من مقاصدكم السنية (4) " .

ولا يعرف ما اذا كان داود بن عبد المؤمن قد وصلته رسالة رمضان باشا ، ولا اذا كان قد تقدم بأي طلب مساعدة من اتراك الجزائر ، ولا اذا كان لرمضان باشا أو لاتراك الجزائر عموما أي ضلع في اثارته ضد عمه ، بهدف خلق المتاعب لأحمد المنصور الذي كان يتآمر مع الاسبان عليهم ، وان كان احتمال قيام الموالين للاتراك في المغرب بتحريض داود بن عبد المؤمن على الثورة ضد عمه بايعاز من اتراك الجزائر امر غير مستبعد اطلاقا. ومهما يكن من امر فقد استطاع المنصور القضاء على ثورة داود ، وانتهى امر الاخير باغتياله عرب الوداية (5).

ولكن رد فعل السلطان العثماني على تقرب المنصور من الاسبان وعما تردد انه تحالف معهم ضد الاتراك ، وينوى مهاجمتهم في الجزائر ، لم يقتصر فقط على تكليف رمضان باشا باحباط هذا التحالف ومواجهة اخطار هجوم محتمل ، بل انه كما تؤكد ذلك احدث الوثائق المعاصرة أصدر ايضا امره الى القبودان باشا علج علي بالاعداد لحملة على المغرب (6) ، ولكن هذه الحملة لم تتحرك في مثل 1579م

ه — عرض مراد الثالث التحالف والمصاهرة على المنصور : حاول السلطان العثماني بمنطق الطرق بعد ان نجح المنصور في اخماد ثورة ابن اخيه في الثلث الاول من سنة ١٥٨٠ ، وبعد ان تدخل

---

1) هايدو : المصدر السابق ص ١٦٤
2) نفسه : ص ١٦٦ — ١٦٧
3) انظر عن ثورة داود بن عبد المومن . الفشتالي : مناهل الصفا ص ٥٦—٥٨
4) انظر الرسالة في وثائق سيمانكاس ورقمها 160 - [illegible] وصورة عنها في ملحق كتاب المغرب في عهد الدولة السعدية لعبد الكريم كريم ص354 وهي بتاريخ اواخر ربيع الاول 988/ ماي =1580م
5) انظر قسم الحياة السياسية في المغرب ص ١٢
6) انظر رسالة السفير جيرمني (GERMIGNY) الى صاحب مالطه وهي بتاريخ ٨/١٠/١٥٧٩ في م . م . ت . م : فرانسا ج ٢ ص ٦٧

فيليب الثاني في البرتغال في اعقاب موت القس هنري لضم تاجها الى اسبانيا (1) ، استمالة السلطان السعدي اليه بمختلف الوسائل ، فعزل حسن فنزيانو باشا الجزائر الذي كان المنصور يخشى جانبه لاحتضانه اسماعيل بن عبد الملك ، وتزويجه بأرملة هذا الاخير ، واستقدم رمضان باشا ، وعين واليا جديدا هو جعفر باشا على رأس حكومة الجزائر (٢) وكلفه بتحسين العلاقات بينه وبين سلطان المغرب ، وايجاد رباط مصاهرة بينهما بتزويج المنصور من احدى بنات السلطان مراد (٣) .

وبعث السلطان العثماني رسالتين الى المنصور في اوائل رجب ٩٨٨هـ اوت ١٥٨٠ م ، عرض في الاولى التحالف معه ضد فيليب ، واستعداده لتقديم مساعدته الكبيرة للمنصور لتحرير الاندلس .

وقبل كل ذلك امضاء معاهدة حسن جوار معه وجاء فيها على الخصوص .

((فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الحقانية المنيفة خبر طاغية قشتيلة " فيليب الثاني " ، وانه احتوى على سلطنة برتقل آوكاد ، وانه جعل اهله في الاغلال والاصفاد ، وانه لكم جبار ، وعدو ضرار ، حركتنا الحمية الاسلامية والمعرفة الاولية في النشأة الجنودية لاظهار الالفة الازلية في العوالم الشهورية اذا سارت قلوب الملوك جنود المجندة التمارف والتناصر والائتلاف انعقد الايمان على خلوص المودة وارتفاع الخلاف .

فخلاصة الكلام بهذه التقدمة ، ونتيجة المرام من تلك المقدمة ، هو ان نتخذ عهدا وثيق البنيان ، وصحبة خالصة بين الاخوان ، بين الاولاد والاحفاد الى آخر الجوار مع مملكتنا الشاسعة الاقطار ، ونؤكد ان المملكتين محروستا الجوانب والاطراف من سوء الشقاق والاختلاف ومعمورتا الارجاء بالوفاق والائتلاف ونعلق العهد بالكعبة المنورة والروضة المعظمة .

فاذا تم هذا الشأن واسس هذا البنيان صفى ما بين الاخوان نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيشي عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس ويكون على ايديكم انقاذها من البؤس (١))).

وعرض مراد الثالث في رسالته الثانية الى المنصور تزويجه من احدى بناته لاقامة مزيد من الروابط والوئام بين السلطانين جاء فيها على الخصوص : (اخترنا لكم الانتماء والانتساب الى ابوابنا العالية الاعتاب ليحصل لكم الارتقاء على ذروة اعلى المراتب ، وقصور المقاصد والمعارف والامتيازيين ملوك الزمان ، بعلو القدر وسمو الشأن ، وتكون اركان الموادة بيننا مرصوصة البنيان وبنيان المحبة مشيد الاركان .

عهدنا الى امير الامراء الكرام ... جعفر باشا ، ان يمهر لكم على احدى بناتنا وينوب بذلك عنا اسمانا لغرضكم المنيف ، وتتميما لحفلكم النبوي حتى يعلم كل مفض وفاجر ، ومسلم وكافر

---

١) الفشتالي : مناهل الصفا ص ١٠١

٢) وصل جعفر باشا الى الجزائر في ٢٦/٨/١٥٨٠ وذهب حسن فنزيانو وبمعيته رمضان باشا في ١٦/٦/١٥٨٠ ، انظر هايدو المصدر السابق ص ١٦٧-١٨١

٣) من رسالة مراد الثالث الى المنصور انظر اصلها في المكتبة الوطنية بمدريد ورقمها ٧٤٥٣ ورقة ٢٤ منشورة في مجلة الدراسات العربية والعبرية (M.E.A.H.) مجـ ٦ سفر ١٩٥٧ ص ٦٠-٦٦

١) انظر ٣ نص الرسالة في المكتبة الوطنية بمدريد ، المخطوط رقم ٧٤٥٣ ورقة ٢٧ ونصها منشور في مجلة الدراسات العربية والعبرية (M.E.A.H.) ١٩٥٧ ص ٦٣-٦٦ .

الملكتين كروحين في جسد، وساعدين في عضد، لفرط الاتحاد فبهذا ينقلب كل مؤمن الى
ه مسرورا، وكان سعيكم مشكورا، والقفول والمسافرون يصدرون عنهما واليهما يـ دون في حرز
ن والسلامة، يدعون بالخير الى صحائفنا الى يوم القيامة،
ذا وصل هذا المتوقع الكريم فوجهوا لسدتنا السلطانية واعتابنا الخاقانية من يحمل لكم زوجتكم
امرائكم الكرام وكبار داركم الذين لهم فيها النقض والابرام)) [1].

د حرص السلطان العثماني على الا يخاطب السلطان السعدي في الرسالتين المذكورتين
بلقب الامير الكبير، والحاكم، فقد جاء في مقدمة رسالته :
((هذا كتابنا الشريف .. الى الجناب الاميري الكبير الهمامي، النصري، الامجدي، الاكملي،
سعدي الاعدلي الاصيل الحسني، النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية
مر القرآن، ظهير المجاهدين المحفوف بصنوف عواطف الملك المعين مولاي احمد الحاكم يومئذ
ية فاس ومراكش)) [2].

ينما استقل السلطان العثماني لنفسه بالسلطنة والخلافة، قائلا في رسالته الى
منصور : ((فنبعج بأمره الى مبايعتنا بالسلطنة ومتابعتنا بالخلافة الباهرة [3] .. لما
م وفضل علينا بتقليد خلافته في الارضين فخضعت لرقابنا وانقادت رقابا سلاطين السلاطين)) [4].
فهم من قول السلطان العثماني مخاطبا المنصور ((ولما وصل كتابكم الذي على قدم الصداقة
ما وساق الاستقامة ثابتا دائما)) [5] ان السلطان السعدي قد كتب الى السلطان العثماني
ن ان يكتب هذا الاخير اليه، ويعرض عليه ما تقدم، ولكننا نجهل مضمون رسالة المنصور
ما توحي به عبارة السلطان العثماني من الصداقة. ويظهر انه قد يكون طلب يد المساعدة
اته، انتظر المنتظر ان يعرض السلطان العثماني المساعدة، دون طلب من السلطان
سعدي. ولكن المنصور الذي فهم فيما يبدو ان للسلطان العثماني مقاصد بعيدة غير
مونة مبين وراء مرونته المتقدمة ـ كأن يكون غرضه مثلا جره الى معاداة الاسبان لينفرد به
المغرب، والا كيف يطلب منه شن حرب على الاسبان، في الوقت الذي كان يتفاوض هو فيه
الاسبان لابرام هدنة معهم او ان يكون غرض السلطان العثماني البعيد من وراء عرض
منا ضرة عليه، هو مد نفوذه الى المغرب ـ تثاقل عن اجابته بل يبدو انه آخر السفارة
لعثمانية واهملها بدليل قول علج علي فيما بعد بأن اصحابنا بقوا بأبوابه كالكلاب. هذا في
وقت الذي استمر في تقربه من الاسبان ومفاوضاته معهم حول العرائش وحول مساعدتهم له ضد

إشارات الجزائر

[1]) انظر عن الرسالة الهامش الثالث من الصفحة السابقة.
[2]) مجلة الدراسات العربية والعبرية المجلد التاسع السفر الاول ص ٧٠-٧١
[3]) نفس المجلد السادس ص ٦٥
[4] و [5]) ه المجلد التاسع ص ٧١

... الثالث غضب هذا حملة المليح على ... اثار تقرب المنصور من الاسبان ، وتثاقله عن الاستجابة لمراد الثالث
... ان اللج عليا الذي كان دوما يحلم منذ كان بايلربايا مقيما في الجزائر الى ضم المغرب ، وبدو
... الدولة العثمانية ، انتهز الفرصة ليحث السلطان العثماني على التدخل في المغرب بقوة
القضاء على دولة الاشراف السعديين فيها ، الامر الذي دفع الفشتالي المؤرخ الرسمي للمنصور
الى شن هجوم عنيف عليه ، وتشكك فيه في صدق اسلامه ، واتهمه بالعداء للاسلام في الباطن ،
وبالعداء الظاهر للاشراف من آل النبي (ص) قائلا: ((.. ثم ان علوج علي وزير البحر كان عند بني
عثمان وقائد اساطيلهم ، لما كان حديث العهد بالكفر لتأخر اسلامه الى مجاوزة سن الاكتمال ،
صار يستبطن لذلك عداوة للاسلام ، ويجاهر بها خصوصا لابناء النبي عليه السلام ، الخلفاء
الراشدين بالمغرب .. فشمر بذلك لاثارة الوحشة والقطيعة بين الملكتين ، واستهان رحم الدين
الجامع بينهما ليفت بذلك من عضد الملة باختلاف كلمة الاسلام ... وزين له (المراد الثالث)
الانحدار للمغرب في اساطيلهم الذي اقرا بعده زمانه (1)))
وهذا الهجوم على العلج علي ، الذي تشهد له مواقفه البطولية في ميادين الجهاد وضد
الكفار على صدق اسلامه ، لا يستغرب صدوره من مؤرخ الدولة الرسمي الذي كانت حملة العلج علي
تستهدف ولي نعمته .

وقد اذن السلطان العثماني لعلج علي بالتوجه على رأس الاسطول العثماني لمنازلة المنصور في
المغرب ، والقضاء على دولته ، فتحرك علي على رأس خمسين ... غ... اليره في ربيع
سنة (1581) وفي نهاية شهر مات كان قد وصل الى الجزائر . (2)
اما المنصور الذي علم عن طريق بعض قناصل انجلترا بتأهب علج علي لغزوه ، قبل تحركه (3)
حملته نحو المغرب بستة اشهر ، فقد ((بادر ايده الله الى دفع مكيدته ، وارهف حده لنكايته ،
فجهز العساكر .. وسرحهم الى بلاد الريف ، ورتبهم بمسالح المغرب ، وثغوره وسن الى بلاد (4)
... لفحل كبير الدولة ، وعمدة الخاصة ابا اسحاق ابراهيم بن محمد السفياني ، فخيم في العساكر
والاجناد بساحة المراش ، ودفع بذلك امير المؤمنين في صدر علي باشا (((5) واتام ...
نفسه معسكره على شط نهر تانسيفت ، خارج مراكش منذ 12 صفر 989 هـ / 18/3/1581 (6)
وبالاضافة الى هذه الاستعدادات العسكرية ، اوفد المنصور عن طريق البحر سفارة هامة (7)

____

1) الفشتالي : مناهل الصفا ص 61
2) هايدو : المرجع السابق ص 186
3) السلاوي : الاستقصا ج 5 ص 96
4 و5 و6 و7) الفشتالي : المصدر السابق ص 62

ل هدية عظيمة (1) الى السلطان العثماني، بقصد الاعتذار له عن التأخير عن الجواب، والعمل
ى ايقاف الحملة الموجهة ضده.

وقد كان من ابرز اعضاء هذه السفارة القائد ابو العباس احمد بن ودة، والكاتب ابو العباس
حمد بن يحيى الهوزالي. وفي طريقهما الى القسطنطينية التقيا بعلج علي في اسطوله في عرض البحر
حاول اقناعهما بالرجوع عن مقصدهما خشية افسادهما عليه ما هو بصدده قائلا لهما: (ان الخرق
اتسع على الراقع، ولو كان لصاحبكم (المنصور) غرض في المسالمة لما بقي اصحابنا بأبوابه كالكلاب
لبادن (2) اللطم).

وخشية سطوة السلطان العثماني ان هو رد هم جميعا، ترك/ فقط الكاتب الهوزالي يمضي لتبليغ
رسالة والهدية، انا منه انه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام. ولكن الهوزالي احسن
مخاطبة مراد الثالث، واعتذر له عن تأخير المنصور عن الجواب! بما لا يعود بوهن على مرسله، ولا
يفيد مخالفة بمخاطبه (3). فقبل مراد الثالث الاعتذار والهدية. وكتب مع الهوزالي امره
الى العلج علي بالتوقف عما كان بصدده، والعودة الى المشرق. كما ارسل مع الهوزالي سفارة الى
المنصور. فلم يعط العلج علي حملته على المغرب وعاد الى القسطنطينية واستقبل المنصور
السفارة العثمانية استقبالا حسنا، وبعث بسفارة اخرى الى السلطان العثماني في السنة التالية
(4) 1582. وهكذا اخذت العلاقة بين الطرفين السعدي والعثماني في التحسن تلك رواية
الاحداث المتعلقة بحملة العلج علي حسب المصادر المغربية.

اسباب تراجع مراد الثالث عن غزو المغرب: تعزو المصادر المغربية كما تبين سالفا الى تأثير السفارة المغربية

ولعل الحقيقة ان هناك عدة عوامل تضافرت، وجعلت السلطان العثماني ينتهز فرصة تقديم
السفارة المغربية اعتذار المنصور، ليتراجع عن امره بغزو المغرب، بل وليعمل على تصفية الجو
بينه وبين السلطان السعدي، فما هي هذه العوامل؟

1 - التقارب الكبير بين المنصور والاسبان: كان السلطان العثماني على علم بالتقارب بين
المنصور والاسبان، بحيث انه كان قد عين رضان باشا خصيصا لاحباط هذا التقارب، باستعمال
القوة ان لزم الامر ضد المنصور، فقد رأى فيما يبدو ان مهاجمته قد تؤدي الى تدخل الاسبان
الذين يهمهم الا يمتد الوجود او النفوذ العثماني الى المغرب القريب جدا منهم. وقد ذهبت
بالفعل سفارة اسبانية الى المغرب سنة (1580م) للتفاوض مع المنصور حول المساعدة المرغوبة
منه، وحول تسليم هذا الاخير المرائي لملك اسبانيا، وكانت هذه السفارة الاسبانية

---

(1) (2) الافراني: النزهة ص86

(3) نفسه:

(4) نفسه: ص86-87 والفشتالي: المناهل ص63-65 والسلاوي: الاستقصا ج5 ص95-97

المغرب حين كانت حملة علج علي في الجزائر (1)، وقد استقبلها المنصور في معسكره بتالميفت
يف 1581. وذكر انه اعلن موافقته المبدئية على تسليم العرائش، لما تحركت حملة علج
ي اتجاه المغرب، وان بنود الاتفاقية بين المنصور والاسبان قد حددت، وحرر المفاوضات
انيان (بيدرو فينيغا ودييغو مارتان) (P. Veniga et D. Martin) (2) النسخة الاسبانية
باشا، وبقيا في انتظار امضاء المنصور للنسخة العربية وتسليمها لهما. مما يعني ان تقدم
الة العثمانية نحو المغرب كان يدفع المنصور الى امضائها، وبالتالي فان الحملة المذكورة
لدم بالتحالف السعدي الاسباني، وان انتصارها ليس مؤكدا في هذه الحالة. ولذا فلا
عد ان يكون السلطان العثماني، قد تخوف على مصير حملته، فآثر عدم المغامرة بها،
ر امره لقائد الحملة بالتوقف والعودة.

موقف الجيش الانكشاري في الجزائر من علج علي وحملته :

قول هايدو: ((ان علج عليا كان يريد اخذ جند الجزائر الانكشاريين معه لحاجته اليهم من جهة
حملته، وللثأر للاهانة التي تعرض لها لما كان يحكم الجزائر، حيث كان مجبرا على الفرار امام
يد هم بالقتل. ولما امرهم بالركوب رفضوا خوفا من حقده عليهم واعلنوا انهم لا يمتثلون الا لامر
من السلطان، واضافوا قائلين انه ليس من العدل شن حرب على ملك طيب كشريف فاس الذي
حسن بهم ابدا اي اذى او ضرر، والذي لا يثير لديهم اي شك فيما يخص المستقبل. وطلبوا من
علي بأن يرسل فورا خمس غليوطات لاخبار السلطان بكل ما يجري، فوافق علج علي على طلبهم
ل الانكشاريون مع السفن الخمسة احد المرابطين المشهورين لديهم وهو السيد بوتيكة
BOUTIKA) (ابو الثقة او ابو التقي ؟) محملا برسائل الى السلطان، وفيها شرحوا
ات سلوكهم ووجوه الا يسمح لعلج علي المحتال، الماكر، بأن يستولي على فاس لانه اذا ما
هذه المملكة، وبأمرته هذا الجيش القوي، مع العلم ان سيد طرابلس موال له ايضا،
ستطيع بسهولة ان يثور، وان يصبح سيدا على كل بلاد البربر (شمال افريقيا)) (3). وقد
درت الغليوطات الخمس الجزائر في نهاية شهر ماي ووصلت بسرعة الى القسطنطينية وعادت
نحو شهر الى الجزائر بأمر من السلطان العثماني الى علج علي بالعدول عن حملته،
اعلن انها مخالفة لارادته، وهدده بقطع رأسه ان خالف اوامره (4). فما كان من علج علي الا ان
ر الجزائر، ووصل الى القسطنطينية في شهر اكتوبر 1581 (5).

وهكذا يكون الانكشاريون في الجزائر حسب رواية هايدو هم الذين دفعوا السلطان العثماني الى
راجع عن غزو المغرب بما اثاروه لديه من شكوك حول علج علي قائد الحملة ونواياه، وقد ساورت
اب المالي مثل هذه الشكوك حول بعض البايلربايات السابقين لعلج علي كحسن بن خير الدين (6)
ره، مما جعله يتخذ قرارا بتغيير نظام البايلرباي واحلال نظام الباشاوات الثلاثيين محله
بعد موت علج علي كما سيأتي.

الفشتالي : مناهل الصفا ص 6
م. م. ت. م : فرانسا ج 2 هامش 7 ص ... (وامينة اللوه : المرجع السابق ص 91-111)
هايدو : المرجع السابق ص 86 - 167
نفسه ص 188
وانظر فصل الحياة السياسية في الجزائر

- حرب الدولة العثمانية مع الصفويين في المشرق :

اذا كان العاملان السابقا الذكر لا شك في تأثيرهما على قرار مراد الثالث بالتراجع عن غزو المغرب، ن حرب الدولة العثمانية في المشرق ضد حكام فارس الصفويين التي اندلعت سنة ١٥٧٨م والتي ستمرت متقطعة حتى سنة ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٩م كانت تشغل الدولة العثمانية كثيرا عن توجيه طاقاتها لعسكرية الى جبهاتها الاخرى، وتجبرها احيانا الى حشد كل طاقاتها الممكنة الى هذه الجبهة، حدث في هذه السنة ١٥٨١، فاثر السلطان العثماني تأجيل غزو المغرب الى وقت آخر، التخلي عنه نهائيا والتفاهم مع المنصور واقامة السلام معه، واستدعى العلج عليا وما كان معه من ت للمشاركة في حربه مع الصفويين(١).

وقد رافق تلك الحرب ايضا بدايات الازمة المالية الكبيرة الناجمة عن تدفق الفضة الامريكية الى اوربا لدولة العثمانية، وما رافقها من ارتفاع في الاسعار. وتأثر دخول الانكشارية والصباهية، خل الخزينة نفسه، وما نجم عنها فيما بعد من تخلخل في احوال الامبراطورية العثمانية.

11- من العلاقات نحو السلام الحذر (1581 - 1587) ان تراجع العثمانيين عن غزو

المغرب، قد سمح للمنصور بأن يتراجع بدوره عن توقيع اي التزام للاسبان بتسليم العرائش لهم، وان مطل هؤلاء، ويسوفهم الى ان يئسوا، وفقدوا الامل في الحصول على ميناء العرائش المذكور، بعد بضع سنين من المفاوضات، خسروا فيها مالا كثيرا(٢).

اعقب تراجع العثمانيين عن مهاجمة المغرب وتراجع المنصور عن تسليم العرائش للاسبان تحسن سح في العلاقات بين الطرفين السعدي والعثماني.

فالسلطان العثماني لم يكتف فقط باصدار الامر لعلج علي بالعدول عن منازلة المنصور، بل ارسل لك رسله الى هذا الاخير مع الهوزالي كما سبقت الاشارة في صيف ١٥٨١ من اجل اقامة سلام بين الدولتين(٣).

وقد استقبل المنصور السفارة العثمانية في فاس في اواخر عام ١٥٨١(٤)، واكرم وفادة ل السلطان العثماني، واحسن نزلهم. وهذه السفارة العثمانية قد جعلت المنصور كما تقول قة معاصره يتخلى عن التزامه بتسليم العرائش للاسبان، ويؤكد سلامه مع السلطان العثماني(٥) تأكيد ذلك ارسل المنصور سفارة اخرى اليه مؤلفة من قاضي قضاة مراكش ابي القاسم بن علي شاطبي، ومن القائد ابي زيد عبد الرحمن بن منصور بن سعيد الشيظمي(٦). وذلك في مطلع ١٥٨٢م، كما يستنتج ذلك من المناهل(٧)، وقد اعربت هذه السفارة المغربية للسلطان العثماني منصور وزرائه عن امور هامة وجريئة، ذات مغزى هي في الواقع الاسس التي اراد المنصور ان يبني عليها علاقاته مع الدولة العثمانية والتي سعى اسلافه عبثا لجعل الدولة العثمانية تعترف بها،

---

(١) د وغرامون : المرجع السابق ص ١٢١
(٢) م. م. ت. م : فرانسا، ج ١ ص ١١٥ وهامش ٤
(٣) نفسه ج ٢ ص ٩٦ - ١٠٠
(٤) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٦٤
(٥) م. م. ت. م : فرانسا ج ٢ ص ٩٨ - ١٠٠
(٦ و ٧) الفشتالي : المرجع السابق ص ٦٤ - ٦٥

ي ان المغرب ليس ولاية تابعة للدولة العثمانية ، ولن يكون ، بل هي دولة مستقلة ذات سيادة ، تقل عن الدولة العثمانية ، وان حكامها ممن يعترف لهم بالمقام الرفيع ، لا بل بالخلافة ، لانهم راف . وبالفعل فقد افصحت السفارة عن حق الدولتين في الوجود والسيادة ، وفضل اهل البيت شراف وحضّت على اتحاد كلمة الاسلام . ويبدو ان السلطان العثماني تقبل هذه الاسس في ه المرة لضعف دولته النسبي ، ولما شاهده من قوة المنصور وتشعب علاقاته الاوربية ، والتفاف به حوله . وقد عبر الافراني عن هذا القبول بقوله ((ففرح بذلك خاقان ، واهتز لسماعه (١) . مما ني موافقته عليه ، وانعقاد السلام بين الدولتين (٢) .

وذكر الفشتالي ان مراد الثالث تولى الاجابة على رسالة المنصور بخط يده ، وفي ذلك تقدير شريف للمنصور ، ودليل على معرفة مراد الثالث للغة العربية ((فأغرب في ذلك ، كما لم يسمع عن من ملوكهم الى ملك)) (٣) .

ولعل ما ذكره الحسن البوريني ، في كتابه تراجم الاعيان والمحبي ، في خلاصة الاثر ان السلطان الثالث كتب الى المنصور في احد مكاتيبه قائلا له " (لك عليّ العهد ألا أمد يدي اليك للمصافحة ، وان خاطري لا ينوي لك الا الخير والمسامحة) (٤) كان في هذه المناسبة .

ونتيجة لهذه السفارات المتبادلة اصبحت العلاقات بين الدولتين ودية سليمة ، فكان المنصور بعث لمراد الثالث كل سنة بسفارة ، تحمل هدية له ، فيرد عنها هذا الاخير بسفارة وهدية مناسبة ، اكد البوريني ذلك بقوله : (وهو موادع لسلطان الزمان . . فيرسل اليهم الهدايا السنية كل سنة وهم يرسلون اليه المكاتيب والخلع المستحسنة . . ورسله دائما تأتي الى القسطنطينية جانب البحر . ويمكثون زمانا طويلا ويتعهدون الوزراء ، ويصطحبون القضاة والامراء ، ويكاتبون كان له قرب من الدولة) (٥) .

ومن كاتبهم المنصور من كبار شخصيات الدولة العثمانية علج علي ، وذلك في اعقاب تراجعه غزو المغرب ، ردا كما يفهم من الرسالة على اعتذار علج علي عن حركته التي كانت موجهة ضده ، الاعتذار الذي نقله اليه سفيره الهوزالي . وقد تظاهر المنصور في رسالته باقتناعه بما ذكره علي لسفيره ، بأنه لم يتحرك عن عون منه ، وانه لم يكن الداعي الى هذه الحركة ، مما ازال امتعاضه دد محبته له . قائلا في رسالته : (فأنهينا اليكم خطابنا هذا صحبة رسولينا ابي الفاضل القاسم علي الشاطبي . . وابي زيد عبد الرحمن الشيظمي ، لتعلموا منهما ان شاء الله ، ان ربع الوداد الله ما زالت تمطره من اخلاصنا عوارض هواطل . . وتتعرفوا منهما ، ان داعي المحبة منا لداعي جفاء على الدوام مناضل ، وسيف التواصل بيننا لحبل القطيعة باتر .) (٦)

وكاتب ابا سالم (٧) ابراهيم باشا ومحمد ا امين الدفترى في الدولة العثمانية ، وطلب منه يبعث اليه بالكتب القيمة (٨) واخرين .

ومن الشخصيات العلمية التي كان يكاتبها ايضا : بدر الدين القرافي (٩) ، والبكري (محمد الحسن البكري الصديقي (١٠) لاغراض مختلفة . وفي الوقت الذي كان يجري فيه تبادل السفارات ن المنصور والسلطان العثماني ، لتصفية الجو بينهما ، كانت تجري بين المنصور وايالات الجزائر عثمانيين مراسلات وسفارات تستهدف توطيد العلاقات بين ايالة الجزائر والمنصور وتقويتها ، ويظهر بها المنصور في موقع لا يقل عن موقع السلطان العثماني فيها او في موقع من له نفوذ فيها .

---

(١) الافراني : النزهة ص ٨٧

(٢) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٦٦

(٢) م ص م . ت . م : فرانسا جـ ٢ ص ٩٨-١٠٠

(٤و٥) الحسن البوريني : تراجم الاعيان من ابناء الزمان تحقيق صلاح الدين المنجد جـ ١ دمشق ١٩٥٦ ص ٢٢ والمحبي : خلاصة الاثر جـ ١ - مصر ١٢٨٤هـ/ص ٢٢٢-٢٢٣

(٦) انظر نص رسالة المنصور الى علج علي في الملحق رقم (2) .

(٧) انظر رسائل سعدية لعبد الله كنون تطوان 1954 ص 195-196

(٨) المحبي : خلاصة الاثر جـ 4 ص 291-293

(٩و١٠) الفشتالي : المصدر السابق ص ١٨٨-١٨٩

فقد بعث المنصور برسول الى الجزائر يدعى الحاج احمد الماسي (1) ، وتوجه من الجزائر الى المغرب رسول يدعى (مامي) (2) ، وكتب المنصور الى جند الجزائر الانكشارية رسالة ضمنها شناؤه عليهم لما يكنونه له من ود ، واشارة الى موقفهم من حملة علج علي الودى تجاهه ، وتقديره لهم علبيه ، وفيها ذكر لمزاياهم وخصائلهم ، وجاء في مقدمة رسالته اليهم بهذا الخصوص : " العصابة التي لها من علامة المحبة لهذا الجناب الرفيع ما اشرق شموسها واقمارها ، والفئة التي اناطت بعرى القاعدة النبوية من ودها واسبابها وصلتها ما فسح املها وأجلّ مقدارها ، والجماعة التي عملت عزائمها فيما اجال لديها قداح مرضاتنا وادارها ، والرهط الذى له كلف بالجهاد وولوع ، والجيش الذى له الى الى اقتناص الخيرات بجوارح الرغا جنوح ونزوع (3) .

وابدى المنصور في الرسالة ذاتها استعداده لقبول ما يعن لهم من اغراض " فآرايكم بهذا الجناب الرفيع متقبولة ، وباسباب التيسير ان شاء الله موصولة .. " (4)

وبعث الى جعفر باشا يوصيه خيرا باحد الفقهاء وهو ابو العباس احمد بن عبد الجليل ، الذى زار المغرب وقابل المنصور ثم عاد الى الجزائر ، وطلب منه ان يبوئه مكانة سامية قائلا له : " فأصعدوه من مراعاتكم مصاعد الاعظام ، وبوئوه فيها على الغارب والسنام ، واوسعوا له في جنابكم بغيته وارادته .. " (5) .

وهو خطاب يدل على ان العلاقة بين المنصور وجعفر باشا قد كانت ودية للغاية .

وقد سعى علج علي بعد عودته من الجزائر الى عزل جعفر باشا ، لان موقفه منه ومن حملته لم يكن كما يستنتج من هايدو مؤيدا ، ولانه كما قال هايدو لم يعامل حسن فنزيانو المعاملة التي طلبها منه علج علي . وكان حسن فنزيانو من موالي هذا الاخير ويتمتع بعطفه عليه . وقد نجح علج علي في تعيين حسن فنزيانو على رأس ايالة الجزائر للمرة الثانية وعزل جعفر في ماي 1582 (6)

ويبدو ان تعيين حسن فنزيانو لم يبعث الارتياح في نفس المنصور : اذ أنه كان على شاكلة سيده علج علي يرغب في التدخل في المغرب ، وكان قد تزوج بأرملة عبد الملك واحتضن ابنه ولذلك فان المنصور لم يهمل مفاوضاته مع الاسبان ، ولم يقطعها لعدم اطمئنانه التام لجيرانه الاتراك .

وفي سنة 1583 نشطت الاتصالات والمفاوضات من جديد بين المنصور والاسبان حول تسليم العرائش او مبادلتها بالبريجة ، وحول التعاون على حرب الاتراك في الجزائر والتخلص من اخطارهم على المملكتين . وفي رسالة المنصور الى فيليب الثاني المؤرخة بآخر رمضان 991هـ/ 15/10/1583

1) عبد الله كنون : رسائل سعدية ص 29
2) نفسه : ص 60
3) انظر نص الرسالة : المرجع السابق ص 92
4) نفسه : ص 60
5) انظر نفس الرسالة في المرجع السابق 87-86
6) هايدو : ملوك الجزائر ص 188-189

بعض التفاصيل عما كان يجري بين الطرفين :

فمن هذه الرسالة : نعلم ان فيليب الثاني اوفد القسيس ماريين الى المنصور وان اقامة هذا الاخير طالت كثيرا ان المنصور اضطر الى الاعتذار عن تأخير عودة السفير الاسباني . مما يدل على ان المنصور كان يتعمد التأخير في الاجابة عن رسائل السلطان العثماني ، والملك الاسباني على السواء، المستغل عامل الزمن في استيضاح الامور واستجلائها، قبل اتخاذ قرار فيهما او تقديم اجابة عنهما . ولا يستبعد هنا ان يكون القصد من وراء التأخير ليس فقط الانشغال بالاعداد لحملة على بلاد توات وتيكورارين التي وجهها المنصور في سنة ٩٩١هـ /١٥٨٣-١٥٨٤م ولكن ايضا معرفة النوايا الحقيقية لحسن فنزيانو .. ومقاصد الدولة العثمانية من وراء تعيينه للمرة الثانية .(١)

ومن الرسالة نفسها نعلم ان المنصور قبل بتسليم العرائش للاسبان، في مقابل تسليم سوء الا له البريجة ، وانه قد توصل الى اتفاق مع سفير فيليب الثاني حول ذلك بحيث لم يبق سوى التوقيع عليه ، وانه يعتزم ارسال قائده ابراهيم السفياني مع السفير الاسباني لاستكمال ذلك : " سنبعث لكم صحبة قائدنا ابراهيم السفياني ليقضي الحاجة ، وكذلك تأمروا لاصحابكم يقبضون لاصحابنا البريجة، مثلما امرنا نحن للقائد ابراهيم يقابض لاصحابكم العرائش " .

ومن الرسالة نفسها نعلم ان المنصور لم يهمل اطلاقا اقتراحه السابق، والمتمثل في التعاون على التخلص من اتراك الجزائر او احتلال هذه الاخيرة مصدر الخطر عليه وعلى الاسبان ((وترى القسيس مريين امرناه مرارا يكلمكم ويكاتبكم في شأن النصر الاحد لوطنكم ووطننا . وحيث هي مسألة اخذها هين لكم خاصة ، وكذلك اخذها هين لنا خاصة بحول الله وقوته وعسى يصون في هذه الساعة التي وقع الاتفاق بيننا يهون اكثر علينا جميع (كذا).... وبعثنا القسيس مريين صحبة القائد ابراهيم على انهم يلتقوا مع العرك د ن مدينة يتكلموا جميع (كذا) ويتدبروا في شأن الحركة للجزائر ولله الحمد ما هنا ما يصعب لا عليكم ولا علينا سوى تأمروا جدامنا بألسنتنا خاصة ونقضوا فيها الحاجة ان شاء الله وتهنئنا الرعية كلها بحول الله))(٢)

وقد تناهت اخبار هذه المفاوضات الى السلطان العثماني، كما تناهت الى ملكة انجلترا ، فانزعجا منها . الاول لما سينجم عن التحالف السعدي-الاسباني من تهديد، وخطورة على الوجود العثماني في الجزائر، والثانية لما سيلحق سفنها وتجارتها من اضرار اذا ما تنازل المنصور عن العرائش للاسبان، وازاء ذلك، فقد سعى كل من السلطان العثماني، وملكه انجلترا ، الى احباط المفاوضات، والضغط بمختلف الوسائل على المنصور للتراجع عن التحالف مع الاسبان،

---

١) الفشتالي : مناهل الصفا ص٦٥

٢) انظر نفس الرسالة في مجلة الدراسات العربية والعبرية : المجلد التاسع السفر الاول ١٩٦٠ . ص ٣٤ - ٣٦

حسن فنزيانو يتقدم هدية التنازل لهم عن المرائش، فأوعز السلطان العثماني الى السلطان السعدي على عدم تسليم المرائش للاسبان، وابدت له استعدادها لمساعدته في تحصين ميناء المرائش (١) ، ولمأنته من جهته، وقامت المزاجيت بحث المنصور على عدم تسليم (٢) .

ونتيجة لهذه الضغوط تراجع المنصور عن تسليم المرائش لفيليب الثاني او مبادلتها بالبريجة وتوترت العلاقات بين الطرفين خلال اعوام ١٥٨٥ - ١٥٨٨ وبضعة شهور من عام ١٥٨٩م ليس فقط نتيجة تراجع المنصور نهائيا عن التنازل عن المرائش مهما كان العرض ولكن ايضا لانه اقام علاقات واحدة مع انجلترا التي كانت العلاقات بينها وبين اسبانيا في هذه الفترة عدائية ، وتدخل في القضية البرتغالية بابدائه الاستعداد لتقديم المساعدة لدون انطونيو (٣) الذي يطالب بالعرش البرتغالي وكان قد افتكه منه فيليب الثاني ، واستقباله لرسله ثم لولده دون كريستوفر ولان المغاربة قد تعرضوا لبعض القواعد البرتغالية التي آلت الى فيليب الثاني بعد ان ضم البرتغال الى مملكته بالهجوم او الحصار كحصارهم لطنجة سنة ١٥٨٤م (٤) ، وهجومهم على سبته سنة ١٥٨٨م (٥) .

ولان المنصور أخيرا قد مال في السنوات الاخيرة من عهد البابلرباي الى اقامة علاقات عادية ، سلمية بعد ان كان يسعى الى الحصول على المساعدة الاسبانية ، والتعاون مع اسبانيا لاحتلال الجزائر .

وخلاصة القول ، فان العلاقات بين البلدين في هذه الفترة ١٥٧٤-١٥٨٧ التي تتوافق مع عهدي المتوكل على الله وعبد الملك ، وشطر من عهد السلطان احمد المنصور ، وعديد من الباشا وات في الجزائر ، قد تراوحت بين التحرش والتهديد بالحرب ، والسلام الحذر ، وبين قبول حكام المغرب للعثمانيين على مضض التبعية التي عرفها عهدي المتوكل على الله وعبد الملك ، والحصول الشديد على الحياد والتامة المطلقة في عهد المنصور ، وبرة اخرى كان للقوى الخارجية كالدولة العثمانية ، واسبانيا والبرتغال ، وانجلترا ايضا ، دورها المهم في تلك العلاقات ، وتوجيهها نحو هذا الاتجاه أو ذاك ، نحو السلم او نحو الحرب او نحو التوتر او القلق والحذر ، ولم ترق العلاقات بين البلدين في هذه المرحلة الى التعاون ضد اي من القوى المذكورة ولا سيما المحتلة منها لشواطئ البلدين .

---

١) م . م . ت . م : فرانسا ج ١ ص ١١٢

٢) محمد خير فارس: تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، دمشق 1982 ص72

٣) الفشتالي : مناهل الصفا ص ١٠١ ومجلة تطوان عدد ٨/ ص ٣١

٤) م . م . ت . م : فرانسا ج ٢ ص ١١٤ - ١١٦

٥) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٩٦-٩٧

((الفصل السادس))

الصراع على السلطة في القطرين والسلام القلق بينهما

٩٩٥–١٠٦٩هـ/ ١٥٨٧–١٦٥٩م

أولا : العلاقات بين حكام الجزائر الباشاوات والسلطان أحمد المنصور :
995 – 1012 هـ/ 1587 – 1603م

تعتبر سنة ١٥٨٧ سنة هامة في تاريخ الجزائر العثمانية كما اشرنا الى ذلك في فصل
الاوضاع السياسية في الجزائر وكذلك في تاريخ العلاقات العثمانية المغربية ، ففي هذه السنة
توفي العلج علي الذي كان يجمع بين منصبي البايلرباي ووزارة البحرية العثمانية ، فاسند
السلطان العثماني خليفته حسن فنزيانو من الجزائر واسند اليه وزارة البحرية ، والغى العمل
بنظام البايلرباي الذي ظل متبعا في الجزائر منذ انضمامها الى الدولة
العثمانية حتى ذلك الحين لانتهاء اهمية الاحداث التي كانت تجري في الحوض الغربي للمتوسط
وجود شخصية قوية على رأس نيابة الجزائر القاعدة الامامية الدولة العثمانية في المنطقة ، تتمتع
بسلطات واسعة ، وبكفاية عالية في قيادة الحروب ، ورسم سياسة الدولة في المنطقة وتطبيقها
المنطقة ، وادخل السلطان مراد الثالث نظام الباشاوات الثلاثيين بدلا منه ، بحيث تكون
سلطة الباشا مقصورة على الجزائر فقط ، لا اشراف لها على تونس وطرابلس ، ومحدودة بزمن
ثلاث سنوات تنقل في المعين الذي ...

وكانت الدوافع الى تغيير نظام البايلربايات واستبداله بنظام الباشوات عديدة .
ولعل اهمها في ميدان العلاقات السياسية :
١- حقيقة هدنة الصراع بين الدولة العثمانية واسبانيا في الحوض الغربي للمتوسط بعد ان
استرجع الاتراك العثمانيون تونس سنة ١٥٧٤ ، بعد معركة ليبانتي سنة ١٥٧١ .
٢- ميل السلطان مراد الثالث الى التقرب من السلطان السعدي احمد المنصور
وامل تخليه عن مطامع الدولة العثمانية في المغرب ، والى اعترافه بالأمر الواقع فيه كبلد مستقل
عن الدولة العثمانية تحت حكم الاسرة السعدية .
٣- مخاوف الباب العالي من ميول البايلربايات الاستقلالية عن الدولة التي زادت الحاجة
الى قوة هذه الاخيرة في الضعف ..[(١)]
وهكذا فقد غدت الجزائر ابتداء من سنة ١٥٨٧ ، مجرد باشوية مثلها مثل تونس وطرابلس
وقد كان هذا التغيير مؤشرا لبدء مرحلة جديدة في الحياة السياسية في الجزائر ، وفي العلاقات
بين هذه الاخيرة وجارتها المغرب ، مرحلة تميزت على صعيد الحياة السياسية بالاضطراب [(٢)]

(١) انظر حول واقع تغيير نظام البايلرباي واستبداله بالباشاوات : كولومب : ماضي الجزائر ص ١٠٨
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر .

١٦٠٣ـ١٥٨٧ فيما تبقى من عهد المنصور

اما على صعيد العلاقات السياسية ، فانها تميزت فيما تبقى من عهد المنصور باستمرار الطرفين السعدي والعثماني في تبادل الرسائل والهدايا وبمحافظ... على الطابع السلمي ، ذلك ان اوضاع الباشاوات في الجزائر لم تكن لتسمح لهم بان يكونوا ... راغبين على حسن الجوار ، كما كان عليه الامر في عهد البايلربايات ، بل كانوا ... لديهم طموحات للتدخل في المغرب ، وان اهتمامات السلطان ... العثمانيين على تجنب كل مامن شأنه ان يثير السلطان السعدي عليهم ، ... مراد الثالث وخليفته محمد الثالث قد انصرفت على الخصوص الى جبهتي فارس واوربا الشرقية ، ... على القضاء على الثورات الداخلية في المشرق ، وحركات الجلالية في آسيا الصغرى .

اما المنصور الذي تخلص من الشعور بالخوف والتهديد من قبل جيرانه الاتراك العثمانيين بعد الغاء نظام البايلرباي ، وباضطراب امور الباشايات في الجزائر وانشغال الباب العالي بما ذكرناه ، ... الذي بات بامكانه ان يتدخل في الجزائر وادارات الدولة العثمانية بشكل او بآخر ، فقد اختار ... بلاد السودان الغربي مجالا لصرف طاقاته العسكرية ، كما اختار التآمر مع انجلترا على حليفه ... الاسبان فيليب الثاني ، لينتزع منه ما امكنه من القواعد المحتلة من قبل الاسبان في المغرب ، ... ذلك مجالا لمناوراته السياسية في بعض الفترات ، فكان لذلك في حاجة الى السلم مع جيرانه ... الاتراك ، والى حسن الجوار معهم ، وتجنب استغلال ظروفهم السيئة للتدخل في شؤونهم بشكل يجعلهم يستحضرون قواهم ضده .

ولكل ماتقدم ، فان كلا الطرفين العثماني والسعدي كان يهمه اذن ان تكون العلاقات بينه وبين الطرف الآخر ودية سلمية حتى ينصرف لمعالجة مشاكله الداخلية او تحقيق مشاريعه .

والدليل على هذا الاتجاه السلمي لدى الدولة العثمانية ، ان السلطان العثماني بعد سنة واحدة من التغيير الذي اوقعه في نظام الحكم في الجزائر بعث في سنة ١٥٨٨ سفارة الى المنصور ، مع هدية جليلة[1] (٢) لتنقل اليه رغبته الملحة في ابرام عقد الصلح والمهادنة معه ، وهذا مايتجلى في رسالة المنصور التي خاطب بها اهل السوس قي جنوب المغرب ، مفتخرا بورود رسول ... ، حيث يقول : ((وما اتفق ايضا في هذا التاريخ ٩٩٦هـ / ١٥٨٨م ، ... خادما لسلطنا وراتب ... القسطنطينية الذي انفذه الى حضرتنا الامامية وعتبتنا المنيفة السامية ، بعد ان ... في عقد الصلح والمهادنة معنا ، متهومًا بطلب ذلك من عنده ، وساعيا فيه غاية جهده ، ... بما بلغنا في حضرته ، وجمع عليه اهل مملكته وسائر ارباب دولته ..))[3] وفي نفس الرسالة ما يدل على موقف المنصور من عرض السلطان العثماني حيث قال : ((ولعل في انعقاد كلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذي آن ان ينعقد بين الدولتين ، ويعم منتسبين المملكتين

---

١) القشتالي ، مناهل الصفا ص ٩٩ ، ... المسفر ، 1929 ص19 .
٢) التمجروتي (ابوالحسن علي) ، النفحة المسكية في السفارة التركية ، ص ١٥٠ ـ ١٥٦
٣) انظر نص الرسالة في / رسائل سعدية لعبد الله كنون

... حتى ينجز الشرك الملحدين ، وغزو احزاب الشرك الملحدين ، حتى ينجز
... على صرف العناية بعون الله لمجاهدة عدو الدين ، واخراج ... دانيها وقاصيها ، واخراج
... لهذا الامر العزيز وحده في الاستيلاء على الاقطار ان شاء الله ، دانيها وقاصيها (1) .
... الكفر بعون الله من داره ، وسياسيها بحزم الله وعنايته)) (1) .
... المنصور كما يتجلى في هذه الفترة كان راغبا ايضا في السلم مع الاتراك ، وذلك ليتفرغ كما
... الصر لمجاهدة عدو الدين ، ويقصد به هنا الاسبان الذين انهزموا في هذه السنة ١٥٨٨ امام
... الانكليز ، والذين كانوا يحتلون عديدا من المراكز على الاراضي المغربية . وليتفرغ للاستيلاء
... الاقطار الدانية والقاصية ، وهي اشارة الى مشروعه التوسعي للاستيلاء على توات وتيكورارين
... جديد (2) ثم بلاد السودان المترامية الاطراف (3) .

وقد استقبل المنصور السفارة العثمانية التي كانت تنتظره في فاس في جانفي سنة ١٥٨٩ .
... ردا على هذه السفارة وعلى هدية السلطان العثماني ارسل بدوره الى هذا الاخير سفارة كانت
... تتالف من ابي الحسن علي التمجروتي ، ومن الكاتب الشاعر محمد بن علي الفشتالي ، حملت اليه
... هديته وهديته ، وذلك في سنة ١٥٨٩ رفقة رسل السلطان العثماني (4) .

وعلى الرغم من ان التمجروتي قد ترك لنا كتابا كاملا عن سفارته سماه ((النفحة المسكية
في السفارة التركية)) (5) فانه لم يفصح عن المقاصد السياسية لهذه السفارة ، وعن نتائجها ...
... انتهى في كتابه المذكور بالاشارة الى استقبال السلطان العثماني له ولرفيقه بعيد وصولهما
... الى القسطنطينية في اواخر نوفمبر ١٥٨٩ ، وقبيل مغادرتهما لها في ... وان ١٥٩٠ ، والى تقديم
... هدية السلطان المنصور ورسائله ، واستلام اجوبة السلطان العثماني الموجهة الى المنصور (6) ،
والى مرافقة رسولين عثمانيين لهما الى المغرب .

ولكن التمجروتي تطرق في كتابه الى قضية الخلافة ، وناقش من هو احق بها وبالتالي من هو
احق بالسيادة على العالم الاسلامي . أهم السلاطين العثمانيون ام السلاطين السعديون ؟
وقد كان كل من السلطان العثماني مراد الثالث ، والسلطان السعدي احمد المنصور يتلقب
بلقب الخليفة ، ولا يعترف به للآخر . فهل كانت قضية الخلافة احدى القضايا التي تناولتها
سفارته الى السلطان العثماني ، او اثارتها كما اثارتها السفارة المؤلفة من الشاطبي والشيظمي قبله ؟
وحسب التمجروتي ، فان السلاطين السعديين هم احق بالخلافة من السلاطين العثمانيين
ودافع عن رأيه بقوله : ((والعثمانيون من جملة المماليك والموالي ، هدا فع الله بهم عن المسلمين ،
وجعلهم حصنا وسورا للاسلام ، وان كان اكثرهم واكثر اتباعهم ممن يصدق عليهم قوله (ص) ان
الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وان كانوا انما حملوا الامارة وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة
وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واعلم اهلها ومواليها وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب
الذين شرفت بهم الامامة والخلافة ، والشاهد لهذا انهم من الارومة السنية والدوحة المصطفية
ولدتهم الرسالة فما اشرف من هذه الولادة ... وقد اجمع المسلمون على ان الامامة لا تنعقد
الا لمن هو من صميم قريش)) (7) .

---

(1) عبد الله كنون : رسائل سعدية ص ١٥٦
(2) تدوث حربها وقتلوا والي المنصور اواخر عام ٩٩٤هـ / ١٥٨٦م ، انظر الفشتالي : المناهل ص ١٠٠
(3) نفسه : ص ٩٩
(4) و(5) التمجروتي : النفحة المسكية ، ص ١٠ ، ١٠٨ - ١٠٩
(6) نفسه ، ص ١٠١
(7) نفسه ، ص ١٤٧ -

ومن السفيران العثمانيان اللذان جاء من التمجروتي ورفيقه الفشتالي الى المغرب في
بر ١٥٩٠ ، واستقبلهما المنصور في مراكش، واستلم منهما رسائل مراد الثالث وهديته اليه[1]
في اكرامهما واسكنهما بدار الامارة .[2]

الا ان التمجروتي التزم الصمت أيضا حول مقاصد السفارة العثمانية ، ولكن بفضل احدى
وثائق المعاصرة[3] التي اشارت الى السفارة المذكورة ، نعلم ان احد السفيرين العثمانيين كان
نا بالغ السلطان السعدي على الانتصار الكبير الذي احرزه مراد الثالث في فارس ضد عباس الصفوي مما
دار هذا الاخير الى عقد الصلح معه ، والآخر لينذره بأن يرسل اليه مناب الطفل اسماعيل بن
الملك من ثلاث سنوات ، وقدره / ٣٠/ الف دوكات من كل سنة . وحسب الوثيقة نفسها فا ن
حسن فنزيانو الذي خلف العلج عليا في قيادة البحرية العثمانية منذ سنة ١٥٨٧ ، والذي تزوج
ارملة عبد الملك واحتضن ابنه اسماعيل كما اسلفنا القول ، كان يكن العداء للمنصور ، ويسعى في
الحاق الضرر به ، ويعمل على اثارة غضب السلطان العثماني عليه وعدائه له . ومما حمله بهذا الصدد
ما تذكره الوثيقة المذكورة :

ان حسن فنزيانو سعى للحصول على رسالة من السلطان العثماني ، يأمر فيها المنصور
بتمكين الامير الصغير اسماعيل من دخل اقليم من اقاليم مملكة فاس ، ولما تحصل عليها لم يرسلها
اليه وتظاهر بأنه فعل ، بقصد اثارة غضب السلطان العثماني على المنصور بسبب عدم امتثال هذا
الاخير لطالبه ، وقد بقي المنصور ثلاث سنوات دون ان يدفع اى مبلغ ، الامر الذى يجعل السلطان
العثماني ينذره بدفع مدخول الاقليم من ثلاث سنوات ، وكان حسن يأمل ان يجعل المبلغ الكبير
المطلوب ، السلطان السعدى يعصي امر مراد الثالث فيثير ذلك غضب هذا الاخير ويجعله
يشهر الحرب عليه . ثم ان حسن فنزيانو استغل الاشاعات القائلة بأن احمد المنصور يريد تسليم
الامير البرتغالي دون كريستوف بن دون انطونيو الملك البرتغالي المخلوع ، الذى كان في بلاطه
منذ مطلع سنة ١٥٨٩ الى فيليب بغية الحصول على مساعدة هذا الاخير وتأييده له[4]
عند الحاجة ، وهو ما لا يريده حسن ان يقع ، فحرض السلطان العثماني على المنصور حتى ان مراد
كان يرسل في طلب ابن دون انطونيو ليحتفظ به رهينة لديه فتكون في عين اسبانيا وانكلترا
في فشل ملك فاس .

التمجروتي ... النفحة ... ص ١٢٩
نفسه : ص ١٥٧
انظر رسالة ادوارد بارتون سفير انكلترا في تركيا الى ووليسنغهام كاتب الدولة وهي بتاريخ
٢٤/ ٦/ ١٥٩٠ . في مجلة تطوان عدد ٨ ص ٣٩ - ٤٠
الفشتالي : المرجع السابق ص ١٠١

وقد نصح السفير ادوارد كاتب الوثيقة، بأن تبعث الملكة اليزابيث في طلب الاميرالبرتغالي

المذكور لترقعه حصول قلاقل كبيرة في المغرب بين الاتراك العثمانيين والمنصور، كان يقدم اتراك الجزائر وتونس على مداهمته على حين غرة، او ان يقوم السلطان العثماني بتأليب المغرب على المنصور[1]

ويفهم من كلام السفير الانجليزي هذا، ان للسلطان العثماني تأثيرا قويا في المغرب، ومما يفهم ايضا من رسالة الملكة اليزابيث الى السلطان العثماني، المؤرخة في ٢٤/ ٨/ ١٥٩٠، ان لهذا الاخير تأثيرا على المنصور نفسه، حيث ترجته فيها ان يبعث الى السلطان السعدي رسالة تحمله على الالتزام بتنفيذ ما التزم به من مساعدة مادية وعسكرية لدون انطونيو[2]، ضد الملك الاسباني فيليب الثاني، الذي يسعى الى تحقيق الملكية العالمية[3]. وقد بعث السلطان العثماني الى المنصور رسولا للتداول في الامر المتعلق بمساعدة دون انطونيو[4]، كما طلب منه ارسال الاميرالبرتغالي دون كريستوف اليه[5]

فهل استجاب المنصور لما طلبه منه مراد الثالث ؟

من الواضح ان السلطان العثماني بعد انتصاره على الصفويين، وخلاصه من مشكلتهم، وجد مجالا للاهتمام بقضايا المغرب، وللتدخل في شؤونه، مستغلا فيما يبدو دوي انتصاره. ولكن انتصار العثمانيين المذكور الذي تظاهر المنصور بسروره به وانشراحه له ((فهي البشارة التي لاتسرى المسرور بها نقاء، والنبأ العجيب الذي فرحنا بخبره السار فرحا لايغيب صباحا ومساء...))[6] لم يجعل المنصور اكثر طواعية للاستجابة لكل مايطلبه منه السلطان العثماني او اكثر خشية منه.

واذا كانت رسالة المنصور الجوابية عن رسالة مراد الثالث، التي نقلتها اليه السفارة العثمانية، لم تتطرق الى قضية التعويض، او الى قضية ابن دون انطونيو، واكتفت بالتركيز فقط على وقف النصر العثماني في نفس المنصور، وهو ما تقدم، فاننا نعلم مما هو متوفر من الوثائق، ان مطالب مراد الثالث لم تلق القبول لدى المنصور، لان هذا الاخير لم يخص اى اقليم من الاقاليم المغربية، او مدخوله لابن اخيه مولاى اسماعيل، ((معتذرا بأن رعاياه لايسمحون له ابدا بأن يضع بلاده بين أيدى ضباط الاتراك))[7] وليس هناك اشارة الى انه سلم المبلغ المطلوب، تعويضا عن ثلث

في المرجع السابق ص ٤٠ .

انظر رسالة السفير الانجليزي ادوارد بارتون في م. ت. م. انكلترا جزء ٢ ص ٤٠ ـ ٤٦

(٤) انظر الرسالة في م. ت. م. انكلترا / ١٥٠/ الف دوقات رجاه دون كريستوف ابن
كان المنصور قد وعد دون انطونيو بمساعدة مالية قدرها / ١٥٠/ الف دوقات رجاه دون كريستوف ابن دون انطونيو في مطلع سنة ١٥٨٩ ليبقى رهينة لديه في مقابل المال المذكور وقد ظل في المغرب الى ربيع سنة ١٥٩٢ بدون ان يحصل والده على اى عون من المنصور . انظر مجلة تطوان عدد / ٨/ ص ٤٢ ـ ٤٩

ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي/ في/ تطوان عدد / ٨/ ص ٤٩

م. ت. م. انكلترا جزء ٢ ص ١٠٢ .

من رسالة المنصور الى مراد الثالث . انظرها في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ١٨ ـ ٢٤

م. ت. م. انكلترا جزء / ٢/ ص ٤٦ ـ ٥٥ (من رسالة ماتياس بيكود الى دون انطونيو بتاريخ ١٨/ ٤/ ١٥٩١ .

سفراء ، ولكن المنصور كما تبين مما تقدم كان يرسل هدايا الى السلطان العثماني ، مرفقة بدون شك بتحف وهدايا للأمير الصغير احماعيل بل انه استمر على ذلك ، الا ان ما كان يقدمه لهذا الاخير لم يكن منتظما جدا ، اذ نرى من خلال طلب السفارة العثمانية انه بقي ثلاث سنوات دون ان يبعث له بشيء .

اما بخصوص دون انطونيو البرتغالي ، فقد الحق السلطان العثماني في دفع المنصور الى تقديم المساعدة اليه[1] كما فشل في الحصول على ابنه من المنصور ، اذ ان هذا الاخير آثر ان يعيده الى انجلترا من حيث اتى على ان يسلمه اليه ، وقد تمت عودته الى لندن في ربيع ١٥٩٢[2]

ولا يبدو ان امتناع المنصور عن الاستجابة لطلبات مراد الثالث، او الرضوخ لضغوطه قد اشعره بخطر الاتراك على ملكه . ومما يؤكد عدم تخوفه من تدخل عثماني عسكري ضده في المغرب اقدامه على تنفيذ حملته على بلاد السودان في نوفمبر ١٥٩٠ ، في الوقت الذي وصلت فيه سفارة مراد الثالث الى المغرب ، واستمراره في ارسال الامدادات الى السودان بعد ذلك .

ولعل ما كان يطمئن المنصور من خطر تدخل عثماني في المغرب ، فضلا عن رفضه لطلبات مراد الثالث في اوضاع الاتراك العثمانيين الداخلية التي ترددت في السنوات الاخيرة من عهد مراد الثالث .

ففي الجزائر المجاورة للمغرب ، شهدت سنة ١٥٩٠ قيام بني عباس بالتمرد على الحكم العثماني وامتناعهم عن دفع الضرائب ، واستيلائهم على سهل مجانه ، فاضطر الباشا خضر الى ان يسير بنفسه على رأس ابرز قوة امكنه تجميعها من القوات النظامية ، وغير النظامية في ديسمبر ١٥٩٠ ، وحاصر المتمردين في قلعتهم ، وعاث فيما جاورها . وكان النزاع بين الطرفين سيطول لو لم يتدخل بينهما احد المرابطين ، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي ويقنع الطرفين على وقف حالة الحرب.[3] ولكن هذه الثورة التي خمدت الى حين لم تكن سوى مقدمة لسلسلة من الانتفاضات شهدتها بلاد القبائل بدءا من ١٥٩٢ تكاد تكون متواصلة طوال نصف قرن تقريبا ، مستغلة الصراع الذي كان[4]

---

1) تذكر المنصور بانشغاله بحملته على السودان ، واشترط ان يعلم بالحملة على البرتغال مسبقا وان تكون المساعدة الانجليزية بعدم بضمن النصر ، انظر رسالة المنصور الى اليزابيث المؤرخة ٢٢/ ٦/ ١٥٩٠ في مجلة تطوان عدد / ٨/ ص ٧٧ ـ ٧٨ .
ورسالته المؤرخة بربيع الاخر عام ١٠٠٠ هـ الموافق نهاية يناير واوائل فبراير ١٥٩٢ في مجلة تطوان عدد / ٣ ـ ٤ ص ٥٥ ـ ٥٧ .

2) ت م ، انكلترا جزء / ٢/ ص ٧٠

3) و 4) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر . ود وغرامون ، المرجع السابق ص ١٢٩ .

دائما في مدينة الجزائر بين الجند الانكشاري وطائفة الرياس والكراغلة ، والذى غذاه بعض الباشاوات بتأليب هؤلاء على أولئك، وساعد على استفحاله ضعف الباشاوات، وحقد بعضهم على بعض

وفي تونس ادى تسلط ديوان الجند الانكشاري الى اضطراب الامور فيها والى ثورة الانكشاريين انفسهم على ديوانهم الذى كان يتألف من كبار الضباط ((البولكباشية)) وذلك في اكتوبر ١٥٩١ ، وانقضت فترة قبل ان يتمكن الداي عثمان من اعادة الهدوء الى البلاد وتنظيم امورها (١) .

وشهدت ايالة طرابلس ثورة كبيرة بقيادة سيدى يحيى سنة ١٥٨٩، اضطرت الدولة العثمانية الى ارسال اسطولها محملا بقوات كبيرة للقضاء على ثورته وذلك في سنة ١٥٨٩، ولم يتأت لها ذلك بسهولة (٢)

وشهدت السنوات الاولى من العقد العاشر من القرن السادس عشر تمردات كثيرة للجند الانكشاري في كل من مصر واستانبول وبودا وتبريز وغيرها . واعلان الافلاق والبغدان وترانسيلفانيا العصيان، والتحالف مع النمسا وامبراطور المانيا (٣) .

فهذه الثورات وهذه التمردات التي شملت معظم ولايات الدولة العثمانية ، ولم تسلم منها عاصمة الدولة نفسها، لم تكن لتسمح للسلطان العثماني بالدخول في صراع مع السلطان السعدى .

ولم تكن اوضاع الدولة العثمانية لتخفى على السلطان احمد المنصور الذى كان له مخابرات واسعة (٤)

- علاقة المنصور بالاسبان :

ان المنصور وهو يتقرب من الانجليز بعد انتصارهم على الاسبان بعد سنة ١٥٨٨ على الخصوص او وهو يحسن علاقاته مع الاتراك العثمانيين بعد سنة ١٥٨١، لم يقطع ابدا خط الرجعة الى حليفه الطبيعي ضد هؤلاء الاخيرين ، الا وهو فيليب الثاني ملك اسبانيا ، فالمنصور لم يقدم في نهاية الامر اى عون لدون انطونيو، الذى كان يناوئ فيليب الثاني ، على الرغم من جميع الضغوط الانجليزية والعثمانية التي كانت تحثه على مساعدته ، وعلى الرغم ايضا من بقاء ابنه الامير دون كريستوف رهينة لديه مدة تزيد من ثلاث سنوات .

ولم يسلم المنصور الامير البرتغالي المذكور الى السلطان العثماني ليتخذه قذى في عين اسبانيا .

---

(١) ميرسيي : المرجع السابق جزء ٣ ص ١٦٨ .
(٢) هايدو : ملوك الجزائر ص ٢٠٥
(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية دمشق ١٩٨٠ ص ٨٦ - ٨٧
(٤) الفشتالي : المرجع السابق ص ٢٠٧

وآثر التوجه الى غزو بلاد السودان ، على العمل على تحرير بقية المراكز المغربية التي كانت محتلة من قبل الاسبان . فهذه المواقف كلها جعلت محل الريبة وطريق التقرب من الاسبان غير مقداوج . والواقع ان علاقاته مع الاسبان قد اخذت في التحسن من بدايته منذ سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م وفي السنة التي قرر فيها فيليب الثاني التخلي للمنصور عن آصيلا ، حتى لا يندفع بعيدا في التدخل في القضية البرتغالية الى جانب الانجليز (١) .

وفي سنة ١٥٩٤م اصبحت العلاقات بين المنصور وفيليب الثاني كما تشهد على ذلك رسالة تلقاها هذا الاخير من المنصور ودية ، يتبادل الطرفان الرسائل والسفارات (٢) . فكيف تطورت اذن العلاقات السعدية العثمانية في العقد الاخير من القرن السادس عشر ؟

على الرغم من رفض المنصور لمطالب مراد الثالث وتدخله في شؤون المغرب فان العلاقات بين الطرفين لم تتدهور الى حد النزاع كما كاد يحصل في سنة ٩٨٩هـ / ١٥٨١م ، ولم تنقطع تماما ، بل استمرت عادية سلمية ، يسود بين الدولتين حسن الجوار .

ولما توفي حسن فنزيانو سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩١م ، الذي كان متحمسا للتدخل في المغرب على غرار سلفه العلج علي ، ثم تلاه مراد الثالث في مطلع ١٠٠٣هـ / ١٥٩٥م ، تبادل المنصور السفارات والرسائل والهدايا مع محمد الثالث ، وكبار شخصيات دولته كوزيره سنان باشا ، ومع باشا الجزائر خضر باشا وسليمان باشا . وكان اهتمام محمد الثالث موجها لمحاربة النمسا اكثر من اهتمامه بالمغرب .

وفي الوثائق المغربية رسالة هامة من المنصور الى خضر باشا ، هي رد على رسالة هذا الاخير التي نقلتها اليه سفارته ، تلقي اضواء على العلاقات بين الجزائر والمغرب من جهة ، وبين هذا الاخير والدولة العثمانية من جهة اخرى (٣) .

فمن هذه الرسالة نعلم ان المنصور استقبل سفارة عثمانية نقلت اليه خبر وفاة مراد الثالث وتولية ابنه محمد الثالث مكانه ، ورسالة من هذا الاخير ، ومن وزيره سنان باشا اليه . وفي الرسالة الجوابية للمنصور نتبين رغبته ورغبة كافة الجزائر واتراكها في اقامة علاقات حسن جوار بين البلدين . وفي مواقف الجانبين ما يؤكد حرصهما على عدم اتيان ما يعكر صفو العلاقات او يفسدها

---

(١) انظر رسالة المنصور الى فيليب الثاني المنشورة في مجلة الدراسات العربية والعبرية المجلد السابع سنة ١٩٥٨ ص ١٢-١٥ .

(٢) انظر رسالة المنصور الجوابية الى سنان باشا في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ٩٦-١٠١

(٣) انظر نص الرسالة في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ٢٥٤-٢٦٢

نحو العداء والنزاع وهنا نشير الى موقف باشا الجزائر من الناصر بن عبد الله الغالب الذى ثار ضد عمه المنصور في شمال المغرب وشرقه في ربيع ٢ ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٥ م ، والذى توجه بعد انهزامه الى تلمسان في الحدود الغربية الجزائرية وسعى الى الحصول على مساعدة اتراك الجزائر (١) .

وموقف المنصور من هذا التطور، ومراقبته لمراحل الاوضاع في الجزائر :

ومن الرسالة نفسها نعلم ان موقف باشا الجزائر واتراكها من ثورة الناصر كان عدم التأييد والمناصرة ، حيث رفض الباشا الاستجابة لطلب المساعدة الذى تقدم به اليه رسل الناصر ، وأوعز الى اتراك تلمسان ((بسد باب القبول في وجهه وعدم اسلام الجيش الى الالتفات اليه ، والالتفاف عليه ...)) (٢) ، وبعث رسوله الى المنصور ليعرض عليه مساعدته العسكرية ان احتاج اليها . وكان السلطان السعدى خائفا من تطورات هذه الثورة كما يقدم الاتراك على تقديم المساعدة له فاتخذ لها كافة احتياطاته بل انه اتصل بأمير كوكو عمار بن القاضي بهدف التحالف معه ضد اتراك الجزائر (٣) . ولما جاء رسول باشا الجزائر رحب به وسر لهذا التطور الجديد ، واثنى على مواقف الباشا الودية هذه ، فخاطبه قائلا : ((فذلك هو المظنون بمنائكم المكين ، والمعتقد في عهدكم الوثيق المتين ، وودادكم الواضح المبين ، وكيف لا وانتم من اوليائنا المخلصين ، واحبائنا الذين تشد عليهم يد الظنين . ولسنا نشك في ان كل مايسوءنا ولو كان اضعف مثل هذا من خيط العنكبوت لا تساعد عليه محبتكم الراسخة القواعد ...)) (٤) . وفي مكان آخر من الرسالة قال : ((ان هذه الدار وتلكم واحدة وعلى الاتحاد والامتزاج بحول الله في كل حال متعاضده ...)) (٥) .

ونعلم كذلك من نفس الرسالة ان المنصور تحاشى ملاحقة الناصر الى ماوراء الحدود الشرقية المغربية قبل ان يستأذن من اتراك الجزائر ، وفي هذا دليل على حرص المنصور من جهته على عدم اتيان اعمال تعرض علاقات حسن الجوار بين الجزائر والمنصور . ((فلما رأيناه تقاصر عنكم ، لم نرد اقتحامه الا بعد مفاوضتكم واعلام مكانكم ...)) (٦) .

ونتيجة لعدم تدخل اتراك الجزائر ضد المنصور بمناسبة ثورة الناصر ، وعدم استغلال المنصور الظروف الصعبة التي كان يعاني منها الاتراك العثمانيون في الجزائر في اواخر عهد سواء بسبب

---

(١) انظر حول الثورة : الحياة السياسية في المغرب
(٢) من رسالة المنصور الى خضر باشا ، انظرها في المرجع السابق ص ٢٥٧ . (رسائل سعدية) لكنون
(٣) انظر بوبي ، اسبانيا وكوكو في المرجع السابق ص ٣٠
(٤) من رسالة المنصور الى خضر باشا في رسائل سعدية لكنون ص ٢٥٨-٢٥٩
(٥) نفسه : ص ٢٦٠
(٦) نفسه .

نزاع الداخلي بين طوائف الجند الانكشارى والطوائف والرياس ، او الثورات التي قامت ضدهم ،
لاسيما ثورة بلاد القبائل/، استمرت الحال قائمة بين الطرفين السعدى والجزائرى العثماني، سلمية للتدخل ضدهم
ودية ، يتظاهر كل منهما بالاستعداد لمساعدة الآخر في التغلب على مايواجهه من الصعوبات .
على غرار ماابداه خضر باشا من استعداد لمساعدة المنصور في القضاء على ثورة الناصر ، ابدى المنصور
من جهته استعداده لمساعدة باشا الجزائر على مواجهة خطر حملة اسبانية كانت محتملة في اواخر
القرن السادس عشر، بعد التقارب الذى حصل بين امير كوكو عمار بن القاضي وفيليب الثاني في
سنة ١٥٩٨م[1] قائلا في رسالته الجوابية الى باشا الجزائر الذى اخطره بهذا التقارب ومخاوفه
من نتائجه : ((... ثم اعلموا انه ان آنستم من جانب الكفرة دمرهم الله حركة تنشأ او استطالوا بحرم
حميتكم ويخشى ، واحتجتم الينا فنحن بحمد الله بأنفسنا واموالنا واجنادنا موجودون لنصرتكم
على اتم اهبة واستعداد ، واحتفال ، لا يزال لنكاية الكفر بعون الله بالمرصاد ، وآذاننا صاغية
لدعائكم ، ومجيب صوت مناديكم ، ومتى ناديتم واغثنا بعون الله بعساكرنا المظفرة بالله خيولا
وانصارا ، واسودا للجهاد تزأر في ذات الله نهارا ، فان كلمة الله الاسلام في النصرة على اعداء الدين
واحدة ، وعلى ارغام انوف المشركين بحول الله متعاضدة ...)) .[2]

ولكن اتراك الجزائر لم يستعينوا به سواء لمواجهة حملة دوريا على الجزائر في سنة ١٦٠١ ،[3]
على الرغم من علمهم بالاعداد لها ، وبخبرها قبل قيامها ، او للقضاء على ثورة القبائل التي هددت
الحكم العثماني في الجزائر في اواخر القرن السادس عشر ، ومطلع السابع عشر ، وحاصر الثائرون العاصمة
بضعة ايام ، وعاثوا فيها جوارها .[4]

والاتراك بموقفهم هذا شبيهون بموقف المنصور الذى لم يستعن بهم ايضا لاخماد ثورة الناصر
او القضاء على هذا الاخير ، او لشن حرب على الاسبان الذين اثاروه عليه . وقد كان المنصور ناقما
على هؤلاء الاخيرين، راغبا في الانتقام منهم ، واخذ يعد العدة لذلك ، ولكنه لم يجرؤ على محاربتهم
وحده ، ولم يرغب في التعاون مع الاتراك بل رغب في التعاون مع اليزابيث ملكة انكلترا . فبعث اليها
في سنة ١٦٠٠ سفارة لتعرض عليها القيام بحملة مشتركة على الاسبان في مراكزهم في المغرب

---

[1] ...وي : المرجع السابق ص ٣٠ (حول التقارب بين كوكو واسبانيا).
[2] ...سائل سعدية : لعبد الله كنون ص ١٤٤
[3] ...حول هذه الحملة دوغرامون المرجع السابق، ص ١٤١
[4] ...ـه : ص ١٤٠

... وعرفت تردده اعتذرت عن
... مقر دارهم ولكن ملكة انكلترا التي اخبرته في قضية دون انطونيو ... في البندقية واما الفكرة
... عرضه لاعتقادها ان شن حرب على الاسبان يعني ان تكون في ...
... هذه الاخيرة يحصلون على مصادر ... في اسبانيا . وابدى المنصور اهتماما بالفكرة ، [1]
... بينه وبين اليزابيت مذاكرات خلال سنتي ١٦٠٠ و ١٦٠١ لكنها باءت بالفشل في النهاية .
... المنصور يعتقد انه بالامكان ... مسلمي المشرق الى التحالف ، ولعله لهذا الغرض طلب
... اليزابيت ان تنقل على سفنها بعثة مغربية الى حلب .

وفي الوثائق الانكليزية رسالة من المنصور الى اليزابيت بتاريخ ١٢ رمضان سنة ١٠٠٨ / ٢٧/ ٣
١٦٠٠ حملتها الى هذه الاخيرة السفارة المغربية التي توجهت الى انكلترا في صيف عام ١٦٠٠
... فيها : ((انه يرد على مملكتك خدامنا ، حملة هذا الكتاب الكريم ، الذين وجهناهم الى
... حلب لقضاء بعض مآربنا مما عنّ لنا من اغراضنا ، وقد اخترنا مرورهم على بلادك للمحبة التي
... بيننا ... والصداقة التي تقررت بين جانبنا وجانبك ..)) . [2]

وفيها طلب من الملكة اليزابيت ان تتوسط في نقلهم على متن سفن بلادها المتوجهة الى حلب ،
... تحملهم كتابا توصي فيه تجار بلادها باعادتهم الى المغرب على متن سفنهم بعد استيفاء ...
... اغراضهم .

اما هذه المآرب والاغراض التي كان المنصور يريد قضاءها في حلب فلم يفصح عنها مما
... مجالا للاحتمالات العديدة حول اغراضه : ١ ـ سياسية : كالتعرف على الاوضاع التي كانت
... سائدة هناك في تلك الفترة ، وكانت اوضاعا مضطربة [3] واستغلالها في الدعوة لنفسه هناك ،
واقناع رؤساء الثائرين بالاعتراف به خليفة ؟ [4]

وقد كان المنصور يوجه دعاة الى المشرق العربي ، ولا سيما الى مصر في شكل طلاب علم ،
او تجار ، او حجاج ، ليقوموا بالدعوة له ، والتعريف به ، واكتساب انصار وموالين له ، ومن اشهر
... مولاي ابو العباس احمد بن القاضي ، صاحب كتاب المنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور [5]
... واصبح له في مصر دعاة من المصريين من بين الاسر العلمية كأسرة البكري [6] والقرافي [7]

... انظر رسالة المنصور الجوابية عن مذكرة اليزابيت في ... انكلترا جزء ٢ ص ٢٠٤
انظر الرسالة بالعربية في مجلة تداول عدد / ٨ / ص ٧٩
كان الانكشاريون يعيثون فسادا في حلب وقراها وتمكن منهم واليها نصوح باشا وحسين
باشا جانبولاد . ثم عين هذا الاخير واليا على حلب ووقع في صراع مع نصوح باشا قامت اثناءه حلب
الامرين ، وانتهى الامر بقتل حسين باشا عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م . ثم ثورة ابن اخيه على جانبولاد .
انظر خلاصة الاثر للمحبي جزء ٢ ص ٨٤ ـ ٨٧ وص ٢٢٢ ـ ٢٢٤ وجزء ٣ ص ١٣٥ / ١٤٠ وجزء ٤
ص ٤٤٨ ـ ٤٥١ .
انظر ابن تاويت ، من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تداول عدد ٨ ص ٨٨ هامش ٦٧
مخطوط رقم 1153 (الخزانة الوطنية بالرباط)
(٧) الفشتالي المرجع السابق ص 189 ، 272

ولعله كان له في حلب ايضا دعاة من اهل البلاد ، ولاسيما من الاشراف هناك الذين كان لهم نفوذهم وسطوتهم في المدينة .

واذا صح هذا الاحتمال فيكون غرض المنصور هو مناوأة السلطان العثماني ، وانتهاز ظروفه الصعبة لا تجارية ، ومما يدفع الى هذا الاحتمال ماورد في رسالة جون طومسن الى انجلترا المعاصرة للسفارة المغربية المذكورة ، التي عرف فيها بأعضائها الاربعة ، فقد ذكر ان الحاج ميسا (كذا) والحاج بهنيت (كذا) هما ، كما يقال هنا (في المغرب) كتاجرين ليتاجرا في بعض الجهات (حلب) .. وقد احتفظ هنا بسرية ذلك بحيث انه لايدري احد ماهي البلاد التي سيتوجهون اليها . واكد على دور هذين الشخصين التجاري في مكان آخر من رسالته قائلا، (1) ((والشيخ السيد العلي ، والحاج الآخر اللذان سيذهبان للاتجار في بعض الجهات سيتسلمان هناك كثيرا من الاموال للسيد حميدن (كذا) وفلدا موستوثلي وهو المال الذي يعود عليهم كحصص لهم في الصفقة التي اجروها مع الملك (((2) .

وقد كانت حلب احدى المراكز التجارية الهامة في المشرق العربي في هذه الفترة ، فلا يستبعد ان يكون المنصور قد رغب في الحصول على بعض الهضائع من هذا المركز الهام او ربط علاقات تجارية مع تجارهــــا .

اما موقف الملكة اليزابيث من طلب المنصور المتعلق بارسال مبعوثيه الى حلب على متن سفن الشركة الشرقية التابعة لبلادها ، فكان الاعتذار عن تلبية طلبه لما في ذلك من اخطار (3) ولعله خشية من ان يؤدى ارسالهم الى اثارة غضب السلطان العثماني ، ولكنها تكفلت باعادتهم الى المغرب . وقبل المنصور اعتذارها (4)

وقد كان رسل هذا الاخير الى الدولة العثمانية يستقلون عادة السفن العثمانية في ذهابهم وايابهم ، الامر الذى يجعل ارسالهم على متن سفن بلدان اخرى مثيرا للشكوك ولاسيما السـ ـ علاقة كانت مضطربــــة .

ولا شك ان الهدوء والاطمئنان الذى نعم به المنصور في داخل مملكته بعد نجاحه في القضاء على ثورة الناصر في ماى سنة ١٥٩٦ ، طوال عدة سنين هو الذى اتاح له الفرصة للتفكير في التدخل بشكل أو آخر ضد الاسبان ، وفي استغلال الظروف الصعبة للسلطان العثماني على النحو الذى

(٢) من رسالة طمسن الى ريتشارد . انظرها مترجمة الى العربية في مجلة تطوان عدد / ٨/ ص ٥٠-٥٢
(٣) م.ت.م انجلترا ، جزء ٢ ، ص ١٨٦ ، ١٩٢ .
(٤) نفســـه ، ص ٢٠٤

تقدمت الاشارة اليه،ولكن هذا الهدوء ، وهذا الاطمئنان قد اضطرب، واعقبه قلق وانزعاج، بعد ان لاحظ المنصور ابنه وولي عهده محمدا الشيخ ينجذب نحو الاتراك، ويقرب القبائل المعروفة بولائها لهؤلاء ، ويتخذ منها الجند والمستشارين ، مما عده تطورا خطيرا يهدد مملكته نصا يتجلى ذلك من رسالته الى ولي عهده المذكور :

((والذى شق علينا اعظم من هذا كله ، واستنكرناه ، ولم نجد صبرا عليه هو ما وجدناه قد اطلع عليه اولاد طلحة ... في اخبارهم والفيناه قد توصلوا من ذلك مالم يتوصل اليه والله احد من تبار خدامهم اهل بلادنا وخواص اهل بساطنا لأن أهل بلادنا احياء مالهم بحث الا في مصالح انفسهم ، وهؤلاء انما يبحثون على القوة وعورة المملكة ، فاذا بكم تستخدمونهم بطائفة واحدة ، وتطلعونهم على اموركم واحوالكم مع ان القوم مازالوا ببلاد العدو (كذا) وبين اظهره وانما الذى يطلعونه تعالى ، نقدايل وغدائر فان الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا عليه بانفسهم ..)) (1)

ويتضح من هذه الفقرة انه كان لايزال يخشى اتراك الجزائر ولا يأمنهم ، على الرغم من ان هؤلاء كانوا في هذه الفترة يعانون ظروفا صعبة من غزو الاسبان ، وثورة القبايل ، والنزاع بين طوائف الجند ، وعقد الباشاوات بعضهم على بعض ، مما لم يكن يسمح لهم بالتدخل في المغرب لدعم هذا او ذاك من الثائرين او المتمردين على المنصور .

فكيف كان تصرف المنصور لمجابهة موقف ولده ؟ ، لقد سعى الى التقرب من جديد من الحليف التقليدي ملك اسبانيا فيليب الثالث في وجه مخاطر الاتراك العثمانيين ، فعقد معه تحالفا في اوت 1602 متعللا بذلك عن رغبته في توجيه ضربة مضادة للاسبان الذين ازعجوه بمولاى الناصر (2) سنة 1595 ، ثم اقدم بعد ذلك على مهاجمة ولده في فاس ، وحسب الافراني فان محمدا الشيخ (3) هدد والده ان هو تعرض اليه بالتوجه في اصحابه الى تلمسان واللجوء الى اتراكها ، مما جعل المنصور يتراجع عن مهاجمته ، ويعمل على طمأنته ، ولما تحقق له ذلك فاجأه بهجوم سريع فلم يتمكن من تنظيم مقاومته في فاس ، او الفرار الى تلمسان كما هدد من قبل ولكن ما استطاعه هو الخروج من فاس واللحاق بزاوية ابي الشتاء ، وهناك تم القبض عليه بعد مقاومة بسيطة واقتيد

---

1) الافراني ، النزهة ص 175
2) [illegible] فرنسا جزء 2 ص 218
3) الافراني ، المرجع السابق ص 180

الى سجن مكناسة (١) .

وقد حرص المنصور على اخطار باشا الجزائر فور القضاء على تمرد ولده ، مشيرا الى سبب ترحيله الى فاس بقوله : ((ثم بعد يعلمكم ان سبب اقبال مقامنا .. هو استشعارنا من ولدنا (يعني) الشيخ وحشته اختلجت بضميره ... ناقبلنا لجلاء كسوفها عن باله وغيمها وارسال ترياق الحزم الناجع على ايمها ، فلما قرب ركابنا العلي من هذه البلاد خف لنا عن فاس ومن معه من الاجناد ، ومر مقاصدها في ستة نفر الى رابطة المرابط ابي الشتاء ايذانا لمقامنا العلي بالطاعة والمبرنا الكريم بيد الاستطاعة ، فترحم نا عنه فوصل وانتظم به والحمد لله الشمل وانحسم زوال عنه بحمد الله كل ماكان سبب الوحشة من الهواجس الملمة والخواطر المدلهمة)) (٢) .

اما رد فعل اتراك الجزائر وباشاها فنتلمسه من خلال رسالة المنصور الجوابية الى سليمان باشا الجزائر : ((هذا وانه اتصل بحلي مقامنا كتابكم ... فتعرفنا منه ماقررتم من سروركم المتضاعف لما بلغكم من جمع الشمل بولدنا ... وقرر ماكان من عزمكم لاول مابلغكم هذا الطارئ على النهب الى علي مقامنا بالاستعداد وبمقابلة جانب ولدنا بوجه الصفح وجميل الاحالة)) (٣)

وهكذا طغت المجاملات على المراسلات بين المنصور والاتراك العثمانيين في حين ان كل جانب كان لايطمئن الى الجانب الآخر ، فالمنصور كان دوما متخوفا من الاتراك العثمانيين ، حتى بعد تغيير نظام الحكم في الجزائر ، وما تبعه من تدهور في اوضاع ايالة الجزائر . والاتراك في الجزائر كانوا يخشون استغلال المنصور لظروفهم السيئة ، ولا يطمئنون الى اقواله ، ونتيجة لذلك لم تزد العلاقات في احسن الظروف عن تقديم عروض للتعاون في مناسبات معينة ، ولم ترق ابدا الى تلاحم او تعاون حقيقي ، كما كان ينتظر ان يحصل .

ولعل ماميز العلاقات بين المنصور والاتراك في عهد مابعد البايلربايات هو اتجاههما نحو السلم وحسن الجوار وتبادل الاخبار بما يجري في البلدين . فهل استمرت كذلك في عهد ابناء المنصور ؟ .

---

١) الافراني : المرجع السابق ص ١٨٠

٢) انظر نص رسالة المنصور في رسائل سعدية لعبد الله كنون ص ١٦٧

٣) انظر نص رسالة المنصور في المرجع السابق ص ١٨٥

ثانيا : العلاقات بين حكام الجزائر الباشاوات وحكام المغرب بعد المنصور:
1012 ـ 1069 هـ/ 1603 ـ 1659 م

دخل المغرب بعد موت المنصور في مرحلة جديدة (1603 ـ 1659 م) ، تميزت بالاضطراب والتجزؤ الى مملكتين ثم الى عدة وحدات سياسية ، وتجدد اطماع القوى الخارجية فيه ، مع ازدياد عددها ، الى جانب اجتياح الاوبئة والكوارث بين فترة واخرى (١) .

اما الجزائر في هذه المرحلة فقد استمرت الاوضاع فيها مضطربة بصفة عامة نتيجة التنافس الذي كان بين الجند الانكشاري وطائفة الرياس ، والكراغلة ، وعجز الباشاوات عن الامساك بزمام الامور ، وقيام ثورات ، ولا سيما في بلاد القبائل ، وتجدد الغزو الخارجي للشواطئ والمدن الساحلية ولكن اضطراب الاوضاع في الجزائر بصفة عامة لم يحل دون توسع نشاط الغزو البحري وازدهاره في هذه الفترة (٢) .

واما الدولة العثمانية فقد مالت في هذه المرحلة الى الضعف اكثر فأكثر ، اذ لم يكن خلفاء محمد الثالث الذي توفي هو الآخر في سنة ١٦٠٣ على درجة كبيرة من القوة ، بل ان ابنه مصطفى وحفيده عثمان ، كانا العوبة في ايدي الانكشارية ، يولونهما ويعزلونهما متى شاؤوا . وكثر الثائرون على الدولة من الداخل ، وتجدد صراع الدولة العثمانية مع الصفويين . وشعورها بضعفها جعلها تمضي صلحها مع النمسا قبلت فيه بالتنازل عن الجزية التي كانت تدفعها هذه الاخيرة لها . وقد خسرت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة عدة معارك بحرية امام مالطا ، وايطاليا ، ووقعت مع هولندا اتفاقية امتيازات تضاهي اتفاقية امتيازات فرنسا (٣) . فنهاية كانت العلاقات بين المغرب والجزائر في هذه الفترة ١٦٠٣ ـ ١٦٥٩ ، وهذه المرحلة المضطربة من تاريخ البلدين وتاريخ الدولة العثمانية ؟

تقدمت الاشارة الى ان الدولة العثمانية قد مالت منذ اواخر عهد السلطان مراد الثالث الى مسالمة المغرب ومهادنته ، والى ان باشاوات الجزائر الذين كانوا يعينون لفترة ثلاث سنوات فقط ثم يستبدلون ـ وكثيرون منهم عزلوا او قتلوا قبل انقضاء الفترة المحددة لهم ـ لم تكن لهم سياسات واضحة بعيدة المدى ، لضم المغرب . ولم تكن لديهم القوة الكافية ولا السلطة للتدخل المباشر فيه كما كان عليه الامر في عهد البايلربايات . ومن ثم كان هم الباشاوات في احسن الظروف هو الحفاظ على الجزائر كما ورثوها عن البايلربايات . بل انهم في اواخر هذه الفترة قد عجزوا حتى

(١) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر .
(٣) انظر عن اوضاع ... الدولة في هذه الفترة مجموعة المؤلفين السابق جزء ... ص ٥٣ - ٥٤ . وعلي حسون تاريخ الدولة العثمانية ص ٨٦ ـ ٩٢

عن المحافظة على حدود الجزائر الغربية كما كانت في عهد اسلافهم البايلربايات • وتقدمت الاشارة منذ قليل الى ان المغرب تجزأ واضطرب بعد المنصور مما لم يكن ليسمح لحكامه بدورهم بالتدخل في الجزائر • ولذلك فقد كانت العلاقات في العقود الخمسة الاولى من الفترة موضوع الدرس ذات طابع سلمي • اما العقد السادس منها فقد شهد كما سنرى تجدد النزاع بين الجزائر والمغرب ، واطماع المغاربة في الغرب الجزائري • وذلك عندما ظهرت في المغرب منذ العقد الخامس من القرن السابع عشر اسرة شريفية جديدة وقوية تمكنت من اخراج المغرب من ضعفه في العقود التالية •

والجدير بالملاحظة قبل الدخول في تفاصيل العلاقات في هذه الفترة ان الوثائق المنشورة والمتوافرة عن النشاط الدبلوماسي بين البلدين ، وبين المغرب والدولة العثمانية قليلة ، وقد يعلل ذلك بأن النشاط الدبلوماسي لم يكن في مثل مستوى المرحلة السابقة ، او ان تلك الوثائق مفقودة او لم توجد لاضطراب الاوضاع في البلدين آنذاك • واذا استثنينا التعاون الذي كان قائما بين غزاة البحر الجزائريين والسلاويين والتطاونيين ، فان العقود الاربعة الاولى من القرن السابع عشر لم تشهد تعاونا حقيقيا ونزيها بين حكام المغرب والجزائر ، للتغلب على الصعوبات التي كانت تواجههم ولعل ذلك لا يعود فقط الى الظروف الصعبة التي كان البلدان يعيشانها في هذه الفترة ، ولكن ايضا الى استمرار الحكام المغاربة ، ولاسيما السعديين منهم في حذرهم من التعاون مع الاتراك العثمانيين ، وميلهم الى التعاون مع القوى الخارجية الاخرى ، كالانكليز والهولنديين على الخصوص كما قد يعود الى حرص الاتراك العثمانيين على عدم تغلب المغرب على مشاكله التي كان يتخبط فيها ، ليبقى حكامه منشغلين بها ، بل انهم كانوا يعملون على بقائه مجزأ مضطربا ، لتحريضهم هذا على الثورة ، ومساندتهم لذلك على الاستقلال ، دفعا لما يتقى من اخطار قوة المغرب ، وحكامه عليهم في وقت كانوا هم فيه ضعافا •

ولعل في رصد مواقف اتراك الجزائر وحكام المغرب السعديين وغيرهم واستطلاع دوافعهم مايوضح بشكل جلي ، طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الطرفين في هذه الفترة •

ويمكن ان تصنف تلك العلاقات في الفترات التالية :

١ـ العلاقات مع ابناء المنصور •
٢ـ العلاقات مع القوى السياسية الاخرى غير السعدية في المغرب •
٣ـ العلاقات مع احفاد المنصور •
٤ـ العلاقات مع الاشراف العلويين •

ا ـ العلاقات مع ابناء المنصور :

لما توفي المنصور في ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م تنافس ابناؤه الثلاثة : زيدان وابو فارس ومحمد الشيخ وابن هذا الاخير على الملك . ولما انهزم زيدان في المعركة الاولى التي جرت بينه وبين عبد الملك بن ابي فارس ، واخيه محمد الشيخ في مطلع الشهر الاول من سنة ١٦٠٤ بتسادلا ، ولاحقه الجيش المنتصر الى فاس قصد تلمسان ليستعين بترك الجزائر (١) واقام بها بضعة اشهر (٢) فكيف كان موقف الاتراك منه ؟ . اجاب زيدان نفسه على هذا التساؤل في رسالته الموجهة الى منافسه يحيى الحاحي (٣) حيث قال : ((.. فاعلم ان اهل المغرب لما تمالؤوا علىّ ، وخرجت المشرق ، والتقيت بالترك والاروام ، والسودان والمستعربين وخاطبتهم ، منهم مشافهة ومنهم مراسلة ، وكنت ايام مقامي بارضهم ، مقامي على سرير ملكي . لأن كبيرهم وصغيرهم ، رئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ، ويمد كف رغبته لنعمتي ، ورأسيت الجميع عطاء مترفا مع قلة الــزاد والذخيرة ، وترفعت عن مراسلات الاماثل والاكابر من العجم والعرب . ولا ركنت لاحد بحيث تجودت بما قدرت عليه من الاخبية ، حتى جعلت محلة برواتها وخيلها فتراموا علىّ (كذا) العجم بالرغبة وسدوا اكف الضراعة في المقام عندهم والدخول في جملتهم ، وعرضوا علىّ الاقطاع السنيه والبلادات الملوكية ، بلد ف... تان واد ... حتى قال السلطان مراد رئيس المجاهدين ، وما مثلك يكون مع العرب ، فانحن نخدمك بأموالنا وانفسنا ، وما لنا من السفن حيث اردت واحببت ، ولا انفصلت عنهم حتى كتبت لهم بذاني اني تحمل اهلي وحاشيتي وارتاح اليهم الا إن تعذر لي الدخول في الملك والظهور على البلاد او بعضها ، وقد قفلت من عندهم ولم يتعلق ثوب عفافي ما يشينه معهم ولا مع العرب ...)) (٣) .

فما قاله زيدان ندرك ان الاتراك قد رحبوا به كما رحبوا من قبل بعميه عبد الملك وعبد المومن ووالده احمد المنصور ، وحثوه على البقاء عندهم واغروه بالاقطاع ، ولا شك ان قصدهم من وراء ذلك هو اتخاذ ورقة يلوحون بها في وجه امرائه في المغرب ، يستغلونها حين تسنح لهم الفرصة وتواتيهم ظروفهم ، ولذلك فهم لم يسمحوا له بالعودة الى المغرب الا بعد ان تعهد لهم خطيا بالرجوع اليهم . وتظاهروا باستعدادهم لمساعدته قدر الامكان ، فهل كانت ظروفهم في الجزائر

---

(١) الافراني ، النزهة ص ١٩٣ ، رسالة ر . و . س . الى روبيرت كوتنجتن في مجلة تداول عدد ٩ ص ٩٠ / وفي رواية اخرى فرنسا والجزائر . انظر م . ت . ا . انكلترا جزء ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٣ - ٢٤٤

(٢) ر . و . س في المكان نفسه ص ٩١ وفيه اقام (... بتلمسان) .

(٣) انظر رسالته في الافراني ، النزهة ص ٢٢٠ - ٢٢٣ .

تمنح لهم حقا بتقديم المساعدة اللازمة له ، او التدخل معه بشكل مباشر في المغرب ، كما فعلوا من قبل مع ابي حسون الوطاسي ، او مع عبد الملك السعدي في عهد البايلرباي ؟ وماذا قدموا له في نهاية المطاف لدى عودته الى المغرب ؟ .

لقد كان الكراغلة ابناء الاتراك من الجزائريات ، والزواويون سكان بلاد القبائل الكبرى في عداء شديد مع الانكشاريين في الجزائر ، وهؤلاء في تنافس مع طائفة الرياس ، وحكومة الجزائر في عداء مع الحكومة الفرنسية بسبب المراكز التجارية التي اقامتها هذه الاخيرة بقيادة خضر باشا في عداء مع الحكومة الفرنسية بسبب المراكز التجارية التي اقامتها هذه الاخيرة على الشواطئ الشرقية للجزائر ، مما جعل الباب العالي يتدخل لعزل الباشا المذكور والتخلص منه بتحريض من فرنسا (1)

ولذلك فانه لم يكن بالامكان تقديم مساعدة هامة لزيدان ، اضف الى ذلك ان ابا فارس بعث في نفس السنة ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م التي التجأ فيها زيدان الى الاتراك هدية ثمينة ، تتألف من ٣٠٠ر٠٠٠ / اوقيه ذهبية الى السلطان العثماني ردا على السفارة التي وجهها (2) هذا الاخير (محمد الثالث) الى المنصور لوفاة الهدية هذا الاخير قبل ان تصل اليه . كما ان ابا فاس كان لايزال على درجة كبيرة من القوة لاتشجع على التدخل في المغرب والمغامرة بحملة ضده . (3)

وتذكر المصادر ان زيدان انتظر دون جدوى مساعدة الاتراك له حتى يئس ، وانه حين عودته الى (4) المغرب ، ودخوله الى سجلماسه ، لم يكن معه سوى / ١٢٠٠ / من الفرسان من عرب العشائر ، وبعض الاتراك ترد د من بينهم اسم القائد مصطفى باشا ..

وبتلك القوة الصغيرة اشعل زيدان نار الصراع بينه وبين اخيه ابي فارس بالدخول عنوة الى تافيلالت ، ثم التقدم منها الى السوس ، كما انه اذكى اوار ذلك الصراع ايضا بينه وبين اخيه محمد الشيخ ، وابنه عبد الله (5) وهو الصراع الذي استمر دون هوادة نحو عشر سنوات فاضعف المغرب وانهكه ، والذي ما كاد ينتهي حتى تفتت المغرب الى وحدات سياسية صغيرة عديدة متنافسة متناحرة ، فأمن اتراك الجزائر بذلك على حدود هم الغربية خمسة عقود اخرى .

---

1) فصل الحياة السياسية في الجزائر ... د وغرامون ، المرجع السابق ص ١٤٥ـ١٤٧
2) شانتال دو لا فيرون ، العلاقات ... في المرجع السابق ص ٢٦٨
3) الافراني ، المرجع السابق ص ١٩٢
4) رسالة د و س في المرجع السابق ص ١٩١ (لم يذكر ما هي هذه العشائر ولعلها عشائر الشراقة انظر ر و س المرجع نفسه ص ١٠٧
5) انظر تفاصيل هذا الصراع في فصل الحياة السياسية في المغرب

وفي معظم الصراع الذى قام بين ابناء المنصور توجهت انظار بعض القبائل الى مولاى اسماعيل بن عبد الملك، الذى كان في تركيا ، فاتصلت به ، فتحرك نحو المغرب . وفي ١٨ نوفمبر ١٦٠٤ ، كان قد وصل الى زانتة ، ولكنه لم يصل الى المغرب ، ولم يشر اى مصدر الى اشتراكه (١) في الصراع على السلطة في هذه الفترة .

وذكر زيدان في رسالته السالفة الذكر ان الاتراك بعثوا الى السوس البولكباشي مصطفى صولاق رسولا اليه ، راغبين انجاز الوعد ، ولكنه آثر البقاء في المغرب على الرجوع اليهم ، وانه اعاد الرسول المذكور الى مرسليه ، وبعث معه من عنده رسولا اليهم ، محملا بتحف وامواك (٢). وفي اثناء هذه الاتصالات بين زيدان والاتراك استقبل ابو فارس في اكتوبر ١٦٠٥ بمغارة نهيرة ، انطوني شيرلي (Anthoney Sherley) الانكليزي (٣)، الذى كان في خدمة القوى المعادية للدولة العثمانية كالشاه عباس الصفوى ، وامبراطور المانيا ، وملك اسبانيا ، ويسعى الى تحقيق تعاون بين عناصر القوى المعادية لضرب الدولة العثمانية (٤).

وحسب وثيقة معاصرة هي رسالة من أ. دوليسل (A. DELISLE) الى مستشار الدولة الفرنسية بتاريخ ٢٠ رمضان ١٠١٤ هـ / ٢٩/١/١٦٠٦ م ، فاننا نعلم ان شيرلي قد جاء الى المغرب مبعوثا من قبل الامبراطور رودولف الثاني) محملا بهدايا كثيرة ، وفي طريقه الى المغرب مر على اسبانيا ، وانه اجرى مفاوضات مطولة مع ابي فارس خلال اقامته في مراكش (٥) وحسب الوثيقة المذكورة فان شيرلي تقدم من قبل ملك اسبانيا بعرض التحالف بينه وبين ابي فارس لشن الحرب على الاتراك في شمال افريقيا ، ولطردهم من قواعدهم فيها كتلمسان ، والجزائر ، وعنابة ، وبنزرت . وباختصار من كل المراكز البحرية .. على اساس ان يكون الساحل كله للملك الاسباني ، والمناطق الداخلية للملك المغربي (٦).

وواضح ان هذا المشروع قديم ، فقد كان موضوع التفاوض بين الاسبان وعبد الملك في عهد فيليب الثاني ، وحسب (ر و .س) فان محادثات شيرلي مع ابي فارس كانت ايضا تدور (٧) حول امكان مساندة ابي فارس ، ومساعدته في المحافظة على ملكه ضد اخويه محمد الشيخ وزيدان

---

١) ر. و .س . انكلترا جزء اول ص ١٥٤ هامش ٢
٢) انظر رسالة زيدان في النزهة للافراني ص ٢٤٢
٣) انظر حول استقبال انطوني شيرلي رسالة (ر و .س) في المرجع السابق ص ٩٦ ــ ٩٧
٤) (٦) ر و س ، فرنسا جزء ٢ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢
٥) رسالة (ر و .س) في المرجع السابق ص ٢٩٥ (اقام في آسفي ٤ اشهر وفي مراكش ٥ اشهر
٧) نفسه : ص ١٨ .

ا اسفرت عنه سفارة شيرلي ؟ .

لا يبدو ان ابا فارس الذي قال عنه شيرلي في رسالته الى الكاتب الخاص للامبراطور :
بيتيوس (BARVITIUS) بتاريخ ١٠/ ١٢/ ١٦٠٥ (انه يتخوف من الاتراك ، وليس له
في الاسبان ...) ، قد استجاب لعرض شيرلي ، او انجر الى امضاء اي اتفاق ضد الدولة (١)
عثمانية ، وبالتالي فان شيرلي قد اخفق في مهمته ، ولم يحصل على شيء سوى افتداء نبيلين
تاليين بـ ٠٠٠ر١٥٠ / اوقية او مايعادل عشرة آلاف جنيه استرليني (٢) ، وغادر المغرب الى
بانيا سنة ١٦٠٦ في الوقت الذي جاء فيه الى المغرب سفير هانري الرابع الملك الفرنسي ملاحظا
اعي الامبراطور الالماني والملك الاسباني (٣) ، ولم يعد اليه الا بعد اربع سنوات . وهذه المرة
ن ضمن الحملة الاسبانية التي احتلت العرائش في سنة ١٠١٩ / ١٦١٠ (٤) .

ويستنتج من رفض ابي فارس التحالف ضد الاتراك ، ان همه الوحيد كان الحفاظ على مملكته ،
التآمر ، والتوسع الى ماجاورها ، والدخول في تحالفات قبل ان يستقر له الامر تماما في المغرب .
بعد شهور قليلة من مغادرة انطوني شيرلي المغرب ، هاجم محمد الشيخ اخاه ابا فارس
مساعدة ابنه عبد الله ، وتمكن هذا الاخير من الانتصار على عمه ، في المعركة التي دارت بينهما على
ربة من مراكش في ٧ شعبان ١٠١٥ هـ / ٨ / ١٢/ ١٦٠٦ م ، واضطر ابو فارس الى الفرار نحو
جبال ، تاركا مدينة مراكش قاعدة ملكه (٥) . ولم تمض سوى شهور قليلة على دخول عبد الله مراكش (٦)
يثه فيها ، حتى تمكن زيدان من انتزاعها منه في ابريل سنة ١٦٠٧ ، بعد معركة عنيفة (٦) ثم
والت انتصارات زيدان وهزائمه امام عبد الله دون ان يتدخل الاتراك بشكل مباشر في هذا الصراع
الا ان تمرد فرقة الشراقة على زيدان في اعقاب انهزامه امام عبد الله في واقعة تهنلفلست
، اكتوبر ١٦٠٧ ، واغتيالهم لاحد قادته البارزين ، وانتقام زيدان منهم شر انتقام حيث قتل (٧)
الكثير منهم في مراكش ، واستباحتهم ، واستباح اماكنهم ، ولم يترك واحدا منهم مدة ثلاثة اشهر ،
يدفعـــــــــع الى الاعتقاد بانه ربما كان بتأثير خارجي ، والى احتمال ان يكون الاتراك منهم
الذين حرضوهم عليه ، اما لأن زيدان لم يف بما تعهد لهم به حين كان لاجئا عندهم او لرغبتهم

م عنهم انظر انلترا جزء ٢ ص ٢٧٥ ، وانظر حول سفارة شيرلي مقالة عبد الهادي التازي : سفارة
شيرلي الى المغرب / في / المناهل عدد ٩ المغرب ١٩٧٧ ص ٩٤ وما يليها .
رسالة (ر و ...) في المرجع السابق ص ٩٨
بن تاويت / من زوايا ... في مجلة تطوان عدد ٩ ص ٧٢
فسه ص . (٦) (٧) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب . ورسالة روس في المرجع السابق
ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٤ .

اثارة مزيد من الاضطرابات في المغرب، واملا في اضعافه حتى لاتتجه انظار منافسه الى الجزائر
التي كانت اوضاعها الداخلية غير مستقرة. وفي هذه السنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٧ على الخصوص
مات الباشا مصطفى القابجي بالطاعون الذي كان سائدا في الجزائر منذ ثلاث سنوات ،
تعرضت الشواطئ الجزائرية ولا سيما مدينة عنابة لحملة توسكانية خربتها ، وعاثت فيها وقتلت
واسرت كثيرا من سكانها (١) ، وشرع اميرنونو في اجراء مذاكرات مع الاسبان بشأن الهجوم على
الجزائر (٢). ومما يعزز الاعتقاد السابق، الذكر ان زيدان الذى انهزم ثانية امام عبدالله
في رجب ١٠١٦ هـ / نوفمبر ١٦٠٧ ، واضطر الى ترك مراكش لخصمه لم يلتجئ الى الاتراك وانما
الى السوس في جنوب المغرب، وظل هناك الى ان سنحت له الفرصة بعد بضعة شهور للعودة
الى مراكش في محرم ١٠١٧ هـ وافريل ١٦٠٨ (٣).

ولكن انتقال محمد الشيخ الى اسبانيا ، بعد نجاح زيدان في الدخول الى فاس في ذي
القعدة ١٠١٧ هـ / فيفري ١٦٠٩ م (٤) لطلب مساعدة فيليب الثالث له على استرجاع ملكه ،
وعدم تقديم الاتراك يد المساعدة لعبد الله وعمه ابي فارس اللذين التجآ الى دار ابن مشعل ،
في جبال بني يزناسن الواقعة في الحدود الجزائرية المغربية (٥) ، قد قربت من جديد فيما يبدو
بين زيدان والاتراك ، اذ تشير وثيقة معاصرة بتاريخ مدريد ٤ ربيع الثاني ١٠١٨ هـ / ٧/ ٧/ ١٦٠٩ م
الى قيام الاتراك في الجزائر بتحضيرات واستعدادات عسكرية ، واضاف كاتب الوثيقة وهي
رسالة من ديكارت (DESCARTES) والى (بويسيو (PUISIEU) مستشار الدولة بفرنسا قائلا :
((لاشك ان هذا الجيش التركي قد اعد بطلب من مولاى زيدان ، لما رأى اخاه محمد الشيخ
التجأ الى الاسبان، وعد ليحول دون مشروع مساعدته)) (٦).

فهل حصل تعاون حقيقي بين زيدان واتراك الجزائر لاحباط تعاون محمد الشيخ مع
الاسبان ؟ .

---

(١) انظر دوغرامون : المرجع السابق، ص ١٤٨ ، وفصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢) انظر حول هذه المذاكرات وثائق آرشيف سيمانكاس ، ١٠٢٥ ، وفصل الحياة السياسية في المغرب
(٣) رسالة (ر ٠ او ٠ س) في المرجع السابق، ص ١١٤ ، وكذلك رسالة ... ١٦٠٩ ، ومنذ هناك احد عشر شهرا تفاوض
كان انتقال محمد الشيخ الى اسبانيا في / ٤/ مارس ١٦٠٩ ... العرائش في مقابل تلك المساعدة
بخاصة بشأن مساعدة الاسبان له على اساس ان يسلم لهم العرائش في المرجع السابق، ص ٧٢ وما يليها ، وانظر
(٤) انظر مقال : ... جاندان : تسليم العرائش في المرجع السابق، ص ١٥٠ ، ايضا رسالة (ر ٠ و ٠ س) في المرجع السابق، ص ١٥٠ .
(5) Cenival (P. de): OP. CIT., t.5, P.168.
(٦) انظر نص الوثيقة في ... ، فرنسا الجزء الثاني ص ٤٥٥

ليس هناك مايدل على حصول تعاون بين زيدان واتراك الجزائر في هذه السنة ١٠١٨ هـ ١٦٠٩ م والسنوات القليلة التالية لها .

فالاستعدادات العسكرية التي كانت جارية في الجزائر كانت على ماتعني فيما بعد حصن لانفصال امير كوكو الذي استمر في مفاوضاته مع الاسبان بقصد القيام بهجوم على الجزائر، والمتصدى المجموعات الاخرى العبية على الجزائر سواء من قبل الاسبان او التوسكانيين . وقد قام هؤلاء الاخيرون فعلا في أوت جمادى الاولى ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م بالمرور امام الجزائر وهاجموا بلدة برشك الساحلية وحاميها فدمروا البلدة وقضوا على الحامية التركية فيها . وتبادلت في داريحق عودتها اطلاق النيران مع حامية تجبون . وفي نفس الفترة ابتدأ الزواويون سهول متيجة باطراف مدينة الجزائر فتحرك الباشا مصطفى اليهم وابعدهم عنها ولاحقهم الى معاقلهم ببلاد القبائل، واحتل كوكو وارغم اهلها على طلب الامان . ولكن السلم لم يدم طويلا .(١)

ولم يحصل زيدان على اي عون عسكري من الجزائر في هذه الفترة الامر الذي سمح لعبد الله ابن محمد الشيخ المؤيد من قبل قبائل الشراقة من استرداد فاس ربيع الثاني ١٠١٨ هـ / يوليه ١٦٠٩ م بعد شهور قليلة من احتلال زيدان لها . وفي الوقت نفسه لم يكن دون اقحام مشروع الاسبان مع محمد الشيخ . اذ عاد هذا الاخير في ذي القعدة ١٠١٨ هـ فبراير ١٦١٠ م الى المغرب بعد ان امضى اتفاقية مع الاسبان التزم فيها بتسليم العرائش لهم في مقابل مساعدة مادية (٢٠٠,٠٠٠) دوقات و ٦٠٠٠ بندقية سلمهم بالفعل المدينة المذكورة في رمضان ١٠١٩ هـ نوفمبر ١٦١٠ م . هذه المدينة ذات الميناء الممتاز التي كانوا دوما يحلمون باحتلالها وحاولوا بمختلف الوسائل الاستيلاء عليها فشلوا . وآخر محاولة لهم كانت في جمادى الثانية ١٠١٧ هـ / ١٦/ ٩/ ١٦٠٨ م وباءت بالفشل .(٢)

ويبدو ان عدم حصول زيدان على العون العسكري من الجزائر جعله يبحث عمن يمكنه ان يقدمه له من الدول الغربية . فبعث بسفرائه قبيل احتلال الاسبان للعرائش الى الاراضي الواطئة (٣) لاستئجار بعض رجال الحرب ولطلب بعض العتاد الذي يلزمه في محاربة الاسبان وغيرهم .

وكان قد اخذ ابتداء من سنة ١٦٠٧ على الاقل في الاتصال بملك انقلترا جيمس الاول وفي استخدام المرتزقة الانقليز في حروبه ابتداء من السنة المذكورة . وفي صيف ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م (٤)

(١) انظر حول الهجوم التوسكاني والزواوي ، د وفرامون المرجع السابق، ص ١٥٠
(٢) انظر مقال براندان في المرجع السابق وهامش ١٥٠ ص ١٩١ من مجلة تداول عدد ٩
(٣) ابن تاويت من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تداول عدد / ٩/ ص ١١٨
(٤) ابن تاويت / نفسه، ص ٧٢ ورسالة آ ر و ... في المرجع السابق، ص ١٠٦

المغرب وتداول معه في القضايا
ستقبل زيدان جون هاريسون، سفير الملك جيمس الاول الى المغرب وتداول معه في القضايا
تجارية والتجارية ، ولدى عودته في سنة ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م بعث معه سفيرا مغربيا محملا (١)
دية الى جيمس الاول وبعث في نفس الفترة سفيرا آخر الى الاراضي الواطئة .
ولا يبدو ان سعي زيدان لتطوير علاقاته مع دول غرب اوربا لتعزيز وضعه في المغرب
قد ارضى حكام الجزائر الذين كان يهمهم تحسينه ، وتعاون محمد الشيخ السعدي مع الاسبان،
ان يبقى المغرب عاجزا ضعيفا ، حتى لا ياتيهم منه اي خطر (٢) . ولعل في موقفهم المؤيد للمرابط
ابي محلي الذي ثار بعد تسليم محمد الشيخ العرائش للاسبان في نوفمبر ١٦١٠ لاسقاط الاسرة
السعدية من الحكم ، وتحرير الثغور المحتلة من قبل الاسبان، ولاستعادة الاندلس بعد ذلك ،
بادئا هو من الجنوب الذي كان تحت حكم مولاي زيدان ، وحجزا لعقدي تداولان في الشمال بالعهد
على التخلص من محمد الشيخ عايدن علي عهد وناظم . ولا يستبعد ان يكون المرابط ابو محلي (٣)
قد ثار اصلا بتحريض من الاتراك ، اذ ان منطلق ثورته ، بعد عودته من الحج ، حيث زار الجزائر
في طريقه ، كان من الساورة الواقعة بالجنوب الغربي للجزائر حاليا ، وان عمدة جيشه الذي
احتل به سجلماسة في ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م ثم درعة ثم مراكش ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م كان من
قبائل الشراقة ، وان وفدين جزائريين من تلمسان وبني راشد ، كانا من اوائل المهنئين لابي محلي
بانتصاره بسجلماسة ، وقد كان ضمن اعضاء وفد تلمسان سعيد قدورة ، الذي تولى مناصب دينية (٤)
وتعليمية رفيعة في الجزائر في ظل الحكم العثماني لها . (٥)
واخيرا فان زيدان الذي انهزم امام ابي محلي ، واضطر الى ترك قاعدة ملكه لخصمه لم
يلجأ الى الاتراك ، ولم يطلب مساعدة هؤلاء له على استرجاع ملكه من مغتصبه ، بل التجأ إلى
مرابط آخر في السوس كان بينه وبين ابي محلي تنافس ، هو المرابط ابو زكريا يحيى الحاحي ،
الذي تمكن من القضاء على منافسه ابي محلي في نهاية نوفمبر ١٦١٢م / اوائل شوال ١٠٢١هـ
واعاد مراكش لزيدان . في حين تمكن مقدم تداولان من القضاء على محمد الشيخ في ٥ رجب ١٠٢٢هـ (٦)
/ ٢١/ ٨/ ١٦١٣م . ولكن امر المغرب لم يستقر لزيدان ، ففاس وملحقتها كانت لاتزال خارج نفوذه (٧)

مجلة تداولان عدد ١٠ المغرب، ١٩٦٥ ص ١٠٥
(١) انظر مذكرة هاريسون في مجلة تداولان عدد ١٠ المغرب، ١٩٦٥ ص ١٠٥
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .
(٣) انظر الافراني : النزهة ص ١٩٩
(٤) انظر عن ابي محلي وثورته : الافراني : النزهة ص ٢٠٠ وما يليها وتقرير هاريسون لعام ١٦٢٧
في مجلة تداولان عدد ١٠ ص ٦٦-٦٧ وتقريره لعام ١٦٢٦ في مجلة تداولان عدد ١٠ ص ١٠٥-١٠٦
ورسالة ر... في مجلة تداولان عدد ٩ ص ١٢٦ وما يليها ، وانظر عن جيشه رسالة ر... في
مجلة تداولان عدد ٩ ص ١٢٢
(٥) انظر ــــــــــــ سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ج ١ ، ش و ت الجزائر ١٩٨١ ص 367
(٦) (٧) الافراني : النزهة : ص ٢٠٨-٢٠٩ ، ٢٠٩ ه وانظر فصل الحياة السياسية في المغرب .

غرب المغرب (في السوس والسوس الاقصى) ، اخذ يتقاسم النفوذ فيه كل من المرابطين ابي حسون السملالي، وابي زكريا الحاحي ، وان هذا الاخير ما انفك يتدخل في شؤون زيدان بعد ان اعاد له مراكش، ثم مالبث ان زحف اليه . والاسبان لم يقنعوا بأخذ العرائش، فأقدموا في رجب ١٠٢٣ هـ / اوت ١٦١٤ م على احتلال المعمورة . التي اشتدت فيها اعمال الغزو البحري خصوصا بعد قدوم افواج جديدة من الاندلسيين ابتداء من سنة ١٦٠٩ .
(١)

ولم تتحسن الاوضاع في الجزائر او في الدولة العثمانية حتى تستفيد الجزائر من الاوضاع المضطربة في المغرب ، فالجزائر اصيبت خلال سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م و ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م بجفاف شديد ومجاعة رهيبة ... ضحيتها عدد كبير وما كادت تجتاز هذه المحنة حتى شجر نزاع بينها وبين جارتها تونس ... الحدود بين الايالتين ، وبعد قتال بين قوات البلديين اسفر عن انتصار القوات الجزائرية تم التوصل الى اتفاق حول الحدود ، كما كانت علاقاتها مع فرنسا وغيرها من الدول كهولندة وانكلترا واسبانيا متدهورة مما جعل هذه الدول تقوم بين حين وآخر بغزو شواطئها وتهديد مدينة الجزائر نفسها .
(٢)

اما الدولة العثمانية في ... فكانت تزداد تدهورا بسبب الثورات الداخلية والحروب مع القوى الخارجية .
(٣)

وفي ظل هذه الظروف ال... التي كان يعاني منها كل من المغرب والجزائر والدولة العثمانية ، تجددت الاتصالات ال... سياسية بعد توقف دام بضع سنين بين الاتراك العثمانيين ومولاى زيدان الذى ظل على الرغم ضعفه ابرز الشخصيات الحاكمة في المغرب في هذه الفترة ، والتي كانت تتوجه اليها الدول لربط العلاقات مع المغرب .

ويبدو ان المبادرة كانت من جانب الاتراك العثمانيين وذلك برسالة بعث بها الى زيدان الوزير خليل باشا، امير الاسطول العثماني ، تحمل تاريخ الثاني من شهر ديسمبر ١٦١٣ م / ١٩ شوال ١٠٢٢ هـ ، دعاه فيها الى اتباع تقاليد اسلافه الودية ، ويستخلص من هذه الرسالة ان الاتراك العثمانيين ظلوا ينظرون الى السلطان المغربي على انه مجرد امير .
(٤)

ورداعلى هذه المبادرة حاول زيدان في السنة التالية ارسال سفارة الى الباب العالي ، ولكن

---

(١) انظر عن الحياة السياسية في المغرب ... وفصل الحياة السياسية في الجزائر ...

(٢) انظر ، د ... ، الجزء السابق ص ١٥٠ - ١٥١ ... تاريخ جودت جزء اول ص 54

(٣) انظر عن اوضاع الدولة العثمانية في هذه الفترة احمد جودت ، تاريخ جودت ... وعلي حسون المرجع السابق ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) انظر رسالة خليل باشا (النص الاسباني) في مجلة الغرب الاسلامي والمتوسط عدد ١٥ - ١٦ ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

سله لم يستطيعوا بلوغ هدفهم، فبعد ان ركبوا سفينة انجليزية (١) وهولندية (٢)، تعرضوا لمخاطر
الطريق البحري من اساطيل العدو، وابطأ بهم الطوفان، والعتو حتى اوجب انقلابهم
تقتضي قفولهم وايابهم (٣)))

ويبدو ان زيدان قد حاول ارسال رسله من طريق الجزائر فلم يتمكن ..و (تعذر السفر
من جهة الجزائر لمانع وقع هناك)) (٤)، ولعل هذا المانع هو الظروف الصعبة التي كانت تعرفها
الجزائر، فقد كانت في نزاع مع جارتها تونس بشأن الحدود، وتعرضت في هذه الفترة لحملة
من الاسطول الفرنسي لتدهور العلاقات بينها وبين افرنسا (٥).

ولكن رسل زيدان (٦) الذين توجهوا الى استانبول في رمضان ١٠٢٥هـ/ سبتمبر ١٦١٦م
على متن سفينة الهولندي (هيلبرنت ناسمت Hillberant Quast) تمكنوا من الوصول الى
استانبول في اواخر ذي الحجة ١٠٢٥هـ/ ديسمبر ١٦١٦م دون التوقف في الجزائر (٧)، كما كانوا
في بادئ الامر يريدون، ليتزودوا منها بما يحتاجونه (٧)، ويسلموا رسالة زيدان الى باشا هنا،
وذلك لمشاهدتهم بعض السفن التي يعتقد انها كانت اسبانية (٧). وقابلوا السلطان العثماني
احمد بن محمد الثالث، وسلموه هداياه اليه، وكانت ((هدايا بهية)) (٨)، اشتملت على اسلحة
واقمشة فاخرة وغيرها (٩).

وحسب الافراني وآخرين فان زيدان قد بعث مع الكاتب عبد العزيز الثعالبي، ابرز اعضاء
الـ..فارة عشرة قناطير (كذا) من الذهب الى السلطان العثماني (١٠)، مما يدفع الى الاعتقاد بانه
كان لا يزال يحصل على الذهب من السودان، ولو بشكل غير منتظم.

ومن رسالة السلطان العثماني الجوابية الى زيدان، المؤرخة باواخر صفر ١٠٢٦هـ/ اواخر
فبراير ١٦١٨م، نعلم ان زيدان قد بعث ايضا مع عبد العزيز المذكور رسالتين الى السلطان
العثماني ذكر في الاولى بالعلاقات الودية التي كانت بين اسلافهما، وعلل تأخيره عن مكاتبة
السلطان العثماني بالاشتغال بقتال الكفار والمجاهدة في استئصال شأفتهم، وتأمين مملكته ...

---

(١) نفس الرسالة السابقة.
(٢) ... : هولندة جزء ٢ ص ٢٢٤ و ٢٥٥
(٣) ... في مجموعة منشآت السلاطين لفريدون بك جزء ٢ ص ١٥٥
(٤) من رسالة السلطان احمد الى زيدان في المرجع السابق جزء ٢ ص ١٥٥ وانظر ٢٦٦
(٥) ... : المرجع السابق جزء ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦
(٦) كان عددهم خمسة وهم : القائد عبد العزيز، والقائد كافور، والقائد احمد، والقائد عبد الرحمن، والقائد يحيى حميد و (ILHAY TASNISDOU) يرافقهم ثلاثة عشر خادما. انظر ... : هولندة جزء ٢ ص ٤٤
(٧) نفسه : ص ٤٦ وما يليها. (٨) رسالة السلطان احمد في المرجع السابق ص ١٥٥
(٩) هامر : تاريخ الامبراطورية العثمانية جزء ٨ ص ٢٤٩.
(١٠) الافراني : النزهة ص ٢٣٩، سالمي من تاريخ الدولة العثمانية (ذيل لمناهل الصفا) تحقيق كنون ص ٢٥٨.

ن ان قصده من ارسا ن رسله اليه هو التقرير ما كان بين الاسرتين السعدية والعثمانية من عهود
لب العون منه لمواجهة النصارى والتغلب عليهم .

اما الرسالة الثانية فعبر فيها عن مودته للسلطان العثماني ، وذكر بمآثر السلاطين
عثمانيين واشاد بهم ، واشار الى الصعوبات التي واجهتها سفارته السابقة ، وحالت دون وصولها
هدفها . واخطر السلطان العثماني بما يبيته ملوك الكفرة من اعتداء على البلاد الاسلامية ،
لب منه ان يقوم بقطع طريق الهند عليهم ، مصدر قوتهم وسندهم واعتمادهم [1].

وفي التقارير والرسائل التي بعث بها سفراء الدول الاوربية وقناصلها المعتمدون في استانبول
جزائر الى حكوماتهم عن هذه السفارة مزيد من التفاصيل عن مقاصدها والنتائج التي
لت اليها ، نشير فيما يلي الى بعضها :

فحسب رسالة كورنليس هاجا (CORNELIS HAGA) سفير الولايات العامة (الاراضي
منخفضة) التي وجهها من القسطنطينية الى بلده (هولندة) المؤرخة بربيع اول ١٠٢٦ هـ
واخر مارس ١٦١٧م [2] فان السفارة المغربية قد طلبت من السلطان العثماني امداد السلطان
دان بعدد من السفن والذخيرات والبحارة من الجزائر ، وان هذا الطلب قد حظي بالقبول ،
صدر الامر الى باشا الجزائر بتقديم هذا العون عندما يطلبه منه زيدان . وان السلطان
عثماني قد ارسل الى هذا الاخير قفطانا وسيفا ، وصولجانا ، كما تعهد ان يفصل مع اتباعه
الخاضعين له . ومن الرسالة نفسها نعلم ان السفارة المغربية قد اخذت في العودة الى المغرب
ي الاول من ربيع الاول ١٠٢٦هـ / ٩ مارس ١٦١٧م .

اما رسالة قنصل الولايات العامة (الاراضي المنخفضة) في الجزائر الى حكومته المؤرخة
الفترة من / ٧/رمضان ١٠٢٦هـ / ٨ سبتمبر ١٦١٧م وصفر ١٠٢٧هـ / فبراير ١٦١٨م [3] .
شارت الى غرق ثلاث سفن من الاسطول العثماني الذي ترأسه سليمان باشا الذي كان مرشحا
باشوية الجزائر ، والذي تردد انه سيأتي لمساعدة زيدان في شن حرب على فاس ، كان السفير
مغربي على متن واحدة منها . كما اشارت الى ان باشا الجزائر قد بعث بريدا على جناح
سرعة الى مراكش ، يخبر السلطان زيدان باستعداده لمساعدته ..

انظر نص الرسالة الجوابية باللغة العربية في الملحق الثالث من ملاحق الرسالة .

م . م : هولندة ج ٣ ص ٢٦-٢٧
نفسه : ص ٢٧ هامش ١

ومن رسالة السفير الفرنسي شارلي دوسوسي (HARLY DE SAUCY) الى لويس الثالث عشر المؤرخة ب ٣ ربيع الاول ١٠٢٦ هـ / ١١/٣/١٦١٧ م[1] نعلم ان موافقة السلطان العثماني على مساعدة زيدان لم تكن سهلة المنال، وان احد اعضاء السفارة المغربية قد بقي في استانبول ، وأخر عودته حتى يحصل على ماجاءت السفارة من اجله ، وهو المساعدة ضد الاسبان ، والامر لاتراك الجزائر بعدم التدخل في الاضطرابات التي يمكن ان تحدث في ممالك السلطان زيدان ، ولكنه ماعاد في النهاية الا برسالة مليئة بالكلام الجميل .

اما المصادر العربية فتتحدث عن استجابة السلطان العثماني للطلب الذي نقلته اليه السفارة المغربية من السلطان المغربي ، فجهز اثني عشر الفا من الترك مختارة ، اتى بهم القائد الشالبي ، سفير زيدان عن طريق البحر ، ولكن الحجارة التي كانت تنقلهم تعرضت لعاصفة اغرقتها ، ولم ينج منها الا غراب واحد فيه شرذمة قليلة[2] . وقد يكون من بين هذه الشرذمة السفير المغربي الذي حمل رسالة السلطان زيدان . فماذا تضمنته تلك الرسالة التي هي جواب السلطان العثماني الرسمي الى السلطان زيدان بخصوص تقربه وتودده اليه ، وما تقدم به من الطلبات ؟ .

لقد جاء في رسالة السلطان العثماني الجوابية ، مخاطبا السلطان زيدان ، ((ولا يخفى من علمكم ان من عادتنا الحميدة الموروثة عن آبائنا وأجدادنا ... ان نتلقى من يرد علينا ، ويرغب الينا بالترحيب .. ونستفرغ في تحصيل مايطلبونه اقصى الوسع والجهد ...)) ، واضاف قائلا : ((فما دمتم في مراعاة الحقوق ساعين ، ولدولتنا الاسلامية راعين لاتلقون من سدة الحضرة والاقبال سوى النظر بعين الاعزاز والاجلال[3] .

ويفهم من هذا الكلام ان السلطان العثماني قد رحب بمخاطبة السلطان السعدي له على الرغم من تأخره عن فعل ذلك سنوات عديدة وتودده اليه ، مما يعني انه سينظر الى طلباته بعين الكبون . وقد يكون من الدوافع الدافعة للسلطان ، موقف فيليب الثالث من المسلمين في بلاده ، ونفيه لهم ذلك النفي الاكبر في سنة ١٦٠٩ - ١٦١١ ، واستنجاد هؤلاء بالسلطان العثماني .

---

1) نفسه ، ص ٦ ، هامش ٢
2) الافراني ، النزهة ، ص ٢٢٦
3) انظر رسالة السلطان احمد في الملحق رقم 3 .

وقد تعهد له بالعمل على قطع الطريق الى الهند على الاسبان والبرتغاليين فقال :

((فنحن باذنه سبحانه وتعالى نتقيد بأدائه ثم نرسل الاوامر الشريفة الى امرائنا الحافظين لحدود البصرة ونأمرهم في تلك الفترة والنصرة))[1].

ولكن السلطان العثماني لم يضمن ولم يبدي استعداده للاستجابة لما طلبه زيدان وان يذكر هذا الاخير بعجزه عن الدفاع عن الشواطئ المغربية وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال وان يعتب عليه عدم استعانته به فيما مضى وفي الوقت المناسب لمساعدته على صد الاطماع الخارجية عن شواطئ بلاده قائلا بهذا الصدد : ((وكان اللائق بكم والواجب على ذمتكم ان تستمدوا بنا وتستعينوا بأعتابنا قبل ان يتصادم الصفوف ويتزاحم الزحوف فنحن بعون الله قادرون على ايصال عسكر يضيق عليهم الطريق والمسالك ويلجئهم الى المضايق والمهالك ... يكون اعانتنا لكم مزمة لانوف الكافرين ونصرة لجموع امواج الخاسرين المتجاسرين حتى تنقطع اطماع اعدائه من تلك البلاد ويندفع عنها اسباب الشر ومواد الفساد ...)) وتستمر استعداده لأن يهب للدفاع عن الشواطئ المغربية ويجعل هذه المهمة اولى المهمات قائلا : ((ولا يشغلنا عن الامداد بعون رب العباد اشغالنا ...))[1] .

وقد كان زيدان حين احتل الاسبان العرائش سنة ١٦١٠ يحاول استعادة نفوذه على فاس وقبل احتلالهم للمعمورة في رجب ١٠٢٣ هـ / اوت ١٦١٤ م وكان يحاول الحصول على العون من الاراضي الواطئة وانكلترا ولم يبحث في طلب العون من الدولة العثمانية الا بعد ان فشل في الحصول على دعم حقيقي من هولندة وانكلترا[2] . فهل تحقق التعاون بين زيدان والاتراك العثمانيين بعد عودة سفارته ؟ .

ليس هناك مايدل على حصول تعاون فعلي بين زيدان واتراك الجزائر والدولة العثمانية بصفة عامة بعد عودة سفارته الى المغرب[3] اذ لاتشير الوثائق والمصادر الى حصول زيدان على المساعدة التي طلبها بواسطة سفارته سواء من الجزائر او من مقر الدولة العثمانية واذا استثنينا ما اورده الافراني في نزهته والذي لم تؤكده المصادر المغربية المتوفرة لدينا وحتى المساعدة التي اشار اليها الافراني لم تصله حسب المصدر نفسه . الا ان تجدد الاتصال بين زيدان والدولة العثمانية والعلاقات الدبلوماسية بين الطرفين قد اثارت في معظمها بعد و قلق الاسبان

نفسه :

في سنة ١٦١٦ رفض استقبال هاريسون سفير جيمس ملك انكلترا وظل يرفض استقباله بعد ذلك انظر ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي في تطوان عدد ٩ ص ١٣٦

وبين اربعة من رسل زيدان من اهل فسة الى آسفي عائدين من القسطنطينية في ٢ ماي ١٦١٧ انظر م . م . هولندة ج ٢ ص ٥٠ - ٥١ .

ومعاونيهم فأخذوا يفكرون في مواجهة القوة الجديدة . وفكر حكامهم خلال سنتي ١٠٢٧-١٠٢٨هـ/ ١٦١٨-١٦١٩م في القيام بحملة كبيرة على الجزائر وقواعدها الساحلية الاخرى (١).

ويبدو ان مشروع التعاون بين زيدان والسلطان احمد العثماني قد مات بعد سنة واحدة من ميلاده، مع موت السلطان احمد في سنة ١٠٢٧هـ/ ١٦١٨م (٢) فظل زيدان نتيجة لذلك عاجزا من فرض سلطاته على كل المغرب بل انه وجد صعوبة في الحفاظ على مراكش قاعدة ملكه من هجومات خصمه المرابط ابي زكريا يحيى، وفشل تماما في اواخر ايامه في منع الاندلسيين من الاستقلال في سلا، وفي اخضاع المجاهد العياشي . ولحق بالسلطان احمد بعد نحو عشر سنوات (٣) لم تزد فيها اوضاع المغرب واوضاع الدولة العثمانية الا سوءا حيث اضحى المغرب اكثر تجزؤا واصبح السلاطين العثمانيون الذين خلفوا السلطان احمد كالسلطان مصطفى الاول، وابنه عثمان ألعوبة في ايدي الانكشارية (٤) .

ولا يظهر ان اتراك الجزائر العثمانيين قد كفوا بعد السفارة المغربية وخلال السنوات العشر الاخيرة من عهد زيدان وخلال عهود خلفائه من التدخل بشكل او آخر في المغرب، كما طلب زيدان ذلك من السلطان العثماني بواسطة سفارته، اذ استمروا في الاتصال وفي اقامة العلاقات مع القوى الداخلية المناوئة لزيدان وخلفائه والمتصارعة معهم او الرافضة والساعية في الاستقلال عنهم كأندلسيي سلا، والمجاهد العياشي، ومقدمي تطاون، ومرابطي الدلاء .

وامام استمرار اتراك الجزائر في اتصالاتهم وتنمية علاقاتهم مع خصوم الاسرة السعدية ومناوئيها، والمتمردين عليها، وفشل زيدان في الحصول على دعم حقيقي من الانكليز، او من حكومة الولايات العامة (هولندة) لمواجهة خصومه في الداخل وتدخلات القوى الخارجية المجاورة للمغرب، فانه قد مال في سنواته الاخيرة الى مسالمة الاسبان ومهادنتهم كما سالمهم وهادنهم من سبقوه كما مال الى اقامة علاقات ودية مع حكام مازاغان . فيذكر بهذا الصدد انه تلقى هدية كبيرة من حاكم مازاغان في يونيه سنة ١٦٢٤ حين وصل الى ام الفرس في دكالة، ووصل في طريقه الى آزمور، ومن الى القاعدة البرتغالية فزارها وقوبل هناك بكل مظاهر التكريم والترحاب (٥) وفشل الانكليز في استمالتهم ثانية بواسطة السفير اريسون في السنة

---

١) انظر ارشيف سيمانكاس ورقة ٦٢ من ملف رقم ١٩٥٠ .
٢) توفي السلطان احمد في ١١ ذي القعدة سنة ١٠٢٧هـ/ ٢٢/١١/١٦١٨ ، انظر ايضا مقاطل انتقلنا نقلا من كتاب لطائف اخبار الاول ص ٢٥٨ .
٣) انظر ماتقدم في فصل الحياة السياسية
٤) علي حسون : المرجع السابق، ص ٩١ .
٥) ميشو بلير : مدن وقبائل المغرب (ناحية دكالة) ج ٢ ص ٦

(١)
وتره الى مشاركتهم في الحرب على الاسبان .
لية ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م كان زيدان يتفاوض في معسكره الذى اقامه قرب آسفى
وفي مطالع سنة ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م
نائب اسباني) جاء من مازاغان بشأن مساعدته على التغلب على خصمه الذى ازعجه وارغمه على
ترين من قاعدة ملحه . وكان المغاربة حسب السفير الانجليزى هاريسون الذى جاء الى المنطقة
هذه الفترة يخشون ان يقدم زيدان كما اقدم اخوه من قبله على تسليم موقع من المواقع او جهة
للاسبان في مقابل مساعدتهم له (٢) وفي الوقت الذى كان فيه زيدان يحاول صلاته الودية
الاسبان فانه كان يرد على تدخلات اتراك الجزائر بالسعي الى اثارة المتاعب لهم في تلمسان حيث
امت هناك خلال هذه الفترة ثورتان الاولى : في سنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م والثانية في سنة
١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م ، ولا يستبعد ان تكون بتحريض منه اذ ان هاتين الثورتين كانتا
(٣)
بزعامة احد القادة المغاربة المدعو بالسوسي الجزولي
وقد انتهت الثورتان بالفشل اذ تمكن الاتراك من اخمادهما بقوة وعنف وقضوا على الزعيم المغربي
(٤)
المذكور الذى تزعم الثورتين
وهكذا يمكن القول ان العلاقات بين ابناء المنصور وبصفة خاصة زيدان من جهة وحكام الجزائر من جهة اخرى لم
تكن ودية تماما ولم ترق الى التعاون للتغلب على المشاكل الداخلية في البلدين التي كان الطرفان فيهما يعانيان منها

٢- العلاقات مع القوى السياسية غير السعدية في المغرب :

ظهرت في المغرب نتيجة اضطراب الاوضاع الداخلية والصراعات بين اولاد المنصور قوى
سياسية سعت الى ان يكون لها كياناتها المستقلة كما فعل في الحياة السياسية في المغرب ، وكان
لهذه القوى علاقاتها مع اتراك الجزائر بطريقة او باخرى ، ومن هذه القوى : اندلسيو سلا
والمجاهد العياشي والخضر غيلان ، والدلائيون .

آ- العلاقات مع اندلسيي سلا :

مالبث الاندلسيون الذين تجمع عدد منهم في سلا خصوصا بعد النفي الاخير الذى تعرض
له اخوانهم من اسبانيا في السنوات الاولى من العقد الثاني من القرن السابع عشر ان أسسوا في

(١) انظر رسالة هاريسون الى زيدان في مجلة تطاون عدد ١٠ ص ٣٤-٣٥
(٢) انظر تقرير هاريسون بتاريخ ١١/ ٩/ ١٦٢٧ في المرجع السابق ص ٤٦
(٣) انظر عن هاتين الثورتين سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ص ٢١٢ وهامش ٥٢ وفصل الحياة السياسية في الجزائر
(٤) نفسه :

سلا جمهورية مستقلة ١٦٢٧ في اواخر عهد زيدان بعد مالمسوا ضعف هذا الاخير ، وتشجيع [1]
الانكليز ، وربما كان ذلك بتحريض ايضا من اتراك الجزائر لتوافق المصالح بين الطرفين [2] وهو
مالم يكن ليرضي زيدان الذي كان يحاول اخضاعهم اليه من جديد ، ولا ابناءه من بعده .

وقد ظهر اثر هذا التقارب في تعاون غزاة البحر الجزائريين مع غزاة البحر السلاويين ،
وفي التسهيلات التي كان يجدها هؤلاء وأولئك في كلتا المدينتين سواء في تصريف الاسلاب
وبيع الاسرى او في التموين بما يلزمهم .

فقد كان غزاة الجزائر كثيرا مايقصدون سلا لبيع اسلابهم واسراهم حينما يكون هنالك مانع
من بيعها في الجزائر كأن تكون حكومة الجزائر ملتزمة بمعاهدة سلم مع الدولة التي تعرضوا
لغزو شواطئها او سفنها وحصلوا منها على غنائم ، وما ينشأ عن بيعها في الجزائر في هذه
الحالة من مضاعفات بين حكومة الجزائر وحكومة البلاد التي غزوها ، او التي تنتمي لها السفن والغنائم
التي أسروها او حصلوا عليها ، وكذلك كان اندلسيو سلا يفعلون في مثل هذه الحالة . كما كان
غزاة سلا والجزائر يتبادلون الاعلام ، دفعا لملاحقة السفن المسيحية المعادية ، فكان يحمل غزاة
سلا اعلام الجزائر عند ملاحقة سفن معادية لسلا ومسالمة للجزائر ، ومثل ذلك يفعل غزاة الجزائر
حين تلاحقهم سفن بلد معاد للجزائر ومسالم لسلا ، حتى اصبح يطلق على غزاة سلا اتراك سلا [3] .

ولا شك ان هذا التقارب قد عاد بفوائد اخرى على اندلسيي سلا كالاستفادة من الهيبة
التي كانت لاتراك الجزائر عند حكام المغرب السعديين اذا مافكر هؤلاء الاخيرون في شن حرب عليهم .
كما كان له فوائده لاتراك الجزائر ، اذ كان اندلسيو سلا بمثابة اعوان وعيون لهم في المغرب ،
وبقيامهم كجمهورية مستقلة ، ساهموا في اضعاف المغرب وتجزئته ، وهو ماكان يريده الاتراك بعد
ان تعذر عليهم ضمه واستعصى عليهم اخضاعه . ومع ان تلك العلاقات دعمت الصلات الاقتصادية
بين سلا والجزائر ، الا ان المصادر لاتشير الى علاقات ذات طابع سياسي متين بين
البلدين ، ولعل الجزائر لم تسع للاستفادة سياسيا من سلا اكثر مما اشير
اليه .

---

(1) انظر تقرير هاريسون المؤرخ في ١١/ ٩/ ١٦٢٧ في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٩٥ وانظر
COINDREAU (R.): Les Corsaires de SALÉ. Paris 1948.

(2) انظر عن هذا التقارب والتعاون : أ . كور ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(3) انظر تقرير وليم كورت في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٢٦ وهو بتاريخ ١٧/ ٥/ ١٦٢٥ .

ب ـ العلاقات مع المجاهد العياشي :

ثم استقل عنه ، وساءت علاقته

اما المجاهد العياشي الذي كان ايضا تابعا لزيدان ، ثم استقل عنه ، وساءت علاقته
معه فقد كان هو الآخر على علاقة طيبة مع اتراك الجزائر ، ومما يدل على ذلك ، ان العياشي
تمكن من اسر عدد كبير من الاسبان في المعركة التي انتصر فيها بحلق المعمورة على هؤلاء في
سنة ١٦٢٧ على الارجح (١) ، وكان بينهم ضابط كبير ، كان يقتدي ((طائف)) رئيس الاسطول
الجزائر به ، وكان طائف المذكور اسيرا عند الاسبان. ولكن لاندري مامدى المساعدة التي كان (٢)
يتلقاها من اتراك الجزائر في جهاده ضد المراكز الاسبانية في المغرب ، وموقفهم من صراعه مع
اندلسيي سلا ، ثم مع الدلائيين ، الا انه لايستبعد ان يكون في صفوفه بعض الاتراك ، اذ كان
بين صفوف صاحبه ومقدمه على الجهاد في بلاد الهبط ابي العباس الخضر غيلان الجرفطي
اتراك اشتركوا الى جانبه في معركة القصر الكبير التي جرت سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م بينه وبين
مولاى الرشيد العلوي ، وقتل بعضهم فيها (٣) ، فلعلهم كانوا من قبل في صفوف العياشي ، ثم
انتقلوا اليه ، ووجود اتراك في صفوف الخضر غيلان يدل على انه كان كرئيسه العياشي على علاقة
طيبة مع اتراك الجزائر . (٤)
وقد التجأ غيلان فعلا الى الجزائر حين بدا له تفوق خصمه عليه ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م (٥)
ثم عاد بعد ذلك الى المغرب وقتل في سنة ١٠٨٤ من قبل السلطان مولاى اسماعيل العلوي .

ج ـ العلاقات مع مقدمي تطوان :

كان آل النقسيس يقومون باعمال الجهاد ضد القواعد البرتغالية والاسبانية في شمال
المغرب انطلاقا من تطوان ، ولكن اضطراب المغرب بعد موت المنصور جعلهم يستقلون بالحكم
فيها او لايخضعون لابناء المنصور الا خضوعا سطحيا ، ويقيمون علاقات مع الدول المجاورة
للمغرب ، وفي مقدمتها الجزائر .
وقد كانت سفن اتراك الجزائر تتردد دوما على تطوان ، اما لنقل الحجاج والمسافرين
او التموين ، او الاستراحة او لبيع الاسرى وغنائم الغزو البحري (٦) .

(١) تحدث تقرير مارسون عن هذه الواقعة على اساس انها وقعت في رمضان ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م
انظر تقريره في مجلة تطوان عدد ١٠ ص ٥٤
(٢) الافراني : النزهة ، ص ٢٦٦
(٣) ا . كور ، المرجع السابق، ص ١٩٠
(٤) السلاوي ، الاستقصاء ج ٧ ص ٣٨
(٥) نفسه : ص ٤٧
(٦) ماتيو ، الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٩٥ ص ٤٦ .

وكان غزاة تطاوين يشتركون احيانا مع غزاة الجزائر في اعمال الغزو البحري . وكان مقدمو تطاوين من آل النقسيس على علاقة طيبة مع اتراك الجزائر ، مما لا يستبعد ان يكون لهذه العلاقة اثرها في ميل مقدمي تطاوين الى الاستقلال، وابعاد نفوذ ابناء المنصور عنهم على غرار ما فعله اندلسيو سلا .

د ـ العلاقات مع الدلائيين : (1)

لم يبرز الدلائيون كقوة سياسية ودينية معا في المغرب الا بعد وفاة محمد بن ابي بكر الدلائي سنة ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م ، واستلام ابنه محمد الحاج زعامة الدلائيين . اذ دخل هذا الاخير بعد سنوات قليلة في نزاع مع السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر ، ثم مع المجاهد العياشي ، وغيرهما من زعماء القوى السياسية التي كانت قائمة في المغرب ، وتتقاسم النفوذ فيه ..

وليس معروفا على وجه الدقة متى بدأت العلاقات بين محمد الحاج وابنه عبد الله الذي تولى امارة سلا واتراك الجزائر ، أكان ذلك قبل دخول سلا وتطاوين تحت نفوذ الدلائيين ، ام بعد ذلك .

على ان العلاقات بين اتراك الجزائر والدلائيين ، كانت علاقات ودية وتعاون لاسيما في ميداني التجارة والغزو البحري ، اذ ظلت السفن الجزائرية والسلاوية والتطوانية الجهادية تتعاون فيما بينها في هذا المجال كما كانت من قبل . وتتردد على مراسي البلدين بقصد التجارة او التزود بما يلزمها او الاستراحة ، واصلاح ما تحتاج [illegible] من السفن .

ولما تولى عبد الله الدلائي امارة سلا تعددت التجارة بين سلا والجزائر ، ونتيجة الفوائد التي كان يجنيها من هذه التجارة فانه رفض قبول مشروع معاهدة بين الدلائيين وهولندة لانه كان من شأنه ان يحرم على المغاربة التعامل بالبيع والشراء مع الجزائريين وغيرهم كالتونسيين والطرابلسيين ويلزم الدلائيين بالا يسمحوا للاتراك وغيرهم بحمل رسائل امتياز في سلا .

وعلى الرغـــم من ان اتراك الجزائر والدلائيين كان لهما خصم واحد الا وهو الاشراف العلويون الذين اخذوا الاتراك بخروجهم المخالف للغرب الجزائري والذين كانوا يهددون بقوة نفوذ الدلائيين فانه لايبدو انه حصل بين الطـــرفيــــن تعاون وتنسيق لضرب خصمهما المشترك . اذ اضطر الاتراك الى امضاء اتفاقية سلام كما سنرى مع العلويين . اما الدلائيون فكانت نهاية ملكهم على يد هؤلاء الاخيرين سنة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م الا انهم التجأوا الى السلطان الرشيد العلوي محمد الحاج وبنيه على مغادرة المغرب في سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م استقرهم العاهل في تلمسان التي كانت تحت حكم احد قائدي اتراك الجزائر .

(1) انظر عن العلاقات بين اتراك الجزائر والدلائيين ، محمد حجي / الزاوية الدلائية / [illegible] [illegible] المطبعة الخامسة .

٣ــ العلاقات مع احفاد المنصور :

حاول احفاد المنصور مرة اخرى التعاون مع الانجليز وان يكونوا حلفاء لهم ضد الاتراك في الجزائر (١) فقدموا لهم التسهيلات التجارية التي رغبوا فيها على امل ان يحصلوا منهم على عون يساعدهم على تمرد خصومهم ومناوئيهم ، بل ان محمد الشيخ الاصغر الذى امتد حكمه فترة طويلة نسبيا من ١٠٤٥هـ ــ ١٠٦٣هـ / ١٦٣٥ــ١٦٥٢م سعى مباشرة بعد توقيع معاهدة صداقة وتجارة مع انلترا في ٢٠ ربيع الثاني ١٠٤٧هـ ، سبتمبر ١٦٣٧ الى جر انلترا للاشتراك معه في حملة على الاتراك في الجزائر وتونس ، وقال في خطابه الموجه الى الملك شارل الاول والمؤرخ في ١٢ جمادى الثانية ١٠٤٧هـ / الخامس من شهر نوفمبر ١٦٣٧م . ((انه يجب ان نتعاون في شن الحرب ضد السلطات الحاكمة في كل من تونس والجزائر بسبب تصرفاتهم المنافية للانسانية ...)) . (٢)

ووجه لهذا الغرض سفارة تتألف من القائد جوذر بن عبد الله ــ وروبرت بلايك لاقناعه بالاشتراك فيها باسطوله البحري القوي ..

وقد استقبل الملك شارل سفيريه بحفاوة ، وعاد السفيران في ١٠٤٨هـ/ ماي ١٦٣٨م وفي صحبتهما اربع سفن حربية لمساندة محمد الشيخ في حربه على الخارجين على حكمه . (٣)

وكان من بين الخارجين الجدد على حكمه محمد الحاج بن محمد بن ابي بكر الدلائي في وسط المغرب وذلك في سنة ١٦٣٦ ، وباءت محاولة استمالته اليه بالعودة الى الدخول في طاعته والبيعة خلال سنتي ١٦٣٦ــ ١٦٣٧ بالاخفاق، فلم يبق امامه الا استعمال القوة معه .

ويبدو ان المساعدة التي امدته بها انلترا لم تشجعه على القيام بحملة على خصم قوي كأتراك [illegible] اذ انه آثر قبل ان يقوم بذلك ان يقوم بحملة لاخضاع المتمرد الجديد . فخرج بالفعل بجيشه الى ناحية تادلة في سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م ولكن امامه محمد الحاج ، والحق الهزيمة به في المعركة الحامية الوطيس التي دارت على ضفة وادي العبيد بتادلة فلم يكرر المحاولة وقنع بمراكش وما جاورها ، ولا يبدو انه فكر ثانية بعد هزيمته هذه في تنفيذ حملة ضد اتراك الجزائر . (٤)

---

(١) انظر عن علاقتهم مع الانكليز : شوقي عطا الله الجمل : العلاقات الانكليزية المغربية / مجلة المناهل / عدد ٣ / الرباط ١٩٧٥ ، ص ١١٥ وما يليها .

(٢) نفسه ، ص ١٨٠

(٣) نفسه ، ص ١٨٠ ــ ١٨٢

(٤) الافراني : النزهة ص ٢٤٦ ومحمد حجي : الزاوية الدلائية ص ١٥٤ .

ولم يكن ابنه احمد العباس من القوة بحيث يقوم فيما قام فيه والده ، وقد عجز حتى عن الحفاظ على اخواله عرب الشبانات كي يستميلهم الى جانبه ، وحين حاول ذلك قتلوه في سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م ، وبمقتله سقط نهائيا حكم الاسرة السعدية في المغرب (١).

واذا كان عرب الشبانات اخوال زيدان وابنائه، الذين استقدموا آخر السلاطين السعديين من الحكم، وقضوا نهائيا على حكم اسرتهم ، فان الاتراك العثمانيين قد ساهموا في اضعاف هذه الاسرة بتدخلاتهم المختلفة؛ بتحريض هذا او ذاك ممن الحرابين على الثورة عليها ، او بتأييد او تشجيع هذا او ذاك من الثائرين عليها او بالتعاون معهم .

٤- العلاقات بين اتراك الجزائر والاشراف العلويين في عهد الباشاوات :

لم تكن العلاقات بين اتراك الجزائر والاشراف العلويين ودية ولا سلمية في البداية على الاقل ، ذلك ان الاشراف العلويين الذين ظهروا على المسرح السياسي في المغرب بعد فشل بني ابناء المنصور كما رأينا (٢) قد اخذوا يعملون بعد قيامهم في سجلماسة بجنوب المغرب في سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٤٠-١٦٤١م (٣) على توسيع نفوذهم نحو بلاد الجزائر ، وفي ذلك تجديد للاطماع القديمة لحكام المغرب فيها ، ويعملون كما تدل على ذلك حركة توسيعهم لنشاطهم ونفوذهم على السيطرة على التجارة الصحراوية بين بلاد السودان والجزائر والمغرب ، الامر الذي لم يكن ليرضي حكام الجزائر او ليجعل علاقاتهم مع الاشراف العلويين ودية او سلمية، كما كانت علاقاتهم مع بقية الوحدات السياسية التي كانت قائمة في المغرب في هذه الفترة .

ولفرض السيطرة على المراكز التجارية المتحكمة في التجارة الصحراوية احتل العلويون بعد سنوات قليلة من قيامهم توات ١٦٤٥ (٤) هذا المركز التجاري الهام في جنوب اعماق الصحراء الجزائرية (حاليا) . ثم تطلعوا الى فاس فدخلوها في جمادى الثانية ١٠٥٩هـ/ ١٠/ ٧/ ١٦٤٩م ، لكن الدلائيين اصحاب النفوذ فيها تمكنوا من طردهم منها الى حين ، في ١٠ شعبان ١٠٥٩هـ/ ١٩/ ٨/ ١٦٤٩م ، كما تطلعوا الى تلمسان ، والمراكز الاخرى الواقعة في الجنوب الجزائري ، واستغلوا انشغال

(١) الافراني ، نفسه ص ٢٥٧-٢٥٨)
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب ،
(٣) انظر الافراني ، النزهة ص ٣٠٠ في هذه السنة بايع اهل سجلماسة محمد ابن الشريف وعلموا سيادة ابي حسون السملالي عليهم .
(٤) مارتيني وآخرين ، تاريخ المغرب ص ٢٤٦

... التي تضررت منه، واتخذت
... اك الجزائر بالغزو البحري، وحوا مهتم لرد ود فعل الدول الاوربية ... كما استغلوا ايضا ما كان
... ه امكانياتها وحماتها لغزو مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية. كما ... بين الجند والرياس والثورات
... ه الاتراك حينئذ من ضعف داخلي، ونتيجة التنافس الذي كان قائما ... كما غزو الاغواط وعين ماضي
... شيرة التي كانت تقوم ضدهم هنا وهناك، فغزوا تلمسان ومقاطعتها ... في باشوية الجزائر، وهددوا نفوذ
... يرها، من المراكز في الجنوب الجزائري، واحدثوا اضطرابا كبيرا في باشوية الجزائر ... على الدخول فيما حتى
... اتراك فيها تهديدا قويا. الا ان شعور العلويين بانهم ما زالوا غير قادرين على الدخول فيما حتى
... باجهة حقيقية حاسمة مع اتراك الجزائر، جعلهم لا يحتفظون بالمراكز التي غزوها او تمنوا من الدخول
... ها، فكانوا ينسحبون منها بعد نهب ما فيها من اموال وخيرات الى وجدة او الى سجلماسه ان هم
... حروا بخطر كبير من قبل الاتراك.

وقد بدأ الاشراف العلويون بقيادة محمد بن الشريف هجوماتهم وغاراتهم على المناطق والمدن والقبائل التابعة لباشوية الجزائر، بدءا بالتي تلي شرق المغرب ثم التي تليها في ربيع سنة ١٦٥٠م على الارجح او ربيع السنة التالية لها مما يوافق اواخر عهد يوسف باشا واوائل عهد محمد باشا واستمرت هجوماتهم وغاراتهم بضع سنوات حتى سنة ١٦٥٤م (1)

كانت اول هجومات محمد بن الشريف على بني يزناسن فاستولى على اموالهم ومواشيهم، وقصد بعد ذلك مدينة وجدة واستولى عليها وشرد منها الفريق الموالي للاتراك، واتخذها قاعدة امامية لامارته، منها ينطلق للغارة، واليها يعود لقضاء فصل الشتاء. ثم قام بعد ذلك بالغارة على القبائل الاخرى الخاضعة للاتراك كأولاد زكرى واولاد علي وبني سنوس، فانتهبهم وادخلهم في طاعته، وامتدت غاراته بعد ذلك الى ناحية ندرومة حيث اغار على قبائلها كمطغرة وطرارة وزهامة وغيرها. وتجرأ بعد ذلك على الغارة على تلمسان وقراها، واستولى على ما وجده من اموال ومواشي ... سكان اسوارها وفي قراها لاحظ انه ادنى تلمسان وافراد حاميتها فهزمهم شر هزيمة وقتل منهم عددا كبيرا فاضطر من نجا منهم الى الاحتماء باسوار المدينة، ورجع محمد بن الشريف الى وجدة حيث قضى فصل الشتاء هناك. وفي الربيع التالي، شن على طريق الصحراء واغار على ((الرحافرة)) وانتهب اموالهم، فسارعت قبائل حميان وحمهسة وغيرها الى اعلان خضوعها اليه والدخول في طاعته. وقام بصحبة هذه القبائل بغزو الاغواط وعين ماضي والناسون والصوانع وبني يلقيان وغيرها في الجنوب الجزائري فنهبها واستولى على اموالها وخيراتها. وفرامامه عرب الحارث وسويد ورياح الى جبل بني راشد طالبا للنجدة وقفل راجعا محملا بغنائم واسلاب كثيرة.

(1) دوغرامون: المرجع السابق ص 199-202

كان رد فعل باشا الجزائر عن غاراته الاخيرة توجيه اكبر عدد ممكن من القوات الى الحدا في نحـو
ـرب الجزائري لملاحقة محمد بن الشريف ومحاربته . ولما كان هذا الاخير يعلم انه لا قبل لـه
مواجهة هذه القوات فقد استمر راجعا الى بلده ، وهناك فرق من كان معه من القبائل على أمل اللقاء
ـلم في الربيع القادم وتوجه الى سجلماسة ، فلم يتح بذلك الفرصة للقوات التركية لمحاربته ، فعادت
الى الجزائر بعد ان بلغت تلمسان ، ولا سيما وانها امرت بملاحقة ابن الشريف حتى سجلماسة ، او ان
امكاناتها تسمح لها بذلك ، فقد كانت تشكو من قلة التموين ، والوباء المنتشر فلم يتقدم اليها احد
وهي في طريقها الى تلمسان بمؤونة أو خيل (١).

وقد ادت غارات محمد بن الشريف العلوي على الغرب والجنوب الجزائريين الى تعطل التجارة
واهمال الزراعة لهروب الناس نحو الجبال المنيعة والجهات البعيدة (٢).

كما ادت غاراته الى ميل عديد من القبائل الى التمرد عن طاعة الاتراك ، كأولاد طلحة وحداج
وغيرها ، والى ميل بعضها اليه كحميان ودخيسة وغيرها ، وحتى اهل تلمسان ما لبثوا ان
مالوا اليه وخاطبوه ، وحرضوه على الاتراك (٣) ، مما كان ينذر بخطر كبير على نفوذ هؤلاء ليس فقط في
مدينة تلمسان والغرب الجزائري ولكن في كل بلاد الجزائر .

فما كان من باشا الجزائر بعد عودة القوات التي ارسلها الى الناحية الغربية ، دون قتال مع
محمد بن الشريف ، الا ان تشاور مع اهل ديوانه ومشورته في كيفية معالجة الموقف الخطير وطريقة
اعادة الهدوء والاستقرار الى الباشوية والتخلص من مثير الاضطراب عليهم ، فبدا لهم من الاجدى
ان يبعثوا له برسالة وسفارة للتفاوض معه في السلم .

كانت الرسالة بليغة ، وهي بتاريخ ١٥/ ٧/ ١٠٦٤هـ (٤) الموافق في ١/ ٦/ ١٦٥٤م حملها
الى الشريف اربعة من الرسل ، اثنان منهم من علماء الجزائر هما الفقيه عبد الله النفزي والفقيه
الحـاج محمد بن علي الحضري الجزائري ، والاثنان الآخران من اركان ديوان الباشا (٥)
اوضح باشا الجزائر وديوانه في بداية رسالتهم مساوئ ما اقدم عليه محمد بن الشريف من افعال واثارة
للفتن والاضطرابات في البلاد الجزائرية ، والاضرار التي نجمت من ذلك ، ولفتوا نظر مخاطبهم الى انه

---
(١) السلاوي : المرجع السابق، ص ٢١
(٢) نفسه : ص ٢٦
(٣) الدارعي : موقف القبائل واهل تلمسان ، رسالة باشا الجزائر في المرجع السابق، ص ٢٣-٢٤
(٤) (٥) نفس الرسالة : ص ٢٥

((والغاطف لا يا أوليه [illegible] بهذا الصدد : [illegible] التي [illegible] في [illegible] قواتهم امام الثبات [illegible]

[illegible] ولا البارود لمواسق لا يصبرون والبرود الغدر غارات تدك في المثل كذلك [illegible]وب

اسوار الجو... اما ، القبائل حلل على الغارات ثمن في سوق الا والذوابل الدروع [illegible]ة

الرواتب والرماة الدهون الا سيوف فيهدمها فلا يهدمها الكتائب اسوار

وحذروه بشدة وبحضرتكم من مغبة الاستمرار في الاغارة على البلاد الجزائرية بقولهم :

ولا تمدن باع المبادرة الى اوطاننا نتفش مخالب سطوة سلطاننا ..)) واكدوا حرصهم

[illegible] امن القبائل العربية وطمأنينتها فقالوا : ((وما مرادنا الا امان العرب في المواطن ليطيب

[illegible]ا جولان الانتقال في المشاة والمراعي ..)) . ونصحوه ان كان جادا في طلب الملك ...

[illegible]يه جهوده الى اخضاع حواضر المغرب التي لاتزال في قبضة زعماء البربر بقولهم : ((فان تعلقت

[illegible]متك بالامارة فعليك بالمدن التي مصروها عليك من البرابر فصار يدعى (1) لها بها على الغابر ...

[illegible]هد لها حبائلك لتذوق حلاوة الملك المعجونة بمرارة النجاة او الهلاك ..)) .

ويبين من هذه النصيحة انهم كانوا يريدون ابعاد اهتمام محمد بن الشريف عن الجزائر

[illegible]وادخاله في نزاع مع القوى الاخرى التي كانت قائمة في المغرب ليهنك قواه ويضعفه ويعجزه عن

[illegible]تهديد امنهم والطمع في ايالتهم .

وختموا رسالتهم اليه بلهجة لينة حيث ناشدوه الا يتدخل مرة اخرى في مقاطعة تلمسان

[illegible] تحت اى عذر من الاعذار لتكون العلاقات بينهم وبينه حسنة طيبة وجاء في رسالتهم بهذا الصدد :

((فناشدناك جدك من الاب والام ، ومالك فيه من اخ وخال ، الا ما تجنبت ساحات تلمسان

ولا زاحمتها بجموع رماة ولا فرسان . وان اشتهت الاعراب غارات بعضها على بعض فوجدنا اي

... اذ كلهم ، غائب الصواب محاني عن رأيهم ان لتعلموا . الغالبا على وضمنا الارض مطلق من [illegible]منا

[illegible] ذو جفاء ونفار ويصمهم عند الدول ماهم الثفار ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام ...

[illegible] الوشاة من الاقوام ..)) .

واما تلقى محمد بن الشريف الرسالة استاء ممن مضمونها ولهجتها ، وعاتب الرسل على ذلك ،

[illegible] ورد [illegible] بانهم مجرد رسل وعليه ان يجيب مرسليهم لا أن يعاتبهم . فكتب لهم كتابا لكنه لم يجب

[illegible] باشا الجزائر وديوانه الى ما اراد ، واعاد الباشا الرسل الى محمد بن الشريف ، ولكن هذه

المرة بدون كتاب ، وكان المطلوب هو تحديد الشريف العلوى لموقفه اما السلم معهم واما اعلان [illegible]

---

(1) اشارة الى الدلائيين (البربر) الذين كانوا يسيطرون على فاس وسلا وتطاوان وغيرها .

ولكن ليس على المستضعفين من القبائل ، كما كان يفعل ، وانما على الدولة العثمانية .

وقدم رسل الجزائر في مفاوضتهم مع الشريف حججا مقنعة ، وطرحوا مشكلة النزاع القائم
موضوعيا ، حيث قالوا : ((نحن وثقنا انك لتعمل معنا شريعة جدك ، وتقف عند حدك ، فما
بالك تحارب المسلمين ، ولا يأمر بضرب المستضعفين ، فان كان غرضك في الجهاد ، فرابط
الكفار الذين هم معك في وسط البلاد ، وان كان غرضك في الاستيلاء على دولة آل عثمان ،
فبرز اليها واستعن بالرحيم الرحمن ، فلا يكن (كذا) عليك في ذلك ملام ، فهذا ما يتمسك
به ، والسلام . واما ايقاد نار الفتنة بين العباد ، فليس من شيم اهل البيت الامجاد .
ولا يخفى عليك ان ما تفعله حرام ، ولا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين ، ولا قانون من قوانين
الاسلام ، وتوضح الاضرار التي نجمت من تدخل ابن
الحسن)) .

ومضى رسل الجزائر في بيان العيوب المتعددة ، فما جوابك عند الله في
الشريف قائلين : ((فقد تعديت حدودنا ، واجفلت من وطننا رعيتنا ، فما جوابك عند الله لي
هذا الذي تفعله في بلادنا ، وانت ابن رسول الله (ص) مع انه لم يجوزنا ان نفعله نحن في بلادكم
رعيتكم ، على اننا معولون على الظالم والجور عندكم ، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا ..)) (1) .
افتتح الشريف بحججهم ، واثر فيه كلامهم ، وقال : ((والله ما اوقعنا في هذا المحذور الا شياطين
العرب ، انتصروا بنا على اعدائهم ، واوقعونا في معصية ، والله نالهم غرضهم ، فلا حول ولا قوة
الا بالله)) (2)

وقبل ان يمضي من حكام الجزائر معاهدة سلام ، وحسن الجوار ، على ان يكون وادي التافنة
هو الحد الفاصل بين ايالة الجزائر ، وسلطان نفوذه ، وتعهد بالتزام ذلك ، واحترام الحد الجديد
قائلا : ((واني اعاهد الله تعالى لا اعرض بعد هذا اليوم ببلادكم ولا لرعيتكم بسوء ، وانسحب
اعدائكم ذمة الله ، وذمة رسوله ، ولا قطعت وادي التافنة الى ناحيتكم الا فيما يرضي الله ورسوله)) (3)

وقد وفى بما قطعه على نفسه من عهد ، وما التزم به ، وجدد اخوه الرشيد من بعده اتفاقية
العياشي من اتراك الجزائر (4) ولا يدخل ضمن فترة بحثنا النزاع الذي استجد بين الطرفين بعد
تولي السلطان العلوي مولاي اسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧م) ، او من جاء بعده .

ولهذا فان العلاقات بين اتراك الجزائر وزوايا الاشراف العلويين لم تكن
في البداية سلمية ، او ودية ، وان اتفاق الصلح الذي توصل اليه الجانبان في سنة ١٠٦٤هـ /
١٦٥٤م ، لم يضع حدا نهائيا لاطماع الاسرة العلوية ، وتدخلاتها في الجزائر ، وان زمام المبادرة
بالتدخل المباشر قد عاد الى يد الحكام المغاربة من بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر
الميلادي بعد ان كان بيد حكام الجزائر الاتراك ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، مما
يدل دلالة واضحة على ضعف الاتراك في الجزائر في عهد الباشا واستسلام بيلهم الى السلام ، وتنازلهم
عن فترة مد نفوذهم خارج من ذلك النصف ، وان كان التدخل في شؤونه بسبب او لآخر من ممارسة
سياستهم .

---

(1) (2) (3) السلاوي : الاستقصا ج ٧ ص ٢٦
(4) T. كور : المرجع السابق ص ١٨٢ .

خاتمة الباب الاول :

ومن كل ماتقدم يمكن القول ان العلاقات السياسية بين البلدين في الفترة ٩٢٢ـ ١٠٦٩هـ /
١٥ ـ ١٦٥٩م كانت متذبذبة ، ولم تكن علاقات ود وحسن جوار دائما او تعاون ، كما كان
يفترض ان تكون بين بلدين متجاورين لهما نفس البنية البشرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية
متضمنين قاما على اسس متماثلة ومنها الجهاد ضد الكفار وتحرير ما وقع تحت الاحتلال الاوربي
المسيحي البرتغالي والاسباني ، بل كانت متذبذبة بين سلام قلق مجمد لتوازن القوتين
وحرب عنيفة حين اختلال ذلك التوازن ، او حين كان يبدو كذلك .
ـ لم تتحكم في العلاقات السياسية بين البلدين المتجاورين لا الوحدة في التكوين البشري ،
الاجتماعي والديني ، ولا معاناة البلدين في انهاء الاحتلال الاوربي المسيحي الذي كان وجوده
تحديا للشعور الديني والقومي ، واستنزافا للاقتصاد ، وانما تحكمت فيه الرغبة المتشابهة لحكام
البلدين في السيادة على البلد الآخر لتحقيق اهدافهم الاقتصادية ولتوسيع نفوذهم ، ودعم
مراكزهم وهيبتهم ليس فقط في الاطار المحلي للبلدين ، ولكن ايضا في العالم الاسلامي والاوربي .
لهذا كان الصراع مظهرا من مظاهر تلك العلاقات . وقد كان صراعا عنيفا احيانا تمثل في حملات
عسكرية متبادلة ، وصراعا خفيا تحت ستار السلام والمفاوضات . وفي الواقع كان الصراع عنيفا لما
لم يكن احد الطرفين عارفا تماما بقوى الفريق الآخر . وعندما شعر الطرفان بأن تلك القوى
متعادلة فان السلام ساد وان كان تارة حذرا ، واخرى متوترا الا ان كلا الطرفين اخفق في تحقيق غرضه
فالسعديون اخفقوا في محاولاتهم الجديدة في اختراق سد العثمانيين في الجزائر
لتحقيق طموحاتهم في انشاء امبراطورية تشمل ليس فقط الجزائر دولة الموحدين السابقة ،
ولكن ايضا مصر وربما غيرها كما فعل اسلافهم الفاطميون فلم يبق لهم الا ان يتوجهوا الى الجنوب الى بلاد
السودان لمد نفوذهم وهو ما فعلوه ، ونجحوا في تحقيقه في
عهد المنصور ولو ان ذلك لم يدم طويلا بعد المنصور : ومن اجل الحفاظ على الاستقلال فان حكام المغرب
لم يترددوا في التقرب من القوى الخارجية المعادية لجيرانهم الاتراك الطامعين في المغرب مما جعل العلاقات غير ودية دائما .
والعثمانيون اخفقوا في احتوائهم للمغرب رغم المحاولات العديدة ، العسكرية والسياسية

وذلك لا يعود فقط الى : ـ
ـ رفض المغرب الحالق للاستجابة العجم لفكرة المغاربة او اغلبهم الى الاتراك على انهم
غرباء اعاجم ، بعيدون عن اصالة الشرف العربي المحمدي التي تخولهم السيادة على العالم
الاسلامي .
ـ قوة الدولة السعدية نفسها المؤيدة بقوى كثيرة ، دينية وسياسية ، في المغرب وحتى في
الجزائر والمدعمة بقوة عسكرية منظمة تنظيما حديثا مقتبسا من التنظيم العثماني نفسه والاوربي .
والمستندة الى قوى اوربية معادية او مسالمة للدولة العثمانية يمكن ان تاتي لمساعدتها . وان
تمدها بالسلاح والرجال والمال اذا ما دعت الضرورة ، وفي مقدمة تلك القوى الاسبان والبرتغاليون
الذين كانوا على استعداد للوقوف الى جانب المغرب ، او بانفسهم لمنع امتداد النفوذ العثماني
الى المغرب القريب جدا من اسبانيا والمشرف على طريق ملاحتهم عبر الاطلسي لما في امتداده
اليه من خطر على بلادهم وعلى ملاحتهم .

وانما اتفاقهم في ضم المغرب يعود الى تردد الدولة العثمانية نفسها ، وعدم جديتها فـي ضمه اليها ، ولذلك التردد اسباب من اهمهـا : -

- اخذ الدولة العثمانية ماتقدم ذكره في الحسبان .
- انشغالها في حروبها في شرق اوربا وبلاد فارس .
- البعد المكاني للمغرب عن مركز الدولة ، وعدم اطمئنانها تماما الى نوايا حكام الجزائـر الاقويـــــاء .
- الضعف الذى انتاب الدولة العثمانية بعد سليمان واضطراب احوال الامبراطوريـــة العثمانيـة في المشـرق وحتى في الجزائـر خاصة في عهد الباشاوات .

٥- ان العلاقات السياسية بين المغرب والجزائر او بالاحرى بين المغرب والدولة العثمانيـة كانت في الواقع العامل الانهر في الابقاء على القواعد الاسبانية والبرتغالية في البلدين لان تلك العلاقات التي اتسمت طابع العنف تارة والتوتر اخرى ، كانت عائقا في وجه حركة جهادية مشتركة ضد القوى الاوربية الغازيـة والطامعة على السـواء .

الباب الثاني

العلاقات الاقتصادية بين القطرين

الفصل السابع : البنية الاقتصادية في القطرين والعوامل المؤثرة فيها .

الفصل الثامن : ملامح العلاقات الاقتصادية .

الفصل السابع

البنية الاقتصادية في البلدين والعوامل المؤثرة فيهما

قد يجد الباحث نفسه وهو يلج باب العلاقات الاقتصادية ، منساقا نحو نهج النهج
داء الذي اتبعه في بحث العلاقات السياسية ، اي ان يطرح ملامح الحياة الاقتصادية في
لا القطرين في هذه المرحلة ثم ، ينطلق الى العلاقات بينهما ، علما بأن صورا متفرقة من
لك الحياة الاقتصادية قد اشير اليها بطريقة او بأخرى في الحياة السياسية للقطرين وعلاقاتهما -
يستوجب هذا الانسياق انه من العسير فهم العلاقات الاقتصادية مالم تدرس البنية الاقتصادية
ي كل من القطرين والتطورات التي طرأت عليها خلال هذه المرحلة . وهذا ماجرى فعلا ،
لكن تبين من الدراسة المستفيضة والتفصيلية للحياة الاقتصادية في البلدين ، ان هناك تشابها
بين البنيتين ، والعوامل المؤثرة فيهما . ولما لم تأخذ العلاقات الاقتصادية منحى دبلوماسيا
ولا حتى دخلت عنصرا فاعلا وواضحا في علاقات السلم والحرب والتوتر ، اي لم تكن مدار مباحثات
بين الحكومات ، او اتفاقات ، او معاهدات ، بحسب ماتوافر من الوثائق ، فانه رؤي ان تطرح
موازنة بين الحياتين الاقتصاديتين في البلدين في هذه المرحلة ، من خلال موازنة العوامل
المؤثرة فيهما ، بل ان هذه الموازنة هي في حد ذاتها نوع من العلاقات . وهكذا فان
المستكشف للعلاقات الاقتصادية بين القطرين ، يتضح له من خلال تتبعه للحياة الاقتصادية
فيهما ، ان تلك الحياة ، بل وتلك العلاقات نفسها قد تأثرت بعوامل متنوعة ومتشابهة
على الاغلب بعضها قديم ، وبعضها جديدا . اما العوامل القديمة اي المتوارثة من الماضي
البعيد ، او الموروثة من الحقبة السابقة لهذه المرحلة مباشرة ، فيمكن تصنيفها بدورها
الى عوامل داخلية وخارجية :

ولا : العوامل الداخلية الموروثة ، وتأتي في طليعتها :

ـ الجغرافيا الطبيعية للبلدين : فمن المعروف ان الجزائر والمغرب بلدان متجاوران ،
لا تفصل بينهما حدود طبيعية . ومن المعروف انهما يقعان في شمال افريقيا ويطلان من
الشمال على البحر المتوسط ، وتغوص اقدامهما في الجنوب في رمال الصحراء الافريقية
الكبرى . الا ان للمغرب واجهة اخرى من الغرب يطل بها على المحيط الاطلسي ،
ولا تملك الجزائر نظيرا لها .

ومن ناظلة القول التأكيد ان التضاريس في البلدين تشبه بعضها : فهي في الجزائر امتداد لما هي عليه في المغرب ،مع فروق طفيفة : ففي كل منهما سهول ساحلية على البحر المتوسط ، وتمتد فيهما جبال الاطلس المرتفعة المشهورة من الغرب الى الشرق ، وعلى الساحل وفي الداخل بتفرعاتها التلية والصحراوية ، حاصرة بينها منطقة هضاب عالية . اما المناخ فهو متوسطي في الشمال والوسط ، وصحراوي في الجنوب . ومع ان الواجهة الاطلسية في المغرب ذات امطار اوفى من المناطق الاخرى ، الا ان الانهار في البلدين لا تعدو ان تكون انهارا سيلية متشابهة ، انخفض غزارتها جدا في موسم الجفاف ، وتطول حتى الفيضان في موسم الامطار .

وقد نتج عن عناصر تلك الجغرافية الطبيعية المشتركة للبلدين ، واولها الموقع الجغرافي بين الصحراء الافريقية وماوراءها من بلدان الغرب الافريقي في الجنوب ذات الانتاج المغاير ، وبين البحر المتوسط في الشمال ، المنفتح على القارات الثلاث ، والذى تصب فيه مختلف انواع السلع . ان كان البلدان منطقة عبور بين اواسط افريقيا الغربية وهذا البحر ، وبالمقابل ومن ثم ، كانت لهما علاقاتهما ، وبصفة خاصة التجارية والسياسية مع بلاد السودان جنوبهما (1) ، كما ان هذا الموقع وجههما ايضا الى متنفسهما البحرى الشمالي ، وماوراءه ، فكانت لهما صلاتهما السياسية والاقتصادية بل والثقافية مع بلاد اوربا التي تطل على هذا البحر من جنوبها ومع كل حوضه الشرقي (2) . ومثلما وجه الموقع الجغرافي سكان البلدين نحو الجنوب والشمال ، فانه كان من الطبيعي ان يوجههما نحو الشرق ايضا . وفي هذا الاتجاه ، كانت الجزائر هي التي تلك الحدود الاممن لانها هي التي تلامس المغرب الشرقي مباشرة (4) ، ومنه الى المشرق . فاتصال المغرب بهذا البعد كان لا يمكن ان يتم ، ووسائل الانتقال البحرية والبرية على ماكانت عليه آنذاك ، الا عن طريق الجزائر . كما ان اتصال الجزائر بالواجهة الاطلسية كان لا يمكن مبدئيا ان يجرى الا عبر المغرب .

وهكذا رسم الموقع الجغرافي للبلدين خطوط الاتصال التجارى التي تربطهما باوربا شمالا ، وبالسودان وافريقيا الغربية جنوبا ، وبالمغرب الشرقي والمشرق شرقا وبالاطلسي غربا

(1)Devisse (J):Routes de Commerce et Echanges en Afrique Occidentale en Relation avec la Méditerranée, in R.H.E.S.,t.50, Paris 1972.
La Fousse(de):Relations du Maroc et du Soudan A Travers les Ages. Paris 1924.
Carette(E.):Du Commerce de l'Algérie avec l'Afrique Centrale et les Etats Barbaresques. Paris 1844.
(2)Mas- Latrie(de):Traités de Paix et de Commerce et Documents Divers. Paris 1872.
Masson(P.):Histoire des Etablissements et du Commerce Francais dans l'Afrique Barbarèsque. t.1 , Paris 1903.

(4)Prax(M.):Commerce de l'Algérie avec la Mèoque et le Soudan. Paris 1849.

وبلاحظ ان هذا تلك الخطوط ، كما هو واضح تشابه وترابط ، بل تواصل وتداخل . اثر الهام للموقع الجغرافي ، ظل مستمرا في هذه المرحلة من التاريخ ، كما كان عليه في المرحلة السابقة ، اى ان العلاقات التجارية والسياسية للبلدين كما رأينا كانت نشطة مع السودان ، وفعالة مع أوربا ، ومتينة مع المغرب الشرقي ومع المشرق وفي الوقت ذاته فيما بينهما ، على الرغم من التذبذب الذى تركته العلاقات السياسية العالمية والمحلية خلال بعض الفترات ، في تلك العلاقات كما سبق .

ولم يكن الموقع الجغرافي وحده هو الذى ترك اثره في الحياة الاقتصادية ، بل ان العوامل الطبيعية المتشابهة للاخرى كان لها نتائجها البينة فيها . فالتقارب في التضاريس ، المناخ ، والمياه ، والتربة ، خلف عبر العصور ، وفي المرحلة المدروسة ايضا ، تماثلا في الانتاج الزراعي ، والمحاصيل الزراعية (1) . فقد انتج كلا البلدين خلال هذه المرحلة كما انتج في المرحلة السابقة لها ، القمح ، والشعير ، والبقول من المواد الغذائية ، والقطن والكتان ، والقنب ، والحلفا من المواد النسيجية . وزرعا من الاشجار المثمرة ، الزيتون ، والنخيل ، والتين ، والكروم ، والجوز واللوز ، والحمضيات ، والرمان ، والعناب والخوخ ، ثم التوت لتربية دود القز ، وان بدا هذا النبات جديدا نسبيا ، اذ ان الاندلسيين المهاجرين هم الذين زادوا في زراعته (2) . وفي كلا البلدين ايضا نمت الغابات في مرتفعات الاطلس المطيرة ، كغابات الارز ، والسنديان الفليني ، والسنوبريات وغيرها ، لتزود البلدين بالخشب اللازم لصناعة السفن ، والاثاث ، وكثير من ادوات المنزل والزراعة ، وانتاج الفحم ، وغيرها من الصناعات . هذا بالاضافة الى ما كانت تقدمه من عسل نحل وشمع . كما نبتت الاعشاب متماثلة في الهضاب الوسطى ، وعلى حواف الصحراء ، لتكون مرعى لقطعان الماشية المتنوعة والكثيرة ، في البلدين من : غنم ، وابل ، وابقار ، وخيول ، وغيرها . فتربية الماشية كانت ، ومازالت خلال المرحلة المدروسة ، من النشاطات الاقتصادية الهامة في البلدين ، تقوم به على الاغلب ، القبائل البدوية ، وتمثل واحدة من دعامات الاقتصاد فيهما (3) ، بما تنتجه تلك الماشية من لحوم ، والبان ، وصوف ، ووبر وجلود ، همي تساعد بعض السكان في غذائهم ، وملبسهم ، ومسكنهم ، وبصفة خاصة القبائل البدوية منهم . وفي الوقت ذاته فان الاصواف والجلود كانت من المواد التي يكثر الاقبال عليهما في مجال التجارة الخارجية . فالغطاء النباتي والزراعي اذا هو في احد البلدين :

(1) انظر عن الانتاج الزراعي والمحاصيل الزراعية المتماثلة وكذا عن الماشية وتربيتها في البلدين : الوزان : المرجع السابق (الجزآن الاول والثاني) ، ومارمول المرجع السابق الجزآن الثاني والثالث

(2) هايدو : الطوبوغرافيا / في / المجلة الافريقية / عدد ٩٠ ص ٤٦٢ - ٤٦٤ ، والوزان المرجع السابق جـ١ +جـ٢ ومارمول جـ٢ في صفحات متفرقة ص392 وغيرها .

(3) كاريت : المرجع السابق ص ١٣ - ١٥

البلدين امتداد لما هو موجود في البلد الآخر ، ولكن هذا لا يمنع من توافر بعض المواد المزروعة في احد البلدين ، لا تشير المصادر الى مايماثلها في البلد الآخر كزراعة قصب السكر (١) . والنيلج في المغرب (٢) ، وافتقادهما في الجزائر .

هذا علما انه من البديهي ان تختلف كمية الانتاج في كل مادة ، في كل من البلدين بحسب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة . وفي الواقع قد تتحكم بعض الظروف الطبيعية نفسها احيانا في كمية ذلك الانتاج ، بل وفي مجموع الاقتصاد ومنها بالذات العوامل المناخية . فمن المعروف ان اجزاء واسعة من البلدين ، تفتقد الانهار والينابيع والآبار ، وكانت تعاني عبر العصور قلة في الامطار ، وعدم انتظام فيها . فقد تشح السماء ، فيصيب الجفاف تلك البقاع (٣) ، وتزحف الصحراء الى حواف الساحل ، وتصيب بالبلاد المجاعة ومايتبعها من اوبئة . وقد تهطل في اجزاء اخرى بغزارة تتدفق معها السيول وتفيض الجداول ، وتترك بالتالي آثارها المخربة (٤) .

وخلال المرحلة التي نحن بصددها ، عانت الجزائر والمغرب هذا الامر المزدوج ، فتعرض البلدان لعدد من المجاعات ، ولكثير من الاوبئة ، ولا سيما وباء الطاعون ، الذي اهلك اعدادا كبيرة من القاطنين في جميع الميادين ، وافقد البلدين جزءا كبيرا من قواهما البشرية العاملة ، مما اضعف المجتمع بمجموعه ، واذبل حيويته ، وبصفة خاصة عندما كانت تتلاحق تلك النكبات في فترات زمنية متقاربة .

ومثلما كان للتشابه في العوامل الطبيعية السالفة الذكر اثره المتماثل في الفعاليات الزراعية في البلدين ، فان اطلالة كل من الجزائر والمغرب على البحر المتوسط من الشمال ووجود الجبهة الاطلسية في المغرب ، في الغرب ، وجه سكان السواحل في تلك البقاع الى منتجات البحر ، ومنها بالذات صيد الاسماك . وبالفعل كان صيد الاسماك من الفعاليات الاقتصادية الدائمة في البلدين خلال هذه المرحلة ، كما كانت دائما ، لانه تقدم الغذاء الرئيسي لسكان بعض المناطق الساحلية في البلدين مثل دلس (٦) في الجزائر وبادس في المغرب (٧) ، وسلعة تصدرها المغرب بصفة خاصة الى الخارج (٨) .

واذا كان صيد السمك من النشاطات الاقتصادية للبلدين ، فان صيد المرجان

---

(١) كانت زراعة قصب السكر من اختصاص اقليم السوس بغربي جنوب المغرب انظر الوزان : المرجع السابق ج١ ص٨٨ و ٩٣
(٢) كانت نبتة النيلج تنبت بكثرة في اقليم درعة بشرقي جنوب المغرب انظر الوزان : المرجع السابق ج٢ ص٤٢
(٣)(٤) نفس المرجع السابق : ج١ص٢٨٨ و ٢٩٥
(٥) نفسه : ج١ ص[illegible] وروزنت برجر : المرجع السابق
(٦) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٤٠٩ — ٤١٠
(٧) الوزان : المرجع السابق ج١ ص٢٧٥
(٨) نفسه : ج١ ص١٢٦

تفردت به الجزائر دون المغرب ، لتوافره على سواحلها الشرقية . وقد كان له شأن في اقتصادها ، وفي حياتها السياسية في هذه المرحلة ، لان استثماره لم يكن بيد اهل البلاد ، وانما اعطي للاوربين الجنويين فالفرنسيين . (1) ومثلما تفردت الجزائر بصيد المرجان فان المغرب اختصت دون الجزائر بجمع العنبر الرمادي من المحيط الاطلسي (2) .

٢ـ الافق الاقتصادي المحدود نسبيا ، الذي رسمه الحاكمون في الفعاليات الاقتصادية المستوعة ، لانتاجهم فغدا مجموع الاقتصاد في هذه المرحلة وكأنه لا هدف له سوى ارضاء حاجة استهلاك السوق المحلية في الدرجة الاولى ، كما كان عليه الامر في المرحلة السابقة، فقد حافظوا في البلدين على الطرائق ، والادوات التقليدية المتوارثة ، التي كانوا يستخدمونها في الانتاج الاقتصادي لمختلف الوانه ، والتي كانت تنتقل على الاغلب من الاب الى الابن دون محاولة جادة للتطوير او الابتكار فيها . ففي الزراعة مثلا ظل المحراث الخشبي ، وادوات الحصاد ، والدرس ، وغيرها من الادوات الزراعية بمواصفاتها السابقة ، وكذلك اساليب الزراعة ، ووسائل الري . والامر نفسه يقال عن ادوات الصناعة وطرائقها ، والنظام التي كانت تتحكم فيها . فالحرفة او الصنعة شبه احتكار اسري ، والنقابات (الطوائف)لها قيودها عليها . ومن ثم فالانتاج الصناعي بمجموعه ،ظل خلال هذه المرحلة في البلدين مشابها في نوعيته ما كان عليه في الماضي ، ماعدا بعض تجديدات ضئيلة ، اما ادخلها الاندلسيون ، كصناعة الحرير في الجزائر وتطوير انوال نسيجها ، وصناعة الشواشي والارتقاء بها ، (3) ، واما فرضتها ظروف الاحتكاك مع العالم الخارجي ،وبصفة خاصة مع اوربا والدولة العثمانية ، ومثل على ذلك ايجاد صناعة البنادق والمدافع في البلدين ، الى جانب صناعة الاسلحة التقليدية المعروفة كالسيوف والرماح والحراب وغيرها ، وتطوير صناعة السفن والتوسع فيها للاستجابة لمتطلبات الغزو البحري ، وحاجة البلدين لتكوين اسطول تجاري وحربي (4) .

وهكذا كان مجموع الصناعات في البلدين في هذه المرحلة متماثلا مع الماضي ومتشابها فيما بينهما . فهناك الصناعات الغذائية المعروفة كطحن الحبوب في الارحية المائية ، وصنع الخبز والبسكويت ، وصناعة الالبان وبصفة خاصة منها السمن الذي كان له سوق نافقة في السودان واستانبول وجنوة ،وصناعة الزيت من الزيتون ، والزبيب من العنب،

---

(1) مهمة دفترى : رقم ٢٥ ص ١٢٢ و د وغرامون المرجع السابق ص٤٥ ، مرسيي المرجع السابق ج٣ ص ١٥٠ – ١٥١

(2) الوزان : المرجع السابق ج١ ص٨٨ ومارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣

(3) ونور الدين ـ عبد القادر صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص 140 و محمد المنوني ملامح ... في مجلة مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧٦ ص ٨٤٧

(4) الوزان : المرجع السابق ج١ ص ٢٠٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، وغيرها . عابد والطوبوغرافية عدد ٨٣ في المرجع السابق ص ٤١٤ وعدد ٨٥ ص ٥٦ ومارمول المرجع السابق ج٢ص56 ٤١٣

وكان يصدر الى اوربا (١) ، والخصر (٢) ، ويبدو انها كانت لاستهلاك المهود بالدرجـــة الاولى ولاسارى النصارى ، وصناعة السكر التي انفرد بها المغرب دون الجزائـــــــر.

وهناك ايضا الصناعات النسيجية ومايتبعها من صباغة وخياطة ، وعلى رأسها الصوفية ثم القطنية والكتانية ، وصناعة الحصور من الحلفا . ثم صناعة دباغة الجلود التي كان للبلدين شهرتهما فيها وبصفة خاصة المغرب ، ومايتفرع عنها من صناعات جلدية متنوعة (٣).

ومن الصناعات القائمة في البلدين على السواء الصناعات الخزفية والفخارية (٤)، والصياغة وسك النقود ، وكانت هاتان الصناعتان في البلدين بيد اليهود (٥).

وكان للبلدين ايضا صناعتهما المعدنية المحدودة اى استخراج المعادن وتصنيعها ، فالحديد (٦) والنحاس (٧) كانا يستخرجان من جنوب المغرب ، وكذلك الفضة (٨)، كذلك كان يستخرج الحديد بكميات محدودة من داراره (٩) وكوكو (١٠) وبجاية (١١) في الجزائر . وعلى هذا الحديد كانت تقوم صناعة الاسلحة كالسيوف والخناجر والحراب والفولاذ . كما كانوا يصنعون من ملح البارود البارود ، ومن النحاس المستخرج من مواقع عديدة في البلدين الاواني النحاسية المتنوعة.

وفي الفترة موضوع الدرس فان الفعاليات الانتاجية لم تستطع تلبية حاجة السوق المحلية من المواد الغذائية ، لما كان يتسبب في غلاء الاسعار والمجاعات . ومن المواد الصناعية ايضا مما جعل البلدين يستوردان بقية حاجتهما من اوربا وغيرها .

اما التجارة فقد كانت دوما احد الانشطة الاقتصادية التي يمارسها الكثيرون فـــي البلدين ، رغم العوامل السلبية العديدة القديمة التي كانت تعاني منها . واهمها انعدام الطرق المعبدة ، والرامنة والممهدة ، وتباعد محطات الاستراحة المجهزة بما يلزم التاجر المسافر ، كالغذاء له ولراحلته ، والفنادق وغير ذلك واستمرار وسائل النقل البـــــرى كما كانت تعتمد اساسا على الابل بالدرجة الاولى ثم على بقية الحيوانات ، اضف الى ذلك الانتاج الزراعي والصناعي المحدود . هذا الى جانب العوامل الاخرى الآتي ذكرهـــا التي كان تأثيرها السلبي ينعكس عليها وعلى بقية الفعاليات الاقتصادية .

(١) هايدو : الطبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٣ ص٤٤١ وعدد ٨٤ ص١٨٥ وعدد ٨٥ ص٤ . التمبروتو : المصدر السابق ص٢٤ - ٢٥ مارمول : المرجع السابق ج٣ ص٢٩
(٢) الوزان : المرجع السابق ج١ ص٣٠٣ ، ٣٠٤ ، وغيرها
(٣) نفسه : المرجع السابق ج١ ص٣١١
(٤) نفسه : ص٣١١ وبريموداي : التجارة ... ص٢١ الوزان : المرجع السابق ج١ ص٢٣٤
(٥) هايدو : المرجع السابق عدد ٨٦ ص٩١ والوزان
(٦) يستخرج الحديد من مناطق عديدة في جنوب المغرب وشرقه انظر الوزان المرجع السابق ج١ ص٢٨٥ ، ١١٥ ، ١٣٥ ، ٢٩٣ وغيرها
(٧) نفســه : ج١ ص١١ ، ج٢ ص٤٢١
(٨) نفسه : ج١ ص٩٤ - ٩٥
(٩)(١٠)(١١) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣٢٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤

ومن العوامل المتشابهة لخضوع الاقتصاد في معاملاته المختلفة ، وفي ضرائبه في البلدين للاصول الاسلامية السنية المالكية ، التي كانت بدورها عاملا في تثبيت الافق الاقتصادي المحدود وتجميده المشار اليه انفا . واذا كان العثمانيون قد تبنوا الفقه الحنفي في كل امور تشريعهم فانهم تركوا بالتالي لسكان البلاد حرية التعامل بحسب اصول الفقه المالكي السائد لديهم . فالتقيد بتعاليم الدين حول نسبة من الربح يجب الا تتجاوز حتى لا تتحول الى استغلال ، وتحريم الربا ، ودفع الزكاة على الاموال المكدسة مثلا ، امثلة لبعض القيود التي كانت تكبح جماح المغامرات الاقتصادية الكبيرة التي اخذت اوربا تدخل ميدانها ، في مطلع العصور الحديثة ، وكان لها نتائجها البعيدة في تغيير بنية الاقتصاد فيها .

تجزؤ المغرب والجزائر واضطراب احوالهما السياسية منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي . وحتى تثبيت الحكم السعدي في المغرب ، والحكم العثماني في الجزائر . فقد تبين في بحث الاوضاع السياسية في البلدين انهما كانتا مجزأتين الى وحدات سياسية صغيرة متنافسة ومتناحرة فيما بينها ، هذا بالاضافة الى صراع الاسر الحاكمة الكبرى في كل من الجزائر والمغرب . مما جعل الاقتصاد يتقوقع ضمن تلك الوحدات السياسية المتناحرة أولا ، وثانيا جعل الامن والاستقرار يضطربان ، وكلا الامرين لم يكونا مساعدين على تحسن الاوضاع الاقتصادية التي لا تزدهر عادة الا في اجواء الوحدة السياسية والسلام .

تنمر القبائل البدوية ومنها العربية ، التي كانت تقدم خدماتها العسكرية لمن يطلبها منها من القوى المتنازعة . وقد وجدت هذه القبائل في ضعف السلطة المركزية في كل من المغرب والجزائر ، وعجزها عن قمع المتمردين فرصتها الذهبية كي تقوم بالغارات على الطرق ، والحقول ، والاسواق ، والقرى ، والمدن ، او تهددها بالهجوم اذا لم تستجب لما تفرضه عليها من اتاوات ، مرهقة ، ولاسيما عندما تنحبس الامطار وتفتقد سبل رعي مواشيها .

وقد نجم عن اشاعة هذه القبائل الخوف والتهديد آثار خطيرة على الاقتصاد في البلدين :

آ- هجر كثير من الفلاحين حقولهم وساتينهم الخصبة ، وتركوها بورا . كما فعل مثلا اهل المناطق المحيطة بمستغانم ، والجزائر (١) ، والمدية ، (٢) ومجانة (٣) في بلاد الجزائر ، واهل تينيسه (٤) ، بمقاطعة مراكش ، واهل مدينة مراكش (٥) .

---

(١)(٢) الوزان ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٤٣ ، ٣٤٢ .
(٣) مارمول : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٢١
(٤) الوزان : المرجع السابق جـ ١ ص ٩٧
(٥) نفسه : جـ ١ (مراكش)

مما ادى الى تقلص مساحة الارض المزروعة ، وبالتالي الى قلة الانتاج ، وما يتبع ذلك من غلاء الاسعار ، وتزايد الفقر وحلول المجاعات وانتشار الاوبئة .

وقد فر عديد من اولئك الفلاحين الخائفين الى الجبال ، حيث آثروا سكناها على سكنى السهول ، حماية لانفسهم واسرهم ونتاج عملهم ، على الرغم من صعوبة الحياة فيها . وكان من جراء ذلك اكتظاظ الجبال بالسكان ، وتخلخل السهول (1) .

- خراب عديد من المدن ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تخريب الاعراب لمدينة تفوف ، التي كانت كما يقول مارمول عاصمة لمقاطعة درعه ، ومركزا لتجارة مزدهرة مع بلاد السودان واوربا وبلاد البربر (2) ، وتضييقهم الخناق على مدينة مراكش حتى كادت تصاب بالخراب التام اذ اصبحت خالية من ثلثي سكانها ، والخرائب تملأ طرقاتها (3) . ولم تكن اصابة الجزائر اقل فداحة ، اذ أن هجمات الاعراب خربت مدن مازونة ، وارزيو ، ومسيله ، وبسكره . (4)

ولا يخفى ان المدن هي المراكز التي تحتضن الصناعه ، وفيها تزدهر ، وخرابها أو تهديدها يعني خراب مراكز الصناعه ، او الضغط عليها وتقليص نشاطها .

اضطراب امر التجارة في عديد من المناطق التي تكثر فيها هجمات هؤلاء الاعراب . اذ لم يعد التجار يجرؤن على الانتقال اليها خوفا على انفسهم ، واموالهم . فلم يعودوا يذهبون مثلا الى نواحي تفيفه (5) ، وتينمل (6) ، في مقاطعة مراكش ، ولم يعد سكان جبل زيز الواقع جنوب شرقي مملكة فاس يخاطرون في الانتقال الى سجلماسة لبيع محصولهم من الصوف والسمن الا بعد عودة الاعراب الى الصحراء . ومع ذلك كان هؤلاء كثيرا ما يفاجئونهم بهجوم كثيف فيقتلونهم ويسلبون سلعهم (7) ، والشيء نفسه يقال عن الجزائر فتجار مديه اجبروا على دفع ضرائب للاعراب حتى يسمح لهم بالاستمرار في تجارتهم مع الجنوب الجزائرى (8) .

وكان الطريق بين اسواق عديدة داخلية في المغرب ، وبين مدينة فاس وتلمسان محفوفا بمخاطر اعتداءاتهم على التجار ، سواء كانوا فرادى او في قافلة ، بحيث لا تكاد تسلم قافلة تجارية من التعرض الى الهجوم والنهب والسلب ، ولا سيما ان هي لم تدفع رسوما

---

(1) انظر حول ظاهرة كثافة السكان في الجبال الجزائرية والمغربية الوزان : المرجع السابق ج1 + ج2 ومارمول : المرجع السابق ج2 (الفقرات المخصصة للجبال)
(2) مارمول : نفس المصدر ج2 ص 120
(3) الوزان : المرجع السابق ج1 (مدينة مراكش)
(4) انظر عن هذه المدن الوزان : المرجع السابق ج2 ومارمول : المرجع السابق ج2و3
(5)(6) الوزان : المرجع السابق ج1 ص 111 - 112
(7) نفسه : ص 217 - 218
(8) نفسه : ص 251

تة لتاء مرورها من منطقة الى اخرى (١) . وكذلك كان حال الطريق بين المغرب
د السودان حيث تنتقل القوافل التجارية الهامة ، وحيث كانت مهددة بهجوم عرب
د عمران وغيرهم (٢) .

وامر مماثل كان يجري في الجزائر ، حيث يشير الوزان الى ان تجار قسنطينــة
طروا الى استصحاب جنود مسلحين لحماية قافلتهم (٣) ، وورد في وثيقة اسبانية فــي
عهد العثماني ان قافلة تجارية كانت متجهة الى هنين ، المنفذ البحري لتلمسان بقصد
جارة مع البنادقة ، قد تعرضت الى هجوم من قبل العرب ، ولولا انها لم تكن محروسة
راد مسلحين لاستولوا عليها (٤) .

فالتأثير السلبي لغزو القبائل البدوية على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية أمــر
ي في المرحلة السابقة للمرحلة المدروسة ، بل وخلال المرحلة نفسها . وبه يفســر
ض المؤرخين المعاصرين التدهور الذي آلت اليه الجزائر فيقول : عن الجزائر ((فهــو
المغرب الاوسط) قد اصبح منطقة تجوال تعيث فيه القبائل العربية والمحلية ، وتنشــر
الخراب)) (٥) . وهذا ما جعله موضع طمع البرتغاليين في فاتحة القرن السادس عشــر
ي ما غزوا في سنة ١٥٠٥ المرسى الكبير ، وجشع الاسبان ، مستغلين ضعف السياسي
لاقتصادي .

ولكن ليس من الموضوعية ان يفسر كل ما لحق بالحياة الاقتصادية من وهن بغــزو
قبائل البدوية ، لان في هذا التفسير وحده مغالاة لا شك فيها . فالذي ساعد على أن
ن للقبائل الغازية هذا الاثر السلبي هو الصراعات الداخلية ، والمنازعات بين القوى
سياسية المحلية في كل بلد ، وبين القوى السياسية في البلدين . وانصافا للحقيقــة ،
بد من الاقرار ان القبائل العربية التي استولت على بعض السهول في الجزائر في الفترة
سابقة لمرحلة دراستنا ، قد اخذت تستقر على الارض ، وتنجذب الى العمل الفلاحــي .
د أشار الى ذلك الوزان نفسه حين تحدث عن ريف عنابة ، ونشاط قبيلة مرداس العربية
ه ، وذلك الانتاج الوفير الذي كانت تحصل عليه من استغلالها له (٦) ، والذي كان
مل رخاء لهذه المدينة ، لولا ما كانت تتعرض له من تعفير الحكام ، وتهدل الايدي عليها .
ن البدو الرحل في رحلاتهم الصيفية في الجزائر الى الشمال والشتوية الى الصحراء فــي

---

(١) نفسه : ج١ ص ٤٤
(٢) مارمول : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤
(٣) الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦٨
(٤) بريمودا ي : الوثائق المنقلة ص ٥٢
(٥) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ص ٦١
(٦) الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧٠

الجنوب ، كانوا يسهمون في التجارة الداخلية ،بما كانوا ينقلونه هم انفسهم من بضائع الشمال الى الجنوب من قمح وصوف ، ومن سلع الجنوب الى الشمال ، من تمر وانسجة صوفية . كما كانوا يسهمون في تنشيط الصناعة النسيجية بتوفير الاصواف لها (١) . ويمكن ان يعمم هذا القول على القبائل المتنقلة بين الجزائر والمغرب ايضا . والقبائل المتنقلة بين الجنوب الشرقي للمغرب وشمال شرقه (٢) .

اما العوامل الخارجية الموروثة من المرحلة السابقة والتي ظل اثرها قائما في جزء صغير اوكبير من المرحلة المدروسة ، والمؤثرفي اقتصاد المغرب والجزائر على السواء ، فانه يمكن ابرازها بالاحداث التالية :

أ- وصول البرتغاليين فيما يسمى بحركة كشوفهم الجغرافية الى خليج غينيا في عام ٤ / ١٤٤٠ م ، واتصالهم بمصادر الذهب السوداني والعبيد من الزنوج ، ثم انشاؤهم على الساحل مراكز تجارية على امتداد الساحل الاطلسي كمركز آرجين عام ٨٤٩ هـ/١٤٤٥م ومركز بورتودال عام (٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م وكاشو (CACHEU) عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م و لا مينا (LA MINA) في ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م ، للقبض بواسطتها على تجارة بلاد السودان وتحويلها اليها . (٣) وقد كانت هذه التجارة - كما اشير سالفا - تتجه شمالا الى بلاد المغرب والجزائر عبر الصحراء الى البحر المتوسط . وبفضلها نشأت وازدهرت مدن شمال الصحراء ، والمدن الواقعة على طرق القوافل من امثال سجلماسه وفاس ومراكش وسبته في المغرب وتلمسان وقسنطينة ، وتوغرت وورجله ووهران في الجزائر . بل كانت تتجه ايضا الى تونس وطرابلس الغرب وبرقه . ونجحت البرتغال بالفعل في تحويل قسم من تلك التجارة ، اذ وصلت القافلة الاولى من العبيد السود الى البرتغال عام ٨٤٨ هـ/ ١٤٤٤م ووصلت النقود الذهبية الاولى المسماة كروزادو فيها سنة ٨٥١ هـ/ ١٤٤٧ م . وتدفق الذهب عبر الاطلسي الى البرتغال بشكل قوى بين ٨٤٤هـ/٩٥٧هـ/١٤٤٠م - ١٥٥٠م (٤) وسعت اسبانيا بدورها الى تكون لها مراكز على المحيط تعلمها تثلي في التهض على مايفلت من قبضة البرتغاليين ومن هذه المراكز سانتاكروز د و ماريكينا عام ٨٨١هـ/١٤٧٦م (٥) . ولما لم يتأت لها ذلك ، حولت اسبانيا انظارها الى البحر المتوسط ، الذى كانت تنتهي الى موانئه معظم تجارة السودان فيما مضى لتتهض على مالم

(١) كاريت : المرجع السابق ص ١٣-١٥
(٢) الوزان : المرجع السابق ج١ ص٣٠٣
(3)&(4)Ricard(R.):Les Portugais et le Sahara Atlantique,t.10(٤)(٣)
Paris 1930.
Braudel(F.):La Méditerranée. t.1, P.424.

(٥) انظر المجلد الاول من ص٠٠٢ - ٣٠٠م : البرتغال : الجزء الاول (التسابق البرتغالي الاسباني في جنوب المغرب)

تمكن البرتغاليون من تحويله المهم . فكان الاحتلال الاسباني لكل المراكز التي ترتبط بها تجارة السودان كوهران ومرسى الكبير ، وبجاية ، والجزائر ، وتلمسان ، وهنين ، وعنابة في الجزائر ، وحجر بادس ، ومليله في المغرب ، بل ومدت نفوذها الى تونس حيث التهما الدولة الحفصية ، بل واحتلت طرابلس الغرب عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠م (١) .

واذا كان التحويل البرتغالي للتجارة السودانية لم يكن تاما - كما يؤكد برودبل ، ويشهد على ذلك الاحتلال الاسباني لتلك المراكز ، والذهب الذى استمر في الوصول الى شمال الصحراء ، فان الكمية لا شك قد قلت . ويقف دليلا على ذلك النقد الذهبي الذى سكه سلاطين تلمسان والذى كان متداولا في مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى (٢) وربما كان ذلك من الاسباب الخفية وراء حملة صالح رايس الى مدن اطراف الصحراء عام ٩٥٩-٩٦٠ هـ / ١٥٥٢م ، ليس فقط اخضاع بني جلاب ، ولكن للاستيلاء على ما بأيديهم من ذهب ، لندرته في الشمال ، واعادة ربط طريق الذهب المعروف بالجزائر العاصمة الجديدة . ويذكر مارمول انه عاد بخمسة عشر جملا محملا بالذهب (٣) . واذا كان مارمول صادقا فيما ذكر من حيث الكمية ، فهذا يقف دليلا على استمرار تدفق الذهب الى الحواف الشمالية للصحراء من جهة ، وعلى عدم انتظام وصوله الى قلب الجزائر او المغرب . وهو ما فسر به برودبل حملة صالح رايس الى الجنوب (٤) . وقد يدعم هذا التفسير ايضا قيام السعديين ايضا بمحاولاتهم الحديدة للوصول الى مصادر الذهب وطرقه (٥) .

واذا كانت التجارة الجزائرية والمغربية مع السودان قد تأثرت بتحويل قسم منها الى المحيط الاطلسي فانها تأثرت ايضا بغلق المنافذ البحرية على المتوسط في وجهها نتيجة الاحتلال الاسباني والبرتغالي لها ، ذلك الاغلاق الذى اثر بدوره على بقية الفعاليات الاقتصادية ولا سيما المرتبطة بها .

٢- غزو البرتغاليين والاسبان للشواطئ المغربية والجزائرية والمناطق الداخلية المجاورة لها ، كما فصل في بحث الاوضاع السياسية في البلدين . فهذا الغزو لم يصب في الصميم تجارة السودان في البلدين فحسب ، كما ذكر آنفا ، وانما التجارة عامة فيهما . ففي المغرب احتل البرتغاليون والاسبان سبته وطنجه ومليله وغساسه وآنفى وآزمور وتدنست وغيرها ، ففقدت اهميتها التجارية السابقة بالنسبة للمغرب . (٦) ، وحتى عندما استعيدت كان كثيرا منها قد لحق به الخراب . هذا بالاضافة الى ان المدن الساحلية القليلة

---

(١) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٢) الوزان : المرجع السابق جـ٢ ص٣٣٦ ومارمول : المرجع السابق جـ٢ ص٣٣٢
(٣) مارمول : نفس المرجع جـ٢ ص ٤٢٦ وانظر عن الحملة فصل الحياة السياسية في الجزائر
(٤)(٥) برودبل : المرجع السابق جـ١
(٦) (6) Cenival(Pede):La Description de l'Afrique de Ceuta au Sénégal. Par Valantin Fernando 1506-1507, Portugal 1698.

التي بقيت بيد المغاربة ، كسلا ، والعرائش ، وتطوان ، كانت مهددة بالغزو منهم. ثم ان البرتغاليين والاسبان حظروا التجارة في المغرب على التجار الاوربيين الذين كانت لهم صلات معه ، تحت طائلة العقاب الشديد ، وقد القى البرتغاليون القبض على بعض المغامرين منهم ، ممن تعدوا قرار الحظر ذاك ، وساموهم العذاب ، واودعوهم السجن سنين طويلة (١) ، مما هدد التجارة المغربية الاوربية بالخسران . بل حتى عندما استلم السعديون الحكم ، وطردوا البرتغاليين من مراكز احتلالهم ، فان البرتغاليين اشتكوا من تجارة السعديين مع انكلترا وفرنسا وبخاصة في المواد المحرمة كالاسلحة (٢) .

والامر نفسه يشاهد في الجزائر : فاحتلال الاسبان للمرسى الكبير ، وهو احسن ميناء واكبرها في كل افريقيا بحسب قول مارمول (٣) ، ولوهران وهي المنفذ البحري لتلمسان ، قد صوب لتجارة المدينة الأخيرة سهما قاتلا . وحتى عندما رأوا ان تلمسان كانت تتعامل مع التجار المنادقة عن طريق هنين الميناء الصغير ، فانهم احتلوه ودمروه . بل تحولت وهران نفسها ، على حد قول روف الى مجرد " قلعة واسعة تحيط بها اسوار وقلاع تشرف عليها ، وتشكو الجوع قبل العدو " (٤) . واحتلال وهران من قبل الاسبان لم يؤثر فقط على التجارة الخارجية لتلمسان فحسب ، وانما ايضا على التجارة الداخلية لكل اقليم الغرب الجزائري . فلا الاسواق كان يمكنها ان تنعقد ، ولا القوافل التجارية كان يمكنها اجتياز المناطق المجاورة لوهران لتحمل الملح من ارزيو او غيره بسلام ، (٥) اذ ان الرعب من الغارات الاسبانية المفاجئة التي كان يستعان بها بما لهم من اعوان وجواسيس (المغطسين) في المنطقة ، كان يشل تلك النشاطات . بل حتى اهل قناسطل المجاورين لوهران ، والذين كانوا يتاجرون بالحطب تعرضوا للسلب والنهب من الاسبان ، حتى اضطروا الى دفع ضريبة معينة لقاء الاستمرار في اعمالهم .(٦)

واذا كان ذاك حال وهران والمنطقة المجاورة لها ، فان حال بجاية وعنابة لم يكن افضل . فقد فقدت الاولى علاقاتها التجارية الواسعة التي كانت لها منذ عدة قرون ، مع الجمهوريات الايطالية وقطلونيا الاسبانية ومرسيليا (٧) ، وخسرت الثانية تجارتها الداخلية والخارجية النشيطة (٨) .

---

(١) م.م.ت.م: اسبانيا ج١ ص ١٤-١٧ و ٥٧ - ٦٠ ومارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣٥
(٢) م.م.ت.م: انكلترا : جزء١ ص ٢ وما يليها
(٣) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٣٦
(٤) روف : المرجع السابق ص٧-٩
(٥) نفسه ص١٢٧
(٦) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣٨٤
(٧) بريمودای : التجارة ... ص ١٣١
(٨) الوزان : المرجع السابق ج٢ ص ٣٧ - ٣٧١ و مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٤٣٢

وقد يكون ملأ صاب هذه المدن عاملا اقتصاديا هاما في زوال كل من الدولة الزيانية في تلمسان ، وانحسار النفوذ الحفصي عن شرقي الجزائر .

ومثلما ترك الغزو الاسباني والبرتغالي اثرا مدمرا على التجارة في المغرب والجزائر، فانه خلف اثارا سيئة في الزراعة والصناعة ، اذ أن المدن التي احتلها كانت مراكز صناعية هامة ، فأغلب سكان وهران كانوا حرفيين ونساجين (1) ، ويكاد سكان هنين كلهم يكونون مختصين في صناعات القطن والحياكة (2) ، واشتهر اهل بجاية بالصناعات النسيجية من الكتان والقنب ، وبنسج الزرابي على الطريقة الاندلسية (3) ، وكذلك يمكن القول عن عنابة (4) ، وهذه الحقائق لها ما يماثلها بالنسبة لمدن المغرب المحتلة (5) .

اما في الزراعة فان وجود الاسبان والبرتغاليين المباشر على السواحل الجزائرية والمغربية ، قد جعل أثرهم المخرب لا يقل عن اثر القبائل البدوية . فقد ادت غاراتهم المستمرة على ما جاورهم من المناطق الزراعية ، ونهب محصولها ، او احراقها ، واسر العاملين فيها ، الى خوف السكان ، واهمالهم لارضهم ، وهجرهم لها (6) ، وقد اكد الوزان حالة الذعر هذه التي كان يعيشها الفلاحون في المناطق القريبة من المراكز الاسبانية ليلا نهارا (7) . ولاحظ مارمول ان سهل تسساله القريب من وهران لم يكن يفلح كله على الرغم من جودة اراضيه ، لان اصحابه في خوف دائم من غارات اسبانيي وهران (8) . وكذلك كان شأن أراضي سهل المطماء الخصيب (9) ، وسهل عنابة (10) ، ويقول بجاية حتى أن شارلكان لما التجأ الى المدينة الاخيرة اثر الكارثة التي حلت بحملته على الجزائر عام 1541م فانها لم تستطع ان توفر الغذاء لقواته الجائعة ، مع ان المنطقة حولها كانت تشتهر بوفرة محصولها (11) .

3- هجرة الاندلسيين الى المغرب :

من المعروف ان هذه الهجرة قد بدأت بأعداد محدودة قبل سقوط آخر امارة اسلامية على الارض الاسبانية وهي غرناطة ، اي قبل عام 897هـ/ 1492م الا ان اعدادهم تزايدت

---

(1) الوزان : المرجع السابق جـ2 ص314
(2) نفسه : ص329
(3) مارمول : المرجع السابق جـ2 ص414 — 415
(4) الوزان : المرجع السابق جـ2 ص37
(5) انظر نشاط المدن المحتلة من قبل الاسبان والبرتغاليين في الوزان : المرجع السابق الجزء الاول ومارمول : المرجع السابق الجزء الثاني
(6) انظر عن حملات النهب والسلب الاسبانية والبرتغالية وهجرة الناس الى الجبال المنيعة واهمالهم لارضهم . الوزان : نفس المرجع السابق جـ1 ص274 ، 289 وغيرها .
ومارمول : المرجع السابق جـ2 ص83 ، 240 وغيرها .
(7) الوزان : نفس المرجع السابق جـ2 ص329
(8)(9) مارمول : المرجع السابق جـ2 ص358 ، 361
(10) سعيدوني : ناصر الدين : الحياة الاقتصادية في عنابة اثناء العهد العثماني / في مجلة الأصالة عدد 34 — 35 ص86 — 101
(11) بريموداي : المرجع السابق ص168

بعد سقوطها ، وبعد اتباع فرديناند وايزابيلا سياسة التنصير القسري ، والطرد الاجباري ، في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، والتي تابعها خلفاؤهما خلال القرن السادس عشر كله ، وافضت في نهاية المطاف الى النفي الاكبر للمسلمين من اسبانيا في (١٦٠٩ - ١٦١١) ، بحيث بلغ عدد المهاجرين الكلي ، من سقوط غرناطة حتى هذا الطرد النهائي ثلاثة ملايين . (١) . ومن ثم فان هذا العامل المؤثر في الحياة الاقتصادية في البلدين ليس عاملا قديما فقط وانما هو قديم وجديد .

وقد جاءت هذه الهجرة القسرية بنتائجها الايجابية في الاقتصاد المغربي والجزائري ، معدلة قليلا من التخريب الذي اسهم فيه البرتغاليون والاسبان ، والقبائل البدوية . فقد حمل الاندلسيون معهم نشاطاتهم الحضارية ، ومعرفتهم الزراعية المشهورة ، وخبرتهم الصناعية ، وحيويتهم في الميدان التجاري . فقد قاموا في الجزائر باستصلاح أراضي شاسعة بنواحي متيجة ومرتفعات الساحل ، وفي مناطق اخرى كشرشال ، وما حول وهران وتلمسان ، وعنابة ، وغرسوها بالاشجار المثمرة من كروم وتفاح وزيتون وكرز (٢) . واستفادت مستغانم من خبرة فلاحيهم ، الذين انشأوا مزارع واسعة على انقاض الاراضي البور (٣) ، كما اسهموا في ادخال مزروعات جديدة ، كأشجار التوت التي غرسوا اعدادا كبيرة منها لتربية دود القز في شرشال (٤) حيث المناخ والتربة ملائمان ، وكذلك في القليعة التي اثرى سكانها من العمل في هذا الميدان (٥) . وقد زرعوا ايضا اشجار البرتقال في هذه البلدة التي انشئت خصيصا لهم (٦) ، وفي متيجة ، واعطوا مزيدا من العناية لمزروعات اخرى كالقطن والارز بجهات مستغانم ومليانه ، والعناب باقليم عنابة (٧) ، واعتمد الاندلسيون في البلدة التي اقطعهم اياها خير الدين بربروس ، الزراعة المسقية بواسطة قنوات كان لهم خبرتهم في انشائها ، مما زاد المردود نوعا وكما (٨) .

وفي المغرب فانهم قاموا بغرس الاراضي التي اقطعوها في فحص مدينة مراكش بمختلف الاشجار المثمرة كالزيتون وغيره وحولوها الى بساتين جميلة . وقال الفشتالي في وصفها ((فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات ، وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم ما أنسا هم ذكر بلدهم واحتاضهم مما فاتهم ...)) (٩) .

وكان تأثير الاندلسيين ايجابيا ايضا في الصناعة ، فقد انعكف بعضهم على صناعة

---

(١) المدني : المرجع السابق ص٣٦٥
(٢) سعيدوني : الجالية الاندلسية بالجزائر ص١٠
(٣) بريمودای : المرجع السابق ص٢٢٩ - ٢٣٠
(٤) مارمول : المرجع السابق ص٣٨٢
(٥)(٦) نفسه : ص٣٩٩
(٧)(٨) سعيدوني : المرجع السابق ص١٠
(٩) الفشتالي : مناهل الصفا ص٢٤ وانظر مارمول : المرجع السابق ج٢ ص61
والوزان : المرجع السابق ج١ (خصيص متفرد)

الشاشيات الحمراء الحادية والمطرزة بالذهب والفضة المسماة بالصارمة (١) ، كما ادخلوا صناعة الحرير ، واعتمدوا في صناعة السجاد على الانوال الواطئة (٢) ، وكان لهم اسهامهم الكبير في صناعة السفن ، ولاسيما في شرشال ، حيث انتجوا الفرغاطات والبرجنتينات الحاوية على ٨-١٦ صفا من المجدفين ، والتي كانوا يقودونها بأنفسهم (٣) ، ونهضوا بصناعة الاواني المنزلية في شرشال أيضـــا . (٤)

وقد يكون من اهم الصناعات التي عملوا في ميدانها هي صناعة الاسلحة : حيث كانوا ماهرين بصنع الخناجر والسيوف والحراب والرماح والقسي ، مضافا اليها البنادق ذات الفوهة الواسعة وصنع المدافع ، والبارود (٥) .

وبكلمة موجزة عرفوا بالنشاط والمهارة في مختلف الحرف التي عملوا في ميدانها ، كالحدادة ، والتجارة ، وصناعة الاحذية والخزف وغيرها . ويمكن ان يقال ان الامر نفسه يلاحظ في المغرب ولاسيما في المدن التي تركزوا فيها كسلا ، وتطوان وفاس ومراكش وغيرها . وقد قدموا عونهم الكبير في عهد السعديين في صناعة الاسلحة وفي المصنع الذي بني لهـذا الغرض في مراكش (٦) ، وتجاوز نشاط الاندلسيين الزراعة والصناعة الى التجارة ، حتـى انهم كانوا يحتكرون هم واليهود ، التجارة الخارجية طيلة عهد البايلربايات ٩٢٥-٩٩٥هـ / ١٥١٩-١٥٨٧م في الجزائر (٧) ، كما اسهمت المدن التي اقاموا فيها بالمغرب ، في النشاط التجاري مع المدن المغربية ، والدول المجاورة ، وبلاد اوربا . وكانوا يتاجرون بصفة خاصة بغنائم الغزو البحري (٨) ، وحقق بعضهم من هذه التجارة في الجزائر ارباحا وفيرة .

ولا ينسى انهم بنوا مدنا جديدة او اسهموا في اعادة تعمير مدن سابقة لحقها الخراب ، عمرانيا وبشريا . ومن تلك المدن : البليدة والقليعة والجزائر وتلمسان ومليانة في الجزائر وتطوان وسلا وغيرها في المغرب . ويرجع اليهم ترويج العملة الاسبانية الفضية في الجزائـر ((الريال ، فنشط استخدامها بين الاهالي ، وبين الجزائر والدول الاوربية (٩) . وكذلك الامر في المغرب .

---

(١) نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر ١٩٦٥ ص ١٤٠
(٢) (2)Bel(A.) & Ricard(P.):Le Travail de la Laine À Tlemcen. Alger 1913, P.53.
(٣) هايدو : الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٥ ص١٥١
(٤) بريمودا : التجارة ... ص٢١
(٥) هايدو : المرجع السابق عدد ٨٤ ص ٤٩٥
(٦) الوزان : المرجع السابق ج١ (فاس) ومارمول : المرجع السابق ج٢ ص٢٧
(٧) (7)Eisenbeth(M.):Les Juifs en Algérie et en Tunisie À l'Époque Turque.Alger1952,t.96, P.P. 347- 348.
(٨) هايدو : المرجع السابق عدد ٨٨ ص٤١٥
(٩) سعيدوني : المرجع السابق ص١٢

وقد واكب هجرة مسلمي الاندلس الى الجزائر والمغرب هجرة اليهود من اسبانيا والجزر التابعة لها ، وشكلوا في بعض المدن الجزائرية والمغربية كالجزائر ، وتلمسان ، وتطوان ، وفاس ، ومراكش ، وغيرها فئة اجتماعية متميزة بعاداتها وتقاليدها وفعالياتها الاقتصادية. ان اختصت الجالية اليهودية في البلدين كما ذكرنا في بعض الصنائع كصناعة المجوهرات وسك النقود ، ومارست حرفا اخرى كالخياطة وغيرها واشتغلت في التجارة الداخلية للبلدين والخارجية لهما وحصلت على ارباح كبيرة من التجارة في غنائم الغزو البحري (1) . وكان لها نشاطها التجاري الواسع فيما بينها وبين اوربا وبصفة خاصة مع ميناء ليفورنا في شمال غربي ايطاليا .

الغزو البحري الجزائري والمغربي :

والغزو البحري من النشاطات المغربية القديمة نسبيا في البحر المتوسط . ويرجع ابن خلدون تنظيمه من قبل سكان البلاد الى منتصف القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد (2). وقد يرجع الى ابعد من ذلك . وكان يمارسه المسلمون والنصارى على السواء (3) ، الا ان هذا النشاط البحري الذي يعرفه ابن خلدون بقوله : ((فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر، ويصطنعون الاسطول ، وينتخبون له ابطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم ، على حين غفلة فيتخطفون فيها ما قدروا عليه ، ويصارعون ما يلقون من اساطيل الكفرة ، فيظفرون بها غالبا ، ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور القريبة من بجاية بأسراهم ... ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه او يكاد ...)) (4) ، تضاعف في جميع انحاء المغرب الكبير ، خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . ووراء ذلك عدة اسباب :

اولها : هجرة الاندلسيين ، وانضمام اعداد منهم اليه ، ودعمهم له بجهودهم واموالهم ، ومهارتهم في صناعة السفن ، ودرايتهم بشواطئ الاعداء ولا سيما اسبانيا (5) .

وثانيها : تشجيع حكام الجزائر من الاتراك العثمانيين (6) ، وكذلك حكام المغرب (7) .

اذ نظر اليه الاتراك وحكام المغرب على انه نوع من الحرب البحرية غير الرسمية ، الهجومية والدفاعية في آن واحد ، ضد أعدائهم من الاسبان وغيرهم من مسيحيي اوربا . كما رأوا

---

(1) هايدو : الطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٦ ص٩٠ - ٩١ ابن مريم: البستان (ترجمة المغيلي) ص٢٥٣ - ٢٥٦ ابرنيث : المرجع السابق و مارمول : المرجع السابق ج٢ والوزان : المرجع السابق ودارفيو: مذكرات ج٥ص٢٢٢

(2) ابن خلدون : ((ع)) كتاب العبر ج٦ص٣٩٩

(3) بروتيل : الاسبان وافريقيا الشمالية في المجلة الافريقية الجزائر: ١٩٢٨ص٤٠٧

(4) ابن خلدون : المرجع السابق

(5) هايدو : المرجع السابق عدد ٨٣ ص٤١٥ وعبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة في مجلة تطوان عدد ٣-٤ص٦٥

(6) المجهول : غزوات عروج وخير الدين . هايدو : ملوك الجزائر ومرسي المرجع السابق ج٣ص٤٧١

(7) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص٥٣

فيه موردا اقتصاديا هاما ومشروعا الى حد كبير ، اذ لا تعدو اسلابه ان تكون غنائم حرب، فهي حلال على صاحبها .

وثالثها ارتباطه في اذهان كثير من القائمين به ، وبصفة خاصة الاندلسيين ، بمفهوم الجهاد ضد الاسبان الذين انتزعوا من المسلمين ديارهم في الاندلس ، وشردوهم ، وقسوا على اخوانهم الباقين في اسبانيا ، وحولوهم قسرا الى الدين النصراني .

ورابعها وفرة الغنائم التي كانت تكتسب ، لتزايد نشاط النقل التجاري الاوروبي في البحر المتوسط ، بعد اقامة الدول الاوربية علاقات تجارية نشيطة مع الامبراطورية العثمانية وقد رأى بروديل المؤرخ الفرنسي المعاصر لان هذا الغزو ماهو في الواقع الا شكل من أشكال التبادل انما كان يتم بالقوة ، في كل ارجاء البحر المتوسط (1) .

وقد كان لهذا الغزو البحرى اثره المباشر وغير المباشر على الاقتصاد الجزائري والمغربي : فهو من ناحية نهض بصناعة السفن كما اسلفنا القول ، ومن ناحية اخرى دعم ذلك الاقتصاد بما يأتي به من اسلاب متنوعة ، قد يكون من اهمها الاسرى الذين كان يفتدى بعضهم بكميات وافية من الاموال ، ويستفاد من بعضهم الآخر في مختلف الاعمال . وفي الوقت ذاته فانه اوجد حركة تجارية نشيطة في بعض مدن الجزائر والمغرب ، حيث كان يتم بيع تلك الاسلاب او مبادلتها بسلع اخرى ، ولا سيما بتلك التي كان يحطها الاوربيون من السلع المحظورة كالاسلحة والبارود وغيرها . ومن هذه المدن الجزائر التي رأى مارمول بأنها اصبحت اغنى مدينة في كل افريقيا ، في وقت قصير ، بسبب الغزو البحرى ، والتجارة الغاربة معا (2) . وسلا ، وتطوان المغربيتين .

الا ان هذا الغزو البحرى ،على الرغم من ايجابيات الاقتصادية ، سلاح ذو حدين . لان الدول الاوربية التي كانت تهاجم سفنها او شواطئها ماكانت لتسكت على اصابتها بل كانت تسعى لترد الصاع صاعين ، او تقوم قراصنتها بمهاجمة السواحل الجزائرية والمغربية بالطريقة نفسها التي كان يتم به الغزو الاسلامي للسواحل الاوربية ، وللسفن الاوربية . ولكن مع ذلك بقي الغزو البحرى الجزائرى والمغربي ، اقوى اثرا من القرصنة الاوربية (3) . بدليل تلك الاتاوات التي كانت اضطرت الدول الاوربية لدفعها الى حكومات البلدين بعد اتفاقات ابرمتها معها (4) .

---

(1) المتوسط . . . ج٢ ص٢٠٥
(2) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص١٠٤
(3) دورو طاليبي : تاريخ ايالة الجزائر والقرصنة التركية في المتوسط عزان والابدان تاريخ بلاد البربر وقراصنتها و كواندرو : قراصنة سلا و المجهول : غزوات عروج وخير الدين
(4) مرسي : المرجع السابق ج٣ ص ١٣٦ - ١٣٧

٥ - المجاعات والاوبئة ، وخاصة منها وباء الطاعون ، والكوارث

الطبيعية من زلازل و سيول ، وقحط وجفاف كانت تجتاح الجزائر والمغرب في الحقبة السابقة
فترة موضوع البحث بين آونة واخرى ، وتتسبب في القضاء على اعداد غير قليلة من سكان
البلدين من مختلف الفئات بما في ذلك فئات الفلاحين والصناع والتجار ، مما كان يضعف
صفوف المشتغلين في مختلف الفعاليات الاقتصادية ، ويؤثر بالتالي في الحياة الاقتصادية
في الجزائر والمغرب تأثيرا سلبيا ، ولاحظ المعاصرون للفترة موضوع الدرس مثل الوزان وهايدو
وغيرهما ان وباء الطاعون كان يظهر في البلدين بين حين وآخر قد لا يزيد الفاصل بينهما
كثيرا عن عشر سنوات ، وقد يبقى منها كما انه قد يستمر سائدا في احد البلدين او في كليهما
سنة اوسنين عديدة ، وذلك لان السكان كانوا يجهلون طرق الوقاية منه ، كما كانوا يجهلون
العلاج الناجع له ، (1) فكان يكون الوباء في البلدين مزمنا وكادت تخلو مدن ، ومناطق من
السكان بسببه .

ولاحظ المعاصرون كذلك ان وباء الطاعون وامراضا اخرى كمرض السفلس كانت تنتقل
ايضا الى البلدين مع الوافدين اليهما من مختلف الدول المجاورة وغير المجاورة (2) . ومن
جهة اخرى فان المتأمل في سنين الاوبئة في الجزائر والمغرب يجد ان هذه الاوبئة كانت تسبق
في احدهما ثم تنتقل الى البلد الآخر بعد فترة قصيرة مع التجار والحجاج وغيرهم . وأشار
المعاصرون الى مجاعات رهيبة عديدة شهدها البلدان في عهدهم وخلفت خسائر كبيرة في
صفوف السكان ، لان هؤلاء كانوا لا يتخذون احتياطاتهم الضرورية . ولان دور الدولة
في التخفيف منها لا يكاد يذكر ، ولا سيما في الارياف ، حيث تسود الزراعة من اجل الاكتفاء
الذاتي ، والاستهلاك الفردي او الاسري . او حيث لا يكون الاهتمام بالزراعة على نطاق واسع
كما هو الشأن في المناطق القليلة الامطار . ولاحظوا ان المجاعات كانت غالبا ما تكون مسبوقة
بقحط اوجفاف قد يستمر اكثر من سنة او نتيجة لتعرض المحصول الزراعي لآفة من الافات كالجراد
مثلا .

وتطول القائمة لو ذكرنا جميع المجاعات التي شهدها البلدان في الفترة موضوع الدرس
وجميع الاوبئة المصاحبة والكوارث والافات التي اصيبا بها في هذه الفترة . ولذلك نكتفي
بالاشارة الى بعضها على سبيل المثال والتوضيح ومنها :

- مرض السفلس والزهري الذي نقله اليهود المهاجرون من اسبانيا الى الجزائر والمغرب وهو
المرض الذي عم . وانتشر وأصاب كثيرا من الاسر في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر
الميلادي (3) .

(1)(2) الوزان : المرجع السابق ج1 ص[illegible] وهايدو والطوبوغرافيا في المرجع السابق عدد 90
(3) الوزان : نفس المصدر ص 62 ج 64

ـ وباء الطاعون الذي تفشى بفاس وبجاية ونواحيها في ٩١٦هـ/١٥١٠م و [1]. ثم بأهل السوس في جنوب المغرب خلال عام ٩١٧-٩١٨ هـ / ١٥١١-١٥١٢م. [2]

ـ المجاعة الرهيبة التي تعرض لها المغرب ؟ في ٩٢٧-٩٢٩هـ/١٥٢١-١٥٢٣م في أعقاب جفاف شديد . والتي ظل الناس فترة طويلة يؤرخون بها ، اذ لم يشهدوا مثيلا لها طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . ولشدة هذه المجاعة كان الناس كما يذكر مارمول في معرض حديثه ، ودوكاله يعرضون انفسهم واولادهم للبيع على البرتغاليين لقاء لقمة العيش [3].

ـ الطاعون الذي اصاب الجزائر ثم المغرب خلال السنوات الثلاث ٩٦٤-٩٦٧ هـ / ١٥٥٦-١٥٥٩م والذي خلف خسائر كبير في صفوف جميع الفئات قدر عدد ضحاياه في المغرب وحده بنحو ٢٠٠٠٠٠ ضحية ، جعلت بعض كبار الشخصيات البرتغالية تحض الطرف البرتغالي على انتهاز ضعف مملكة المغرب لاحتلال المواقع التي استردها المغاربة من البرتغاليين [4].

ـ الجفاف الشديد الذي شهدته الجزائر في عامي ٩٨٦-٩٨٧ هـ/١٥٧٨-١٥٧٩م والذي اعقبته مجاعة مدمرة مات بسببها خلق كثير [5].

ـ والمجاعة المصحوبة بوباء السعال (كحيحه) التي اصابت المغرب في سنة ١٥٨٠ واودت بحياة عدد غير قليل [6].

ـ والطواعين التي اصابت الجزائر في اعوام ١٠٠١-١٠٠٤هـ/١٥٩٢-١٥٩٥م ثم في اعوام ١٠١٢-١٠١٦هـ/ ١٦٠٣-١٦٠٧م ، واعوام ١٠٤٩-١٠٥٢هـ/١٦٣٩-١٦٤٢م وفي اعوام ١٠٥٧-١٠٦٠هـ/١٦٤٧-١٦٥٠م ، وعام ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م ومثلها التي اصابت المغرب في الفترة ١٠٠٦-١٠١٧هـ/ ١٥٩٧-١٦٠٨م ثم في ١٠٣٤/ ١٦٢٤ ثم ١٠٤٥-١٠٤٦ هـ/١٦٣٥-١٦٣٦ . وفي الفترة ١٠٦٢-١٠٦٣هـ/١٦٥١-١٦٥٢م وكلها كانت رهيبة انتشرت كثيرا وغالبا ماكانت تسبقها مجاعة او تكون مشفوعة بها او تتخللها [7]

واذا كانت العوامل المذكورة آنفا ، وهي مؤثرات شبه واحدة ، متزايدة او متناقصة ، قد وجدت في المرحلة السابقة لمرحلة هذا البحث ، او كانت موجودة قبلها ،

---

(١) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٤١٧
(٢) روزن برجر المرجع السابق ص١٣٩
(٣) نفسه : و مارمول المرجع السابق ج٢ ص١١١
(٤) روزن برجر المرجع السابق ص١٤٠
(٥) هايدو : الابيوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٧ ص٢٢٥-٢٢٩ وعدد ٨٨ ص٣٠٩
(٦) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ١١٠
(٧) انظر عن المجاعات والاوبئة في المغرب روزن برجر المرجع السابق ص ١٤١ ومايليها وعن المجاعات والاوبئة في الجزائر دغرامون المرجع السابق

...لت هي ونتائجها المتشابهة في البلدين ،خلال حقبة هذه الدراسة ايضا ، هي عوامل
...يدة ومتنوعة ، فان العوامل الجديدة المؤثرة في اقتصاد البلدين ، والخاصةبهذه
...مرحلة ، يمكن حصرها بعاملين اولهما ذو صبغة سياسية ، ولا يتشابه في البلدين ،
...يتمثل في نظام الحكم الجديد في كليهما . فمن المعروف كما بينا سابقا انه حكم الجزائر
...في هذه المرحلة الاتراك العثمانيون الوافدون من المشرق ، وحكم المغرب الاشراف السعديون
...لم تكن النتائج الاقتصادية للحكمين في البلدين واحدة . والعامل الثاني هو الثورةالاقتصادية
...التي كانت تعيشها اوربا على اثر الكشوف الجغرافية . وكان اثرها شبه متشابه في القطرين :

أ - السياسة الاقتصادية للاتراك العثمانيين في الجزائر : لا نملك
...معلومات كثيرة عن هذه السياسة في الفترة المدروسة ، وبصفة خاصة اثناء حكم البايلربايات :
...لانشغال هؤلاء كما رأينا بسعيهم الى احكام القبضة على كامل التراب الجزائري ، واستخلاصه
...من ايدي الاسبان ، وبالتالي تقوية الحكم المركزي العثماني في الجزائر ، والقضاء على
...الانقسامات السياسية الداخلية ، وترويض القبائل المتنمرة وتدعيم وجود الدولة العثمانية
...في الحوض الغربي للمتوسط الا انه يمكن حصر مؤثرات الحكم العثماني في الاقتصاد الجزائري
بالنقاط الثلاث الآتية :

١ - سعي الدولة لضمان ...ها من الضرائب ، المفروضة عن الارض والزراعة ، وتربية
المواشي ، والصناعة ، والتجارة ، ومختلف الفعاليات الاقتصادية (١) . ومن ثم
اوجدت جهازا ماليا واسعا ودقيقا ،سمحت به للنفوذ الى مختلف الفعاليات ،ومعرفة
انتاجها لتحصل على نصيبها منها (٢) .
... هذا في الوقت الذي لم تعر التفاتا خاصا الى مايلزم من الاجراءات للارتقاء بها أو
التجديد في ميادينها لزيادة مردودها . فلم يؤثر عنها مثلا انها أبدت اهتماما بوسائل
الري في الزراعة او في تطوير زراعة بعض المنتوجات ، كما فعل السعديون مثلا بقصب السكر
في المغرب .

وفي الواقع لقد ترك الحكم العثماني في الجزائر ، جميع الفعاليات الاقتصادية السابقة
تتابع سيرها كالماضي - كما أسلفنا القول - الا انه بالمقابل لم يقف في وجه المبادرات
الخاصة ، بل يمكن القول انه قد اسهم بطريقة غير مباشرة في بعض التطوير الزراعي عندما
أقطع الاندلسيين المهاجرين ارضا ، في البليدة وغيرها وافسح المجال لخبرتهم الزراعية

---

(١) انظر عن موارد حكومة الجزائر العثمانية هايدو الطبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٩٠
ص ٤٦٩ - ٤٧١ ومرسي المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٦ - ١٣٧

(٢) انظر عن الجهاز الاداري والمالي للجزائر في العهد العثماني : دوفولكس :
تشريفات الجزائر ١٨٥٢ ص ١٩ - ٢٢ وهايدو المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٦٨ - ٤٧٠
ومرسي المرجع السابق ج٣ ص ١٣٤ - ١٣٦ .

التي تعطي اكلها ، كما اشير سالفا . وكذلك عندما اوجد نظام قبائل المخزن الذي يشبه في بعض سماته النظام الاقطاعي العثماني الذي طبق في بعض البلاد العربية المشرقية كبلاد الشام مثلا . الا ان اغلب الذين اقطعوا الارض هنا ليستغلوها زراعيا كانوا من القبائل الجزائرية المحلية ، لاعناصر غريبة عن البلاد الا مانذر . وقد اناطت الدولة بهولاء اعمالا ادارية وعسكرية مقابل استغلالهم الارض ، واعفائهم من الضرائب ، كحفظ الامن والمشاركة في الحرب . فهذا النظام كان عاملا مساعدا على تثبيت بعض القبائل البدوية على الارض ، وتحولها الى الزراعة تدريجيا ، مما افسح المجال مبدئيا لزيادة الرقعة الزراعية ، والعاملين فيها . الا ان الاعمال العسكرية التي كلف بها فرسان هذه القبائل كانت في الواقع عائقا امام سرعة ذلك التحول ، وامام تحسين طرق استغلال الارض ، وتطوير المعارف الفلاحية . ومن ثم ، فان هذا النظام لم يعط النتائج الايجابية التي كان من الممكن ان يعطيها لو كان الهدف منه فقط استقرار القبائل على الارض وتوجيهها للعمل الزراعي ومايرافقه من فعاليات فحسب . ولذا بقيت السهول الوهرانية مثلا التي اقطع ٧٨٪ من مساحتها لعشائر القبائل المخزنية ذات انتاج زراعي ضعيف (١) .

واذا كان هذا النظام قد اوجد في الاساس لتثبيت الحكم العثماني على الارض الجزائرية ، وبسط سيادته على المواقع الاستراتيجية ، وعلى الريف الجزائري عموما ، وضمان الامن والاستقرار ، وهما ضروريان عادة للانتعاش الاقتصادي ، فانه استغل في عهد الباشوات بصفة خاصة لصالحهم على حساب الرعية اي ان عددا من الباشوات استخدم القوة المخزنية العسكرية لتكون اداة ضغط على الاهالي في جباية الضرائب في الارياف ، والتشديد عليهم فيها ، وبأكثر من المقرر ، ليعوض اولئك الباشوات ، وقد اصبحوا يعينون لمدة ثلاث سنوات فقط ، ماكانوا قد انفقوه ثمنا لمنصبهم .

وفي ميدان الصناعة بقي الوضع كما هو ، كما اشير سابقا مع بعض نشاط في صناعة السفن والاسلحة مضافا الى ماكان الاندلسيون قد جددوا فيه ، وكان لاهمّ للحكم سوى ان يستوفي من ثمن البلد مايسلمه له امناء نقابات الحرف المختلفة في المدن .

اما في ميدان التجارة فيبدو ان اهتمامها كان اكبر بها . وبصفة خاصة الخارجية منها ، اذ ان موارد الجمارك كانت تؤلف قسما هاما من موارد الدولة . واذا صدقنا مارسول فمورد الجمارك كان يعادل موارد كل المملكة ، (٢) فكل البضائع ، وحتى النقد الواردة من البلاد الاسلامية او الاوربية كانت تخضع لدفع رسوم الجمرك ، ويقدرها مارسول وهايدو (١١٪) (٣) . ناهيك عن المكوس وهي الرسوم التي كانت تؤخذ على جميع السلع

---

(١)(سعيدوني) ناصر الدين : دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي في الجزائر / في / مجلة الاصالة الجزائر العدد ٣٢ ١٩٧٦ ص ٤٦ - ٦٢ - و وضعية عشائر المخزن الاجتماعية في المجلة التاريخية المغرب عدد ٧-٨ تونس ١٩٧٧

(٢) مارسول : المرجع السابق ج٢ ص ٤٠١

(٣) هايدو : المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٧١

وهي الرسوم التي كانت تؤخذ على جميع السلع التي تدخل الاسواق الداخلية ، ولا يعفى منها احد سوى الانكشارية وفرسان المخزن الصبائحيين (1) . ولهذا شجع الحكم العثماني التجارة مع الدول الاوربية التي كانت تتردد سفنها على موانئ عنابة وتنس ، ومستغانم وارزيو ، وعامله على تهدئتها بحيث اخضع دخول السفن التجارية الى حصولها المسبق على رخصة للدخول وجعل مدينة الجزائر هي المركز الرئيسي لهذه التجارة ليتسنى له مراقبتها (2) ومنح الفرنسيين الذين كانت قد وقعت معهم اتفاقية الامتيازات حق اقامة مراكز تجارية لما تستفيده من الرسوم الجمركية ، ولما يحصل عليه الحاكمون دون الشعب من ارباح متنوعة . وقد طبق الحكم العثماني عن الجزائر نظامه في عدم السماح بتصدير بعض السلع كالقمح ، والزيت ، والعسل ، والشمع والصوف ، وبخاصة الى البلاد الاوربية ، الا باذن خاص . واذا كان الهدف الاول والاساسي من هذا الحظر ، تأمين الاستهلاك المحلي ولاسيما في الاغذية ، فانه تحول في الواقع الى احتكار السلطات لبيع مثل هذه السلع (3) والاتجار فيها ، والحصول على المكاسب الخاصة دون غيرها ، ولاسيما ان اقبال الدول الاوربية عليها كان كبيرا .

وهكذا استمرت التجارة الداخلية ايام الحكم العثماني تعاني كثيرا من العوائق السابقة كقلة الطرق وتقلص الامن فيها ، وعدم تطور وسائل النقل ، وتدهور العديد من المراكز التجارية القديمة كتلمسان وبسكره وغيرها . وانحصرت التجارة الخارجية للجزائر في العاصمة ، بعد ان كانت كل المدن الساحلية ، وحتى بعض المدن الداخلية كقسنطينة وتلمسان مراكز غنية ونشيطة في ميدانها . وفي الواقع غطى الغزو البحري الذى اهتم به الحكم العثماني بدعمه وتشجيعه ، على النشاط التجارى ، والفعاليات الاخرى .

٢- تشجيع الغزو البحرى حتى غدا في القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين صنعة قائمة بذاتها ، لها ورشاتها الخاصة ، واختصاصيوها ، وعمالها ، ولم يكن هدف الدولة من هذا التشجيع ، دعم الاقتصاد الجزائري بخصائصه بقدر ما كان حصولها على نصيبها من تلك الغنائم من سلع، ونقود ، واسرى ، وهذا النصيب كان يتراوح بين الخمس والسبع مبدئيا (4) . ويضاف اليه ايضا نصيب آخر

---

(1) هايدو : المرجع السابق عدد 84 ص 502
(2) انظر عن علاقات هذه المدن مع الدول الاوربية : بريمودانى التجارة
(3) هايدو : الطبوغرافيا عدد ٩٠ ص ٤٧١ وعدد ٨٨ ص ٣١٠ ومحمد خير فارس المرجع السابق ص ١٠١
(4) هايدو : المرجع السابق عدد ٩٠ ص ٤٧ ، ٤٧١

نتيجة مما سمحتها في توفير السفن والتموين بالبسكويت (البقسماط) ، والسمن والعسل والارز والزيتون وتقديم جهاز التجذيف من البشر او جزئيين منه اذا كان المجذفون يؤخذون عادة من الاسرى النصارى المودعين في سجن الدولة (1) ؛

ب - ربط الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد العثماني ، مما فتح مجالات ارسع للنشاط التجاري الجزائري مع المشرق الاسلامي ، ولا سيما مع مصر ، وبلاد الدولة العثمانية في آسيا الصغرى واوربا الشرقية . وقد تزايدت هذه الصلة بصفة خاصة بعد سنة ١٥٧٤ ، اى بعد ضم الدولة العثمانية بتونس ، وطرد اسبانيا منها . لكن بالمقابل كان لهذا الارتباط سلبيته ايضا ، اذ ان كل ما كانت تتأثر به الامبراطورية العثمانية في المشرق ظروف مناخية ، اوسياسية ، اواجتماعية ، و[illegible] منها من تدهور في الاوضاع الاقتصادية ، كان ينعكس بطريقة او باخرى ، [illegible] او بقوة ، على الاقتصاد الجزائرى .

وهكذا يتضح أن الحكم العثماني [illegible] جزائر ، [illegible] الحقبة المدروسة ، قد ربط بطريق مباشر وغير مباشر الاقتصاد الجزائرى با[illegible] العثماني وشدد قبضته عليه بالضرائب ، والاحتكار ، لينال مبتغاه المادى منه دون أن يقدم له بالمقابل دفعا اوحوافز لتنشيطه فظل متكاملا واقرب الى الضعف ، على الرغم مما قد يتركه بريق النهضة الاقتصادية في الجزائر العاصمة من وهم بأن الاقتصاد الجزائرى بمجموعه كان بهذا الازدهار والرفاء ، كما استمرت العوامل السلبية المشار اليها آنفا تفعل فعلها .

ب - السياسة الاقتصادية للسعديين في المغرب اذا كان الحكم العثماني لم يبذل جهدا لاخراج الاقتصاد الجزائرى من الوهن الذى كان فيه سابقا بوضع حد لتأثير العوامل السلبية في ، فان السعديين حكام المغرب تمكنوا شيئا فشيئا من توفير الشروط الضرورية للارتقاء به ، وفي مقدمتها :

١- توفير الامن والاستقرار الضروريين لاى تحسن في الاوضاع الاقتصادية : وقد نجحوا في تحقيق هذا الشرط خلال القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى عن طريق
- العمل على وقف حملات النهب والسلب والقتل ، البرتغالية والاسبانية على المناطق الداخلية ، تلك الحملات التي كانت تصل في مداها الى نحو مئة ..كلم في اعماق المغرب الداخلي (٢)
- العمل على توحيد اجزاء المغرب تحت سلطة مركزية واحدة وعلى اخضاع القبائل التي كانت تهدد امن السكان ، وتعيقهم عن مباشرة نشاطاتهم الاقتصادية بالعنف تارة وباللين والاستمالة اخرى .

---

(١) هايدو : الطبوغرافيا . عدد ٩ ، ص ٤٧٠ - ٤٧١
(٢) انظر فصل الحياة السياسية في المغرب .

٢- فك الحصار الاقتصادي الذي فرضه البرتغاليون والاسبان على المغرب . حينما تمكنوا من احتلال جميع شواطئه الساحلية تقريبا ، الاطلسية والمتوسطة ، وحالوا بذلك بينه وبين بقية الدول الاوربية ، وذلك بالعمل على تحرير العديد من المواقع الساحلية مثل اغادير وآسفي وغيرها ، وغدت بعد تحريرها مراكز هامة للمبادلات الاقتصادية بين المغرب والدول الاوربية ...

٣- الاهتمام بالزراعة : ولاسيما زراعة قصب السكر التي اولاها اوائل السعديين اهتماما كبيرا فاستكثروا من زراعته حتى ((عم الاغتراس بالقصب الاوطان)) [1] . وكثر انتاج السكر حتى لم تعد له قيمة في المغرب [2] ، بينما كثر اقبال التجار الاوربيين على شرائـــه لجودته ورخصه [3] ، بحيث اصبح موردا هاما للدولة [4] ، يشكل ثلث مدخولهـــا [5] اذ كانت معظم حقول السكر ومعامله في مقاطعتي السوس ومراكش بيد الاشراف السعديين [6] ولم يقف اهتمام هؤلاء بالزراعة عند هذا الحد فقد حرص اوائلهم على استغلال امكانيات المغرب الزراعية وعلى زراعة أراضيه ، فقاموا باقطاع المهاجرين الاندلسيين أراضـــي فسيحة غرسها هؤلاء بمختلف انواع الاشجار المثمرة كالزيتون وغيره وحولوها الى بساتين ذات انتاج وفير ((وحصلوا من استغلال ذلك الى اليوم على ماانساهم ذكر وطنهـــم واعتاضهم مما فاتهم به ...)) [7] كما قاموا بتوزيع الاراضي الزراعية على القبائل لزراعتها والزموا بعض القبائل الرحل في البادية على الاشتغال بالزراعة واجروا لها مايكفيها ، وهذا على الخصوص في عهد المنصور [8] ، كما قاموا ايضا بشق المجاري المائية لري الاراضـــي في اماكن مختلفة في المغرب ، في السوس ومراكش وغيرها من المناطق ، واقاموا علـــى ضفافها الارحية المائية والمعاصر للسكر . [9]

---

(١) الفشتالي : مناهل الصفا ص ٢١٠
(٢) الافراني : النزهة ص ١٦
(٣) طوريس : / المرجع السابق ص ١٦٦ و م.م.ت.م انكلترا ج١ (المقدمة ص٥)
(٤) كان مدخول السكر في عهد محمد الشيخ ٧٥٠٠ مثقال سنويا (طوريس : ص١٦٦) اما مدخول المنصور من السكر ف... الف اونسه انظر م.م.ت.م فرنسا ج١ ص ٣٠٣ وهامش ٥)
(٥) ماريتني وآخرون المرجع السابق ص ١٧٨
(٦) الفشتالي : المرجع السابق ص ٢٠٣ وحسبه كان الاشراف السعديون يؤجرونها لقاء مبلغ معين عن كل سنة لطائفة من اهل الذمة
(٧) نفسه : ص٢٠٤
(٨) كريم : المرجع السابق ص ٢٥٤ نقلا عن ابن القاضي : المنتقى المقصور وانظر الفشتالي المرجع السابق ص ١٢١
(٩) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٢٨ - ٣٢ ، ٦١

٤- الاهتمام بالصناعة ؛ ولا سيما صناعة السكر التي ما انفكوا يستكثرون منها ويطورونها (١)، وفق آخر الاساليب والطرق التي توصل اليها المنافسة (٢) مستخدمين الخبرة المحلية الخارجية من مغاربة واندلسيين واعلاج ، ويهود ونصارى (٣) وصناعة الاسلحة المختلفة من مدافع وبنادق وسيوف ورماح وقسي ، وذخيرة ، لحاجتهم الملحة لها في حروبهم الداخلية والخارجية وقد نشأوا لهذا الغرض عدة مصانع في مراكش وفاس وتارودانت (٤) ، واستخدموا ايضا في ادارة هذه المصانع وانتاج منتجات الاسلحة العنصر المحلي والاندلسي وغيرة بعض الاتراك العثمانيين (٥) ، والاعلاج ، واستخدموا المستعبدين يدا عاملة فيها وانتجوا اولى مدافعهم من نحاس منجم تنزيره الذي تم اكتشافه في ١٥٢٩ ، وفي نفس الفترة وانتجوا ايضا اولى الكور المدفعية من حديد جزوله (٦) ، ثم غصت مخازنهم بانتاج المدافع والاسلحة المختلفة والذخيرة ، ومع ذلك كان السعديون لا ينفكون يستوردون الاسلحة والذخيرة من اوربا وكان بعض ملوكهم مثل عبد الملك عارفا بصناعة الاسلحة ويباشر الامور نفسه (٧) . ونالت صناعة السفن ايضا اهتمام السلاطين السعديين الاوائل وخاصة منهم عبد الملك (٨) ، الآنف الذكر وأحمد المنصور (٩) ، وكانت المراسي وسلا (١٠) ، من اهم مراكز صناعة السفن في عهد المنصور السعدي بعد ان فقدت بادس مركزها كواحدة من اهم مراكزها بعدما ان احتل الاسبان حجر بادس في ٩٧٢ هـ/١٥٦٤م واولى السعديون الاوائل اهتماما غير قليل باستخراج المعادن ، واستغلال قسم منها في صناعة الادوات والاواني ولا سيما في صناعة الاسلحة كما ذكرنا ، وتصدير قسم آخر الى الدول الاوربية. ومن المعادن التي كانوا يستخرجونها عدا النحاس والحديد ، هناك ملح البارود الذي كان يستخرج من مواطن عديدة في المغرب ، ويصنع الكثير منه محليا ، وتصدر كمية منه الى الدول الاوربية المعادية للمغرب كانكلترا (١١) ، وفرنسا ، واحيانا الى الجزائر والدولة العثمانية .

اما صناعة الذهب فقد حظيت باهتمام كبير ، ولا سيما من المنصور الذي كان بباب

((اربعة عشر مئة مطرقة تضرب كل يوم الدينار غير ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلي ، وشبه ذلك ...)) (١٢) ، اذ كان يتدفق على المنصور المذكور ذهب كثير من السودان ولا سيما بعد استيلاء قواته عليه في سنة ١٥٩١ م . وجر اهتمام السعديين الاوائل بالصناعة الى الاهتمام بالمخترعات الجديدة والسعي الى استقدام المهرة من الصناع ، مع استغلال خبرة العناصر المختلفة في المغرب . (١٣) .

(١) الفشتالي : المرجع السابق ص٢٠٩
(٢) م.م.ت.م : انكلترا : ص٤ (المقدمة)
(٣) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٣١
(٤) نفسه : ص ٢٢، ٢٦ و اندرزاج الجيش والاسطول في المرجع السابق ص٧١
(٥)(٦) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص٢٧ و ٥٦
(٧)(٨) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص٥٣ و اندرزاج : المرجع السابق ص٩٣ والفشتالي : مناهل الصفا ص٢٠٤
(٩) م.م.ت.م : انكلترا ج ص
(١٠) اندرزاج : المرجع السابق ص٩٣
(١١) م.م.ت.م : انكلترا ج١ ص٧-٨ (المقدمة)
(١٢) الافراني : النزهة ص٩٥
(١٣) [illegible]

هـ- الاهتمام بالتجارة الداخلية والخارجية : وقد ظهر هذا الاهتمام كما رأينا في حرصهم على توفير الأمن في داخل المغرب ، ومن ثم في طرقه واسواقه ، وفي ايجاد المنافذ البحرية الجديدة في وجه التجارة الخارجية من اوربا ، وظهر كذلك في ترحيب اوائل السعديين بمن كان يأتيهم من التجار الاوربيين ، ومعاملتهم لهم معاملة حسنة . مما كان له الاثر الطيب ، فاقبل التجار الانجليز وغيرهم بكثرة على الاتجار في المغرب . (1) . كما تجلى اهتمامهم بالتجارة الخارجية ، ولا سيما مع بلاد السودان في سعيهم المبكر الى التحكم في محاور التجارة بين هذه الاخيرة والبلدان الواقعة شمال الصحراء عن طريق مد نفوذهم الى توات في ٩٣٢ / ١٥٢٦ التي كانت تتحكم في توجيه محاور التجارة ، وحركة القوافل التجارية بين المنطقتين المذكورتين . ثم في محاربتهم للمنافسة البرتغالية للتجارة المغربية مع بلاد السودان ، فقد نوا بهذا الصدد حملة على ودان في سنة ٩٥٠/ ١٥٤٣م ، التي نجح البرتغاليون في استمالة شيخها الى التجارة معهم عن طريق مركزهم في آرجين ، فاحتلوا المدينة المذكورة في سنة ١٥٤٣ وشكروا منذ ذلك الوقت بجد في احتلال بلاد السودان نفسها للقضاء بصفة جذرية على المنافسة ، ولاستغلال خيرات هذه البلاد الوفيرة . وهو ما تحقق في عهد المنصور في سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ - ١٥٩١م ، فأخذ ذهب السودان وخيراتهم الاخرى في التدفق على المغرب ...

وبفضل هذه الجهود الهامة التي قام بها اوائل السعديين في حقل التجارة ، وتشجيعهم لها نشطت تجارة المغرب الداخلية ، وازدهرت مراكز تجارية عديدة فيه ، مثل تارودانت وسلا ، وتطاوان ، ومراكش ، بعد ان كاد يصيبها الخراب ، وآسفي ، وسجلماسة وغيرها . كما نشطت تجارة المغرب الخارجية ولا سيما مع الدول الاوربية مثل انكلترا التي اسست في سنة ١٥٨٥م الشركة المغربية خصيصا لتنظيم تجارتها مع المغرب ، بعد ان توسعت هذه التجارة ومنحتها حق الاحتكار لمدة ١٢ سنة ،(2) وفرنسا ، ثم هولندا ، ابتداء من اواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . (3) .

وكانت اهم صادرات المغرب الى الدول الاوربية : السكر والتمر والشمع والجلود ، وبعض المعادن ، كالنحاس ، وملح البارود ، والذهب ، الذي كان يهرب تهريبا ، والحبوب والسكر . (4) . بينما كانت اهم وارداته منها : الاسلحة والامتعة المختلفة ، والحديد المصنع ، وغيرها . وكانت اهم واردات المغرب من بلاد السودان هي الذهب ، والعبيد ، مقابل صادراته التي كانت تتمثل في المنسوجات ، والمصنوعات النحاسية والحديدية ، والخيل والتمر ، والحبوب ، والكتب .

اما اهم صادرات المغرب الى الجزائر ووارداته منها فسيأتي الحديث عنها مفصلا بعد قليل

---

(1) طوريس : المرجع السابق ص ٦٦ ؛ و مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩
(2)(3) انظر رفائيلو : الحياة السياسية والعلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب .
(4) انظر عن صادرات المغرب الى اوربا ووارداته منها م.م.ت.م : انكلترا ج١ (المقدمة)

وهكذا يمكن القول ان اوائل السعديين قد اجتهدوا في توفير الشروط الضرورية للنهوض بالاقتصاد المغربي وازدهاره وتمكنوا من تحقيقها ، وكان يمكن للحياة الاقتصادية في المغرب ان تمضي قدما الى الامام لو ان اواخر السعديين حافظوا عليها ، ولكنهم لم يفعلوا فعاد المغرب في عهدهم الى التجزؤ والاضطراب وشهد تجدد الاطماع الخارجية فيه ، والمنافسة الدولية له في السودان . كما تجددت الكوارث الطبيعية والاوبئة ، وكادت تتصل وتستمر دون انقطاع وهذه كلها عوامل ليس من شأنها ان تحافظ على ازدهار الاقتصاد المغربي او تطويره . ولم تستطع اى من القوى السياسية التي قامت في المغرب خلال الثلثين الاولين من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى ، كالسملاليين في الجنوب المغربي والدلائيين في الشمال والوسط المغربي ، الخروج بالمغرب من المأزق الذى آل اليه في مختلف جوانبه ، الى ان نهض بذلك الاشراف العلويون في الحقبة التالية للفترة موضوع البحث .

وفي هذه الاثناء كانت الدول الاوربية المجاورة للمغرب وغير المجاورة له قد مضت قدما الى الامام في ثورتها الاقتصادية مما كان له الاثر الاتي بيانه .

الثورة الاقتصادية الاوربيـــــــــــة :

لقد أوجدت الكشوف الجغرافية آفاقا جديدة لاوربا ، فاندفعت دولها المكونة حديثا بكل امكاناتها وطاقاتها التجارية ، لاستكشافها ، واستثمارها لصالحها ، ولم تكن تلك الآفاق هي القارة الجديدة فحسب بل سعت الى كل اجزاء العالم المتعذر الحقيق متفاديا . ومن كل القيل وقال عن ضعف القيمة التجارية للبحر المتوسط نتيجة تلك الكشوف فان الوثائق اثبتت انه ظل محافظا على قسط كبير من قيمته هذه (1). ولا ادل على ذلك من تهافت الدول الاوربية على الاتجار مع البلاد القائمة على سواحله الجنوبية والشرقية التي توصلها الى اعماق افريقيا وآسيا (٢) على الرغم من اختلافها معها في الدين ، والسياسة ، وعلى الرغم من العداوات السابقة والراهنة . وفي هذا التهافت دخلت دول اوربية جديدة الى ساح التجارة فيه لم تكن سابقا من الدول المتاجرة في حوضه ، ومن هذه الدول انكلترا وهولندا (٣) .

ومع ان اثر هاتين الدولتين قد لا يكون كبيرا في تجارة البلدين الجزائر والمغرب ، ومن ثم في اقتصادهما ، الا انهما وبصفة خاصة انكلترا في المغرب التي كونت الشركة المغربية للاتجار معه في ١٥٨٥ ، ومنحتها حق احتكارها لمدة ١٢ سنة ، كانتا عنصرا جديدا في التجارة ، بل يمكن القول بصفة عامة ان التجارة الاوربية باساليبها الحديثة وبمقوماتها المختلفة اخذت تدس انفها في هذين البلدين ، كما فعلت في اجزاء العالم الاخرى ، وتستثمر امكاناتهما

---

(1) برودېل : المتوسط وعالمه البحرآن
(٢) على الرغم من العداء بين البلدين الجزائر والمغرب من جهة واسبانيا والبرتغال من جهة اخرى فقد كان بين البلدين الاولين والبلدين الاخيرين علاقات تجارية انظر هايدو : الجوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٥ ص٣٥ و :-
Ricard(R.):Le Commerce de la Barbarie et l'Empire Portugais. in A.I.E.O. Paris 1936.
(٣) انظر عن تجارة انكلترا وهولندا مع المغرب : م.م.ت.م انكلترا ج١ (المقدمة) و م.م.ت.م هولندا.
Denice: L'Afrique au 16è.Siècle et le Commerce Anversois. ANVERS 1937.
Caille(R.):Le Commerce de l'Angleterre avec le Maroc;Pendant la Seconde Moitié du 16è Siècle. ALGER 1940. (in R A.)

الاقتصادية لبلادهما ، وقد يكون من اهمها استيراد المواد الخام كالاصواف والجلود ، والمواد المعدنية ، وتصدير المواد المصنوعة لهما ، وبذلك وضعت نفسها في موقع المنافس القوى للصناعة الوطنية (١) ، التي اخذت تفقد مقوماتها من المواد الخام المحلية التي كانت الدول الاوروبية تحصل عليها بطريقة مشروعة او غير مشروعة ، كما شرعت تفقد تدريجيا سوقها الداخلية ذاتها ناهيك بالسوق الخارجية . اذ ان اوربا شرعت تدريجيا تطور صناعتها تطبيقا للنظام المركنتيلي الذى اتبعته ، وتأتي بالمواد الخام الضرورية لها من كل ركن في العالم .

فالتجارة الاوربية ، اذا كانت قد حملت للبلدين في هذه المرحلة رسوما جمركية سدت ثغرة في موارد خزينتهما ، وأفادت بعض الفئات المتاجرة مع الاوربيين من الحكام والسكان وبخاصة اليهود . الا انها في واقعها العميق كانت ذات اثر سلبي في اقتصاد البلدين وبصفة خاصة عندما شرعت الدول الاوربية تنضح من البلاد النقد الفضي والذهبي عن طريق زيادة صادرها اليها والاقلال من وارداتها منها ، هذا بالاضافة الى الاتجار بنقدها . فمن المعروف اقبال السكان في الجزائر بصفة خاصة على النقد الاوربي بانواعه ، وقد ساعد تقلبل سعر الأقچه العثمانية وانخفاضها ، الى ارتفاع سعر النقد الاوربي بالنسبة اليها ، وبذلك كان الاوربيون يحققون ارباحا كبيرة . وقد يكون منع المنصور السعدى اخراج نقده الذهبي من المغرب نتيجة لما رآه من افتقاد البلاد نقدها ، وتسربه الى اوربا .

بل انه منذ النصف الثاني من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر للميلادى شرعت بعض الدول ومنها فرنسا لتصدير نقد مزيف . (٢) .

وبسبب الا تدخل في هذا المجال سعي بعض الدول الاوربية لاحتكار انتاج بعض السلع الهامة وقد سعت فرنسا للحصول على امتياز استثمار المرجان في الجزائر . وكانت له سوق هامة في اوربا وان لا تقل اثرها السلبي الذى لا يظهر فقط في غزو اسواق الجزائر والمغرب وبلاد السودان ، بالبضائع المصنعة مما ساهم في جعل الصناعة المحلية فيهما لا تنمو ولا تتطور بشكل يمكنها من الوقوف امام الصناعة الاوربية والمنافسة التجارية في الداخل والخارج ، ولكن ايضا باستنزاف العملة الذهبية فيهما اذ كان التجار الاوربيون كما ذكرنا وبصفة خاصة التجار الانكليز ، والهولنديون ، والفرنسيون يؤثرون البيع نقدا على البيع بالمقايضة ، وتمكنوا عن طريق البيع والتهريب من تحويل كميات كبيرة من الذهب ، ولاسيما من عملة المغرب التي كانت في عهد المنصور من الذهب الخالص ، على الرغم من القيود التي وضعها هذا الاخير حول خروج العملة الذهبية من المغرب .

---

(١) كانت الأقمشة الانكليزية في كل من الجزائر والمغرب مفضلة على الاقمشة المصنوعة محليا في البلدين . وكان علية القوم في المغرب يتخذون لباسهم من الاقمشة الانكليزية ذات اللون الازرق . انظر م.س.م : انكلترا ج١ ص ٢٧ .

(٢) انظر حول تزييف النقد وادخاله الى الامبراطورية العثمانية :
Montran(R.):Istambul dans la Seconde Moitié du 17e Siècle, Paris 1962, P.P.263-264.
Paris(R.):Histoire du Commerce de Marseille dans le Levant, Paris 1957 t.5 P.131

الامر الذي كان له اثره السيئ على هذا البلد ، ولاسيما بعد ان قل وصول الذهب اليه من السودان في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر للميلاد ، فعجز حكامه من تمويل الجيوش، لقلة المال . ومن ثم عجزوا عن توفير الامن والاستقرار في المغرب ، مما من الظروف التي ساهمت في تحسين الاوضاع الاقتصادية ، في حين مضت اوربا في تطوير اقتصادها وتحسين انتاجها وغزو الاسواق المختلفة به وتحقيق ارباح وفوائد كبيرة ، ولا ادل على الفوائد الكبيرة التي كان يحصل عليها الاوربيون من التجارة في البلدين في انتاجهم الصناعي المتنوع والمتزايد من اصرارهم على المضي في التجارة مع الجزائر والمغرب ، على الرغم من الاخطار التي كانت تهدد سفنهم من غزاة البحر الجزائريين والمغاربة الذين كانوا لا يعبؤون كثيرا بالاتفاقيات التجارية التي تعقدها الدول الاوربية مع حكومتي البلدين ، هؤلاء الغزاة الذين كانوا في واقع الامر يعدلون من خسائر الميزان التجاري للبلدين مع الدول الاوربية .

وبما ذكر سابقا عن العوامل المؤثرة في الاقتصادين الجزائري والمغربي من شأنه في العلاقات الاقتصادية بين البلدين خلال مرحلة

الدراسة ، يتبين ان الاقتصادين بقيا ، على الرغم من المؤشرات الجديدة الهامة الطارئة على بنيتيهما ، وبعضها ايجابي ، لم يستطيعا ان يتخلصا نهائيا من العوامل السلبية وان يصلا الى ازدهار مستقر . فالاقتصاد الجزائري شاهد بعض التحسن خلال الحكم العثماني ، لازدياد اليد العاملة الفنية لهجرة الاندلسيين ، ولمراقبة الدولة للانتاج ، وتوفير بعض الامن ، وتشجيع الغزو البحري ، والتجارة الاوربية ، وكذلك في المغرب خلال حكم المنصور السعدي ، الا ان هذا التحسن بقي سطحيا ومؤقتا ، لان العوامل المناخية والكوارث الطبيعية وغيرها والاضطرابات السياسية الداخلية والخارجية ، بقيت عاملا اقوى يشد الاقتصاد نحو الضعف : فالجفاف يتناوب على البلدين ويحمل معه القحط والمجاعة ، والجراد ، والوباء ، والصراعات الداخلية تهلك العاملين في الفعاليات المختلفة ، وتستنزف الطاقات المالية والبشرية ، وتعرقل النمو الاقتصادي ، ناهيك عن الصراعات الخارجية . وجاءت الدول الاوربية بدورها لتكون عاملا بدا منشطا في مظهره الخارجي للاقتصاديين ، الا انه كما رأينا كان في الواقع مفقرا لهما .

وقد كان لمجموع العوامل المؤثرة في الحياتين الاقتصاديتين لكل من الجزائر والمغرب انعكاسها على العلاقات الاقتصادية بين البلدين كما سنرى في الفصل التالي :

الفصـــــل الثامـــــن

مظاهـــر العلاقـــات الاقتصاديـــــة

ا كانت المصادر قد مكنتنا من تقديم صورة عن مجموع العوامل الموثرة في الحياة الاقتصادية
ن من الجزائر والمغرب خلال المرحلة المدروسة فاننا لا نملك الا ان نقول منذ البدايـــــة
باحث في العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب في الفترة ٥١٧ -، ١٦٥ لا تشبع نهمه
در المتوفرة ولا يجد ضالته فيها ، اذ ان الوثائق الرسمية غير متوافرة في هذا الميــــدان،
التاريخ والرحلات رغم ما تحتويه بين دفتيها من معلومات ثمينة واشارات عديدة حول الموضوع،
لا تمكن الباحث فيها من ان يكون فكرة كاملة عن مختلف جوانبه ، ولا سيما ان اكتفى بالمصادر
بية واستغنى عن المصادر الغربية .

كن يمكن القول دون افتئات على الحقيقة انه بحكم واقع الجوار والروابط البشرية الواحدة بيـــن
ين ، والصلات التاريخية الماضية ، فقد كانت هنالك دوما علاقات اقتصادية بين البلديـــن .
ه العلاقات كانت تقوى على الخصوص حين يتمكن حكام المغرب من فرض سيطرتهم علـــى
ين او مد نفوذهم على الجزائر كلها او على القطاع الغربي منها فقط كما حدث في عهد
حدين الذين بسطوا نفوذهم على كل البلاد الجزائرية ، وعهد المرابطين قبلهم الذيـــن
وا نفوذهم على النصف الغربي من الجزائر ، وعهد المرينيين الذين تمكنوا من السيطـــرة
نا على كل البلاد الجزائرية ، وعلى قسم منها احيانا اخرى .

نت تلك العلاقات تضعف حين تستقل الجزائر عن هؤلاء واولئك ، ويكون حكامها في حالـــة
او عداء مع المغرب ، او حين يسود الاضطراب البلدين . الا ان هذه العلاقـــــات
صل ابدا الى القطيعة ، اذ ظلت المصادر تؤكد دوما وجود علاقات اقتصاديـــــة
البلدين في الميدان التجاري على الخصوص ، وتشير الى ما كان يجري بين المدن الجزائريـــة
دن المغربية ، ولا سيما القريبة من بعضها ، من مبادلات في السلع كما تشير الى تنقـــل
جار من بلد الى آخر .

فاذا عدنا الى ما قبل عام ١٥١٧م نرى ان ابن فضل الله العمري، وهو من رجال القرن الثامن الهجري (توفي ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) الرابع عشر الميلادي ، يذكر ان اهل سجلماسة كانوا يزرعون القطن والكمون ، والكروية والحناء ، ويصدرون منتوجاتهم الى كل بلاد المغرب والى جهات إخرى ، وكذلك كان اهل درعة يفضلون بمنتوجاتهم من الكمون والكروية والنيلة (١). ونجد ان عبد الباسط بن خليل، صاحب كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، وهو من رجال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، يذكر ان قافلة من تجار تلمسان وغيرها ذهبت من مدينة تلمسان الى فاس في العقد السابع من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي للاتجار هناك فيما حملته معها من بضائع ، وقد باعت كل ما حملته ، ويشير بهذا الصدد الى حالة الامن وانعدامه في الطريق بين الحاضرتين الكبيرتين : تلمسان وفاس ، والاخطار الجسيمة التي يواجهها التجار في التنقل من حاضرة الى اخرى، بسبب تربص قطاع الطرق لهم (٢).

واكد الحسن الوزان (المعروف لدى الغربيين بليون الافريقي) ، وهو من رجالات القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، من جهة استمرارية المبادلات التجارية بين بعض المدن الجزائرية والمغربية في مطلع القرن المذكور كتلمسان ودرعة ، وفجيج وغيرها (٣). وتذكر المصادر والمراجع ان اسرة المقري الجزائرية التلمسانية الموطن ، حققت نجاحا كبيرا من تجارتها بين البلدين ، وبينهما وبلاد السودان واوربا . واسست شركة تتألف من خمسة اخوة كان احدهم ، وهو رئيس الشركة يقيم في سجلماسة ، احد المراكز التجارية الهامة في جنوب المغرب ومحطة من محطاته الرئيسية على الطريق بين شمال افريقيا وبلاد السودان ، بينما كان يقيم اثنان من اخوته في ولاتا ببلاد السودان الغربي ، واثنان آخران في الموانئ المغربية ، حيث كانا يقومان بتصريف البضائع السودانية ، وتوفير البضائع المغربية، والاوربية المطلوبة من قبل السودانيين (٤). ومن المنتظر ان تكون لهذه الشركة فروع بوطنهم في تلمسان، ووهران لنفس الفرض. وتذكر المراجع ايضا ان آل المقري مهد واطريق الصحراء بحفر الآبار ، وتأمين التجار ، واتخذوا طبلا للرحيل وراية تتقدم عند المسير (٥).

---

١) انظر ابن فضل الله العمري / مسالك الابصار / من مستلات مغفلة حول المغرب لفانيان ص ٧

(2) Brunschvig: Deux Récits de voyages Inédits en Afrique du Nord au 15e S. Paris 1936 P.58.

٣- الوزان : وصف افريقيا ج ٢ ص ٤٢ : ويرينا يقول تباع الاقمشة الصوفية المنسوجة في فجيج باسعار غالية جدا في مدن بلاد البربر مثل تلمسان وفاس .

(4) Bovill: The Golden Trade of the Moors, P.98.) انظر عن هذه الشركة . اشارة من شوقي عطا الله الجمل : علاقات المغرب بالاقاليم الصحراوية في / المناهل عدد المغربي ١٩٧٧ ص ١٤٤ - ١٤٥

) السفناوي / تعريف الخلف ج ٢ ص ١٥٥-١٥٦

وما تقدم يمكن القول بأن العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب في المجال التجاري، التي كانت قائمة في عهود الاسر المغربية التي تعاقبت على الحكم في المغرب الجزائر كالمرابطين والموحدين والمرينيين استمرت في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، ومطلع العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (1).

اذا ما تابعنا المسيرة في الحقبة المدروسة فقد يتريثم بعد أن تم التعرف بالأحوال السياسية في البلدين وتثبيت الاسبان في بعض المراكز الهامة في المغرب والجزائر، وما ترتب عليها من اعاقة طرق الاتصال بين البلدين، وتقويض لبعض مراكز التبادل التجاري، وبعد ان تم كذلك التعرف العلاقات السياسية المضطربة بين البلدين، أن العلاقات الاقتصادية قد أصابها الجمود، طالت تلك الاوضاع المضطربة في كثير من الاحيان دون قيامها أصلا، ولكن ما توافر لدينا مصادر، وان كانت غير سخية في معلوماتها عن العلاقات الاقتصادية، يؤكد استمرار العلاقات وبصفة خاصة في الميدان التجاري.

لكن اذا ما اردنا ان نتلمس كلية العلاقات الاقتصادية بين البلدين خلال هذه المرحلة لابد من التساؤل عنها في جميع الميادين: الزراعي منها، وما يتصل بها من تربية المواشي وغيرها، والصناعي، والتجاري، وفي مختلف الحقول الاخرى كصيد الاسماك، والغزو البحري.

1 - العلاقات في الميدان الزراعي: ان الوثائق ضنينة بالمعلومات جدا، ولو ان تداخل الحدود بين البلدين في الماضي، وانتقال السكان الحر بينهما، والصلات الاجتماعية والتاريخية التي كانت قائمة بينهم تدعو الى التخمين المبدئي بوجود صلات في الميدان الزراعي وتأثير متبادل في وسائل الزراعة ووسائلها، ومنتوجاتها، بالاضافة الى انتقال عمال زراعيين بين البلدين، ولا سيما في مواسم البذار او الحصاد، وقيام ملكيات زراعية لمغاربة في الجزائر ومثلها للجزائريين في المغرب. بل اننا نملك بعض الشواهد التي تؤكد ما ذهبنا اليه نذكر منها:

- ان ابا العباس احمد الونشريسي الذي انتقل الى المغرب في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في ظروف غير عادية، اذ ذهب الى فاس ناجيا بنفسه بعد الوحشة التي وقعت بينه وبين السلطان الزياني ابي عبد الله محمد، ما لبث أن اصبح من اعيان علماء فاس، وغدا يملك في هذه الاخيرة عرصة (2). الا اننا نجهل مساحة هذه العرصة ويبدو انه يشتغل فيها بنفسه اذ كان يذهب اليها كل يوم (3)، وفيها كان يقوم ايضا بتأليف كتاب المعيار (4) ...

---

(1) مارمول: المرجع السابق ص ٣٠ - ٣٦

(٢، ٣، ٤) ابن عسكر: دوحة الناشر ص ٣٧ - ٣٨.

٢- ان اللاجئين المغاربة من السعديين واتباعهم ، اقطعتهم الجزائر اقطاعات سخية . وجاء في وثيقة عثمانية ان عبد الملك السعدي رجا السلطان العثماني سليما الثاني منح تيمار لبعض اتباعه المهاجرين معه الى الجزائر ، ومنهم احمد بن يوسف ، ومحمد ، وبيرام ، وقاسم ، فمنحهم السلطان تيمارا ، قدره ثلاثة آلاف آقجة (١) ، عدا ما منح لعبد الملك واشقائه واولاد شقيقه عبد المومن بعد وفاة هذا الاخير ، من التيمارات والاقطاع الخاص (٢) .

٣- اما احمد المنصور ، فقد اقطع الكاتب البارع ابا عبد الله محمدا بن عمر الشاوي المعروف بالجزائري مغارم مستغنوم ، مكافأة له على الهجرة مع اخيه عبد الملك ، واستثنى من ذلك اعشار الزيت فكتب له ابن عمر ابياتا ليشملها العطاء ، فأعطاها له ايضا ، فكان يجبي بالالوف من العين (٣) .

٤- ومن المنتظر ان تنتقل الخبرة في الميدان الزراعي مع المغاربة الذين كانوا ينتقلون الى الجزائر ، ومع الجزائريين الذين كانوا ينتقلون الى المغرب .

ويقدم الوزان ومارمول من جهتهما بعض الاشارات الى انتقال عمال زراعيين وغير زراعيين الى المغرب من مناطق الجنوب الغربي للجزائر للعمل هناك كبني جومي الذين كانوا ينتقلون الى فاس ونوا حيها ، ثم يعودون الى مواطنهم ، برأس مال كانوا يستثمرونه في التجارة كأن يشتروا به الخيول ثم يبيعونها للمتوجهين الى بلاد السودان (٤) .

ولكنه رغم انتقال الخبرة في الميدان الزراعي مع العمال والملاكين من بلد الى آخر ، وربما ايضا بعض المزروعات ، فانه يلاحظ ان كل بلد ظل يختص ببعض المنتوجات الزراعية ، فالجزائريون لم يحاولوا نقل زراعة قصب السكر مثلا التي لاشتهر بها اقليم السوس بجنوب المغرب او زراعة النيلة التي كان يشتهر بها اقليم درعه ، فظلت الجزائر بلدا مستوردا لهاتين المادتين من المغرب .

والمغاربة لم ينقلوا فيما يبدو زراعة العناب التي كان يشتهر بها اقليم عنابة في الجزائر .

وقد يكونون حاولوا ، ولكن محاولتهم اخفقت ، علما ان كلا البلدين يتوفر في اقاليمه على المناطق الملائمة لزراعة ما كان ينقصه من المحاصيل النباتية المتوافرة في البلد المجاور .

وفيما يتعلق بميدان تربية المواشي ، والصناعات المختلفة ، وتربية النحل ودودة القز وغير ذلك ، من الحقول الاقتصادية المتفرعة او المتصلة بالميدان الزراعي ، فلم نجد في المصادر الموجودة بين ايدينا ما ينفي قيام صلات بين المشتغلين في تلك الحقول الاقتصادية ، ولا ما يؤكدها .

وان كنا نعتقد اعتقادا قويا في قيام صلات واحتكاكات بين المشتغلين في مختلف ميادين النشاط الاقتصادي في كلا البلدين ولا سيما المناطق المتجاورة كبادية تلمسان مع شرق المغرب مثلا

---

١) مهمة دفتري رقم ٢٥ ص ٣٤٢ ، حكم رقم ١٣١٣ بتاريخ ٩٨٢/٨/٢٧ هـ

٢) مهمة دفتري رقم ٨ (ص ١٥) حكم رقم ٢٥ بتاريخ ٩٧٦/٦/٢٧ هـ

٣) الافراني : النزهة ص ١٢٥ نقلا عن : المنتقى المقصور لابن القاضي

٤) انظر الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٣٣ ، مارمول : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٦ وغيرها

بحيث نتج عنها ذلك التجانس الكبير في انواع الحيوانات السائدة في كلا البلدين ، كما يستخلص ذلك من اوصاف الوزان ، ومارمول وغيرهما لها، وفي الانماط والطرائق المتبعة في تربية الماشية ، والنسل وزيادة القز والصيد البحري، يجعلنا نعتقد اعتقادا قويا في قيام صلات واحتكاك بين المشتغلين في الحقول الاقتصادية بالقطرين .

اما الغزو البحري الذي كان من الفعاليات الاقتصادية الهامة في كلا البلدين في هذه الفترة موضوع الدرس ، فقد كان التعاون فيه بين غزاة الجزائر وغزاة المغرب قائما ، وموكدا : حيث كان غزاة الجزائر وغزاة تطوان في المغرب او غزاة سلا ، في المغرب ايضا يخرجون سوية للغزو البحري، ويتبادلون الخبرة في هذا الصدد . وكان غزاة الجزائر يجدون في موانئ الشمال المغربي، المتوسطية والاطلسية ، ليس فقط المأوى والملجأ ان اضطروا الى ذلك ، ولكن ايضا السوق التجارية لصرف بضائعهم، والسوق التي يتمونون منها بما يلزمهم من ماء وغذاء وغير ذلك . وكذلك كانت موانئ الجزائر بالنسبة لغزاة المغرب حين يقصدونها . (1)

ب ــ الصناعة :

واذا ما انتقلنا الى الميدان الصناعي فان المعلومات التي لدينا تشير الى ان الصناعات التي كانت قائمة في البلدين، كصناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والصناعات الجلدية والمعدنية وغيرها متشابهة الى حد كبير ، بل ومتطابقة في الانماط والطرائق ، مما يعني ايضا ان الاحتكاك بين المشتغلين في هذا المجال كان كبيرا ، وان خبرة الصناع والحرفيين كانت تنتقل من بلد الى آخر مع الصناع والحرفيين المغاربة الذين كانوا ينتقلون للعمل في الجزائر حاملين معهم اساليب صناعاتهم ، ومع الجزائريين الذين كانوا ينتقلون الى المغرب للعمل هناك . ومن الطبيعي ان يجري تقليد متبادل في نوع الصناعات وطرائق الصنع السائدة في البلدين، ولا سيما المؤثرات التي دخلت اليهما مع الوافدين الجدد من اتراك وغيرهم واحدة . وقد يكون مثلا عن ذلك صنع الزرابي في المغرب على الطريقة التركية . (2)

ج ــ التجارة : ولكن المصادر الموجودة بين ايدينا، تقدم لنا معلومات أغزر واوفى عن العلاقات التجارية، ولو انها مقتضبة ، اذا ما قيست تلك المعطيات بما تطرحه المصادر الاوربية عن العلاقات التجارية بين اوربا وكل من المغرب والجزائر ، مما يشعر القارئ بأن تلك العلاقات كانت اكثر نشاطا وحيوية مما كانت بين المغرب والجزائر ، كما انها تفتقد الاحصاءات الضرورية لتفهم ابعاد تلك العلاقات .

اما تلك المعلومات التي قدمتها المصادر لنا في حقل العلاقات التجارية فيمكن حصرها

(1) مارمول : المرجع السابق ج 2 ص 243
(2) نفسه : ج 2 ص 128

ـمن الفقرات التاليـــة :

١) طرق المواصلات بين البلدين ٢) القوافل المتبادلة
٣) المواد التجارية المتبادلة ٤) مراكز التبادل التجاري .

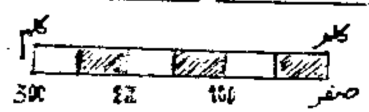
ـ طرق المواصلات بين البلدين :

انها في الواقع الوسيلة الكبرى لاقامة علاقات مباشرة بينهما ،
ـصفة خاصة علاقات تجارية ، وبقدر ما تتوافر فيها الشروط الملائمة من قرب واتساع في المسالـــك ،
ـن توافر الماء فيها ، ومحطات الاستراحة،واخيرا استتباب الامن في ارجائها،بقدر ما تكـــــون
ـؤثرا ايجابيا في العلاقات بين البلدين .

واذا ما استقصي عن طرق الاتصال بين المغرب والجزائر،فانه يتبين وجود ثلاث طــــرق
ـيسية،اثنـان منها برية،والثالثة بحرية، وهذه الاخيرة تنطلق من موانئ المغرب الشمالية ولا سيما
ـن تطوان بعد ان احتل الاسبان حجر بادس في سنة ٧٢ هـ/١٥٦٤م وجعلوا مرسى بادس تحت
ـمة مدافعهم . كما كانت تنطلق ايضـا مـن سلا الواقعة على الاطلسي .

وليس خير من يطلعنا فترة واضحة عن مراحل هذه الطرق بين الجزائر والمغرب،هو ابو الحسن
ـي التمجروتي صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية الذي سلكها بمناسبة سفارتــــــه
ـم ٩٧ هـ/١٥٨٩م،وهذه مراحلها كما ذكرها : كان الانطلاق من تطوان في شمال المغــرب
ـشرفة على المتوسط،وكانت المحطة الاولى في تارغه على بعد (ثمانية مراحل)اي نحــــو
ـ كلم تقريبا ، اما الثانية فقبل الوصول الى حجر بادس لوقوع هذه الاخيرة تحت الاحتلال الاسباني ،
ـما الثالثة فمند بر طوبة،وهي آخر المحطات المغربية والمحطة التالية هي هنين التي كانت مدينـــة
ـامة ، ومنفذ تلمسان البحري قبل احتلال الاسبان لها ، ثم تخريبها عام (٤١هـ/١٥٣٤م) .
ولم تكن وهران محطة في الفترة التي سافر فيها التمجروتي ، لكانت المحطة الثانية لا شك مـن
ـمحطات الهامة في الغرب الجزائري وتبعها المحطات التالية علـــى الترتيب : آرزيـــــو
ـستغانم ، فتنس ، فشرشال ، فمدينة الجزائر ، فدلس ، فبجاية ، فالقل ، فعنابه ، ومنها الـــى
ـنزرت اولى المراسي في القطر التونسي(١)، وقد كان من العادة ان تتوقف السفن الحاملة للركـــاب
ـستراحة والتجارة في الموانئ المذكورة والتزود بما يلزم المسافرين في المدن الساحليـــــة
ـد تستغرق فترة الاستراحة يوما او اكثر .

(١) التمجروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية س ١٢-٢٧



خريطة توضح الطرق الرئيسية البرية والبحرية

اما الطريقان البريان فأحدهما شمالي، يربط بين اهم المدن الداخلية وبعض المدن الساحلية واهم محطاته من الغرب الى الشرق كانت على النحو التالي :

فمن فاس الى تازه ، فوجده المغربية ، فتلمسان الجزائرية ، فمعسكر ، فمازونه ، فمدينة الجزائر، ومنها الى بجاية فقسنطينة ، فعنابة ، ومنها الى القطر التونسي ، وهو الطريق الذى سلكه الوزان في رحلته نحو المشرق في سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م (١) ، والطريق الذى كانت تسلكه تقريبا قافلة سلا التجارية الآتي ذكرها (٢) .

ومن قسنطينة كان يتفرع ايضا طريق يؤدى الى بسكره ، ومنها الى الاراضي التونسية . وهو الطريق الذى كان يسلكه حجاج الجزائر المنطلقون من الشمال، لينضموا الى قافلة حجاج المغرب (٣)، وكان يسلكه ايضا تجار قسنطينة المتوجهون الى الجنوب الجزائرى وبلاد السودان (٤) ، والمغاربة الذين كانوا يعرجون على قسنطينة من بسكره .

والطريق البرى الآخر جنوبي : ومراحله الهامة هي تافيلالت ، (سجلماسه) ، بالجنوب الشرقي للمغرب ، فبوسمغون بالجنوب الجزائرى ، فالغاسول ، فعين ماضي ، فالاغواط ، فالبرج فسيدى خالد فبسكرة ، فسيدى عقبه ، فتوزر بالجنوب التونسي (٥) . ويتصل هذا الطريق في الاراضي المغربية بالطريق بين الشمال المغربي والجنوب المنطلق من تازه الى سجلماسة ، وهذا الطريق هو الطريق الذى تسلكه عادة قافلة الحج المغربية ، الا ان هذه القافلة قد تعرج احيانا على توات لغرض تبديل العملة هناك ، لرخص الذهب فيها - اذ كانت ملتقى تجار شمال الصحراء مع جنوبها بما في ذلك تجار بلاد السودان - كما حدث للقافلة الحج المغربية لسنة ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م ، التي كان العياشي صاحب الرحلة من ضمن افرادها ، فترك لنا سجلا وافيا عن مراحل هذا الطريق، الذى يتوغل جنوبا حتى توات ، ومنها يتجه شمالا الى ورجله فتوغرت ، فسوف ، فالجنوب التونسي (٦) ، ولذلك فان هذا الطريق طويل جدا يستغرق قطعه نحو شهرين من الزمن ، واكثر من ذلك اذا اعتبرنا ايام الاستراحة في المراكز والمحطات ، ومعظم هذه المحطات صحراوية، وقد تقطع القافلة مسافات طويلة دون ان تصادف عمارة أو بئرا ترتوى منه ولذلك كان السالكون لهذا الطريق يشرعون في سفرهم في بداية فصل الشتاء ، وعليهم ان يتزودوا بما يكفيهم من الماء والغذاء لمدة ثلاثة ايام او اكثر احيانا . ومن الاوصاف الكثيرة الحية التي خلفها العياشي عن مختلف مراحل هذا الطريق، نرى انها صعبة للغاية ، وتفتقر الى التمهيد والمرافق الضرورية لجمل

١) انظر الوزان ، وصف افريقيا جـ ٢ (المدن المذكورة كمحطات)

٢) ايمريت : المرجع السابق ص ٤٢

٣) انظر الورتيلاني : نزهة الانظار .

٤) نفسه .

(5)Prax(M.):OP. CIT., P. 3 , et Emerit (E.):Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'afrique du nord, in/ Trav. de l'Inst. de Rech.,t.11,Alger 1954,P.42, note 2.

العياشي : المصدر السابق : جـ ٢ ص ١٣ - ٤١

٦) العياشي : المرجع السابق جـ ١ ص ١٢-١٥

السفر مزيحا كمحطات الاستراحة والفنادق وغير ذلك . ومما قاله العياشي بصدد وصفه لبعض مراحل هذا الطريق :

وقد سرنا يومنا الى الليل في طريق حرشة ،وعرة ،لا حسب فيها ولا كلأ ،ولا ماء . .[1] وعن مرحلة اخرى قال " . . ثم ارتحلنا وسلكنا في ارض كأنها المحشر . .[2] " وقال ايضا عن طبيعة الطريق " . . ثم ارتحلنا من هنالك قاصدين وادي ريق في ارض ذات رمال ،لا يهتدى فيها الا من مارسها كثيرا[3] ". اما عن تباعد المحطات وقلتها ،وافتقارها لما يحتاج اليه المسافر ان وجدت فقال " . . ولم نزل نسير من ذلك الوادي الى ان نزلنا عاشر يومنا على قرية يقال لها واكي والى ،ولم نجد في هذه القرية الا رجلا واحدا ،ومعه نساء من قرابته يعولهن . .[4] " .

حالة الامن في الطرق : ولكن ما كان يزيد الطرق البرية السالفة الذكر صعوبة هو اضطراب الأمن فيها ،وانعدامه احيانا ،وهذا ليس فقط حين يكون المغرب والجزائر في حالة نزاع وحرب ، بل وحين يكون البلدان ايضا في حالة سلام ،بسبب انتشار قطاع الطرق ،ولا سيما في المناطق البعيدة عن مركز الدولتين ،كالمناطق الصحراوية ،مما يؤثر لا شك تأثيرا سلبيا على حركة التجارة بين البلدين . وقد اكدت المصادر دائما بما في ذلك العياشي ،وقبله مارمول والوزان ،وعبد الباسط بن خليل ،وغيرهم ،أن الأمن في الطرق الرابطة بين الجزائر والمغرب كان دائما مضطربا ، بل منعدما ،بحيث من الصعب جدا على مسافر او مجموعة من المسافرين ،ولا سيما ان كانوا تجارا ، ان يجتازوا الطريق الشمالي والجنوبي البريين ،دون ان يتعرضوا لخطر قطاع الطرق الذين كانوا يتربصون بعابري السبيل لنهبهم وسلبهم ،بل وقتلهم ، ولا سيما ان هم حاولوا ابداء المقاومة . ويذكر الحسن الوزان بهذا الصدد انه من النادر ان يفلت التجار من ايدي قطاع الطرق في سهل انجاد[5] ،القاحل الواقع قرب تلمسان ،والذي تمر منه الطريق الرابطة بين تلمسان وفاس . ونفس المخاطر كان يتعرض لها السالكون للطريق الرابط بين سجلماسة وبسكرة عبر تواتة او عبر الاغواط . وقد اشار العياشي في رحلته الى المخاوف الكبيرة التي كانت تنتاب الحجاج في بعض مراحل الطريق ،" فلما تجاوزناها (البئر) حصلت للركب روعة لخبر اخبروه ان بازائهم

(١و٢و٣و٤) العياشي : المرجع السابق ج١ ص٨-٤٥-٤٦-٤٠

٥) الوزان : المصدر السابق ج٢ ص ٣٢٦

وم من الغرب يريدون الاغارة ، فشمر الناس للقتال ، واخرجوا عدتهم وآلة حربهم) [1]. وفي مكان اخر قال :(ارتحلنا وسرنا جد خائفين ، ونزلنا ظهرا بالمكان المسمى بالدوسة بينه وبين ولاد جلال نحو من فرسخ ، وهناك تحقق الناس امر العرب وانهم متعرضون للركب ، قاصدون اخذه ، ومعهم نحو ۳۰۰ فارس ... وتنكبنا المحل الذي فيه اولئك المحاربون ، وارتحلنا نصف الليل ... وسرنا بقية ليلنا خائفين في ارض حرشة ، مظلمة ، لا تسمع الا همسا باخفاف الابل ..) [2]

وقد كان ملوك تلمسان الذين عجزوا عن القضاء على قطاع الطرق وبالتالي عن توفير الامن للمسافرين والحريصين على تجارة مملكتهم مع المغرب ومع بلاد السودان ايضا ، يدفعون لبعض العرب اتاوات من اجل تأمين الطريق من اخطارهم ، ولكنهم لم يتمكنوا ابدا من ارضائهم جميعا ، ولهذا فان بعضهم كان يهدد دائما الطريق وأمن المسافرين ، ولا سيما حين يسود الفرس المتعاون مع الملوك الزيانيين في فصل الشتاء [3].

اما السعديون ولا سيما الملوك الاوائل منهم الذين اهتموا اهتماما ملحوظا بالتجارة الخارجية فقد اولوا قضية الامن في الطرق اهتماما كبيرا ، فأنشأوا الحصون في المناطق المخيفة واقاموا حاميات فيها ، وفي المراكز التي يهددها الأعراب ، والتي تمر منها القوافل التجارية . وسلطوا العقوبات الشديدة على المخلين بالامن في الطرق ، وشجعوا بعض القبائل في المناطق الموحشة فاقطعوها ما يكفيها من الاراضي وحملوها مسؤولية ما يضيع للمسافر في منطقتها [4].

واما اتراك الجزائر العثمانيون الذين ابدوا بعض الاهتمام بتأمين الطريق البري الشمالي ... الخصوص فقد اقاموا الابراج والحصون والحاميات في بعض مراحلها كبسكرة وقسنطينة ... مجانه ، وسور الغزلان ، ومليانه ، ومازونه ، ومعسكر ، وتلمسان . وكلفوا القبائل المخزنية بالامن في الاجزاء الاخرى [5] ، على أن المتمعن في مصادر الفترة موضوع البحث يجد ان الامن في الطرق كثيرا ما كان يضطرب ، وان الاتراك كثيرا ما فقدوا السيطرة على بعض اجزاء هذا الطريق خاصة بين الجزائر وقسنطينة عبر مجانه بسبب تهديد القبائل التابعة لبني القاضي او لبني عباس له. ومثل ذلك كان يحدث ايضا بالنسبة للجزء الرابط بين قسنطينة وبسكرة الذي كان تحت نفوذ عرب الذواوده .

وازاء الامن الذي كان يكون مضطربا دائما في الطرق ، وعجز السلطة في البلدين عن توفيره بشكل ... وتام ، فقد كان التجار الجزائريون المتوجهون الى المغرب والتجار والحجاج المغاربة ما

---

(1) العياشي : المرجع السابق ج1 ، ص 42
(2) نفسه ج2 ص 415-416
(3) الوزان : المصدر السابق ج2 ص 226
(4) مارمول : المرجع السابق ج3 ص12 . المجهول : المرجع السابق ص66 الافراني النزهة ص158
(5) انظر عهد حسن بن خير الدين . وعهد محمد بن صالح رايس في هايدو : المرجع السابق ومرسي : المرجع السابق ج3 ص 138
(6) مرسي : المرجع السابق ج3 ص 133

متوجهون الى الجزائر والمشرق يعتمدون على انفسهم . فكانوا يصطحبون معهم اسلحتهم
فد فاعية ، ويستأجرون احيانا بعض الرجال المسلحين لرد اعتداء المغيرين . كما كانت القوافل
تصطحب معها احد رجال الدين المرابطين اذ كان هؤلاء موضع احترام من قبل قطاع الطرق .
ذكر هايد و بهذا الصدد انه يكفي للمسافرين عن طريق جبال جيجيل حيث يوجد عدد كبير
من قطاع الطرق الشرسين ان يصطحبوا معهم احد المرابطين لاجتياز الطريق دون اخطار (1).
واما ابن عسكر فقد ذكر من جهته ان حجاج المغرب كانوا يصحبون معهم الشيخ الرجـان
ابا عبد الله محمد الزيتوني لاتقاء شر قطاع الطرق . وان عرب انجاد والزاب وافريقيا (تونس) ،
على جرأتهم وتمردهم كانوا لا يتعرضون لركائبه بسوء لما رأوا من خرق العوائد التي اجراها
الله سبحانه على يده (2) . واورد نقلا عن مسافر سبق له السفر مع الشيخ الزيتوني . ان عـرب
الزاب اجتمعوا ركبهم الاخير من كل الجهات فأخبروه بذلك ، وقد كان اعمى ، اسود اللون ، فأخذ
قبضة من التراب ورمى بها يمينا واخرى رمى بها يسارا ، وثالثة الى الامام ورابعة الى الخلف ،
فخرج من ذلك التراب سيل من النحل فشردت خيل العرب حتى غابت عن اعين الركب ، ثـم
لبث ان عاد العرب في آخر النهار على ارجلهم بالبقر والغنم واهلهم واولادهم بين ايديهـم ،
يبركون بالشيخ ويستعطفونه . وذكروا عظيم الهول من تلك النحل (3) .

وحتى الطريق البحري بين المغرب والجزائر لم يكن آمنا اذ كثيرا ما تعرضت السفن المغربية
الجزائرية التي تحمل التجار ، او الحجاج ، او البضائع الى هجومات من القراصنة الاوربيين انتقاما
من غزاة البحر المسلميـن او طلبا للربح وهي ذاهبة نحو الجزائر او آتية منها (4) .

وهكذا فان اخطار السفر على الطريقين البري والبحري لا غرو من الاغراض كانت كبيرة ،
الامر الذي كان له اثر سلبي على الحياة الاقتصادية في البلدين ، ومن ثم على العلاقـات
الاقتصادية بينهما .

ولكن اضطراب الامن في الطرق الداخلية والطرق الرابطة بين الجزائر
والمغرب ان كان عاملا ذا تأثير سلبي على الحركة التجارية بين البلدين ويتنافـر
مع ذلك حالة الطرق البرية السيئة لافتقارها كما ذكرنا الى التعهد الجيد ، والى المرافـق
التي تجعل السفر فيها مريحا ، فان هذين العاملين الهامين لم يوقفا ابدا حركة القوافل بين البلدين

(1) هايدو / الجغرافية في المجلة الافريقية عدد 85 / الجزائر 1871 ص 218
(2و3) ابن عسكر : دوحة الناشر ص 54–55
(4) محمد داود / تاريخ تطوان ـ المجلد الاول ص 86 ودوفرامون : المرجع السابق ص

ـ القوافل المتبادلـــــة :

واذا فتحنا باب الحديث عن القوافل المتبادلة بين الجزائر والمغرب فانه يمكننا الحديث علـى الاقل على نوعين من القوافل :

ـ القوافل البرية : وهذه يمكن ان نقسمها الى نوعين :

١ـ القوافــل التجارية البحتــه .

٢ـ القوافل ذات الطابع الديني والتجاري .

ب ـ القوافل البحرية المتعددة الاغراض وما يتبعها من نقل الركاب من بلد الى آخر .

ـ واذا تطرقنا بالحديث الى القوافل التجارية البحتة، يمكن ان نقول ان تنظيم هذه القوافـــل، ومواعيد تحركاتها ومسيرتها ، ومدى ضخامتها ومقدار حمولتها ، الى غير ذلك من التفاصيـــــل، لا تزال غير معروفة بشكل محدد ودقيق ، على انه يمكن القول من جهة اخرى انه في ظـــــل الظروف الامنية في الطرق التي كادت تكون دوما مضطربة، بسبب هجومات قطاع الطرق على المسافرين ولا سيما التجار منهم، فقد كان هؤلاء يتنقلون في قافلة او اكثر، ويستأجرون مسلحين خصيصـــا لدفع اذى قطاع الطرق عنهم، وقد يصحبون معهم كما ذكرنا احد المرابطين لنفس الغـــــرض، ودليلا عارفا بالطرق، إذ ان بعض اجزاء الطرق مطموسة المعالم ، لا يهتدي فيها الا من سار عليهـــا مرارا ، وهذا شأن الطرق الصحراوية على الخصوص . اما وسيلة النقل الرئيسية في القوافل التجارية البرية فكانت الابل بالدرجة الاولى . ثم الخيل، والبغال، وغيرها من الحيوانات القادرة على حمـــــل البضائع الثقيلة، وقطع المسافات البعيدة، وتحمل المشاق . ومن التمعن في قراءة المصـــــادر المعاصرة للفترة موضوع البحث نعلم ان تجارا جزائريين كانوا يذهبون الى المغرب بقصد التجارة في مدنه ومراكزه كفاس ، ووجدة ، وسجلماسة ، وغيرها ، وذلك في جماعات او قوافل صغيرة، أو كبيرة ، كانت هذه القوافل تتحرك من مدن الجزائر (١) ، وتلمسان وغيرها محملة بالمواد والسلع الآتي ذكرها ، وكذلك الامر بالنسبة للتجار المغاربة الذين كانوا يتوجهون الى تلمسان وغيرها من المـــــدن الجزائرية الشمالية والجنوبية، وقوافل متفاوتة الاهمية.

وفي مذكرة وليم لانكو ما يؤكد استمرار توجه القوافل من احد البلدين الى البلد الآخـــــر اذ يشيـــــر الى ذهابه من الجزائـــــر الـــــى المغـــرب رفقة ثلاثين من تجار الجزائر واثنين من الانكشارية وترجمان . ولكن أيا من هذه القوافل البحتة لم تبلغ فيما يبدو اهمية قافلة ســـــلا التجارية التي كان نشاطها التجاري يمتد من سلا بالمغرب الى تونس عبر الجزائر (٢) .

---

١) انظر مذكرة وليم لانكو / في / مجلة تطوان عدد ٧ ص ١٣٨

٢) انظر عن هذه القافلة :- EMERIT (E.): OP. CIT., P.P. 41 - 42.

واذ كان غير معروف بالضبط متى ابتدأ انتظام هذه القافلة فانها غدت في الحقبة التالية للفترة موضوع الدرس واحدة من اهم القوافل التجارية التي كان يشمل نشاطها الاقتصادي اقصى بلدان المغرب الكبير . وقد كانت هذه القافلة التي تتألف من نحو مئة جمل تنطلق من سلا محملة ببضائع المغرب، وبضائع بلاد السودان ، من منسوجات صوفية ، وادوات نحاسية ، وبعض العقاقير كالزنجفر ، والنقد الذهبي ، وغير ذلك ، مارة بتلمسان ، ومعسكر ، والجزائر ، وقسنطينة الى ان تبلغ تونس عادة قبيل شهر رمضان وبعد ان تستكمل مبادلاتها التجارية فيها تأخذ في العودة الى المغرب عبر الجزائر .(1) وليس بأيدينا من الاحصاءات ما يسمح لنا بتقدير دقيق لمدى اهمية مبادلات قافلة سلا التجارية او لمدى حجم المبادلات التي كانت تجري بين الجزائر والمغرب ، بفضل القوافل المتبادلة بينهما ، ولكن من المنتظر الا يكون الحجم الاجمالي كبيرا ، وذلك لان وجهة مبادلات البلدين ، كانت على الخصوص في اتجاهي الشمال الى اوربا ، والجنوب الى بلاد السودان .

2- قافلة الحج المغربية :

وهذه القافلة سنوية كانت تتحرك من المغرب نحو البقاع المقدسة في منتصف شهر / رجب من كل عام ، تحت قيادة مسؤول مغربي يحمل لقب امير الركب . يكون غالبا من المقربين للاسرة الحاكمة في المغرب او من افرادها ، سالكة احد الطرق التي تقدم ذكرها عبر الاراضي الجزائرية في ذهابها وايابها .

وقد كانت هذه القافلة اكبر من قافلة سلا . واهميتها على صعيد المبادلات التجارية بين البلدين كبيرة . اذ ان اهمية هذه القافلة وان كان طابعها الاساسي دينيا ، وتتألف اساسا من الراغبين في اداء فريضة الحج ، فقد كان يرافقها تجار ، وكان الحجاج انفسهم يتاجرون في طريقهم فيما احضروه معهم من بضائع من المغرب في طريق ذهابهم كالصابون والجلود وغير ذلك ، او ما احضروه من المشرق في طريق عودتهم كالاقمشة الهندية ، والعطور ، والسبحات وغير ذلك . ويشترون ما يلزمهم من المواد الغذائية ولوازم السفر .(2)

فكان لذلك مرور قافلة الحجاج المغاربة مناسبة ثمينة للتبادل التجاري ، تنشط فيها حركة المبادلات التجارية بين الجزائر والمغرب ولا سيما في المراكز التي يمر بها ركب الحج المغربي اذ كان التجار يهيئون اليها بهذه المناسبة حتى من الاطراف المجاورة لمبادلة سلعهم فيها مع المغاربة .

لكننا نفتقر ايضا الى الاحصاءات التي تمكننا من تقدير دقيق لحجم المبادلات التي كانت تتم

(1) نفسه : ص 41-42
(2) انظر عن قافلة الحج المغربية : العياشي : ماء الموائد ج 2 ص 2 ، 41-42 ، 22 و :
- Rozet et Carotte: Algérie, Tunis 1980, P.P. 129 - 131.

بهذه المناسبة . وليس لنا الا القول بأن هذا الحجم ليس ثابتا ، وانه متقلب تبعا للظروف التي كانت تؤثر على المراكز التجارية ، التي تقع على خط سير القافلة المغربية كالامن ، والمجاعة ، والوباء ، والظروف التي كانت تؤثر ايضا في ركب الحج المغربي، فتجعله ضخما احيانا يقارب عدد افراده عشرة آلاف ، وتجعله احيانا اخرى يقل عن ذلك بكثير ، وهذه الظروف هي الظروف السياسية الامنية والصحية السائدة في كلا البلدين .(1)

ب - القوافل البحرية : واذا كانت القوافل البرية تعتمد اساسا في حمل البضائع على الابل بالدرجة الاولى ، وبالدرجة الثانية على بقية الحيوانات القادرة على تحمّل المشاق والاثقال، كما سلف القول ، فان وسيلة النقل في القوافل البحرية هي السفن بمختلف احجامها . وقد كانت القوافل البحرية متعددة الاغراض ، اذ كانت تقوم بنقل البضائع والتجار والحجاج والسفراء وغيرهم من المسافرين . وتؤكد المصادر والوثائق المعاصرة ، ان حركة نقل الركاب والبضائع في الاتجاهين بين الجزائر والمغرب كانت قائمة وقوية ، كما يفهم ذلك من قول المؤلف المجهول : ((وكانت عمارة اهل الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس . ومسافرو اهل الجزائر لا يركبون الى المشرق او المغرب الا من بادس ولا تنقطع منها عمارة الترك في كل اوان)).(2)

ويفهم ذلك من قول هايدو : ((ان تجار الجزائر يرسلون الى فاس عن طريق تطوان بضائعهم المختلفة ... على متن سفن ذات مجاذيف كانت تبحر في كل الفصول ويرافق بضائعهم ابناؤهم او مواليهم الاعلاج او اقاربهم لبيعها هناك واستخلاص اثمانها)).(3)

وتؤكد الوثائق حركة نقل البضائع والمسافرين التي كانت قائمة بين البلدين ، على متن السفن الجزائرية في قوافل . ومن هذه الوثائق رسالة من السفير الانجليزي في اسبانيا والتراسطون سنة 1620-1625 ، الى سيدي كالفرت ورد فيها ما يلي ((وقد علمت من بالقة ان السير روبرت مانسل " امير الاسطول الانجليزي " له علم بمراكب تركية معينة بحمولتها الفنية في وادي تطوان ، وهي الآن في الاستعداد للابحار الى الجزائر ..)) وقد خرجت

---

1) روزي كاريت : نفس المرجع السابق ص 126-136
2) المجهول : المرجع السابق ص 36 . ولكن تردد سفن الجزائر على بادس توقف بعد ان احتل الاسبان حجر بادس واقاموا فيها حامية لهم في سنة 1564 م وتحول نشاط السفن الجزائرية الى تطوان وغيرها .
3) هايدو : الطبوغرافية في / المجلة الافريقية عدد 85 ص 55
4) محمد داود : تاريخ تطوان - المجلد الاول 1959 ، ص 86 ، وهو ينقل عن الوثائق الانجليزية .

راكب المذكورةفي رسالة السفيرمن تعوان محملة بالسلع والمسافرين،فتعرض لها الاميرال
مذكور واستولى عليها ، وهذا يؤكد ايضا ما ذكرناه من انعدام الامن على الطريق البحري
سا . وقد كان من بين المسافرين اندلسيون باعوا امتعتهم ليهاجروا الى بعض اهلهم
الجزائر (١) .

وفي الوثائق الهولندية اشارات عديدة مماثلة لاعتداءات قطع الاسطول الهولندي الحربية
على السفن السلاوية المغربية المتجهة الى الجزائر او الآيبة منها ، وهي محملة بالبضائع
تجارية (٢) .

وهذا كله يؤكد ان حركة التجارة بين البلدين عن طريق البحر ، وبواسطة قوافل السفن
التابعة لهما كانت هامة ، وقد لا تقل اهميتها عن تجارة القوافل البرية إن لم تفقها ،
ولكن اسئلة عديدة لاتزال تفتقر الى تفاصيل الاجابة عنها كتنظيم قوافل السفن ، وعددها ،
ومجموع حمولتها ، وما اذا كان بعضها مختصا فقط بحمل الركاب واخرى بحمل البضائع فقط ،
ونوع هذه السفن .. الخ من التساؤلات التي تلقي اجابتها مزيدا من الاضواء والتي تساعد
على تحديد حجم المبادلات بين البلدين ، وبالتالي معرفة مدى اهمية المبادلات بينهما والذي
تأكد من كل ما تقدم ان حركة القوافل البرية والبحرية التجارية والدينية والناقلة للركاب ،
لم تنقطع بين البلدين في جميع الظروف .

ب- المواد التجارية المتبادلة :

اما المواد التجارية التي كانت تشملها المبادلات التجارية بين الجزائر والمغرب،فاعتمادا على ماتذكره المصادر والوثائق المعاصرة،فان الجزائر كانت تصدر
الى المغرب عن طريق البحر غالبا السيوف والخناجر والاقمشة الهندية والقسطنطينية والاجواخ
الانجليزية و المواد الصبانية الناتجة عن بعض الحشرات المحمولة من امريكا التي استأنستها اسبانيا
المسماة (COCHENILLES D'ESPAGNE .) وتنمو عادة على نوع من الشجر النوبي
والحرير التونسي وغيرها (٣) .

وكانت الجزائر تصدر الى المغرب عن طريق البر وبواسطة القوافل التجارية وقافلة الحج المغربية
ايضا الحرير المجلوب من تونس ، والاقمشة الصوفية المصنوعة في واحات الجزائر كالبرانس والمهاميز
وداب الركوب ، والمواد التموينية والماشية ولوازم السفر كالبرادع والحبال ، والملابس والتمر والدروع وغيرها (٤)

---

(١) نفسه ، وهو ينقل عن الوثائق الهولندية
(٢) محمد حجي : الزاوية الدلائية ص ١٧٨-١٨٨ ، ١٩٥ ، ٢٢٤ ،
(٣) هايدو : الطبوغرافية عدد ٨٥ ، ص ٥٤-٥٥ و م.ت.م اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤
(٤) كاريت : المرجع السابق ص ٩٣ و براكنز تجارة الجزائر مع مكة والسودان ص ٤
والعياشي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٢ وغيرها .

اما المغرب فكان يصدر من الطريقين البحري والبري المواد التالية إلى الجزائر: العسل والصابون ، ونوعا من التراب كان يستعمل في التنظيف كالصابون يعرف بالغاسول[1] ، والذهب والاحجار الكريمة والسكر[2] ، والجلود المدبوغة في تافيلالت والمعروفة لذلك بالفيلالية ، والبلغات المصنوعة من البلد ، والحياك الصوفية والسلاح (السيوف والبنادق) ، والحديد ، والانسجة القطنية والاحزمات والامشاط ، والشراشي ، والاقمشة الحريرية ، والخيول ، والنقود وتبر الذهب والسرفين ، والبخور ، والنيلة وغيرها[3] .

وقد كان العبيد او بالاحرى المستعبدون من الاسرى النصارى على الخصوص يشكلون مادة تجارية مربحة في كلا البلدين ، ومادة للتبادل التجاري بينهما ، خاصة حينما يكون لدى غزاة البلد من حرج ما في بيع اسراهم في بلدهم كالخوف من ان ينجم عن ذلك نزاع بين حكومة بلادهم وحكومة البلد الذي ينتمي اليه اولئك الاسرى اذا كانت هذه الحكومة ترتبط باتفاقية سلام مع الجزائر او مع المغرب ، يمين تعرض الغزاة الجزائريين او المغاربة لسفنها او شواطئها بالغزو . ولذلك فان غزاة الجزائر في مثل هذه الحالة كانوا يبيعون اسراهم في المغرب[4] ، وغزاة المغرب كانوا يبيعون اسراهم في الجزائر[5] فيتفادون بذلك مراقبة قناصل الدول وشكاياتهم عن اعمالهم البحرية ضد بلدانهم .

وكذلك كان غزاة البلدين يفعلون بالنسبة لبقية الغنائم التي كانوا يظفرون بها في السفن والشواطئ الاوربية . فكان غزاة المغرب التطوانيون والسلاويون ، يبيعون بعضها في مدينة الجزائر كما ان غزاة الجزائر كانوا يبيعون بعض غنائمهم في المدن الساحلية المغربية[6] ، كتطوان وسلا والعرائش وباديس قبل احتلال الاسبان لحجرها في سنة ١٥٦٤ م .

واذا تأملنا في المواد المتبادلة بين البلدين وجدنا ان قسما منها ، ولا سيما من صادرات الجزائر ، هي المواد التي وردت اليهما من بلدان اخرى كما تشير الى ذلك الاوصاف الملحقة بتلك البضائع كالاقمشة الهندية او القسطنطينية ، والاجواخ الانجليزية والحرير التونسي ، والتبر السوداني . . الخ او من غنائم الغزو البحري ، مما يدل على ان الانتاج المحلي ولاسيما انتاج الجزائر كان ضعيفا لايرقى للوقوف في وجه البضائع الخارجية التي اخذت تغزو البلدين .

---

١) هايدو : المرجع السابق ص ٥٤

٢) بريموداي : التجارة والبحرية الجزائرية ص ١٩٠

٣) نفسه : ص ٩٩ و كاريت : المرجع السابق ص ٢٣ و : براكس : المرجع السابق ص ٤

٤) م . م . ت . م : اسبانيا ج ١ ص ٨٨-٨٩

٥) نفسه : فرانسا ج ١ ص ١٣٧-١٣٨

٦) نفسه : اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤

واستمر غزوها في الفترة اللاحقة على الخصوص حين بلغت الثورة الصناعية في اوربا اشدها .

وهذا يؤدي الى القول بأن الجزائر كانت احدى اسواق المغرب في بعض السلع التي لاتنتجها كالسكر والنيلة ، بينما لم تكن المغرب سوقا لانتاج الجزائر .

اما عن حجم المبادلات التجارية بين البلدين ، فان المصادر والوثائق المتعلقة بهذه الفتـرة كما بينا مرارا لا تعطي فكرة واضحة تسمح بتحديد أي اللفتين هي الراجحة في ميزان المبادلات ، ولذلك فاننا لا نملك الا ان نظن بأن حجم المبادلات لم يكن كبيرا قياسا مع حجم المبـادلات التجارية للبلدين مع الدول الاوربية . وما يدفع الى هذا الظن هو العوامل السلبية الكثيـرة التي كانت لاتساعد ان هي لم تمنع نشاط المبادلات وتوسعها ، وسيأتي ذكر هذه العوامـل بعد قليل . الا انه بناء على صادرات كلا البلدين ، يمكن ترجيح كفة الميزان التجاري المغربـي على كفة الميزان التجاري الجزائري باعتبار ان بين صادرات المغرب الى الجزائر كثير من المـواد المنتجة في المغرب ، والمصنعة فيه .

ب- وسائل التبـادل :

اما وسائل الدفع التي كانت متبعة في المبادلات التجارية فهي الدفـع نقدا ، والمقايضة . والذي يبدو من خلال الوزان ومارمول ان المقايضة كانت رائجة في النصـف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وذلك لنقص العملة وندرتها في كثيـر من المناطق في كلا البلدين (1) . ولكن اسلوب المقايضة تراجع فيما بعد وامام الدفع نقدا في النصف الثاني من القرن المذكور والفترة التي تهمنا من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي حيث شهدت هذه الحقبة تدفق الفضة والذهب على اوربا من امريكا ، وتدفق الذهـب على المغرب من بلاد السودان ، وازدهار الغزو البحري في الجزائر ، وكثرة غنائمه ، مع ازدهـار التجارة مع اوربا ، مما اوجد العملة النقدية ، وكثرة تداولها بين الناس واستعمالها في البيـع والشراء .

وقد كانت العملة المتداولة في التجارة بين الجزائر والمغرب هي العملات المسكوكة فـي البلدين واهمها : الزياني التلمساني ، وهو من الذهب الخفيف ، ونصفه ، وكان لهـذه

(1) الوزان : المرجع السابق ج 1 ص ٧٦، ٨٩، ١١٢ وغيرها .

العملة رواج كبير في البلدين وخارجهما في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

وقد كانت هذه العملة تسك في تلمسان فقط في عهد سلاطين بني زيان . وهناك ايضا عملة السلطاني ، وهي ايضا من ذهب خفيف ، وكان يضرب فقط في مدينة الجزائر . وكانت قيمته في اواخر القرن العاشر الهجري تساوي / ١٤٠ / آسبر ، واسبر او (الآقجة) ، وهي العملة الفضية العثمانية ، كانت مئة وخمسة وسبعون منها تساوي مثقالا فاسيا واحدا[1] . ولكن انخفاض قيمة الاقجة العثمانية في هذه المرحلة ، بسبب تدفق الفضة الامريكية الى اوربا ووصولها الى الدولة العثمانية ، وبسبب سياسة مراد الثالث العسكرية وما نجم عن ذلك من أزمة مالية دفع جعفر باشا (١٥٨٠-١٥٨٢ م) الى رفع قيمة المثقال الفاسي في الجزائر ، بحيث اصبح يساوي ٢٢٥ آسبر[2] . اما الدينار الذهبي الذي كان يسك في المغرب في عهد المنصور ، والذي كان يتراوح وزنه بين ٢٫٥-٤ غ ، فلا ندري ما كان يعادله من العملة الجزائرية على وجه الدقة .

وقد كانت العملة النقدية العثمانية الذهبية المسماة بالسلطاني او السكة (SEQUIN) او الشريفي ، وواحدة منها تساوي ٢٢٥ آسبر (آقجة) أو أكثر من العملات التي كان يجرى التبادل التجاري بها في الجزائر ، كما كانت العملة الاسبانية ، الإيكو والريال ، عملة دارجة في مدينة الجزائر . وقد استعمل العياشي الريال[3] في مبادلاته في الجزائر ، واكد هايدو ان الريال الرباعي وريال الثمانية ، كانت عملة مرغوبة جدا في الجزائر ، وذلك لانها كانت عملة قابلة التصريف في مصر ، وحتى في الهند والصين[4] . وقد يكون للاندلسيين المهاجرين الى الجزائر دور في ترويجه ، والتعريف به ، ولا سيما انهم احضروا منه كمية كبيرة لدى هجرتهم[5] .

ويبدو من استخدام النقد المغربي ، والجزائري ، والنقد الاوربي الفضي ، والذهبي في المعاملات التجارية في هذه المرحلة ، انه لم يكن هناك اية قيود على تبادل النقد بين البلدين ، و بينهما وبين اوربا . وهذا ما كان قائما ايضا في الانحاء الاخرى للامبراطورية العثمانية ، ومن المعروف ان الاوربيين اغرقوا الاسواق العثمانية خلال هذه المرحلة ، ولا سيما في القرن الحادي عشر بالنقد المزيف ، مما دفع الدولة العثمانية الى مراقبة النقد والتأكد من صحته لكن المصادر المتوافرة لم تشر الى هذا الامر في الجزائر والمغرب . وان كان من المتوقع ان يكون الامر كذلك فيهما .

(١ و٢) انظر عن العملة المتداولة هايدو : طبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٦ ص٩٥-٩٦

(٣) العياشي : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤١٧

(٤) هايدو : المرجع السابق ص٩٥

(٥) سعيدوني : الجالية الاندلسية في الجزائر ص ١٢

6 ـ مراكز التبادل التجاري :

واذا نظرنا الآن في المراكز التي كان يجري فيها التبادل التجاري بين البلدين خلال الفترة موضوع الدرس وجدنا انها عديدة تؤلف المحطات الرئيسية لقوافل التجارة على الطريقين البري والبحري . واهمها على الطريق البحري : سلا ، تطوان وبادس . ومدينة الجزائر .

اما على الطريق البري الشمالي فأهمها فاس ، تازة ، وتلمسان ، وقسنطينة ، وأهمها على الطريق البري الجنوبي فاهمها سجلماسة ، وتافيلالت وفيجيج و الاغواط ، بسكرة ، وتوقرت ، ووارجلة ، وتوات وغيرها .

١ ـ مدينة الجزائر : لعل من اهم مراكز المبادلات التجارية بين الجزائر والمغرب ان لم يكن اهمها على الاطلاق مدينة الجزائر هذه المدينة التي اتخذها الاتراك العثمانيون قاعدة لحكمهم فتفوقت على مدن تلمسان وبجاية وقسنطينة ، وتوسعت بسرعة وازداد عدد سكانها حتى اصبحت المدينة الكبرى في شمال افريقيا ((وافضل من جميع بلاد افريقيا واعمر واكثر تجارا وفضلا وانفذ اسواقا واوجد سلعة ومتاعا حتى انهم يسمونها اصطنبول الصغرى (١))) .

كان التجار في مدينة الجزائر يشكلون فيها طبقة كبيرة حيث ان كل سكانها كبارا وصغارا بما في ذلك حاكمها الباشا يشتغلون في التجارة (٢) وكان لمدينة الجزائر تجارة استيراد وتصدير مع دول البحر المتوسط من المغرب الى اسطنبول ، مثل اسبانيا ، وفرنسا ، والمدن الايطالية كجنوة ، ونابل ، وصقلية ، والبندقية ، والايالة التونسية ، والقسطنطينية كما كانت لها تجارة مع انجلترا . ومنها كانت تحصل على مواد معدنية كالحديد ، والنحاس والاقمشة المختلفة وكان يأتيها من فرنسا الفولاذ والخردوات والاقمشة القطنية ومن اسبانيا السوائل العطرية والمواد الصباغية ودودة القرمز ومن المدن الايطالية الاخشاب والصابون والحرير ، ومن تونس الاقمشة الناعمة ، ومن تركيا الاقمشة والسيوف ، وكانت صادرات الجزائر الى البلاد الاوربية تتمثل في الاصواف ، الجلود ، والشمع والتمر وغنائم الغزو البحري وغيرها (٣) وقد كان يأتيها عدد لا يحصى من التجار المسلمين وغير المسلمين عن طريقي البر والبحر (٤) بالسلع والبضائع المختلفة لتأكدهم من الربح من التجارة فيها (٥) .

١) التمجروتي : النفحة المسكية ص ١٣٩
٢) هايدو : الطبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٨ ص ٢١
٣) نفسه : عدد ٨٥ ص ٥٣ ـ ٥٥
٤) نفسه : عدد ٨٣ ص ٤٢١ و مارمول : المرجع السابق ص ٣٣٢
٥) بروديل : المتوسط . . . ج ٢ ص ١١٢

وحسب الوثائق والمصادر المعاصرة،فان مدينة الجزائر كان لها مبادلات تجارية مع كثير من المدن المغربية،ولا سيما المدن الساحلية منها ، الواقعة في شمال المغرب كبادس ، وتارغة ، وتطوان ، واصيلا ، والعرائش ، وسلا .

آ ـ مبادلات الجزائر مع بادس : كانت بادس غارة على الساحل المتوسط بشمال المغرب بعد تحرير حجرها "بنون بادس" من الاسبان في سنة ١٥٢٢ متصدت السفن الجزائرية ،كما ذكرنا حيث (كانت عمارة اهل الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس ... ولا تقطع منها عمارة الترك في كل اوان (١) وذلك لاغراض مختلفة كالتزود بما يلزمهم من ماء وغذاء او بيع ما احضروه من سلع ،او ما غنموه منها واسروه من النصارى . او نقل المسافرين منها نحو الشرق . او من الشرق اليها (٢).

وتذكر الوثائق المعاصرة انه في سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م باع الغزاة الاتراك الى ابي حسون امير بادس الاسرى الاسبان الذين وقعوا في قبضتهم لدى هجومهم على جبل طارق ، وذلك بمبلغ ٥٠٠٠ دوكاتي (٣).

وانه في نهاية السنة التالية ٧ رمضان ٩٤٨هـ/ ٢٥/١٢/١٥٤١م ذهب مبعوث حسن آغا الى بادس ومعه ٢٠٠٠٠/ دوبل ؟ (دبلونه) لابتياع السفن واشياء اخرى كانت مدينة الجزائر في حاجة اليها لمواجهة تهديدات شارلكان بالهجوم عليها مرة ثانية (٤).

وقد فتحت اتصالات اتراك الجزائر ببادس اعينهم على اهمية حجر بادس ، فلم يلبثوا ان احتلوه وذلك في سنة (٩٦١هـ/ ١٥٥٤م) وظلوا فيه الى (٩٧١هـ/١٥٦٤م) تاريخ انتزاع الاسبان له منهم (٥).

ب ـ المبادلات مع تارغة : تارغة بلدة صغيرة على الساحل المتوسطي للمغرب تقع الى الشرق من تطوان بنحو ٣٠ كم . وهي محطة من المحطات التي كانت تتوقف عندها السفن الجزائرية الناقلة للمسافرين (٦) ، او سفن الغزاة من اجل التزود بما يلزمها ... وتذكر الوثائق ان قائد تارغة ،وعمر ابن راشد ، امير امارة شفشاون ،ارسل في سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م ، الاسرى النصارى الذين كانوا في تارغة الى الجزائر .. مما يدل على العلاقات السياسية والاقتصادية الطيبة التي كانت بينه وبين اتراك الجزائر . وبين تارغة ومدينة الجزائر (٧).

---

١) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص ٣٦
٢) نفسه :
٣) م.م.ت.م : اسبانيا ج ١ ص ٨٨-٨٩
٤) بريمودای : الوثائق المغفلة ص ٢٥٢ - ٢٥٣ وبريروكجر : المفاوضات بين حسن آغا والكونت دا الكوديت في المرجع السابق ص ١٣٨
٥) م.م.ت.م : اسبانيا ج ٣ ص ٥٩-٦٠ (تحليل شانتال) و مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٥-٢٦٦
٦) التمجروتي : النفحة ص ١٢
٧) م.م.ت.م : فرانسا ج ١ ص ١٢٧ (ارسل ثلاث دفعات من الاسرى كل دفعة تتألف من ١٨ او ٢٠ اسيرا) .

د لات الجزائر مع تطوان :

هذه المدينة المغربية المتوسطية الهامة،الوحيدة التي لم يستطع
برتغاليون والاسبان احتلالها،بعد تجديد الاندلسيين لبنائها،في اواخر القرن التاسع
لهجري الخامس عشر الميلادي،رغم قربها منهم . فقدت المنفذ البحري المغربي الوحيد
ى المتوسط، بعد ان احتل البرتغاليون والاسبان مدن سبتة،وطنجة ،والقصر الصغير ، ومليلة،
حجر بادس ،وغساسة .(١)

ومنذ الثلاثينات من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي على الاكثر،توطدت
لعلاقات الاقتصادية بين مدينة الجزائر وتطوان . اذ تذكر الوثائق ان خير الدين بربروس توجه
سنة (١٥٣٦م) الى تطوان لشراء الحبوب منها ،ذلك ان مدينة الجزائر كانت آنئذ تعاني
ى القحط وقلة الزرع(٢) ،مما يدل على ان المغرب والجزائر كانتا تتبادلان القمح وهو الغذاء
رئيسي للسكان،في حالة القحط في احد البلدين دون الآخر .
ى تطوان صارت سفن الجزائر تذهب في كل وقت،وهي حاملة لتجار الجزائر المتجهين الى
غـرب،وخاصة الى فاس ،وبضائعهم المتنوعة(٣) . وتجار المغرب وحجاجه ومسافريه
عائدين الى بلادهم ،ومنها كانت تعود،وعلى متنها المسافرون المغاربة،حجاجا كانوا ،ام سفراء،
تجارا،ام غير ذلك ، وكذا التجار الجزائريون، والبضائع المغربية المستوردة من عسل وسكر
صابون وجواهر وغير ذلك(٤) .

وفي تطوان كان غزاة البحر الجزائريون يجدون استقبالا لائقا،ويتزودون بما يلزمهم ،
ينطلقون مع غزاة تطوان في هجومات مشتركة على السفن والشواطىء الاسبانية،والبرتغالية
ريضا(٥) ،وفي تطوان ايضا،كان الغزاة الجزائريون يبيعون احيانا مغانمهم المسودة
ى الغزو سورا(٦) .

ولما كانت تطوان تحقق بدون شك ارباحا من تجارتها مع الجزائر وغزاتها،فان السيدة الحرة
حاكمة تطوان(٧) ،لم تتقيد بأمر سلطان فاس بحظر دخول السفن الجزائرية
ى تطوان(٨) .

---

(١) الوزان : المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٨ و محمد داود تاريخ تطوان المجلد الاول ص ١٢٢٨
(٢) : م.م.ت.م ; اسبانيا ج ١ ص ١ - ٣
(٣) هايدو ; طبوغرافيا في المرجع السابق عدد ٨٥ ص ٥٥
(٤) نفسه : ص ٥٤ و برونودان :التجارة ص ١٩٠ والتمجروتي : النفحة .. ص ١١
(٥) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٣ و محمد داود المرجع السابق ص ١٨
(٦) هايدو ; المرجع السابق ص ٤٦
(٧) هي عائشة بنت علي بن موسى بن راشد امير شفشاون كانت زوجة للمنظري الثاني ثم الثالث
للسلطان احمد الوطاسي في سنة (١٥٤١) . آل حكم تطوان اليها بعد وفاة المنظري الثالث
سنة ٩٤٢ هـ ولكن آل النظري مالبثوا ان اطاحوا بها لما تزوجت بالسلطان الوطاسي وذلك
١٥٤٢ انظر محمد داود ال... السابق ص ٨٦ ، ١٢٠ و م.م.ت.م اسبانيا ج ١ ص ١٠٦-١١٦
(٨) م.م.ت.م ; فرانسا ج ١ ص ... ١ و ١٣٧ . ومارمول : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٤

ولضرب التعاون الذي كان قائما بين اهالي تطوان والجزائريين في مختلف المجالات، ذلك
التعاون الذي عاد باضرار كبيرة على الاسبان والبرتغاليين ، ولاحكام نوع من الحصار الاقتصادي
على الجزائر وتطوان ، فان فيليب الثاني امر بسد مدخل نهر تطوان ، لمنع تردد السفن
الجزائرية على تطوان او خروجها منها ، ولكن محاولة الاسبان لتحقيق ذلك في سنة ١٥٦٤ (١) كانت
دون جدوى ، اذ ان التيار جرف الصخور وسائر السفن التي اغرقوها في مدخل النهر ،
واستمرت السفن الجزائرية تروح وتغدو الى تطوان لمختلف الاغراض الاقتصادية .

- مبادلات الجزائر مع بقية مدن شمال المغرب : لم يقتصر تردد غزاة الجزائر على بادس وتطوان
في شمال المغرب ، بل كان غزاة الجزائر يذهبون بسفنهم المحملة بالغنائم والاسرى الى شواطئ
اصيلا وطنجة والقصر الصغير وسبته ، وهناك كانوا يبيعون للمغاربة البضائع والاسرى (٢) ، كما كان
غزاة الجزائر يتوجهون الى العرائش للغرض نفسه ، وللتزود بما يلزمهم (٣) ، ويبدو ان تردد غزاة
الجزائر على شواطئ شمال المغرب لبيع الاسرى والغنائم كان كثيرا ، الامر الذي يفسر وضع
البرتغاليين لشرط في اتفاقية السلام التي ابرموها مع السلطان احمد الوطاسي
في ٤ مارس سنة ١٥٣٨ ، لمدة احد عشر عاما ، ينص على حظر شراء رعايا السلطان في مناطق
اصيلا وطنجة والقصر الصغير وسبته ، الاسرى النصارى من غزاة الجزائر ، ومصادرة البضائع من
الغزاة واعانات ... اليهم (٤) ، ولكن هذه الاتفاقية لم تحترم من الطرف الوطاسي حيث استمر غزاة
الجزائر الاتراك يترددون على شواطئ المغرب الشمالية لبيع غنائمهم من البضائع والاسرى .

- مبادلاتها مع سلا : هذه المدينة كتطوان ازدهرت ونمت بعد ان استقر فيها الاندلسيون
لا سيما بعد النفي الاكبر . ونشأ بينها وبين مدينة الجزائر علاقات اقتصادية قوية ، حيث كان
غزاة الجزائر يترددون على سلا لبيع مغانمهم من الغزو البحري ، كما يأتي غزاة سلا لبيع مغانمهم
في الجزائر حين يخشى هؤلاء واولئك من المراقبة في سلا وفي الجزائر (٥) .
كان غزاة سلا والجزائر يخرجون احيانا في عمليات مشتركة للغزو البحري ، قد يصلون الى
شواطئ الانكليزية والارلندية (٦) .

---

(١) مارمول : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٤ و أ . بوليه . المرجع السابق ص ٨٥
(٢) م . م . ت . م ; اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤ .
(٣) نفسه ; فرانسا ج ١ ص ٢٨٣-٢٨٥ واسبانيا ج ١ ص ١-٣ و هايدو : الطبوغرافيا
... ص ٨٥ ص ٤٦
(٤) م . م . ت . م : اسبانيا ج ١ ص ٨٣-٨٤
(٥) أ . كور : المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤
(٦) ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي / في مجلة تطوان / عدد ١٠ ص ٢٣، ٢٦
رسالة طوماس سيلي الى المجلس الاستشاري في افريل ١٦٢٥

وفي العهد الذي خضعت فيه سلا الى الدلائيين ((١٠٥١-١٠٧٤هـ / ١٦٤١/١٦٦٤م)
وتولى الامارة فيها الامير الدلائي عبد الله بن محمد الحاج ((١٠٦١-١٠٧٤/١٦٥١-١٦٦٤م))
اقام تجارة نشطة مع مدينة الجزائر عن طريق البحر ، فكانت السفن التجارية المتوجهة من سلا الى الجزائر والعائدة من هذه الاخيرة اليها والمحملة بمختلف السلع لا تنقطع، مما كان يدر على الدلائيين ارباحا طائلة (١). وقد ادرك الامير الدلائي المذكور منذ بداية ولايته اهمية التجارة مع الجزائر وثرواتها ، فرفض القيام بمعاهدة مع الهولنديين تنص على أن لا يسمح لغزاة (قراصنة) الجزائر وتونس وطرابلس ان يبيعوا ما يستولون عليه من الاسرى الهولنديين وبضائعهم وعلى الا يسمح للاتراك بدخول رسائل اجتياز سلا (٢).

وحسب امريت (E M E R I T) فان سلا كانت لها تجارة واسعة عن طريق البر ليس فقط مع الجزائر ولكن ايضا مع تونس بفضل قافلتها التجارية (٣) البرية التي اشرنا اليها، والتي كانت تتحرك كل سنة مارة بتلمسان ومعسكر ، ومدينة الجزائر التي غدا للسلاويين فيها شارع يسمى باسمهم (٤) ، وقسنطينة وذلك في طريق ذهابها الى تونس.

مبادلات مدينة الجزائر مع فاس :

كانت فاس حاضرة المغرب الاولى في عهد المرينيين والوطاسيين احد مراكز التجارة والصناعة في المغرب .

و كانت المبادلات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينة فاس تتم عن طريقي البر والبحر . والمبادلات عن هذا الطريق الاخير كانت تتم عبر ميناء بادس ولا سيما تطوان ، فعبر هذه المدينة الاخيرة كان التجار الجزائريون يصدرون الى فاس ما تقدم ذكره من البضاعة كالسيوف والخناجر والاقمشة الهندية والتركية (٥). وبعضهم كانوا يرافقون بضاعتهم الى هناك . ومن بين هؤلاء التجار اليهود في الجزائر (٦). وعن طريق البحر والبر كانت الجزائر تحصل على ما تقدم ذكره من بضائع المغرب كالعسل والصابون وغير ذلك .

وقد يرافق قوافل التجارة بين المدينتين تجار من الدول الاوربية . وكمثال على ذلك نذكر انه في سنة ١٦٠٥ توجه وليم لانكو والجوهري الفرنسي شاتلين الى فاس بالمغرب رفقة ثلاثين من تجار الجزائر (٨).

---

(١) محمد حجي : الزاوية الدلائية ص ١٧٨
(٢) نفسه : ص ١٨٧-١٨٩ و م . م . ت . م : هولندا ج ٥ ص ٢٩٦
(٣) م . ايمريت : المرجع السابق ص ٤١-٤٢ .
(٤) نور الدين عبد القادر : صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص ١٦٥
(٥) هايدو : طبوغرافيا عدد ٨٥ ص ٥٥ (٧) نفسه عدد ٨٥ ص ٥٤
(٦) نفسه : عدد ٨٦ ص ٦١
(٨) انظر مذكرة وليم لانكو في مجلة تطوان عدد ٩ ص ١٣٨

لا ت مدينة الجزائر مع بقية المدن المغربية :
كانت مدينة الجزائر على اتصال وعلاقة تجارية
ـظم مدن المغرب وبعاته المختلفة وذلك اما عن طريق تجارها اوغزاتها الذين يقصدون تلوان
ن . وغيرهما من المدن في شمال المغرب ، ولا سيما الساحلية منها كما رأينا ، اوعن طريق
ـارة والحجاج المغاربة انفسهم الذين يسلكون الطريق البحري ويسافرون على متن السفن
ـزائرية او الطريق البري التلي ، فبواسطة هذه الطرق كانت مدينة الجزائر على
ـال بتادلاء و تافيلالت ، والسوس ، وغيرها من المدن والمناطق ، وتحصل منها على بعض
ـاتها كالجلد الفيلالي من تافيلالت (١) ، والصابون الذي يشتهر بصناعته بنو واجود ، وبنو
ـيلد م بجبال الريف بشمال المغرب . (٢)
ـولرواج بعض صادرات المدن المغربية مدينة الجزائر ، وصلة بعض هذه المدن واهاليها
ـية بالجزائر ، اشتهرت في هذه الاخيرة اسماء ، التادلي والفاسي والفيلالي والسلاوي وغيرها . (٣)

ـسان : كانت تلمسان قاعدة ملك بني زيان، مركزا تجاريا رئيسيا في الغرب الجزائري للمبادلات
ـارية بين الجزائر والمغرب ، ومحطة من محطات التجارة الدولية بين اوربا وبلاد السودان ،
ـس مدينة فاس المغربية ، وتتفوق عليها احيانا .
وقبل ان تفقد تلمسان مركزها كقاعدة للدولة في الجزائر لصالح مدينة الجزائر، كان لها
لا ت وعلاقات تجارية مع كثير من المراكز التجارية المغربية كتازه ، وفاس وسجلماسة، ودرعة وفجيج،
ـرا ، تصدر اليها وتستورد منها . فالى تازه ، كان تجار تلمسان يتوجهون ببضائعهم
ـختلفة . قال مارمول : ((ان لتجار تلمسان وفاس وغيرهم تجارة قوية فيها . وان مدينة
(٤) كانت تمون المناطق المجاورة والتي تبعد عنها بنحو / ٣٠ / مرحلة بما تحتاج اليه من القمح
الى واهمية تازه الاقتصادية لا تخفى! اذ هي تقع على الطريق الرئيسي بين تلمسان وفاس ووسط
ـس خصب صالح لانتاج القمح وتربية الماشية (٥) . ومن المنتظر ان تكون الحبوب والماشية
ـوبياتها كالصوف والالبان من صادرات تازه الى ما جاورها من البلاد الجزائرية، كتلمسان وغيرها .
وقد كانت تلمسان تستورد المنسوجات الصوفية ذات الجودة العالية من فجيج (٦) ، كما
ـت تحصل من سجلماسة ودرعه على ما تحتاج اليه من الجلود، والنخلة التي كانت تستعملها

---

(١) نور الدين عبد القادر : المرجع السابق ص ١٢

(٢) الوزان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٨

(٣) نور الدين عبد القادر : المرجع السابق ص ١٤

(٤ و٥) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٠

(٦) نفسه : ج ٣ ص ٢٨

الصناعة وغيرها[1]، في مقابل صادراتها الى هذه المراكز من المصنوعات والمنسوجات المختلفة . كانت تلمسان مركزا صناعيا متقدما، بمقارنتها مع غيرها . وقد كان التجار التلمسانيون يترددون على فاس للبيع والشراء، وكذلك كان تجار فاس يفعلون .

وبحكم موقع تلمسان الهام الذي جعلها بوابة تنفتح على شرق المغرب وغرب الجزائر، فقد كانت القوافل البرية للتجار، والحجاج الذاهبة من المغرب نحو الشرق[2]، والآيبة اليه تمر بها وتتزود فيها بما يلزمها، وتبيع هناك بضائعها . ولذلك فانها كانت مركزا هاما للمبادلات التجارية على المحور الافقي بين الجزائر والمغرب، بالاضافة الى انها مركز للمبادلات التجارية على المحور العمودي بين اوربا وبلاد السودان[3] .

ولكن تلمسان اخذت في التقهقر منذ النصف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وذلك اولا : لاستيلاء الاسبان على منافذها البحرية، وهران والمرسى الكبير وتخريبهم لهما، وثانيا : لاضطراب الامور الداخلية فيها، نتيجة اطماع الاسبان والسعديين فيها، وتنافس الامراء الزيانيين قبل ان يخلو امرها للاتراك في اواسط القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . وثالثا : لتحويل السعديين لمحور التجارة مع بلاد السودان الى مدنهم الجنوبية، مراكش وتازه وتارودانت، ومنها الى سواحل المغرب الاطلسية فأوربا .

المراكز الاخرى للتبادل التجاري بين الجزائر والمغرب : كانت واحات بسكرة، وتوقرت، والاغواط، وورجلة، وتوات، وتيجورارين، من بين اهم مراكز المبادلات التجارية بين البلدين[3]، وذلك بمناسبة مرور قوافل التجار والحجاج المغاربة بها، اذ تشكل هذه الواحات محطات لها، فيها يستريحون، وتنعقد الاسواق بهذه المناسبة، فيحصل البيع والشراء بين الجانبين المغربي والجزائري .

وقد كان المغاربة يحضرون معهم للبيع الجلود المغربية المحضرة في تافيلالت، والاحذية البلدية (البلاغي او البلغات)، والسبات، والصابون، والدفل، والاقمشة الحريرية، والخيوط وغير ذلك . ويشترون ما يلزمهم في هذه المراكز من لوازم السفر من طعام ولباس، ومتاع الركوب[5].

---

1) الوزان : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٢٤

٢) المجهول : المرجع السابق ص ٣٦

٣) الوزان : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٣٤

٤) نفســه : جـ ٢ ص ٤٣٦ ومارمول : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢-٣٤

٥) كاريت : التجارة . . . ص ٢٣

وكانت للمراكز المذكورة صلات تجارية مع واحات المغرب الجنوبية كتافيلالت ، وفجيج ، والمدن الداخلية كفاس ، ومكناسة . والساحلية كتطوان (١) ، وقد ادرك السعديون بعد فترة قصيرة من بداية حكمهم في الجنوب المغربي ، اهمية واحات توات وتيجورارين في تنشيط تجارة المغرب ، او التحكم في محاور التجارة بينها وبين شمال الصحراء وجنوبها ، وبالتالي تحويلها نحو المراكز التجارية في الجنوب المغربي ، كتارودانت ومراكش وغيرها ، فمدوا نفوذهم اليها منذ ٩٣٢هـ/١٥٢٦م ثم استولوا عليها في اواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (٢) . فانتعشت بذلك التجارة في مراكز الجنوب المغربي، في حين تضررت تلمسان التي كانت تعتمد اساسا على التجارة مع هذه الواحات ، وبلاد السودان ، وهي التي كانت مصدر ثروتها ورخائها ، كما تضررت بالعوامل السابقة الذكر .

ولم تخف ايضا على حكام الجزائر الاتراك اهمية مراكز التجارة الواقعة في اطراف الصحراء واعماقها ولذلك فقد عملوا على مد نفوذهم نحو الجنوب الى بسكره وتوغرت وورجله ، التي تمر منها القوافل التجارية الذاهبة الى بلاد السودان والآيبة منه ، بحيث يمكن النظر الى توجه كل من حكام الجزائر الاتراك العثمانيين ، وحكام المغرب السعديين على انه تنافس اقتصادي بينهم من اجل التحكم في التجارة مع بلاد السودان ، وفي طرقها . و قد يكون احتلال المنصور السعدي للسودان الى جانب ما استفاده منه ، نوعا من الحرب الاقتصادية ضد الجزائر .

وكما فقدت تلمسان الكثير من اهميتها وحيويتها للاسباب المذكورة ولغيرها من الاسباب ، فقد فقدت مراكز اخرى خضعت للاتراك ، بعض او كل اهميتها ومنها بسكره التي اخذت في التقهقر في بداية النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، كما يستخلص ذلك مما قاله العياشي عنها ودونه في رحلته (٣) .

واما قسنطينة التي كانت مركزا تجاريا هاما في الشرق الجزائري ، فقد كانت مبادلاتها مع تونس اكثر فيما يبدو ، من مبادلاتها مع المغرب ، اذ كانت قافلتها التجارية تتجه الى تونس والى واحات الجنوب (٤) ، ومن خلال هذه الاخيرة كانت تتبادل البضائع مع المغرب .

كما كان لقسنطينة ايضا مبادلاتها التجارية مع المغرب من خلال قافلة سلا الآنفة الذكر التي كانت مدينة قسنطينة احدى محطاتها الرئيسية .

---

(١) نفسه ص ٢٣

(٢) مارتيني وآخرين تاريخ المغرب ص ٢٠٨ ، ٢١٥

(٣) العياشي : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤١٢

(٤) الوزان : المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٦٦

تلك كانت اهم المراكز التجارية ومراكز التبادل التجاري في الجزائر مع المغرب ، اما اهم مراكز التبادل التجاري في المغرب ، فبالاضافة الى التي وردت الاشارة اليها وهي بادس ، وتطوان والعرائش وسلا ، وفاس وتازه وفجيج ، وتافيلالت ودرعه والسوس ، نشير الى مراكش عاصمة الدولة السعدية ، ونلاحظ ان مبادلاتها التجارية مع المراكز التجارية في الجزائر كانت تتم على الخصوص عبر مراكز التجارة المغربية في شرقي جنوب المغرب وشماله . ولا يبدو ان مبادلاتها كانت في مثل اهمية مبادلات فاس.

ب ـ طبيعة العلاقات والعوامل المؤثرة فيهما :

ومن كل ما تقدم يستخلص ان العلاقات الاقتصادية بين الجزائر والمغرب في الفترة موضوع الدرس ، استمرت قائمة ، كما كانت عليه في المراحل السابقة ، ولم تأخذ صبغة سياسية اي لم يسع الحكم في البلدين الى اخضاعها لاتفاقيات معينة ، في وقت اخذت الرسوم الجمركية بين البلدان تكتسب اهمية اكبر فأكبر . ولعل اعتماد الحكم في البلدين على الاسس الاسلامية السنية المالكية الواحدة في مختلف اصول المبايعات والتبادل والمكوس الشرعية ، لم يشعر الحكم في البلدين بضرورة اللجوء الى مثل تلك العلاقات .

ومثلما لم تأخذ تلك العلاقات صبغة اتفاقات ما بين البلدين ، فانها لم تكتس طابع حرب اقتصادية على الرغم من التنافس بينهما على التجارة مع السودان بصفة خاصة ، وان كان من الممكن النظر كما اشير سابقا الى احتلال المنصور للسودان على انه نوع من حرب اقتصادية خفية ضد العثمانيين في الجزائر ، واغلاقه لطريق الذهب البري في وجههم .

كما ان هذه العلاقات على الرغم من تواصلها ، لم تزدهر بالقدر المنتظر ، وذلك لان عوامل عديدة كانت تؤثر فيها تأثيرا سلبيا ، ولا تساعدها على النمو . ومن هذه العوامل :

1 ـ الاوضاع السياسية في البلدين ، وعلاقاتهما السياسية ببعضهما التي كانت تتميز على الصعيد الداخلي لكلا البلدين بالاضطراب في فترات كثيرة ، الامر الذي لم يكن ليساعد على ازدهار التجارة ، وسائر المبادلات الاقتصادية بين البلدين ، اضف الى ذلك صراعهما العسكري والاقتصادي مع الاسبان والبرتغاليين .

واذا ما اريد النظر الى تلك العلاقات الاقتصادية ضمن اطر المراحل الاربع في العلاقات السياسية يمكن القول :

ان العلاقات الاقتصادية خلال المرحلة الاولى ٩٢٣ – ٩٥٦هـ/١٥١٧–١٥٤٩م التي كانت فيها اوضاع البلدين مضطربة ، والقوى السياسية المتصارعة عديدة فيهما (1) استمرت قائمة ، ولكنها كانت تعاني من تلك الاوضاع غير الملائمة لازدهار العلاقات الاقتصادية بين البلدين ، وصراع

---

(1) المجهول : تاريخ الدولة السعدية (وفيه اشارة الى استمرار توجه التجار المغاربة في عهد عبد الله الغالب بالله الى الجزائر) انظر ص 36

تلك القوى السياسية التي كانت قائمة فيهما ،فيما بينهما . الا ان هذه المرحلة شهدت مع ذلك قيام علاقات اقتصادية بين الحكام العثمانيين ،وحكام المغرب الوطاسيين ،وامراء الامارات التابعين لهم في شمال المغرب .

ولكن هذه العلاقات الاقتصادية لم تخضع في هذه المرحلة لاتفاقات مكتوبة ،تقننها وتحددها . ونتيجة للاوضاع السائدة في البلدين في هذه المرحلة فان المبادلات الاقتصادية بينهما ،كانت قائمة على الخصوص بين المناطق المتجاورة في كلا البلدين ،وفي المراكز التي تمر منها قوافل التجارة مع بلاد السودان والتي تمر منها ركائب الحج المغربية في الجزائر ،وبين الموانئ التي كانت تتردد عليها سفن البلدين .

اما العلاقات الاقتصادية في المرحلة الثانية ٩٥٦-٩٨٢هـ /١٥٤٩-١٥٧٤م ، التي اتسمت من الناحية السياسية كما رأينا بالتوتر والعنف احيانا وبسعي حكام البلدين الى السيطرة والتحكم في محاور التجارة عن طريق السيطرة على مراكز التجارة المتحكمة في تلك المحاور ،فلم يكن لتزدهر او تتطور في ظل تلك الاوضاع والظروف . وان كانت تلك الاوضاع والظروف لم تستطع في الوقت نفسه ان تقضي تماما على المبادلات الاقتصادية بين البلدين ،اذ ظلت هذه المبادلات ولا سيما المبادلات التجارية تجري في مجراها[1] ،سواء في المواد التي تحقق التكامل بينهما ،وبين المناطق المتجاورة ، اوغيرها .

واما في المرحلة الثالثة ٩٨٤-٩٩٥هـ /١٥٧٤-١٥٨٧م التي اتسمت فيها العلاقات السياسية كما رأينا بالتذبذب بين السلام والتهديد ،فقد شهدت فيها العلاقات الاقتصادية نوعاً من التطور والنمو ،كما يستخلص ذلك من المصادر المعاصرة . اذ تحدثت عن مبادلات تجارية نشيطة خاصة بين الجزائر العاصمة الجديدة وتطوان[2] .

واخيرا فان العلاقات الاقتصادية في المرحلة الرابعة ٩٩٥-١٠٦٦ هـ / ١٥٨٧-١٦٥٦م ، التي تتوافق في الجزائر مع عهد الباشاوات ،وفي المغرب مع شطر من عهد المنصور وعهد ابنائه فقد تميزت بتحويل المنصور لمحاور التجارة مع بلاد السودان نحو المغرب ،ثم الاستيلاء على قسم هام من بلاد السودان نفسها ،مما كان له اثره السلبي على المراكز التجارية في الجزائر . لكن ذلك لم يستمر في عهد ابنائه ،فمالت محاور التجارة مع بلاد السودان نحو الجزائر والشرق من جديد ،بينما نشطت المبادلات بين مدينة الجزائر وتطوان وسلا[3] ،وضعف شأن فاس وتلسان لاضطراب الاوضاع فيهما خلال هذه المرحلة .

---

(1) المجهول : تاريخ الدولة السعدية ص 36 (وفيه اشارة الى استمرار توجه التجار المغاربة في عهد عبد الله الغالب الى الجزائر رغم ان العلاقات بين البلدين لم تكن سلمية دائما ،في عهده .

(2) هايدو : الطبوغرافية في المرجع السابق عدد ٨٥ ص ٥٥

(3) محمد حجي : تاريخ الزاوية الدلائية .

٢ ــ الواقع الجغرافي الذى جعل احد البلدين امتدادا للآخر كما اوضحنا ذلك في المدخل وجعل مواردهما الزراعية والحيوانية والباطنية وفعاليات سكانهما في جميع الحقول الاقتصادية متجانسة الى حد كبير، وسهل بالمقابل عمليات التواصل والتبادل الاقتصادى، الا ان هذا التجانس او التشابه الكبير اثر ولا شك في العلاقات الاقتصادية بين البلدين حيث كان وما زال يدفع حكام البلدين الى تحقيق التكامل مع بلدان اوربية وافريقية، جنوب الصحراء، وبالتالي الى توسيع مبادلاتهم الاقتصادية معها، ولكن مع المحافظ على قدر من المبادلات مع البلد المجاور، وخاصة في المواد القليلة التي ينفرد احد البلدين بانتاجها كالسكر في المغرب على سبيل المثال.

٣ ــ حالة الطرق السيئة واضطراب الامن فيها والاوبئة المتكررة، كانت كلها عوائق في وجه ازدهار الحياة الاقتصادية في البلدين، ومن ثم في وجه ازدهار العلاقات الاقتصادية بينهما.

٤ ــ انصراف الحكم في البلدين الى تنمية "التجارة" مع الدول الاوربية بعقد الاتفاقات التجارية وتشجيع المبادلات مع الدول الاوربية أكثر فأكثر، حتى يحصل على المواد والسلع التي كانت تأتي اوربا من بلاد الهند، او قارة امريكا، او التي كانت تنتجها اوربا نفسها، وبالدرجة الاولى الاسلحة المتطورة فيها. وبالوقت نفسه تربح السلطات الحاكمة، وبعض فئات السكان مرابح كبيرة من تصدير السلع، التي كان ينتجها البلدان، والتي كانت اوربا بأمس الحاجة اليها للارتقاء بصناعتها المتنوعة، وهذه المرابح تفوق بالطبع ما كان يتأتى لها من علاقة الجوار المعتادة، ولهذا الغرض احتكر العثمان في المغرب والجزائر الكثير من السلع. فالحكم السعدى احتكر الاتجار بالسكر والمعادن المختلفة والقمح، وكذلك احتكر الحكم العثماني في الجزائر الاتجار بالشمع والجلود، والزيت، والاخشاب الصالحة لبناء السفن، وغيرها، للاتجار بها مع الدول الاوربية.

٥ ــ عامل الحج: وامام هذه السلسلة من العوامل السلبية التأثير على العلاقات الاقتصادية بين البلدين لا يكاد يجد المرء سوى عامل واحد، يحد من اثرها السلبي واعني به عامل الحج الذى كان يمر سنويا قافلة من الحجاج، ولكن ايضا من التجار، مما جعل العلاقات الاقتصادية بين البلدين والمبادلات التجارية على الخصوص مستمرة في جميع الاحوال والظروف.

ولكن الباحث في العلاقات بين البلدين كما ذكرنا منذ البداية يصطدم بعدم توافر الاحصاءات عن المبادلات التجارية التي كانت تتم بين البلدين، وهي ضرورية ليقدر بشكل دقيق مدى اهمية هذه المبادلات او مدى حجمها. كما يصطدم ايضا بشح المصادر المتوافرة في اعطاء التفاصيل عن الحقول الاقتصادية الاخرى...

ونظرا للعوامل العديدة الآنفة الذكر ذات التأثير السلبي على العلاقات الاقتصادية بين البلدين، فقد بدت هذه الاخيرة بصورتها المشار اليها ضعيفة، بمقارنتها مع علاقات البلدين مع الدول الاوربية في نفس الفترة، وان ظلت عامل وصل وتلاق بين البلدين، يدعم ايجابيا العلاقات الاجتماعية والثقافية، ويتجاوز العلاقات السياسية.

الباب الثالث

العلاقات الاجتماعية والثقافية

الفصل التاسع : العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافية .
الفصل العاشر : مظاهر العلاقات الاجتماعية والثقافية .

الفصــــل التاســــع

العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافيــــة

يتضح للباحث في العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب ، من خلال تأمله فيها ، وفي الحياة الاجتماعية والثقافية في كلا القطرين ، ان هذه العلاقات كانت متأثرة بعوامل قديمــة واخرى جديدة. فأما العوامل القديمة فيمكـن حصرها في :

آ ـ الروابط الجغرافية :

فالبلدان ـ كما سبق وأوضحنا ـ متجاوران ، احدهما امتداد للآخر ، لا فاصــل طبيعي ، وحقيقي ، يفصل بينهما . وبالتالي فلم يكن هناك من الناحية الجغرافية مايحــول دون اتصال سكانهما ، أو احتكاكهم ببعضهم ، وانتقالهم من بلد الى آخر . اومايمنع من تشابه الحياة الاجتماعية والثقافية في البلدين ، تشابه طبيعتهما ، وقيام علاقات قوية بينهما في هذين المجالين على غرار مافي المجالات الاخرى.

ب ـ الروابط التاريخية :

وتقدمت الاشارة ايضا الى ان البلدين كانا خلال فترات طويلة بلدا واحدا ، تحكمهما دولة واحدة ، سواء في العهد الاسلامي ، او في عهد ماقبل الاسلام .

وكانت تلك الفترات كافية لتدعيم الروابط بين البلدين وترسيخها ، ولو انفصلا عن بعضهما فيما بعد ، وكان بين حكومتي البلدين تنافس ونزاع .

ج ـ الروابط البشــــرية :

فالعناصر الرئيسية التي كان يتألف منها سكان المغرب ، وهي : البربر والعرب كانت هي ذات العناصر التي يتألف منها سكان الجزائر ، واصول بربر المغرب وعربه هي نفــس اصول بربر الجزائر وعربها وحتى العناصر الفرعية : السودانية والاندلسية والاوربية تكاد تكـون واحدة في البلدين :

وتعود اصول القبائل البربرية في البلدين الى المجموعات البربرية الخمس الكبيرة وهي : زناته ، وصنهاجة ، ومصمودة ، وهوارة ، وغمارة (1) . والظن ان هذه المجموعات تنحدر من سكان شمال افريقيا القدامى ، الذين كان الاغريقيون يسمونهم " الليبيين" . اما ابن خلدون فينسب بعضها كزناته الى عرب شمال الجزيرة العربية ، وينسب بعضها الآخر كصنهاجة الى عرب

(1) الوزان : المرجع السابق، ج1

الجنوب ، عرب اليمن ، معتمدا في ذلك على ماكان يتردد في عصره من الروايات (١) ، والتي يحتمل ان يكون التحريف قد اعتراها . ويرجع بعضهم اصول البربر الى اقوام شمالية اوربيـة ، او الى اصول آسيوية وافريقية ، تبعا لاختلاف لون بشرة السكان من البياض الى السواد (٢). وهي روايات لا تبعث الى اطمئنان على اليقين ، خصوصا اذا علمنا ان الانسان المغربي الذى عثر على فكـه قرب الرباط ، يحوي صفات بدائية جدا ، قريبة من اقدم البقايا البشرية المعروفة حاليا (٣) .

اما اصول القبائل العربية في الجزائر والمغرب فتعود الى ثلاث قبائل رئيسية هي قبائل بني هلال ، وسليم ، وهؤلاء من عرب الشمال ، وقبائل بني معقل وهؤلاء ينتمون الى عرب اليمن (٤) . وحتى مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، كان لا يزال بالامكان تحديد مواطن القبائل العربية والبربرية في كل من الجزائر والمغرب وارجاعها الى مجموعاتهـا المذكورة وهو ما يؤكده الحسن الوزان في كتابه وصف افريقيا (٥) . علما أن اندماج بعض القبائل البربرية وذوبانها قد بدأ كما لاحظ ذلك ابن خلدون بالنسبة لزناتة منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادى . ولم تلبث بعد ذلك ان ذابت بعض القبائل المعقلية في صنهاجة .

د ـ الروابط الدينية : يدرك عمق هذه الروابط الدينية اذا علم ان الدين الاسلامي والمذهب السني المالكي كانا ولا يزالان يسودان في كلا البلدين سيادة مطلقة على ماسواهما ، ويشدانهمـا شدا قويا وأن الطريقتين الصوفيتين الشاذلية والقادرية وفروعهما كانت قائمة في كلا البلديـن .

هـ ـ الروابط اللغوية والثقافية : وكما ساد الدين الاسلامي في البلدين سادت فيهما الثقافـة العربية الاسلامية ، وتجانست فيهما اللغة واللهجات ، وطرق التدريس ومواد الدراسة ، والكتب الدراسية مما كان يزيد في قوة الروابط بين افراد المجتمعين الجزائري والمغربي ، اذ كانـت مساجد البلدين دوما مفتوحة في وجه طلبتهما .

ونتيجة للروابط العديدة التي تقدم ذكرها والتي كانت تؤلف بين المجتمعين المغربـي والجزائري فقد كانت العلاقات الاجتماعية وكذلك الثقافية كما سيتضح اكثر في هذا الحرفـ قـويـة وادت الى تجانس العادات والتقاليد في البلدين في اللباس ونمط المعيشة والاعيـاد والاحتفالات ، كما أدت الى وحدة ثقافية وفكرية فيهمـا .

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج٧ ص٣
(٢)(٣) عبد الرحمن حميدة : دراسة في الجغرافية المشرقة ص 86 .
(٤) الوزان : المرجع السابق ج١
(٥) عبد الرحمن حميدة : المرجع السابق ص٩٢

و- الهجرة والتنقـــل :

على ان ماكان يزيد الروابط متانة وعمقا هو تلك الحركة الدائبة والمستمرة المتمثلة فـــي الهجرة والتنقل بين البلدين لمختلف الفئات الاجتماعية ، ولمختلف الاغراض ، كالتجارة وطلـــب العلم وزيارة الأهل والأقارب ، والأولياء والمشايخ . وأشهرها الذكر من هذه الفئات ، فئـــة المثقفين من الطلبة والعلماء ومن هم على شاكلتهم كالمرابطين ، تلك الفئة التي كان لها تأثيرهـــا القوي في العلاقات الاجتماعية والثقافية بين البلدين مما يجعلنا نركـز عليها اكثر من غيرهـــا ، في ابراز العلاقات القائمة بين البلدين في المجالين الاجتماعي والثقافي في الفترة موضوع الدرس، وقعلها.

فمن اسماء اشهر من طلبة المغرب والجزائر الذين تنقلوا من بلد الى آخر قبل الفتـــرة موضوع الدرس نذكر على سبيل المثال لا الحصـــر :

١- أبا محمد عبد الله الورياجلي (1) . الذى انتقل من المغرب الى تلمسان للأخـــذ عن عالمها ابن مرزوق الحفيـــد . ثم عاد الى بلاده وتصدر للعطاء في المراكز الثقافيـــة المغربية واصبح من اشهر علماء المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري ومطلع القـرن العاشر الهجـــري .

٢- أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي الشهير بزروق (2) . الذى هاجـــر في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادى الى تلمسان وأخذ عـــن علمائها أمثال أحمد بن زكرى (3) (والحافظ التنســـي) (4) . ومحمد بـــــــــن

---

(1) انظر عنه ابن عسكر : دوحة الناشر ص٥ ٢

(2) انظر عن زروق:ابن عسكر:دوحة الناشر : ص ٣٨-٤٠ ، ابن مريم:البســـتان ص٤٠-٤٧

(3) توفي في سنة ٨٩٩ هـ بتلمسان ، صاحب مؤلفات عديدة منها بغية الطالب ، ومنظومـــة يزيد عدد أبياتهـــا عن ألف وخمسمئة بيت في علم الكلام . انظر عنه ابن مريم : البســـتان ص٣٨-٤١ ، ابن عسكر دوحة الناشر ص٨٨-٨٩ وأحمد بابا : نيل الابتهاج ص٨٤

(4) محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي توفي سنة ٨٩٦ هـ . صاحب نظم الدر والعقيان في التاريخ والطراز في شرح الخراز في ضبط القراءات . وغيرها . انظر عنه ابن مريم : نفس المرجع ٢٤٨ ص٢٤٨-٢٤٩ . أحمد بابا : نفس المرجع ص٢٢٦-٢٣٠ الحفنـــاوى : تعريف الخلف (ج٢) ١٦٦

وسف السنوسي (1). وغيرهم ،ثم هاجر الى مدينة الجزائر حيث أخذ عن عالمها وامامها عبد الرحمن الثعالبي (2) ،فبجاية حيث أخذ عن الشيخ المشدالي (3). وفي نواحي بجاية أخذ أيضا عن الشيخ يحي العيدلي (4)، وبمسجد هذا الأخير في تاموقرا ، ألف زروق بعض التآليف.

وزروق هذا هو صاحب الطريقة الزروقية التي كان لها أتباعها في الجزائر والمغرب (5). أما من الطلبة الجزائريين الذين انتقلوا الى المغرب (طلبا للعلم) في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي فنذكر على سبيل المثال :

- محمدا بن محمد العباس التلمساني (6)، الذي رحل الى فاس للأخذ عن عالمها الشهير أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي (7) ،الذي انتهت اليه رئاسة العلم والفتيا بمدينة فاس ، والامامة بجامع القرويين .

---

(1) محمد بن يوسف السنوسي التلمساني : توفي سنة ٨٩٥هـ صاحب العقائد الخمس في التوحيد التي غدت منذ تأليفها موضوع الدرس والتدريس والشرح والحفظ انظر عنه ابن مريم : البستان ص ٢٣٧ - ٢٤٨ وأحمد بابا : نيل الابتهاج ص ٣٢٥ - ٣٢٩ .

(2) توفي في مدينة الجزائر سنة ٨٧٥ خلف تلاميذ كثيرين وما ينيف عن ٩٠ مؤلفا في التفسير والفقه والحديث والسيرة والتصوف والقراءات وغيرها انظر عنه أحمد بابا : نيل الابتهاج ص ١٧٣ - ١٧٥ ، والحفناوي : تعريف الخلف ج١ ص ٦٧ - ٦٨ .

(3) محمد بن أبي القاسم بن عبد الصمد المشدالي : توفي في سنة ٨٦٦ . صاحب مؤلفات عديدة في الفقه منها مختصر البيان لابن رشد ومختصر أبحاث ابن عرفة وحاشية على المدونة انظر عنه الحفناوي : تعريف الخلف ج١ ص١٠٥ .

(4) والورثيلاني : نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار تحقيق ابن أبي الشنب الجزائر ١٩٠٨م ص ٥ .

(5) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ص ٥٣ وهامش ١٠٧

(6) ابن مريم : البستان ص٢٥٩

(7) ابن عسكر : دوحة الناشر ص٣٦ - ٣٧

ذكر ابن مريم تاريخ رحلته الى فاس وعودته منها ، الا انه كان حيا في سنة ٩٠٢هـ.
عليا بن موسى بن علي بن هارون المطغري (١) ، من أعمال تلمسان الذي رحـــل
اس في (٨٦١ / ...) ولازم فيها ابن غازي المتقدم ذكره ثمانيا وعشرين سنة ، وحصل عنـه
جما حتى وصفه بـ "خزانة علم" لكثرة العلوم والفنون التي ألم بها ، وتحصل من استاذه
ى وعلى اجازة سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م . كما اخذ من اساتذة عديدين آخرين .

وبينما كان بعض الطلبة الجزائريين والمغاربة ، يعودون الى وطنهم الاصلي بعـــد
مال الدراسة ، كما فعل كل من العباس المذكور ومحمد الورياجلي وغيره ، كان بعضهم الاخر يؤثر
امة بصفة نهائية في مهجرة ، لما وجده فيه من تقدير واحترام أو حظوة أو أمن واستقرار ،
ظيفة مناسبة ، او لغير ذلك . ومن هؤلاء [illegible] المطغري المتقدم ذكره . فقد تصدر للتدريس
اس بعد تخرجه منها على كبار مشايخها ، ولما انتهت اليه رئاسة العلم فيها بعد موتهـــم
ت تشد اليه الرحال ، وكثر الآخذون عنه ، وحصلت له وجاهة كبيرة لدى بني وطاس
ين على وه قضاء الجماعة في فاس (٢) .

يم التازي الذي أثر استيطان وهران بصفة دائمة وفيها خلف شيخه محمد الهواري في زاويته وذاع صيته وانتشر (٣)

ويجد الباحث في كتب التراجم اسماء كثير من علماء الجزائر انتقلوا الى المغرب ، قبل
حلال المسلمين ... لا للأخذ عن علمائه ، ولكن ابتغاء العيش هناك في هدوء واطمئنان
ترام وتقدير . ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر : أبا زيد عبد الرحمن بن محمـــد
اوي ، الذي وصفه ابن القاضي في درة بـالفقيه ، العالم ، وذكر انه كان خطيب المدرسة
توكلية بفاس وفقيهها ، وانه توفي في سنة ٨٩٥هـ / ١٥٠١م (٤) . وسكت عن ذكر تاريـخ
رته الى فاس ودوافع استيطانه فيها .

محمدا بن العنابي ، نزيل وادي درعه ، الذي كان كما وصفه ابن عسكر ((سـيدا
لا ، عالما بغرائب العلوم ، عثر على الحكمة ظاهرا وباطنا .)) (٥) . ولا ندري متى هاجر
جنوب المغرب ، الا اننا نعلم انه كان ذا وجاهة لدى السلطان الوطاسي محمد الشيــخ
٨٧٦-٩١٠هـ / ١٤٧١-١٥٠٤م)) الذي انتدبه لافتداء اسرى المسلمين في اسبانيــا
ـات غريقا في البحر وهو في طريقه الى جزيرة الاندلس للغرض المذكور .

---

(١) انظر عنه ابن عسكر الدوحة ص ٤٠-٤١ ، الافراني : النزهة ص٢١ ، الحفناوي : تعريف الخلف ج٢ ص ٢٨١

(٢) ابن مريم البستان : ص ٥٨

(٣) ج٣ ص٩١

(٥) ابن عسكر : الدوحة ص٦٨ - ٦٩

ـ أبا العباس أحمد بن يحي الونشريسي : الذي هاجر الى المغرب في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م ، فرارا من اذى السلطان الزياني ابي عبد الله محمد ، بعد وحشة وقعت له معـــه ، وانتهاب داره ، واستوطن فاس الى ان توفي بها في سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م [1] .

وقد هاجر احمد الونشريسي وهو كامل العدة كما يقال ، وجاهز للعطاء ، اذ هاجر وهو ممتلئ الوطاب من علم علماء تلمسان الاعلام في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي امثال : ابن مرزوق الكفيف ، والامام محمد بن العباس وابي عبد الله الجلاب ، وغيرهـــم . ومع ذلك فقد كان يحضر مجلس القاضي المكناسي في فاس .

وقد تصدر احمد الونشريسي في مهجرة لتدريس الفقه واصوله ، وكان واسع الاطلاع فيه محيطا بالمذهب المالكي ، احاطة شهد له بذلك معاصروه حيث قال عنه الشيخ الامام ابن غازي شيخ الجماعة في فاس ، مرة لمن حوله : ((لو ان رجلا حلف بطلاق زوجه ان ابا العباس احاط بمذهب مالك ، اصوله وفروعه لكان بارا في يمينه ، ولا تطلق عليه زوجته)) [2] .

وكثر الاخذون عنه ، وتخرجت على يده نخبة من اعيان علماء المغرب في النصف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابنــــه عبد الواحد الذي جمع بين الفتيا والخطابه والتدريس في فاس . ومحمدا بن الغرديس قاضـــي فاس الجديد ، وأبا زكريا يحي السوسي ، ومحمد بن عبد الجبار الورتدغيري والحسن بـــن عثمان التاملي وعبد السميع المصمودي وغيرهم . [3] .

كما تصدى أيضا للتأليف فترك عدة مؤلفات ثمينه في موضوعها عظيمة القدر منها : ((المعيار المعرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب)) في عدة اسفار (١٢جزءا) وله ايضا الفائق في الوثائق ، " وايضاح المسالك في قواعد مذهب مالك " وغيرها [4] .

وكما اعترف للونشريسي بالتفوق والتبحر في الفقه ، اعترف له بفصاحة اللسان والقلم حتى كان من يحضره يقول : ((لو حضر سيبويه لاخذ النحو من فيه)) [5] ، الا ان علماء فاس قبل ان يعرفوا فضل احمد الونشريسي حق المعرفة لم يلتفتوا الى جانبه في النزاع الذي وقع بينه وبين عبد الله الورياجلي في ٨٧٩ هـ وسببه ان الورياجلي أخرج عن بعض المدارس وقدم هو (الونشريسي) مكانه فتنازعا في المرتب من يستحقه منهما فمال علماء فاس الى تأييد الورياجلي ، وقضوا بحرمان المولى فكاد احمد الونشريسي يموت غيظا ، ولا سيما ان فتاوى

---

(١) ابن القاضي جذوة الاقتباس ص ٨٠ — ٨١
(٢) ابن عسكر : الدوحة ص٣٧
(٣) انظر تراجمهم في ابن القاضي : درة الحجال ، وجذوة الاقتباس و ابن عسكر دوحة الناشـــــر والافراني : النزهة
(٤) ابن عسكر ، وابن القاضي ، وابن مريم : في مصادرهم السابقة .
(٥) ابن القاضي : الجذوة ، ص ٨١

باعتبار علماء تلمسان بصدد قضية التي طرحها عليهم أفتت باستحقاق المقدم دون المعزول (1).

وموقف علماء فاس المذكور من الونشريسي ينم عن مقاومتهم لمنافسة العلماء الوافدين الى المغرب سواء من الجزائر او غيرها لهم على الوظائف العلمية والدينية ، هذا في الوقت الذي كانت فيه السلطة الحاكمة ترحب بالوافدين وتقربهم بل وتؤثرهم على علماء المغرب احيانا ، فمحمد بن الصنابي المتقدم ذكره كان السلطان الوطاسي يدخله الى عقر داره حيث نسوه وجواريه، فوق انه انتدبه للقيام بمهمة افتداء الاسرى مع وجود العلماء في فاس (2).

ومما تقدم يتجلى الاسهام الكبير لعلماء الجزائر في مهجرهم في الحياة الثقافية المغربية ، ودورهم الايجابي في تشكيلها ... الفوائد الكبيرة التي كان من الممكن ان تعود على الحياة الثقافية في الجزائر لو ان هؤلاء المهاجرين ظلوا في مختلف المراكز الثقافية التي هاجروا منها.

كما يتضح بأن الجزائر قد قدمت الى المغرب نخبة عالية المستوى من علمائها الكبار في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، بينما لم يهاجر اليها في هذا القرن الا عدد قليل من الطلبة والعلماء المغاربة . ولم يستوطنها منهم الا القليلون .

والواقع ان المتمعن في كتب التاريخ ولا سيما في كتب التراجم بالنسبة لما قبل سنة ١٥١٧م / ٩٢٣هـ يجد دوما ان حركة العلماء والطلبة والفئة المثقفة بصفة عامة ، وكذلك حركة انتقال القبائل ، كانت اقوى من الجزائر الى المغرب ولا سيما في عهد الموحدين والمرينيين حين كانت الجزائر اقليما تابعا للحكومة المركزية في المغرب وحيث ان كثيرا من الوظائف العلمية والدينية مثل القضاء والخطابة ، والامامة في كثير من حواضر المغرب كمراكش وفاس ، وسبتة ، وسلا ، وغيرها ، قد شغلها جزائريون انتقلوا الى المغرب ، اما من تلمسان او بجاية ، او غيرها . كما شغل بعضهم الكتابة والسفارة (3).

ويمكن رد ذلك الى العوامل التالية :

أ — سياسة السلاطين المغاربة في جذب المثقفين الجزائريين الى المغرب ، او اغرائهم بالبقاء فيه ، بل وفي نقل بعض القبائل من منطقة الى اخرى في البلدين . فالسلاطين الموحدون كانوا يدعون المثقفين الى المغرب ، ويسندون اليهم ارفع الوظائف العلمية والدينية ، وكان السلاطين المرينيون بعدهم ، امثال : ابي الحسن المريني ، وابنه ابي عنان ، يصطحبون

(1) ابن القاضي : نفس المرجع السابق ص ٢٤٩
(2) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٢٦
(3) من الجزائريين الذين تولوا القضاء في المغرب قبل سنة ١٥١٢ (ابن ابي جنون التلمساني ، ومحمد بن ابراهيم البجائي ، ومحمد بن علي الصنهاجي ... انظر عنهم احمد بابا : نيل الابتهاج ص ٢٠٧ ، ٢٨٨ وعنوان الدراية للغبريني . ومن الذين تولوا السفارة ابن (مرزوق) ومحمد بن محمد المقري انظر عنهما ابن مريم : البستان ص ١٨٤ و ١٥٤

... وبخرونهم بالبقاء في بلادهم بمختلف الوظائف (1) ، وبخرونهم بالبقاء في بلادهم بمختلف الوظائف

عودتهم من الجزائر نخبة من علمائها (1) ، ويغرونهم بالبقاء في بلادهم بمختلف الوظائف ... فقـــد

...مية . اما السلاطين الوطاسيون الذين لم تكن لهم اى سلطة اونفوذ على الجزائر ، مما

يسيلون بالتعظيم والتقدير من يفد اليهم من علماء الجزائر ويؤثرونه بالوظائف المختلفة

... كثيرا من العلماء الجزائريين يهاجرون الى المغرب ولا يعودون الى مواطنهم في الجزائر(2)

... ان الجزائر كانت لا تملك معهدا او جامعا في مستوى جامع القرويين بفاس ، ولذلك فقـــد

... بعض طلابها يقصدون فاس لاستكمال دراستهم " العالية " في القرويين كما كان بعضهـــم

...دون جامع الزيتونة في تونس وجامع الازهر في القاهرة وغيرها من مراكز العلم في المشـــرق

... صة بعد سقوط المراكز العلمية في الاندلس تماما . وقد كانت هي الاخرى مقصودة من قبـــل

...ية الجزائـــــر .

... الظروف السياسية والامنية في الجزائر ، الزيانية والحفصية التي كثيرا ماكانت ماتضطـــرب

...ب الافتتان على السلطة بين الحفصيين والزيانيين وبين امراء كل اسرة ، او بسبب الغزو

...سباني الذى نشط مع بداية القرن العاشر الهجرى / والسادس عشر الميلادى ، فجعـــل

...ض علماء الجزائر وطلبتها ، وكذلك بعض اسرها يهاجرون الى المغرب او المشرق بحثـا

...ن اماكن اكثر هدوءا واستقرارا وامنا .

... اضف الى ذلك الدوافع الشخصية والاسباب الخاصة ، كما تقدم بصدد هجرة أحمـــد

...ونشـــريســـــــي .

ولا شك ان وجود جامع القرويين بفاس حيث تقدم فيه دراسات عالية المستوى للطلبـــة

... المغاربة وغيرهم من المسلمين ، مع وجود حكام مغاربة يوقـــرون العلماء ويحبـــون العلـــم

ويشجعونه ، قد جعل الكثيرين من العلماء والطلبة المغاربة ، لا يهاجرون نحو الجزائـــر

...بكثرة ، وحتى الذين كانوا يهاجرون اليها والى المشرق او الى الاندلس كان بعضهم ان لـــم

...يكن اكثرهم يعودون الى وطنهم بعد تحقيق غرضهم من وراء الهجرة مما جعل الحياة الثقافية

في المغرب لا تعاني مثل الجزائر من نزيف هجرة المثقفين بشكل كبير نحو الخارج سواء الى المغرب

او المشـــرق .

الا ان حركة هجرة العلماء والطلبة الجزائريين نحو المغرب في أواخر القرن التاســع

الهجرى قد قلت وخفت نسبيا عما كانت عليه في القرون الثلاثة السابقة (٦٢٦ - ٨٠٠ هـ) ، ذلك

ان المغرب كان طوال القرن التاســـع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، وحتى منتصـــف

القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، في غاية الاضطراب ، نتيجة التدخـــل

---

(1) استصحب ابو الحسن وابو عنان : ابن مرزوق الجد ، ومحمدا بن محمد المقرى ، ومحمدا ابن ابراهيم الابلي ومحمدا الادريسي التلمساني

(2) تولى في عهد الوطاسيين كل من علي المنافري وعبد الواحد الونشريسي القضاء ، والفتيا ، والخطابة والتدريس ، وكانت لهم وجاهة كبيرة لديهم . انظر عنهما ابن عسكر : الدوحة ص ٤ ، ١٤

والغزو الخارجي ، وتجزؤ المغرب بعد سقوط الدولة المرينية بل ان حركة الهجرة اخذت تنشط من المغرب نحو الجزائر في القرن التاسع الهجري الذي كان المغرب فيه مضطربا .

ب- العوامل الجديدة :

اما العوامل الجديدة التي اثرت في العلاقات الاجتماعية والثقافية فيمكن حصرها في :

١- الغزو الخارجي الاسباني والبرتغالي للبلدين .
٢- استمرار تدفق المهاجرين الاندلسيين .
٣- قيام الحكم العثماني في الجزائر والحكم السعدي في المغرب .

آ- اثر الغزو الاسباني والبرتغالي :

ان الغزو الاسباني والبرتغالي لشواطئ البلدين وما جاورها من المناطق الداخلية الذى بلغ أوجه في المرحلة مدار البحث ، على الرغم من انه لم يترك اثرا اجتماعيا وثقافيا ذا بال خلال وجوده فيهما الا انه قد تسبب في خراب كثير من المدن الثغرية الساحلية التي كان بعضها كوهران وبجاية وسبتة وطنجة مراكز اجتماعية وثقافية هامة تتم فيها المبادلات الثقافية بين البلدين ، حيث كان يقصدها طلاب وعلماء من الجزائر والمغرب اما للأخذ عن علمائها ، أو للمساهمة في نشر العلم بها . مما اثر في الحياة الثقافية في كلا البلدين وفي العلاقات الثقافية بينهما .

فنتيجة لخراب الكثير من المدن ، بعد احتلال الاسبان او البرتغاليين لها ، وجلاء سكانها عنها ، لم تنشط فقط حركة الهجرة الداخلية من تلك المدن ، ومن المراكز الاخرى المهددة ، نحو المراكز الداخلية البعيدة عن الشواطئ ، بل نشطت ايضا حركة الهجرة من الجزائر نحو المغرب وبالعكس ، ولا سيما من فئة الطلبة والعلماء .

وفي كتب التراجم المعاصرة لهذه المرحلة نجد اسماء بعض الطلبة والعلماء الذين هاجروا من المراكز الجزائرية التي وقعت تحت الاحتلال الاسباني كوهران ، وبجاية ، كما نجد فيها اسماء بعض الطلبة والعلماء المغاربة ، هاجروا الى الجزائر من المناطق التي وقعت تحت الاحتلال الاسباني او البرتغالي ، او التي كانت مهددة بالغزو من قبل البرتغاليين أو الاسبان .

ومن بين الطلبة والعلماء الجزائريين الذين هاجروا من المناطق ، المشار اليها ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

ـ أحمد بن ابي جمعة الوهراني المعروف بشقرون الوهراني الذى استوطن فاس الى ان توفـي بها في العقد الثالث من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى وكان من الفقهاء الاعلام ، تصدر للتدريس في مهجره ، وأخذ عنه الكثيرون (1) .

ـ احمد بن جيدة الديوني الوهراني ، تلميذ محمد بن يوسف السنوسي في العقائد وابن مرزوق الكفيف وغيرهما ، الذى هاجر الى المغرب واستوطن فاس ايضا ، الى ان توفي بها في ٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م . وكان يدرس فيها علم الكلام ، واخذ عنه الكثيرون منهم ابو العباس احمد المنصـور (2) .

ـ أبا علي منصور البجائي ، الذى استوطن شمال المغرب وكان التلميذ الكبير لابي عبد الله محمد الشطيبي الاندلسي الاصل نزيل تازغدره بجبل زرهال . كما كان من اصحاب الشيخ سيدى يوسف التليـدى صاحب الزاوية والشهرة الكبيرة في اقليم غمارة بشمال المغرب (3) .

ـ اما قاسم بن عمر الزواوى فقد آثر الهجرة الى المشرق والاستيطان في القاهرة الى ان توفـي بها في ٩٢٧ هـ/١٥٢١ م (4) . كما آثر آخرون الهجرة الى البقاع المقدسة .

ولا يعدم الباحث في تراجم علماء هذه المرحلة اسماء بعض الطلبة والعلماء المغاربة الذين هاجروا من المناطق المجاورة لسبتة ، وطنجة ، المحتلتين من قبل البرتغاليـين الى الجزائر والمشرق ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال : (5)

ـ عبد الله الخياط الذى هاجر الى الجزائر من جبل زرهون بشمال المغرب .

ـ ومنصورا بن عبد المنعم الصنهاجي من الهبط بشمال المغرب ايضا الذى هاجر الى الشرق بقصد التعليم الا أنّ كليهما عـاد الى المغرب في نهاية مطافه (6) .

وقد كان للغزو الاسباني والبرتغالي للبلدين اثره ايضا في تدهور مراكز ثقافية اخرى ، كانت مزدهرة ، ولها اهميتها على مستوى البلدين ، وان لم تقع تحت الاحتلال المباشر للبرتغاليين والاسبان وفي مقدمة هذه المراكز نجد في الجزائر مدينة تلمسان ، وفي المغرب مدينة القصر الكبير وغيرهما .

فتلمسان بعد ان احتل الاسبان وهران في سنة ١٥٠٩ ، باتت مهددة هي الاخرى ورغم ان سلطانها سارع الى اعلان تبعيته لهم في ١٥١٢ م املا في الحفاظ بذلك على ماتبقى

(1) ابن عسكر الدوحة ص٩٢ ، ابن القاضي : الجذوة ص ٢٠٤
(2) ابن عسكر : نفس المصدر ص ٩٩ ابن القاضي : نفس المصدر ص ٨١ ، ابن مريم : البستان ص ٥٢ – ٥٣
(3) انظر عن الشطيبي والتليدي والبجائي ابن عسكر : المرجع السابق ص ١٤–١٦
(4) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ٨ ص ١٥٤ – ١٥٥
(5) ابن عسكر : المرجع السابق ص٦٣
(6) نفسه : ص٦٥

وتوفير الامتنان لما سعة فان الامر فيها مانفسه منذ ريا ، ناهيك عن ان سلوك السلطان
يكن ليرضي علماء تلمسان ، اوليزيل قلقهم ومخاوفهم ولذلك فقد اخذ بعضهم يهاجر
الى المغرب ، ولا سيما الى فاس ، ومن هؤلاء :
محمد بن مرزوق (السبط)، الذي وصفه ابن مريم نقلا عن ابي عبد الله الامام بن
العباس بأنه آخر علماء قطرنا (مملكة تلمسان)، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الحائز
قصب السبق في ذلك ، وخصوصا علم الحديث فانه حصل له بالفرض والتعصب صدر
الحفاظ المبرزين وامام الجهابذة النقاد والمتقنين)) ، رحل الى فاس في وقت غير محدد واجاز
بها عبد الوهاب الزقاق الذي تولى خطة الفتيا والقضاء بفاس . وكان حيا في ٩١٨ هـ/١٥١٢ (١)
ثم يذكر ابن مريم انه عاد الى تلمسان ، ولعله قد استوطن فاس اذ ما انفكت اوضاع تلمسان
في تدهور خلال النصف الاول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .
محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني الذي هاجر الى المغرب واستوطن فاس في صدر
ايام السلطان محمد الشيخ السعدي الذي ولاه الفتيا الى جانب التدريس لعلم الكلام والخطابة ،
والامامة في جامع القرويين (٢) .

أما مدينة القصر الكبير في شمال المغرب التي كانت تحاول ان تخلف طنجة وسبتة ،
بفضل نخبة من علمائها امثال عبد الله الورياجلي الذي توفي في مطلع القرن العاشر الهجري
السادس عشر الميلادي والذي قال له ابن مرزوق عالم تلمسان الشهير : ليس امامك لا في الجزائر
ولا في المشرق من هو اعلم منك (٣) . وابراهيم الجرفطي الذي كان مدرسا ومفتيا بها .
وخليفته علي اللخمي (٤) ولم تستطع تحقيق هدفها نتيجة التهديد البرتغالي المستمر لها
الى ان قضي على القوة الضاربة للبرتغاليين في معركة وادي المخازن ١٥٧٨ م ، فكانت
بعثت لطلبتها الى فاس لاستكمال دراستهم .

تدفق الاندلسيين :

اما تدفق الاندلسيين المستمر الى البلدين طوال المرحلة موضوع البحث تقريبا وما قبلها ،
واثره على المدركات الاجتماعية والثقافية فلا يخفي ان هؤلاء المهاجرين كان لهم الفضل في بعث
بعض المدن في البلدين، وتعمير اخرى وتنشيطها، بحيث اصبحت تلك المدن مراكز ثقافية
هامة ، مقصودة من قبل علماء البلدين وطلبتهما ، اما لطلب العلم او نشره فيهما

---

(١) انظر عن ابن مرزوق السبط : ابن مريم البستان : ص ٢٥٨
(٢) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٩٠-٩١ ابن القاضي : الجذوة ص ٢٠٦ ابن مريم :
البستان ص ٢٦
(٣) ابن عسكر : المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٧
(٤) نفسه : ص ٣١-٣٢ توفي سنة ٩٥٣

ا جعلها بؤرا مشعة للتبادل الفكري وغير ذلك من المجالات الاجتماعية .

فالمهم يعود الفضل في بعث مدينة تطوان الى الوجود بعد ان ظلت خربة قرابة قرن ن الزمان اى منذ ان خربها الاسبان في سنة ١٤٠٠ م ، وتركت الدفاع عنها والحيلولة دون سقوطها ما سقطت المدن المجاورة لها بيد الاسبان او البرتغاليين (1) ، فاصبحت تطوان بفضلهم مركزا من المراكز الثقافية النشيطة في شمال المغرب ، التي استقطبت بعض العلماء الجزائريين ، ا ستوطنوها وتصدروا للتدريس فيها ومن هؤلاء :

بو القاسم بن السلطان القسنطيني (2) واحمد بن يوسف الزياني (3) ، كما انها كانت مركزا لعلماء الاندلسيين يقتبسون ويقتبس منهم .

وفي الجزائر اسس المهاجرون الاندلسيون معهدا علميا يشتمل على مدرسة ومسجد وكتاب قرآني . وكانت المدرسة تقدم تعليما عالي المستوى ، لاشك ان الوافدين من المغاربة الى الجزائر طلبا للعلم قد نهلوا منها .

وقد كان الاندلسيون بصفة عامة بمن فيهم العلماء والأئمة منهم ، كثيري الحركة والتنقل بين البلدين طلبا للعلم ، او ابتغاء العمل والجاه أو جمع الفضل .

وفي كتب التراجم عدد غير قليل من الاندلسيين الذين نزلوا في المغرب وقصدوا الجزائر للاخذ عن علمائها ، ثم عادوا الى مهجرهم الجديد ، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال : ابا عبد الله محمدا بن علي بن احمد الاندلسي المعروف بالحاج الشطيبي (4) نزيل تازغدره ببني زروال بشمال المغرب الذي قصد الى الجزائر للاخذ عن كبير مشايخ الصوفية فيها ابو العباس احمد بن يوسف الراشدي الملياني .

وابا محمد عبد الله الهبطي نزيل جبل زرهون (5) ، الذي قصد ايضا الى الجزائر للاخذ عن الشيخ احمد بن يوسف المذكور .

اما محمد بن رأس العين الاندلسي الاصل الجزائري الدار فقد انتقل الى بلاط المنصور ومدحه ثم عاد الى الجزائر حيث كان من مستقلي سعيد قدوره (6) .

ولا يخفى ان الاندلسيين قد نقلوا الى البلدين مؤثراتهم في المجالين الاجتماعي والثقافي ومعارفهم واذواقهم فيهما ، كما كانوا في تنقلاتهم بين البلدين ينقلون مؤثرات هذا البلد الى ذاك .

---

(1) انظر عن اعادة بناء تطوان : محمد داود تاريخ تطوان مجلد الاول
(2) ابن القاضي : درة الحجال ج ٣ ص ٢٨٨
(3) محمد حاجي : المراكز الثقافية في المغرب في البحث العلمي عدد ٦ المغرب ١٩٦٥ ص ٩٥
(4) ابن عسكر : الدوحة ص ١٤
(5) نفسه ص ٦٣
(6) ابن القاضي : درة الحجال ج ٢ ص ٣٦٣ — سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج ١ ص ٣٦٦

وكمثال على ذلك نذكر هنا همة تلاميذ احمد بن يوسف من الاندلسيين في نشر الطريقة اليوسفية في المغرب على نطاق واسع بحيث اصبح اتباعها يشكلون خطرا على السلطة الحاكمة فيه . (1)

ب- اثر قيام الحكم العثماني في الجزائر والحكم السعدي في المغرب :

واما قيام الاتراك العثمانيين حكاما في الجزائر خلفا للزيانيين والحفصيين ، وتنافسهم مع السعديين خلفاء الوطاسيين في المغرب فاثره على العلاقات بين الجزائر والمغرب في المجال الثقافي والاجتماعي يمكن ان نراه في :

1- التأثيرات الحضارية والثقافية التي ادخلها الاتراك العثمانيون معهم الى الجزائر ، وانتقال تلك التأثيرات منها الى المغرب .

2- حركة الهجرة القوية للمثقفين الجزائريين والمغاربة وغير المثقفين التي شهدها عهدهم ، ولا سيما من الجزائر الى المغرب .

3- موقف حكام البلدين من حركة الهجرة والمهاجرين

آ- التأثيرات التركية العثمانية في الجزائر والمغرب :

ادخل الاتراك العثمانيون الى الجزائر تأثيرات حضارية وثقافية واجتماعية عديدة منها اللغة التركية العثمانية ، والمذهب الحنفي والتنظيمات الادارية والعسكرية و والعادات والتقاليد الاجتماعية والثقافية .

ورغم ان المغاربة بقيادة السعديين والوطاسيين رفضوا الدخول تحت الحكم العثماني ، والانضواء تحت لواء الدولة العثمانية فانهم اخذوا طواعية عن العثمانيين امورا كثيرة ، ادارية وتنظيمية واجتماعية وثقافية وغير ذلك ، مما ادخله هؤلاء معهم الى الجزائر . وكان تأثر المغاربة بأتراك الجزائر العثمانيين ، اقوى مايكون في النواحي الادارية والعسكرية ، واقل من ذلك فيما يتعلق باللغة والمذهب والعادات . ففي النواحي الادارية : جارى السعديون جيرانهم الاتراك العثمانيين فاحدثوا على غرارهم رتبة المفتي التي كانت من قبل موجودة ، ولكنها لم تكن من الوظائف الرسمية في الدولة الوطاسية والدول السابقة لها .

وقد بدأ هذا التقليد في عهد السلطان محمد الشيخ السعدي حيث قلد منصب الافتاء للعالم الجزائري محمد بن عبد الرحمن بن جلال المتقدم ذكره ، فهو الذي هاجر اليه في حدود ٩٥٨هـ/١٥٥١ واستوطن فاس (2) .

كما احدث السعديون على غرار الاتراك العثمانيين في الجزائر مؤسسة استشارية اسموها ((الديوان)) . ويقول الافراني عن الديوان في عهد المنصور : ((وقد اتخذ يوم الاربعاء

(1) انظر عنه ابن عسكر : دوحة الناشر ص 91 - 92
(2) نفسه : ص 90 - 91

للمشاورة ويسماه الديوان . تبتعي فيه وجـــوه الدولة واعيانها ويتطارحون فيه وجوه الرأى فيما ينوب من جلائل الامور وعظائم النوازل وهناك تشهر شكاية من لم يجد سبيلا للوصول للامـــــير .))[1]

واخذوا عن الاتراك طريقة ختم الرسائل وتوقيعها بالبد وبالطابع ، وتجديدات اخرى[2] . وفي النواحي العسكرية . عمل السعديون على تنظيم جيشهم على غرار الجيش العثماني ، لذلك اقتبسوا الكثير من الانظمة العسكرية المتبعة لدى الانكشارية لتكوين فرق نظامية من الاعلاج والاندلسيين والسودانيين والاتراك ، واتخاذ نفس الالقاب والرتب العسكرية العثمانية ، وكذلك اللباس[3] ، بل لقد كان الملوك السعديون انفسهم يتزيون بزى الاتراك وهذا ابتداء من عهد عبد الملك الذى ((حمل الناس على السيرة العجمية (التركية) وجنح اليها في سائر شؤونه لما رأى منها في بلاد الترك حيث كان بها .))[4]

ولكن تأثر المغاربة باللغة التركية العثمانية ، والمذهب الحنفي واللباس التركي يكاد يكون مقصورا على بعض المغاربة الذين احتكوا بالاتراك العثمانيين فترة طويلة فتعلموا اللغة التركيـــــة العثمانية وفي مقدمة هؤلاء يتبادر الى الذهن عبد الملك السعدي ، الذي ذكر انه كان يتقـــن عدة لغات ، وتقدمت الاشارة الى انه كان مفرطا في التأثـــــر بالاتراك ، حتى كره المغاربـــة منه ذلك .[5]

واذا استثنينا ايضا المصطلحات والالفاظ العسكرية والمتعلقة باللباس وبعض العادات والمآكل ، ومعظم تلك المصطلحات مذكور في مناهل الفشتالي ومن نقل عنه كالافراني ، فلا نكاد نجد أى اثر للغة التركية العثمانية في كتابات المغاربة المعاصرة ، مما يلاحظ انها لم تعرف الانتشار بينهم . وليس هنالك مايدل ايضا على انتشار المذهب الحنفي في المغرب ، وتحول المغاربة عن المذهب المالكي . اذ كان في الجزائر نفسها يكاد يكون مقصورا على الاتراك العثمانيين وابنائهم ، وربما بعض الاندلسيين الذين كانوا يأملون في شغل بعض الوظائـــــف ايضـــــا .

والواقع ان الاتراك العثمانيين لم يعملوا على نشر اللغة التركية العثمانية في الجزائر الخاضعة لسلطتهم[6] ، ناهيك عن المغرب الذى كان خارج نفوذهم السياسي ، كما انهـــم لم يفرضوا المذهب الحنفي في الجزائر على السكان ، ولم يعملوا ايضا على نشره في المغرب ،

---

(1) الافراني : النزهة ص ١٥٧ - ١٥٨ .
(2) انظر عن التأثيرات التركية في الادارة السعدية : محمد المنوني : ملامح من تطور المغرب العربي / في / مجلة مجمع اللغة العربية ص ٨٤٩ - ٨٥٠ .
(٣) انظر كتابهم ... المنصور : الفشتالي : مناهل الصفا ص ٢٠١ - ٢٠٢ والمنوني نفس المرجع ص ٨٥٥ - ٨٥٨ .
(٤)(٥) الافراني : النزهة ص ٥١ ، والفشتالي : المناهل ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
(٦) يقول هايدو : ان كل الاتراك الذين يأتون الى الجزائر سرعان ما يتعلمون العربية ، ولم يؤكد على ان كل الجزائريين في المدينة يعرفون التركية . انظر الطبوغرافية في المرجع السابق عدد ٨٦ ص ٩٣ .

الا انهم بحلوله في الجزائر على غرار ما كان عليه الامر في انحاء الامبراطورية العثمانيــة المذهب الرسمي للدولة ، بنوا له المساجد الجديدة ، وجعلوا المفتي الحنفي فيها مقدمــا على المفتي المالكي في الحظوة والاعتبار والرأي (1) .

ومع ذلك فقد ظل المذهب المالكي هو المذهب السائد في الجزائر ، كما هو الحــــال في المغرب ، وظلت اللغة العربية هي لغة الثقافة والانتاج الفكري في البلدين

ب - حركة الهجرة والتنقــــل :

1 - الهجرة القســرية : كانت حركة الهجرة والتنقل بين البلدين ظاهرة قائمة كما رأينا قبل سنة ١٥١٧ / ٩٢٣ هـ . ولكن استلام السعديين الحكم في المغرب خلفــا للوطاسيين وغيرهم من امراء الوحدات السياسية التي كانت قائمة في المغرب ، واستلام العثمانيين الحكم في الجزائر خلفا للزيانيين والحفصيين . وتنافس نظام الجزائر والمغرب ... قد نجمت عنه حركة هجرة من بلد الى آخر للافراد والجماعات والقبائل ، من مختلف الفئات الاجتماعية . فالمؤلف المجهول صاحب تاريخ الدولة السعدية يذكر ان محمد الشيــخ السعدي لما دخل ، الى فاس للمرة الثانية في ١٥٥٤ بعد ان قتل أبا حسون الوطاســي ، واستقر فيها ، ((.. تحكم في اهل فاس بالاذلال ، والاهانة وادى مساعده فيهم ، وقهــــر أهلها بانواع الافعال ، ونفى اكثرهم للمشرق ...)) (٢) ، وذلك انتقاما منهم لتأييدهـــم لابي حسون ، ورغبة في تصفية الحزب الوطاسي في المدينة ، لانه حزب لا يريد ... التعاون مع اعدائه الاتراك ، ورغبة في التخلص من مؤامراتهم .

ونعلم من الوثائق المعاصرة ان فلول الاسرة الوطاسية التي كانت تحكم في المغرب قــد لجأوا الى الجزائر واستقر المطاف بهم هنالك . وان شيوخ فاس ومكناس وتادلة نواحي الغرب في مملكة فاس قد هاجروا ايضا الى الجزائر (٣) ، هم ونا لد ائهم .

وتقدم في بحث العلاقات السياسية ان ثلاثة من الامراء السعديين وعددا من اتباعهـــم قد هاجروا من المغرب الى الجزائر بعد ان آل الحكــــم فيه الى اخيهم عبد الله ، ومكثوا فيها سنين عديدة ، وحصلوا من اتراكها على مراتب واقطاعات لهم ولاتباعهم (٤) . وهولاء الامراء هم عبد الملك واحمد وعبد المؤمن ابناء محمد الشيخ . وقد عاد الاولان الى المغرب بعد وفاة اخيهما ، مما يعني ان الهجرة القسرية قد تكون هجرة موقتة تزول بزوال الدافع اليها .

---

(١) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ج ١ ص ٢٥٨
(٢) ص ٢٢
(٣) م.م.ت.م : اسبانيا ج ٣ ص ٢٤٠ - ٢٤٨
(٤) مهمة دفتري : رقم ١٢ ص ٥٣٦ ورقم ١٨ ص ١ وانظر فصل العلاقات السياسية الرابع

وفي الاتجاه المعاكس نجد ايضا انه لما دخل حسن بن خير الدين الى تلمسان في ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م فر منها الامير احمد الزياني ووزيره المنصور بن ابي غانم الى المغرب مع من انضاف اليهما من امراء تلمسان ووزرائها (١). ولكن امير "دبدو" اعتقلهم واخذ اموالهم ثم سرحهم بعد ذلك (٢).

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى حصلت هجرة علماء تلمسان الجماعية الى فاس بالمغرب التي تحدث عنها ابن عسكر ، وذلك في اعقاب فتنة وقعت في تلمسان بين أولئك العلماء واتراك الجزائر العثمانيين . وقد حصلت تلك الهجرة في سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م (٣) . ومن بين علماء تلمسان الذين هاجروا في ذلك التاريخ نذكر : أبا العباس احمد بن احمد العبادي الذى وصفه ابن عسكر بالشيخ الفقيه العالم العلامه (٤) ، وأبا عبد الله محمدا بن حبة الله المعروف بالسيد شقرون (٥) ، وأبا العباس احمد بن محمد العقباني (٦) . وغيرهم .

ولما استقر امر تلمسان ونواحيها للاتراك العثمانيين في اواسط القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، هاجرت قبائل عرب "الشراقة" الذين كانوا يستوطنون منطقة تلمسان ووجدة الى المغرب فرارا من سلطة الاتراك عليهم ، ومن دفع الضرائب اليهم ، ودخلوا في خدمة الاشراف السعديين (٧) .

وتشير المراجع الى ان قبائل مديونه - ومواطنها بين وهران وتلمسان - الموالية للاشراف السعديين ارسلت تحث محمدا الشيخ على المجيء الى المنطقة ، ولما طرد الاتراك السعديين من الغرب الجزائرى في منتصف القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى واجبروهم على الانسحاب انسحبت هي الاخرى معهم الى المغرب (٨) ، خوفا بدون شك من انتقام الاتراك العثمانيين منها .

والخوف ايضا من الانتقام جعل "بوطريق" يفر الى المغرب بعد فشل ثورته على الاتراك في الاربعينات . وهناك لقي من سلاطين المغرب الاستقبال الحسن ومكث سنين عديدة قبل العودة مع حملة ابناء الشريف السعدى محمد الشيخ في منتصف القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى (٩) وفيما يشبه الهجرة العسكرية نذكر الاتراك والزواويين الذين ابقاهم صالح رايس ورمضان باشا في المغرب الذى عودتهما منه في ١٥٥٤ ، وفي ١٥٧٦ للعمل في صفوف ابي حسون ، وعبد الملك (١٠) .

---

(١) (٢) السلاوى : الاستقصا ج٤ ص١٦٣
(٣) (٤) ابن عسكر : الدوحة ص٧٨
(٥) نفسه : ص٨٧-٨٨ وابن القاضي : الجذوه : ص٢٠٧ والدره ج٢ ص٢١ وابن مريم
(٦) ابن عسكر : نفس المصدر ص٩١
(٧) م.م.ت.م : [illegible] ج٢ ص٢١ وهامش ٣ ، والافراني : النزهة ص١٧٤ والسلاوى : الاستقصا ج٩ ص٧٥
(٨) م.م.ت.م : اسبانيا ج١ ص٢٠٨-٢١ و : روف : المرجع السابق ص١٣٠ وهامش ٤
(٩) هايدو : ملوك الجزائر ص٧١
(١٠) الفشتالي : المناهل ص٣٤-٣٥ و المجهول : المرجع السابق ص[illegible] ، ص٥٣

2- الهجرة الطوعية:

والى جانب الهجرة القسرية ، كانت تجرى هجرة اخرى ، ولكنها طوعية ، من المغرب الى الجزائر ، والعكس ، شملت ايضا الافراد والجماعات من فئات مختلفة كفئة الطلبة والعلماء والعمال والتجار والجنود . واذا كان من اهم الدوافع الرئيسية الى الهجرة القسرية هو شعور المهاجر في موطنه الاصلي بالخطر على نفسه او ماله او عرضه او دينه او عدم الارتياح الى السلطة الحاكمة في البلد ، او نفي هذه السلطة نفسها للمهاجر، فان من اهم الدوافع الى الهجرة الطوعية :

1- الهجرة لاستكمال الدراسة وهذا حال كثير من طلبة كلا البلدين . وممن هاجر من الطلبة المغاربة الى الجزائر لهذا الغرض نذكر :

- محمدا بن احمد الهبطي الفاسي الذى رحل الى تلمسان . واخذ فيها عن كبار مشايخها امثال : ابي عبد الله محمد بن موسى الوجديجي مفتي تلمسان ، وابي عثمان بن سعيد وغيرهما . ثم رحل الى قسنطينة واخذ فيها عن عالمها الكبير بن ابي حفص عمر الانصاري المعروف بالوزان ، وابي عبد الله محمد الجزار وقبل ان يعود الى وطنه علما من اعلام علمائه ويتبوأ فيه الامامة والخطابة والفتيا بمدينة فاس، رحل ايضا الى تونس ومصر والبقاع المقدسة (1) .

- وسعيد الماغوسي ، ومحمدا بن سليمان الروداني ومحمدا بن مزيان التواتي وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم . في الفصل الآتي بشيء من التفصيل .

ومن الطلبة الجزائريين الذين هاجروا الى المغرب في الفترة موضوع الدرس لغرض استكمال الدراسة ايضا نذكر :

- سعيدا المقرى (بن احمد) الذى انتقل الى فاس في النصف الاول من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى واخذ هناك عن عبد الواحد الونشريسي ، وعليا بن هارون المطغرى، وكلاهما من اصل جزائرى ، كما اخذ ايضا عن ابي محمد عبد الوهاب الزقاق (2) ، وغيرهم ، ثم عاد الى تلمسان وتولى فيها التدريس والفتوى والخطابة بالجامع الكبير ، فترة طويلة لا تقل عن خمس واربعين سنة (3) .

- واحمد المقرى ، ومحمدا المقرى التلمساني وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في الفصل الآتي بشيء من التفصيل .

- سعيدا قدورة الجزائرى الدار وربما المولد ايضا التونسي الاصل الذى قصد المغرب للدراسة وتهنئة استاذه ابن علي بمناسبة استيلائه على سجلماسة ، ثم مالبث ان عاد الى مدينة الجزائر حيث تقلد وظائف علمية ودينية عديدة كالفتوى والخطابة والامامة والتدريس وغيرها (4) .

---

(1) ابن عسكر : الدوحة ص 9 - 4 . ابن القاضي : الجذوة ص 152 والدرة ج2 ص 201 - 203
(2) ابن عسكر : نفس المصدر السابق ص 43
(3) ابن مريم : البستان ص 259 الحفناوى : تعريف الخلف ج2 ص 155
(4) الحفناوى : المرجع السابق ج1 ص 62 سعد الله : المرجع السابق ج1 ص 364 - 377

٢- الهجرة للعمل : وهذا حال بعض العمال في المناطق الحدودية على الخصوص الذين كانوا ينتقلون للعمل في البلدين في الاعمال الزراعية او الصناعية كبني بوسي على سبيل المثال الذين كانوا ينتقلون الى فاس للعمل في مختلف الاعمال شيوخا مهما كانت وضيعة (١) . وحال بعض الاتراك وبعض الجزائريين الزواويين الذين كانوا ينتقلون من الجزائر الى المغرب للعمل كجنود في صفوف السعديين . وحال كثير من علماء البلدين .

ومن علماء الجزائر الذين انتقلوا الى المغرب نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

- محمدا بن عبد الرحمن بن جلال المتقدم ذكره . وهو الذي قلده كما اشرنا السلطان السعدي محمد الشيخ السعدي منصب الافتاء في فاس ، وجمع اليه الخطابة ، والامامة ، والتدريس في جامع القرويين وانتفع الناس بعلمه الغزير بها وفي تارودانت التي مكث فيها سنة مع محمد الشيخ المذكور (١) .

- واحمد بن محمد العبادي التلمساني الذي تولى التدريس في القرويين مع توافر العلماء ، وفي عهد الوطاسيين ، ولقي منافسة شديدة من نظرائه (٢) .

ومن علماء المغرب الذين انتقلوا الى الجزائر للغرض نفسه نذكر ايضا على سبيل المثال لا الحصر :

- محمدا السوسي الفاسي : الذي انتقل الى الجزائر في وقت غير معلوم، وتولى التدريس في مدينة الجزائر (٤) ، وفيها توفي سنة ١٠٢٣ هـ .

- عيسى ابو سعيد الجنتاتي الذي رحل الى تلمسان وتصدر للتدريس فيها (٥) .

- احمد الفاسي الذي استوطن قسنطينة بالجزائر وكان شاعرا يتكسب بشعره (٦) .

- الغربي الفاسي الذي كان يدرس في زواوة (٧) .

- علي بن عبد الواحد الانصاري السجلماسي الذي استقر في مدينة الجزائر وتصدر فيها للتدريس وتخرج على يده الكثيرون وبها كانت وفاته ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ (٨) .

وقد طاب لبعض علماء الجزائر والمغرب المقام في مهجرهم فاستقروا فيه بصفة نهائية . ونال بعضهم وجاهة كبيرة لدى حكام موطنهم الجديد . كما سنرى بشيء من التفصيل .

---

(١) مارمول : المرجع السابق ج٢ ص ٢٦
(٢) انظر عن ابن جلال ، ابن عسكر : المصدر السابق ص ٩٠-٩١ وابن القاضي : الجذوة ص ٢٠٦
(٣) ابن عسكر : نفس المصدر السابق ص ٨٨
(٤) سعد الله : المرجع السابق ج١ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ والمنوني : ملامح في المرجع السابق ص ٨٧٤
(٥) سعد الله : المرجع السابق ج١ ص ٢٩٧
(٦) نفسه : ص ٤٤٨ - ٤٤٩
(٧) نفسه : ص ٣٢٢
(٨) نفسه : ص ٣٧٧ - ٣٨٢ والعياشي : الرحلة ج٢ ص ٣٧٢ الحفناوي : تعريف الخلف ج١ ص ٩٦

... ثم طرأت ظروف مناسبة ... الهجرة لجمع الشمل ، وهذا حال الذين ابتلوا بالهجرة القسرية ، وحال كثير من الاندلسيين الذين تشتت ... تهم كالامراء السعديين السابق ذكره واتباعهم . ... شملهم بين الجزائر والمغرب فكانوا ينتقلون من بلد الى آخر لجمع شملهم (1) وحال بعض علماء تلمسان الذين هاجروا في اعقاب فتنة سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م كالمبادي التلمساني (٢) .

ب - التنقل لدوافع اخرى دينية واجتماعية ودبلوماسية .

أ - كان الحج دافعا كبيرا لقيام المغاربة بالرحلة الى البقاع المقدسة لاداء هذا الركن ، القديم المتجدد واهمية هذا العامل لا تخفى بالنسبة للعلاقات الاجتماعية والثقافية بين ... مروا ببلاد الجزائر . ... من البلدين ان يتيح فرص اللقاء بين الجزائريين والمغاربة بما في ذلك مثقفي البلدين ، والاحتكاك بينهم وتلاقح افكارهم ، والتداول في المسائل العلمية المطروحة على العلماء وتبادل الكتب وتداولها وانشاء الصداقات بينهم وقد كان ركب الحج المغربي ينطلق سنويا الى الحج ، فيمر ببلاد الجزائر في الذهاب والاياب مما كان يتيح فرص اللقاء بشكل منتظم ومستمر . ومن المغاربة الذين زاروا بلاد الجزائر بمناسبة الحج وكانت لهم اتصالات مع مثقفي الجزائر في المدن التي مروا بها وربطوا علاقات وطيدة معهم ابو سالم العياشي صاحب رحلة ماء الموائد ، التي خلد فيها مشاهداته ، واتصالاته في الجزائر وسينما مرعبر الجزائر بمناسبة حجته الاولى في سنة ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م وحجته الثانية في سنة ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤م ، ربط علاقات وطيدة مع عبد الكريم الفكون (الحفيد) وابنه محمد ، وكذلك مع ابي مهدي عيسى الثعالبي وغيرهم ، وعن هذا الاخير درس كثيرا من الكتب وحصل على الاجازة منه . وعن الفكون الحفيد المذكور أخذ الطريقة الزروقية في التصوف (٣) .

والى جانب الحج كانت زيارة كبار مشايخ الصوفية والمرابطين واضرحتهم داعيا للتنقل من بلد الى آخر . وفي دوحة الناشر لابن عسكر اشارات كثيرة للاضرحة التي كان يقصدها الناس من مشارق الارض ومغاربها كضريح سيدي ابي بكر السريفي بشمال المغرب على سبيل المثال (٤) .

وقد كانت زيارة الاضرحة وكبار مشايخ الصوفية والمرابطين للتبرك ، ظاهرة ملحوظة ، ولا تقتصر على عامة الناس بل تشمل ايضا الفئة المثقفة منهم . ومن المزارات الكبرى في الجزائر التي كان يأتيها الجزائريون والمغاربة بكثرة ضريح سيدي ابي مدين شعيب في تلمسان (٥) ، وضريح سيدي خالد (٦) ، بنواحي بسكرة .

---

(١) محمد داود : تاريخ تطوان المجلد الاول ص 36
(٢) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٧
(٣) انظر عن العياشي واتصالاته في الجزائر ، رحلته خاصة الصفحات ٢٢ ، ٤٩ من الجزء الاول ... ، ٢٨٢ ، ٣٩٠-٣٩١ من الجزء الثاني
(٤) ابن عسكر المصدر السابق ص ٣٠
(٥) ابن مريم : البستان ص ١٠٨-١١٤
(٦) انظر عنه العياشي : في المرجع السابق .

٥- وهنـــــاك أخيــــرا ـــــــن

كــان يذهب من مثقفي الجزائر الى المغرب ، ومن يأتي من مثقفي المغرب الى الجزائـر ولكـن لاداء مهمة معينة كالقيام بسفارة اما لحكومة الجزائر او الدولة العثمانية ، او للدولة المغربيـــة .

وفي هذا الاطار استقبلت الجزائر عددا من علماء المغرب الرسل الموفدين اما الـى سلاطين بني زيان وبني ابي حفـص قبل سقوط نفوذهم وانهيار سلطتهم ، او الى حكومـة الجزائر التركية العثمانية او الى السلطان العثماني ولكنهم توقفوا في الجزائر . ومن ابرز هؤلاء السفراء :

- الحسن بن محمد الوزان الزياني المسمي بليون الافريقي لدى الغربيين ، صاحب كتاب وصف افريقيا الشهير ، اوفده السلطان الوطاسي الى ملوك المسلمين في شمال افريقيا والمشـرق بعد ان اوفده من قبل الى ملوك المسلمين في بلاد السودان، وقد وفد على تلمسان في سنة ١٥١٥ ، وتقابل مع السلطان الزياني ، واقام عنده فترة كما تقابل مع علية القوم فيها . واستأنف طريقة نحو تونس ومر بمدينة الجزائر قبل دخول الاتراك اليها ، وتقابل عروج في بجاية حين كان محاصرا لها ، وشهد فشل محاولة تحريرها . ودون كل مشاهداته في كتابه المذكور . وقد امتحن الوزان بالاسـر في طريق عودته بعد الحج وزيارة استانبول، اذ وقع في قبضة قراصنة صقلية . وتنصـر بعد ذلك ، ولا تزال نهايته غامضة [1] .

- ابو الحسن علي بن محمد التمجـروتي الذى زار الجزائر في ٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م مع ابـي عبد الله محمد الفشتالي ، الفقيـه ، الكاتـب ، الشـاعر ، شريكه في السـفارة الـى استانبول موفدين من قبل السلطان احمد المنصور الى السلطان العثمانـي مراد الثالث . وقد نقل ابو الاخير مشاهداته واتصالاته بعلمائها وزياراته لمعالمها فـي الجزائر وغيرها في كتاب سماه ((النفحة المسكية في السفارة التركية)) [2] .

- وزار الجزائر ايضا في اطار السفارة كل من ابي العباس احمد بن يحي الهوزالي وابي العباس احمد بن ودة في سنة ١٥٨١ [3] ، وغيرهما . ولكنهما لم يخلد ا كما فيهما مشاهداتهما فيهما في كتـاب .

اما مثقفو الجزائر الذين ذهبوا الى المغرب في اطار السفارة فابرزهم على الاطلاق : محمد بن علي الخروبي نزيل الجزائر ، وأحد علمائها البارزين في القرن العاشر الهجـري ، السادس عشر الميلادى ، ومشايخ الصوفية الاعلام فيها صاحب المؤلفات العديدة وصاحب الجماعة الكبيرة لدى معاصريه الذين بعثوه الى المغرب مرتين سفيرا الى السلطان السعدى

---

(١) شوقي عطاالله الجمل : اضواء على حياة الحسن بن محمد الوزان في / المناهل / عدد ٢ المغرب ١٩٧٥ ص ٢٢٧ - ٢٤٨ ودائرة المعارف الاسلامية الطبعة القديمة ص ٢٢

(٢) انظر عنه محمد داود تاريخ تطوان المجلد الاول ص ١٥٩ - ١٦٢ وانظر عنه ايضا الافراني : صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر فاس 1309 هـ ص 196 .

(٣) الفشتالي : المناهل ص ٦٢

محمد الشيخ ، لاقامة العلاقات ورسم الحدود بين البلدين شهدعوته للدخول تحت لواء الدولة العثمانية ، وذلك في ٩٥٩هـ/١٥٥٢ ثم ٩٦١هـ/١٥٥٤م وبهذه المناسبة التقى بكثير من مثقفي المغرب وتناقش وتناظر معهم في قضايا فقهية وكلامية وصوفية ، واشد عنه الكثيرون منهم أبو عبد الله الزروالي . وابو الحسن علي الاغصاوي المعروف بالبقال ، وغيرهما .

واستكمالا للمناقشة التي بدأها مع علماء فاس ومراكش بعث الخروبي برسالتين احداهما الى خواص فاس سماها : ((رسالة ذي الافلاس الى خواص مدينة فاس)) تعرض فيها الى آداب القواعد الخمس للاسلام ، واثير افكارا وآراء ظلت مدار النقاش حوالي قرن من الزمان، والاخرى الى كبير مرابطي مراكش ابي عمر القسطلي المراكشي ينكر عليه مسائل اثيرة (١) .

ـ وفي الوقت الذي نطالع فيه معلومات اخرى كثيرة عن الخروبي السفير الذي اثار ضجة كبيرة في الاوساط المثقفة بالمغرب لا تطالعنا معلومات كثيرة عن ابي الطيب العسكري الذي توجه الى المغرب سفيرا من قبل السلطان العثماني لتهنئة المنصور بالانتصار في معركة وادي المخازن ، ٩٨٦هـ/١٥٧٨م ، والجلوس على الملك ، وقد كانت سفارته في صيف ١٥٧٩ .

وحسب الفشتالي فان أبا الطيب العسكري كان مفتي الجزائر . ووصفه بالشيخ العالم والصدر الكبير ، والخطيب الشهير . وذكر ان السلطان العثماني " اختاره للشهرة وكانته في العلم والرياسة ليحسن أداء الرسالة وتقرير المودة والاعراب عما في الضمائر ، وليدل بارساله على علو همته وشرف مقدار المرسل اليه " (٢) .

ـ أما السفيران عبد الله المنزي، ومحمد بن عبد الحضرمي المزغناني اللذان توجها الى سجلماسة عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م، موفدين من قبل حكام الجزائر ، الباشا ، والديوان مع اثنين آخرين من اركان الديوان الاتراك ، لمفاوضة محمد بن الشريف العلوي في الصلح بينه وبين حكومة الجزائر ، فلا نعرف زيادة عما تقدم ذكره سوى انهما فقيهان من فقهاء الجزائر . وصف المذكور اولا منهما بالفقيه الوجيه والثاني ذكره بالفقيه الابر السيد الحاج (٣) .

وقد بعث كل من السلاطين السعديين وحكام الجزائر سفراء آخرين الى الجانب الآخر ، وحسبنا ان فيمن تقدم ذكرهم ما يفي بالغرض المقصود .

ويستخلص من تناول الخروبي ، في المغرب ، واتصالات الوزان ، والتمبروتي في الجزائر ان السفارات ، ولاسيما حين يقوم بها مثقفون بارزون لها اهمية كبيرة في مجال العلاقات الثقافية ، حيث تتيح فرص الالتقاء ، والاحتكاك بين مثقفي البلدين ، وتلاقح افكارهم ، واخذ بعضهم عن بعض ، وتوطد العلاقات بينهم ، مما يعود بالنفع على الحياة الثقافية والاجتماعية ايضا في البلدين .

---

(١) ابن عسكر : الدوحة ص ٨ ، ابن القاضي الجذوة ص ٢٠٤ الافراني : النزهة ص ٤١-٤٢ كنون : النبوغ المغربي في الادب العربي ج ٢ ص ٢٤
(٢) الفشتالي : المناهل ص ٥٠
(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٧ ص ٢٥

ومهما كانت الدوافع الى الهجرة ، والتنقل من الجزائر الى المغرب ، او في الاتجاه المقابل فانه اذا استثنينا ما كانت تتسبب فيه الهجرة القسرية بصفة خاصة من تقسيم شمل العائلات والقبائل ، وماكانت تساهم فيه من توتر العلاقات السياسية بين البلدين بسبب ايواء كل طرف مناوئي الطرف الآخر ، فقد كانت انعكاساتها على العلاقات الاجتماعية والثقافية بصفة عامة ايجابية اذ كانت تساهم في توطيد اواصر الاخوة بين الافراد والفئات الاجتماعية في المجتمعين الجزائري والمغربي ، بما كان ينشأ بين افرادهما وجماعاتهما من علاقات ثقافية واجتماعية كالمصاهرات وغيرها كما كانت تساهم في تحقيق مزيد من التجانس في مختلف الجوانب : في العادات والتقاليد ، وفي الافكار والآراء بين المجتمعين . وسنرى في الفصل الآتي ان المهاجرين الجزائريين والمغاربة كان لهم نشاطهم الملحوظ في ميدان العلم .

ج ـ موقف حكام البلدين من الهجرة والمهاجرين وأثره على العلاقات الاجتماعية والثقافية :

لكن ما يجعل حركة الهجرة والتنقل بين الجزائر والمغرب للافراد والجماعات من مختلف الفئات ، ولمختلف الاغراض قوية هو أن حكام البلدين لم يضعوا قيودا في وجهها . فكان التنقل حرا من بلد الى آخر ، بل ان لحكام البلدين اثرا كبيرا في تنشيطها عن طريق ترحيبهم بالمهاجرين وخاصة بالفئة المثقفة وعلية القوم من امراء والقادة والحكام ، بل واغراء بعضهم على الهناء بالمال والمناصب والاقطاعات .

أ ـ موقف حكام الجزائر الاتراك العثمانيين :

ـ موقفهم من العلم :

لم يكن حكام الجزائر الاتراك العثمانيون في مجموعهم من أهل العلم ولا اصحاب مجالس علمية بل من رجال الحرب والسياسة ، واكثرهم كانوا لا يفقهون كثيرا في العلوم الدينية ، وقد لا يعرفون شيئا في علوم اللغة العربية) وهي العلوم التي كانت لها السيادة في ذلك العصر ، وهذا خلاف لما كان عليه الامراء الزيانيون والحفصيون ، ولكن كثيرين من الحكام الاتراك الذين بنوا المساجد والزوايا وأوقفوا عليها ارقافا سخية للمنافقين عليها ومن يشتغل فيها ، ولم تكن تلك الزوايا والمساجد مجرد اماكن للعبادة ، بل كانت ايضا اماكن التدريس ، بحيث يمكن القول انهم بفعلوا تهم الخيرية والدينية ، قد شجعوا التعليم وان لم يكن من غرضهم الاصلي نشر العلم البحت في تلك الزوايا والمساجد التي أسسوها) وإنما خدمة الدين ، والتقرب من الله وربما كانوا يودون ايضا ان يحصلوا من خلالها على الشهرة ، او الحظوة لدى العلماء

موقفهم من المهاجرين اليهم من العلماء : وقد كان اغلب الحكام الاتراك العثمانيين ان لم يكونوا كلهم يقدرون العلماء ويجلونهم ويرحبون بالوافدين منهم واليهم سواء كانوا من المغرب او المشرق . وقد يكون ذلك ليس حبا خالصا في العلم والعلماء وانما لاغراض اخرى مقصودة كاستقاء المعلومات الموثوقة عن المغرب منهم او عن حكامه ، وتوطيد سلطتهم بواسطتهم ، او بمساعدتهم ، إذ كان للعلماء والمرابطين في هذه المرحلة تأثير كبير على الرأي العام، أو على عامة الناس، وتوجيههم

ا الى جانب السلطة الحاكمة او ضدها ، اوغير ذلك من الاغراض .

ولا أدل على ترحيبهم وحسن استقبال الوافدين عليهم ، من ان كثيرين من العلماء
م الذين وفدوا الى الجزائر العاصمة وبمالكها من المغرب وتونس ، وطرابلس ، وحتى من
مشرق ، وآثروا المقام في كنفهم لما وجدوه من تقدير واحترام لديهم . وقد حصل بعضهم على
كانة مرموقة كمحمد بن علي الخروبي الطرابلسي الذي وفد على الجزائر طالبا للعلم ، ثم
ست وطنها . فقد اختاره حكام الجزائر سفيرا لهم اكثر من مرة الى المغرب . وكان ذا وجاهة
كبيــرة لديهــم .

اما من المغاربة نتشيــر الى ان عليا بن عبد الواحد السجلماســي المتقــدم
ذكره قد كان يتمتع بوجاهة وحظوة كبيرتين لدى الباشا يوسف(1) . والى ان مغاربة آخريــن
محمد الفاسي وغيره قد زاولوا التدريس في الجزائر ، او في قسنطينة في تلمسان من قبل حكام
الجزائر .

ولكن الاتراك العثمانيين لم يقلدوا احدا من المغاربة فيما نعلم — خططا اخرى كخطة
القضاء او الافتاء او الخطابة او الامامة في الجزائر العاصمة او في غيرها من الحواضر الكبرى
الجزائرية في حين قلد حكام المغرب الكثيرين من علماء الجزائر المهاجرين الى المغرب، مختلف
الخطط .

وقد يكون ذلك من الطبيعي لاختلاف مذهبهم الديني عن المذهب الحنفي ، مذهب
الدولة الرسمي . ولكن الاتراك من جهة اخرى لم يمنعوا تنقل علماء المغرب وطلبته في الجزائر
من مركز الى آخر كما لم يمنعوا من يرغب من الجزائريين في الهجرة الى المغرب من أن يفعــل
ذلك ولم يطلقوا حرية التنقل فقط وانما حرية التفكير والرأي أيضــا . ولم يضطهــدوا
اي عالم او يسجنوه او يقتلوه بسبب آرائه الفكرية او المذهبية كما فعل عبد الله الغالب باللــه
السعدي وابنه محمد . ان اضطهد الاول اتباع احمد بن يوسف الملياني الجزائري في المغرب
بدعوى الزندقة والخروج عن جادة الصواب ، والتطرف في اعتقاداتهم في الشيخ المذكور .
وامر الثاني بقتل ابي عبد الله محمد الاندلسي، الذي كثر اتباعه في المغرب وسموا بالمحمديين
في مقابل المالكيين . ونحا نحو المذهب الظاهري في فهم الامور الدينية ، وقامت بسبب ذلك
فتنة كبيرة في المغرب .

ولعل الشرط الوحيد الذي كان الحكام الاتراك العثمانيون حريصين على أن يحترمه
كل الوافدين الى الجزائر من مثقفي المغرب او غيرهم، وشأنهم في ذلك شأن معظم الساســة ،
هو عدم التدخل في الشؤون السياسية على نحو يناوئ حكمهم او يهدده بأي شكل من الاشكال ،
سواء بالدعوة الى السلطان المغربي او محاولة اثارة الرأي العام في الجزائر على الحكم القائــم
فيها ، او مساعدة المعارضين للاتراك .

(1) انظر العياشي : ماء الموائد ج 2 ص 12

فاذا حدث من احدهم ان تجاوز هذا القيد، او لم يتقيد به، لم يتورع الحكام الا تراك عن تسليط العقوبات الشديدة عليه ، التي قد تصل الى حد القتل او السجن ، او النفي والاضطهاد . كما حصل للعالم المغربي محمد بن مزيان التواتي على سبيل المثال، الذي امتحنه الا تراك العثمانيون بسبب ابزائه للمعارضين لهم (1) ، فوجد نفسه مضطرا للفرار من قسنطينة حيث كان يدرس ، ونال شهرة كبيرة ، ولجأ الى باجة في القطر التونسي ، وهناك توفي بالطاعون في 1031هـ/1621م .

والواقع ان القيد المذكور لم يكن خاصا بالوافدين الى الجزائر من المغرب بالذات بل كان مفروضا ايضا على علماء الجزائر ومثقفيها . فالعلاقات بين هؤلاء وحكام الجزائر كانت تسير عادة ما تدخل احدهم في الشؤون السياسية في الجزائر اخرى وعلى ذلك نحو مضاد للحكم . وبما ان سلوك الا تراك العثمانيين في الجزائر تجاه رعاياهم الجزائريين وطريقة حكمهم لهم لم تكن دائما محل الرضا والاستحسان لدى هؤلاء الاهليين فقد كان بعض المرابطين او العلماء يتصادمون بين فترة واخرى ضد الحكم ، ويتزعمون الثورات لقلبه ، كما فعل احمد بن القاضي الزواوي في عهد خير الدين (2) ، والشيخ بوطريق الطيباني في عهد خليفة حسن آغا (3) ، ويحيى الاوراسي في أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وغيرهم

- موقفهم من المهاجرين من غير العلماء :

وكما رحب حكام الجزائر بالعلماء المغاربة ، فقد رحبوا ايضا بالوافدين اليهم من غير العلماء ، وفي طليعتهم علية القوم من المغاربة : امثال عديد من الامراء والقادة الوطاسيين الذين لجأوا الى الجزائر في اعقاب قضاء محمد الشيخ على الدولة الوطاسية في المرة الاولى 1549م/956هـ ، ولا سيما في الثانية 1554م/961هـ في عهد صالح رايس الذي رحب بهم واد ناهم منه وزوج ابنته لابي بكر بن السلطان احمد الوطاسي (5) ، وامثال الامراء السعديين الذين لجأوا الى الجزائر في عهد حسن بن خير الدين، فرحب بهم وزوج احدهم ، وهو عبد المومن من ابنته ، واسند له تلمسان لحكمها ، واقطعه اقطاعات سخية ، انتقلت بعد وفاته الى اخيه عبد الملك الذي كان هو الآخر يتمتع بحظوة وتقدير لدى حكام الجزائر (6) . كما اقطع المهاجرون من الامراء السعديين اقطاعات اخرى . (7)

وخلاصة القول فان موقف حكام الجزائر الا تراك العثمانيين لم يكن معارضا لحركة هجرة المغاربة الى الجزائر ، او تنظيم فيها ، كما انهم لم يكونوا معارضين لحركة هجرة الجزائريين من

---

(1) عبد الكريم الفكون : منشور الهداية ص 32
(2) المجهول : غزوات عروج وخير الدين ص ص 61-63
(3) مايدو : ملوك الجزائر ص 7-21
(4) الفكون : منشور الهداية ص 27 من المخطوط وسعد الله : المرجع السابق ج1 ص 215-216
(5) انظر فصل العلاقات السياسية ، الرابع
(6)(7) انظر فصل العلاقات الاقتصادية ، الرابع

من مختلف الفئات الى المغرب . يشهد على ذلك وجود جزائريين كثيرين في المغرب ، ووجود كثيرين من المغاربة من مختلف الفئات في الجزائر . وموقف حكام الجزائر هذا موقف ايجابي الاثر على العلاقات الاجتماعية والثقافية ، حيث كان يسمح باستمرار التبادل الثقافي ، وانتقال المؤثرات المختلفة من بلد الى آخر .

٢- موقف حكام المغرب تجاه الوافدين اليهم : - موقفهم من العلماء

يتميز اغلب حكام المغرب في الفترة موضوع الدرس سواء كانوا علاسيين ، ام سعديين أم علويين ، بانهم كانوا يحترمون العلماء بل ويؤثرون مجالستهم ، واصطحابهم معهم واستشارتهم ، واتخاذ اعوانهم منهم . ولا عجب فـــــقد كانوا هم انفسهم مـــن العلماء او الآخذين من العلم بنصيب وافر ، فاذا استعرضنا بعض السلاطين السعديين علــى سبيل المثال وجدنا ان :

- محمدا الشيخ السعدي ((بلغ في العلم درجة الرسوخ حتى كان يخالف القضاة في الاحكام، ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه (1))) ويذكر انه كان حافظا للقرآن وله حواش على تفسيره ، وانه كان حافظا لديوان المتنبي ، أديبا متفننا (2) .

اما ابنه عبد الله فكان هو ايضا حافظا للقرآن العظيم وآخذا . بطرف واسع من العلم (3) . وكان محمد بن عبد الله المتقدم ذكره فقيها مشاركا في الفنون اديبا مجيدا ، قوى العارضة نظمـــا ونثـــــرا (4) .

وأما احمد المنصور فقد كان " خبيرا بالعلوم متضلعا بالفنون من شعر وتاريخ وسير، ولغة، وبيان ، ومنطق وتفسير وحديث ، وحساب ، وفرائض ، وهندسة ، وجبر ومقابلة (5) . ولـــــه عدة تآليف منها كتاب في السياسة، وحاشية على تفسير القرآن . وحاصلا على عدة اجازات مـــن علماء المغرب والمشرق منها اجازتان من كبار علماء مصر احداهما من الشيخ الامام العالم محمد البكري السعديقي، والاخرى من بدر الدين القـــرافي (6) ، قاضي قضاة المالكية بمصـــــر .

وكان ابنه زيدان فقيها مشاركا متضلعا في العلوم وله تفسير على القرآن العظيم (7) .

- مواقف حكام المغرب تجاه المثقفين الجزائريين الوافدين اليهم: سار الوطاسيون والسعديون على تقليد من سبقهم من حكام المغرب ، من ناحية تقريبهـــم لهـــم بل وتوددهم بمن يفد اليهـــم منهم ، بل وايثارهم على علماء المغرب باسناد ارقى الوظائف العلمية والدينية اليهم مــــع

(1) (3) الافراني : النزهة ص ٢٣ ، ٢٤
(2) نفسه : ص ٤٥
(4) نفسه : ص ٥٧
(5) نفسه : ص ١٢٩ والفشتالي : المناهل ص ٢٦٥
(6) انظر نصهما في الفشتالي : المناهل ص ٢٦٩ - ٢٩٤
(7) الافراني : النزهة ص ٢٤٧

كثرة العلماء في المغرب ، الامر الذى لم يكن ليرضي دائما هؤلاء او بعضهم على الاقل ، لما يثيره هذا في نفوسهم من غيرة وحسد وتنافس على المناصب . وكان هؤلاء لا يخفون احيانا استياءهم ، من الوضع . وفي الترجمة التي خصصها ابن عسكر للعالم الجزائرى التلمساني احمد بن محمد العبادى التلمساني الذى هاجر الى فاس في عهد الناصر بن الشيخ الوطاسي ما يدل من جهة على ترحيب هذا الاخير به وايثاره له على علماء فاس وما يدل من جهة اخرى على عدم الرضى الذى قابل به هؤلاء الاخيرين منافسة عالم تلمسان لهم ، ومحاباة السلطة الحاكمة له اذ يذكر بهذا الصدد ان الناصر الوطاسي قدم العالم التلمساني الوافد المذكور على فقهاء فاس مع توافر العلماء ويضيف قائلا ((ولقي من منافسة نظرائه من فقهاء فاس في ذلك الوقت امورا لو ذكرها لتقدمه عليهم وتوجه ارباب الدولة الى جهته ..)) (1) .

واذا انتقلنا الى عهد الشيخ السعدى وجدنا انه رحب بوفادة محمد بن عبد الرحمن ابن جلال التلمساني المغفي صدرا بايامه فقلده الفتوى بمدينة فاس وتولى التدريس والخطابة والامامة في جامع الاندلس ثم القرويين (2) .

اما عبد الله السعدى فانه قد رحب بنداء علماء تلمسان الذين استغاثوا به في اعقاب الفتنه التي وقعت بينهم وبين الترك التي اشير اليها سابقا ، في سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م ونقلهم الى فاس واحتفى بهم . ووصل كلا منهم على قدر حاله ، وامر لاحمد بن احمد العبادى بالف مثقال ذهبا وكساء واقامة جليلة وقال لاعوانه لا تسوده باحد من الفقهاء كان همته كبيرة (3) .

وقلد عبد الله محمدا بن هبة الله المعروف بشقرون الفتوى ورئاسة العلم بمراكش وسائر اقطار المغرب ، واحتفل الفقهاء لحضوره (4) .

واما عبد الملك فأبى الا ان يصطحب معه في عودته الى المغرب في ٩٨٤ هـ/١٥٧٦م العالم الجزائرى يحي بن سليمان الزواوى (5) .

ونأتي الآن الى موقف سلطان العلماء او عالم السلاطين المسعد بين احمد المنصور فنجده يؤثر العلماء الجزائريين الذين استوطنوا المغرب قبل ان يتولى الملك كمحمد بن الوقاد ، والذين وفدوا عليه وهو على كرسي الملك كمحمد الحرى التلمساني واحمد المقرى ومحمد بن لتارودانت، رأس العين .

فكان لابن الوقاد الذى تولى الفتوى والخطابة والامامة في الجامع الكبير منزلة رفيعة ووجاهة كبيرة لديه حتى انه كان يتاحفه بالهدايا والطرف الى منزله ، واذا ما حضر الى مراكش كان يؤثره بالمؤاكلة معه على مائدته (6) .

---

(1) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٨
(2) نفسه : ص ٩٠ - ٩١
(3) نفسه : ص ٨٧
(4) نفسه : ص ٨٦
(5) ابن القاضي : درة الحجال ج ٣ ص ٣٤
(6) الفشتالي : المناهل ص ٢٢٥

واسند الى محمد المرى الفتوى والتدريس بمراكش (١) .

واستقبل المنصور احمد المقرى في بلاطه، وهو لا يزال طالب علم في مراكش (١٠٠١ هـ) (٢) . ولما اتم دراسته وعاد الى المغرب المرة الثانية كان المنصور قد توفي ، فولي الفتوى في فاس والخطابة بجامع القرويين في عهد حفيده عبد الله بن محمد الشيخ (٣) .

ولا شك ان محمدا بن رأس العين الاندلسي الاصل الجزائرى الدار، الذى وفد على المنصور في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادى، وخصه ببعض قصائده المدحية (٤) قد نال الحظوة اللائقة به ، واصاب من سخاء المنصور ما كان يخص به الوافدين اليه من الادباء .

ولم يشذ اواخر السلاطين العلويين من اوائل السلاطين السعديين في الترحيب بعلماء الجزائر وادبائها، الذين كانوا يفدون اليهم ، وانزالهم المنازل الرفيعة واكرامهم بسخاء كبير .

فهذا محمد بن الشريف يرحب بالشاعر الجزائرى التلمساني ابي عثمان سعيد الذى وفد اليه وخصه بقصائد مدحية من الشعر الموزون والملحون، واعطاه مكافأة عليها نحو خمسين وعشرين رطلا من خالص الذهب (٥) .

اما اخوه مولاى اسماعيل، فرحب بوفادة الفقيه والاديب الجزائرى محمد بن عبد الكريم الجزائرى ، واكرمه واجلسه بجانبه وغمره بكرمه، فاستوطن فاس الى ان توفي بها في سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م (٦) . وكذلك شأنه مع عالم جزائرى آخر وفد اليه من قسنطينة ، وهو محمد بن احمد (ابن الكماد) الذى استوطن فاس بصفة دائمة ونهائية (٧) .

ومن الشواهد المتقدمة يتضح لنا ان حكام المغرب، المحبين اهلا للعلم والعلماء ، كانوا لا يمانعون فقط في دخول الطلبة والعلماء الجزائريين الى المغرب بل كانوا يرحبون بهم ويقدمونهم على الطلبة والعلماء المغاربة الامر الذى كان له اثره بدون شك على استمرار حركة المبادلات الثقافية بين الجزائر والمغرب ، وميلها لصالح البلد الاخير ، حيث ان الكثيرين من المهاجرين الجزائريين استحسنوا استيطان المغرب بصفة نهائية ودائمة في كنف حكام المغرب .

ولا يخفى ان بقاء الكثيرين منهم في المغرب كان يساعد على تنشيط الحياة الثقافية فيه ، ويحرم في نفس الوقت الجزائر من جهود الكثيرين من ابنائها، ومساهمتهم في حياتها الثقافية ، مما جعلها تبدو في هذه المرحلة اقل حيوية، ونشاطا عما هو الحال في المغرب .

---

(١) المقرى : روضة الآس ص ٣٠٧

(٢)(٣) الحفناوى : تعريف الخلف جـ١ ص ٥٤ – ٥٥

(٤) ابن القاضي : درة الحجال جـ٢ ص ٢٣٦ ، الاستقصاء جـ٧ ص ١٦٢

(٥) الافراني : النزهة ص ٣٠٢ ، السلاوى : الاستقصاء

(٦) الحفناوى : المرجع السابق جـ٢ ص ٤٢٠ – ٤٢١

(٧) نفسه : جـ٢ ص ٣٤٤ – ٣٤٧

ولا أغال ان ترحيب حكام المغرب بالعلماء والطلبة الجزائريين الذين كانوا يفدون
يهم ، بل وايثارهم على علماء المغرب ، كان رغبة منهم في تنشيط الحياة الثقافية في المغرب ،
عطائها وما يجد يد باستمرار ، اوحبا خالصا منهم في اهل العلم ، خاليا من اى غرض آخر
ر من ترويج ذكرهم مثلا في الجزائر ، اواستيفاء المعلومات منهم او عبرهم عن الاوضاع فيهـــا
كانت الصلة بين العلماء الجزائريين المهاجرين في المغرب وأهلهم في الجزائر جد مرقحتى
ا ماعنّ لهم خاطر غزوها وجدوا سمعتهم قد تقدمتهم اليها ، والمعلومات عن الوضع فيها متوافرة
يهـــم . وقد يفسر السهولة التي كان الحكام المغاربة السعديون والعلويون يجدونها
اجتياح تلمسان ونواحيها ، اذ كان لهم فيها موالون ، اكتسبوهم بفضل ايوائهم وايثارهـم
علماء الذين وفدوا اليهم بكثرة من تلك الجهات .
ولكن حكام المغرب السعديين وقبلهم الوطاسيين ، شأن اتراك الجزائر لم يقتصــر
سيهم على الفئة المثقفة فقط ، بل كانوا يرحبون ايضا بمن يفد عليهم من الفئات الاجتماعيـــة
خرى من جزائريين واتراك ، ويفسحون لهم باب العمل في المغرب بشأن الزواوين والاتراك
ذين كانوا يعملون في صفوف الجيش السعدي .
وقبائل عرب الشراقة التلمسانية التي انتقلت الى المغرب وقبلها قبائل مليونة (الوهرانية)
رهـــا .

وخلاصة القول : فان العوامل المؤثرة في العلاقات الاجتماعية والثقافية في الفترة
ضوع البحث كثيـــرة بعضها قديم موروث وبعضها جديد ، كان تأثير بعضها سلبيا وكثيرها
يجابي . ويمكن اعتبار تنقل المثقفين الجزائريين والمغاربة وغير المثقفين ، وهجرتهم من بلد
آخر هجرة مؤقتة او دائمة سواء لاسباب سياسية او امنية ، او للتحصيل العلمي او ابتغاء
مل او لجمع الشمل او لغير ذلك من الاسباب والدوافع ، هذه الهجرة التي كانت تنشـــط
يانا من الجزائر نحو المغرب ، واحيانا قليلة من المغرب نحو الجزائر ، في طليعة العوامل
هامة الايجابية التأثير على العلاقات بين البلدين في المجالين الاجتماعي والثقافي ، اذ كانت
ح فرص الالتقاء بين افراد وجماعات من مختلف فئات المجتمعين . وكان ينجم عنها تلاقـــح
فكار وتبادل الآراء واستفادة العلم بعضهم من بعض ، وقيام صداقات بينهم .
ا كان ينشأ عنها تبادل التأثيرات المختلفة في العادات والتقاليد . وكل ذلك كان يعـــود
ى المستويين الاجتماعية والثقافية في كلا البلدين بالنفع العميم ويقوى اواصر القربى ويسهـــم
تحقيق وحدة ثقافية وفكرية بين الجزائر والمغرب .

الفصـــل العاشـــــــر

مظاهر العلاقـات الاجتماعية والثقافيـة

ان من يتأمل في العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب ، في الفترة مدار البحث، جد انها اتخذت صورا ومظاهر متعددة لعلّ ابرزها :-

حركة الهجرة والتنقل القوية بين البلدين للجزائريين والمغاربة : من مختلف الفئات الاجتماعية سباب ودوافع مختلفة تقدمت الاشارة اليها في الفصل السابق ، تلك الحركة الدائبة التي جعلت لاحتكاك بين شعبي البلدين ، ولا سيما بين افراد الفئات الاجتماعية التي كانت تتنقل بين لبلدين ، كفئات المثقفين من العلماء والطلبة ، والتجار ، والعمال ، والجنود ، وغيرهما ممكنـا مكانية قيام علاقات وطيدة اجتماعية وثقافية بين الشعبين، سانحة . وبالفعل فقد اتاحت حركـة نقل الجزائريين والمغاربة بين البلدين ، والاقامة الدائمة لبعضهم في مهجرهم والموقتة لبعضهم آخر، فرص قيام علاقـات وطيدة بين الجزائريين والمغاربة ، في المجالين الاجتماعي والثقافي :

1 _ العلاقـات في المجال الاجتماعي : وتتجلى اولا في المصاهرات التي تمت بين الجزائريين والمغاربة وهي نوعان :

ـ مصاهرات بين عامة الجزائريين والمغاربة . من مختلف الفئات من غير الحكام ، وهي مصاهـرات الية من الاطماع السياسية .

ـ ومصاهرات ذات طابع سياسي بين فئة الحكام في البلدين ، وهي مصاهرات لا تخلو مـن مطامع قصد الطرفان الى تحقيقها عن طريق المصاهرة .

وكنموذج عن النوع الاول من المصاهرات بين الجزائريين والمغاربة نذكر : زواج الطالـب جزائري ابي مهدي عيسى الثعالبي من ابنة استاذه علي بن عبد الواحد السجلماسي المغربي، ن وفد الى الجزائر من المغرب ، مع اسرته واستوطنها في اواخر النصف الاول من القرن الحادي ر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وتصدر للتدريس فيها ، كما تقدمت الاشارة . وهناك فـي جره تعرف على تلميذه ، وتوطدت العلاقات بينهما ، ثم تطورت الى المصاهرة (1) .

اما عن النوع الثاني من المصاهرات فنسوق كأمثلة عنه : زواج بعض الامراء الوطاسيين ، والسعديين بنات حكام الجزائر وعلية القوم فيها ، بعد لجوء اولئك الامراء الى الجزائر في الظروف التـي توضيحها (2) ، من امثال :

---

(1) السياشي : الرحلة ج2 ص127

(2) انظر فصل الحياة السياسية في الجزائر والمغرب .

١- الامير الوطاسي ابي بكر بن السلطان احمد الوطاسي،الذى تزوج بعد لجوئه الى الجزائر من ابنة صالح رايس بايلرباى الجزائر (١٥٥٢ - ١٥٥٦م) •وتذكر المصادر ان هذا الاخير حاول لدى دخوله الى فاس في سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م ان ينصّب صهره المذكور على عرش فاس ،ولكن الفاسيين رفضوا له ذلك ،والزموه بتنصيب الامير ابي حسون ،فما كان منه الا ان انصاع ، ونصّب ابا حسون المذكور الذى كان قد استنجد به (١).

٢- عبد المؤمن بن محمد الشيخ السعدى ،الذى تزوج ابنة حسن بن خير الدين بايلرباى الجزائر ،ونال عنده حظوة كبيرة ،ومكانة مرموقة ،فولاه ايضا على تلمسان ،فظل يحكمها الى ان اغتيل فيها (٢).

٣- عبد الملك بن محمد الشيخ السعدى الذى تزوج من ابنة حاجي مراد ،الذى كان من علية القوم في الجزائر ،واحد الوجوه السياسية البارزة فيها ،في النصف الثاني من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى .

ولا شك ان المصاهرات التي كانت تقوم بين الجزائريين والمغاربة ،كانت تساهم في توطيد العلاقات الاجتماعية ،وتمتين الروابط بين الشعبين ،وتزيدها عمقا وترسيخا اكثر فأكثر ،ولا سيما تلك المصاهرات التي لا تكون وراءها اهداف سياسية ،كاتخاذها مطية لتحقيق اغراض معينة تتعارض مع رغبة الجميع او الاغلبية ،كمحاولة صالح رايس الآنفة الذكر ،التي اصطدمت بمعارضة الفاسيين لانهم ادركوا فيما يبدو ان الهدف البعيد لصالح رايس كان هو العمل على ضم المغرب تحت سلطته،وادخاله تحت لواء الدولة العثمانية .

ثانيــا- تملك بعض الجزائريين والمغاربة للاقطاعات في مهجرهم :

واذا كان بعض المهاجرين من الجزائريين،او المغاربة ،قد ارتبطوا في مهجرهم بعلاقات مصاهرة فان بعضا منهم قد سعى ايضا الى تملك الاقطاع في مستقرهم الجديد •وتقدمت الاشارة (٣) الى بعض الجزائريين الذين حصلوا على اقطاعات في المغرب عن طريق المنح او العطاء من حكام المغرب ،او الشراء ،كما تقدمت الاشارة ايضا الى بعض المغاربة ،ولا سيما من الامراء السعديين واتباعهم الذين هاجروا معهم الى الجزائر ،والذين منحهم حكام الجزائر الاتراك تيمارات واقطاعا خاصا (٤)، مثل عبد المؤمن وعبد الملك وغيرهما • ولا ريب ان المالكين للاقطاعات من المغاربة في الجزائر ونظرائهم من الجزائريين في المغرب كثيرون • ولكن المعلومات الموثقة عن تلك الملكيات قليلة .

---

١) انظر فصل العلاقات السياسية الرابع .

٢و٣) نفسه . ومقال شانتال دولا دولا فيرون في مجلة الغرب الاسلامي عدد ١ ص ٣٦٢-٣٦٣ ، ٣٦٦

٤) انظر بحث العلاقات الاقتصادية الفصل السابق

ـ وجود جالية مغربية في الجزائر،وجالية جزائرية في المغرب •

تيجة لحرية التنقل بين الجزائر والمغرب للافراد ،والجماعات ، ومواقف حكام البلدين من

اجرين الى بلدهم ،تلك المواقف التي اتضح انها لم تكن ضد حركة التنقل من بلد الى آخر ،

ضع قيودا لمنعها او عوائق في وجه المتنقلين من بلد الى آخر ، بل ان حكام البلدين كانوا

رأينا يرحبون بالوافدين عليهم من البلد المجاور لبلدهم ، فقد كان هناك دوما جالية

ئرية كبيرة في المغرب ، وجالية مغربية في الجزائر • ولكن كتب التراجم والتاريخ المتوافرة بين

ينا لا تقدم احصاءات عن عدد افراد الجاليتين ولا تفاصيل غنية عن تكوينهما او تنظيمها او عن

ن سكناهما الخاصة ، ان كانت لهما اصلا اماكن او احياء خاصة بهما ضمن المدينة او المنطقة

حدة . كما كان حال المغاربة هنا في المشرق • و تكتفي كتب التراجم والتاريخ التي تم

جوع اليها بالاشارة الى المدن المغربية التي حلّ بها الجزائريون والمدن الجزائرية التي

المغاربة واستوطنوها بصفة موقتة او دائمة،واهم تلك المدن فاس ومراكش وتطوان وسجلماسة

رودانت في المغرب وتلمسان ، ومدينة الجزائر،وقسنطينة في الجزائر •

ولا شك ان وجود جالية جزائرية في المغرب ،واخرى مغربية في الجزائر من شأنه ان ساهم

توطيد العلاقات بين الشعبين الجزائري والمغربي،اللذين هما في واقع الامر شعب واحد بحكم

صول الواحدة لعناصر سكانهما ، وفي تحقيق مزيد من التجانس في العادات والتقاليد وغير ذلك

قضاء على كل تمايز عن طريق نقل المهاجرين لموثرات بلدهم الى مهجرهم •

ولكن حركة تنقل الجزائريين والمغاربة بين البلدين ، ومواقف حكام الجزائر والمغرب من تلك

حركة،اتاحت ايضا امكانية قيام علاقات ثقافية وطيدة،او بالاحرى استمرار العلاقات الثقافية

تي كانت قائمة بين البلدين،في الظروف الجديدة التي طرأت على البلدين،في الفترة مدار

بحث . ولعلّ من ابرز مظاهر تلك العلاقات تنقل رجال العلم وطلبته بين البلدين،والمناقشات

فكرية والدينية التي كانت تجري بين علمائها ، والمراسلات المتبادلة بين مثقفيها •

2ـ العلاقات في المجال الثقافي : وتجلى في:أ ـ تنقل العلماء والطلبة الجزائريين والمغاربة بين

البلدين تنقلا طوعيا او قسريا ، سواء للأخذ او العطاء او للغرضين معا ، كان ظاهرة ملحوظة

وضوح ، في الفترة مدار البحث ، اذ كانت حركة تنقلهم نشيطة فيها اكثر من الحقبة السابقة لها (1)

لظروف التي شهدها البلدان السياسية والامنية على الخصوص • وقد تمّ تقديم نماذج عديدة ،

في الفصل السابق من العلماء والطلبة الذين هاجروا او تنقلوا بين البلدين • ويهمنا الآن ان

نلاحظ ان المثقفين المغاربة الذين هاجروا الى الجزائر،ساهموا كما يستخلص ذلك من تراجم

العلماء المغاربة الذين تقدم أو سيأتي ذكرهم،مساهمة ايجابية في تنشيط الحياة الثقافية

---

(1) انظر فصلي الحياة السياسية في الجزائر والمغرب •

في الجزائر ، واعمار مراكزها الثقافية العديدة مثلما ساهم المهاجرون من مثقفي الجزائر الى المغرب في تنشيط الحياة الثقافية فيه واعمار مراكز ثقافية كثيرة فيه . ولعله ليس من المبالغة اطلاقا القول بأن نشاط الحياة الثقافية في المغرب طوال الفترة مدار البحث كان قائما الى حد كبير على جهود عديد من العلماء الجزائريين الذين استوطنوا المغرب ، اذ كان لا يخلو اي مركز من المراكز الثقافية في المغرب ولا سيما الكبرى منها كفاس ومراكش وتطوان وسجلماسة وتارودانت دون ان يتصدر عالم جزائري بارز او اكثر للتدريس فيه . وقد يجمع ذلك العالم اكثر من خطة كأن يجمع الى التدريس خطة القضاء او الافتاء او الامامة او الخطابة ، كعلي الطفري ، ومحمد شقرون ، وابن جلال ، وابن الوقاد ، الذين تقدم ذكرهم وغيرهم من العلماء الجزائريين الذين تخرج على ايديهم اغلب طلبة المغرب وعلمائه في الفترة مدار البحث .

وقد يكون عسيرا حصر اسمائهم ، كما انه ليس من غرضنا وضع قائمة بها ، وان كان سيرد ذكر بعضهم عند الحديث عن مراكز التبادل الثقافي في المغرب . هذا من جهة ولا نعدو الحقيقة من جهة اخرى ، اذا قلنا ان بعض الانتعاش الذي شهدته الحياة الثقافية في الجزائر في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، ولا سيما في تلمسان وقسنطينة والجزائر يعود في قسم منه على الاقل الى جهود المثقفين المغاربة الذين وفدوا على الجزائر في هذه الفترة بكثرة نسبية ، واستوطنوها ، فقد ورد عيسى البوسعيدي في تلمسان وعلي بن عبد الواحد السجلماسي في الجزائر ، ومحمد بن ومحمد بن مزيان الواتي في قسنطينة في مجال التعليم لا ينكر ، وعلى يديهم تخرج الكثيرون من الطلبة الجزائريين الذين اصبحوا من مشاهير علماء الجزائر في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، وتطول ايضا القائمة لو حاولنا ذكر جميع من نعرفهم منهم ومن تلاميذهم ، ناهيك عمن لا نعرفه منهم ، اذ كثر الآخذون عنهم وهم من مختلف جهات الجزائر لما كان لهم من شهرة .

وساهم بعضهم كعلي السجلماسي على الخصوص في دفع حركة التعليم في مدينة الجزائر قدما الى الامام برفع مستوى دروسهم وتنويع مواد الدراسة ، وقد كان يدرس الفقه واصوله ، والبيان والمنطق والسير ، والتصوف ، والحديث والنحو ، وربما مبادئ الطب ايضا ، حيث وضع فيها منظومة كما وضع منظومات وشروحا في المواد الاخرى التي كان يدرسها (1) .

وقد نال العلماء المغاربة في الجزائر ولا سيما العلماء الجزائريون في المغرب بفضل نشاطهم العلمي ، وجهودهم في المجال الثقافي احتراما وتقديرا عاليا لدى عامة الناس وحظوه ووجاهة

---

1) انظر عن جهود الانصاري ونشاطه التعليمي والتأليفي : المحبي : خلاصة الاثر ج ٣ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، الحفناوي : تعريف الخلف ج ١ ص ٦٩ ، وسعد الله / المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٧ - ١٨٣

بمرة لدى السلطات الحكومية في البلدين وعلية القوم فيهما ، فأسندوا اليهم المناصب العلمية الدينية كالتدريس والقضاء والافتاء والامامة والخطابة كما تقدم القول .

ب ـ المناقشات والمناظرات الفكرية والدينية : وكانت المناقشات والمناظرات الفكرية والدينية مظهرا آخر من مظاهر العلاقات الثقافية بين البلدين ، ذلك ان تطابق وجهات نظر اهل العلم فيهما الى حد كبير بحكم التكوين المتشابه من حيث مواد الدراسة والكتب الدراسية ، وطرق التدريس التي كانت سائدة في البلدين ، لم تمنع اختلاف وجهات نظر بعض علماء البلدين حول بعض القضايا الفكرية والدينية ، وبالتالي قيام مناقشات ومناظرات حولها بينهم .

ونشير هنا الى المناقشات التي دارت بين المبعوث الجزائري الى المغرب ابي عبد الله محمد الخروبي الجزائري الدار ، الذي كان على درجة عالية من العلم والتصوّف ، وبين بعض كبار مرابطي المغرب والمتصوفة فيه من امثال ابي عمر القسطلي واتباعه ، وكان لابي عمر المذكور في مراكش وسائر بلاد المغرب شهرة عظيمة ، وللناس في شأنه اضطراب لانه كانت له دعوة عريضة في مقام الاولياء ، و مكاشفة الغيب ، ودعوى القطبانية ، وانه صاحب الوقت . (1)

وقد شملت تلك المناقشات الامور المتعلقة بالتصوّف ، فأنكر الخروبي على ابي عمر واتباعه مسائل كثيرة ، بما في ذلك قصه لشعر الشارب معتبرا ذلك بدعة ورد على اتباع ابي عمر الذين حاولوا تبرير عمل شيخهم ولفت نظره الى ان الشيخ الجزولي كان يفعل ذلك ، بأن هذا الاخير قد يكون فعل ذلك باذن ، والاذن للولي لا يعم اتباعه ، في حين ان الاذن للنبي (ص) يعم اتباعه .

ولما عاد من سفارته التي قام بها الى مراكش ، وجه رسالة الى ابي عمر المذكور قال عنها الافراني (انه ابدع له فيها) (2)

وكما اثار الخروبي نقاشا حادا مع المتصوفة من اتباع الطريقة الشاذلية الجزولية في مراكش ، اثار نقاشا آخر مع علماء فاس ، وخواصها برسالته التي وجهها اليهم والتي سماها (رسالة ذوي الافلاس الى خواص مدينة فاس) ، وقد ذكر فيها آدابا على القواعد الخمس ، اثار بعض ما جاء فيها نقاشا كبيرا بين علماء المغرب ، ظل مستمرا فترة طويلة قبل ان يهدأ ، وتركز النقاش على المفسرين حول قضية النفي في القاعدة الاولى وهي (لا اله الا الله) (3) واختلفت الآراء حول ما اذا كان النفي بلا في القاعدة المذكورة ، تنتفي به الوهية الصنم وغيره

---

1) ابن عسكر : الدوحة ص ٨ .
2) الافراني : النزهة ص ٤٢
3) ابن عسكر : الدوحة ص ٨

... ما ذكره ابن عسكـــــر :
... من دون الله ام لا ، وكان رأي العالم الجزائري في القضية حسب
... من الادب الا يتناول نفيه عند النطق بحرف النفي ، الا ما ادعاه المشركون من الآلهة ســوى
... تعالى ، ولكن الحق جل جلاله ثابتا عندك في حال النفي والاثبات ، واضاف قائلا : والى
... اشار بعض العلماء حيث قال : النفي لما يستحيل كونه ، والاثبات لما يستحيل عد(1)ـــــه)
... الناس عليه هذه العبارة لما يلزم عليها من الكذب في الخبر الالهي .

... وقد كان اليسيتني مفتي فاس ، وابو محمد عبد الله الهبطي وغيرهما ممن شاركوا في مناقشـــة
... ورد في قضية النفي المذكورة ، وتدخل السلطان السعدي محمد الشيخ حين احتدم الخــلاف
... اليسيتني والهبطي لمعرفة الحقيقة ، وعقد مجلسا للمناظرة ، دعا اليه الطرفين المختلفيــن .
... الهبطي آثر الا يتحدث في الموضوع ، دفعا للمزيد من المساحنة بينه وبين خصمه ، الــذى
... يعرف بطبعه الميال الى العناد ، والتصميم على اللجاج ، حتى انه اذا قال مثلا (الشمــس
... تطلع من المغرب ، وقال الناس كلهم انها تطلع من المشرق ، لم يرجع عن قوله)(2) . فانفض المجلــس
... غير طائـل .

وكان اليسيتني قد اتهم في هذا المجلس الهبطي بأنه مبتدع ، وحث السلطان على قتلـــــه ،
... ان محمدا الشيخ أبى ، وتبين له ان اليسيتني كان يتحامل على الهبطي ، اذ حاول ايضـــا
... يثير شكوكـــــه حوله ، والايحاء له بأنه يشكل خطرا على ملكه(3) .

وكان لابد من انتظار نحو قرن من الزمان لرؤية عالم مغربي آخر يتصدى لهذه القضيـــــة ،
... التي ظلت ملتهبة في المغرب ويفصل فيها القول بما لا يدع مجالا للمزيد ، وهو ابو علي الحســن
... بن مسعود اليوسي المتوفى سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م ، الذي الف في الموضوع كتابا سمـــاه
... مشرب العام والخاص من كلمة الاخلاص . او منهج الخلاص من كلمة الاخلاص » .. فاعطى فيـــه
... كما قال « لكل ذي حق حقه ، وللحق حقه ايضا(4) » .

وليس من غرضنا ان نتتبع ما اورده بهذا الصدد مفصلا في كتابه المذكور ، وانما ان نؤكـــد
... ان تبادل الرسائل بين اهل العلم في البلدين ، كان مظهرا من مظاهر العلاقات الثقافيـــــة
... بينهما ، مثل تبادل الزيارات واللقاءات بين الطلبة والعلماء ، والمرابطين والمتصوفة .

جـ ـ المراسلات : وقد كانت المراسلات بين اهل العلم ، كما يفهم ذلك من رسالتـــي
الخروبي الآنفتي الذكر وغيرهما من الرسائل الآتي ذكرها ، في اغراض متنوعة ، فكرية ودينية واجتماعية ،

---

1) نفسه : الدوحة ص٩
2) نفسه : ص ١١
3) نفسه ص ١٠
4) عبد الكريم كنون / النبوغ المغربي في الادب العربي جـ ٢ ص٢٦ واليوسي : منهج الخلاص .
فاس ١٣٢٧ هـ

علماء ، ومن الطلبة واساتذتهم ، ومن كبار مشايخ الصوفية واتباعهم .

والدينية الغامضة ، بعض المسائل الفكرية وتوضيح طلب غرضها كان التي المراسلات اطار في
ومراكش ، فاس اهل خواص مع الخروبي علي بن محمد مراسلات الى بالاضافة نذكر حولها ستيضاح
والامام محمد ، بابن الحاج المعروف ، التلمساني ، الونشريسي احمد بين تتم كانت التي سلات
السادس عشر / الهجري العاشر القرن مطلع في مختلفة مسائل في فاس علماء كبير ن ،
ويجيبه ، نظما بالمسائل لصاحبه يلغز واحد كل — مريم ابن يقول كما كان وقد . ي د
ترد كانت التي المسائل عن القسنطيني الوزان الشيخ ردود نذكر كما . (١) بالنظم يه
المغرب (٢) . من

الى علماء ١٥٠٣ م / هـ ٩٠٩ سنة المتوفى ، المغيلي الكريم عبد بن محمد بمراسلات ونذكر
المراسلات هذه ولو ان . معهم يتبع ان ينبغي الذي والسلوك ، اليهود مع التعامل حول
هذه في البلدين علماء بين المراسلات ان على يدل مما ، الدرس موضوع الفترة قبيل ت
الفترة كانت استمرارا للمراسلات التي كانت قائمة من قبل .

ولا شك ان مراسلات العياشي مع عبد الكريم الفكون (٣) ، تدخل ايضا في اطار التوضيح والاستيضاح
عن المسائل .

واما المراسلات بين الطلبة واساتذتهم ، لطلب الاجازة منهم فنذكر كمثال عنها
المراسلات التي كانت بين ابي العباس احمد بن القاضي ، صاحب جذوة الاقتباس ودرة الحجال
من المغرب ، وسعيد المقري ، عالم تلمسان الشهير من الجزائر . وفي هذه المراسلات
طلب احمد بن القاضي من الاستاذ العالم المذكور ، الاجازة العامة فيما له من مروي ومقروء ،
ذلك في سنة ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م ولبى سعيد
المقري طلبه في نفس السنة (٤) . اجاز وسمى ، مع ذكر مشايخه الاعلام ،

اما ابن عسكر صاحب الدوحة ، فقد انتهز فرصة وجود علماء تلمسان في المغرب ، فأخذ
منهم وحصل منهم على الاجازة . ومن الذين اجازوه منهم : ابو العباس احمد بن محمد العبادي
التلمساني (٥) ، وابو عبد الله محمد بن هبة الله الوجديجي (٦) . كما حصل احمد المقري من جهته ،
وهو في المغرب ، على عدة اجازات من علماء المغرب منهم : ابو العباس احمد بن القاضي (٧) ، وابو
العباس احمد بن ابي القاسم التادلي (٨) . في حين كان حصول العياشي صاحب الرحلة

---

(١) ابن مريم : البستان ص ٨
(٢) عبد الكريم الفكون : منشور الهداية (اشار الى ورود اسئلة عليه بصدد الترجمة لابي عبد الله العطار)
(٣) العياشي : ماء الموائد ج ٢ ص ٣٩
(٤) انظر استدعاء احمد بن القاضي للاجازه ، واجازة سعيد المقري له في احمد المقري / روضة الآس العاطرة في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس الرباط ١٩٦٤ ص ٢٢٦-٢٦٩ .
(٥) انظر نص اجازته في : ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٨٧-٨٨
(٦) انظر نص اجازته في / المرجع السابق ص ٨٦-٨٧
(٧) احمد المقري المصدر السابق ص ٢٨٩ وما يليها

[ا]لاجازة من شيخه ابي مهدي عيسى الثعالبي (١) ، ومن الشيخ عاشور القسنطيني (٢) ، في المشرق ،
[ويؤ]كد على ان الصلة بين علماء البلدين ، وأخذ بعضهم من بعض،قد تتولد خارج المغرب
[والجزا]ئر .

[وقد] كانت بين العياشي وابي مهدي عيسى الثعالبي مراسلات ،حين كان هذا الاخير مقيما في
[...] وكان العياشي في طريقه الى الحج سنة ١٠٦٤ – ١٠٦٥ هـ ،وفي احدى الرسائل التي كتبها
[و]التي اوردها في "رحلته" كان الغرض هو الاستعانة بأبي مهدي في التقرب من كبار
[علماء] مصر ،للاخذ عنهم (٣) .

[كم]ا كانت بين ابي العباس احمد المقري،حين كان مقيما في مصر مراسلات عديدة مع علماء
[المغ]رب،في اغراض مختلفة ،امثال علي بن عبد الواحد الانصاري ،ومحمد بن ابي بكر الدلائي،
[...]عما . وفي رسالة من المقري مؤرخة بربيع الاول سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م الى الدلائي
[المذ]كور،كان الغرض هو ان يتولى الشيخ الدلائي الاشراف على تزويج ابنته،التي خلفها في المغرب
[والا]شراف على تطليق زوجته. حيث بات من العسير عليه ان يعود الى المغرب ، وليس من اليسير
[ان] تلحق هي به (٤) . وهذا يدل على مدى العلاقة الوطيدة التي كانت بين المقري ومحمد بن ابي
[بك]ر الدلائي ، وهو نموذج لما يمكن ان تتطور اليه العلاقات بين علماء الجزائر والمغرب .

وقد كان محمد بن ابي بكر الدلائي رجل دين وعلم،يتمتع بسمعة كبيرة في المغرب والجزائر
[وك]انت الرسائل تأتيه من مختلف جهات المغرب،ومن الجزائر ايضا ،في اغراض مختلفة،في مسائل
[شخ]صية كما تقدم ، ودينية ودنيانية .

وفي الغرض الاخير كتب اليه جماعة من علماء الجزائر،ومرابطيها،يحثونه ،بعد ان اوضحوا
ارتباط الجزائر بحاضر المغرب ،على أن يعلن الجهاد لتطهير البلاد من الكفار ، واستقلال
كلمته المسموعة (٥) . ولا ندري ما كان جوابه اليهم . ومن مراسلات المرابطين فيما بينهم حول بعض
القضايا الدينية والتصوفية ،نشير الى مراسلات عبد العزيز القسنطيني مع عبد الله بن عمر المطغري
ومحمد بن علي الدرعي ، التي وصفها ابن عسكر بأنها مراسلات عجيبة ونافعة (٦) ،والى مراسلات احمد
بن يوسف الملياني مع اتباعه،ومريديه،ومناوئيه في الجزائر والمغرب (٧) .

---

١) العياشي : المرجع السابق جـ ٢
٢) نفسه : جـ ١ ص ٣٨٢
٣) نفسه : جـ ٢ ص ١٢٩–١٣٠ ، وانظر جواب الثعالبي في نفس المرجع ص ١٣٠–١٣١
٤) انظر الرسالة في كتاب الزاوية الدلائية لمحمد حجي (ملحق ٨) ص ٢٨٢–٢٨٤
٥) المهدي البوعبدلي / اضواء على تاريخ الجزائر / في / الاصالة عدد ٨ ص 281 – 282 .
٦) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .
٧) الورتيلاني / : المرجع السابق ص ١٠٧–١٠٨

والجدير بالملاحظة ان العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب ،كما بدا من
...اشر المتقدم ذكرها ،كانت علاقات عفوية، طبيعية ،لا صبغة رسمية لها.. اذ هي لم تكن موضوع
...قات او معاهدات رسمية بين البلدين تحددها او تقننها ،وانما فرضتها الروابط المديدة،
...ية،التي كانت وما تزال، تربط بين شعبي البلدين،من روابط بشرية ولغوية ،وثقافية ،وجغرافية .
وقد نجم عن استمرار الاحتكاك بين شعبي البلدين في هذه الحقبة ،من خلال مثقفيهما
...جهاء وتجارهما،وجنودهما ،وسائر الفئات الاجتماعية الاخرى ،وتبادل الآراء والافكار والمعارف
...تأثيرات المختلفة بين افراد تلك الفئات المتعددة . تدعيم تلك الروابط وترسيخها ،بحيث
...ن الحديث عن ظواهر : الوحدة الدينية والمذهبية والطرقية والتعليمية والفكرية في البلدين،وان كان
...ـد من الاقرار بأن هذه الوحدة قد تحققت قبل الفترة مدار البحث ،الا انها
...انفكت تتدعم وتتعزز خلالها ،على الرغم من بعض الطوارئ
...تي طرأت على البلدين كوجود الغزاة الاسبان والبرتغاليين على شواطئ البلدين،بلغتهم
...وديانتهم وعاداتهم المختلفة عن لغة المغاربة والجزائريين، وديانتهم وعاداتهم . ودخول
...لاتراك العثمانيين بلغتهم المختلفة ومذهبهم الحنفي .

فالاسلام استمر دين الاغلبية الساحقة في البلدين،كما كان الامر قبل
...دة قرون .ولا يشكل اليهود والمسيحيون فيهما الا اقلية . والمذهب المالكي السني
...استمر سيدا،بدون منافس في المغرب ،وكان اتباع المذهب الحنفي والاباضي اقلية
...ي الجزائر .

والعربية استمرت لغة الثقافة في البلدين ،ولم تكن اللغة العثمانية في
...الجزائر سوى لغة ادارة ، اما اللغتان الاسبانية والبرتغالية فلم تنتشرا كلغة
...حديث فقط ،الا لدى بعض علماء الاسبان والبرتغاليين ،او لدى المهاجرين
...الاندلسيين ،واللغة البربرية لم تكن تمثل لغة علم وتعليم،وثقافة،و قد ظلت محصورة
ومحدودة الانتشار .

وتعاليم الطريقة الشاذلية (1) الصوفية المغربية الاصل ،تكاد تكون لها السيادة المطلقة
في البلدين ،رغم الازدهار الذى شهدته الطريقة القادرية (2) بعد دخول الاتراك العثمانيين
الى الجزائر . والى الطريقة الشاذلية تنتسب معظم الطرق الصوفية الفرعية التي نشأت في
الجزائر والمغرب .

---

(1) نسبة الى ابي الحسن علي الشاذلي : انظر هامش 1ص 69 من فصل الحياة السياسية في المغرب .

(2) نسبة الى عبد القادر الجيلاني : انظر هامش 3 ص 69 من نفس الفصل .

- كالطريقة الجازولية الشاذلية، التي اسسها محمد الجزولي، الذي ينسب اليه حفيده سليمان، فيعرف باسم محمد بن سليمان. وقد كان هذا الاخير من اكابر مشايخ الصوفية في المغرب في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي..، وكثر اتباع طريقته بعد وفاته[1] ولعبوا دورا هاما في رفع الاسرة السعدية الى الحكم، والاطاحة بالاسرة الوطاسية.

- والطريقة الزروقية التي تنسب الى مؤسسها الشهير ابي العباس احمد بن عيسى البرنوسي، الفاسي (المغربي)، المتوفي في سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م[2]، وقد كان لهذه الطريقة اتباع في الجزائر والمغرب. ومن اشهر اتباعها في الجزائر عبد الكريم الفكون القسنطيني (الجزائري) وعنه اخذ الطريقة نفسها العياشي المغربي، صاحب الرحلة المشهورة[3].

- والطريقة اليوسفية التي تنسب الى مؤسسها ابي العباس احمد بن يوسف الملياني الجزائري، المتوفي سنة (٩٣١هـ/ ١٥٢٤م)[4]، الذي كان واحدا من اكابر مشايخ الصوفية في الجزائر. وكان له اتباع كثيرون في الجزائر والمغرب، افرط بعضهم في الاعتقاد فيه، وربما نسب له النبوءة، ومن هؤلاء المدعو ابن عبد الله، ولكن احمد بن يوسف الذي لاحظ بداية الغلو على اتباعه، وهو لا يزال على قيد الحياة فاتهم بسبب اعتقاداتهم فيه، واضطهد من قبل الامراء الزيانيين، كما اتهم اتباعه من بعده، واضطهدوا في المغرب، كان يستنكر التقول بما لم يقله، ويقول بهذا الصدد "من قال عنا ما لم نقله يبتله الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة"[5].

ومع ذلك فان الكثيرين هم الذين ذهبوا في شأنه مذهب ابن عبد الله فتشكلت منهم طائفة في المغرب عرفت باليوسفية، ثار ضدها فقهاء المغرب، واشاروا على السلطان السعدي عبد الله بأن يستأصل شأفتها، فسجن جماعة من افراد الطائفة، وقتل آخرين بدعوى انهم ليسوا من إخوان الشيخ احمد بن يوسف في شيء، وانهم ساروا في اعتقادهم فيه على غرار الشيعة في ائمتهم[6].

الا ان تشدد عبد الله تجاه افراد الطائفة المذكورة قد يكون له دافع آخر هو مخاوفه من ان يكون افراد الطائفة اليوسفية موالين للاتراك كأحمد بن يوسف، وعيونا لهم في مملكته. ولا سيما ان علاقات عبد الله لم تكن دائما على ما يرام مع الاتراك كما رأينا[7]. وقد كان لاحمد بن يوسف زاوية في راس الماء بمنطقة مليانة، كانت مقصودة من قبل الجزائريين والمغاربة على السواء للاخذ عنه، وممن انتقل من المغاربة لهذا الغرض: ابو محمد عبد الله

---

1) انظر عن الجازولي: محمد المهدي الفاسي: ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع فاس 1313؟

٢) انظر عنه ابن عسكر: الدوحة ص ٣٠-٤٠ وابن مريم: البستان ص ٤٥-٥٠

٣) العياشي: رحلته ص ٣٩٦ وسعد الله: المرجع السابق ج ١ ص ٥٣٠

٤) انظر عنه محمد الصباغ القلعي: بستان الازهار في مناقب زمزم الاخيار ومعدن الانوار سيدي احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار. وابن عسكر الدوحة: ص ٩١-٩٢

٥) ابن عسكر: نفس المصدر ص ٩١

٦) نفسه:

٧) انظر بحث العلاقات السياسية الفصل الرابع

الخياط الذي غدا من مشايخ الصوفية في المغرب الذائع الصيت ، وكان مقره في جبل زرهون بشمال المغرب [1] .

وابو عبد الله محمد بن علي المعروف بالشطيبي ، صاحب التآليف العديدة في الفنون، والعلوم المختلفة من تفسير وكيمياء ، وتاريخ وغير ذلك . وخلافا للخياط الذي كان له اتباع كثيرون فان الشطيبي كان زاهدا في الدنيا واهلها [2] .

ـ وعبد الله بن عمر المضغري، الذي وصفه ابن عسكر بأنه " الفقيه الكبير ، العالم النحرير شيخ الاسلام [3] " ، الا انه عاد ولم يأخذ عنه لانه انكر عليه عدم المحافظة على اول الوقت في الصلاة ، وانصرف الى الاخذ عن عبد العزيز القسنطيني [4] .

اما وحدة الكتب والمواد الدراسية في البلدين، فظاهرة تلفت نظر الباحث، الذي يرجع على الخصوص الى الاجازات التي كان طلبة البلدين يحصلون عليها من مشايخهم ، والتي كان هؤلاء يذكرون فيها بعادة العلوم والفنون تلقاها طلبتهم عنهم ، والكتب التي درسوا من خلالها كل علم او فن . فمن خلال الاجازات المذكورة [5] ، نتبين ان الفقه واصول الفقه ، والحديث ، والنحو ، والبلاغة ، والعروض ، والمنطق ، والتوحيد ، والقراءات ، والضبط والحساب وغيرها كانت مواد دراسية يعكف على دراستها الطالب في المغرب ونظيره في الجزائر .

ومنها ايضا نتبين ان هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر :

ـ صحيح البخاري ، وشروح كثيرة عليه في الحديث .

ـ والرسالة لابن ابي زيد ، ومختصر خليل في الفقه .

ـ ومختصر ابن الحاجب ، وجمع الجوامع للسبكي في اصول الفقه .

ـ وعقائد السنوسي في التوحيد ، وحكم ابن عطاء الله في التصوف .

ـ والفية ابن مالك والآجرومية في النحو .

ـ وتلخيص المفتاح لمحمد القزويني، والجوهر المكنون للاخضري في البلاغة ، والخزرجية في العروض .

ـ والجمل للخونجي ، والسلم المرونق للاخضري في المنطق .

ـ والتلمسانية في الفرائض ، ورجز الخراز في الرسم ، والضبط لابن بري .

ـ والشاطبيتان الكبرى والصغرى في القراءات .

1) ابن عسكر ؛ الدوحة ، ص ٦٣

2) نفسه : ص ٤١ - ١٥

3) نفسه ص ٦٥

4) الحسن اليوسي : ص ١٤٤

5) انظر اجازة سعيد المقري : لاحمد بن القاضي في روضة الآس لاحمد المقري ص ٢٦٦ - ٢٦٩ واجازة احمد العبادي لابن عسكر في الدوحة ص ٨٧ - ٨٨ واجازة ابي مهدي عيسى الثعالبي لابي سالم العياشي في كتاب رحلة هذا الاخير (ماء الموائد)

خيص ابن البناء في الحساب .. الخ

ت متداولة لدى علماء البلدين وطلبتهما ، من كتب اخرى كثيرة في العلوم المذكورة ، وفي
ري اخذت الدراسات فيها تنشط كالهندسة والطب ، وعلم الهيئة والفلك والحساب وغيرها .

د كانت الكتب والمؤلفات الجديدة التي تصل الى الجزائر من المشرق او تؤلف فيها من
ائها سرعان ما تنتقل الى المغرب ، ومثل ذلك كان يحصل ايضا بالنسبة للكتب
تؤلف في المغرب او التي يحصل عليها من المشرق او من اي جهة اخرى كبلاد السودان .
طرق انتقال الكتب من بلد الى آخر متعددة ، واحداها الانتقال مع طلبة العلم والعلماء
كانوا ينتقلون من بلد الى آخر ، فمختصر خليل في الفقه الذي وصل الى الجزائر قبل
ب ، نقله منها الى هذا الاخير عالم جزائري انتقل الى المغرب فعكف الناس على دراسته هناك
فوا على دراسته في الجزائر (1) ، وكذلك الامر بالنسبة لعقائد السنوسي التي الفها العالم
ئري محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة 815هـ في التوحيد ، فقد نقلها احد الطلبة
ربة من تلمسان الى المغرب ، فأقبل الناس على حفظها وقراءتها (2) .

د عرف علم التوحيد ، بعد تأليف السنوسي لعقائده الثلاث الكبرى والوسطى والصغرى توسعا
في البلدين ، لكثرة الدارسين والحافظين لها ، وتوافق الاقبال على علم التوحيد في البلدين
فسان التدخل المسيحي ، الاسباني والبرتغالي فيهما ، الذي كان من بين اهدافه
فقط ملاحقة المسلمين الى بلاد المغرب ولكن ايضا نشر المسيحية في شمال افريقيا .

د كان انتقال الكتب بين البلدين يتم ايضا بمناسبة الحج عن طريق الحجاج المغاربة
ن كانوا يأتون معهم بالكتب لمبادلتها ، او يقومون بنسخ ما يجدونه من الكتب القيمة . وهو
ن يفعله العياشي ، فقد ذكر في رحلته ان محمدا بن ابراهيم (الجزائري) ، احد تلاميذ
لانصاري اخذ منه الكراسة التي جمع فيها معاني او الشرطية ، والكراسة التي سماها تنبيه
الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية ، واعطاه مجموعا فيه عدة تآليف اغتبط بها كثيرا (3) .

ال العياشي نفسه يذكر انه قام بتلخيص بعض ما جاء في كتاب "محدد السنان في نحور اخوان
ان" لمؤلفه الجزائري عبد الكريم الفكون القسنطيني (الحفيد) حيث لم يكن لديه الوقت
ي لنسخه كاملا ، اذ اطلع عليه وهو في طرابلس في طريقه الى الحج ، كما اطلع على كتب
ف الجزائري المذكور في المدينة ذاتها ، اعاره اياها محمد بن عبد الكريم ابن المؤلف المذكور (4)

ابن مريم : البستان (ترجمة محمد بن عمر الفتوح) ص 264 و ص 99
ابن عسكر : الدوحة ص 27
العياشي : ماء الموائد ج 1 ص 49
نفسه : ص 390

لما كانت الكتب المتداولة بين الدارسين في الجزائر هي ذات الكتب المتداولة بين الدارسين
المغرب ، وتنتقل بين البلدين دون قيود ، وتصل الى المتعلمين فيهما بطرق عديدة ، وان
د الدراسية في البلدين ايضا واحدة ، وان كان تدريس بعضها في هذا المركز او ذاك يتوقف
جود الاستاذ المختص ، مما كان يدفع الطلبة للانتقال من مركز الى آخر ، ومن بلد الى آخر
عن الاستاذ المختص في مادة معينة او اكثر ، وان طرق التدريس في البلدين كما يستخلص
من عسكر والوزان ايضا واحدة فقد نجم عن ذلك ان وجهات نظر علماء البلدين في قضايا
م الفكرية والاجتماعية والدينية وغيرها واحدة او تكاد ، ومواقفهم منها متقاربة ان لم تكن
فقة .

جهات نظر علماء البلدين على سبيل المثال في قضية التبغ التي اثيرت في البلدين في
الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، لما اخذ تدخين التبغ
في فيهما ، والاقبال على شرائه من الاوربيين بالعملة الذهبية يزداد ، متقاربة الى حد كبير
ن عبد الكريم الفكون القسنطيني (الجزائري) صاحب كتاب محدد السنان في نحور اخوان
ان ، وابي العباس احمد المقري (التلمساني) ، صاحب نفح الطيب الشهير ، وعبد الرحمن
ارتي (المغربي) ، صاحب كتاب الفوائد الجمة ، وعبد الرحمن بن محمد الفاسي ، وغيرهم
ما البلدين قالوا بتحريمه ، والمتساهلون قليلا في شأنه الذين لم يصرحوا بتحريمه كالعياشي
بنوا اباحته كما فعل الكثيرون من علماء المشرق ، وبلاد السودان امثال ابي الحسن الاجهوري
ومحمد بابا التمبكتي وغيرهما [1] .

نوافق وجهات نظر علماء البلدين او وجهات بعضهم على الاقل نلمسه في انتقادهم لكل من
البدع المتصوفة ، وادعياء التصوف المنحط الذين كثروا في الفترة موضوع الدرس كثرة كبيرة ،
اقبال الناس عليهم ، وسلامة اعتقادهم فيهم او كاد .

وضع بعض اولئك العلماء مؤلفات عديدة بين مطول ومختصر ومنظوم ومنثور يحذرون فيها
دع ويردون فيها على ادعياء التصوف ، ويكشفون ادعاءاتهم ، وينبهون عامة الناس وخاصتهم
بتهم الى الطريق الصحيح ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :
ب " الرد على المرابط عرفه وصحبه " لمؤلفه ابي حفص عمر بن محمد الكماد القسنطيني
جزائري [2] .

نفسه : ج ٢ ص ٣٩٦-٤٠٣ ، التامغارتي : الفوائد الجمة ص ٥٣ (الترجمة الفرنسية)
محمد المنوني : ملامح من تطور المغرب العربي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ص
٨٧٠- ٨٧٤
الحفناوي : تعريف الخلف ج ١ ص ٧٦

- وارجوزة عبد الرحمن الاخضري (الجزائري) ، المسماة القدسية (1) ، في التصوف والتحذير من البدع ، ومنشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، لمؤلفه الجزائري عبد الكريم الفكون (الحفيد) القسنطيني (2) .

- والفية الامام محمد عبد الله الهبطي المسماة (الالفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما غيروا في الملة الاسلامية .) (3) .

وقد كان الامامان احمد زروق الفاسي ، وابو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي ، قد سبقا هؤلاء الى نقد بدع التصوف وادعيائه في كتب قيمة كان لها تأثيرها على من تلاهما . ومن كتبهما في هذا المجال :

- " النصح الانفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة " للامام زروق (4) .

- " فتح الوهاب في رد الفكر الى الصواب " و" تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى العارفين " وكلاهما للمغيلي (5) .

اما ابو عبد الله محمد المغروي الجزائري الذي كان على درجة عالية من العلم والتصوف ، فقد كان جريئا اكثر في انتقاداته الموجهة لادعياء الولاية والتصوف ، والعلم حيث انه كان ينتهز فرصة سفارته الى المغرب ليتصل بعلمائه ومرابطيه ، ويجري مع هؤلاء واولئك مناقشات دينية وعلمية هامة جريئة ، لم يكن يجامل فيها احدا ، وقد تقدمت الاشارة الى المناقشات التي دارت بينه وبين ابي عمر القسطلي واتباعه .

وقد كان الاحتكاك بين الجزائريين والمغاربة ، وتبادل التأثر والتأثير في المجال الاجتماعي ولا سيما في المجال الثقافي يتم في مراكز عديدة في الجزائر والمغرب . ونتساءل الآن عن اهم تلك المراكز ودور او نشاط الجزائريين والمغاربة فيها ، وابرز العلماء والطلاب الجزائريين والمغاربة في تلك المراكز .

---

(1) نفسه : ج 1 ص 63
(2) العياشي : المرجع السابق ج 2 ص 206 ، سعد الله : المرجع السابق ج 1 ص 527
(3) ابن عسكر : الدوحة ص 6 - 12 و .
(4) المنوني : المرجع السابق ص 767 - 768 .
(5) : ابن عسكر : الدوحة ص 81 .

٢ـ مراكز التبادل الثقافي في المغرب والجزائر :

اذا تأملنا المراكز الثقافية التي كان يقصدها المغاربة في الجزائر ، والتي كان يقصدها الجزائريون في المغرب ، سواء لاخذ العلم منها او لنشره فيها ، او للفرضين معا ، او لغيرها والتي يمكن ان نعتبرها مراكز للتبادل الثقافي بين البلدين وجدنا اهمها هي :

اولا : في المغرب

أ ـ مدينة فاس : هذه المدينة التي ما انفكت تنمو منذ ان وضع ادريس الاول حجرها الاساسي على الارض في سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م ، حتى تفوقت على ما سواها من المدن المغربية ، وغدت بفضل جامع القرويين/الذي اسس فيها في العقد الخامس من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي/ وهيئته العلمية التي كانت تتألف دوما من مشاهير علماء المغرب/والبلاد المجاورة ، مركزا ثقافيا لا ينفأ يزداد اهمية ، حتى بلغ الذروة في عهد المرينيين ، وخلفائهم الوطاسيين ، فصار يقصد العلماء وطلاب العلم من مختلف جهات المغرب ، وكذلك من الجزائر ، ولا سيما من تلمسان والغرب الجزائري عامة .

وعلى الرغم من ان فاس فقدت ابتداء من النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، بعض اهميتها لصالح مدينة مراكش التي اتخذها السعديون عاصمة لهم ، فان فاس ظلت بفضل جامعها المذكور ، وجوامع ومدارس اخرى كثيرة (١) ، مركزا من مراكز التبادل الثقافي الرئيسية بين الجزائر والمغرب في الفترة موضوع الدرس ، ان لم يكن اهمها على الاطلاق . اذ كانت مدينة فاس ، المدينة التي قصدها علماء الجزائر وطلبتها بكثرة في هذه الفترة كما في الفترة السابقة لها ايضا ، والتي استوطنها الكثير من منهم حتى كونوا فيها جالية جزائرية كبيرة ، كما ان فاس كانت المدينة التي توجه منها عديد من طلبة المغرب ، وعلمائه الى الجزائر ، بعضهم لاستكمال الدراسة ، وآخرون للمساهمة في نشر العلم في مراكزنا المختلفة .

اما علماء الجزائر وطلبتها الذين أموا فاس في الفترة التي تهمنا ، فمن الكثرة بحيث يطول العد بهم لو حاولنا ذكر بعض من تعرفنا بهم المصادر ، ولا سيما ان ذكرنا كل ما عرف عن كل واحد منهم ، ولذلك نكتفي بالاشارة الى بعضهم ، مع تعريف مختصر بهم ، يبرز على الخصوص مساهمتهم في الحياة الثقافية في فاس ، ومن خلالها في المغرب كله .

(١) حسب الوزان كان يوجد في فاس قرابة /٦٠٠/ جامع او مسجد منها خمسون كبيرة اهمها جامع القرويين و /١١/ معهدا او مدرسة عدا عن المدارس المخصصة للاطفال التي كان يوجد فيها قرابة /٢٠٠/ مدرسة : انظر وصف افريقيا ج ١ ص ١٨٣ وما يليها .

الذين اموا فاس على سبيل المثال لا الحصر : محمد بن محمد بن العباس التلمساني ، احمد
بي جمعه الوهراني ، واحمد المعروف بابن بيده ، ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بابــن
ن ، وابنه محمد الواهل ، وسعيد المقري ، واحمد بن قاسم العقباني ، واحمد بن احمـــد
باد ي ، ويحيى بن سليمان الزوــزواوي ، ، واحمد المقري " ، وكمــل هــــــــؤلاء
وا من اعيان الطلبة والعلماء الجزائريين الذين كان لهم نشاطهم في الجزائر والمغرب وقد
التعريف ببعضهم ، ونضيف اليهم الان :
محمدا بن مرزوق " السبط" الذي وصف بأنه كان آخر علماء تلمسان الآخذين من كل ســن
ر نصيب ، وخصوصا علم الحديث ، كان يفسر القرآن ويقرئ الصحيحين ، رحل الى فاس في وقت
حدده المترجمون له ، ولعله بعد غزو الاسبان لوهران سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م ، وليس معروفـــا
توفي اذ كان حيا في سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م (1) .
احمد بن محمد العبادي التلمساني : كان من علماء تلمسان الاعلام ، رحل الى فاس في عهد
لطان السلطان احمد الوطاسي سنة ١٥٢٦-١٥٤٦م فقدمه للتدريس في جامع القرويـيــــن ،
جود العلماء المغاربة فكثر الآخذون عنه من علماء المغرب وطلبتهم كما كثر المنافسون له مــن
اء فاس ، والحاسدون له لتقدمه عليهم ، وميل ارباب الدولة اليه ، وتمتعه لديهم بجاه كبيـــر
توفي في العقد الرابع من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي دفن في فاس (2) .
موسى بن سعيد الحافظ الزواوي : ترجم له ابن القاضي في " الدرة " و ... ه انه كـــان
تاذا مقرئا بفاس ، وذكر أن من تلاميذه ابا مهدي عيسى بن احمد الماواسي ، وانه توفي في سنــــة
٩٢ هـ/ ١٥٢٤م ، ولكنه لم يذكر متى دخل مدينة فاس (3) .
عليا بن عيسى الراشدي التلمساني : كان من اكابر الاساتذة في فاس وعنه اخذت جماعـــة
نخبة علماء فاس والمغرب ومنهم ابو العباس احمد المنجور وغيره وكان مختصا بتدريس علــم
قراءات والرسم والتجويد ، وتولى كرسي الشاطبية الكبرى في القراءات بمسجد الشرفاء .. ولم
د الى موته ، اذ توفي في فاس سنة ٩٨٢هـ (4)
محمدا بن عزوز الديلمي ، الفقيه الحافظ ، الامام المقرئ . رحل الى فاس في اواخر عمره وتوفي
ا ولم يذكر ابن مريم الذي ترجم له تاريخ هجرته ، ولا تاريخ وفاته فيها ، انما هو من طبقة محمد
مقرون بن هبة الله الذي رحل مع جماعة من فقهاء تلمسان الى فاس سنة ٩٦٨هـ وكان يدرس
الفقه واصوله ... الفرائض باتقان (5) :

(1) انظر عنه : ابن مريم / البستان .. ص٢٥٨
(2) انظر عنه : ابن عسكر : الدوحة ص٨٨
(3) انظر عنه : احمد بن القاضي : درة ... ج٣ ص٧١
(4) نفســـــه ج٣ ص٢٥٦
(5) ابن مريم / البستان ص٢٨٢-٢٨٣

٦- والى جانب من تقدم ذكرهم تجدر الاشارة الى بعض ابناء المهاجرين الى فاس الذين ولدوا ونشأوا في فاس، ولكنهم احتفظوا بنسبهم الى موطنهم الاصلي، ومن هؤلاء عبد الواحد بن احمد الونشريسي، الذي وصفه ابن عسكر بـ (الفقيه، العالم العلامة البحر الفهامة صاحب القلم الفصيح واللسان العربي فريد دهره واعجوبة عصره .. انتهت اليه رئاسة العلم وجمع بين الخطط الثلاث الفتيا والقضاء والتدريس.) (١) واحمد بن محمد المرابط بن محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني، الذي وصفه الآخر بأنه كان من العلماء الاعلام، عارفا بالنحو والفقه اتم معرفة ومشاركا في غيرهما. لم يعد الى موطن ابيه اذ توفي في فاس سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٨م (٢)

٧- محمد بن عبد الكريم الجزائري وهو ليس من ابناء المهاجرين الى المغرب وانما من الذين هاجروا الى فاس بعيد الفترة موضوع الدرس. وقد ذكرته من بعض مثقفي هذه الفترة لانه رحل بعد ان اتم دراسته في الجزائر على يد سعيد قدورة المتوفي في حدود سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م او يقف دليلا على ان فاس ظلت بعد سنة ١٠٦٩-١٠٧٠هـ/١٦٥٩م تاريخ نهاية الفترة التي تهمنا، تستقطب طلبة الجزائر وعلماءها.

وقد كان محمد بن عبد الكريم فقيها، اديبا، علامة، موضع تقدير واحترام كبيرين من قبل اهل المغرب، والسلطان مولاي اسماعيل العلوي، وتوفي بفاس سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م. (٣)

ويؤكد ايضا استمرار توجه علماء الجزائر وطلبتها من مختلف جهاتها الى فاس هجرة محمد بن احمد القسنطيني المعروف بابن الكماد اليها واستيطانه فيها الى ان توفي فيها سنة ١١١٦هـ/١٧٠٤م. (٤)

ولعل فيمن تقدم ذكرهم ما يكفي للدلالة على ان مدينة فاس في هذه الفترة استقطبت الكثير من طلبة الجزائر وعلمائها. وفي نشاط هؤلاء في مهجرهم ما يدل على دورهم الايجابي في الحياة الثقافية في فاس، ومن خلالها في المغرب كله.

ولما كان معظم العلماء والطلبة الجزائريين الذين هاجروا الى فاس آثروا الاستقرار فيها بصفة نهائية، فان هجرتهم تلك كانت تترك فراغا كبيرا في المراكز التي هاجروا منها، مثل تلمسان التي هاجرت منها مجموعة كبيرة فضعف نشاطها الثقافي قياسا بما كان عليه في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي

(١) ابن عسكر : دوحة الناشر ص٤١
(٢) الصفناوي : تعريف الخلف جـ٢ ص٦١
(٣) نفسه جـ٢ ص ٤٢٠-٤٢١
(٤) نفسه جـ ٢ ص ٣٤٤-٣٤٥

القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، بعد ان تلمسان قد حرمت النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي الى المركز الثاني من حيث الاهمية الثقافية، تاركة المركز الاول لمدينة الجزائر العاصمة التي قصدها العلماء من مختلف جهات البلاد الاسلامية، بما في ذلك المغرب.

- مراكش : انتعشت مراكش بعد ان كاد يصيبها الخراب في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي (1)، وازدهرت الحياة الثقافية فيها، خصوصا في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، حيث اصبحت عاصمة للمغرب، ونافست فاس في المركز العلمي الاول في المغرب، وتفوقت عليها بفضل من نزح اليها من علماء فاس نفسها، وسائر حواضر المغرب، ومن وفد اليها من علماء البلدان المجاورة للمغرب ومن المشرق وبلاد السودان، وتصدر للعطاء في مساجدها ومدارسها الكثيرة واهمها جامع الشرفاء والمدرسة المجاورة له (2).

وقد بلغت مراكش اوجها في عهد السلطان المنصور السعدي، الذي كان يقرب العلماء ويكرمهم، ويغدق عليهم، فاستطاب الكثير منهم هذا قبل ان تأخذ في التقهقر بعد وفاة السلطان المذكور، لما عرفته من اهوال من جراء تنافس ابناء المنصور على السلطة، وكثرة الثائرين من هؤلاء.

والمهم ان مراكش غدت خاصة في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، مركزا ثقافيا هاما قصده كثير من المثقفين الجزائريين، اما للاخذ عن علمائها او للمساهمة في نشاط الحياة الثقافية فيها بنشر العلم، او المناقشة والمناظرة مع اهل العلم فيها. وقد حلا المقام لبعضهم هناك فاستوطنها بصفة نهائية، ذلك ان السلاطين السعديين لم يضنوا عليهم بالطول والوظائف العلمية والدينية الرفيعة، ومن بين المثقفين الجزائريين الذين اموا شطر مراكش عاصمة السعديين لهذا الغرض او ذاك نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

- محمدا بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر : ذهب الى مراكش في سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م موفدا من قبل الاتراك العثمانيين الى السلطان السعدي احمد الشيخ، بشأن اقامة السلام بين الطرفين، وتحديد الحدود بين البلدين : الجزائر والمغرب، الا انه انتهز الفرصة ودخل في مناقشات جريئة مع رجال المغرب وعلمائه في فاس وفي مراكش. وفي الاخيرة

(1) انظر عن مراكش في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي الحسن الوزان المرجع السابق ج1
(2) مارمول : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٩

حل في مناقشات مع كبير مرابطي مراكش ، ابي عمر المراكشي القسطلي وانكر عليه فيهـــا
ئل كثيرة بما في ذلك حلق شعر الشارب وفي هذه السفارة ، والسفارة الثانية له الى المغرب
سنة ١٥٥٤ م اخذ عن الخروبي الكثيرون من علماء المغرب وطلبته . اذ كان
خروبي يجمع بين سعة العلم والقدم الراسخ في التصوف . (١)

ـ محمدا بن هبة الله المعروف بشقرون : رحل الى فاس ، ومنها الى مراكش سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م
. بالمدينتين . وقد تقدمت الاشارة اليه ، ونضيف هنا ان فقهاء مراكش احتفلوا بقدومه
(٢)
كان فقيها ، يقوم على ابن الحاجب اتم قيام ، وكان عارفا بالاصلين والبيان والمنطق ،
تفع الناس بعلومه الغزيرة ، وكثر الآخذون عنه من الملوك والامراء السعديين وعلية القوم في
مغرب وعلمائه ، ومن بين هؤلاء نذكر منهم : الغالب بالله ، والمنصور ، وابن القاضي ، وابن عسكر ،
محمد المنجور وغيرهم ، وكانوا يحضرون الى دروسه الشائعة في الفقه والمنطق والتفسير والبلاغة
فرائض والحساب .
كان ابن هبة الله من الذين استوطنوا المغرب بصفة نهائية و في فاس ، كانت وفاته في سنة
٩٨٣هـ/ ٧٥ - ١٥٧٦م قبل يوم واحد من دخول الاتراك العثمانيين الذين كان يكرههم
(٣)
يها مع عبد الملك .

٣ـ ابا الطيب البسكري : ذهب الى مراكش في سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م سفيرا موفدا من
ل الاتراك العثمانيين لتقديم التهنئة للمنصور بالانتصار في معركة وادي المخازن ، والجلوس
ى كرسي الملك . وكان ابو الطيب من علماء الجزائر البارزين آنذاك ، ووصفه القشتالي
(٤)
" الشيخ العالم ، الصدر الكبير ، الخطيب الشهير " وذكر انه كان مفتي الجزائر . ولكنه
م يحدثنا عن نشاطه بفارس الاطار الدبلوماسي في الميدان الثقافي ، كما حدثنا غيره عن نشاط
محمد الخروبي ، ولعل ذلك لقصر مدة اقامته في مراكش .
ـ محمدا بن رأس العين الاندلسي الاصل ، الجزائري الموطن ، رحل الى مراكش . ومدح
المنصور ، ثم عاد فيما بعد والى الجزائر ، اذ كان من بين نواب سعيد قدورة في الخطابة
في الجزائر . قال ابن القاضي الذي ترجم له انه " جواب ، رحاله ، من اهل الجزائر ، له
(٥)
مدائح في النبي (ص) وديوان شعر ومقامات وغير ذلك ..." .

(١) انظر عنه وعن نشاطه في مراكش ـ ابن عسكر ، دوحة الناشر ص٦٣ الافراني : النزهة ص٤٢
(٢) ابن القاضي جذوة الاقتباس ص٢٠٧
(٣) ابن القاضي درة الحجال ج٢ ص٢١٥ ، ابن مريم / البستان ص٢٦١ ، التامنارتي الفوائد الجمة ص(٣١-٣٢)
(٤) القشتالي : مناهل الصفا ص٥٠
(٥) ابن القاضي : درة الحجال ج٢ ص١٦٢ ، وانظر عنه ايضا سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ص٢٩٩

٥- محمد المقري التلمساني : الذي قصد اول مرة فاس لاخذ العلم ، ثم استقر في مراكش حيث قلده المنصور الافتاء وولاه التدريس، واخذ عنه كثيرون في الفقه، منهم محمد بن عبد العزيز القشتالي . ولم يعد الى وطنه الاصلي، حيث توفي في مهجره سنة ١٠١٨هـ/١٦١٨) (١) .

٦- احمد المقري التلمساني : قصد مراكش للدراسة ، ثم استقر في فاس حيث اشتهر صيته بها وتولى فيها الفتوى والخطابة قبل ان يهاجر الى المشرق ويستقر في مصر (٢) .

٧- محمد بن محمد التواتي : رحل الى مراكش من توات ، وكان من كبار مشايخ الحديث فيها ، والآخذون عنه فيها كثيرون ، منهم احمد بن القاضي (٣) .

٨- عبد الرحمن العنابي : ورد ذكره في مناهل القشتالي على انه من كتاب المنصور السعدي ، وانه نبيل العلماء الماطين ، وانه الفقيه الأجل (٤) . ولم يذكر القشتالي شيئا عن تاريخ ميلاده ، او مكان ولادته ، ولا تاريخ هجرته الى مراكش ، ويبدو انه من الذين انشأوا على اديم المغرب ، اذ كان والده محمد العنابي (٥) او جده على الارجح نزيل درعة ، بجنوب المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / ومطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

ومهما يكن من امره فاحتفاظه بنسبه الى عنابة يدل على انه من ذوي الاصول الجزائرية .

وما اكثر امثاله في مختلف المدن المغربية .

ويتضح من التراجم التي تقدمت ، ان المثقفين الجزائريين قد كان لهم دور ايجابي في مراكش حيث ساهموا مساهمة فعالة في تنشيط الحياة الثقافية فيها .

وعلى الرغم من العدد الكبير من المثقفين الجزائريين الذين رحلوا الى مراكش ، فان المدينة الاخيرة تاتي في المرتبة الثانية كمركز للمبادلات الثقافية بين الجزائر والمغرب ، ذلك ان عدد المثقفين الجزائريين الذين قصدوا ورحلوا الى فاس ، ولا سيما من استوطنها منهم اكبر كما يتبين للباحث في كتب تراجم العصر موضوع البحث .

اما مركز المبادلات الثقافية الثالث في المغرب فيبدو انه سجلماسة، ولكن ليس دون منافسة من تارودانت ، وتفاوزن عليه :

---

١) المقري : روضة الآس ص ٢٠٧
٢) المحبي : خلاصة الاثر ج ١ ص ٣٠٢ والحفناوي تعريف الخلف ج ١ ص ٥٤-٥٥
٣) عباس بن ابراهيم : الاعلام ج ٤ ص ١٩٨
٤) لقشتالي : مناهل الصفا ص ٢١٦ وانظر الافراني : النزهة ص ١٢١
٥) انظر ما سيأتي ص .

- سجلماسة :

اشتهرت سجلماسة على الخصوص بأنها مركز تجاري هام في جنوب المغرب، ومحطة رئيسية بين شمال المغرب وبلاد السودان . على ان سجلماسة يمكن ان ينظر اليها على انها مركز ثقافي ايضا ، بفضل الزوايا العديدة التي كانت تقوم بنشر التعليم في مقاطعتها ، ومقاطعة درعة المجاورة لها ، والتي كان يؤمها الطلبة من مختلف الجهات المجاورة ، ولم يقم احد باحصائها كما فعل المختار السوسي بالنسبة للسوس . ومن اهم هذه الزوايا :

- زاوية تامجروت : التي استمرت نشطة طوال عهد السعديين ، وممن تخرج من علماء المغرب في هذه الزاوية او درس فيها نذكر : (1)

- محمدا بن علي الدرعي وابنيه محمدا وعليا :

وقد كان الاول من العلماء العاملين ، كما يصفه ابن عسكر ، وهو من تلاميذ عبد العزيز القسنطيني الآتي ذكره ، وكانت له مع استاذه مراسلات مفيدة في التصوف . اما ولده محمد الذي ذهب في سفارة الى القسطنطينية سنة 980 هـ موفدا من قبل السلطان عبد الله الغالب بالله ، فقد كان فقيها كبيرا ايضا لأن ولده علي الشهير بالتمجروتي الذي اوفده السلطان احمد المنصور سفيرا منه الى القسطنطينية سنة 997 هـ وهو صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية ، كان فقيها اديبا ووصفه المترجمون له كالافراني في صفوة من انتشر ، بالشيخ العلامة ، توفي سنة 1003 هـ .

- وزاوية مطغرة : التي كان صاحبها عبد الله بن عمر فقيها كبيرا وعالما جليلا ، اخذ عن احمد الونشريسي وعبد العزيز القسنطيني وغيرهما من اكابر علماء القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وكانت له مع استاذه الاخير مراسلات وصفها ابن عسكر بأنها عجيبة . ومن تلاميذه السلطانان محمد الشيخ ، واحمد الاعرج توفي سنة 962 هـ . وتخرج من الزاوية ذاتها ابناؤه محمد ، وعبد الرحمن ، وكانا من الآخذين من العلم بطرف واسع ، بل ان ابن عسكر وصف الاخير منهما وكان التقى معه في فاس بالشيخ الفقيه الحافظ النقاد والعلامة .. توفي سنة 98 هـ وتوفي اخوه في نفس العقد الثامن . (2)

ومن علماء سجلماسة ودرعة البارزين ايضا في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .. علي بن عبد العزيز السجلماسي ، الفقيه الاستاذ في القراءات توفي ، ومحمد بن مهدي الدرعي الذي درس على محمد بن علي الدرعي المتقدم ذكره صاحب زاوية تامجروت تصدر ابن مهدي

(1) انظر عن محمد الدرعي وولده محمد : ابن عسكر : دوحة الناشر ص 69 - 70 ، 83 وانظر عن ولده عليا : الافراني : صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر ص 106

(2) ابن عسكر : المرجع السابق ص 65 - 66

دريس فأفاد الكثيرين بعلمه (١) .

اما في النصف الاول من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى فبرز في تافيلالت (سجلماسة) الشريف عبدالله بن طاهر ، وعنه اخذ محمد بن سعيد المريفتي (٢) .

ونذكر ايضا من علماء سجلماسة ونواحيها في الفترة المذكورة عليا بن عبد الواحد السجلماسي ، الذى انتقل في العقد الخامس من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى الى الجزائر ، وتصدر للتدريس والافادة فيها (٣) .

ابن ابي محلي : الذى كان فقيها صرفا ، ثم تحول الى طريق التصوف ، ثم السياسة ، وهو الذى ثار على زيدان وازعجه من مراكش (٤) . ومن تلاميذه نذكر سعيدا قدورة الذى اصبح من اشهر علماء الجزائر .

ومن العلماء ذوى الاصل السجلماسي نذكر ايضا ابا الحسن السجلماسي عالم المغرب ، وامام نحاته في عصره ، واجمع اهل المغرب على تمكنه في العلوم العربية ، وهو [illegible] نشر العلوم العربية بفاس ، وعلمها لطلبته . وكثر الآخذون عنه في المغرب ، ومن اشهر تلاميذه محمد بن ابي بكر الدلائي ، والشيخ عبد القادر بن علي الفاسي . توفي بفاس سنة ١٠٣٥ هـ (٥) .

ومن علماء درعه الحضريين نذكر : محمدا بن ناصر الدرعي ، النحوى ، اللغوى ، الناظم مجدد الطريقة الشاذلية ، المتوفى سنة ١٠٨٥ هـ / ١٦٦٦ م (٦) .

وقد كان الجزائريون تجارا ومثقفين ، يقصدون سجلماسة واعمالها ، كل لتحقيق وطره . وبذلك يمكن اعتبارها مركزا ليس فقط للمبادلات التجارية ، ولكن للمبادلات الثقافية ايضا .

ومن المثقفين الجزائريين الذين قصدوا سجلماسة واعمالها في الفترة التي تهمنا نذكر :

١ - محمدا بن احمد التلمساني المعروف بابن الوقاد الذى ذهب الى سجلماسة قاضيا وخطيبا معينا من قبل السلطان السعدى (عبدالله بن محمد الشيخ) ، ولا ندرى كم مكث في سجلماسة قبل ان ينتقل منها الى مكناسة وفاس ، ويستقر نهائيا في تارودانت (٧) .

٢ - سعيدا قدورة : ذهب الى سجلماسة ضمن وفد تلمسان وبني راشد ، لتقديم التهاني لابن ابي محلي الذى نجح في اسقاط سجلماسة من حكم السلطان زيدان السعدى سنة ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م ، وقد كان ابن ابي محلي كما ذكرنا استاذا لسعيد قدورة . ولا يعرف كم مكث هذا الاخير في سجلماسة ، او ما هو نشاطه الثقافي (٨) . الا انه لا يستبعد ان يكون سعيد قدورة قد اجرى اتصالات مع الفئة المثقفة هناك . وان تكون هذه الاتصالات هي التي شجعت فيما بعد احد علماء سجلماسة البارزين ، وهو علي بن عبد الواحد السجلماسي الانصاري ، على الهجرة الى الجزائر والاستقرار فيها بصفة نهائية (٩) .

---

١) نفسه ص ٧٠
٢) انظر عن المريفتي : محمد القادري : نشر المثاني ج1 ص228 ، حجي : المرجع السابق ص 96
٣) الحفناوي : تعريف الخلف ج ١ ص ٦٩
٤) الافراني : النزهة ص ٢٠٣
٥) المحبي : المرجع السابق ج ١ ص ١١٦ - ١١٧
٦) نفسه ج ٤ ص ٢٢٨
٧) الحفناوي : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٥٠ - ٣٥١
٨) نفسه ج ٢ ص ٦٣ والافراني النزهة ص ٢٠٧
٩) الحفناوي : المرجع السابق ج ١ ص ٦٩

... سعيدا المنداسي التلمساني ، كان اديبا شاعرا، انتقل الى محمد بن الشريف العلوي، (1)
... في قاعدته سجلماسة، ومدحه بأشعاره ، وكافأه عليها باعطائه نحو 25 رطلا من خالص الذهب ،
... يدل على سخائه وتكريمه للادباء ، وعلى ان الذهب استمر في الوصول الى سجلماسة من
... بلاد السودان .

... محمدا بن علي الحضرمي المزغناني (الجزائري) وعبد الله البنفيزي : لا نعرف عنهما سوى
... انهما من فقهاء الجزائر ، وان وفادتهما الى سجلماسة كانت ضمن السفارة التي وجهها حكام
... الجزائر الى محمد بن الشريف العلوي للتفاوض معه في اقامة السلام بين الطرفين في
... سنة 1064 هـ / 1654 م ، وانهما ربما في سفارة ثانية لاستكمال المهمة السابقة. (2) ونجهل ما اذا
... كان لهما نشاط ثقافي في سجلماسة بهاتين المناسبتين على غرار نشاط محمد الخروبي في
... فاس ومراكش ، ونشاط التمجروتي في الجزائر وغيرهم من السفراء المثقفين ، ولذلك لا نملك الا
... ان نتوقع ان يكونا قد اجريا اتصالات مع الفئة المثقفة في البلدة ، واحتكا بها ، وتبادلا
... الآراء في المسائل الفقهية تمشيا مع صفتهم كفقهاء .

5- عبد العزيز القسنطيني : وصفه ابن عسكر بانه " من اكابر الاولياء واعلام الصوفية ، ويقال انه بلغ مقام الافراد، فنازل الاقطاب، " (3) الا انه لم يذكر متى هاجر الى المغرب ، ولم يحدد اين نزل فيه ، ويفهم من سياق تراجمه لاهل الجنوب المغربي انه نزل سجلماسة واعمالها . وكانت له مراسلاته الكثيرة مع اشهر تلاميذه الشيخين عبد الله بن عمر المضغري (4) ، ومحمد بن علي الدرعي التمجروتي . (5)

وكانت وفاة عبد العزيز القسنطيني في العقد الرابع من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . (6)

6- محمدا بن الحنابي : لا نعرف بالضبط متى هاجر الى المغرب واستقر في جنوبه . ومن ترجمة ابن عسكر له (7) نعلم انه نزيل وادي درعة الذي يلي اعمال سجلماسة حسب بعض التقسيمات الادارية ومن اعمالها حسب اخرى ، وانه من اهل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وواكب بداية الدولة السعدية في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، حيث كان على صلة بمؤسسها ابي عبد الله محمد الملقب بالقائم بأمر الله ، في حين كان يتمتع بوجاهة كبيرة ايضا لدى الوطاسيين الذين كانوا يدخلونه الى ...

---

1) الافراني : النزهة ص 302 و السلاوي الاستقصاء ج 7 ص 21
2) السلاوي : المرجع السابق ص 25-26
3) ابن عسكر : الدوحة ص 67
4) نفسه : ص 65
5) نفسه : ص 66
6) نفسه : ص 67
7) نفسه : ص 60-69

... وقد مات غريقا وهو ... ويندبونه لافتداء الاسرى المسلمين ، ... ارتدم حيث نساؤهم وجواريهم .
... طريقه الى جزيرة الاندلس لافتداء الاسرى المسلمين .
وصفه ابن عسكر بأنه «كان سيدا فاضلا عالما بغرائب العلوم عثر على الحكمة ظاهرا وباطنا ، ... رفا حتى بعلم الزيور والكيمياء» ولكنه لم يذكر احدا من تلاميذه . ولعل عبد الرحمن ... عنابي كاتب المنصور المتقدم ذكره ابنه او حفيده ، اذ ذكر انه من نجب العلماء العاملين ... سلالة الصالحين . (1)

ومما تقدم يتبين ان سجلماسة استقطبت هي الاخرى مثقفين جزائريين من مختلف جهات ومقاطعتها ... الجزائر من قسنطينة ، وعنابة والجزائر وتلمسان وغيرها . وكما كان للمثقفين الجزائريين ... في فاس ومراكش ورسم الايجابي ، ومساهمتهم في تنشيط الحياة الثقافية في المركز الثقافي ... الذين توجهوا اليه انشاء وعطاء ، كذلك كان حال غالبية من توجه الى سجلماسة واعمالها .

ـــ تطوان : لم تبرز تطوان مركزا ثقافيا في شمال المغرب ومركزا للمبادلات الثقافية ... بين المغرب والجزائر الا في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بعد ان اعاد الاندلسيون بناء المدينة في اواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي (2) ، وبعد ان اصبحت المراكز الثقافية التي كانت نشيطة في الماضي كسبتة وطنجة تحت الاحتلال البرتغالي والاسباني .

الا ان تطوان لم تبلغ ما بلغته سبتة وطنجة في سالف عهودهما ، ولا ما بلغته فاس او مراكش ، اذ كان اهتمام اهلها واكثرهم من الاندلسيين موجها لمقارعة الغزو البرتغالي والاسباني ، والمجاهدة ضد الاسبان والبرتغاليين . ولذلك فان الجزائريين الذين قصدوا تطوان واستوطنوها ، كانوا على الخصوص من المثقفين الذين اتموا دراستهم في الجزائر ، او في فاس بالمغرب ، او في المشرق ، وجاؤوا اليها للمساهمة في نشر العلم بها ، ومن هؤلاء :

1 ـــ ابو القاسم بن سلطان القسنطيني ، الذي استقر في تطوان بعد ان تخرج في فاس على يد احمد المنجور ، واخذ عن علماء كثيرين في المشرق ، كالتاجوري وابي الحسن البكري الصديقي . وكان فيهما خطيبا ومدرسا للفقه والمعقولات . وصفه معاصره ابن القاضي بأنه الفقيه المحصل ، وبأنه الرجل الزاهد الورع المحافظ على دينه ، واثنى عليه وعلى مؤلفه الذي رد فيه على الطائفة الاندلسية التي نحت نحو المذهب الظاهري واطلعه عليه سنة 995هـ/1587م (3) .

2 ـــ احمد بن يوسف الزياتي : تصدر هو الآخر لنشر العلم في تطوان سنين طويلة . بعد

---

(1) الفشتالي : المناهل ص 216

(2) ضرب الاسبان تطوان سنة 1400 م واعاد المهاجرون الاندلسيون بناءها قبيل سقوط غرناطة سنة 1492 م - انظر محمد داود تاريخ تطوان المجلد الاول .

(3) ابن القاضي درة الحجال ج 3 ص 288

ن نهل من معاصيد فاس . وكما تدل نسبته فهو سليل بني زيان سلاطين تلمسان ، استوطنت اسرته شمال المغرب على الارجح بعد القضاء على الدولة الزيانية في تلمسان سنة ١٥٥١م

٣- ابو علي الحاج منصور البجائي : لم ينزل في تطوان، وانما في المنطقة المجاورة لهـا ، المسماة تازغدره من احواز ورغه . ذكره ابن عسكر على انه التلميذ الكبير للشيخ ابن عبد الله بعد المعروف بالحاج الشطيبي الاندلسي الاصل ، ولم يذكر تاريخ وفاته على شمال المغرب ، واستقراره به ، ولعل ذلك بعد احتلال الاسبان لبجاية سنة ١٥١٠ .

وكان الحاج منصور صاحبا لرجال التصوف في شمال المغرب امثال يوسف التليدي ، واستاذه الشطيبي وغيره ، وممن اخذ عنه ابن عسكر صاحب الدوحة ، ولم يذكر له غيره من التلاميذ (١) .

ويبدو انه لم يعد الى بجاية بعد تحريرها سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٥م .

ولا شك ان تطوان كانت مركزا احتكاك ، والتقاء بين عدد آخر كبير من الجزائريين والمغاربة ، والاندلسيين، تجارا كانوا ام مثقفين ام غزاة، وبؤرة مشعة لتبادل الافكار والتأثيرات المختلفة الفكرية والحضارية والاقتصادية والسياسية . اذ كانت السفن الجزائرية الناقلة للمسافرين المغاربة والجزائريين من تجار ، وعلماء ، وسفراء وحجاج، لا تنفك عن الغدو والرواح اليها .

هـ- تارودانت : برزت تارودانت كمركز ثقافي له اهميته في جنوب المغرب في عهد السعديين، الذين اتخذوها قاعدة لهم قبل مراكش ، ورغم بعد تارودانت عاصمة بلاد السوس عن الجزائر، ووجود مراكز ثقافية كثيرة في المغرب تحول دون تفكير الجزائريين في الهجرة اليها كفاس ومراكش وسجلماسة وغيرها، لانها اهم منها ، فان بعض المثقفين الجزائريين هاجروا اليها وآثروها على غيرها كمستقر دائم لهم في مهجرهم، وفي مقدمة هؤلاء يتبادر الى الذهن .

١- الشيخ العلامة الامام ابو عبد الله محمد بن احمد التلمساني المعروف بابن الوقاد المتقدم ذكره، فقد قصد تارودانت بعد هجرته من تلمسان سنة ٩٦٨هـ/ ١٥٦١م، واستقر فيها بصفة نهائية بعد ان تردد في اول الامر حيث غادرها الى سجلماسة بعد ستة اشهر فقط من الاقامة فيها اول مرة ، ولما عاد اليها للمرة الثانية بعد الطواف على سجلماسة ومكناسة وفاس طاب له المقام، وحلا له القرار فيها مدة سيرته . وفيها جمع بين الفتوى والخطابة والامامة والتدريس في جامعها الكبير .

وكان فضله كبيرا في تعريب اهلها البربر بالعربية او نشر العلوم الدينية واللغوية المختلفة فيها، من حديث وتفسير، وفقه وقواعد اللغة ، وغير ذلك ، فتخرج على يده خلق كثير .

(١) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ١٥-١٦

وكانت له وجاهة وشهرة عند الملوك السعديين ، فكان المنصور يتحفه ويؤثره بالمواكلة معه ويزوره الى بيته ويقول : ليس عندنا اخطب من الوقاد الا ان الله اختاره لتارودانت وأن لم يكن كرسي الخلافة . (١)

ولما توفي ابن الوقاد في سنة (١٠٠١هـ/١٥٩٢-١٥٩٣م) خلفه ابنه ابو زيد عبد الرحمن في كثير من الخطط التي كان يتولاها كالخطابة والامامة والتدريس ، ولم يكن ذلك دون بعض المنافسة بينه وبين القاضي السكتاني ، وعبد الرحمن التامنارتي صاحب الفوائد الجمة (٢). وقد حظيت تارودانت قبل ان يستقر فيها ابن الوقاد مع اسرته بزيارة عالم جزائري جليل من تلمسان ، صحبه السلطان السعدي ابي عبد الله محمد الشيخ ، مكث فيها نحو سنة يحاضر بجامعها الكبير في العلوم الدينية واللغوية والادبية ، من فقه وحديث وتفسير وعقائد ، وبيان ، وغيرها ، الا وهو محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوجزاني التلمساني ، الفقيه ، العارف بالمنطق والعقائد ، والبيان وغير ذلك ، الذي تقلد الفتوى والخطابة والامامة والتدريس في القرويين ، بعد ان هاجر اليها من تلمسان ، كما تقدم في صدر ايام السلطان محمد الشيخ . (٣)

* * *

وهكذا تعددت المراكز الثقافية التي كان يقصدها المثقفون الجزائريون ، الطلبة منهم للاخذ واستكمال دراستهم ، والعلماء منهم لنشر علومهم فيها ، والسفراء والزوار منهم للمناقشة والتعارف والمناظرة . فمنها ما هو في الشمال كتطاوان وفاس ، ومنها ما هو في الجنوب كمراكش واقسى الجنوب المغربي كتارودانت وسجلماسة واعمالها . ولو حاولنا تتبع كل المراكز التي كانوا يترددون عليها لاضفنا الى ما ذكرنا زوايا كثيرة وفي مقدمتها الزاوية الدلائية التي كان موقعها في اقليم تادلا بوسط المغرب ، والتي قصدها احمد المقري التلمساني للدراسة فيها عن الشيخ محمد بن ابي بكر الدلائي . وهذه الزاوية ازدهرت كثيرا في العقود الثمانية الاولى من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، قبل ان يخربها السلطان الرشيد العلوي في سنة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م ، اذ استفادت من اضطراب الاوضاع في فاس وهجرة الكثير من الطلبة والعلماء اليها وقد تخرج منها كثير من مشاهير علماء المغرب . (٤)

ومن يتأمل موطن الجزائريين الذين ترددوا على المغرب واستقروا فيه ، يجد ان المغرب استقبل مثقفين جزائريين من مختلف جهات الجزائر ، فهناك من جاء من عنابة وقسنطينة وبجاية في

---

١) التامنارتي الفوائد الجمة ص ١٣ و الحفناوي تعريف الخلف ج ٢ ص ٣٥٠-٣٥١

٢) التامنارتي : المصدر السابق ص ٥٤ (الترجمة الفرنسية) والحفناوي تعريف الخلف ج ٢ ص ٤١٦

٣) ابن مريم : البستان ص ٢٦٠-٢٦١ ، التامنارتي : المصدر السابق ص ١٣ ابن القاضي : الجذوة ص ٢٠٦ وابن عسكر : الدوحة ص ٦٠-٦١

٤) انظر عن الزاوية الدلائية وعلاقة المقري بشيخه ، محمد حجي : الزاوية الدلائية ص ١٠٨ وغيرها

الجزائر ،ومن جاءه من زواوه ومدينة الجزائر في وسطها ،ومن جاءه من مغراوة والونشريس
ان وتلمسان ومظفره في الغرب الجزائري . ومن جاءه من بسكره وتوات بالجنوب الجزائري .
وكثيرون منهم كما تبين-هم الذين آثروا البقاء في المغرب لما لقوه لدى اخوانهم المغاربة
عظيم وتقديرلدى الحكام المغاربة من حظوه وترحيب .

واذا كانت تلك هي اهم مراكزالتبادل الثقافي التي كان يقصدها الجزائريون في المغرب
في ياترى اهم مراكز التبادل الثقافي التي كان يقصدها المثقفون المغاربة في الجزائر وما دورهم
؟ وهل وجدوا لدى اخوانهم الجزائريين وحكام الجزائر من التقدير والحظوه ،ما وجده
المثقفون الجزائريون في المغرب ؟

: مراكز التبادل الثقافي في الجزائر :

كما هو الحال في المغرب فان في الجزائر مراكزعديدة للتبادل الثقافي ،كان المثقفون
المغاربة يقصدونها اما لاخذ العلم منها ،او نشره فيها ،او لمجرد الزيارة بمناسبة الحج
او السفارة للتعرف بعلمائها ،وتبادل الآراء والافكار والكتب معهم ،او الوقوف على معالمها
او زيارة اوليائها او مدافنها ،او لغير ذلك من الاغراض ،ومن اهم مراكز التبادل الثقافي في
الجزائر نذكر :

آ - مدينة تلمسان : التي كانت من اهم المراكز العلمية في الجزائر ،ان لم تكن اهمها على
الاطلاق خلال عدة قرون ،قبل ان تضطرب الاوضاع السياسية فيها ،اضطرابا شديدا طوال النصف
الاول من القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي ،وينتهي الامر في منتصفه بسقوط الاسرة
الزيانية من الحكم ،ويفقدان تلمسان لمركزها كعاصمة لصالح مدينة الجزائر لكثير من اهميتها
في ذلك في جميع المجالات ،بما في ذلك المجال الثقافي ،حيث هجرها الكثير من علمائها
الى المغرب في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

كانت تلمسان ،ولا سيما قبل ان يؤول امرها الى ما ذكرنا ،مقصد الكثيرين من المثقفين
المغاربة ،الطلبة منهم ،وحتى العلماء ،يأتون اليها للاخذ عن علمائها الذين طبقت شهرة بعضهم
الآفاق ، ومن ابرز المثقفين المغاربة الذين قصدوا تلمسان لغرض من الاغراض :
- ابو عبدالله محمد بن احمد اليسيتني : المتوفى سنة ٩٥٦هـ ،جاءالى تلمسان للاخذ
عن علمائها ،ومنهم ابوعبدالله محمد بن موسى الوجديجي ،مفتي تلمسان واحد كبار علمائها ،
وابي عثمان سعيد المنوفي ،وغيرهما ،ثم انتقل للاخذ عن آخرين في المراكز الثقافية الاخرى في
الجزائر ،والمشرق . ليعود الى بلده فقيها ،علامه ،في كثير من العلوم والفنون ،تولى الافتاء
والخطابة والتدريس في فاس(1) .

- الحسن الوزان : اما الحسن بن محمد الزياني المسمى عند الغربيين بـ (ليون الافريقي ،
يوحنا الاسد) ،فقد جاء تلمسان مرارا ،موفدا فيما يبدو من قبل السلطان الوطاسي محمد
البرتغالي ،للتشاور معه . وكان قد اوفده قبل ذلك لنفس الغرض الى ملوك بلاد السودان .
مكث الوزان في تلمسان في كنف السلطان الزياني فترة سمحت له بمعرفة الاوضاع التي كانت عليها
تلمسان ومملكتها ،السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كما يتجلى ذلك من خلال كتابه
الثمين المسمى " وصف افريقيا " . وفيه ذكر فيما يتعلق بالناحية الثقافية ان في تلمسان بضعة
جوامع جميلة ،تتمتع بعناية كبيرة ،وفيها أئمة وخطباء ،وخمس مدارس جيدة البناء ،مزخرفة ،وان فئة
المتعلمين (الطلبة) تشكل احدى الفئات الاجتماعية الاربع وهي : الصناع ،والتجار ،والطلبة
والجنود . وقد لاحظ الوزان ان حياة الطلاب في مدارسهم تلك

(1) ابن عسكر : دوحة الناشر ص ٩-١٠ (٤٥) ،وابن القاضي جذوة الاقتباس ص١٥٢ .
درة الحجال لنفس المؤلف جـ ٢ ص (٢٠١ - ٢٠٢

كانت حياة بائسة ولكن وضعهم كان يتحسن بعد التخرج والحصول على ... فة من الوظائف الدينية او التعليمية او الادارية كأستاذ او امام او كاتب (1).

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي لم تعد تلمسان مركزا ثقافيا جذابا للطلبة المغاربة، اذ لم يكن فيه من العلماء البارزين غير سعيد المقري، في حين كانت المراكز الثقافية المغربية تعج بأمثاله من علماء المغرب، والعلماء الوافدين عليه من تلمسان وتونس وغيرهما.

اما العلماء المغاربة فأخذوا يتوجهون الى العاصمة الجديدة للجزائر والى عاصمة بايلك الشرق " قسنطينة ".

ولكن النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي الذي شهد اضطراب المغرب بعد موت المنصور سنة ١٦٠٣ م / ١٠١٢ هـ . جعل كثيرا من مثقفي المغرب طلبة وعلماء يغادرونه بحثا عن الهدوء، والعمل، او الدراسة في الجزائر، فقصد تلمسان الشيخ عيسى البوسعيدي قادما اليها من فاس، واستقر بها، وتصدى للتدريس فيها، فأفاد خلقا كثيرا (2).

وجاء تلمسان ولكن بعيد نهاية الفترة موضوع الدراسة مجموعة من الدلائيين يتقدمهم محمد الحاج، السلطان الدلائي بعد ان خرب السلطان الرشيد العلوي زاويتهم وقوض ملكهم في سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م ونزلوا بحرم العباد، حيث ضريح الشيخ ابي مدين شعيب، ومكثوا فيها بضع سنوات مات خلالها محمد الحاج، ودفن بالعباد (3).

وخلاصة القول فان تلمسان في الفترة التي تهمنا قد فقدت الكثير من حيويتها، ونشاطها، كمركز للمبادلات الثقافية، حيث قل الوافدون اليها من طلبة المغرب وعلمائه، وكثر المهاجرون منها من الطلبة والعلماء الى مختلف المراكز الثقافية في المغرب.

ب - مدينة الجزائر : غدت مركزا ثقافيا مقصودا من قبل علماء المغرب والمشرق بشكل ملموس في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، بعد ان استقر امرها للاتراك وغدت عاصمة للبلاد الجزائرية كلها، ومركز نشاط اقتصادي كبير . ومن مثقفي المغرب الذين قصدوها في الفترة التي تهمنا :

1) انظر الوزان : وصف افريقيا ج ٢ (تلمسان)
2) سعد الله / تاريخ الجزائر الثقافي ج ١ ص ٢٩٧ هامش ١٦٥
3) محمد حجي : الزاوية الدلائية ص ٢٢٥

المثماني بقليل دخلها قبل ان تصبح تحت الحكم التركي

الحسن الوزان ، المتقدم ذكره ، ونزل ضيفا على بعض اهل المدينة

ث فيها فترة قصيرة ، اتصل خلالها بعلية القوم فيها ، ذكره ان هذا السفير عاد من

اسبانيا بشأن ابرام السلام مع الاسبان وذكر في كتابه المتقدم

يانيا بحوالي ٣٠٠٠ مخطوط اشتراها من شاطبه (١) .

ذكر معلومات مهمة عن اوضاع مدينة الجزائر في العقد الثاني من القرن العاشر الهجري /

ساد س عشر الميلادي .

ـ عبد الواحد بن محمد اللملي الميموني المكناسي : هاجر الى الجزائر واستقر بها

ي ان مات في سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م . كان فقيها . قال ابن القاضي عنه : "كان يستظهر ابن

حاجب الفرعي ، وله معرفة بالنحو والفرائض (٢) . وسكت عن ذكر دواعي هجرته الى الجزائر ونشاطه

لثقافي فيها وتاريخ هجرته اليها .

٣ـ محمد السوسي الناسي : هاجر الى الجزائر من فاس ايضا ، ونزل اول الامر في قسنطينة

على الاربعين في مطلع القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، ثم انتقل الى مدينة

الجزائر ، واستوطن بها الى ان توفي في سنة ١٠٢٣ هـ / ١٦١٤ م (٣) .

كان الداعي لهجرته في اول الامر الرغبة في الاخذ عن العلماء في الجزائر ثم طمع الى احتلال

المناصب العلمية السامية ومدح باشا الجزائر ومن دونه ، ولكنه لم يحصل الا على خطة التدريس (٤)

وهو كامل العدة وجاهز للعطاء .

٤ـ علي بن عبد الواحد السجلماسي : هاجر الى الجزائر ، واخذ عن كثير من مشايخ مصر كالاجهوري الذي اجازه

بعد ان نهل العلم من معاهد المغرب ، وتخرج على يده الكثيرون

وغيره . وتصدر للتدريس فيها ونشر العلم فأقبل الناس للاخذ عنه ، وساهم مساهمة ايجابية في تنشيط

منهم ابو مهدي عيسى الثعالبي ، ويحي الشاوي وغيرهما ، في الجزائر

الحياة الثقافية ، ورفع مستوى التعليم فيها ، بفضل دروسه وتآليفه المتعددة في المواد الدراسية

التي كان يدرسها وحتى في غيرها . في التفسير والفقه والنحو والحديث والبيان

والمنطق والفرائض والعلوم . فاستحق تقدير الحكام والاهالي على السواء . واذا كان لا يعرف

بالضبط تاريخ هجرته الى الجزائر واستقراره فيها بصفة نهائية ، فان وفاته كانت في سنة ١٠٥٧ هـ /

١٦٤٧ م بالوباء الذي كان سائدا في مدينة الجزائر في تلك السنة فترك فراغا كبيرا في المدينة (٥) .

---

١) الوزان : المرجع السابق ج ٢ ص ١

٢) ابن القاضي : درة الحجال ج ٣ ص ١٤٠

٣) المنوني : ملامح .. في المرجع السابق

٤) سعد الله : المرجع السابق ج ١ ص ٤٤٩ــ٤٥٠

٥) العياشي : الرحلة ج ٢ ص ١٢٧ ، الحفناوي في تعريف الخلف ج ١ ص ٦٩

وسعد الله في المرجع السابق ص ٣٧٧ــ٣٨٣ ، والمحبي : خلاصة الاثر ج ٣ ص ٢٤٠

- Joachim de Gonzalez: Essaie chronologique sur les musulmans célébres de la ville d'Alger. ALGER 1886, P.9.

ل ١ - محمد بن سليمان الروداني :
قصد الى الجزائر للاخذ عن عالمها الشهير سعيد بن ابراهيم قدورة وغيره
بعد ان اخذ على كبار العلماء في المغرب امثال السكتاني ومحمد بن ابي بكر الدلائي وغيرهما .
ومكث فيها فترة تلقن خلالها الذكر ولبس الخرقة من اجل مشايخه سعيد قدوره المذكور . ثم
قصد المشرق واخذ ايضا على مشايخه بمصر وجاور ، وبلغ درجة عالية من العلم والمعرفة وفي علوم
وفنون كثيرة والف في بعضها . وكانت وفاته في الشام سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م (١) .

٦- التمجروتي : وقد توجه في الفترة التي تهمنا عدد غير قليل من علماء المغرب وادبائه
الى الجزائر موفدين من قبل السلاطين السعديين الى حكامها ، وتوقف آخرون فيها ، وهم في
طريقهم الى اسطانبول موفدين الى السلاطين العثمانيين ، ولكننا سنقتصر على ذكر واحد منهم
فقط على سبيل المثال وهو التمجروتي الذي توقف في الجزائر في طريقه الى اسطانبول سنة
٩٩٨هـ/١٥٨٩م ، وانتهز الفرصة ، فقابل بعض علمائها ، وزار معالمها وكتب في رحلته المسماة
بالنفحة المسكية (١) في السفارة التركية يقول : ((وطلبة العلم بها (اى بالجزائر) ولا بأس بهم ،
الا ان حب الدنيا وايثار العاجلة والافتتان بها غلبهم كثيرا ، والكتب فيها أوجد من غيرها من
بلاد افريقية وتوجد فيها كتب الاندلس كثيرا (٢))) .

وقد كان يرافق التمجروتي في سفارته الاديب الشاعر الفقيه محمد بن علي الفشتالي .

وخلاصة القول ان مدينة الجزائر قد برزت في هذه الفترة موضوع الدرس مركزا نشيطا للمبادلات
الثقافية بين الجزائر والمغرب وبصفة خاصة في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري /
القرن السابع عشر الميلادي بفضل مساهمة المغاربة كعلي الانصاري ومحمد بن بكر السوسي الفاسي
الوافدين اليه .

جـ - قسنطينة : على الرغم من كل الظروف السياسية التي عرفتها قسنطينة في الفترة موضوع
الدرس من فتن واضطرابات ظلت مركزا مقصودا من قبل المثقفين المغاربة وربما اكثر من المراكز الاخرى

---

١) المحبي : خلاصة الاثر جـ ٤ ص ٢٠٤ . العياشي (رحلته) جـ ٢ ص ٣٠ الحفناوي
التعريف جـ ١ ص ٢١٤ - ٢١٥
٢) التمجروتي / النفحة المسكية .. ص ١٣٩

ذلك ان الهيئة العلمية التي كانت تتألف من عمر الوزان ومحمد العطار ، وعبد اللطيف المسبح ، (١)
واحمد المسبح ، وابو محمد بركات ، وعبد الكريم الفكون كانت هيئة علمية قوية جذابة ، اذ كان
كل واحد من افرادها باعه في علوم كثيرة وشهرته الواسعة . فشهرة عمر الوزان على سبيل المثال
كانت تتجاوز حدود الجزائر الغربية والشرقية ، حيث كانت تأتيه الاسئلة والمسائل من فاس وغيرها ،
ويحمل ذلك ما يجعل عددا غير قليل من المغاربة يقصدون قسنطينة للاخذ عن علمائها امثال :
١ــ محمد بن احمد البسيتني المتقدم ذكره الذي قصد قسنطينة بعد تلمسان فأخذ عن عمر الوزان
الاصلين والبيان وغيرهما ، كما اخذ عن محمد العطار(٢)
٢ــ سعيد الطاغوسي الصنهاجي الشهير بالحاج ابي جمعه ، وهو من اهل مراكش قصد قسنطينة
للاخذ عن الشيخ عبد الكريم الفكون (الجد) وقرأ عليه مختصر السعد ، ومختصر ابن الحاجب
الاصلي ، وحصل منه على الاجازة (٣)
٣ــ محمد السوسي الفاسي : تقدمت الاشارة اليه انه قد رحل اليها من فاس للاخذ عن علمائها
ثم انتقل منهـا الى الجزائر حيث صار مدرسا الا ان العقد التاسع من القرن العاشر
الهجري / السادس عشر الميلادي كان عقد شؤم على الهيئة العلمية في قسنطينة اذ قضى نحبه فيه
معظم من تقدم ذكرهم ، فعبد اللطيف توفي في سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م واحمد المسبح توفي في
(٩٨١هـ/ ١٥٧٣م) ، وابو محمد بركات سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م ، وعبد الكريم الفكون (الجد)
في سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٢م وكان عمر الوزان قد توفي في سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م والعطار في سنة 949هـ
4 ــ ابوعبد الله محمد بن مزيان التواتي :
اصله من المغرب من قبيلة الرواشد (٤) ، جاء الى قسنطينة وتصدر للتدريس
فيها وذاع صيته فقصده الطلبة من كل جهات الجزائر ، واراد العودة الى زواوه للاستزادة
عن علمائها ، وكان قد قصدها من قبل واخذ عنهم فتشبث به أهل قسنطينة وحالوا بينه وبين ذلك الان
التواتي اضطر الى الانتقال بعد ذلك الى باجه بتونس شرقا فيما بعد و من ملاحقة الاتراك
له بسبب بعض من لاذ به ممن كانوا موضع سخطهم وهناك توفي في سنة ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م .
٥ ــ احمد الفاسي : لم يقصد فيما يبدو الجزائر وقسنطينة بالذات طلبا للعلم او لنشره ،
وانما بحثا عن الحظوة لدى علية القوم في الجزائر عن طريق مدحهم بشعره ، وطلب المتعة
مهما كانت محظورة . ولذلك فليس غريبا ان يكون موقف علماء الجزائر في قسنطينة وفي مقدمتهم

---

١) انظر عن افراد الهيئة العلمية في قسنطينة المتقدم ذكرهم : الحفناوي تعريف الخلف ج٢و٢
٢) انظر عن البسيتني : ابن القاضي : الجذوة ص ١٥٢
٣) انظر عنه المقري روضة الآس ص ٢٢٦ — ٢٢٧
٤) انظر عن محمد التواتي : عبد الكريم فكون منشور الهداية و سعد الله المرجع السابق ج١
ص ٢٦٧

الكريم الفكون (الحفيد) موقف المندد ، الساخط عليه .(1)

وهناك نموذج آخر من المغاربة ليس افضل من نموذج احمد الفاسي اذ كان يستترتحت غطاء الولاء ... عاء البركة لارتكاب اعمال شنيعة، وقد اورد هايدو صورة عن احمد هذا جاء الى الجزائر في سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م ... فاس وكان ان اصدر الباشا قرارا تجاهه بالخروج من مملكته كلها خلال ثلاثة ايام.(2)

اما احمد الفاسي فيبدو ان اعماله لم تكن تزعج كثيرا الحكام ، ولذلك فقد استمر في سلوكه ... ذكور .

وخلاصة القول فان قسنطينة التي هاجر منها بعض مثقفيها الى المغرب واستوطنوه ، استقبلت ... من المغاربة المثقفين ، ولكنهم لم يكونوا جميعا من مثل محمد بن مزيان التواتي الذي كان ... بدور كبير في تنشيط الحياة الثقافية فيها .

... زواوه ، وطبانه ، وبسكره : ان بروز زواوه وبسكرة ولا سيما طبانه كمراكز ثقافية على مستوى ... البلدين الجزائر والمغرب لم يكن ثابتا في اول الفترة موضوع الدرس ، فطبانه برزت على الخصوص ... مركزا مقصودا من قبل طلبة الجزائر والمغرب وعلمائها المرابطين في عهد ابي العباس احمد بن يوسف ... لكنها لم تحتفظ بنفس الاهمية التي كانت في عهد الصدر الأخير ... ولقد ... بعده من المغرب لاخذ التصوف عنه كل من محمد الشطيبي(3) ، وعبد الله الخياط(4) .

اما زواوه التي كانت تشتهر بزواياها الكثيرة في الفترة التي تهمنا ، فقد كان بعض العلماء فيها ... يبرزون من حين لآخر فيهرع الطلبة اليهم من مختلف جهات الجزائر ويأتيهم الوافدون من المغرب ... وتونس . وفي القرن السادس عشر الهجري/السابع عشر الميلادي كانت شهرة ابي محمد عبد الله ... بن صباح . وابي محمد عبد العزيز الثراز قد طبقت الآفاق فهرع محمد بن مزيان التواتي ... المغربي للاخذ عنهما الفقه والنحو والقراءات السبع .(5)

ويبدو ان بعض المغاربة الوافدين على زواوه قد آثروا الاستقرار فيها كالمدعو الغربي ... الفاسي الذي تصدر للتدريس في زواوه .(6)

اما بسكره فقد كانت دوما مقصد المثقفين المغاربة ولا سيما بمناسبة الحج اذ كانت محطة ... هامة من محطاتهم مما يتيح فرص الاحتكاك والاخذ والعطاء بين مثقفي البلدين . وفي رحلة ...

---

(1) سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج ١ ص ٤٤٨-٤٤٩ .
(2) هايدو : طبوغرافية / في / المجلة الافريقية عدد ٨٧ ص ٢٢٣ - ٢٢٤
(3) ابن عسكر : الدوحة ص ١٤-١٥
(4) نفسه : ص ٦٣
(5) الفكون : منشور الهدايا ص ٣٠ من المخطوط
(6) سعد الله : المرجع السابق : ج ١ ص ٣٢٨

...ومناقشة للمسائل ... العياشي نماذج كثيرة لما يحصل بمناسبة الحج من تبادل للافكار والآراء العلمية والدينية (1).

... المشرق :

وهناك مراكز أخرى لا يقل أهمية عن مراكز التبادل الثقافي المذكورة في كلا البلدين ... كان يلتقي فيه مثقفو الجزائر والمغرب ، ويتبادلون الافكار والآراء ، ويأخذون بعضهم عن ... الا ونعو البقاع المقدسة التي كان علماء البلدين كثيرا ما يجاورون فيها ، كما فعل ابو مهدي عيسى الثعالبي ، ومحمد بن سليمان الروداني وغيرهما . فيأتي طلبة العلم من البلدين ، الجزائر والمغرب ، للاخذ عنهم هناك ، كما فعل العياشي على سبيل المثال حيث اعتكف هناك يأخذ وينهل من فيض علم ابي مهدي عيسى . بل انه في المشرق كانت تنمحي الهوية الخاصة للمغربي والجزائري وتنعدم الفوارق المنائية لبعض الوافد اليه من تلك البقاع " مغربيا " فقط . ومن المؤكد ان لقاء الطرفين في المشرق بعلماء مسلمين من مختلف الجنسيات ، من الفرس والعثمانيين والاكراد ، كان عاملا بدوره في نقل متشابهة للمؤثرات المشرقية على اختلاف الوانها الى بلديهما وساعدا هاما على تمتين الاواصر الثقافية بينهما .

وخلاصة القول ، ان العلاقات الاجتماعية والثقافية ، بين المغرب والجزائر ، اتخذت صورا متعددة من تنقل لرجال العلم وطلبته ، والتجار ، والعمال وغيرهم بينهما ، و اعمار متبادل بالعلماء والطلبة للمراكز الثقافية المتعددة في البلدين ، و قيام مصاهرات عديدة بين الجزائريين والمغاربة ، ومناقشات فكرية ودينية متواصلة بين المثقفين منهم . وكل هذه الصور صور لا صبغة رسمية لها ، ولا معاهدات تحددها ، وانما اتت طبيعية وعفوية ، فرضتها عناصر الترابط الاصيلة بين البلدين ، من وحدة في العنصر والدين ولغة الثقافة والقرب الجغرافي ، والصلة الواحدة المنفتحة على اجزاء العالم الاسلامي ، وبذلك تجاوزت هذه العلاقات الاجتماعية والثقافية الاطر السياسية ، على الرغم من كل تبدلاتها وآثارها ، وكانت هي المؤثر الاقوى والاكثر ديمومة في الصلات بين شعبي البلدين .

---

(1) العياشي : ماء الموائد ج ٢ ص ٤١١ على سبيل المثال

(2) نفسه : ج ٢

(((الخاتمــــــــــــة)))

بعد هذا السير الطويل في تفاصيل العلاقات بين المغرب والجزائر خلال الحقبة الممتدة ما بين ٩٢٣-١٠٦٩هـ / ١٥١٧-١٦٥٩م يتضح ان تلك العلاقات في مجموعها كانت على نوعين :

- علاقات بين الشعبين ، وهي علاقات ذات طابع عفوي ، لم تتحكم فيها السلطات السياسية بشكل مباشر ، ولم تخضع لمفاوضات ومعاهدات واتفاقات ، كما انها كانت موروثة من الزمان ، وتتمثل بصفة خاصة في الصلات الاقتصادية والفكرية بل والاجتماعية بين المجتمعين .

- علاقات بين الحكومات المتتالية بين البلدين ، وهي على الخصوص العلاقات السياسية . وقد تم التعرف خلالها باهداف تلك الحكومات ، ومصالحها السياسية ، كالبحث عن امنها وسلامتها او تدعيم قوتها ومد سيطرتها ، او الحفاظ على نفوذها وهيبتها ، او الحصول على مكاسب اقتصادية تبتغيها . كما اتضح فيها بشكل بارز دور اولئك الافراد القابضين على السلطة ، والذين مارسوا ذلك العمل السياسي ونواياهم ، وتحركاتهم المباشرة ، اوعبر البعثات المتبادلة بينهم ، والمفاوضات الجارية ، والنتائج التي تم التوصل اليها ، من معاهدات ، او اتفاقات ، او مشروعات اتفاقات ، او على العكس ماينجم من صدامات عسكرية وحروب . وهذه العلاقات بين الحكومات بصورتها تلك هي التي تكون جزءا مما يطلق عليه عادة اسم التاريخ الدبلوماسي " للبلدين .

واذا ما اجريت موازنة بين هؤلاء النوعين من العلاقات خلال الحقبة المدروسة من ناحية مدى ديمومتها ، يلاحظ ان الاولى كانت اطول عمرا واكثر ثباتا ، بينما الثانية كثيرة التعرض والتذبذب من مرحلة زمنية الى اخرى ، ومن حاكم الى حاكم ، بل وتتقلب في ظل الحاكم الواحد وفي فترة زمنية تتقلبها خاصة في ذلك لعديد من الظروف الطارئـــة .

واذا ماسعي الى تحديد المحركات لتلك العلاقات سواء منها الدائمة والعفوية ، او المتذبذبة وهي تتراوح بين حرب ضروس تارة ، وسلم قلق تارة ، وائتلاف وتوافق مرة ، وحرب باردة اخرى ، وتتشابك مع العلاقات الدولية في المشرق الاسلامي ، والعالم المسيحي الاوربي اتبين ان وراء تلك العلاقات عوامل موروثة وشبه ثابتة ، منبثقة من البنى العميقة للمجتمعين ، وعوامل جديدة طامرة طارئة على تلك البنى .

اما البنى الموروثة وشبه الثابتة التي ولدت العوامل الاولى فيأتي في طليعتها دون شك البنية الجغرافية للبلدين ، المتمثلة في موقعهما ، وتجاورهما دون عوائق طبيعية ، وفي طبيعتهما المتشابهة ، وقد شوهد انه كان لتلك الامور آثارها الكبيرة في مختلف العلاقات ، وان كانت اكثر وضوحا في العلاقات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ولا سيما ان البنية البشرية والثقافيـــة المتشابهة في البلدين ، والموروثة من زمن بعيد هي الاخرى ، كانت تدعم تلك المؤثرات الطبيعية كما كانت الاخيرة تمكّـن بدورها للاولى ، فالعناصر السكانية التي يتألف منها سكان الجزائـــر والمغرب هي من اصول امازيغية وعربية واحدة ، وهذه الاصول البشرية على الرغم من عصبياتهم ـــــا القبلية الاستقلالية ، تمازجت خلال الحكم الاسلامي الطويل ، وصهرها الدين الاسلامي ، ووحد بينهما المذهب السني المالكي الواحد ، وانتشرت بينهما ثقافة واحدة هي الثقافة العربية الاسلامية

على الرغم من بقاء بعض جيوب للغة الامازيغية
لغتها العربية التي هي لغة القرآن الكريم ، ان تكون الروابط الاجتماعية بين
مشابهة بلهجاتها المتعددة . ولهذا كان من الطبيعي وجه التنقل والتمازج ، والتزاوج ، والاستقرار
المجتمعين القطرين وطيدة ، فالجوار وعدم وجود عوائق في البشرية والثقافية بل والاقتصادية
في كل من المجتمعين كانت عوامل اساسية في تعميق العلاقات

بين البلدين ، ان تحول المجتمعين .

الا انه يجب الا ينسى في غمرة الحديث العام لتلك الحقائق كان بطيئا . فالنظام القبلي
الجزائري والمغربي الى مجتمعين يغلب عليهما النظام الحضري تأثيراته الكبيرة في الاحوال السياسية
البدوي ظل قائما بقبائله وزعاماته ، وعصبياته ، وكان له من ثم من اصالة واحدة ، عندما
المجتمعين ؛ فالقبائل كانت تتحالف او تتصارع ، ولو كانت احيانا او عندما تداعى هي نفسها في
تحدي القوى السياسية الحاكمة او الخارجة من الحكام تستميلها ، الانقسامات السياسية التي شاهدها
الحكم . فهذه البنية القبلية في البلدين كانت في الواقع وراء الاقتصادية السلبية في البلدين
قبل مرحلة البحث ، كما كانت وراء كثير من الظاهرات الاجتماعية والعلاقات بين القطرين
بصراعاتها الكثيرة حول المرعى ، والنفوذ ، والسلطة ، كما كانت خلف تطور ونحو هذه البنية القبلية
الا الى مسائل الحرب بدعمها هذا او ذاك ، او بتأليبها هذا على ذاك . بل وبمواقعها الخاصة ، على
لم تتبدل خلال هذه المرحلة ، فالقبائل بقيت هي هي بتركيبها الى عناصر اقامة حضرية .
الرغم مما فعله الاتراك العثمانيون لتثبيت بعضها على الارض وتحويلها دور هذه القبائل في العلاقات
وما فعله السعديون ايضا ، وقد رأينا في مناسبات عديدة من السلاطين في المغرب او مناوأتها له
السياسية ، كتأييدها في الجزائر والمغرب لهذا او ذاك لهم ، وهكذا فالبنية السياسية في
او موالاة اخرى في البلدين للاتراك العثمانيين او معاداتها بنية قبلية ، الى حد كبير ، بمعنى ان
المغرب والجزائر كانت خلال هذه المرحلة ، كما كانت قبلها من القبائل تؤيدها . واذا كان هذا
الرأس الحاكمة كانت تبقى على رأس الحكم مادام وراءها عصبية ، فانه يظهر صحيحا الى حد ما
قد بدو جليا في السلطة الحاكمة المغربية لانها من اهل البلاد الجزائر والمغرب على السواء ،
في حكم الاتراك العثمانيين الغرباء عن الاصالة البشرية لسكان (٦٠٠٠) ، فسيطرتهم
لان الاتراك كانوا قلة ، ولم يكن ليزيد عددهم في احسن الاحوال عن الارض . ولكن حتى هذه
على البلاد اعتمدت على القبائل المغربية التي استمالوها اليهم واقطعوها عن بنيتها الاستقلالية
القبائل الموالية مبدئيا ، كانت مستعدة لبيع ولائها لمن تراه ، ناسية في الجزائر والمغرب بقيادة
التي اعتادت عليها . ومن هنا كانت تلك التغيرات الثورية شبه الدائمة بتركيبها كقة احدى
زعاماتها المحلية ، وما لعبته من دور في العلاقات السياسية بين البلدين ، فقد تقلب تلك العلاقات من
السلطتين السياسيتين الحاكمتين في البلدين على حساب الاخرى

صورة الى اخرى . السياسية ،

ومثلما كان لتلك البنية القبلية المجتمعين تأثيراتها في تذبذب تلك العلاقات الاقتصادية
فانه كان لها خلال هذه المرحلة ، كما كان لها في الماضي ، آثارها السلبية في العلاقات
في حياة الغزو التي كانت تعيشها كثرة من القبائل بل جلها ، كان لها نتائجها المضرة في ميادين
الزراعة والصناعة والتجارة كما رأينا ، كما كانت العامل الاكبر في انعدام الامن في الطرقات .

ومن ثم في اعاقة التواصل الاقتصادي بين البلدين ، هذا بالاضافة الى ان حياتها المحدودة المتطلبات الاقتصادية ، جعلت معظم الاقتصاد في البلدين لتأمين حاجات ذلك المجتمع ، التي لم تتغير منذ زمن بعيد ، اذ ان حاجات المجتمع الصحراوي القليل العدد نسبيا كانت محدودة الكم ، وان كانت متنوعة الكيف ، وتشابه هذه المتطلبات الاقتصادية في مجتمعي البلدين ، وتشابه الانتاج بالتالي لتشابه الظروف الطبيعية ، جعل العلاقات الاقتصادية ، على الرغم من وجودها ونشاطها احيانا ، لاتجد المجال الواسع لتبادل الانتاج المحلي ، وانما تعتمد على العلاقات الاقتصادية الخاصة لكل من المجتمعين مع المشرق ، وأوربا ، والسودان ، اي ان العلاقات الاقتصادية بين البلدين كانت اشبه بعلاقات وسيط بوسيط اكثر منها علاقات منتج بمنتج •

ومن ثم يمكن القول ان العلاقات بين البلدين والسياسية منها بصفة خاصة ، لم تكن متأثرة فقط بشخصية هذا الحاكم او ذاك ، واهدافه ، وقراراته ، وانما بما وراء ذلك الحاكم من قوى وهذه القوى الداخلية لم تكن طبقات اجتماعية تسيرها مصالح اقتصادية معينة ، بقدر ما كانت جماعات او زعامات قبلية ، تكون مراكز قوى في البلدين ، ولكن يجب الا يغفل ابدا في هذا المجال دور بنى اخرى في المجتمع غير البنية الاجتماعية التقليدية ، وهي البنى الفكرية ، وتتمثل في هذه العناصر بالفرق الصوفية ، التي تضاعف نشاطها منذ القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي/ في كل من البلدين ، لتقف في وجه اخطار الغزو الاوربي الخارجي ، فقد انتشر مريدو كل طريقة في انحاء القطرين ، وتغلغلوا في ثنايا المجتمع القبلي والريفي ، وكان ذلك عاملا من عوامل اضعاف العصبية القبلية ، وتدعيم الصلات الفكرية والاجتماعية بين المجتمعين ، مؤيدة بالطبع بالعوامل الثقافية الاصيلة الواحدة ، ومع ان هذه الطرق الصوفية ساعدت على طمس بعض العصبية القبلية الا انها بالمقابل تأثرت بها فكونت هي نفسها اشبه مايكون بالطبقات الاجتماعية التي كان لها تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة في السلطة السياسية ، بل وفي العلاقات بين البلدين ، من سلام وحرب ، وتوتر وصراع ، اذ لعبت دورا مماثلا للمجتمعات القبلية في ترجيح احدى كفتي السلطة السياسية في البلدين على حساب الاخرى •

ولم تكن فئة العلماء ولا سيما انها امتزجت في هذه الفترة مع فئة المتصوفة ، اقل اثرا في تلك العلاقات ، لا الثقافية فحسب كما يتبادر الى الذهن ، وانما السياسية ايضا • وقد يكون ابرز مظاهر تأثيرها ، دورها في الشؤون الادارية ، وتأثيرها في السلطة السياسية ، واخيرا في السفارات التي كانت تتزعمها • وقد رأينا بعض نماذج من تلك السفارات ، والمهمات التي ادتها ولا سيما في الدفاع عن آرائها التي هي آراء الحاكم السياسي الذي تمثله ، والمبنية على نظريات سياسية اسلامية كان لها اهميتها الكبيرة في العلاقات بين البلدين وتطورها ، ويخص بالذكر دورها في تأييد نظرية (الخلافة الاسلامية القرشية) التي كانت تدعم موقف المغرب ، ونظرية الخلافة الاسلامية للزعامة الاسلامية الاقوى التي كانت تمكن لها الدولة العثمانية •

واذا كانت هذه البنى العميقة في البلدين ، والموروثة عوامل خفية او ظاهرة في تسيير العلاقات بين البلدين ، فان العوامل الطارئة على تلك البنى كان لها هي الاخرى اثارها البينة في هذه المرحلة ضمن هذه الامور الجديدة الطارئة على البنية الاجتماعية مثلا دخول جماعات الاندلسيين مهاجرين الى البلدين للأسباب المعروفة وتجمعهم في اماكن محدودة كتطاوين وسلا والرباط

فهذه الجماعات كما رأينا بثت الحيوية في البنيـــة
المغرب وشرشال والجزائر في الجزائـر ، في
الاقتصادية للبلدين ، كان في الميدان الزراعي او الصناعي أو التجاري وبصفة خاصة في الغـزو
البحري ، وبالتالي كان لها آثارها المباشرة وغيرالمباشرة في تنشيط العلاقات الاقتصادية بصفة
زيادة عدد القوة العاملة الفنيــة في القطرين ، وبدعم التواصل بينهما في مجالات الاقتصـــاد
التي دخلوها ، ومع ان الاندلسيين في اصل اكثرهم البشرية والثقافية يختلفون عن سكان البلديــن
الا انهم من الوجهة الاجتماعية كانوا عنصرا حضريا ، وبذلك دعموا سكان المدن وزادوا في ثقلهم
تأثيرهم ، فعدلوا ولو قليلا اثر العنصر القبلي ، الا انهم بالمقابل للظروف المختلفة التي اتوا بها
والتي كانوا يعيشونها في بلادهم ، لم يمتزجوا مباشرة مع السكان بل كونوا جاليات متمايزة فـي
البلدين كان لها حتما صلات مع بعضها ، وتحولت هذه الجاليات الى قوى سياسية ، بل ودولات
وبالتالي لم تبق بعيدة عن التدخلات السياسية والعلاقات بين البلدين لحماية مصالحهمــا
في كليهما . ويبدو اثرهم واضحا في العلاقات الاقتصادية والسياسية التي اقاموها مع غـزاة
البحر في المجتمعين ، وفي انضمامهم الى جيوش الطرفين ، وفي تكوينهم مراكز قوى ترجح احدى
الكفتين وبخاصة كفة الحكم العثماني في الجزائر لشعورهم بأنهم مدينون للأتراك الذين انقذوهم
من الاضطهاد ، علما بأنه كان اهم امانيهم السياسية في تحرير وطنهم اسبانيا مما كان لهـا
انعكاساتها على الحياة السياسية في البلدين والعلاقات بينهما ، وقد رأينا بعض ادوارهــم
واضحـــة في تقلبهم بين معسكر الجزائر والمغرب اثناء الصدام المسلح بين الطرفين ، كمـا
حدث على سبيل المثال بمناسبة حملة رمضان باشا على فاس في سنة ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م ، حيـث
انحازوا الى صفوف باشا الجزائر وجروا الهزيمة على محمد المتوكل على الله بما احدثوه من فـراغ
في صفوف جيشـه ، هم وغيرهم من القبائل العربية . وقبل ذلك كانوا قد شجعوا محمدا الشيـخ
على التدخل في تلمسان ، ووعدوه بمساندته .

ومن الامور الطارئة على البنية الاجتماعية ايضا هجرة اليهود مع الاندلسيين . فبالاضافة
الى من كان موجودا منهم سابقا في كل من الجزائر والمغرب في المرحلة المدروسة جاءت جماعات
منهم اليها من اسبانيا والبرتغال فزاد عددهم . وقد حمل هؤلاء معهم كما حمل الاندلسيون
فعالياتهم المختلفة ، وكان لهم صلاتهم مع بعضهم في القطرين ومع سكان اليهود ، ولا ســـيما
في الميادين الاقتصادية ، كما هي عادتهم . وكان لهم هم الآخرين تجمعاتهم في المـــدن
وتأثيرهـم في مختلف العلاقات ، وان لم تبد بارزة ، وبخاصة عندما كانوا يعملون مترجمين او
وسطاء تجاريين للأوربيين ، او تجارا ، او في الوظائف الحكومية او وراءهـا .

ومن العناصر البشرية التي تزايدت في هذه المرحلة في القطرين السودانيون ، وفي الواقع
انهم كانوا موجودين من السابق ، الا ان عددهم تزايد عندما ادخل بعضهم في الجيش ، ولا سيما
في الدولة السعدية ، ومن ثم كانوا من المدعمين للقوة العسكرية المغربية ، تلك القوة التي لعبت
دورا هاما في علاقات السلم والحرب على السواء .

ومن الجماعات الدخيلة ايضا على البنية الاجتماعية الاصيلة للسكان في هذه المرحلة ،
الاوربيون النصارى ، وهؤلاء كانوا من اصول مختلفة ، وكان بعضهم مستعبدين اي من اســرى

الغزو البحري في البلدين ، وقد اسلم بعضهم وكوّن مايسميه هاييدو في الجزائر " اتراكا بالمهنة "

وقد استخدم هؤلاء في اعمال مختلفة وأسهم عدد منهم في الغزو البحري ، وفي الجيش ، في البلدين

وبعضهم كان من الاحرار وهم التجار الاوربيون الموزعون في عدد من المدن الجزائرية والمغربية ،

والطرفان كان لهما دور في تحريك العلاقات بين البلدين ، اما الأول بصفتهم سلعة متبادلة

او سلعة يتفاوض عليها سياسيا لصالح احد البلدين او لبلد اوربي او بصفتهم عاملين في مجالات

مختلفة ، ومنها الترجمة او عاملين خبرات متنوعة تفيد احد البلدين على حساب الآخر ، واخيرا

بما كانوا يحملون من مال نتيجة افتدائهم يدعمون به كقوة مالية للقطرين • كما يجب الا ننسى

تأثيراتهم الثقافية وان بدت محدودة ، ولا سيما في ميدان اللغة ، وفي المدن التي كان عددهم

كبيرا فيها كالجزائر مثلا •

واخيرا هناك الاتراك العاملون في الجزائر ، وهؤلاء هم الذين كونوا الطبقة الحاكمة

فيها ، وتزاوج بعضهم مع سكان البلاد ، والجيل فئة اجتماعية جديدة من هذا التزاوج هم الكراغلة •

ومع ان هؤلاء الاتراك كانوا يمثلون الدولة العثمانية الحاكمة ، ويتكلمون اللغة التركية ، ويدينون

بالاسلام ، الا انهم في اصالتهم لم يكونوا كلهم من اصالة تركية ، اذ كانت فئة منهم من اصالة

اوربية ، ومن الواضح ان هؤلاء الاتراك بصفتهم الطبقة الحاكمة ، كان لهم دورهم السياسي

الفعال في العلاقات بين البلدين ، أكانوا من البايلربايات أو الباشوات ، او من الموظفين الآخرين

او من الانكشارية ، بل كان لهؤلاء الاخيرين دور كبير في تلك العلاقات ولا سيما في عهد الباشوات

حينما غدت السلطة الفعلية بيدهم ، وقد رأينا موقفهم من حملة علي علي ورفضهم لها ، كما كان لهم

تأثيرهم غير المباشر في تلك العلاقات ، لما ولدوه من اضطرابات وضعف في الاحوال السياسية في

الجزائر •

ولم يكن للاتراك اثرهم في العلاقات بين الجزائر والمغرب لمجرد قبضهم على السلطة

السياسية في الجزائر ، وتدخلهم الواسع في الغزو البحري ، بل لوجودهم في المغرب ايضا • فقد

انتقل اعداد منهم ليعملوا جنودا في جيش الوطاسيين والسعديين ، وخبراء عسكريين • وقد

حملوا كما اشير سابقا من التاثيرات الى الهيئة الادارية السياسية في المغرب ، فضلا عن العادات

في اللباس ، والطعام ، وقد تدعم هذا الاثر بالعلاقات الحرة بين البلدين من تنقل لاعائق امامه

وتبادل تجاري ، ودين مشترك ، وكان لهؤلاء الاتراك على الرغم من قلة عددهم النسبي اثرهم

كذلك في دعم القوة الدفاعية والهجومية في المغرب ، مما كان له حساب في العلاقات السياسية بين

البلدين •

واذا كانت تلك الامور قد طرأت على البنيتين الاجتماعية والاقتصادية في القطرين ، وكانت

مؤثرا كبيرا او صغيرا خفيا او ظاهرا في العلاقات بين البلدين ، فان الغزو الاسباني والبرتغالي

لهما وتوسعه في عدد من دواخلهما ، كان من الاحداث الكبرى التي هزت الترتيب السياسي

والاقتصادي في البلدين •

وقد تبين جليا من دارس العلاقات السياسية بين البلدين ان الدولتين المحتلتين البرتغال

واسبانيا كان لهما دائما دور حاسم في تلك العلاقات ، فهما اولا محور اساسي في علاقات

التكامل والتحالف بين المغرب والجزائر وذلك لرغبة القطرين العميقة في التخلص من قواعد الدولتين

على ترابهما ، والتحرر من احتلالهما . وثانيا دمها محور فعال في علاقات الافتراق والتوتر للجوء السلطة السياسية الحاكمة في المغرب في معظم الاحوال للتحالف معها للحفاظ على استقلاليته عن الحكم العثماني ، ولابعاد هذا الحكم عن الجزائر ، أكان ذلك لمجرد التهديد ، او لعمل جاد وفعلي . او لانتفاء القوى السياسية المتمردة على السلطة الحاكمة في البلدين اليهما ، لتجد سندا يعينها في الوصول الى السلطة الفعلية ، وطرد الحكم العثماني . وبالفعل كانت هاتان الدولتان لاتتفقان عن التدخل في الشؤون الداخلية للقطرين بطريقة او باخرى ، وبث الفرقة بينهما ، او بالاحرى في تمزيق وحدة السلطة السياسية فيهما كضرب افراد الاسرة الحاكمة في المغرب ببعضهم ، وتشجيع بعضهم على شق عصا الطاعة ، وفتح بلادها ملجأ لهم ، ثم استخدام وسائل ضغط للحصول على مآربها بعد تحقيق بقائها على الارض التي احتلتها ، بل والحصول على مراكز اخرى تلحق بها ، ومنع وصول الدولة العثمانية الى قربها ، والشيء نفسه كانت تفعله في الجزائر بتأليب مراكز القوة السياسية الوطنية ضد الحكم العثماني ، لتشغل هذا الحكم بالأوضاع الداخلية المضطربة فينصرف عن السعي لوضع حد لوجودها على تلك الارض .

ومثلما كانت الدولتان الايبيريتان تشكلان محورا فعالا في العلاقات بين البلدين ولاسيما السياسية ، فان الدول الاوربية المتاجرة مع البلدين ، والتي تزايد عددها في هذه المرحلة ، واتسع اهتمامها بخيراتهما وموقعهما الاستراتيجي ، وتأثرت سلبيا بحركات الغزو البحري فيهما ، كانت هي الاخرى محورا من المحاور التي تتحرك عليه تلك العلاقات السياسية والاقتصادية . فحتى تحقق هذه الدول مزاياها الاقتصادية والسياسية ، كانت تدعم مراكز القوة في البلدين التي ترى بانها قادرة على تنفيذ رغباتها . وقد اتخذ ذلك الدعم صورا عسكرية وسياسية او الاثنتين معا . وقد تكون انكلترا وهولندة مثالا على ذلك في دعمهما للسعديين في المغرب . ومن ثم كان لهذه الدول بشكل عام دور سلبي ومفكك للعلاقات بين القطرين لانها كانت توجههما لصالحها ، والى الانفصال لا الى التحالف والترابط ، وهكذا فمن الدول الاوربية الغازية والمتاجرة ، وعلى الرغم من بعض مظاهر الود التي كانت تبديها بين حين وآخر للقطرين او لاحدهما ، او للدولة العثمانية ، فانها كانت تسعى لدعم الفرقة بين البلدين او بين الدولة العثمانية والمغرب قدلما لدابر الوحدة الاسلامية العثمانية ، والوحدة المغربية الجزائرية ، او الوحدة المغربية الكبرى ، تلك الوحدة التي لو تمت لهددت العالم الاوربي المسيحي بخطر جسيم ، في وقت شرع فيه هذا العالم يبلغ قدمه الغازية في بعض انحاء العالم ، وتحقيق مكاسب اقتصادية هائلة .

وفي هذه العلاقات بدت الدولة العثمانية في استانبول ، لا الدولة العثمانية في الجزائر طرفا هي الاخرى وذلك في بعض المراحل ، ولا سيما ايام المنصور السعدي واولاده من بعده ، اي عندما اضطرب الحكم العثماني في الجزائر في عهد الباشوات ، ويبدو ان اعتداد المنصور بسلطاته وشخصيته ، وقوته العسكرية وحنكته السياسية جعلته يبحث عن السلطة الحقيقية وراء الحكم في الجزائر ، تلك السلطة التي يفترض معه ان تقرر العلاقات بين البلدين .. ولا سيما انه اراد ان يثبت لهذه الدولة انه ند لسلطانها ، ان لم يكن يفوقه ، وانه يمثل دولة ذات كيان مستقل كان لها يوما امتدادها الواسع ، وليست هي ولاية من ولايات الامبراطورية كالجزائر . وقد سار اولاده واحفاده من بعده على هذه الخطة ، على الرغم من انهم كانوا بعيدين في قوتهم عن قوة المنصور

لا انهم شعروا انهم باتخاذهم هذا الخط السياسي ، يدعم موقفهم كسلاطين مستقلين ويحقق الحسن الذي وضعها المنصور في علاقاته مع الدولة العثمانية •

ويبدو من مجمل تلك الامور الجديدة الطارئة على البنى العميقة المتوارثة التي كان لهما آثارها المستمرة في العلاقات بين القطرين ، اذ لم تبق على السطح ، بل تغلغلت الى جذور تلك البنى لتمكن او تقتلع ما يمكن ان يخدم مصالحهما فيها •

ومثلما كان للبنى العميقة نتائجها الموروثة في العلاقات بين الطرفين ، وللامور الطارئة آثارها الكبيرة او الصغيرة في تلك العلاقات ، فان العلاقات نفسها بسلامها وحربها ، وتوترها وتراخيها كان لها نتائجها في تلك البنى •

فاذا ما بدىء بالبحث عن اثرها في البنية الطبيعية للقطرين يلاحظ ان تلك العلاقات اذا لم تؤد الى تغيير في معالم الطبيعة المشتركة ، كشق طرق جديدة مثلا بين البلدين ، او ازالة عوائق طبيعية يمكن ان تسهل سبل التواصل والتعاون على نطاق اوسع بينهما ، او على العكس لتحصر سير العمليات العسكرية ، او لتقيم حواجز تمنع الانتقال وتوقف التلاقي ، فانها كانت العامل الوحيد والمباشر في تحديد الحدود بين البلدين • ومع ان تلك الحدود لم تكن سدودا مانعة غيرت البنية الطبيعية في اعاقة الاتصال بين القطرين ، الا انها ولدت على الاقل شعورا بوجود حواجز بينهما ، ونمت في البلدين الشعور بالاستقلالية ، او بالقومية المحلية ، جزائرية ام مغربية •

ان تلاصق البلدين ، وانعدام العوائق الطبيعية بينهما ، والبنية البشرية والثقافية والاجتماعية الواحدة اوجدت مع الزمن لدى البلدين ولاسيما في ظل الحكم الاسلامي الواحد ، شعورا خفيا عاما ، انهما ليسا مجتمعين متغايرين ، وانما مجتمع واحد ، وولد لدى القوى السياسية الفاعلة فيهما انهما يجب ان يحكما بقوة سياسية واحدة • وهذا الهدف سعى لتحقيقه قبل المرحلة المدروسة المرابطون فالموحدون ، ولاحقه بعدهم كما رأينا المرينيون ، والزيانيون ، والحفصيون • ويبدو ان المغرب هو المتحمس الاكبر لهذا التيار السياسي ، او القادر الاكبر على قيادته ، لاعتقاده انه الوريث الوحيد للزعامة السياسية للمغرب الكبير ، لأن المرابطين والموحدين انبثقوا منه ، وقد شوهد اثناء تتبع العلاقات بين البلدين ان هذا التيار اصطدم دائما بنزعات الحكام الاستقلالية ورغباتهم في السيادة والنفوذ ، والانفراد بالحكم ، وبالزعامات القبلية • الا انه مع ذلك ظل تيارا سياسيا قويا له مؤيدوه في الاقطار المغربية الثلاثة ، وفي المغرب والجزائر بصفة خاصة • ولم يمت هذا التيار او يتقلص خلال المرحلة المدروسة على الرغم من ان اصالة الحكام في البلدين لم تعد واحدة ، فمع ان الحكام الاتراك في الجزائر كانوا متباينين في العرق والمذهب الديني عن مثائلهم في البلدين ، ومن حكام المغرب ، فانهم تبنوا هذا التيار ، لانه يخدم مصلحتهم في الامتداد والتوسع والمكاسب الاقتصادية ، والزعامة الاسلامية العامة • ومع انهم جاؤوا في نظر الكثيرين من سكان البلدين ، مخلصين للجزائر من غزوات النصرانية الاوربية ، الا انهم بقوا في نظر كثيرين ايضا من اهل البلاد ، من الزعامات القبلية ، ومن المتصوفة ، والعلماء ، عنصرا دخيلا ، وربما لبعضهم كالمحتل الاوربي نفسه يجب مقاومته بشتى السبل واخراجه مع كل ما يمكن ان يحققه البلدان مبدئيا في ظل الحكم الاسلامي المشترك من امن وسلام ، وتحرير من القوى الاوربية المحتلة ، وتوحيد بين المغرب

بالذات تنظر الى هؤلاء الاتراك ، لا تنظرته الى اعاجم غرباء فحسب عن البنية البشرية للبلدين ، وانما ايضا نظرته الى قوم بعيدين عن اصالة الشرف العربي المحمدى الذى كان حكامه من الاشراف السعديين ينتمون اليه ، ولذا فانه لاحق لهؤلاء ان ينتزعوا من المغرب ، القائد الاول لاول عملية توحيد للمغرب الكبير ، هذه المهمة التي انبثقت من الاصالة الواحدة للشعبين ، كما لا يمكن ان يدعوا سيادة العالم الاسلامي كله على الرغم من ان القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها الدولة العثمانية آنذاك تخولها تلك الزعامة . وقد ظهر هذا الصراع النفسي في العلاقات بين المنصور السعدى والسلطان العثماني ، وفي اقوال سفيره التمجروتي في كتابه (النفحة المسكية) في السفارة التركية من الخلافة والامامة ، بل بدا المغرب في عهد بعض سلاطينه الكبار بأنه لا يطمع في ضم الجزائر ، والمغرب الأدنى فحسب ، وتحقيق امبراطورية الموحدين السابقة فحسب ، وانما جادا ايضا في بعث تيار تاريخي اسلامي واحد وعميق ، مرتبط بتطلعات الاصول الشريفية للدولة السعدية ، وهو الامتداد شرقا حتى مصر ، وربما ابعد كما فعل الفاطميون المماثلون في نسبهم الشريفي للسعديين ، واحياء مفهوم الخلافة العربية الاسلامية فيهم . فوجود الحكم العثماني في الجزائر ، الغير مسايرته للبنية البشرية العميقة للسكان وللبنية السياسية ولاختلافه حتى في المذهب الديني ، والمطامع والاهداف اتقاسب في الحقيقة سدا عاليا امام حنسام المغرب ، وقطع عليهم طريقهم الى الشرق القريب والمشرق البعيد . ومع كل قوة هذا العاجز ، فان السعديين لم يهابوه ، بل عملوا على اختراقه عدة مرات بالعنف ، وشجعهم على ذلك قوتهم العسكرية المتنامية ، وانعدام الحدود الطبيعية العائقة بين البلدين ، والروابط البشرية والاجتماعية والثقافية بينهما . الا انهم اخفقوا ، وانتهى بهم الامر الى الانزواء في الزاوية الشمالية الغربية من افريقيا ، والتقالي في صلاتهم من العالم حولهم اكثر فاكثر الى العالم الاوربي المجاور لهم من الشمال والغرب ، الذى اخذ بدوره يستغل هذا الاخفاق ، وهذه العزلة النسبية ، لتحقيق مطامعه الاقتصادية والسياسية ، التي تفاقمت بشكل واضح بعد الثورة الاقتصادية الاوربية منذ كشف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، وكشف امريكا . بل انه سعى ايضا الى الجنوب الى السودان وهو باب من الابواب المفتوحة امامه ، يمكن عن طريقه ان يدعم هيبته وقواه الاقتصادية بالحصول على خيراته ، وبصفة خاصة الذهب ، كما يمكنه بذلك ان يقطع على الحكم العثماني في الجزائر طرق التجارة مع هذا الجنوب ، ويحولها لصالحه . ومع ان المنصور السعدى نجح في هذا الميدان الاخير ، الا ان هذا لم يدم ، ولم يمكن المغرب من عزلته السياسية عن الشرق المغربي والمشرق عموما ، تلك العزلة التي زادت من تشبث المغرب باستقلاليته ، ودعمت الشعور الناسي بالقومية المحلية ، ولا سيما ان ذلك الشعور قد تمكن بجهاده ضد البرتغاليين والاسبان ، وبصراعه ضد الاتراك العثمانيين الاعاجم .

وان كانت هذه نتيجة موقف المغرب من تيار وحدة البلدين ، فان الحكام الاتراك كما اسلفنا الذين تبعوه هم الآخرون وسعوا جهده لاحتواء المغرب ضمن دولتهم ، وتحقيق وحدة العالم الاسلامي كله ، كما كان عليه الامر يوما ايام الامويين . ومما لا شك فيه انه كان هناك وراء هذه الرغبة في الضم عوامل اقتصادية ، منها الجوانب المناسبة المرتقاة من المغرب نفسه ، السيطرة ثانية على طريق الذهب ، والوصول الى المحيط الاطلسي حيث شرعت اوربا المسيحية التي كانت الدولة العثمانية في صراع عنيف معها ، تلقي بثقلها الاقتصادى والسياسي ، وتطويق البرتغال التي كانت

حيث نطاقا لا في المغرب فحسب وانما في الشرق الافريقي العربي ، وشرقي الجزيرة العربية
والبحر العربي والمحيط الهندى ، وتسعى لقطع تجارة الشرق الاقصى عن المشرق والمغرب
الاسلاميين • الا ان محاولات العثمانيين العديدة ، العسكرية والسياسية لضم المغرب لم تنجح
حتى ولا بتحقيق نفوذ اسمي فيه ، وذلك لعدم استجابة المغرب المطلقة للأسباب المذكورة آنفا ،
ولتردد الدولة العثمانية نفسها في قيادة تيار التوحيد هذا • اما اسباب التردد فتبدو كثيرة
منها : تخوفها من الاوضاع الداخلية والخارجية التي عاشتها المغرب خلال هذه الحقبة من الزمن •

فالاوضاع الداخلية ، ممثلة اولا في الصراعات السياسية المختلفة فيها قبل عهد السعديين
في الوقت الذى لم تكن قدم الدولة العثمانية قد ثبتت في الجزائر نفسها ، وثانيا ، قوة الدولة
السعدية الشريفية نفسها المؤيدة بقوى كثيرة دينية وسياسية لا في المغرب والجزائر فحسب بل
في كل العالم الاسلامي ، والمدعمة بقوة عسكرية برية وبحرية ، منظمة تنظيما حديثا مقتبسا من
التنظيم العثماني نفسه ، والاوربي ، والمستندة الى قوى اوربية معادية او مسالمة للدولة العثمانية
يمكن ان تأتي لنجدتها ، وان تمولها بالمدافع والمال والرجال ، اذا مادعت الحاجة الى ذلك ، ولا
سيما في عهد المنصور ، الذى كان كما رأينا ذا رؤية سياسية جديدة للوحدة الاسلامية ، بدا فيها
موقف الدولة العثمانية هو الأضعف •

اما الاوضاع الخارجية ، فهي الاحتلال البرتغالي والاسباني لعدد من موانىء المغرب
وما قد يترتب على ذلك من واجهات جهاد جاد ومباشر من قبلها ضد البرتغال واسبانيا اللتين
بدتا في القرن السادس عشر الميلادى انهما من اقوى الدول الاوربية ، وما ينجم عن ذلك من تبلبل
في علاقاتها مع مختلف الدول الاوربية ، ومن فتحها جبهة ساخنة في المغرب بالاضافة الى الجبهة
الحارة في شرقي اوربا ، وهذا كله مع عدم ضمانها داخلية البلاد التي جانبها • ولابد انها ادخلت
في حسابها البعد المكاني عن مركزها على الرغم من ان وجودها في الجزائر يجعلها بتماس معها !

ومن عوامل تردد الدولة العثمانية ايضا في اتخاذ خطوة حاسمة تجاه المغرب هو انشغالاتها
الحربية المتعددة في المشرق كحرب الصفويين ، والحرب في شرقي اوربا كما المحنا الى ذلك سابقا ،
والضعف الذى انتاب وحداتها البحرية الى الهند ، وتجمدت قدمها في كل اجزاء المشرق العربي ، وأحوال الامبراطورية
النظم الادارية والسياسية والاقتصادية فيها بعد عهد سليمان القانوني ، واستنساد الدول الاوربية عليها • واخيرا خشية
الانهيار من ثورات عسكرية في العاصمة والولايات ، ومن ان المغرب والجزائر تتحد ضدها اذا ماتحقق توحيدهما في وقت مالت
الدولة العثمانية فيه هي نحو الضعف •

وهكذا اخفقت الدولة العثمانية في قيادة تيار التوحيد بين البلدين ، ومد سيطرتها على
المغرب الاقصى ، ولم تستطع بالتالي ان تمد يد العون القوية للأندلسيين في اسبانيا الذين
كانوا يوجهون لها النداء تلو النداء لانقاذهم مما هم فيه ، ولا حتى عندما قاموا بثورتهم الكبرى
عام ١٥٦٩ ، والتي دامت قرابة سنتين ضد الحكم الاسباني ، وكانوا ينتظرون منها عونا اكبر مما
قدمه لهم العلج علي في الجزائر ، ولا حتى عندما قررت اسبانيا اخيرا طردهم بين عامي ١٦٠٩ -
١٦١١ ، كما اخفقت ايضا حتى في طرد الاسبان من الجزائر التي كانت تحكمها مباشرة ، وذلك

السيارة على الحوض الغربي للبحر المتوسط . ومن ثم يحق للباحث ان يقول : ان العلاقات
[بين] المغرب والجزائر ، او بالاحرى بين المغرب والدولة العثمانية ، كانت في الواقع العامل الاكبر
[في] الابقاء على القواعد الاسبانية والبرتغالية في البلدين . لأن تلك العلاقات التي اتسمت بالطابع
[العدا]ئية تارة ، والتوتر تارة اخرى ، والحذر مرة ، والقلق اخرى ، كانت عائقا في وجه حركة جهادية
[مش]تركة ضد القوى الاوربية الغازية ، والطامعة على السواء . وبانتقال الحكم العثماني في الجزائر
[عن] تحقيق التوحيد بين المغرب والجزائر اتجهت الجزائر بدورها الى علاقات اكثر فعالية مع المغرب
[الا]دنى والمشرق بحكم صلاتها الاقوى في هذا الاتجاه ، والى اوربا التي شغلتها في حدوده
[مر]حلة بعمارتها العسكرية عليها ، وبسفاراتها ومعاهداتها التجارية ، وهكذا يتضح ان اقامة
[ال]حدود بين البلدين – على الرغم من بقاء سير العلاقات الاقتصادية والثقافية في مجراها – كان
[في] واقعه تعبيرا فعليا عن اخفاق التيار التوحيدي بين البلدين ، كما غدت تكريسا لاستقلالية
القطرين ونمو تيار القومية المحلية فيهما ، ومثارا للصراعات بينهما ، تبدت جليا في الحقبة
المعاصرة .

واذا كانت تلك بعض نتائج العلاقات على البنية الطبيعية المشتركة بين القطرين ، وبالتالي
على البنية السياسية فيهما ، فانها كانت دائما لها آثارها البينة في تغيير الرأي العامة في القطرين .
فالقوة السياسية الاقوى في احدهما كانت تعمل دائما في تكوين السلطة السياسية القائمة في
القطر الآخر موالية لها او محالفة ما امكن . وقد يظهر هذا بشكل اوضح في المغرب ، حيث استطاع
حكام الجزائر من الاتراك ان يتدخلوا بطريقة او باخرى ، بالشؤون الداخلية للمغرب ، فيستميلون
من القوى ، ما يمكنهم بها ان يبلبلوا الحكم السياسي او يغيروه اذا رأوه انه ليس لصالحهم ،
كانوا يلجئوا اليهم الامراء الطامعين بالسلطة ، ويقيموا معهم صلات مصاهرة احيانا ، ليوصلوهم
الى سدة الحكم عندما يجدون الفرصة مواتية ، او ان يضموا الى صفهم القوى القبلية والصوفية
ليوازنوا بها قوتهم . فالعلاقات بين البلدين كانت مسؤولة اذن الى حد كبير عن تدعيم حكم
الاوضاع السياسية فيهما ، كمسؤولية تلك الاوضاع بدورها من صفات تلك العلاقات من سلم وتوتر
وخصام ، وقلق .

واذا مانظرنا في نتائج تلك العلاقات على الاحوال الاقتصادية في البلدين ، فمن العسير
الاشارة الى ان تلك العلاقات لم تؤد بحسب المصادر المتوافرة بين ايدينا الى اتفاقات اقتصادية
بين القطرين ، او الى تحديد الرسوم الجمركية مثلا ، كما انه قد لا يتبين لأول وهلة اية حروب
اقتصادية ضد بعضهما ، الا ان اتجاه الحكم العثماني الى دعم نفوذه في الجنوب الجزائري
وسيطرته على المراكز التجارية مع السودان ، وبالمقابل احتلال المغرب للسودان ، يؤكد التنافس
الاقتصادي الخفي على التجارة مع الجنوب منبع الذهب والعبيد من الزنوج ، بل يمكن ان يرى في
احتلال المنصور للسودان حربا واضحة ، اذ استطاع ان يحول محور التجارة مع السودان من
الجزائر وتونس وليبيا الى المغرب بصفة خاصة ، ولكن البقاء القوي للمغرب في السودان لم يعش اكثر
من حياة المنصور . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، كان من الواضح انه كان للعلاقات
السياسية بين البلدين ، بما اوجدته من سلم او حرب نتائجها الدامية او الوخيمة على صلات
التبادل المختلفة ، وان كان يبدو ان عملية الغزو البحري بالذات لم تتأثر كثيرا بنوعية تلك العلاقات

في السلم والحرب على سياق واحد ، الا انها كانت تتأثـر
تاثر التجارة البرية ، اذ ظلت تجرى
كما رأينا بصلات كل قطر من الدول التي كان يحيبها لذلك الغزو .
ويضاف الى تلك النتائج ان تلك العلاقات كانت عاملا في تهافت الدول الاوربية على القطرين
وسعيها الاقتصادية لتنال ماتبغيه من سلع واتفاقات مستغلة العلاقات السياسية السلمية او المتوترة
بين القطرين لتثبيت دعائمها الاقتصادية في المغرب والجزائر ، وانتزاع اتفاقات اقتصادية منهما .
وعامة اخرى ، كانت العلاقات السياسية المتذبذبة بين البلدين عاملا مساعدا على التفات كل منهما
الى تقوية علاقاته الاقتصادية بل والسياسية مع الدول الاوربية ، لما قد يعود عليهما من دعم
اقتصادها السياسية ، وبصفة خاصة المغرب الذى استغل تلك العلاقات التجارية لدعم قوته العسكرية .
بل ان مراقبة القطرين لبعضهما لتجاوزهما وصلاتهما ، قد يكون عاملا مؤثرا في سعي كل واحـد
لمجاراة الآخر ، في نوعية علاقاته الاقتصادية مع الدول الاوربية وغيرها ، اذا كنا نرى تعود عليه
بالنفع ، او في تقليد الواحد الآخر في فعالياته .
وبالنظر في نتائج العلاقات السياسية وانعكاسها على العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب ،
يبدو ان هذه الاخيرة لم تتاثر بالعلاقات السياسية المتوترة في معظم الاحيان بين القطرين ، او
بتعبير آخر فان قيام حكم الاتراك العثمانيين في الجزائر ، وحكم الاشراف السعديين في المغرب
لم يمنع العلاقات الثقافية بين البلدين من ان تستمر في مجراها السابق المتميز بالعفوية وحرية
انتقال من بلد الى آخـر لفئة المثقفين من العلماء والطلبة في بعض الظروف للأخذ او العطاء
او المتوطنين معا . ولا يبدو من المصادر المتوافرة بين ايدينا وهي كثيرة ان العلاقات الثقافية
بين البلدين كانت موضوع اتفاقات خاصة لتنظيم عملية التبادل الثقافي . الا ان هذا لا يمنع
من القول بان بعض حكام المغرب بصفة خاصة كانوا يستدعون بعض العلماء من الجزائر او يقومون
بنقلهم معهم الى بلادهم ، او يرحبون ببعضهم حكام الجزائر . واذا كانت المصادر المتوافرة بيـن
ايدينا تزخـر بتراجم اولئك العلماء والطلبة الذين انتقلوا من بلد الى آخر للأخذ او العطاء في
المراكز العلمية للبلدين ، او حتى لبث الدعوات الفكرية والسياسية التي تخدم الحكم القائم في
بلدهم والمؤيدة له ، فان تلك المصادر لاتمدنا بالمقابل معلومات عن اوقاف متبادلة لصالح
المؤسسات الدينية والتعليمية ، مما يستدعي مزيدا من البحث للكشف عن خفايا هذا الامر وحقيقته
اما نتائج العلاقات المتعلقة في العلاقات الاجتماعية بين القطرين ، فمن الجلي انهـا
لم تتأثـر تاثيرا سلبيا . فقد ظلت تلك العلاقات تجري هي الاخرى بمجراها ، وتتمثل بصفة
خاصة بحركة انتقال نشيطة خلال هذه المرحلة بين البلدين للأفراد والجماعات ، واستقرار بعضهم
لفترة طويلة او قصيرة في احد القطرين . ويدخل فيها انتقال الافراد للتجارة او العمل الزراعـي
او الصناعي ، او الارتزاق بالجندية كالاتراك والزواويين ، او بتسنم المناصب العلمية كالتدريس
والفتوى والقضاء والخطابة ، او للتعليم والتعلم ، او هربا من العمل وكان هذا حال من ابتلوا بالهجرة
القسرية ، ثم دارت ظروف مناسبة لعودتهم كالامراء السعديين اللاجئين الى الجزائر واتباعهم وحال
كثير من الاندلسيين الذين تشتت شملهم بين الجزائر والمغرب ، او الزيارة مدافن الاولياء ، او جهة
الزوايا والمرابطين ، او القيام بالسفارة ، وانحصرا الانتقال مع قافلة الحج . ولا يخفى ماكان لهذه
التنقلات والهجرات الطوعية والقسرية من نتائج ايجابية على العلاقات الاجتماعية بين الشعبين

اذ كانت تسهم في توطيد اواصر الأخوة بين الافراد والفئات الاجتماعية في المجتمعين ، وفي تحقيق مزيد من التجانس في مختلف الجوانب ، وفي العادات ، والتقاليد ، والافكار والآراء ، مما كان ينشأ عن تلك الاتصالات التي يقوم بها هؤلاء المتنقلون من فئات مختلفة بأفراد الفئات الاجتماعية المنتقلة اليها ، من علاقـات ، وتأثر وتأثير من الجانبين ، ومصاهرات وروابط عمل . وبفضل هذه التنقلات استمر التجانس بين عادات المجتمعين الجزائري والمغربي وتقاليدهما القديمة والوافدة حديثا على ايدي الاتراك والاندلسيين والسودانيين والاوربيين . الا انه كان لهذه التنقلات المفتوحة آثارها ايضا السلبية في نقل بعض الآفات الاجتماعية كالامراض والاوبئة الخاصة بالانسان والحيوان والنبات .



واخيرا مع كل مظاهر العلاقات بين البلدين ، السياسية والاقتصادية ، والثقافية والاجتماعية ، ومع كل نتائجها في البنى المختلفة في البلدين خلال هذه المرحلة ، يخلص الباحث الى ان العلاقات المنبثقة من البنى العميقة للمجتمعين الطبيعية والبشرية والثقافية والاجتماعية ، او ما اسميناه بعلاقات الشعبين الاصليـة ، كانت هي الاقوى والاثبت من العلاقات الدبلوماسية بين الحكومات ، وما نشأ عنها من صدامات ، وحروب ، اذ ظلت هذه العلاقات على الرغم مما تيل عنها من تجاوز مفهومات القومية المحلية في القطرين ، وعدم تمكنها من الارتقاء بالعلاقات السياسية الى مستوى التوحيد ، بل وعدم التضامن امام المشكلات الصعبة الواحدة ، واهمها الغزو الخارجي ، ظلت تجري بمجرى الترابط والتلاقي ، وتدفع حكام البلدين مهما كانت اصالتهم الى التواصل بعد الافتراق ، والى السلام والتودد بعد الحروب .



ملحـــق رقم (1)
رسـالة السلطان العثماني مراد الثالث الى السلطان السعدي احمد المنصور
التي يعترف فيها بالخلافة لهذا الاخيـــــر .

هو المعين . هذا كتابنا الشريف ، العالي ، السلطاني ، وخطابنا المنيف ، المتسامي الخاقاني ، لازال نافذا ، مصونا من التحريف بالعون الرباني . اصدرناه وأرسلناه منطويا على ما أسلف أسلافنا عن اتحاف تحق تحية زكية في بحر الوداد ، واهداء هدية نفيسة ثمينة من بحر الاتحاد الى جناب العالي ، الاميري ، الكبيري ، المولوي ، الهمامي الحسني النسبي ، نسل السلالة الهاشمية ، فرع الشجرة الزكية ، النبوية ، طراز العصابة العلوية ظهير جيوش المسلمين ، ظهير جيوش المجاهدين ، المحفوف بصنوف عواطف الملك المعين ، سيد الملوك والسلاطين ، بن خاتم النبيين ، الشريف مولاي احمد ، بن الشريف ، مولاي الحاكم يومئذ بمراكش وفاس ـ دام سعده ، وعلاه مصونا بصون ملك الناس .

ينهي اليه ويوضح مضمون ما اندرج فيه ، ويعرف ، ويفصح مكنون ما اندرج في مطاويه وهو ان الله ـ تعالى ، عز شأنه عما يقولون ـ لما أظهر ، بمقتضى حكمته البالغة ، ما أضمر في مكامن سره المكنون ، وخص بنوع الانسان من بين سائر الانواع ، ان يكون مدنيا بالطبع ، محتاجا في التعايش الى التعاون والاجتماع ، وجعل نظام التعاون بينهم مربوطا بالتعادل الذي اتفق عليه جميع الاوضاع ، ليندفع الشارع فيما تشتهي انفسهم وينزع النزاع .

أرسل من عنده عبده ، ورسوله سيد الانبياء ، وارسل ليبين لهم مناهج الدين وأقوام السبيل . ثم استخلف عنه خلفاء ، الراشدين ، رضوان الله ـ تعالى ـ عليهم اجمعين . ثم جعل كلا من السلاطين اهل الاسلام والمسلمين ، عضد الملة والدين . فتسلسلت سلسلة الانتظام الى هذا الحين . أيد الله ذلك النظام أبد الآبدين ، ... بدنا ، واياكم من تلك الزمرة ، وأتانا من لدنه سلطانا نصيرا ومشرفا بذكرنا وذكر اسمكم الشريف في كل قطر جهيرا وسريرا . وسلم الينا من عنده ، التسليم ، وفي لدافه العميم مقاليد جمهور الامور ، وأجرى احكامنا واحكامكم من محل كرمه العميم ، متضمنة الامور الجمهــور .

فنبغ بأمره الى مبايعتنا بالسلطنة الزاهرة ومتابعتنا بالخلافة الباهرة جمع ائمة الدين والعلماء العلامة ، وجماهير ارباب العقد والحل ، من الولاة والحكام ، وكل من سار وداره وتوطن في المدائن والامصار ، من ممالك الشرق والغرب ، وممالك السلم والحرب .

فتحنا ابوابنا العالية الاعتاب ، من جهة المعاهدات والمصادقات ، على وجوه الاعادي والاحباب واثرنا متابعة اسلافنا الطاهرة ، الذين جمعوا باصلاح ذات البين ، بين خيري الدنيا والآخرة في حسب من يكن على الرشد والسواد ، خصوصا من التي اليه اذا مات العبد . ومن مؤمن نسل الشجر التي تنال الركع والسجد .

فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية العلية ، بهر العالية تشتمله والماحتوى على سلطانة يرتقل اوكاد ، وانه جعل اهله في الافاضل والاصفاد وانه لكم جاره وعدو مضاره مرتكبا

...سة الاسلامية ، والمعرفة الاولية ، في النشأة الجنودية لاظهار الالفة الازليــة ، في العوالــم ...ورية ، اذا صارت قلوب الملوك جنود المجندة التعارف ، والتناصــر والائتــلاف ، انعقد الاجماع ...علوب المودة وارتفاع الاختــلاف .

فخلاصة الكلام بهذه التقدمة ، ونتيجة المرام من تلك المقدمة ، هو ان نتخذ عهدا وثيــق ...يان ، ومحبــة خالصة بين الاخوان ، بين الاولاد والاحفاد الى آخــر الدوار ، مع مملكتنــا ...اسعة الاقاصــار ، ونؤكــد ان المملكتين محروســتا الجوانب والاطراف ، من سوء الشقاق ...الاختــلاف ، ومعمورتا الارجاء ، بالوفــاق والائتــلاف ، ونعلق العهد بالكعبــة المنورة والروضة ...مطهــــــرة .

فاذا تم هذا الشأن ، وأسس هذا البنيان ، صفى مابين الاخوان ، نوجه الهم الى ثمانة غرابا ...ا نية ويمشي عز ونصــر ، وتمــــاة عثمانيــة ، تستفتح بها ـ ان شــاء الله ـ بلاد الاندلس ...يكون على ايديهم انقاذها من الاعداء .

والله ـ تعالى ـ لايخلي افق المملكتيــن من اقمار المنيرة ، ويجعل ثغور الثغور ببقائها ضاحكة مستبشرة ، ان شاء الله ـ تعالــى .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لانبي بعده ، تحريرا بأوائل رجب الفرد من عـام ثمانية وثمانين وتسعمائة . المقام بقسطنطينيــة المحروســة (١)

---

(١) نقل نص هذه الرسالة عن مجلة الدراسات العربية واليهودية جزء ٦ سنة ١٩٥٧ وهو ملحق لمقال : داريو كابانيلاس (أو . ف . م) . وانظر النص الاصلي في المكتبة الوطنية لمدريد ، مخطوط رقم (٧٤٥٣) .

ملحق رقم (2) :

رسالة السلطان احمد المنصور الى العلج علي وزير البحرية العثمانية وبايلربك الجزائر.

الحمد لله ... المكانة التي لها في تدبير الاساطيل الجهادية الخاقانية الاثر المشهور ، والمكانة التي لها في تدبير الاساطيل الجهادية العثمانية التنويه المضمون والصيت المذكور ، العازم الذي لاينفك متقاصدا تقدرها في الابواب العثمانية التنويه المضمون والصيت المذكور ، العازم الذي لا ينفك متقاصدا غاية النفوذ متون البحور ، والامين الذي له في ايثار الجهاد السند المروى والخبر المأثور ، غاية الابدال المعظم ، الماجد الفخم ، الابن الافضل ، الاسعد الاكمل ، الاثير الاحظى الاصيل الارضى الازكى الاسمى العماد الاحمى ، الارقى الاسعد ، الانوه الامجد ، الظاهر النزيه المعتبر الوجيه ، الاود الاحب ، الاتجد الانجب ، الانبه الاوجه ، الاسنى الاسعد ابي الحسن علي باشا ابقاه الله ودمته محروسة الى الاعتناء بتجديد المعالي والشرائف ، ولا زال رفيع المكانة لدى الجناب المؤيد العثماني ، كريم الصفحة ، رائق الصفحة ، يعتمد بجانبكم ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي باسمه العظيم تفتتح المبادى ، وبقدرته تم النصر في كل رائح وغادى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الانبياء والرسل ، والذخيرة العظمى التي هي للمؤمنات غاية التوسل ، وعلى آله بدور كماله ، وعصابة نصره وجلاله ، واصحابه الذين اوضحوا الشرائع وارصفوا للمناضلة عنه العيون الروائع ، فانا نتبناه اليكم كتب الله لكم من صالح الاعمال ماتحمد عاقبته في المآب ، وسنى لكم من المساعي الجميلة مايؤكد حظ وتكم بذلك الجناب ، من حضرتنا العالية ، ومن عساكرنا الماضية فاس حرسها الله ـ ولا ناشئ بفضل الله الا ماعود ، لهـذه المثابة الحسنية من المواهب الجزيلة النماء ، والعوارف المستوجبة لاجزاء الحمد والثناء ، لله المقدسة .

هذا وعن ودكم كانت تتقدم الينا على البعد اموال البحار ، وحرف ولائكم مازالت تهب به على القلوب على شحط الدار ، نسمات الاسحار ، وعقائد اخلاصكم بلسان الاشتهار هنا وهناك في القديم تتلى ، وعقائل مما فاتكم على منصات الوفاء تجلى ، والاعتقاد الجميل بجنابكم صار لنا قبل دأبا وديدنا ، وعلى دعائمه الثوابت بنا أسسنا عهدنا ، والاستمرار بموالاتكم كان امره مستفيضا والحمد في الله على الدوام يأتي لنا من تلقائكم وبيننا ، الى ان ورد خبر التحرك الذي كان لهذه الناحية ، والاحتفال الذي استنهضتم له عساكر الخاقانية ، من اهل الحاضرة والبادية ، فتأدى الينا عنكم اولا على وجه كان الظن بكم يخالفه ، وعلى تاويل مانا لنعتقد بكم فيه اتباع الهوى واسعافه ، وما زلنا ونحن نعد غرب الشنآن بكم ، ذلك داعيه وسببه ، وتجردكم للعدوان لا لامر اقتضاه واوجبه ، ونرى التفكر في استحالة ودادكم الى ضده ، وانتقال الحب في الله الراسخ من عهده ، وتكدير منهل الاخلاص بعد صفاء ورده ، وانتقاض حكم الولاء بعد تعديل شهوده وتسجيل عقده ، اذ ورد على بابنا رسولنا الآتي من تلكم الابواب العثمانية ، والمؤدى لفضيلة الوقوف بتلكم العتبات الكريمة الخاقانية فاذن فانهى الينا بما تلقاه منكم ، وصحت به روايته الثابتة عنكم ان تحركتم ذلك على ماعنيتم ماكان منكم لباعث نفسي ، ولا لغرض كان لكم فيه مغنوى ولا حسي ، وانتم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار ، محمولين في أمره من هناك على حكم التعسف

والاضطرار ، ومجبورين على ارتكابه جبرا ما أغنى عنكم فيه الاعتذار ، وانتم او تركتم ومرادكم ، وخليتم واعتقادكم ، ما كنتم تضرمون ابدا لهذه الجهة نار فتنة ولا دخن ولا تركبون بقصدها الاهواء تهيجها ولا الامر راحلة تمشي على حزن ، فعندما قرأنا عنكم هذا النبأ المتأول ، والعذر الواضح لمن تأمل ، زال عن النفوس ذلك الامتعاض ، واستحالت الى المحبة القديمة الجواهر والأعراض ، وبقى الود في الله اذ ذاك مصون المروءة والاعراض ، فأجبنا الكم عن كتابنا هذا صحبة رسولينا الموجهين لتلكم الابواب العثمانية ، والعتبات العلانية ، الشيخ الامام ، العالم الذي له على صهوات المعارف المنزل والالمام ، الفقيه العلامة ، المحقق الفهامة ، المحدث المشارك الجامع ، الاعرف الادرى البارع ، المرتدى من العفة والديانة رداء ، والناهض من النزاهة والمروءة لواء ، قاضي قضاة آفاقنا المغربية وعساكرنا المظفرة العلوية ، السيد ابي الفضل قاسم بن علي الشاذلي ورفيقه القائد الارضى ، والوجيه الاحظى ، الازكى الاسنى ، الأجمل الاسمى ، الارفع الارقى ، الأبر الاتقى ، الانزه ، الانقى ، الانوه الاثير ، الافضل ، الخاير ، المعتبر المرعى ، الأصيل العرى ابي زيد عبد الرحمن بن القائد الأمجد الأفضل ، الأكمل ، الأنجد ، الأثير الأحظى ، الأصيل الانجب ، الوجيه النزيه ، المعتبر النبيه الأرضى الاسمى ، الاعلى الاسنى أبي علي منصور بن سعيد المورد ، وصل الله سعادتهما ، وأدام بمنه وفادتهما ، فتعلموا منهما ان شاء الله ان ربع الوداد في الله مازالت تعاوره من اللاذعنا عوارض حوادث ، وتجوده من ولائنا سحائب تروضه ذلك الجناب الماحل ، وتتعرفوا منهما ان داعي المحبة منا الداعي الى الوفاء على الدوام مناضل ، وسيف التواصل بيننا لحبل القطيعة باتر ، ورسم التوصل عندنا ليس بداثر ، وعهده كل حين لدينا غير عاثر ، وحبكم في الله لا زال يدعوكم داعيه بعون الله الى الاعتناء بمن يرد من قبل هذه الابواب ، على سنن ذلكم الجناب ، وجريا على دابكم الجميل المعتاد ، واعتناء منكم بهذا الجناب الاعتناء الواضح الاشهاد ، والله تعالى يمن عليكم ويديم بمنه بقاءكم ، والسلام الأتم الأعطر عليكم[(1)]

---

(1) انظر نص هذه الرسالة في رسائل سعدية لعبد الله كنون ، تطوان (المغرب) ١٩٥٤ ص ٦٨ — ٧٢ .

ملحق رقم (3)

الرسالة الجوابية من السلطان العثماني "احمد" الى السلطان السعدي "زيدان"

الحمد لله الذي اعلى معالم الاسلام وبشر المجاهدين في سبيله بالنعيم المقيم في دار السلام وامر المؤمنين بتوفيق المجاهدين غاية الاكرام وجعل عبدة الاصنام وعبدة المشركين وبردة الملحدين منكوسة الرؤوس ومنكوسة الاعلام والصلوة والسلام على مظهر الحق من الباطل ومارق شرك الشرك بشرعة المبشر بالدوام سيدنا ونبينا محمد المبعوث بسيف الجهاد وحسام الانتقام على قاصدي حصين حصن الايمان والاسلام وعلى آله العظام واصحابه الكرام الذين سعوا في ميادين الدين باقدام الاقدام صلوة وسلاما دائمين الى قيام الساعة وساعة القيام .
اما بعد نسلم على ذلك المقام الجليل سلام اكرام وتبجيل ونثني الى ذلك المجد الجزيل أحسن الثناء الجميل فننهي الى المقر العزيز والمحل العزيز لأحب احبابنا وأصدق اصدقاء ابوابنا عضد دولتنا الباهرة الزاهرة عضد صولتنا القاهرة حارس الحصون الغربية لممالك الاسلام فارس مضمار اركان كل مرام مشيد اركان الانتقام مؤيد أمر الاعتصام بالعروة الوثقى التي مالها من انفصام مبدد فرق البغي والاختصام أليفنا المعظم العلي الشان حليفنا المتصل السخي المنان صاحب العز والمجد والسيادة رفيع الشأن المولى زيدان حفظه الله الملك المنان عن تطرق مكايد الزمان وادامه على الخير وامن الحدثان انه قد وصل الينا من مقامكم الشريف مع [illegible] الملك المدابج كتابان كريمان وبدر الاعلام كتابهما الذان يتعطر بروائح انفاسهما النفيسة مشام الآفاق وتفوح من مضامينهما فوايح تأكيد الميثاق وبحسن الوفاق المبعوثان مع العالم العابد الورع الزاهد العارف جامع المحامد والأدب والمعارف مفخر أرباب التمييز الشيخ عبد العزيز احدهما اجتمع فيه مراد المحبة والوداد وبرز انوار بدر المراد من افق الفؤاد (كذا) وذكر فيه محامد والدنا المرحوم السلطان الماجد ومآثر اجدادنا الأنام الأماجد السلاطين العثمانية والخواقين الايمانية الذين كانوا خلفاء الله تعالى في ارضه واقطاره ، ولو كانت المحامد وجها لكانوا غرتها ولو كانت الحمية بدرا لكانوا نوره وسناه ولو كانت الشجاعة غصنا لكانوا نوره وجناه وسار فيه ما كان بين آباؤكم الكرام واسلافنا العظام الذين حصل لهم تمام الصيت وعظيم الفخار والذكر الجميل الذي عم زوايا الآفاق والاقطار من العجب الذي لا يقدر جواد القلم ان يحيط حمايم بيانه (كذا) بحبات النقاط وشبكات الحروف من الانخراط سلك الوفاق والالتئام الذي ينال به في احياء الدين واعزازه كل مرام وما أوجب ارسال اذيال التأخير والامهال من الاشتغال بقتال الكفار الطاغين ومحاربة اعداء الدين واحزاب الشياطين والمجاهدة في رفع آفتهم والاستقصاء في استيصال شأفتهم (كذا) وبين فيه توجهكم بعد ما انمحت تلك الاقطار رآسة الاطراف وصارت بكفاية مجاهدتكم سالمة الاكناف الى اظهار ما ادخرتم في البال من ارسال الكتاب وتجهيز رسلكم (كذا) ليبينوا ما عندكم من جميل الموالاة والمصالحة والمشافهة ويقرروا ما انتم عليه من حسن عهود الآباء والاجداد موافقة والتزام الحسن معاودتهم من ديارنا وانصرافهم عن اقطارنا بما يكون

سببا لاعزاز اهل الهدى واذلال الكفرة المترددين في هاوية الردى وباعثا لما يشد به من الاسلام العصا وتشد بعزته دعامة من كفر وعصى واما المكتوب الآخر فهو ايضا مصحوب بالمبالغة في تنويه المحبة المغروسة وتروية المودة المؤسسة المحروسة ويشتمل على ذكر ما خصه الله تعالى بالسلاطين العثمانية والخواقين الايمانية من الخصائل التي يتضايق عن عدها طوق المحصي ويتقاصر دون حصرها باع المستقصي وغيرهما اعترضهم في البحر من اساطيل العدو واباطين اهل الطغيان والعتو حتى ازعج انتقاؤهم ما اقتضى قفولهم وايابهم وعن مبادلة ارسالهم على بلاد بعد ما تعذر السفر من جهة الجزائر لمانع وقع هناك ومنبيء عن ابتداء الكفرة وعهدهم الصلح بين طوائفهم الفجرة وعن قصدهم والعياذ بالله على البلاد الاسلامية والديار الايمانية أذلهم الله تعالى وخذلهم وصرف وجوه العسف قبلهم وعن استمدادكم منا صرف همتنا العليه الى ابطال طريق المدد الذي يتقوى به اعتضادهم ويتمشى استنادهم واعتمادهم وعنايتنا باعانة ولي الهداية معروفة في كل حين الى نصرة اولياء الدين وعناية اعداء الله الكافرين حتى لا يمس المسلمين شر العدو ومضرته ولا يصدم المؤمنين فساد اهل الشرك ومضرته ولا يخفى عن علمكم ان من عادتنا الجميلة الموروثة من آبائنا واجدادنا اصحاب الآثار الجليلة ان نتلقى من يرد علينا ويرغب الينا من البلاد الشاسعة بالترحيب والترحيب باسداء له بما الانس ليفوز من سفره بحبيب وسعوفي دفع مايرجعونه من ساق الجد ونستفرغ في تحصيل مايطلبونه اقصى الوسع والجهد فلما قرأت (كذا) علينا آيات اخلاصكم واستقرت الينا مواد ودادكم واختصاصكم واحضر رسلكم في حضرتنا العلية في مقام المثول وعرضوا علينا هدايا الجبية المتلقاة بالقبول اثنينا على تلك الاخلاص الطاهرة والاخوات الزاهدة ثناء متأرج النفحات متبين الصفحات فما دمتم في مراعاة الحقوق ساعين ولدولتنا الاسلامية راعين لاتلقون من سدة العز والاقبال سوى الندار بحين الاعزاز والاجلال رصود التواد من التضاد والابطال من الاختلال ونرجو من الله ذي الرحمة والرأفة ان لا يفسد بعد زمان المؤالفة بطوله ارض بعد المسافة بيننا وايام عن مسافته ومخافة وما ما ادى في ذلك الدين الجليل من المساعدة بالسعي الجميل في ابطال اعمال اهل التضليل فنحن باذنه سبحانه وتعالى نتقيد بأدائه راجين منه تعالى عونه واحسانه ونرسل الاوامر الشريفة الى امرائنا المحافظين في حدود البصرة ونأمرهم في ذلك الفتوة والنصرة ثم لا يخفى عن علمكم انه وقع عندنا واتفق لدينا شر الكفار وبعض الاعراب الاشرار قهرهم الله القهار وانزلهم دار البوار في بعض ديار تلك الاقطار مثل الحرايين (كذا) والمعمورة وما يحاذيهما من القلاع المشهورة وعزم من اخذها وانتزاعها وتطهير تلك الاراضي وبقاعها فكان اللائق بكم والواجب على ذمتكم ان تستمدوا بنا وتستعينوا باعتابنا قبل ان يتصادم الصفوف وتتزاحم الزحوف فنحن بعون الله وطوله قادرون على ايصال عسكر يضيق عليهم الطريق والمسالك ويلجئهم الى المضايق والمهالك ونخلص المسلمين من بوائق مكرهم وحوايق غدرهم وتكون اعانتنا هذه مرغمة لانوف الكافرين ومكسرة لبعض اهواء الماكرين المتجاسرين حتى ينقطع اطماع اعدائكم من تلك البلاد وينقلع منها اسباب الشر ومواد الفساد ولا يشغلنا عن الامداد بعون رب العباد اشتغالنا بما نحن عليه من اعداد لوازم الجهاد لاستئصال اهل الرفض والالحاد وكسر شوكة اهل الضلال والفساد وتجهيز العمارتين المحافظتين الى البحرين المسجورين بعساكرنا المنصورة حفظهم الله مما يورثوا الشين في الدارين ونحمد الله على ما اسبغ علينا من جزايل آلائه ونستزيده سبحانه جلائل نعمائه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . حرر هذا السفر المبارك في اوائل صفر الخير في سنة ست وعشرين والف المجرة من الهجرة على صاحبها الصلوة والسلام ما ختمت الصلوة بالسلام .

المصادر والمراجع

أ ـ الوثائق المخطوطة والمطبوعة والمصورة : المغربية والعثمانية والاوربية

1 ـ مهمة دفتري (وثائق مركز الدراسات التاريخية ، مصورة من أرشيف رئاسة الوزراء التركية) .

2 ـ منشآت السلاطين (لفريدون بك) ، جزآن . 1264 هـ.

3 ـ رسائل سعدية (عبد الله كنون) . تطوان 1954 .

4 ـ الوثائق المنشورة في المصادر والمجلات المغربية والعثمانية والاوربية ، كمجلة الوثائق وتطوان ، وأرشيف ماروكان ، والاندلس، والمجلة التاريخية المغربية وغيرها .

5 ـ مجموعة الوثائق المنشورة تحت عنوان Sources Inedites de l'Histoire du Maroc (S.I.H.M.) أي المصادر المغفلة لتاريخ المغرب ، جمع وتحقيق هنري دو كاستري وآخرين ، 21 مجلدا عن الدولة السعدية .

6 ـ مجموعة من وثائق مصورة من أرشيف سيمانكاس العام .

7 ـ الوثائق المغفلة لبربروداي Documents Inedits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique (1506 - 1574), ALGER 1875.

ب ـ المصادر والمراجع العربية

1 ـ الكتب المخطوطة والمطبوعة :

* ابن ابي دينار : (ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني) : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، ط 3 تونس 1967 .

* ابن ابي الضياف (احمد) : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، ج 2 تونس 1963 .

* ابن ابراهيم (عباس) : الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ، 5 اجزاء فاس 1937 .

* احمد بابا (التمبكتي) : نيل الابتهاج بتطريز الديباج . فاس 1313 هـ .

* الاخضري (عبد الرحمن) : متن السلم المرونق في علم المنطق دمشق مخطوط .

* الافراني (او الوفراني : محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي) :
ـ نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي ، (تصحيح هوداس) آنجي 1888 م .
ـ صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر . فاس 1309 هـ .

* بازمنة (محمد مصطفى) : ليبيا في عشرين سنة من حكم الاسبان . طرابلس 1965 م .
* بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الاسلامية . (ترجمة : نبيه امين فارس ومنير البعلبكي) ، ط 5 بيروت 1968 م .
* البوريني (الحسن بن محمد) : تراجم الاعيان من ابناء الزمان . جزءان، دمشق 1963 م .
* التامنارتي (عبد الرحمن) : الفوائد الجمة في علوم الامة . (ترجمه الى الفرنسية : جوستينار) فرنسا 1953 م .
* التمجروتي (ابو الحسن علي) : النفحة المسكية في السفارة التركية . (ترجمة المقدم / دوكاستري) المغرب 1929 م .
* التنسي (عبد الجليل) : نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان . باريس 1852 م .
* الجنابي (مصطفى بن حسين) : البحر الزخار والعلم الديار . (في مستلات مخفلة لفانيان) الجزائر 1924 م .
* جودت (احمد) : تاريخ جودت (ترجمة عبد القادر افندى) بيروت 1308 هـ .
* الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ الجزائر العام . ج 2، الجزائر 1955 م .
* حجي (محمد) : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي . الرباط 1964 م .
* حسون (علي) : تاريخ الدولة العثمانية . دمشق 1980 م .
* الحفناوي (ابو القاسم) : تعريف الخلف برجال السلف . جزءان، الجزائر 1906 م .
* حميده (عبد الرحمن) : المملكة المغربية . (دراسة في الجغرافية البشرية) . القاهرة 1972 م .
* ابن خلدون : كتاب العبر . ج 7، بيروت 1977 م .
* داود (محمد) : تاريخ تطوان . مجلد 1، ج 8 . تطوان 1959 م .
* ابن زاكور : نشر ازاهر البستان فيمن اجازني بالجزائر وتطوان .
* زاديه (عبد القادر) : مملكة سنغاى في عهد الاسقيين 1493 - 1591 ، الجزائر 1971 م .
* الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . ج 1 .
* الزركلي (خير الدين) : الاعلام . 9 مجلدات وثلاثة مستدركات بيروت الطبعة الثالثة .
* الزياني (ابو القاسم احمد) : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب . ج 1 باريس 1886 م . (ترجمه هوداس)
* ابن زيدان (عبد الرحمن) : اتحاف اعلام الناس . ط 1 ، ج 1 الرباط 1929 م .
* سامح (عزيز) : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية (ترجمة عبد السلام ادهم) ط 1 ، بيروت 1969 م .
* سعد الله (ابو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن 10 الى القرن 14 هـ) الجزائر 1981 م
* السعدي (عبد الرحمن) : تاريخ السودان (تحقيق هوداس) . باريس 1964 م .
* السفياني (ابو العباس محمد بن محمد) : صناعة تسفير الكتب وحل الذهب . ط 2 . باريس 1925 م .

* السلاوي (ابو العباس احمد بن خالد الناصري) : كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (تحقيق وتعليق ولدي المؤلف : جعفر ومحمد) الدار البيضاء 1955م .
* السوسي (محمد المختار) : سوس العالمة . ط.10 الرباط 1379 هـ .
* عبد القادر (نور الدين) : صفحات من تاريخ مدينة الجزائر . قسنطينة 1965م .
* ابن عسكر (محمد بن علي) : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر . فاس 1309 هـ (ط. حجرية)
* العقاد (صلاح) : المغرب العربي . ط. 3 مصر 1969م .
* ابن العماد (الحنبلي) : شذرة الذهب في اخبار من ذهب . ج . 8 مصر 1351 هـ .
* عنان (محمد عبد الله) : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين . ط. 3 . مصر 1966م .
* العياشي (ابو سالم) : ماء الموائد (رحلة) . جزءان . فاس 1316هـ . (طبعة حجرية) .
* غيث (فتحي) : الاسلام والحبشة عبر التاريخ . بدون تاريخ الطبع ومكانه .
* فارس (محمد خير) : تاريخ الجزائر الحديث . دمشق 1969م .
— تاريخ المغرب الحديث والمعاصر دمشق 1982م .
* فريد (محمد) : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ط.2 مصر 1896م .
* الفشتالي (عبد العزيز) : مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفاء . (تحقيق عبد الله كنون) ط. 2 الرباط
— مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء (تحقيق عبد الكريم كريم) الرباط 1972م .
* ابن فضل الله (العمري) : مسالك الابصار .... (في مستخلصات مخطوطة لفانيان) (الترجمة الفرنسية) الجزائر 1924م .
* ابن القاضون (عبد الكريم القسنطيني) : منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية (مخطوط)
فاس 1304 هـ .
* القادري (عبد السلام) : قشر الثماني .
* ابن القاضي (ابو العباس احمد المكناسي) :
— جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس . فاس 1309هـ .
— درة الحجال في اسماء الرجال . ط. 1 . 3 اجزاء القاهرة وتونس 70/ 1971م .
— المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور . (مخطوط) .
* الكتاني (محمد) : سلوة الانفاس . 3 اجزاء فاس 1313 هـ .
* الكراسي (محمد) : عروسة المسائل في تاريخ تطوان . لمحمد داود ، المجلد الاول . تطوان 1959م .
* كرد علي (محمد) : الاسلام والحضارة العربية . جزءان القاهرة 1968م .
* كريم (عبد الكريم) : المغرب في عهد الدولة السعدية . الرباط 1977م .
* كنون (عبد الله) : النبوغ المغربي في الادب العربي . جزءان . تطوان 1964م .
* ابن المبارك (احمد) : تاريخ قسنطينة . (تحقيق بونار رابح) ، ط. 10 . الجزائر 1971م .

تاريخ الدولة السعدية التاكدارتية. (تصحيح جورج كولان)، الرباط 1934م.

* المجهول: — تاريخ الدولة السعدية التاكدارتية. (تصحيح جورج كولان)، الجزائر 1934م.

— غزوات عروج وخير الدين. (تصحيح وتعليق عبد القادر نور الدين)، الجزائر 1934م.

مصر 1284م.

* المحبي (محمد): خلاصة الاثر. (4 مجلدات)

* المدني (احمد توفيق): حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492 — 1792) ط.1، الجزائر 1968م.

* ابن مريم: البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان. (تحقيق ابن شنب، محمد) الجزائر 1908م.

* المقري (احمد ابو العباس):
— روضة الآس العاطرة الانفاس. الرباط 1964م.
— نفح الطيب. (تحقيق الدكتور احسان عباس)، 7 اجزاء بيروت 1968م.

* المهدي (محمد الفاسي): ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع. فاس 1313هـ.

قسنطينة 1980م.

* المهدي (محمد): أم الحواضر في الماضي والحاضر.

* مؤنس (حسين): الشرق الاسلامي في العصر الحديث. (ط.2)، القاهرة 1938م.

* الورثيلاني (الحسين بن محمد): نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار. (تحقيق محمد بن شنب) الجزائر 1908م.

* الوزان (الحسن بن محمد، المدعو: ليون الافريقي):
وصف افريقيا. (تحقيق عبد الرحمن حميدة) السعودية 1399هـ.

* اليوسي (الحسن بن مسعود): المحاضرات. فاس 1317هـ. (طبعة حجرية).

2 — المجلات العربية

* مجلة الاصالة: تصدرها وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية. الجزائر

البوعبدلي (المهدي): اضواء على تاريخ الجزائر في العهد العثماني من خلال مخطوط الناشر الجمماني. عدد 8 1972م.

— مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ. عدد 7 1972م.

التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني. عدد 23 1975م.

الصباغ (ليلى): ثورة مسلمي الاندلس. عدد 27 1975م.

ابن آشنهو (عبد الحميد): الايام الاخيرة لملوك بني زيان عدد 27 1975م.

* مجلة البحث العلمي: تصدر في الرباط بالمغرب.

ابن تاويت: سبتة الاسيرة. عدد 27 1977م.

التمسي (العلوي): اصول المغاربة. عدد 23 1974م.

حجي (محمد): المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني. العددان 6، 7، 65/ 1966م.

اللوه (امينة): قضية العرايش من خلال كتاب: L'ARACHE
لمؤلفيه: Carlos (R.) & Tomas (G.) عدد 27 1977م.

* مجلة تاريخ وحضارة المغرب تصدر في الجزائر . عدد 3 1967

الرقية (محمد التلمساني) : الزهرة النيرة .

* مجلة التاريخ : تصدر في الجزائر عن مركز الدراسات التاريخية . عدد 4 1977

سعيدوني (ناصر الدين) . ندوة حول الوثائق العثمانية بالجزائر .

* المجلة التاريخية المغربية — تونس . عدد 10/ 11 1978

حجي (محمد) : النشاط الثقافي في المغرب في عهد الدولة السعدية . عدد 2 1974

الساحلي (خليل): تقليد صالح باشا ولاية الجزائر سنة 1552 . عدد 10/ 11 1978

التميمي (عبد الجليل) : الخلفية الدينية للصراع الاسباني — العثماني في القرن السادس والسابع عشر . عدد 5 1976

— رسالة من اهالي مدينة الجزائر الى السلطان سليم الاول سنة 1519

الساحلي : سنوات الازدهار وازمات الامبراطورية العثمانية تعريب وتقديم التميمي . عدد 12 1978

* مجلة تطوان : تطوان المغرب . عدد 3/ 4 1958/ 1959

ابن عبد الله (عبد العزيز) : البحرية المغربية والقرصنة . عدد 3/ 4/ 5/ 6/ 7/ 8/ 9/ 10 958—1965

ابن تاريست : من زوايا التاريخ المغربي . عدد 6 1961

ابن تاويت : السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا . عدد 6 1961

حكيم محمد ابن عزوز : سفارة بدرو فنيدا الى المغرب (1579— 1661)

* مجلة دعوة الحق : المغرب . 1965

الكتاني (محمد عبد المالك): مدخل الى دراسة الحضارة المغربية . 1964

الخطيب : (عبد اللطيف) : تاريخ حملة البرتغال على المغرب في العهد البرتغالية . عدد 6/ 7 1965

المنوني : — علاقات المغرب بالشرق في عصر المريني الثاني . عدد 2 1965

— اساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدى . 1965

حركات (ابراهيم) : جمهورية ابي رقراق .

* مجلة كلية الآداب — بغداد . عدد 16 1973

القيسي (حبيب) : نظرات في بعض الملامح للحياة الروحية والفكرية في المغرب .

* مجلة مجمع اللغة العربية — دمشق . المجلد 51 1976

محمد المنوني : ملامح من تطور المغرب العربي في بدايات العصور الحديثة .

* مجلة المناهل : — المغرب . عدد 7 1976

الجمل (شوقي عطا الله): الحضارة الاسلامية في غرب افريقيا . عدد 2 1975

— الحسن بن محمد الوزان . عدد 8 1977

— علاقة المغرب بالاقاليم الصحراوية الواقعة جنوبه . عدد 9 1977

— محمد العياشي وجهاده ضد الاسبان والبرتغال . عدد 3 1975

— العلاقات الانجليزية المغربية . عدد 9 1977

التازي (عبد الهادي) : سفارة انطوني شيرلي وعلاقتها بالتدخل الاوربي في الخليج

ج ـ المصادر والمراجع الأجنبية

A — OUVRAGES:

1- ARVIEUX: Mémoires de chevalier d'Arvieux, t.5, Paris 1735.

2- BARGÈS (l'ABBE): Complément de l'histoire des Beni Zéyan. Paris 1887.

3- " " : Histoire des Beni Zeyan. Paris 1852.

4- " " : Relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan sous les Beni Zéyan, 1vol., Paris 1853.

5- BEL (A.) et RICARD (P.): Le travail de la laine à Tlemcen. Alger 1913.

6- BERTHIER: Les anciennes sucreries du Maroc. Système hydrolique. Etude archiologique et d'histoire économique. Rabat 1966.

7- BOULET (l'Abbé): Histoire de l'empire des Chérifs en afrique. Paris 1733.

8- BRAUDEL (F.): La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de PHILIPPE 2, 2vol., Paris 1966.

9- BRUNSCHVIG: Deux récits de voyage inédits en afrique du nord au 15ᵉ siècle, Paris 1936.

10- CARETTE (E.): Du commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale et les états Barbaresques, Paris 1844.

11- CENIVAL (P. DE): Description de l'Afrique de Séuta au Sénégal, par Valentin Fernando (1506-1507). Portugal 1698.

12- CHENIER (DE): Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'empire de Maroc, 3 vol., Paris 1787.

13- COINDREAU (R.): Les corsaires de Salé. Paris 1948.

14- COLOMB (M.): Le passé de l'Algérie, in Initiation à l'Algérie.

15- COUR (A.): Les établissements des dynasties des Chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830) Paris 1904.

16- DAN (R.P.): Histoire de la Barbarie et ses corsaires. Paris 1649.

17- DENICE: L'Afrique au 16e siècle et le commerce Anversois. Anvers 1937.

18- DEPONT(O.)et COPPOLANI(X.): Les confreries religieuses Musulmanes. Alger 1897.

19- ESTHERHAZI (W.): La régence d'Alger sous la domination Turque. 1 vol., Paris 1840.

20- FAGNAN: Extraits inédits rélatifs au Maghreb. Alger 1924.

21- FEY (H.L.): Histoire d'Oran avant,pendant et après la domination Espagnole. Oran 1858.

22- GODARD (l'Abbe): Histoire du Maroc, 2vol., Paris 1860.

23- GONZALEZ (J.DE): Essaie chronologique sur les musulmans célèbres de la ville d'Alger. Alger 1886.

24- GRAMMONT (H.DE): Histoire d'Alger sous la domination Turque, 1515 - 1830 , 1 vol., Paris 1887.

25- HAEDO (F. DIEGO DE): Histoire des Rois d'Alger.(trad. H. DE GRAMMONT), Alger 1881.

26- HAMMER (J.): Histoire de l'empire Ottoman (trad.,J.J. Hellert) Paris 1837.

27- HAUSSER: La préponderance Espagnole (1559 - 1660), Paris 1946.

28- JULIEN (C.A.): Histoire de l'afrique du nord. Paris 1966.

29- JUSTINARD: Un petit royaume Berbère le"TAZEROUALT". Paris 1954.

30- LAFOUSSE (DE): Relation du Maroc et du Soudan à travers les âges. Paris 1924.

31- LAROUI (ABDELLAH): Histoire du Maghrib, t. 2. Paris 1975.

32- LAVOIX (H.): Catalogues des monnaies musulmanes, t. 1. Paris 189[illegible]

33- LEON L'AFRICAIN(ou:Hassen Ibn Med Al-Wazan): Description de l'Afrique,(trad. de l'Italien par A. EPAULARD), 2 vol., Paris 1956.

34- MARMOL (L. DE CARAVAJAL): Description générale de l'Afrique. (trad. PERROT D'ABLANCOURT). Paris 1667.

35- MAS-LATRIE (DE):Traité de paix et de commerce et documents divers. Paris 1872.

35 bis- MARTINET & Autres :Histoire du Maroc, Casablanca 1967.

36- MASSON (P.): Histoire des établissements et du commerce Français dans l'Afrique Barbarèsque. Paris 1903.

37- MERCIER (E.): Histoire de l'Afrique septentrionale, 3 vol., Paris 1891.

38- MICHAUX (B.): Villes et tribus du Maroc. Région de Doukala. Paris 1932.

39- MONCHICOURT (CH.): Etudes Kairaouannaises (1450 - 1592), Paris 1909.

40- " " " : L'Expédition Espagnole de 1560 contre l'Ile de Djerba. Paris 1913.

41- MONROY: Du commerce des peuples de l'Afrique septentrionale. Paris 1845.

42- " " : Précis de l'histoire du commerce de l'Afrique septentrionale. Paris 1852.

43- MONTAGNE (RO.): Les Berbères et le makhzen dans le Maroc. Paris 1930.

44- MONTRAN (R.): Istambul dans la seconde moitié du 17ᵉ siècle. Paris 1962.

45- PARIS (R.): Histoire du commerce de Marseille dans le Levant. Paris 1957, t. 5.

46- PIERROT DESELLIGNY (I.): Traité d'Antoine de Bourbon avec le Chérif de Fez et tentative d'expédition au Maroc. Macon 1891.

47- PIQUET (V.): La civilisation de l'Afrique du nord, Paris 1917.

48- PRAX (M.): Commerce de l'Algérie avec la Mecque et le Soudan. Paris 1849.

49- PRIMAUDAIE(ELIE DE): Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête Française. Paris 1861.

50- PROVENCAL (E. LEVIE): Les historiens des Chorfa au Maroc. Paris 1922.

51- RICARD (P.): Les arts et industries indigènes du nord de l'Afrique (Arts Ruraux). Fez 1918.

52- ROTALIER (DE): Histoire de la régence d'Alger et de la piratrie des Turcs dans la méditerranée, 2 vol., Paris 1841.

53- ROZET et CARETTE: Algérie. Tunis 1980.

36- MASSON (P.): Histoire des établissements et du commerce Français dans l'Afrique Barbarèsque. Paris 1903.

37- MERCIER (E.): Histoire de l'Afrique septentrionale, 3 vol., Paris 1891.

38- MICHAUX (D.): Villes et tribus du Maroc. Région de Doukala. Paris 1932.

39- MONCHICOURT (CH.): Etudes Kairaouannaises (1450 - 1592), Paris 1909.

40- " " " : L'Expédition Espagnole de 1560 contre l'Ile de Djerba. Paris 1913.

41- MONROY: Du commerce des peuples de l'Afrique septentrionale. Paris 1845.

42- " " : Précis de l'histoire du commerce de l'Afrique septentrionale. Paris 1852.

43- MONTAGNE (RO.): Les Berbères et le makhzen dans le Maroc. Paris 1930.

44- MONTRAN (R.): Istambul dans la seconde moitié du 17ᵉ siècle. Paris 1962.

45- PARIS (R.): Histoire du commerce de Marseille dans le Levant. Paris 1957, t. 5.

46- PIERROT DESELLIGNY (I.): Traité d'Antoine de Bourbon avec le Chérif de Fez et tentative d'expédition au Maroc. Macon 1891.

47- PIQUET (V.): La civilisation de l'Afrique du nord, Paris 1917.

48- PRAX (M.): Commerce de l'Algérie avec la Mecque et le Soudan. Paris 1849.

49- PRIMAUDAIE(ELIE DE): Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête Française. Paris 1861.

50- PROVENCAL (E. LEVIE): Les historiens des Chorfa au Maroc. Paris 1922.

51- RICARD (P.): Les arts et industries indigènes du nord de l'Afrique (Arts Ruraux). Fez 1918.

52- ROTALIER (DE): Histoire de la régence d'Alger et de la piratrie des Turcs dans la méditerranée, 2 vol., Paris 1841.

53- ROZET et CARETTE: Algérie. Tunis 1980.

54- RUFF (P.): La domination Espagnole à Oran, sous le gouvernement du comte D'ALCAUDÈTE (1534-1558). Paris 1900.

55- SOUSA(LUIZ DE): Les Portugais et l'Afrique du Nord, (trad., R. RICARD). Lisebone 1940.

56- TERRASSE (H.): Histoire du Maroc, t. 1,2. Paris 1950.

57- TORRES (DIEGO DE): Relation de l'origine et succès des Chérifs. Paris 1636.

58- VAYSSETTES : Recueil. Constantine 1867.

59- VOULX (DE): Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger. Alger 1853.

B- PERIODIQUES :-

* A.A. (Al Andalus), GRANADA España.

1- CABANELAS (R.): Cartas del Sultan de Marruecos a Filipe 2. t. 23, 1958.

* A.F.L. (Annales de la Faculte des Lettres), Aix-En-Provence.

2- LE TOURNEAU (R.): Decadence Sâdienne et anarchie Marocaine au 17ª siècle, t. 32, 1958.

* A.I.E.O. (Annales de l'Institut d'Etudes Orientales), PARIS.

3- RICARD (R.): Le commerce de la Barbarie et l'Empire Portugais. 1936.

4- " " " : Le commerce Génois au Maroc. (1415 - 1550), t. 3, 1937.

* A.M. (Archives Marocains), PARIS.

5- JUSTINARD : Carnet d'El-Mansour, t. 29, 1933.

6- MICHAUX- BELLAIRE(E.): Les musulmans de l'Algérie au Maroc t.11, 1907.

* B.H.F.A.N. (Bulletins Historiques de la France en Afrique Noire), DAKAR.

7- MAUNY (R.): L'Expédition Marocaine d'Oudan(vers 1543- 1544) t. janvier, avril, 1949.

* B.S.G.A. (Bulletins de la Société Géographique et Archiologique)

8- BASSET(R.): Documents musulmans sur le siège d'Alger, par Charles-Quint 1541. ALGER 1890.

9- CUEVA(F. de la): Les guerres de Tlemcen, trad., BRUNEL. t., 10,11,12,13. ORAN 1890.

* C.T. (Cahier de Tunisie), TUNIS.

10- EMERIT(M.): Trois notes d'histoire Tunisienne, l'apropos de la caravane de Salé, t. 3, 1955.

* H. (Hesperis), PARIS.

11- CASTRIES(H. DE): La conquête du Soudan par AL-MANSOUR (1591), 1923.

12- " " " " : Les septs patrons de Marakech 1924.

13- CENIVAL(P. DE): La légende du juif Ibn Machâl, t.5, 1925.

14- CHAPPELLE(F. DE LA): Esquisse au sahara occidental, t. 10, 1930.

15- MICHAUX BELLAIRE : Les terres collectives du Maroc et la tradition. 1924.

16- RICARD(P.): Le Maroc à la fin du 16º siècle. 1957.

17- RICARD(R.): Les Portugais et le sahara atlantique, t. 10, 1930.

* H.T. (Hesperis Tamuda), RABAT.

18- CAILLE(J.): Consuls Hollandais au Maroc à l'époque des Sultans Sa'diens, t. 11, 1970.

19- DZIUBINSKI(A.): L'Armée et la flotte de guerre Marocaine à l'époque des Sultans de la dynastie Sa'dienne, t. 13, 1972.

20- ROSEMBERGER et TRIKI HAMID : Famine et épidémie au Maroc au 16º et 17º siècles, t. 14. 1973.

* J.A. (Journal Asiatique), PARIS.

21- DELPHIN : Histoire des Pachas d'Alger.(1515-1745). 1922.

* M.E.A.H. (Miscelanea de Estudios Arabes,y,Hebraicos), ESPAÑA.

22-DARIO CABANELAS O.F.M.,:Proyecto de Alianza Entre Los Sultanes de Marruecos Y Tuquia contra FELIPE 2. vol. 9, 1957.

23- VERRONNE(CH. DE): Politica de España,de Marruecos y de los Turcos en los Reinos de Fez, y Tremecen a medidos del siglo 16, t. 3 1954.

24- " " " " : Séjour en Andalousie de deux princes Sa'diens après la bataille d'El-Kasr El-Kébir (1589-1595),t. 16,17.1967/68.

* R.A. (Revue Africaine), ALGER.

25- BOURAS : Gharaib al asfar, trad. ARNAULD, ts.22 a 27

26- BERBRUGGER : Cannes à sucre, t. 32. 1862.

27- " " " : Les époques militaires de la grande Kabylie. 1847.

28- " " " : Les frontières de l'Algérie, t. 24. 1860.

29- " " " : Négociations Hassan Agha et D'Alcaudète, 1865.

30- " " " : Le pignon d'Alger. 1866.

31- BRAUDEL: Les Espagnoles et l'afrique du nord(de1492 a 1577). 1928.

33- CAILLE(R.): Le commerce de l'Angleterre avec le Maroc pendant la secónde moitié du 16ᵉ siècle, 1940.

34- EISEMBETH(M.): Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque, (1516-1830), t. 96. 1952.

35- ERNEST WATBLED :Etablissement de la domination turque en Algérie . 1873.

36- FERAUD : Les Beni - Djellab, t. 136.

37- " " : Lettres Arabes de l'époque de l'occupation Espagnole en Algérie, t. 18. 1886.

38- HAEDO(F. D. DE): Topographia historia general de ARGEL. trad. Berbrugger et Monnereau 1870/71.

39- PLAYFAIR : Episode de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les états Barbaresques avant la conquête Française, ts. 22,23,24. 1878/79/80

40- TERRASSE(H.): Réfléxions sur une frontière, t.100. 1956.

41- WATBLED et MONNEREAU :Négociations de Charles-Quint avec Kheir Edine, t.15.

* R.H.C.M. (Revue d'histoire et de la Civilisation du Maghreb), "ALGER"

42- GRILLON(P.): En marge d'un manuscrit du 16ᵉ siècle. Le registre de la chancellerie du consulat de France à Alger (1579 - 1582), t.1. 1966.

* R.H.D. (Revue Historique et Diplomatique), PARIS.

43- CAILLE(J.): Ambassades et chefs de missions Marocaines aux Pays-Bas, t. 4. 1963.

* R.H.E.S. (Revue d'Histoire Economique et Sociale)"PARIS".

44- DEVISSE(J.): Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée. t. 50. 1972.

* R.H.M. (Revue d'Histoire Maghrebine), "TUNIS".

45- TEMIMI(ABDELMADJID): Lettre de la population Algéroise au Sultan SALIM 1er en 1519, t. 5. 1976.

* R.M. (Revue Maritime), "ALGER".

46- LACOSTE(E.): La marine Algérienne sous les Turcs. 1931.

* R.M.M. (Revue du Monde Musulman), "PARIS".

47- GRAULLE : La mort et le tombeau de BABA AROUDJ, t.24, 1913.

48- " " " : Notice historique sur KALAT BENI RACHED, t. 24. 1913.

* R.O.M.M. (Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée), "AIX - EN - PROVENCE".

49- BOYER(P.): Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger, (du 16e S. au 19e Siècle), t. 1. 1966.

50- " " " : Espagne et Kouko, les négociations (de 1598 à 1610), t. 8. 1970.

51- " " " : Histoire des Beni Ameur, t. 24. 1977.

52- " " " : La revolution des Aghas, ts. 13, 14. 1973.

53- " " " : Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger 2e Congrès Int. et Nord Africain. 1970.

54- LE TOURNEAU(R.): Histoire de la dinastie SA'DIDE, t. 23. 1973.

55- GANDIN(G.M.): La remise de l'Arache aux Espagnoles en 1610, t. 7. 1970.

56- HARAKAT(Ib.): Le makhzane SA'DIEN, ts. 15, 16. 1973.

57- LAWLESS(R.I.): Tlemcen capitale du Maghreb central. Analyse des fonctions d'une ville islamique médiévale, t. 20. 1975.

58- MOUGIN(L.): Remarques sur les débuts du marabout El-Ayachi (1563 - 1641). 1974.

59- VERONNE(CH.DE LA): Séjour en Andalousie des deux princes SA'DIENS(1580-1595),T.7, 1970.

60- " " " " " : Les relations entre le Maroc et la Turquie du 16ᵉ S. au début du 17ᵉ S. (1554 - 1616), t. 1. 1973.

* T.I.R.S. (Travaux de l'Institut de Recherches Saharienne),"ALGER"

61- EMERIT(M.): Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord. 1954.

....

المحتويات